دروس في العقائد والمعارف

محمدتقی سبحانی

رضا برنجکار

بسم الله الرحمن الرحيم

صلى الله عليك يا ولي العصر أدركنا

سلسلة الكتب الدارسيّة ۲

مؤسسة معارف اهل‌البیت علیهم‌السلام ۲۱

سرشناسه	سبحانی، محمدتقی، ۱۳۴۲ -
عنوان و نام پدیدآور	دروس في‌العقائد و المعارف / تألیف محمدتقی سبحانی، رضا برنجکار؛[به سفارش] مؤسسه معارف اهل بیت علیهم‌السلام؛ دفتر تدوین متون درسی[مرکز مدیریت حوزه‌های علمیه].
مشخصات نشر	قم: معارف اهل بیت الطاهرین علیهم‌السلام، ۱۳۹۷.
مشخصات ظاهری	۵۲۰ص.
فروست	مؤسسة معارف اهل‌البیت علیهم‌السلام؛ ۲۱. سلسلة کتب‌الدراسیة؛ ۲
شابک	۴۰۰،۰۰۰ ریال: ISBN 978-600-97716-2-2
وضعیت فهرست‌نویسی	فیپا
یادداشت	عربی
یادداشت	کتابنامه: ص. [۵۰۳]- ۵۲۰؛ همچنین به صورت زیرنویس.
موضوع	اسلام -- عقاید -- راهنمای آموزشی
موضوع	Islam -- Doctrines -- Study and teaching
موضوع	شیعه -- اصول دین
موضوع	Shi'ah -- Pillars of Islam
شناسه افزوده	برنجکار، رضا، ۱۳۴۲ -
شناسه افزوده	مؤسسه معارف اهل بیت علیهم‌السلام
شناسه افزوده	مرکز مدیریت حوزه های علمیه. دفتر تدوین متون درسی
شناسه افزوده	الاداره العلیا للحوزات العلمیه. مکتب اعداد النصوص الدراسیه
رده‌بندی کنگره	BP۲۰۰/۶۶/س۱۷۵د ۴ ۱۳۹۷
رده‌بندی دیویی	۲۹۷/۴۰۷
شماره کتابشناسی ملی	۵۳۴۵۵۰۲

مؤسسه معارف اهل بیت علیهم السلام

دروس في

العقائد والمعارف

تأليف:

محمدتقى سبحانى
رضا برنجكار

مؤسسه معارف اهل‌بیت علیهم السلام
١٣٩٧

دروسٌ في
العَقائِد وَ المَعارِف

محمد تقی سبحانی، رضا برنجکار

ناشر: معارف اهل بیت الطاهرین علیهم‌السلام
چاپ: اشراق نوبت چاپ: اول، ۱۳۹۷
شمارگان: ۱۰۰۰ نسخه قیمت: ۴۰۰۰۰ تومان

مراکز پخش

۱. قم، ۴۵ متری شهید صدوقی (زنبیل‌آباد)، کوی ۳۴، پلاک ۱۵، مؤسسه معارف اهل بیت علیهم‌السلام
کدپستی: ۳۷۱۶۸۶۶۵۱۴ - ۳۷۱۶۸۶۶۵۱۵
تلفن: ۴-۳۲۹۱۴۶۰۲-۰۲۵/ دورنگار: داخلی ۱۵۰

۲. قم، خیابان معلم، مجتمع ناشران، طبقه همکف، پلاک ۱۱، تلفن: ۳۷۸۴۲۴۴۳-۰۲۵

الفهرست

الباب الثالث: العدل الإلهيّ / ٨٥

الباب الرابع: النبوّة / ١٢٧

الباب الخامس: الإمامة / ٢١٧

الباب السادس: المعاد / ٣٣١

الباب السابع: عالم الكون، الإنسان والمجتمع / ٤٢٥

قال أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام:

«مَنْ مَاتَ مِنْكُمْ عَلَى فِرَاشِهِ وَهُوَ عَلَى مَعْرِفَةِ حَقِّ رَبِّهِ وَحَقِّ رَسُولِهِ وَأَهْلِ بَيْتِهِ، مَاتَ شَهِيداً وَوَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللهِ»[1].

المقدّمة

قيل إنّ الإنسان ليس إلّا مجموعة من الأفكار، لكنّ هذا الكلام ليس بدقيق؛ لأنّ الإنسان ذو هويّة متعدّدة الأوجه؛ فله - إلى جانب العقل والفكر- أبعاداً روحيّة وسلوكيّةً وفطريّةً أيضاً. نعم، لا ريب في أنّ الفكر والعقيدة من أهمّ أبعاد هويّة الإنسان؛ بل إنّهما يمثّلان العنصر الأساس والبنّاء في حياة البشر، والعمود الفَقَريّ لوجودهم الحقيقيّ.

ولا شكّ في أنّ غالبيّة النّاس يمارسون أعمالهم دون تأمّل وتفكير في ما يعملون، وأنّ العواطف تغلب العقل في حياة معظمهم؛ ولكن لا ينبّغي أن نتجاهل أنّ العواطف والأحاسيس وكذلك السّلوك البَشَريّ عموماً لا يمكن السّيطرة عليه إلّا بواسطة العقل والفكر، وأنّ منشأ كثير من الأعمال هي الأفكار الخاطئة والعقائد المنحرفة.

ومجمل الكلام: على الرّغم من أنّ الأوجه المختلفة اللهويّة البشريّة تؤدّي دوراً في حياة الإنسان، وبفقدها تخلو حياته من الحركة الفاعلة وتفتقر إلى الحرارة اللّازمة؛ بيد أنّ صواب مسار الإنسان وعاقبته الحسنة رهن بالتعقّل والتعاليم العقديّة الصّحيحة لا غير.

---

١. الحرّ العاملي، وسائل الشيعة، ج١٥، ص٥٥-٥٦.

من هذا المنطلق، حرص الأنبياء الإلهيّون ـ دائماً ـ على أهميّة السّلامة الفكريّة وعمدوا إلى طرح معتقدات أساسيّة في حياة البشر، وسَعَوا إلى تشذيب العقائد والنهوض بالعقل البَشَريّ، وجعلوا ذلك في رأس سلّم أولويّاتهم. من هنا، يشهد التاريخ البَشَريّ على أنّ العقل البَشَريّ لم يكتسب الحرّية والنّجاح إلّا من خلال الرّؤية الصّحيحة المتحصّلة من الدِّين والعلم الصّائب، وقد سارت في هذا الطّريق شخصيّاتٍ تاريخيّة كبيرة من شرق الأرض وغربها، كانت تتطلّع إلى تطوير الأفكار وتحديثها أكثر من أيّ شخص آخر، فأطلقت لهذا الغرض مناهج حديثةً ومدارس فكريّة جديدة.

ثمّ إنّ هذه المدارس الفكريّة المتنوّعة والرّؤى المختلفة، كانت في حدّ ذاتها تشكّل عائقاً أمام الفهم الصّحيح للحقيقة، فغالباً ما كان المفكّرون ينحرفون عن جادّة الصّواب ويتّبعون التخرّصات والأوهام بدلاً من الاحتكام إلى المنطق والعقل، ويغوصون في ظلام الجهل بدلاً من الاستنارة بنور المعرفة.

من هنا تبدأ رسالة الأنبياء الإلهيّين في إدارة الفكر البَشَريّ، وتنفتح أمام عقل الإنسان نافذة باتّجاه الحقائق الخالدة من خلال توظيف ينابيع العقلانيّة الأصيلة. وعلى هذا الأساس، شدّد مذهب أهل البيت عليهم السلام على أنّ أفضل السّبل لمعرفة الحقائق هو العقلانيّة في ظلّ الوحي والتعقّل ضمن دائرة المصادر الإلهيّة.

في هذا السّياق وفي ضوء النّتائج الطيّبة الّتي تحقّقت في مجال علم الكلام الإسلاميّ، جرى الإعداد لتدوين دورةٍ في العقيدة الإسلاميّة، وذلك باقتراحٍ وإشرافٍ من مكتب «تدوين المناهج الدّراسيّة الحوزويّة» كحلقة أولى من التعليم العقديّ في «مركز معارف أهل البيت عليهم السلام التخصّصي»، وقد تابعت لجنة الكلام الإسلاميّ في المركز المذكور تأليف هذه الدّورة في جميع مراحلها. كما إنّها أُخضعت لمراجعة أُوْلى بعد تدريسها في أكثر من مدرسةٍ على سبيل الاختبار؛ حيث شارك عدد من الأساتذة في مناقشتها وتقويمها وإجراء التّعديلات اللّازمة على النصّ الأوّلي، وهذا لا يمنع أن تكون هذه النّسخة أيضاً بحاجة إلى التّقويم والإرشاد من قبل الأساتذة وأهل الرّأي والاختصاص.

وفي هذا السّياق، لا يفوتنا أن نتقدّم بالشّكر الوافر لمدير مكتب «تدوين المناهج الدّراسيّة

الحوزويّة»، سماحة حجّة الإسلام والمسلمين السيّد حميد جزائري، وكذلك المدير السّابق للمركز، الأستاذ الفاضل السيّد رضا حبيبي، وزملائهما الأعزّاء؛ إذ لم تكن هذه الدّورة لترى النّور لولا عملهم الدّؤوب وجهودهم الجبّارة. كما ينبّغي تقديم الشّكر والثّناء لأعضاء لجنة الكلام المحترمين، خصوصاً الأساتذة حجج الإسلام والمسلمين عبد الرّحيم سليماني، ورسول رضوي، وعبد المجيد زهادت، الّذين أَثْرَوا بحوث هذه الدّورة بالمقترحات العلميّة الرّصينة والنّقاش العلميّ الدّقيق. وكذا نشكر المؤلّفَين المحترمَين حجّة الإسلام والمسلمين محمّد تقي سبحاني وحجّة الإسلام والمسلمين رضا برنجكار، اللّذَيْن كان لهما السّهم الأوفر في تدوين هذه الدّورة، وزملائهما في مركز «معارف أهل البيت عليهم السلام التخصّصي» الّذين لم يألوا جهداً ـ في المراحل المختلفة ـ من الكتابة والبحث؛ ففي الحقيقة هذا الكتاب رهن بالجهد الجماعيّ الّذي بذله جميع الأساتذة الأعزاء.

وفي الختام، ونيابةً عن جميع من أسهموا في خروج هذه الدّورة بحلّتها القشيبة، نقدّم هذا العمل البسيط إلى قائد البشريّة ومعلّمها الكبير، إمام العصر والزمان عجّل الله تعالى فرجه الشريف، سائلين المولى العليّ القدير أن ينير ربوع العالم بظهوره القريب.

مكتب تدوين المناهج الدراسيّة		مؤسّسة معارف أهل بيت عليهم السلام

الباب الأوّل

بحوث تمهيديّة

١

علم الكلام والعقائد

تُبحث الموضوعات المتّصلة بالمعارف والعقائد ضمن علمٍ يُطلق عليه اسم «علم الكلام»؛ ولهذا السّبب ينبغي التعرّف بمقدارٍ كافٍ إلى هذا العلم في البحوث التمهيديّة لهذا الكتاب.

تعريف علم الكلام وموضوعه

علم الكلام هو العلم الّذي يبحث في العقائد والمعارف العقديّة، فيستخرجها من المصادر الإسلاميّة المعتبرة ويسعى إلى شَرحها وإثباتها، ويعمل على الدّفاع عنها بردٍّ على الشّبهات المطروحة في مجال العقائد المذكورة[1].

فعلى سبيل المثال، عند البحث في مسألة الشّفاعة، يُراجع المُتكلّم الآيات والرّوايات المُرتبطة بهذا الموضوع ليستخرج معنى الشّفاعة، ويثبت بمقتضى المصادر الدينيّة أنّ الله (سبحانه وتعالى) قد منّ على بعض عباده بالشّفاعة في غيرهم، ثمّ يتطرّق إلى توضيح مفهوم الشّفاعة وبيان حدودها وشروطها، ويبيّن أنّ الشّفاعة مقتصرة على من يرتكب خطأً، وهو سائر في طريق الهداية والإيمان، فيحتاج إلى من يسانده ويساعده. وبعد ذلك يعمد المتكلّم إلى إثبات الشّفاعة عن طريق الأدلّة العقليّة والنقليّة (القرآن والسنّة)، ويتصدّى لردّ الشّبهات في هذا الخصوص.

---

١ . لمعرفة المزيد حول علم الكلام، أنظر: برنجكار، روش شناسى علم كلام؛ مطهري، آشنائى با علوم اسلامى: كلام، عرفان، حكمت عملى؛ خسروبناه، كلام جديد، ص٦.

وعلى هذا الأساس، فموضوع علم الكلام هو المعارف العقديّة لا الأحكام العمليّة والأخلاقيّة في الإسلام، والمراد من العقائد والمعارف هو التعاليم الإسلاميّة الّتي يُطلَب بها الإيمان والتّصديق مثل أصل التّوحيد.

أهميّة علم الكلام

تنبع أهميّة كلّ علم من الموضوعات الّتي تُبحث فيه، وما يُبحث في علم الكلام -كما ذكرنا سابقاً- هو العقائد الدينيّة؛ ومن هنا لا بدّ من معرفة ما مدى أهميّة العقائد الدينيّة؟

بقليل من التأمّل يمكن أن ندرك أنّ الإنسان مجموعة من العقائد والأفعال، وغالباً ما تكون الأفعال مستندة إلى الأفكار والتّصديقات، في حين تشكّل العقائد الأساس الّذي يشيّد عليه الإنسان تصرّفاته وأفعاله. وربّما يمكن القول: إنّ جميع أعمال الإنسان ناشئة من معتقداته بنحوٍ من الأنحاء. وعلى هذا الأساس، فإنّ أهميّة علم الكلام الّذي يأخذ على عاتقه بيان العقائد والأفكار تفوق أهميّة العلوم الأُخرى المتعلّقة بسلوك الإنسان وأفعاله.

كما يمكن بيان مدى أهميّة علم الكلام من زاوية أخرى، وهي: أنّ كلّ إنسان يسعى جاهداً إلى تحصيل السّعادة لنفسه، وثمّة أديان و مذاهب بشريّة كثيرة تزعم أنّها قادرة على إيصاله إلى السّعادة المنشودة؛ ولكن من الواضح أنّه لا دين كالدِّين الإلهيّ قادر على ضمان السّعادة الحقيقيّة للإنسان؛ لأنّ الله (سبحانه وتعالى) الخالق للإنسان يعرف أكثر من أيّ شخص آخر الأمور الكفيلة بإيصال الإنسان إلى السّعادة، هذا من جهة. ومن جهة أُخرى، لا يمكن للإنسان معرفة الدِّين واستكشاف الأمور الجالبة للسّعادة ما لم يؤمن بوجود الله والنبيّ ويَثْبُت له وجُودُهُما. ثمّ إنّ إثبات وجود الله وصفاته، وكذلك التعرّف إلى الهداة الإلهيّين المبعوثين من قبله وأُمورٌ من هذا القبيل، إنّما تتحقّق بواسطة علم الكلام؛ وعليه لا يمكن للإنسان نيل السّعادة دون علم الكلام والعقائد الإسلاميّة.

مصادر علم الكلام

لا يخفى أنّ المعارف في كلّ علم إنّما تُستقى من مصدرٍ أو مصادر محدّدة، وعلمُ الكلام ينتهل معارفه من المصادر الآتية:

١. العقل

بعدما يُثبِتُ الإنسانُ وجودَ الخالقِ بعقله، يتطلّع إلى الوقوف على الحقائق الأُخرى في العالم، وذلك من قبيل: من أين جاء؟ وإلى أين ذاهب؟ وأين هو الآن؟ وما الهدف من مجيئه إلى هذا العالم؟ فيردّ على بعض هذه الأسئلة بعقله، وهي الأسئلة الّتي لا يتسنّى معرفة الدِّين دون معرفة الجواب عنها.

وبهذا يتبيّن أنّ العقل - وعلى الرّغم من كونه مقيّداً ومحدوداً - يُعَدُّ حجّةَ الله على العباد، فلا تتّضح كثير من الأُمور دونه.

وفي هذا السّياق، روي أنّ ابن السكّيت سأل الإمام أبا الحسن الرّضا عليه السلام: ما الحجّة على الخلق اليَوم؟ فأجابه قائلاً:

«الْعَقْلُ يُعْرَفُ بِه الصّادق عَلَى الله فَيُصَدِّقُه والْكَاذِبُ عَلَى الله فَيُكَذِّبُه»[١].

من هنا، ولمّا كان للعقل حضورٌ فاعل في مسيرة الأبحاث الكلاميّة، يمكن أن نخلص إلى أنّ علم الكلام حجّة بسبب اعتماده على العقل والاستفادة منه في أهمّ أبحاثه.

٢. القرآن والسنّة

إنّ الإنسان يَسعى إلى مدّ جسور الارتباط مع خالقه وبارئه وأداء فروض الطّاعة والعبادة له؛ بيد أنّه لا يستطيع إدراك كيفيّة تلك العبادة ومعرفة كلِّ ما يرضى الربّ بمجرّد الاعتماد على عقله؛ فيشعر بضرورة الاستعانة بالله ونبيّه، ويكون بصدد الوصول إلى نبيّ الله؛ ليتمكّن من حلحلة مشاكله عبر الرّجوع إلى هذا النبيّ المُرسل وإلى دينه.

ومن المسلّم به أنّ الأديان الإلهيّة والدِّين الإسلاميّ تحديداً إنّما جاءت لهداية البشر، وهذا ما تؤكّد عليه النّصوص الدينيّة أيضاً، فنجد أنّ القرآن الكريم شدّد بكلّ صراحة على أنّه هدى للنّاس[٢]،

---

١ . الكليني، الكافي، ج١، ص٢٤؛ ابن شعبة الحرّاني، تحف العقول عن آل الرسول صلى الله عليهم، ص٤٥٠؛ الصدوق، عيون أخبار الرضا عليه السلام، ج٢، ص٨٠.

٢ . انظر: سورة البقرة: الآية ١٨٥.

ودليل هادٍ للمسلمين[١]، وأنّه كتاب مبين يهدي المؤمنين والمتّقين،[٢] وهو من يخرج النّاس من الظّلمات إلى النّور[٣]، ويبيّن لهم ما اختلفوا فيه[٤]، ومن صفاته أنّه نور[٥]، وحكمة[٦]، وذكر[٧]، وأنّه تبيان لكلّ شيء[٨].

وورد في أحاديث متعدّدة أنّ القرآن كتابٌ يحتوي على أخبار كلّ ما حدث وما يحدث في الكون. ومن الواضح والجليّ أنّ النّاس وحدهم غير قادرين على فهم كلّ هذه العلوم، وأنّهم يحتاجون في فهمها إلى النبيّ الأكرم ﷺ وأهل البيت عليهم السلام.

قال الإمام الصّادق عليه السلام حول القرآن الكريم وما يعرفه من علومه:

«أَنَا أَعْلَمُ كِتَابَ الله، وفِيه بَدْءُ الْخَلْقِ ومَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وفِيه خَبَرُ السَّمَاءِ وخَبَرُ الأَرْضِ، وخَبَرُ الْجَنَّةِ وخَبَرُ النَّارِ، وخَبَرُ مَا كَانَ وخَبَرُ مَا هُوَ كَائِنٌ، أَعْلَمُ ذَلِكَ كَمَا أَنْظُرُ إِلَى كَفِّي، إِنَّ الله يَقُولُ: فِيه تِبْيَانُ كُلِّ شَيْءٍ»[٩].

وفي هذا السّياق، صرّحت كثير من الأحاديث أنّ الأئمّة المعصومين عليهم السلام يعلمون بكلّ ما يحتاجه النّاس، فمن اللّازم الرّجوع إلى أحاديثهم والتدبّر فيها ومن ثمّ إطاعتهم والتسليم لأوامرهم[١٠]. وصرّحت بعض الأحاديث أنّ من لا يفعل ذلك، ويطلب الهداية من غيرهم سيكون مصيره الضلال[١١]، وكمثال على ذلك سنشير إلى واحد من تلك الأحاديث:

---

١ . انظر: سورة النحل: الآية ٨٩.

٢ . انظر: سورة النمل: الآيتان ١-٢؛ سورة البقرة: الآية ٢.

٣ . انظر: سورة إبراهيم: الآية ١؛ سورة الحديد: الآية ٩.

٤ . انظر: سورة النحل: الآية ٦٤.

٥ . انظر: سورة التغابن: الآية ٨.

٦ . انظر: سورة الإسراء: الآية ٣٩؛ سورة البقرة: الآية ٢٣١؛ سورة آل عمران: الآية ٨١.

٧ . انظر: سورة الأنبياء: الآية ٥٠.

٨ . انظر: سورة النحل: الآية ٨٩.

٩ . الكليني، الكافي، ج١، ص٦٦.

١٠ . انظر: الكليني، الكافي، ج١، ص٣٩٩؛ الصفّار، بصائر الدرجات، ص٩، الباب السادس؛ المجلسي، بحار الأنوار، ج٢، ص٨١.

١١ . انظر: الكليني، الكافي، ج١، ص٣٧٤؛ الصفّار، بصائر الدرجات، ص١٣، الباب الثامن.

تناهى إلى أسماع الإمام الباقر عليه السلام وجود شخصين يأخذان أمورهما الدينيّة من غير أهل البيت عليهم السلام ويتحدّثان بذلك أمام عامّة النّاس، فقال لهما:

«شَرِّقَا وغَرِّبَا فَلَا تَجِدَانِ عِلْماً صَحِيحاً إلّا شَيْئاً خَرَجَ مِنْ عِنْدِنَا أَهْلَ الْبَيْتِ»[١].

❁ الأسئلة

١. ما الوظائف المُناطة بعلم الكلام طبقاً للتّعريف المذكور؟

٢. بيّن أهميّة علم الكلام من جهتين.

٣. ما دور العقل في تحقّق الأبحاث الكلاميّة؟

٤. كيف يساعد كلٌّ من القرآن وأحاديث الأئمّة المعصومين عليهم السلام على بيان التعاليم والمعارف العقديّة؟

❁ موضوع للبحث

- انظر إلى التعاريف المذكورة لعلم الكلام في عدد من الكتب الكلاميّة وقارن بينها.

---

١. الكليني، الكافي، ج١، ص٣٩٩.

٢

فوائد علم الكلام

جرى الحديث في الدّرس السّابق عن أهميّة علم الكلام، وأُشير إلى تعريفه وأهمّ المصادر لفهم العقائد الدينيّة؛ والآن لابدّ من معرفة ما هي فوائد علم الكلام؟ ومن أيّ زاوية ينبغي التّحقيق في المعتقدات الدينيّة؟

تحدّثنا لدى تعريف علم الكلام في الدّرس السّابق عن الفائدة المتوخّاة من المعارف والعقائد الدينيّة بصورة إجماليّة، لكنّنا سنتطرّق في هذا الدّرس إلى بحث تفاصيل أكثر حول تلك الفوائد.

عموماً، يؤدّي تعلّم العقائد بصورة صحيحة ومُستدلّة إلى ثبات الإنسان على عقيدته وصموده في مسيرة الحركة المعنويّة. قال الإمام جعفر الصّادق عليه السلام في هذا الصّدد:

«مَنْ دَخَلَ فِي هَذَا الدِّين بِالرِّجَالِ أَخْرَجَهُ مِنْهُ الرِّجَالُ كَمَا أَدْخَلُوهُ فِيهِ، وَمَنْ دَخَلَ فِيهِ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ زَالَتِ الْجِبَالُ قَبْلَ أَنْ يَزُولَ»[1].

ويمكن تفصيل الكلام في الفوائد المتوخّاة من بحث العقائد الدينيّة ضمن المحاور الآتية:

١. البصيرة في الدِّين

قيمة الإنسان رهن بمدى معرفته ونفاذ بصيرته؛ ولذا قال الإمام أبوجعفر الباقر عليه السلام:

---

١. النعماني، الغيبة، ص٢٢؛ المجلسي، بحارالأنوار، ج٢، ص١٠٥.

«قِيمَةَ كُلِّ امْرِئٍ وَقَدْرَهُ مَعْرِفَتُهُ»[١].

من هنا، فإنّ المعرفة والبصيرة في كلّ أمر تجعلان الإنسان يختار طريقه بمنتهى الوعي وبشكل مدروس، وتمنعانه من الوقوع في الخطإ والزّلل إلّا نادراً، خصوصاً أنّ بعض الأخطاء في الحياة لا يمكن تداركها مطلقاً، وقد تُغيّر مصير الإنسان الأبدي إلى ما لا يُحمد عُقباه.

إنّ التدبّر في المعارف والعقائد الدينيّة يدفع الإنسان إلى اكتساب البصيرة في الدِّين، والعبور من مرحلة المعرفة السّطحيّة إلى درجة عميقة من التفقّه في المسائل الدينيّة والقضايا العقديّة. من هنا، قال النبيّ الكريم ﷺ في هذا الخصوص:

«أَفْضَلُكُمْ إِيمَاناً أَفْضَلُكُمْ مَعْرِفَةً»[٢].

ثمّ إنّ أهميّة التفقّه في الدِّين كبيرة إلى درجة أنّ الإمام أبا جعفر الباقر عليه السلام قال:

«مُتَفَقِّهٌ فِي الدِّين أَشَدُّ عَلَى الشَّيْطَانِ مِنْ عِبَادَةِ أَلْفِ عَابِدٍ»[٣].

كما جرى التأكيد على أهميّة المعرفة الدينيّة في زيارات الأئمّة المعصومين عليهم السلام بتعابير من قبيل: «عَارِفاً بِحَقِّهِ» و«عَارِفاً بِحَقِّكَ» و«مُسْتَبْصِراً بِشَأْنِكَ»، ممّا ورد لقبول الزّيارة والحصول على الثّواب.

وبهذا يتبيّن أنّ لعلم الكلام دوراً كبيراً في بيان المعارف الدينيّة الأصيلة؛ بحيث يمكن القول: إنّ إمكان فهم المعارف الدينيّة متوقّف على دراسة علم الكلام.

٢. ترسيخ الإيمان والتّحفيز على العمل الصالح

من الفوائد الأُخرى لمعرفة العقائد الدينيّة، ترسيخ الإيمان وزيادة التّحفيز على أداء العمل الصالح؛ فمن لم يبلغ اليقين بوجود الله ومن تختلج في صدره شبهات حول مسألة النبوّة، لا يرغب في أداء الأحكام الدينيّة، كما إنّ التدبّر في العقائد الدينيّة يصون الإنسان من مخاطر

---

١. الصدوق، معاني الأخبار، ص١؛ الأصول الستة عشر، ص١٢٤.

٢. الشعيري، جامع الأخبار، ص٥.

٣. الصفّار، بصائر الدرجات، ص٧؛ الراوندي، الدعوات، ص٦٢.

الحملات الفكريّة، ويخلق لديه الرّغبة اللّازمة لتنفيذ الأوامر الإلهيّة، خصوصاً في عصرنا الرّاهن بعدما انتشرت أنواع الشّبهات العقديّة والأخلاقيّة وعكّرت الأجواء الفكريّة للمجتمع من خلال وسائل التّواصل المختلفة؛ حيث تزداد الحاجة إلى التّوعية في مجال الفكر والعقيدة؛ من أجل صيانة النّاس من أعاصير الشّبهات العقديّة و إرشادهم إلى طريق العبوديّة.

وذلك على الرّغم من أنّ هذا الأمر لا يعدو كونه جزءاً من الموضوع، ومن الممكن أن يواجه الشّخص مشكلة في مقام العمل حتّى مع حلّ المسائل العقديّة؛ لكنّ الاطمئنان القلبي الحاصل في ضوء تعزيز المعتقدات الدينيّة يوفر الأرضيّة اللّازمة لزيادة الإيمان وأداء الأعمال الصّالحة. وتتجلّى أهميّة هذا الأمر في بعض الطرق الّتي تُسلك لفهم المعارف الدينيّة، نحو طريق الفطرة، وهو ما سنشير له في الدّروس القادمة.

وعلى هذا الأساس، لمّا سُئل الإمام أبوالحسن الرّضا عليه السلام: لمَ أُمر الخلقُ بالإقرار بالله وبرسوله وحجّته وبما جاء من عند الله؟

أجاب بجواب جدير بالتأمّل فقال عليه السلام:

«لِعِلَلٍ كَثِيرَةٍ، مِنْهَا أَنَّ مَنْ لَمْ يُقِرَّ بِاللهِ لَمْ يَتَجَنَّبْ مَعَاصِيهِ، وَلَمْ يَنْتَهِ عَنِ ارْتِكَابِ الْكَبَائِرِ، وَلَمْ يُرَاقِبْ أَحَداً فِي مَا يَشْتَهِي وَيَسْتَلِذُّ مِنَ الْفَسَادِ وَالظُّلْمِ»[١].

كما إنّ الإيمان ببعض الصّفات الإلهيّة يمهّد للتكامل الأخلاقيّ وتعبيد طريق العبوديّة. فعلى سبيل المثال، لا يتوكّل الإنسان على الله توكّلاً حقيقيّاً ما لم يؤمن إيماناً راسخاً بالقدرة الإلهيّة اللامتناهية وبحكمته الأزليّة، وكذلك لا معنى لأن يَطلب من الله العفوَ والصفح عن الذّنوب ما لم يؤمن بصفة الرحيميّة؛ لأنّ الإيمان الحقيقيّ بالرّحمة والمحبّة الخاصّة من الله للإنسان يدفعه إلى حبّ المحبوب الأوّل في عالم الوجود، ولا يخفى ما لهذا الإيمان من دور كبير في بناء شخصيّة الإنسان، خصوصاً عندما يعلم بتفجّر بحر المحبّة الإلهيّة لأدنى الأسباب، وشمول العبد السّاعي إلى السّير في المسار الحقيقيّ للحياة بمنتهى الرّأفة والرّحمة. نعم، إنّ الله (سبحانه وتعالى) يحّب العبد الّذي يؤوب إلى مولاه ويتوب إليه من معاصيه، فوصف هذه الثلّة المؤمنة قائلاً:

---

١. الصدوق، علل الشرائع، ج١، ص٢٥١.

﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾[١].

٣. الرّدّ على التساؤلات وإزالة الشّبهات

تعدّ الشّبهات العقديّة من أهمّ التحدّيات الفكريّة والهواجس النفسيّة الّتي تراود كلّ مؤمن في بعض مراحل حياته، لا سيما في عصرنا الرّاهن. وفي الحقيقة، يعود سبب بروز قسم كبير من هذه الشّبهات إلى الجهل بالمعارف الدينيّة أو عدم القدرة على التّمييز بين المعارف الصّحيحة والخاطئة. وعلى هذا الأساس، إذا امتلك كلّ مؤمن صورة صحيحة عن المعارف الدينيّة فحينئذٍ لا يتعرّض إلى أزمة روحيّة وفكريّة مقابل الشّبهات المثارة؛ بل ويتصدّى لها بصورة فاعلة وعزيمة راسخة.

ثمّ إنّ الإلمام بالمعارف الدينيّة يسهم في حفظ المتعلّم لها من المخاطر، فضلاً عن منحه القدرة على الرّدّ على أسئلة واستفسارات أولئك الّذين يعانون من أزمات فكريّة ويواجهون شبهات عقديّة، ومساعدتهم على تجاوز تلك الأزمة العقديّة.

ويتبيّن من المراجعة السّريعة لكلمات الأئمّة المعصومين عليهم السلام أنّ من ينبري للدّفاع عن حياض الدِّين ويتصدّى للرّدّ على الشّبهات العقديّة يحظى بمكانة رفيعة عندهم، وسنشير أدناه إلى مثال في هذا المجال:

رُوِيَ عَنِ الْحَسَنِ الْعَسْكَرِيِّ عليه السلام أَنَّهُ اتَّصَلَ بِأَبِي الْحَسَنِ عَلِيِّ بْنِ مُحَمَّدٍ الْعَسْكَرِيِّ عليه السلام أَنَّ رَجُلاً مِنْ فُقَهَاءِ شِيعَتِهِ كَلَّمَ بَعْضَ النُّصَّابِ فَأَفْحَمَهُ بِحُجَّتِهِ حَتَّى أَبَانَ عَنْ فَضِيحَتِهِ، فَدَخَلَ إِلَى عَلِيِّ بْنِ مُحَمَّدٍ عليه السلام وَفِي صَدْرِ مَجْلِسِهِ دَسْتٌ عَظِيمٌ مَنْصُوبٌ، وَهُوَ قَاعِدٌ خَارِجَ الدَّسْتِ وَبِحَضْرَتِهِ خَلْقٌ مِنَ الْعَلَوِيِّينَ وَبَنِي هَاشِمٍ، فَمَا زَالَ يَرْفَعُهُ حَتَّى أَجْلَسَهُ فِي ذَلِكَ الدَّسْتِ وَأَقْبَلَ عَلَيْهِ؛ فَاشْتَدَّ ذَلِكَ عَلَى أُولَئِكَ الْأَشْرَافِ، فَأَمَّا الْعَلَوِيَّةُ فَأَجَلُّوهُ عَنِ الْعِتَابِ، وَأَمَّا الْهَاشِمِيُّونَ فَقَالَ لَهُمْ شَيْخُهُمْ: يَا ابْنَ رَسُولِ اللهِ! هَكَذَا تُؤْثِرُ عَامِّيّاً عَلَى سَادَاتِ بَنِي هَاشِمٍ مِنَ الطَّالِبِيِّينَ وَالْعَبَّاسِيِّينَ؟ فَقَالَ عليه السلام: «... أَتَرْضَوْنَ بِكِتَابِ اللهِ حَكَماً؟» قَالُوا: بَلَى. قَالَ: «أَلَيْسَ اللهُ يَقُولُ:

---

١. سورة البقرة: الآية ٢٢٢.

﴿يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ ءامَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾[١]؟ فَلَمْ يَرْضَ لِلْعَالِمِ الْمُؤْمِنِ إلّا أَنْ يُرْفَعَ عَلَى الْمُؤْمِنِ غَيْرِ الْعَالِمِ، كَمَا لَمْ يَرْضَ لِلْمُؤْمِنِ إلا أَنْ يُرْفَعَ عَلَى مَنْ لَيْسَ بِمُؤْمِنٍ ... فَكَيْفَ تُنْكِرُونَ رَفْعِي لِهَذَا لمَا رَفَعَهُ اللهُ، إِنَّ كَسْرَ هَذَا لِفُلَانٍ النَّاصِبِ بِحُجَجِ اللهِ الَّتِي عَلَّمَهُ إِيَّاهَا لَأَفْضَلُ لَهُ مِنْ كُلِّ شَرَفٍ فِي النَّسَبِ»[٢].

٤. القدرة على هداية الآخرين وإرشادهم

إنّ فهم المعارف الأساسيّة للدّين واجب على جميع الأفراد بالمقدار اللّازم، وإن كان يشقّ عليهم البحث والتدبّر في جميع المسائل العقديّة والقضايا الدينيّة؛ ومن هنا ولأجل أن تستفيد شرائح المجتمع المختلفة من زلال المعارف الدينيّة بصورة تامّة، يجب أن تدرس طائفة منهم هذه الموضوعات دراسة عميقة ودقيقة تمكّنهم من مساعدة الآخرين. ومن الطبيعيّ أنّ من يمتلك اطلاعاً أوسع وأدقّ على الحقائق الدينيّة يتمكّن من بيان تلك المعارف وإرشاد النّاس وهدايتهم بشكل أفضل. وهذا ما دعا إلى الإشادة بمثل هؤلاء العلماء في سيرة الأئمّة من أهل البيت عليهم السلام وفي أحاديثهم أيضاً، فقال أمير المؤمنين عليه السلام بشأن من تسلّح بالأبحاث الدينيّة والعقديّة إلى الدّرجة الّتي تتيح له هداية عموم النّاس:

«مَنْ كَانَ مِنْ شِيعَتِنَا عَالِماً بِشَرِيعَتِنَا، فَأَخْرَجَ ضُعَفَاءَ شِيعَتِنَا مِنْ ظُلْمَةِ جَهْلِهِمْ إِلَى نُورِ الْعِلْمِ الّذي حَبَوْنَاهُ بِهِ، جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَأْسِهِ تَاجٌ مِنْ نُورٍ.. فَيُخْرِجُ كُلَّ مَنْ كَانَ عَلَّمَهُ فِي الدُّنْيَا خَيْراً أَوْ فَتَحَ عَنْ قَلْبِهِ مِنَ الْجَهْلِ قُفْلاً أَوْ أَوْضَحَ لَهُ عَنْ شُبْهَةٍ»[٣].

وقال الإمام أبوجعفر الباقر عليه السلام في هذا الشأن أيضاً:

«عَالِمٌ يُنْتَفَعُ بِعِلْمِهِ أَفْضَلُ مِنْ سَبْعِينَ أَلْفَ عَابِدٍ»[٤].

---

١. سورة المجادلة: الآية ١١.

٢. الطبرسي، الاحتجاج، ج٢، ص٤٥٤.

٣. المصدر نفسه، ج١، ص١٦.

٤. الكليني، الكافي، ج١، ص٣٣؛ الحرّ العاملي، وسائل الشيعة، ج١٦، ص٣٤٧.

وقال أيضاً:

«الْعَالِمُ كَمَنْ مَعَهُ شَمْعَةٌ تُضِيءُ للنَاس... تُزِيلُ ظُلْمَةَ الْجَهْلِ وَالْحَيْرَةِ، فَكُلُّ مَنْ أَضَاءَتْ لَهُ فَخَرَجَ بِهَا مِنْ حَيْرَةٍ أَوْ نَجَا بِهَا مِنْ جَهْلٍ فَهُوَ مِنْ عُتَقَائِهِ مِنَ النَّارِ»[١].

❋ الأسئلة

١. كيف يؤدّي فهم المعارف الدينيّة إلى رفع مستوى بصيرة الإنسان في دينه؟ بيّن ذلك وفقاً للأدلّة العقليّة والنقليّة.

٢. من جملة فوائد البحوث الكلاميّة تأثيرها على العمل الصالح، اشرح ذلك.

٣. ما هو منشأ بروز الشّبهة العقديّة في ذهن الإنسان المسلم؟ وكيف يمكن التصدّي لها؟

٤. اذكر آية ورواية حول أهميّة المعارف الدينيّة.

❋ موضوعات للبحث

- اكتب بحثاً حول دور علماء الدّين في أمر الهداية والإرشاد للنّاس بحسب الآيات والرّوايات.
- بيّن كيف تؤدي القيم العقديّة دوراً محوريّاً في حياة الإنسان اليوميّة من خلال الإشارة إلى مثال عملي.

---

١. الطبرسي، الاحتجاج، ج١، ص١٧.

الباب الثاني

التوحيد

٣

الأدلّة على وجود الله: برهان النَّظم (١)

ذُكرت أدلّة متعدّدة لإثبات وجود الله (سبحانه وتعالى)، نحو برهان الحدوث وبرهان الحركة وبرهان النَّظم؛ لكنّ البرهان الأخير يعدّ من أشهر تلك الأدلّة وأوضحها؛ حيث استفيد منه بكثرة في سيرة الأنبياء الإلهيّين وكان محطّ اهتمام القرآن الكريم أيضاً، وهو ما سنبحثه في هذا الدّرس.

١. تقرير برهان النَّظم

النَّظم هو التّأليف وضمّ شيءٍ إلى شيءٍ آخر وكلّ شيءٍ قرنته بآخر فقد نَظَمْته[١]، ونَظَمْت اللّؤلؤ أي جمعته في السّلك[٢]. وبالتّالي، من الضّروريّ توفّر شروط لتحقّق النَّظم بمعناه اللّغويّ بحيث يؤدّي فَقْد أيّ واحد منها إلى حدوث إرباك في حصول النَّظم، وهذه الشّروط هي:

١. وجود أشياء متعدّدة ومختلفة؛

٢. وجود عامل يربط بين تلك الأشياء المتعدّدة، من قبيل السّلك أو الحبل الّذي يربط بين حبّات اللّؤلؤ أو الخرز؛

٣. وجود ترتيب ونسق خاص يؤول إلى هدف محدّد[٣].

---

١. الزبيدي، تاج العروس، ج١٧، ص٦٨٩-٦٩٠.

٢. ابن منظور، لسان العرب، ج١٢، ص٥٧٨.

٣. الديلمي، طبيعت وحكمت: پژوهشى در برهان نظم، ص٥٨-٥٩.

بناءً على ذلك، يكون المقصود من النَّظم هنا هو اجتماع أجزاء متباينة ضمن مجموعة واحدة بحيث يؤدّي التنسيق بينها إلى تحقيق هدف معيّن ونتيجة موحّدة.

وبهذا يتبيّن أنّه يستفاد من برهان النَّظم أنّ النَّظم والتّدبير السائد في «الكون» يدلّ على وجود صانع حكيم ومقتدر أوجد «الكون». ويتألّف برهان النَّظم من مقدّمتين ونتيجة، المقدّمتان هما:

١. إنّ «عالم الطّبيعة/الكون» هو مجموعة مُنتظمة، وفيه ترتيب خاص ويؤول إلى هدف، وفقاً لخطّة دقيقة ومدروسة، وتوجد سلسلة من القوانين الثّابتة تحكم جميع أجزائه المختلفة في نسق واحد ومتكامل.

٢. إنّ كلّ مجموعة مُنتظمة تدلّ على وجود منظِّم لها على أساس التخطيط والتّدبير.

و النتيجة هي:

إنّ النَّظم والتّدبير السائد في المجموعة المُنتظمة ـ أي «عالم الطّبيعة / الكون» ـ هو دليل على وجود مُنَظِّمٍ حكيمٍ ومقتدر يدير المجموعة المُنتظمة أي «عالم الطّبيعة / الكون».

نعم، لا يشكّ الإنسان الواعي في التّدبير والنَّظم الحاكم على الموجودات المختلفة في الكون؛ حيث يشاهَد وجود نظام دقيق ومدروس في كلّ مكان وعلى كلّ شيءٍ، ابتداءً من الحيوانات والنّاس وانتهاءً بالكواكب والمجرّات، فلا ريب في أنّ النّاس والحيوانات والنباتات والجمادات وجميع الموجودات في السّماوات والأرض قد خُلقت جميعاً على أساس هدف خاصّ، وأنّها محكومة في حركتها ومسيرة حياتها لسلسلة من القوانين الدّقيقة والمدروسة ممّا يعني أنها مجموعة مُنتظمة.

فعلى سبيل المثال، يكشف علم الأحياء عن حركة الخلايا ونشاطات أعضاء بدن الإنسان طبقاً لوتيرة معيّنة، فيقوم كلّ جين في تلك الخلايا بالدّور المناط به في الوقت المناسب وبشكل مدروس وهادف، ويؤدّي ما وُضع على عاتقه من مهام بصورة دقيقة. وفي الحقيقة، يقوم كلّ جين في خلية من الخلايا الكثيرة المتواجدة في بدن الإنسان بالوظيفة المكلّف بها بمنتهى الدقّة لتوفير المواد الّتي تحتاجها الأنسجة في ذلك البدن.

في الظروف الطبيعية، تبتعد خلايا بدن الإنسان وكلّ موجود حيّ بمقتضى القوانين الهادفة عن كلّ أشكال الإفراط والتفريط والعبث والنقص والتقصير وسوء الاستفادة والاستبداد.

وبمشاهدة النَّظم والاتّساق في صفوف الموجودات المختلفة، يدرك الإنسان اللّبيب أنّ هذا النَّظم ليس وليد الصّدفة ولم يأتِ عبثاً؛ وإنّما هو بحاجة إلى منظِّم حكيم وقدير.

ولإثبات زيف القول بنشوء «الكون» صدفةً، لا بأس بالالتفات إلى هذا المثال:

حينما يريد العامل على صفّ الحروف القيام بعمله وصفّ حروف كتابٍ مّا، يتوخّى منتهى الدقّة والاحتياط، ومع ذلك يُعثر على بعض الأخطاء المطبعيّة عند مراجعة الكتاب وتدقيقه. ولو أخذ هذا العامل عدداً من الحروف المختلفة وألقاها على سطح معدنيّ بدلاً من صفّ بعضها بجانب بعضها الآخر بشكل دقيق ومُنتظم؛ فهل يمكن أن يؤدّي إلقاء الحروف المختلفة على سطح معدنيّ إلى تأليف كتاب مشتمل على موضوعات مُنظّمة ومُنسجمة؟

والكلام الأكثر زيفاً وبعداً عن المنطّق هو زعم من يقول بأنّه يمكن للرّصاص المُذاب أن يشكّل حروفاً مرتّبةً من خلال الضغط على الأنبوب المتواجد فيه، ومن ثمّ تنتظم هذه الحروف ضمن نسق خاصّ على آلاف الصّفحات المعدنيّة نتيجة هبوب إعصار معيّن، وفي المحصّلة يتكوّن بفعل ذلك كتاب يحتوي على موضوعات علميّة دقيقة ومتنوّعة دون أيّ نقص أو خلل.

فهل إنّ حروف التّكوين والخلقة (الذرّات والجُزيئات والخلايا والأجزاء المكوّنة لها) أقلّ من حروف الطباعة؟ وكيف يمكن فهم مُدّعى المادّيين بشأن العلاقات المتشابكة بين الأجرام السّماويّة والموجودات المختلفة في الطّبيعة؟

٢. برهان النَّظم بنظر الفلاسفة والعلماء

تحدّث ألبرت أينشتاين - العالم الفيزيائي الكبير في القرن العشرين - عن أسمى أنواع الاعتقاد قائلاً:

«يتّضح للإنسان في هذه المرحلة النّظام الدّقيق والجلال الحاكم على عالم الطّبيعة وعالم الأفكار، ما يجعله ينظر إلى الكون كوحدة متماسكة وذات دلالات كثيرة... هل من اللّازم أن ينحصر الإيمان بعقلانيّة تركيبة العالم وصوابه ومدى الاشتياق لفهم أصغر دليل من

أدلّة عقلانيّة هذا العالم برجال مثل كيبلر ونيوتن ليتسنّى لهما بعد سنوات مديدة من العمل المضني لوحدهما إدراك جانب من نظام حركة الأفلاك ؟»[١].

أما نيوتن ـ العالم الفيزيائيّ الشّهير ـ فقد حاول لفت أنظار العقلاء في العالم إلى النّظام في الكون عبر طرح عدد من الأسئلة بقوله:

«لماذا تتحرّك جميع الكواكب السيّارة بصورة مُنتظمة ضمن مدار متّحد المركز؟ من الّذي صمّم الأجسام الماديّة والحيوانات بهذه الطريقة الماهرة؟ ألا يثبت النّظام السائد في الكون أنّه خُلق على يد عاقل وحكيم؟».

وأضاف قائلاً في موضعٍ آخر:

«ما هو مصدر كلّ هذا النّظام والجمال الّذي نشاهده في العالم؟ كيف صُمّمت أبدان المخلوقات بهذه المهارة وهذا الإبداع، وكيف وُضع كلّ عضو من أبدانهم في مكانه المناسب؟ هل خُلقت العين دون الاطلاع على علم المناظر والمرايا؟... ألا تكشف الآثار والآيات في الطّبيعة عن وجود كائن غير جسماني؟»[٢].

٣. برهان النَّظم في الآيات والرّوايات

تقدّمت الإشارة إلى أنّ إثبات الصّانع في النّصوص الدينيّة غالباً ما يتمّ عن طريق الالتفات إلى الظواهر الّتي تحدث في العالم وخضوعها لنظمٍ وتدبير خاصّ. قال (سبحانه وتعالى) في محكم كتابه الكريم:

﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾[٣].

وعلى هذا الأساس، فإنّ الإنسان اللّبيب حينما ينظر إلى الموجودات المحيطة به من السّماوات والأرض، ويرى اتّصافها بالنّظم والتّدبير الدالّين على وجود صانع لهذه المخلوقات، فإنّه حينئذٍ يقرّ بوجود خالق حكيم ومقتدر.

---

١. دو كه نه، دين جهانى، ص٦٥؛ اينشتاين، دنيايى كه من مى بينم، ص٥٥.

٢. الديلمي، طبيعت وحكمت: پژوهشى در برهان نظم، ص٣٠.

٣. سورة فصلت: الآية ٥٣.

وفي هذا السّياق، قال الإمام عليّ بن موسى الرّضا عليه السلام في خطبة مفصّلة ألقاها بحضور المأمون العباسيّ:

«بِصُنْعِ اللهِ يُسْتَدَلُّ عَلَيْهِ»[١].

وبهذا يتبيّن أنّ من جملة سبل الاستدلال على الله وإثبات وجوده عن طريق العقل بحسب ما ورد عن الأئمّة الميامين عليهم السلام، هو الاستدلال بجميل صنعه عليه، بمعنى أنّ الدقّة والنّظم والتّدبير في صُنع الباري تكشف عن لزوم وجود صانع لتلك المصنوعات. ويجري التّعامل مع هذا البرهان في الثّقافة الإسلاميّة على أنّه دليل عامّ لجميع النّاس؛ ولذا استُفيد منه حتّى مع المنكرين والمعاندين، فلمّا دخل أبوشاكر الدَّيصانيّ - وهو زنديق - على أبي عبد الله الصّادق عليه السلام وقال: يا جعفر بن محمد! دُلّني على معبودي! فقال له أبوعبد الله عليه السلام: اجلسْ؛ فإذا بغلام صغير في كفّه بيضة يلعب بها، فقال أبوعبد الله عليه السلام: نَاوِلْنِي يَا غُلَامُ البَيْضَةَ، فناوله إيّاها، فقال:

«يَا دَيَصَانِيُّ! هَذَا حِصْنٌ مَكْنُونٌ، لَهُ جِلْدٌ غَلِيظٌ، وَتَحْتَ الْجِلْدِ الْغَلِيظِ جِلْدٌ رَقِيقٌ، وَتَحْتَ الْجِلْدِ الرَّقِيقِ ذَهَبَةٌ مَائِعَةٌ وَفِضَّةٌ ذَائِبَةٌ، فَلَا الذَّهَبَةُ الْمَائِعَةُ تَخْتَلِطُ بِالْفِضَّةِ الذَّائِبَةِ، وَلَا الْفِضَّةُ الذَّائِبَةُ تَخْتَلِطُ بِالذَّهَبَةِ الْمَائِعَةِ، فَهِيَ عَلَى حَالِهَا، لَا يَخْرُجُ مِنْهَا خَارِجٌ مُصْلِحٌ فَيُخْبِرَ عَنْ إِصْلَاحِهَا، وَلَا يَدْخُلُ إِلَيْهَا دَاخِلٌ مُفْسِدٌ فَيُخْبِرَ عَنْ إِفْسَادِهَا، لَا يُدْرَى لِلذَّكَرِ خُلِقَتْ أَمْ لِلْأُنْثَى، تَنْفَلِقُ عَنْ مِثْلِ أَلْوَانِ الطَّوَاوِيسِ. أَتَرَى لَهُ مُدَبِّراً؟». فَأَطْرَقَ الدَّيَصَانِيُّ مَلِيّاً، ثُمَّ قَالَ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَأَنَّكَ إِمَامٌ وَحُجَّةٌ مِنَ اللهِ عَلَى خَلْقِهِ، وَأَنَا تَائِبٌ مِمَّا كُنْتُ فِيهِ.[٢]

وفي موضع آخر، ردّ الإمام الصّادق عليه السلام على سؤال أحد الزنادقة: ما الدليل على وجود الله؟ فقال:

«وُجُودُ الْأَفَاعِيلِ دَلَّتْ عَلَى أَنَّ صَانِعاً صَنَعَهَا، أَلَا تَرَى أَنَّكَ إِذَا نَظَرْتَ إِلَى بِنَاءٍ مُشَيَّدٍ مَبْنِيٍّ عَلِمْتَ أَنَّ لَهُ بَانِياً وَإِنْ كُنْتَ لَمْ تَرَ الْبَانِيَ وَلَمْ تُشَاهِدْهُ»[٣].

---

١ . الصدوق، التوحيد، ص٣٥.

٢ . الطبرسي، الاحتجاج، ج٢، ص٣٣٣.

٣ . الكليني، الكافي، ج١، ص٨١؛ الصدوق، التوحيد، ص٢٤٤.

ولم يقف الأمر عند ورود برهان النّظم في المصادر الدينيّة بأشكال مختلفة فحسب؛ وإنّما أكّد الإمام أبوعبد الله الصّادق عليه السلام على أنّ هذا البرهان يمثّل أوّل الأدلّة على بارئ العالم، وقال واصفاً إيّاه:

«أَوَّلُ الْعِبَرِ وَالْأَدِلَّةِ عَلَى الْبَارِئِ جَلَّ قُدْسُهُ تَهْيِئَةُ هَذَا الْعَالَمِ وَتَأْلِيفُ أَجْزَائِهِ وَنَظْمُهَا عَلَى مَا هِيَ عَلَيْهِ، فَإِنَّكَ إِذَا تَأَمَّلْتَ الْعَالَمَ بِفِكْرِكَ وَمَيَّزْتَهُ بِعَقْلِكَ وَجَدْتَهُ كَالْبَيْتِ الْمَبْنِيِّ الْمُعَدِّ فِيهِ جَمِيعُ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ عِبَادُهُ، فَالسَّمَاءُ مَرْفُوعَةٌ كَالسَّقْفِ، وَالْأَرْضُ مَمْدُودَةٌ كَالْبِسَاطِ، وَالنُّجُومُ مَنْضُودَةٌ كَالْمَصَابِيحِ، وَالْجَوَاهِرُ مَخْزُونَةٌ كَالذَّخَائِرِ، وَكُلُّ شَيْءٍ فِيهَا لِشَأْنِهِ مُعَدٌّ، وَالْإِنْسَانُ كَالْمُمَلَّكِ ذَلِكَ الْبَيْتَ وَالْمُخَوَّلِ جَمِيعَ مَا فِيهِ، وَضُرُوبُ النَّبَاتِ مُهَيَّأَةٌ لِمَآرِبِهِ، وَصُنُوفُ الْحَيَوَانِ مَصْرُوفَةٌ فِي مَصَالِحِهِ وَمَنَافِعِهِ؛ فَفِي هَذَا دَلَالَةٌ وَاضِحَةٌ عَلَى أَنَّ الْعَالَمَ مَخْلُوقٌ بِتَقْدِيرٍ وَحِكْمَةٍ وَنِظَامٍ وَمُلَائَمَةٍ، وَأَنَّ الْخَالِقَ لَهُ وَاحِدٌ، وَهُوَ الَّذِي أَلَّفَهُ وَنَظَّمَهُ بَعْضاً إِلَى بَعْضٍ»[1].

❋ الأسئلة

١. ما الشّروط اللّازم توفّرها لتحقّق النّظم؟
٢. اشرح برهان النّظم مع الإشارة إلى مقدّماته.
٣. بيّن باختصار استدلال الإمام الصّادق عليه السلام للدّيصاني.
٤. علامَ جرى التأكيد في أقوال العلماء والفلاسفة حول برهان النّظم.

❋ موضوعات للبحث

- اذكر ثلاث آيات من القرآن الكريم تدلّ بوضوح على برهان النّظم.
- ما الّذي يمنع الجاحدين بوجود الله من الإقرار بهذا البرهان الواضح برأيك؟

---

١. المجلسي، بحار الأنوار، ج٣، ص٦١، نقلاً عن توحيد المفضّل. ولمعرفة المزيد حول الآيات والرّوايات في مجال الآيات الإلهيّة المختلفة في العالم، انظر: الريشهرى، دانشنامه عقائد اسلامى، ج٤، ص١٩٠-٢١٣.

٤

الأدلّة على وجود الله: برهان النَّظم (٢)

تحدّثنا في الدّرس السّابق عن برهان النَّظم بصورة عامّة، وبيّنّا أنّه لا يحظى بأهميّة كبيرة في المناهج التعليميّة والسّبل التبليغيّة للأديان الإلهيّة فحسب؛ بل اعتمد عليه العلماء طيلة القرون الماضية لإثبات وجود الباري. وسنتطرّق في هذا الدّرس إلى أمثلة على النّظام الإلهيّ المذهل في الإنسان والكون.

تقدّمت الإشارة في الدّرس السّابق إلى أنّ برهان النَّظم قائم على مقدّمتين: الأولى تقتضي إثبات وجود نظام في الكون، وفي الثّانية يُستدلّ من وجود النّظام على وجود خالق للعالم. وفي هذا الدّرس سنشيرإلى أمثلة كثيرة حول انتظام الكون.

١. الآيات في خلق الإنسان

قال (سبحانه وتعالى) في محكم كتابه الكريم:

﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾[1].

﴿وَفِى خَلۡقِكُمۡ... ءَايَٰتٞ لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ﴾[2].

إنّ آيات العلم والحكمة والقدرة الإلهيّة في خلق الإنسان كثيرة إلى درجة أنّ معرفته تعدّ الأنفع بين المعارف البشريّة؛ حيث قال أمير المؤمنين عليه السلام:

---

١. سورة الذاريات: الآية ٢١.

٢. سورة الجاثية: الآية ٤.

«مَعْرِفَةُ النَّفْسِ أَنْفَعُ المَعَارِفِ»[١]؛

ذلك أنّ معرفة النفس تفتح الباب أمام كثير من المعارف الأُخرى وتساعد على الحصول على مزيد من الكمالات. كما يترتّب على معرفة النفس معرفة الحقّ (سبحانه وتعالى)، وقد أكّد أمير المؤمنين عليه السلام على هذه النقطة قائلاً:

«مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ عَرَفَ رَبَّهُ»[٢].

وفي هذا المجال، روي أنّ أحد أصحاب الإمام أبي عبد الله الصّادق عليه السلام لقي هشام بن الحكم ـ وهو من خيرة أصحاب الإمام ـ فسأله: ما أقول لمن يسألني فيقول لي: بمَ عرفتَ ربّك؟ فقال:

«إِنْ سَأَلَ سَائِلٌ قُلْتُ: عَرَفْتُ اللهَ جَلَّ جَلَالُهُ بِنَفْسِي؛ لِأَنَّهَا أَقْرَبُ الْأَشْيَاءِ إِلَيَّ، وَذَلِكَ أَنِّي أَجِدُهَا أَبْعَاضاً مُجْتَمِعَةً وَأَجْزَاءً مُؤْتَلِفَةً، ظَاهِرَةَ التَّرْكِيبِ، مُتَبَيِّنَةَ الصَّنْعَةِ، مَبْنِيَّةً عَلَى ضُرُوبٍ مِنَ التَّخْطِيطِ وَالتَّصْوِيرِ، زَائِدَةً مِنْ بَعْدِ نُقْصَانٍ، وَنَاقِصَةً مِنْ بَعْدِ زِيَادَةٍ، قَدْ أُنْشِئَ لَهَا حَوَاسُّ مُخْتَلِفَةٌ وَجَوَارِحُ مُتَبَايِنَةٌ، مِنْ بَصَرٍ وَسَمْعٍ وَشَامٍّ وَذَائِقٍ وَلَامِسٍ، مَجْبُولَةً عَلَى الضَّعْفِ وَالنَّقْصِ وَالْمَهَانَةِ، لَا تُدْرِكُ وَاحِدَةٌ مِنْهَا مُدْرَكَ صَاحِبَتِهَا وَلَاتَقْوَى عَلَى ذَلِكَ، عَاجِزَةً عِنْدَ اجْتِلَابِ الْمَنَافِعِ إِلَيْهَا وَدَفْعِ الْمَضَارِّ عَنْهَا. وَاسْتَحَالَ فِي الْعُقُولِ وُجُودُ تَأْلِيفٍ لَا مُؤَلِّفَ لَهُ وَثَبَاتِ صُورَةٍ لَا مُصَوِّرَ لَهَا؛ فَعَلِمْتُ أَنَّ لَهَا خَالِقاً خَلَقَهَا وَمُصَوِّراً صَوَّرَهَا، مُخَالِفاً لَهَا عَلَى جَمِيعِ جِهَاتِهَا. قَالَ اللهُ (عَزَّ وَجَلَّ): ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾»[٣].

١.١. عجائب بدن الإنسان

في هذا السّياق، يمكن التّركيز على التّركيبة المليئة بالأسرار لبدن الإنسان؛ حيث وضع العلماء جملةً من العلوم للتعرّف إلى تلك التّركيبة المعقّدة، واستطاعوا من خلال ذلك

---

١. الآمدي، غرر الحكم، ح٦٤٠٤.

٢. الآمدي، غرر الحكم، ح٧٦٣٧؛ وأيضاً انظر: الفتال النيشابوري، روضة الواعظين، ج١، ص٢٠؛ الشعيري، جامع الأخبار، ص٤.

٣. الصدوق، التوحيد، ص٢٨٩.

كشف جانب من تلك الأسرار؛ فثمّة أسرار جمّة في كلّ عضو من أعضاء بدن الإنسان يمكن اختصارها بما يأتي:

١. تركيبة الخلايا المكوّنة لبدن الإنسان؛ حيث تعدّ كلّ خليّة من تلك الخلايا كائناً حيّاً مستقلّاً بنفسه، وهي مكلّفة بالقيام بوظائف مختلفة حسب موقعها في البدن وتشكيل اللّحم والجلد والعظام وسائر الأجزاء الأُخرى.

٢. الجهاز الهضميّ الّذي يقع على عاتقه إعداد الطعام المناسب للخلايا المختلفة.

٣. جهاز تدوير الدّم في البدن المكلّف بتوزيع الطّعام بسرعة في جميع نواحي البدن.

٤. الجهاز التنفّسي الّذي يصفّي الدّم في بدن الإنسان.

٥. الأذن والعين والأنف وحاسّتا الذّوق واللّمس الّتي تشكّل بمجموعها شبكةً للوعي ومركزاً لمعلومات الدماغ[1].

وفي ما يخصّ النّقطة الأخيرة تحديداً، لو ركّزنا على التّركيبة المدهشة لعين الإنسان لشاهدنا أنّها تشبه الكرة، تحتوي في القسم الأمامي على نافذة شفّافة باسم القرنيّة، يدخلها النّور من البيئة الخارجيّة فيجتاز البؤبؤ ويصل إلى العدسة الّتي ترسله إلى الشبكيّة لإيجاد صورة واضحة للجسم، علماً أنّ عين الإنسان قادرة على تشخيص عشرة ملايين لون.

تتألف العين من جزئين رئيسيّين: المُقلة والأجزاء الفرعيّة لها، وسنشير هنا بصورة موجزة إلى الأجزاء الفرعيّة للعين فقط، وهي: الحدقة والجفنان والأهداب والحاجبان والعضلات المحرّكة للمُقلة.

الحَدَقة: هي مجموعة من العظام تتّصل في ما بينها لتكوين شقّ طوليّ أو شكل مخروطيّ تستقرّ داخله المقلة للمحافظة عليها من الأخطار.

الجَفْنان: يقع أعلى العين وأسفلها غطاءان جلديّان رقيقان ومتينان لحماية الواجهة الدقيقة للعين من البرد والحرّ وغيرهما من المكاره، ويغلق الإنسان جفنيه عند النّوم وحينما يداهمه الخطر للمحافظة على العين من أيّ شكل من أشكال الإصابة، كما إنّهما يؤديان دوراً

---

١. السبحاني، راه خداشناسى، ص٢١٥.

مهمّاً في تعديل النّور.

الأهْداب: يوجد في الأطراف الخارجيّة للأجفان أو الأشفار صفّ مُنَظَّم من الشَّعْر يسمّى «الهُدْب»، وظيفته منع وصول الغبار والأتربة إلى العين، مضافاً إلى مقاومة النّور الشديد والتّقليل منه، كما يوجد في أطراف الأجفان غدد تفرز مادّة دهنيّة خاصّة تجعل الأجفان والأهداب رطبة ودسمة دائماً؛ وذلك للحدّ من جريان الدّموع من العين على الخدّ في الحالات الاعتياديّة، ومنع حدوث آلام نتيجة الاحتكاك الدّائم للأجفان ببعضها.

العضلات المحرّكة للعين: بغية التقاط العين لصور الأشياء بسرعة وسهولة وقيام المقلة بهذه الوظيفة المهمّة من خلال حركتها المستمرّة، تحاط العين بستّ عضلات لتسهيل حركتها إلى الجهات المختلفة، الأعلى والأسفل واليمين واليسار، وتمكينها من التحرّك السّريع إلى الدّاخل والخارج.

الحاجبان: يقع في القسم العلويّ من الجفنين العلويّين كتلة كثيفة ومنتظمة من الشَّعْر؛ بهدف إسباغ الجمال، فضلاً عن منع نزول العرق على العين ودخوله فيها، وأداء دور في تعديل النّور، خصوصاً النّور المشعّ من الجهة العليا.

٢.١. عجائب روح الإنسان

كلّ ما أشير له سابقاً يرتبط بالجانب الظّاهريّ للإنسان، وهو بدنه؛ غير أنّ الأبعاد النفسيّة والروحانيّة للإنسان أكثر تعقيداً وغموضاً، فإذا ما ركّزنا على الجوانب المدهشة والأطوار الغريبة في روح الإنسان ونشاطاته الفكريّة والروحيّة لأدركنا أنّنا أمام أغرب ظواهر الكون وأكثرها أسراراً.

ولعلّ من أهمّ الفعاليّات النفسيّة للإنسان ما يأتي:

١. التّفكير: من أجل كشف المجهولات وحلّ المشكلات.

٢. الابتكار: بغية سدّ الاحتياجات المختلفة والتصدّي للحوادث المتنوّعة وإثبات الاختراعات والاكتشافات.

٣. الذاكرة: لحفظ أنواع المعلومات المتأتّية للإنسان عن طريق الحسّ أو الفكر، ومن ثمّ تبويبها

وأرشفتها لاستدعائها عند الحاجة.

٤. تحليل المسائل: وذلك في سبيل العثور على العلل والأسباب الّتي تقف وراء الحوادث من خلال فرز المفاهيم الذهنيّة عن بعضها ومن ثمّ ربطها ببعضها.

٥. التخيّل: وهو إيجاد صور ذهنيّة غير موجودة في الخارج أحياناً باعتباره مقدّمة لفهم القضايا الجديدة.

٦. اتّخاذ الموقف والإرادة: بهدف أداء الأفعال أو إيقافها أو إجراء تغيير عليها.

٧. الحبّ والبغض وعشرات الظّواهر الأخرى: الّتي لها تأثير إيجابيّ أو سلبيّ على أعمال الإنسان[1].

٢. الآيات في خلق الأرض والشّمس والقمر

أشار القرآن الكريم في أكثر من ثمانين موضع إلى خلق الأرض والتّدبير الّذي يسودها، ودعا المؤمنين إلى التدبّر في عجائب الأرض باعتبارها من أهمّ طرق التّوحيد ومعرفة الله، فهو يعتبر الآيات الإلهيّة في الأرض كثيرة ودقيقة وواضحة، ولها القدرة على إيصال الباحث عن الحقيقة إلى مراتب اليقين، فقال (سبحانه وتعالى):

﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ﴾[2].

وقد بيّن الإمام أبوعبد الله الصّادق عليه السلام جانباً من تلكم الآيات للمفضّل قائلاً:

«فَكِّرْ فِي خَلْقِ هَذِهِ الْأَرْضِ عَلَى مَا هِيَ عَلَيْهِ حِينَ خُلِقَتْ رَاتِبَةً رَاكِنَةً، فَتَكُونَ مَوْطِناً مُسْتَقَرّاً لِلْأَشْيَاءِ، فَيَتَمَكَّنُ النّاس مِنَ السَّعْيِ عَلَيْهَا فِي مَآرِبِهِمْ، وَالْجُلُوسِ عَلَيْهَا لِرَاحَتِهِمْ، وَالنَّوْمِ لِهَدْئِهِمْ»[3].

ثمّ إنّ هذه الأرض بكلّ ما لديها من عظمة وبجميع سكّانها من مليارات البشر وأعداد لا

---

١. مكارم الشيرازي، پيام قرآن، ج٢، بحث الروح.

٢. سورة الذاريات: الآية ٢٠.

٣. المجلسي، بحار الأنوار، ج٣، ص١٢١؛ توحيد المفضّل، ص١٤٣.

تُحصى من الحيوانات والنباتات والجمادات وغيرها جُعلت كالمهاد الّذي يستوعب جميع السّاكنين ويمنحهم الاستقرار والسّكون[١].

إنّنا نعلم بأنّ الأرض واحدة من كواكب المنظومة الشّمسيّة، وقد جعل الباري بينها وبين الشّمس والكواكب الأُخرى ارتباطاً مباشراً يتيح للنّاس العيش على سطح الكرة الأرضيّة دون مشاكل. وقد أشار (جلّ وعلا) إلى جوانب مختلفة من هذا الارتباط الوثيق باعتباره آيةً من آيات الخلق بحكمة وتدبير، مخاطباً العقول وداعياً النّاس إلى التفكّر من أجل حثّهم على القبول بوجود الصّانع، فقال:

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمٰوٰاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلاٰفِ اللَّيْلِ وَالنَّهٰارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمٰا يَنْفَعُ النّٰاسَ وَمٰا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ السَّمٰاءِ مِنْ مٰاءٍ فَأَحْيٰا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهٰا وَبَثَّ فِيهٰا مِنْ كُلِّ دٰابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيٰاحِ وَالسَّحٰابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمٰاءِ وَالْأَرْضِ لَآيٰاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[٢].

﴿وَمِنْ آيٰاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهٰارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾[٣].

ومن آيات الله اللّيل والنّهار والشّمس والقمر:

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيٰاءً وَالْقَمَرَ نُوراً وَقَدَّرَهُ مَنٰازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسٰابَ مٰا خَلَقَ اللهُ ذٰلِكَ إِلاّٰ بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيٰاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾[٤].

فمن وجهة نظر القرآن الكريم، تُعدّ الشّمس والقمر دليلين واضحين على وجود خالق حكيم ومقتدر لعالم الخلقة؛ حيث دعا هذا الكتاب السّماوي ذوي الألباب إلى التأمّل والتدبّر في هاتين الظّاهرتين العجيبتين في عالم الخلقة سبع عشرة مرّة.

إنّ النقطة الأهمّ الجديرة بالتأمّل في طريق معرفة الله من خلال خلق الشّمس والقمر، هي أنّ الشّمس بحجمها الّذي يفوق حجم الأرض بمليون وثلاث مئة وواحد وتسعين ألف مرّة، والقمر بحجمه الّذي يعادل ١/٤٩ من حجم الأرض، كلاهما أزاء أمر الخالق ساجدان وخاضعان،

١ . انظر: سورة النبأ: الآية ٦.

٢ . سورة البقرة: الآية ١٦٤.

٣ . سورة فصّلت: الآية ٣٧.

٤ . سورة يونس: الآية ٥.

ومسخّران لخدمة حياة الإنسان، وقد تكرّر ذكر هذا الأمر في القرآن الكريم[١]، فقال:

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ﴾[٢].

إنّ وجود الحياة على وجه الكرة الأرضيّة لا ينفكّ عن وجود نور الشّمس؛ وعليه فإنّ خلق الشّمس وجعلها في خدمة الإنسان إنّما هو مقدّمة لخلق الإنسان ودوام حياته، فما إن ينطفئ نورها حتّى تغرق الأرض في الظلام ويسودها البرد القارس، فلا يهبّ فيها نسيم ولا تنزل فيها أمطار ولا ثلوج، وتنضب العيون وتجفّ الأنهار وتتوقّف الشلالات عن الحركة، ولا ينّبت في الأرض نبات، وينعدم فيها الطّعام بجميع أشكاله، وتنتشر في جميع أرجائها كتل ثلجيّة عظيمة تجعل الحياة فيها أمراً مستحيلاً؛ فينطفئ مصباح الحياة.

وبهذا يتبيّن أنّ منشأ النّظام الّذي يشهده الكون والحياة البشريّة عموماً هو النّظام والترتيب الخاصّ للشّمس والقمر والأرض، وهذا ما أفاده القرآن الكريم؛ حيث كشف عن حقيقة أنّ كلّاً من الشّمس والقمر يقطع منازل ضمن مسار خاصّ ويتحرّك وفقاً لنظام معيّن، فقال:

﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَها ذٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ * وَالْقَمَرَ قَدَّرْناهُ مَنازِلَ حَتّىٰ عادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ * لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِى لَهآ اَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سابِقُ النَّهارِ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾[٣].

على هذا الأساس، فالشّمس وإن كانت تمثّل مركز المنظومة الشّمسيّة، والأرض تدور حولها، لكنّها ليست بساكنة؛ بل إنّها تتحرّك حركات وضعيّة باتّجاه الشمال وحول مركز المجرّة، كما إنّ للقمر حركات انتقاليّة ووضعيّة حول الشّمس وبالتّزامن مع حركة المنظومة الشّمسيّة.

ومن المظاهر الأُخرى للنّظام في خلق الشّمس والقمر، دورهما الأساسي في التّقدير الدّقيق للزّمان والتّقويم، وليس بخفيّ أنّ التقدير الزّمني يعدّ من الأركان الأساسيّة لحياة الإنسان، والشّمس والقمر من أهمّ الوسائل لحساب الزّمن والتّاريخ، فهما كالسّاعتين الدّقيقتين اللّتين

١. الريشهرى، دانشنامه عقائد اسلامى، ج٣، ص٢٣٥.

٢. سورة إبراهيم: الآية ٣٣.

٣. سورة يس: الآيات ٣٨-٤٠.

تعملان بنظام دقيق جدّاً، بحيث لم تقدّما ولم تؤخّرا ثانية واحدة؛ بل ولا أقلّ من الثّانية على مدى ملايين السّنين، وذلك على الرّغم من حجمهما ووزنهما الكبير وحركاتهما المختلفة.

نعم، إنّه درس آخر من دروس التّوحيد المستفاد من القرآن الكريم:

﴿...وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَاناً ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾[1].

٣. الآيات في خلق المجرّات الكونية

إنّ العالم الّذي يبدو في أعيننا وكأنّه مجموعة من الموجودات البسيطة والتّافهة إنّما هو عظيم وواسع جدّاً بحيث لا يمكن أن تحيط به تصوّراتنا، إلى درجة أنّ الالتفات إلى عظمة عالم المجرّات والنّظم الدقيق الّذي يسودها يدعو كلّ إنسان عاقل وذي ضمير حيّ إلى التأمّل والتدبّر.

وفي هذا السّياق، كلمة «السّماء» في اللغة مشتقّة من الفعل «سُمُوّ» بمعنى الرّفعة والعلوّ؛ ولذا يطلق على سقف البيت سماء أيضاً[2]. وقد ورد استعمال هذه الكلمة في القرآن الكريم بصورة المفرد والجمع وفي معاني مختلفة ٣١٣ مرّة.

ثمّ إنّ الشيء اللّافت في دراسة السّماء هو سعتها المحيّرة الّتي تفوق التصوّر. نعم، في كلّ مجرّة من المجرّات عدد غير متناهٍ من الكواكب، وقطر المجرّة الّتي نعيش عليها والّتي تقع فيها المنظومة الشمسيّة مئة ألف سنة ضوئيّة، ويستغرق دوران الشّمس حول هذه المجرّة على الرغم من سرعتها العالية ٣٥٠ مليون سنة. هذا وأثبتت آخر الدّراسات الّتي قام بها باحثون أخصّائيون أنّ في العالم مليار مجرّة على أقلّ التقادير، وفي مجرّتنا وحدها مليار كوكب سيّار[3].

إنّ في الكون عدداً غير محدود من الكواكب، وربّما يتبادر إلى الأذهان للوهلة الأُولى أنّ المسافة الّتي تفصلها عنّا غير معلومة، فكم تتصوّرون المسافة بيننا وبين أقرب كوكب بعد الشّمس؟ لو كانت لدينا وسيلة تتحرّك بسرعة ٣٠٠,٠٠٠ كيلو متر في الثّانية، لاستغرق وصولنا إلى أوّل كوكب بعد الشّمس حدود أربع سنوات! وهذا ما يعبّر عنه العلماء بالسّنة الضوئيّة،

---

١. سورة الأنعام: الآية ٩٦.

٢. ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، ج٣، ص٩٨.

٣. انظر: أحمد أمين، راه تكامل، ج٦، ص١٠٣؛ مكارم الشيرازي، پيام قرآن، ج٢، ص١٧٦.

فالضوء يتحرّك بسرعة ٣٠٠,٠٠٠ كيلومتر في الثّانية الواحدة. ومن خلال هذه الطريقة الحسابيّة، يتبيّن أنّ النّور المنبعث من أقرب كوكب إلينا سوف يصلنا بعد أربع سنوات، فالمسافة الّتي تفصل أقرب كوكب عن مجرّتنا هي ٨٠٠,٠٠٠ سنة ضوئيّة!

ثمّ إنّ جميع الكواكب تتحرّك بسرعة كبيرة ضمن مسارات مختلفة، فتبدأ سرعة حركتها من عشر كيلومترات في الثّانية كحدٍّ أدنى وتصل إلى ثلاث مئة أو أربع مئة كيلومتر؛ بل تصل سرعة بعضها إلى ثلاثة آلاف كيلومتر في الثّانية[1].

بناءً على ذلك، فالتدبّر في المجرّات والظواهر الكونيّة الأخرى يكشف للإنسان عن عملها طبقاً لنظام مُتقن ووجود ترابط وثيق بين أجزائها، فيدرك أنّ هذا الكون المترامي الأطراف والمتّسم بالنّظام والانسجام في الوقت ذاته لا يمكن أن ينشأ عن طريق الصّدفة ودُون صانع؛ وبهذا، فإنّ العقل البَشَريّ يعترف بوجود صانع لا يتطرّق إليه الجهل والضعف وترجع إليه جميع المخلوقات. من هنا، قال الإمام جعفر الصّادق عليه السلام لرجل زنديق:

«أمَا تَرَى الشَّمْسَ والْقَمَرَ واللَّيْلَ والنَّهَارَ يَلِجَانِ فَلَا يَشْتَبِهَانِ ويَرْجِعَانِ قَدِ اضْطُرَّا، لَيْسَ لَهُمَا مَكَانٌ إلّا مَكَانُهُمَا، فَإنْ كَانَا يَقْدِرَانِ عَلَى أَنْ يَذْهَبَا فَلِمَ يَرْجِعَانِ؟ وإنْ كَانَا غَيْرَ مُضْطَرَّيْنِ فَلِمَ لَا يَصِيرُ اللَّيْلُ نَهَاراً والنَّهَارُ لَيْلاً؟ اضْطُرَّا واللهِ يَا أَخَا أَهْلِ مِصْرَ إلَى دَوَامِهِمَا، والَّذِي اضْطَرَّهُمَا أَحْكَمُ مِنْهُمَا وأَكْبَرُ»[2].

ولمّا سأل زنّديق الإمام الرّضا عليه السلام عن الدليل على وجود الله (سبحانه وتعالى)، بعد أن أشار إلى الآيات الإلهيّة في الأنفس، قال:

«مَعَ مَا أَرى - مِنْ دَوَرَانِ الْفَلَكِ بِقُدْرَتِهِ، وإنْشَاءِ السَّحَابِ، وتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ، وَمَجْرَى الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ وَالنُّجُومِ، وَغَيْرِ ذلِكَ مِنَ الْآيَاتِ الْعَجِيبَاتِ الْمُبَيِّنَاتِ - عَلِمْتُ أَنَّ لِهذَا مُقَدِّراً وَمُنْشِئاً»[3].

ومن الدّروس القرآنيّة الأخرى في التّوحيد، إشارته إلى تعليق الأجرام السماويّة في الفضاء

---

١. لمزيد من المعلومات، انظر: نوري همداني، دانش عصر فضا.

٢. الكليني، الكافي، ج١، ص٧٣؛ الصدوق، التوحيد، ص٢٩٥.

٣. الكيني، الكافي، ج١، ص٧٩؛ الصدوق، التوحيد، ص٢٥١.

دون أعمدة، والتحكّم بها بواسطة قوّة الجاذبيّة الّتي عبّر عنها القرآن الكريم بـ«الأعمدة غير المرئيّة»، وذلك في الآيتين الآتيتين:

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾[١].

﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾[٢].

لقد كشفت هذه الآيات عن حقيقة علميّة لم تكن معروفة عند نزول الآيات الكريمة؛ لأنّه في ذاك الوقت كانت نظريّة «بطليموس» في الهيئة تتحكّم بكلّ قواها في المحافل العلميّة في العالم وعلى أفكار النّاس. طبقاً لهذه النظرية، فإنّ السّماوات أجرام متداخلة تشبه قشور البصل، وإنّها لم تكن معلّقة دون عمَد؛ بل كلّ واحدة منها تستند إلى الأخرى. ولكن بعد نزول هذه الآيات بألف سنة تقريباً توصّل العلم إلى أنّ هذه الفكرة غير صحيحة، فالحقيقة أنّ الأجرام السّماويّة لها مقرٌّ ومدارٌ ثابت، ولا تستند إلى شيء، فالشيء الوحيد الّذي يجعلها مستقرّة وثابتة في مكانها هو تعادل قوّة التجاذب والتنافر، فالأولى تربط الأجرام في ما بينها، والأخرى لها علاقة بحركتها. هذا التوازن للقوّتين هو الّذي يشكّل أعمدة غير مرئيّة تحفظ الأجرام السّماويّة وتجعلها مستقرّة في مكانها[٣].

وفي هذا السّياق، أشار أمير المؤمنين عليه السلام إلى هذا النّحو من العظمة الّتي يعجز الإنسان عن وصفها، وقال في دعاءٍ يخاطب به الخالق الحكيم:

«سُبْحَانَكَ مَا أَعْظَمَ مَا نَرَى مِنْ خَلْقِكَ، وَمَا أَصْغَرَ كُلَّ عَظِيمَةٍ فِي جَنْبِ قُدْرَتِكَ، وَمَا أَهْوَلَ مَا نَرَى مِنْ مَلَكُوتِكَ، وَمَا أَحْقَرَ ذَلِكَ فِي مَا غَابَ عَنَّا مِنْ سُلْطَانِك»[٤].

٤. التّأثير المعنويّ لمعرفة الآيات الإلهيّة

دعا الله المسلمين في القرآن الكريم إلى التدبّر في عجائب الخلق والتأمّل في العالم المحيط

---

١ . سورة الرعد: الآية ٢.

٢ . سورة لقمان: الآية ١٠.

٣ . مكارم الشيرازي، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزّل، ج٧، ص٣٣٠-٣٣١.

٤ . نهج البلاغة، ص١٥٨، الخطبة ١٠٩؛ الّيثي، عيون الحكم والمواعظ، ص٤٨٣.

بهم، لا سيما في السماوات وما يرتبط بها، فقال (سبحانه وتعالى):

﴿اَفَلَمْ يَنْظُرُوٓا اِلَى السَّمآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْناها وَزَيَّنّاها وَما لَها مِنْ فُرُوجٍ﴾[1].

وطبقاً لهذه الدّعوة الإلهيّة، كان الأئمّة المعصومون عليهم السلام يولون اهتماماً خاصّاً للسّماء الّتي فوقهم، خصوصاً في أوقات السّحر وأثناء صلاة اللّيل عند مناجاة الباري (سبحانه وتعالى)؛ حيث كانوا يحدّقون النّظر بالسّماء ويغوصون في بحر الأفكار أوقاتاً طويلة.

وكان رسول الله صلى الله عليه وآله يقوم في منتصف اللّيل ثلاث مرّات، وكان كلّما قام قلّب بصره في السّماء، ثم قرأ الآيات من سورة آل عمران: ﴿اِنَّ فِي خَلْقِ السَّمٰواتِ وَالْاَرْضِ... اِنَّكَ لا تُخْلِفُ الْميعادَ﴾[2] و ثمّ يشرع ببعض صلوة الليل.[3]

ولربّما كان التدبّر في الآيات الإلهيّة الدالّة على التّوحيد في جوف اللّيل خير من كثير من العبادات؛ ولذا رُوي في هذا المجال أنّه:

«قُرّبَ إلى عَليّ بنِ الحُسَينِ عليه السلام طَهُورُهُ في وَقتِ وِرْدِهِ، فَوَضعَ يَدَهُ في الإناءِ لِيتوضَّأ، ثمّ رفعَ رأسَهُ فنظرَ إلى السَّماءِ والقمرِ والكواكبِ، فجعلَ يفكّرُ في خَلقِها حتّى أصبحَ وأذّنَ المؤذّنُ ويدُهُ في الإناءِ»[4].

ورُويَ في هذا المجال عن حبّة العُرَنيّ قال:

بَيْنَا أَنَا وَنَوْفٌ نَائِمَيْنِ فِي رَحَبَةِ الْقَصْرِ؛ إِذْ نَحْنُ بِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام فِي بَقِيَّةٍ مِنَ اللَّيْلِ وَاضِعاً يَدَهُ عَلَى الْحَائِطِ شَبِيهَ الْوَالِهِ وَهُوَ يَقُولُ:

﴿اِنَّ فِي خَلْقِ السَّمٰواتِ وَالْاَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهارِ لَاٰياتٍ لِاُولِي الْاَلْبابِ * اَلَّذينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِياماً وَقُعُوداً وَعَلٰى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمٰواتِ وَالْاَرْضِ رَبَّنا ما خَلَقْتَ هٰذا باطِلاً سُبْحانَكَ فَقِنا عَذابَ النّارِ * رَبَّنآ اِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النّارَ فَقَدْ اَخْزَيْتَهُ

---

١. سورة ق: الآية ٦.

٢. سورة آل عمران: الآيات ١٩٠-١٩٤.

٣. النوري، مستدرك الوسائل، ج٣، ص١٥٦؛ القاضي نعمان، دعائم الاسلام، ج١، ص٢١١؛ و أيضاً انظر: الكليني، الكافي، ج٣، ص٤٤٥.

٤. الريشهري، دانشنامه عقائد اسلامی، ج٤، ص٣٩٨.

وَما لِلظّالِمينَ مِنْ اَنصارٍ * رَبَّنآ اِنَّنا سَمِعْنا مُنادِياً يُنادى لِلْايمانِ اَنْ ءامِنُوا بِرَبِّكُمْ فَـٰامَنّا رَبَّنا فَاغْفِرْ لَنا ذُنُوبَنا وَكَفِّرْ عَنّا سَيِّئاتِنا وَتَوَفَّنا مَعَ الْاَبْرارِ * رَبَّنا وَءاتِنا ما وَعَدْتَنا عَلى رُسُلِكَ وَلا تُخْزِنا يَوْمَ الْقِيامَةِ اِنَّكَ لا تُخْلِفُ الْميعادَ﴾[1].

قَالَ: ثُمَّ جَعَلَ يَقْرَأُ هَذِهِ الْآيَاتِ وَيَمُرُّ شِبْهَ الطَّائِرِ عَقْلُهُ، فَقَالَ لِي: «أَرَاقِدٌ أَنْتَ يَا حَبَّةُ أَمْ رَامِقٌ؟» قَالَ: قُلْتُ: رَامِقٌ، هَذَا أَنْتَ تَعْمَلُ هَذَا الْعَمَلَ فَكَيْفَ نَحْنُ؟ فَأَرْخَى عَيْنَيْهِ فَبَكَى ثُمَّ قَالَ لِي:

«يَا حَبَّةُ! إِنَّ لِلَّهِ مَوْقِفاً وَلَنَا بَيْنَ يَدَيْهِ مَوْقِفاً لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ أَعْمَالِنَا، يَا حَبَّةُ! إِنَّ اللهَ أَقْرَبُ إِلَيَّ وَإِلَيْكَ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ، يَا حَبَّةُ! إِنَّهُ لَنْ يَحْجُبَنِي وَلَا إِيَّاكَ عَنِ اللهِ شَيْءٌ».

قَالَ: ثُمَّ قَالَ: «أَرَاقِدٌ أَنْتَ يَا نَوْفُ؟» قَالَ: قَالَ: لَا يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مَا أَنَا بِرَاقِدٍ، وَلَقَدْ أَطَلْتُ بُكَائِي هَذِهِ اللَّيْلَةَ. فَقَالَ:

«يَا نَوْفُ! إِنْ طَالَ بُكَاؤُكَ فِي هَذَا اللَّيْلِ مَخَافَةً مِنَ اللهِ (سبحانه وتعالى) قَرَّتْ عَيْنَاكَ غَداً بَيْنَ يَدَيِ اللهِ (عَزَّ وَجَلَّ)، يَا نَوْفُ! إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ قَطْرَةٍ قَطَرَتْ مِنْ عَيْنِ رَجُلٍ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ إِلّا أَطْفَأَتْ بِحَاراً مِنَ النِّيرَانِ... ثُمَّ وَعَظَهُمَا وَذَكَّرَهُمَا وَقَالَ فِي أَوَاخِرِهِ: فَكُونُوا مِنَ اللهِ عَلَى حَذَرٍ فَقَدْ أَنْذَرْتُكُمَا».

ثُمَّ جَعَلَ يَمُرُّ وَهُوَ يَقُولُ:

«لَيْتَ شِعْرِي فِي غَفَلَاتِي أَمُعْرِضٌ أَنْتَ عَنِّي أَمْ نَاظِرٌ إِلَيَّ؟ وَلَيْتَ شِعْرِي فِي طُولِ مَنَامِي وَقِلَّةِ شُكْرِي فِي نِعَمِكَ عَلَيَّ مَا حَالِي؟».

قَالَ: فَوَاللهِ مَا زَالَ فِي هَذَا الْحَالِ حَتَّى طَلَعَ الْفَجْرُ.[2]

---

١ . سورة آل عمران: الآيات ١٩٠-١٩٤.

٢ . ابن طاووس، فلاح السائل، ص٢٦٧؛ المجلسي، بحار الأنوار، ج٤١، ص٢٢؛ القمي، سفينة البحار، ج١، ص٩٥.

❁ الأسئلة

١. إن أردّت الاستدلال على أنّ الأرض آية من الآيات الإلهيّة، فإلى أيّ شيءٍ تشير وبأيّ شيءٍ تستدلّ؟

٢. ما تأثير الشّمس على حياة الإنسان وعلى الكرة الأرضيّة عموماً؟

٣. اذكر بعض الأمثلة حول عجائب المجرّات.

❁ موضوعات للبحث

- اكتب بحثاً حول الحياة العجيبة لعالم النّمل واعرضه على أصدقائك.
- اكتب بحثاً موسّعاً حول السّنة الضوئيّة وابحث كم سنة ضوئيّة تفصل بين أبعد مجرّة اكتُشفت إلى الآن وبين الأرض؟

5

الأدلّة على وجود الله: الفطرة (١)

تعرّفنا في الدّرس السّابق على أوّل الطّرق وأشهرها لإثبات الصّانع، وصُور انتظام العالم بوجوه مختلفة، والآن سنتعرّف على دليل آخر يمثّل أساس المعرفة الإلهيّة في منظومة المعارف الدينيّة.

الطّريق الآخر لمعرفة الله هو الطّريق الفطريّ، وقد استفاد منه جميع الأنبياء الإلهيّين وجرى الحديث عنه بالتّفصيل في القرآن الكريم وكلام الأئمّة المعصومين عليهم السلام، ويعتبر برهان الفطرة إلى جانب برهان النَّظم من أهمّ الطّرق لمعرفة الله (سبحانه وتعالى).

١. تعريف المعرفة الفطريّة

حينما يواجه الإنسان المصاعب ويُبتلى بالشّدائد والملمّات وفي ذروة اليأس والقنوط من جميع الأسباب والوسائل الاعتياديّة، يتّجه من أعماق قلبه ومن صميم وجوده إلى قوّة سرمديّة وطاقة لا تنضب، ويدرك بما لا يدع مجالاً للشكّ أنّ هذه الحقيقة السرمديّة بوسعها تخليصه من الابتلاءات وإنقاذه من المآزق وإيصاله إلى ساحل البَرّ والأَمان. ومردّ هذا التوجّه القلبيّ الّذي لا يخلو منه إنسان إلى معرفة مستقاة من الباري (جلّ وعلا) تعرف بـ«المعرفة الفطريّة».

٢. معنى الفطرة

يدلّ أصل «فَطَرَ» في اللّغة على فتح شيءٍ وإبرازه، كما يستعمل بمعنى «خَلَقَ»؛ ذلك أنّ خلق شيءٍ

يعني الشّروع بإيجاده[١]. وعليه فالفطرة حالة من حالات الخلق الابتدائيّ للإنسان. وطبقاً للحديث المأثور عن نبي الإسلام ﷺ: «كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ فَإِنَّ أَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِه»[٢]، فإنّ النّاس جميعاً خُلقوا على نحوٍ من الفطرة الأوّليّة الّتي لا تأبى عن قبول الدِّين، ويسعون إلى ذلك دائماً، وكلّ من يعدل عن هذه الفطرة الأوّليّة إنّما السبب وجود آفة من قبيل تقليد الآباء.

٣. المعرفة الفطريّة في الآيات والرّوايات

تؤكد المصادر الدينيّة على أنّ الإنسان إذا ما كان قادراً على كسب المعرفة حول الباري (سبحانه وتعالى) في الحياة الدنيا فإنّما هو لأجل المعرفة الفطريّة الّتي أودعها الله في روحه في بدء الخلقة؛ حيث قال (جلّ وعلا):

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[٣].

ومن الواضح في هذه الآية الشّريفة أنّ الدِّينَ القيّمَ له ارتباط وثيق بالخلقة الّتي يشترك فيها جميع النّاس، وفي مدرسة أهل البيت عليهم السلام ثمّة ارتباط جليّ بين التّوحيد ومعرفة الله باعتبارها أساس الدِّين من جهة ومبدأ خلق الإنسان من جهة ثانية.

وفي هذا السّياق، سأل زرارة الإمام أباعبدالله الصّادق عليه السلام عن تفسير قوله (سبحانه وتعالى): ﴿فِطْرَتَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾، فقال:

«فَطَرَهُمْ عَلَى التوحيد عِنْدَ الْمِيثَاقِ عَلَى مَعْرِفَتِهِ أَنَّهُ رَبُّهُم»[٤].

وجرى التّأكيد في روايات أخرى على أنّه لولا هذه المعرفة الابتدائيّة لمّا تيسّر على العباد معرفة الله (سبحانه وتعالى).

وقال الإمام أبوجعفر الباقر عليه السلام في تفسير آية الفطرة المتقدّمة:

---

١. انظر: مصطفوي، التحقيق في كلمات القرآن الكريم، ج٩، ص١١١.

٢. الكليني، الكافي، ج٢، ص١٣؛ الصدوق، التوحيد، ص٣٣١؛ البخاري، الصحيح، ج١، ص١٦٨.

٣. سورة الروم: الآية ٣٠.

٤. الصدوق، التوحيد، ص٣٣٠؛ الحلّي، مختصر البصائر، ص٣٩٨؛ و أيضاً انظر: الكليني، الكافي، ج٢، ص١٣.

«فَطَرَهُمْ عَلَى مَعْرِفَتِهِ أَنَّهُ رَبُّهُمْ، وَلَوْلَا ذَلِكَ لَمْ يَعْلَمُوا إِذَا سُئِلُوا مَنْ رَبُّهُمْ وَلَا مَنْ رَازِقُهُم»[١].

وعلى أساس معارف أهل البيت عليهم السلام، توجد هذه الفطرة المفضية إلى معرفة الله (سبحانه وتعالى) لدى جميع النّاس دون استثناء، ولا يُحرم منها أيّ شخصٍ في الكون. من هنا، علّق الإمام أبوجعفر الباقر عليه السلام على الحديث الوارد عن النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله: «كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ» قائلاً: «يَعْنِي الْمَعْرِفَةَ بِأَنَّ اللهَ (عَزَّ وجَلَّ) خَالِقُه»[٢].

٤. المعرفة الفطريّة في كلمات العلماء غير المسلمين

تجلّت المعرفة الفطريّة في الأفكار البشريّة على تنوّع مذاهبها ومشاربها، فعبّر كلّ واحد عنها بطريقته الخاصّة، فاعترف بوجودها كبار العلماء والفلاسفة وتحدّثوا عنها أيضاً، وسنشير أدناه إلى بعض كلماتهم في هذا الخصوص:

وليام جيمس: «أنا أوافق تماماً على أنّ القلب هو مصدر الحياة الدينيّة».[٣]

ماكس مولر: «إنّما انحنى أسلافنا أمام الله حينما لم يتمكّنوا حتّى من وضع اسم له»[٤].

أليكسس كاريل: «يبدو أنّ الشعور العرفانيّ حركة نابعة من أعماق فطرتنا... إنّ الإنسان بحاجة إلى الله بقدر حاجته إلى الماء والهواء»[٥].

باسكال: «لدى القلب أدلّة يعجز العقل عن بلوغها»[٦].

٥. خصائص المعرفة الفطريّة وآثارها

في ختام هذا الدّرس، نشير إلى أنّ أهمّ مزايا الطّريق الفطري وأبرز فوائد المعرفة الفطريّة هي

---

١ . البرقي، المحاسن، ج١، ص٢٤١ و أيضاً انظر: الصدوق، التوحيد، ص٣٣٠؛ الحلّي، مختصر البصائر، ص٣٩٩.
٢ . الصدوق، التوحيد، ص٣٣١؛ الكليني، الكافي، ج٢، ص١٣.
٣ . جمز، دين و روان، ص١٢٢.
٤ . كارل، نيايش، ص٣١.
٥ . المصدر نفسه، ص١٦ و٢٤.
٦ . انظر: كاپلستون، تاريخ فلسفه، ج٤، ص٢٠٨.

حصول أنسٍ بالحقّ (سبحانه وتعالى) وإقامة ارتباط وثيق به والانجذاب إليه وامتلاك حالة الخوف والرّجاء في جميع نواحي الحياة.

إنّ هذه المعرفة تنبع من القلب وتترك تأثيراً على الجوارح والأركان؛ بل يظهر أثرها في كلّ جزء من حياتنا ووجودنا. فعلى الرّغم من أنّنا نعترف بالله كحقيقة واضحة، إلّا أنّنا غالباً لا نعتبره مؤثراً في حياتنا، فكأنّنا نتصوّر يديه مغلولتين عن إجراء تغيير في شؤوننا وأمورنا، والحال أنّ الله (سبحانه وتعالى) بحسب الرّؤية القرآنية: ﴿يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾[1]، و ﴿يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾[2]، فيستطيع تغيير مسار حياة الإنسان في أيّ لحظة. ومن الواضح أنّنا نعوّل أحياناً على شخص مسؤول أو ثريّ أكثر من تعويلنا على الله (سبحانه وتعالى)، فنؤمن بأنّه هو من يحلّ مشكلتنا المعقّدة.

بيد أنّ المعرفة القلبيّة للإنسان بالله (سبحانه وتعالى) تجعله يعتبر الله مؤثّراً في حياته تأثيراً مباشراً؛ بل وأكثر اقتداراً وقرباً من أيّ مؤثّر آخر. من هنا وبقطع النّظر عن جميع الأسباب والمسبّبات الظاهريّة، يؤمن الموحّدون بأنّه لا قوّة في العالم قادرة على إصابتهم بأدنى ضرر دون إذن منه (سبحانه وتعالى).

❁ الأسئلة

١. اذكر معنى الفطرة لغةً ثمّ اشرح معناها في القرآن والسنّة.

٢. كيف فسّر الأئمّة من أهل البيت عليهم السلام الفطرة في الآية الثّلاثين من سورة الرّوم؟

٣. بيّن مزايا المعرفة الفطريّة وأهميتها في الحياة الحقيقيّة للإنسان.

❁ موضوع للبحث

- أحصِ الآيات القرآنيّة الواردة في خصوص التذكّر، وبيّن الآثار المترتّبة عليه بحسب تلك الآيات.

---

١. سورة آل عمران: الآية ٤٠؛ سورة الحجّ: الآية ١٨.

٢. سورة المائدة: الآية ١.

٦

الأدلّة على وجود الله: الفطرة (٢)

تحدّثنا في الدّرس السّابق عن المعرفة الفطريّة وخصائصها، وأشرنا إلى أنّه لنيل المعرفة الفطريّة لا بدّ من إزالة الحُجب وتجلّي نور الفِطرة الإلهيّة للإنسان. أمّا في هذا الدّرس فسوف نبحث العوامل الّتي تساعد على إيقاظ المعرفة الفطريّة وبلورتها.

طرق إظهار الفطرة وبلورتها

ذكرنا أنّ المعرفة الفطريّة غالباً ما تبقى مخبّأة وفي طيّ النّسيان؛ ولكن يتسنّى للإنسان استذكار تلك المعرفة الإلهيّة وإظهارها بطرق ووسائل مختلفة، من أبرزها:

١. تذكير الأنبياء والأولياء

لا شكّ في أنّ التذكير الّذي يقوم به الأنبياء والأولياء الإلهيّون يؤول إلى التذكير بالمعرفة الفطريّة، وهي المعرفة الّتي تشكّل أساس الإيمان بالدّين. من هنا، أشار أمير المؤمنين عليه السلام في الخطبة الأولى من «نهج البلاغة» إلى مسؤوليّة الأنبياء قائلاً:

«فَبَعَثَ فِيهِمْ رُسُلَهُ وَوَاتَرَ إِلَيْهِمْ أَنْبِيَاءَهُ؛ لِيَسْتَأْدُوهُمْ مِيثَاقَ فِطْرَتِهِ، وَيُذَكِّرُوهُمْ مَنْسِيَّ نِعْمَتِهِ، وَيَحْتَجُّوا عَلَيْهِمْ بِالتَّبْلِيغ»[١].

وكما هو واضح فإنّ الرّسالة الأولى للأنبياء هي إيقاظ الفطرة ودعوة النّاس إلى الوفاء

---

١. نهج البلاغة، الخطبة ١.

بالميثاق الّذي عقدوه في قلوبهم مع ربّهم، فمن الفوارق الأساسيّة بين منهج الأنبياء الإلهيّين وبين الأديان البشريّة هو أنّ الله (سبحانه وتعالى) يرسم منهج دعوة الأنبياء بقوله:

﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمٰوٰاتِ وَالْأَرْضِ﴾[١].

ويكشف كلام الأنبياء المذكور عن حقيقة مفادها أنّ كلّ إنسان يعود إلى نفسه ويلتفت إلى الآيات الإلهيّة في موضوع الخلق عبر هذا النّحو من التذكيرات، سوف يستذكر معرفته الفطريّة الّتي طواها النسيان، ويحيا ضميره الرّاقد ويستنير بنور المعرفة الإلهيّة؛ لأنّ الله (جلّ وعلا) ليس مجهولاً ولا مشكوك الوجود في فطرة أيّ إنسان.[٢]

٢. المصائب والبلايا

من الأُمور الّتي تدفع الإنسان إلى استذكار المعرفة الإلهيّة، وقوعه في البلاء الشّديد وفي حالة انقطاع الأمل عن الأسباب المادّيّة والوسائل الاعتياديّة، ولا دور مباشر للإنسان هنا في حصول تلك المعرفة؛ وإنّما تحصل في الغالب بشكل اضطّراري ودون قصد منه، وهذا ما عبّر عنه القرآن الكريم بالمعرفة في البأساء والضرّاء[٣].

فلما تمرّ على الإنسان حالات من البأساء والضرّاء، تنقطع آماله عن كلّ شيءٍ و عن الأسباب المادّيّة أكثر فأكثر، وعند اشتداد المصائب وتفساقم الأزمات يفقد الإنسان القدرة على التعقّل والتفكّر المنطقي أيضاً، وفي ذروة هذه الحالة يشعر بمنتهى الفقر والعجز، وفي ظلّ هذا الفقر والعجز يدرك وجود الإله الغنيّ والقدير.

ولا ينبّغي أن يفوتنا أنّ هذا النّحو من المعرفة لا يتأتّى بطبيعة الحال عند حدوث البلايا والمشاكل الاعتياديّة الّتي تقع في الحياة اليوميّة؛ بل عند وقوع البلايا الكبرى وفي حالة الانقطاع عن جميع الآمال واليأس من جميع الوسائل والعلل، فنجد أنّ الله (سبحانه وتعالى)

---

١. سورة إبراهيم: الآية ١٠.

٢. يشار إلى أنّ كلام الأنبياء الوارد في الآية المتقدّمة جاء بصيغة الاستفهام الاستنكاري، وهو بمعنى نفي كلّ أشكال الشكّ في وجود الباري (سبحانه وتعالى).

٣. انظر: سورة البقرة: الآيتان ١٧٧ و٢١٤؛ سورة الأنعام: الآية ٤٢؛ سورة الأعراف: الآية ٩٤.

يتراءى إلى فطرة الإنسان في حالات العسروالشدّة من قبيل الفيضان والغرق وسقوط الطائرة والحرائق الكبرى والأسر بأيدي أناس مجرمين وبلا رحمة.

على أنّ رجوع الإنسان إلى الفطرة والإقرار بالتّوحيد عند البأساء والضرّاء من السّنن الإلهيّة بنظر القرآن الكريم؛ حيث قال عزّمن قائل:

﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُوراً﴾[1].

في هذه اللّحظات العصيبة، النّاس يدعون اللهَ بمنتهى الإخلاص؛ ولكن ما إن يهدأ البحر وينتهي هيجانه ويشعرون بالنّجاة حتّى يُنكروا ذلك ويتراجعوا عن دعوتهم ويشركوا بالله ثانيةً[2].

وقد أشير في الرّوايات إلى هذه المعرفة الخاصّة لله الّتي تمتاز من حيث الشدّة والوضوح، فروي عن الإمام الحسن العسكري عليه السلام أنّه قال في معنى «الله»:

«هُوَ الّذي يَتَأَلَّهُ إِلَيْهِ عِنْدَ الْحَوَائِجِ وَالشَّدَائِدِ كُلُّ مَخْلُوقٍ عِنْدَ انْقِطَاعِ الرَّجَاءِ مِنْ كُلِّ مَنْ هُوَ دُونَهُ وَتَقَطُّعِ الْأَسْبَابِ مِنْ جَمِيعِ مَا سِوَاهُ».[3]

وَفِي هَذَا السّياق قَالَ رَجُلٌ لِلصَّادِقِ عليه السلام: يَا ابْنَ رَسُولِ اللهِ! دُلَّنِي عَلَى اللهِ مَا هُوَ؟ فَقَدْ أَكْثَرَ عَلَيَّ الْمُجَادِلُونَ وَحَيَّرُونِي. فَقَالَ لَهُ:

«يَا عَبْدَ اللهِ! هَلْ رَكِبْتَ سَفِينَةً قَطُّ؟» قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: «فَهَلْ كُسِرَ بِكَ حَيْثُ لَا سَفِينَةَ تُنْجِيكَ وَلَا سِبَاحَةَ تُغْنِيكَ؟» قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: «فَهَلْ تَعَلَّقَ قَلْبُكَ هُنَالِكَ أَنَّ شَيْئاً مِنَ الْأَشْيَاءِ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُخَلِّصَكَ مِنْ وَرْطَتِكَ؟» فَقَالَ: نَعَمْ. قَالَ الصّادق عليه السلام: «فَذَلِكَ الشَّيْءُ هُوَ اللهُ الْقَادِرُ عَلَى الْإِنْجَاءِ حَيْثُ لَا مُنْجِيَ وَعَلَى الْإِغَاثَةِ حَيْثُ لَا مُغِيثَ»[4].

---

١. سورة الإسراء: الآية ٦٧.

٢. انظر: سورة العنكبوت: الآية ٦٥.

٣. تفسير الإمام العسكري عليه السلام، ص٢١ و ٢٧؛ الصدوق، التوحيد، ص٢٣١؛ الصدوق، معاني الأخبار، ص٤.

٤. الصدوق، التوحيد، ص٢٣١؛ تفسير الإمام العسكري عليه السلام، ص٢٢؛ الديلمي، إرشاد القلوب إلى الصواب، ج١، ص٢٦٨.

٣. الاهتمام بالآيات الإلهيّة

من العوامل الأخرى لاستجلاء المعرفة الفطريّة، الاهتمام بالآيات الإلهيّة؛ لأنّ من شأن هذا الاهتمام توفير الأرضيّة المناسبة لإظهار المعرفة الفطريّة الموجودة في بواطن النّاس. من هنا، قال الإمام أبوجعفر الباقر عليه السلام مشيراً إلى الحقيقة الرّبوبيّة:

«مَوْصُوفٌ بِالْآيَاتِ مَعْرُوفٌ بِالْعَلَامَاتِ»[1].

إنّ المعرفة الفطريّة ـ وكما ذكرنا سابقاً ـ تبقى مستترة وغير ظاهرة للعيان حيث يحيط غبار الغفلة بقلوب النّاس، في هذه الحالة يكون الإنسان بحاجة إلى التذكير والتنبيه ليرجع إلى معرفته الباطنيّة ويعرف ربّه بكلّ وضوح. لقد جعل الله (سبحانه وتعالى) في مخلوقاته خصوصيّات معيّنة، ولمّا ينعم الإنسان النظر إليها ويفكّر في كيفيّة خلقها وإيجادها يجد فيها آيات الرّبوبيّة. من هنا، فإنّ كلّ آية من الآيات الإلهيّة وكلّ علامة من علامات صنع الخالق وتدبيره في عالم الكون تذكّر النّاظر البصير بخالقه وتعرّفه ببارئه، وتجعله مستعدّاً لتلقّي ضرباً من المعرفة لا يسعها العقل ولا يحويها البيان.

٤. العبادة والطّاعة

بعدما أظهر الباري (سبحانه وتعالى) معرفته وعرّف العباد بهدايته الأولى، دعاهم إلى العبادة والطاعة:

﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[2].

على أن يجازيهم عن تلك العبادة بالثّواب، ومن أهمّ مصاديق هذا الثّواب المعرفة به (سبحانه وتعالى)، وهكذا فإنّ العبادة الّتي تبتدأ من معرفة الربّ تكون حصيلتها زيادة معرفته، وهذه المعرفة في حدّ ذاتها كفيلة بإيصال الإنسان إلى العبوديّة في مراحل أسمى. وقد أشير في القرآن الكريم إلى أنّ إطاعة الله (سبحانه وتعالى) تؤدّي بصاحبها إلى الهداية من الله والّتي

---

١. الكليني، الكافي، ج١، ص٩٧؛ الصدوق، التوحيد، ص١٠٨.

٢. سورة الذاريات: الآية ٥٦.

هي من المصاديق الأساسيّة للمعرفة[١].

لكنّ الطّريق الأخير مقتصر على المؤمنين، وتتحقّق عن طريقه أقصى درجات معرفة الله. وقد جرى التأكيد في معارف أهل البيت ﷺ على أنّ الصّلاة والدعاء ـ تحديداً من بين العبادات المختلفة الّتي تشكّل بمجموعها الشّريعة الإسلاميّة ـ يؤديان دوراً كبيراً في زيادة المعرفة وبلورة معرفةٍ خاصّة، فقال النبيّ ﷺ بشأن الصّلاة:

«الصَّلَاةُ مِنْ شَرَائِعِ الدِّين، وَفِيهَا مَرْضَاةُ الرَّبِّ (عَزَّ وَجَلَّ)، وَهِيَ مِنْهَاجُ الْأَنْبِيَاءِ، وَلِلْمُصَلِّي حُبُّ الْمَلَائِكَةِ وَهُدًى وَإِيمَانٌ وَنُورُ الْمَعْرِفَة»[٢].

وثمّة روايات كثيرة في هذا الخصوص تبيّن أنّ المصلّي بصدد الوصول والتقرّب، وليس للوصول والقرب الإلهيّ معنى سوى تحقّق الكمالات وعلى رأسها معرفة الله (جلّ وعلا)؛ ولذا ورد في حديث روي عن أمير المؤمنين والإمام الرّضا والإمام الصّادق ﷺ:

«الْصَّلَاةُ قُرْبَانُ كُلِّ تَقِيٍّ»[٣].

كما أشير إلى حصول هذه المعرفة في الأحاديث الواردة بشأن صلاة الليل أيضاً:

«صَلَاةُ اللَّيْلِ... نُورُ الْمَعْرِفَةِ»[٤].

ومن السّبل الأخرى لحصول المعرفة بالله (سبحانه وتعالى)، التوجّه بالدعاء إليه (عزّوجلّ)، وهو ما يعدّ من أبرز مصاديق العبادة؛ ولذا عُرف عن الأنبياء والأولياء كثرة الدعاء والتضرّع إلى الذّات الأحديّة. من هنا، استفاد الإمام عليّ بن موسى الرّضا ﷺ في مناظرة له مع الجاثليق (كبير النصارى في بلاد المسلمين) من هذه الصّفة للأنبياء، لإبطال دعوى المسيحيّين وقولهم بألوهيّة عيسى ﷺ، فقال مخاطباً إياه:

«يَا نَصْرَانِيُّ! وَاللهِ إِنَّا لَنُؤْمِنُ بِعِيسَى الّذي آمَنَ بِمُحَمَّدٍ ﷺ، وَمَا نَنْقِمُ عَلَى عِيسَاكُمْ

---

١. انظر: سورة النور: الآية ٥٤.

٢. الصدوق، الخصال، ج٢، ص٥٢٢؛ الشعيري، جامع الأخبار، ص٧٢.

٣. الكليني، الكافي، ج٣، ص٢٦٥؛ الصدوق، من لا يحضره الفقيه، ج٤، ص٤١٦؛ نهج البلاغة، الحكمة ١٣٦.

٤. الديلمي، إرشاد القلوب إلى الصواب، ج١، ص١٩١؛ و أيضاً انظر: ابن شهرآشوب، مناقب آل أبي طالب، ج٢، ص١٢٣؛ القمي، تفسير القمي، ج٢، ص٢٥.

شَيْئاً إلّا ضَعْفَهُ وَقِلَّةَ صِيَامِهِ وَصَلاتِهِ». قَالَ الْجَاثِلِيقُ:... مَا أَفْطَرَ عِيسَى يَوْماً قَطُّ وَلَا نَامَ بِلَيْلٍ قَطُّ وَمَا زَالَ صَائِمَ الدَّهْرِ قَائِمَ اللَّيْلِ. قَالَ الرِّضا عليه السلام: «فَلِمَنْ كَانَ يَصُومُ ويُصَلِّي؟»[1].

وربّما كانت أهميّة الدعاء ومكانته بين سائر العبادات الأخرى هي السّبب وراء اعتباره عصارة العبادة ومخّها:

«الدُّعَاءُ مُخُّ العِبَادَةِ»[2].

وعلى هذا الأساس، فإنّ الدعاء والمناجاة والبكاء عند التضرّع إلى الله (جلّ وعلا) تعدّ من أهمّ أسباب إعطاء المعرفة الإلهيّة. ومن هذا المنطلق، يمكن أن يطلب الإنسان من الله المعرفة ويسأله زيادتها خلال الدعاء والتضرّع إليه. قال الإمام أبوالحسن الرّضا عليه السلام في تفسير الآية الشريفة ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾:

«اسْتِزَادَةً فِي الْمَعْرِفَةِ بِرَبِّهِ وَبِعَظَمَتِهِ وَكِبْرِيَائِهِ»[3].

وهنا لا بدّ من التوجّه إلى السّماء والإقبال على الدعاء من أعماق الوجود، ورفع الأيدي إلى الباري الغنيّ عن العالمين لقضاء الحوائج، والتوسّل بالسّاحة الإلهيّة المقدّسة من صميم القلب:

«اللّهُمَّ عَرِّفْنِي نَفْسَكَ فَإِنَّكَ إِنْ لَمْ تُعَرِّفْنِي نَفْسَكَ لَمْ أَعْرِفْ نَبِيَّكَ، اللّهُمَّ عَرِّفْنِي رَسُولَكَ فَإِنَّكَ إِنْ لَمْ تُعَرِّفْنِي رَسُولَكَ لَمْ أَعْرِفْ حُجَّتَكَ، اللّهُمَّ عَرِّفْنِي حُجَّتَكَ فَإِنَّكَ إِنْ لَمْ تُعَرِّفْنِي حُجَّتَكَ ضَلَلْتُ عَنْ دِينِي»[4].

---

١. الصدوق، التوحيد، ص٤٢١-٤٢٢.

٢. الحرّ العاملي، وسائل الشيعة، ج٧، ص٢٧؛ الراوندي، الدعوات، ص١٨.

٣. الصدوق، من لايحضره الفقيه، ج١، ص٣١٠.

٤. الكليني، الكافي، ج١، ص٣٣٧؛ النعماني، الغيبة، ص١٦٦؛ و أيضاً انظر: الصدوق، التوحيد، ص٢٨٦.

❁ الأسئلة

١. بيّن إلى أيّ طريق من طرق ظهور الفطرة تشير الآية الشريفة: ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمٰوٰاتِ وَالْأَرْضِ﴾؟

٢. كيف توقظ المصائب والبلايا الفطرة الإنسانيّة الرّاقدة؟ وضّح ذلك مستعيناً بالآيات والرّوايات.

٣. اشرح بدقّة معنى الحديث «موصوف بالآيات و معروف بالعلامات».

٤. بيّن دور العبادة والدعاء في زيادة المعرفة بالله.

❁ موضوع للبحث

- من خلال التأمّل في الزوايا المختلفة للصّلاة، بيّن كيف تستطيع العبادة إظهار المعرفة الفطريّة؟ وبأيّ طريقة يتمّ ذلك؟

٧

توحيد الله

تطرّقنا في الدّروس السّابقة إلى بحث طريقين من طرق التعرّف على الله (سبحانه وتعالى)، وسنتناول هنا بحث أهمّ أُوصاف الباري، أي الوحدانيّة. وقبل الخوض في أدلّة التّوحيد، سنتحدّث عن أهميّة التّوحيد ومعناه.

يعتبر التّوحيد أهمّ عنصر من عناصر العقيدة الإسلاميّة وجميع الأديان الإلهيّة، ويحتلّ الصّدارة في المنهج العلميّ والتربويّ للأنبياء الإلهيّين. من هنا، جرى التأكيد على هذا الأصل المعرفيّ أكثر من أيّ ركن آخر في القرآن الكريم.

١. أهميّة التّوحيد في الكتاب والسنّة

أُشير إلى توحيد الله في القرآن الكريم في سياق النّفي والإيجاب: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ﴾[١].

فنرى أنّ الله (سبحانه وتعالى) في هذه الآية المباركة وآيات قرآنيّة أخرى كثيرة دعا المسلمين، بل النّاس جميعاً، إلى هذا الأصل المهمّ، وأن يؤمنوا بالله وحده، وألّا يركنوا إلّا إلى الله الواحد الرحمن بعباده والرّحيمُ بهم.

لا شكّ في أنّ التّوحيد أصلٌ وأساس في جميع الأديان الإلهيّة، فهي جميعاً تدعو النّاس في بداية الأمر إلى التّوحيد وتطالبهم بالإقرار به، ولا يوجد دين دعا إلى التّوحيد كما دعا له الإسلام،[٢]

---

١ . سورة البقرة: الآية ١٦٣.

٢ . برنجكار، كلام وعقائد، ص٨٤.

وفي هذا السّياق كان أوّل ما قام به النبيّ الأكرم ﷺ هو دعوة النّاس إلى شهادة أن «لا إله إلّا الله» وتَرْكِ الشِركِ[١].

لذلك، إنّ التّوحيد هو الركن الركين للدين الإسلاميّ حتّى من وجهة نظر غير المسلمين أيضاً. فقد شدّد «جون ناس» في كتابه «تاريخ الأديان» على هذا الأمر الهامّ الّذي ميّز الإسلام عن سائر الأديان والمذاهب، مؤكّداً على أنّ التّوحيد في الإسلام لا يشبهه في جميع الأديان الأخرى[٢].

وعلى هذا الأساس، يعتبر الإيمان بالتّوحيد أساساً رصيناً في الإسلام؛ ولذا قال الإمام أبو عبد الله الصّادق عليه السلام في هذا الخصوص:

«إِنَّ أَسَاسَ الدِّينِ التَّوحِيدُ وَالْعَدْلُ»[٣].

إنّ التّوحيدَ شعار الدِّين وعموده، فجميع المعارف الدينيّة تنتهل منه ومردّها إليه، حتى إنّ الله (سبحانه وتعالى) أبلغ النبيّ الخاتم ﷺ بواسطة جبرائيل عليه السلام أنّ أصل الدِّين ودعامته قول: «لا إله إلّا الله»[٤].

فالتوحيد هو العمود الّذي يستند إليه الدِّين الإسلاميّ ويمنعه من الانحراف والسقوط؛ ولهذا السّبب يجب معرفة الأبعاد المختلفة لهذا الأصل والتمسّك به في البحوث العقديّة والدينيّة المختلفة للحيلولة دون الانحراف والسقوط.

٢. معنى التّوحيد

كلمة التّوحيد تعني الإيمان بالله وحده لا شريك له[٥]. فالتوحيد أصله بمعنى الوحدانيّة، لكنّ الوحدانيّة لها مصاديق مختلفة، وأوّل مصاديقها الّذي يتبادر إلى الأذهان هو نفي الشريك. كما وردت معاني دقيقة وطريفة للتوحيد في القرآن والرّوايات، فعلى سبيل المثال فُسّر التّوحيد

---

١. قال: «يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ وَيَا مَعْشَرَ الْعَرَبِ! أَدْعُوكُمْ إِلَى عِبَادَةِ اللهِ وَخَلْعِ الْأَنْدَادِ وَالْأَصْنَامِ وَأَدْعُوكُمْ إِلَى شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ»(الطبرسي، إعلام الورى بأعلام الهدى، ص٣٩).

٢. ناس، تاريخ جامع اديان، ص٧٠٤.

٣. الصدوق، معاني الأخبار، ص١١؛ الصدوق، التوحيد، ص٩٦.

٤. الكوفي، تفسير الفرات، ج١، ص٣٩٧؛ المجلسي، بحار الأنوار، ج٢٣، ص٢٤٧.

٥. الفراهيدي، كتاب العين، ج٣، ص٢٨٠؛ ابن منظور، لسان العرب، ج٣، ص٤٤٦.

في بعض الرّوايات بانعدام الشّبيه والنّظير؛ وعليه فإن وصف الله بـ«الواحد» و«الأحد» يعني أنّه لا شيء يشبهه ولا يتّصف بأيٍّ من صفات المخلوقات.

وقد أشار الإمام جعفر بن محمد الصّادق عليه السلام إلى هذا الأمر ببيان بليغ فقال:

«أَمَّا التّوحيد فَأَنْ لَا تُجَوِّزَ عَلَى رَبِّكَ مَا جَازَ عَلَيْكَ»[1].

هذه الرّواية تشير في الحقيقة إلى المعنى الدّقيق للتّوحيد، وتثبت أنّ أيّ تشابه بين المخلوقات والخالق يكون مصيره الإشراك بالله (سبحانه وتعالى)؛ ولذا فإنّنا نحمد الله الّذي لا شبيه له في دعاء الافتتاح:

«الْحَمْدُ للهِ الّذي لَيْسَ لَهُ مُنَازِعٌ يُعَادِلُهُ وَلَا شَبِيهٌ يُشَاكِلُهُ وَلَا ظَهِيرٌ يُعَاضِدُهُ»[2].

٣. مراتب التّوحيد

لإيضاح المعنى الدقيق للتوحيد، يجدر بنا بيان مراتبه، والمقصود من مراتب التّوحيد هو شموله لجميع شؤون الحياة والكون.

فكما إنّ الله (سبحانه وتعالى) واحد لا نظير له في ذاته، كذلك لا شبيه له في صفاته وأفعاله، وهذا ما يُعَبَّرُ عنه بالتّوحيد الذّاتي والتّوحيد الصّفاتي والتّوحيد الأفعالي. وحيث إنّ الثّمرة الحقيقيّة للتّوحيد تتجلّى في كيفيّة سلوك الإنسان مع الله (سبحانه وتعالى)، سنشير إلى مرتبة أخرى من مراتب التّوحيد أيضاً، وهي التّوحيد في العبادة، وفي ما يأتي توضيحٌ مختصرٌ لكلٍّ واحدة من هذه المراتب:

٣.١. التّوحيد الذّاتي

معنى التّوحيد الذّاتي -كما مرّت الإشارة إليه- هو أنّ الذّات الإلهيّة لا تشبه شيئاً من الموجودات مطلقاً، فالذّات الإلهيّة غير منتهية، لا حدود لها ولا قياس ولا تَقْبَل التّركيب، وهذه الصّفات غير موجودة في ذات أيّ مخلوق آخر؛ وهذا معنى ألّا شريك للذّات الإلهيّة.

---

١. الصدوق، التوحيد، ص٩٦.

٢. الطوسي، تهذيب الأحكام، ج٣، ص١١٠؛ القمي، مفاتيح الجنان، دعاء الافتتاح، ص٢٢٨.

٣. ٢. التّوحيد الصّفاتي

إنّ الله (سبحانه وتعالى) لا شبيه له ولا نظير في صفاته أيضاً كما هو الحال في ذاته، فهو منزّه عن صفات مخلوقاته؛ ولذا قال أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام:

«وَمَا زَالَ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ عَنْ صِفَةِ الْمَخْلُوقِينَ مُتَعَالِياً»[1].

وقال الإمام الحسين عليه السلام في هذا الصّدد أيضاً:

«لَا يُوصَفُ بِشَيْءٍ مِنْ صِفَاتِ الْمَخْلُوقِينَ»[2].

فإذن ليس له أيّ شِبه أو مِثل في صفاته و خصائصه كالعلم والقدرة و غيرهما و لايشبهه الخلق في إيّ صفة من صفاتهم: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾[3].

٣. ٣. التّوحيد الأفعالي

لا شبيه لله (سبحانه وتعالى) ولا نظير له في أفعاله أيضاً، فالتّوحيد الأفعالي يشمل جهتين أساسيّتين: من جهة أنّ الله ليس بحاجة إلى سند أو ظهير في أداء أفعاله؛ ولذا ورد في القرآن الكريم توبيخاً للمشركين الّذين يدعون غيره:

﴿وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾[4].

وحيث لا يمكن فرض أيّ حالة يعجز فيها الله وحده عن الإدارة والتّنظيم، فيطلب فيها أو في غيرها العون والمساعدة، قال أمير المؤمنين عليه السلام في هذا الخصوص:

«ابْتَدَعَ الْأَشْيَاءَ بِغَيْرِ تَفَكُّرٍ وَلَا مُعِينٍ وَلَا ظَهِيرٍ وَلَا وَزِيرٍ»[5].

من جهة أخرى، جميع الموجودات في العالم تحتاج في جميع أفعالها وآثارها إلى الإمداد

---

١. الصدوق، التوحيد، ص٥٠.

٢. ابن شعبة الحرّاني، تحف العقول عن آل الرسول صلى الله عليهم، ص٢٤٤.

٣. سورة شورى: الآية ١١؛ و سيأتي الكلام تفصيلاً عن هذا الموضوع في الدروس الآتية.

٤. سورة سبأ: الآية ٢٢.

٥. المسعودي، إثبات الوصية، ص١٢٧؛ المجلسي، بحار الأنوار، ج٢٥، ص٢٦.

الإلهيّ، فلا تستطيع أيّ قوة في العالم أن يكون لها أيّ وجود أو فعلٍ أو أثر بصورة مستقلّة عن الإمداد الإلهيّ. وعلى هذا، فكما إنّ المخلوقات والموجودات محتاجة إلى الذّات الإلهيّة في أصل الوجود، كذلك هي بحاجة إليه في أفعالها وأثارها أيضاً. قال الله (جلّ وعلا):

﴿قُلِ اللهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾[١].

على هذا الأساس، صحيح أنّ الإنسان حرّ ومختار في أداء أفعاله؛ بيد أنّه يكتسب القوّة والإرادة على القيام بها من الله (سبحانه وتعالى)[٢].

٣.٤. التّوحيد في العبادة

التّوحيد في العبادة يعني ألّا نعبد إلّا الله وحده ولا نركع لسواه؛ لأنّ العبادة مقتصرة عليه، فكانت مسألة التّوحيد في العبادة من أولويّات دعوة الأنبياء الإلهيّين، قال (سبحانه وتعالى):

﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾[٣].

إنّ العبادة في اللّغة لا تنفكّ عن معنى الخشوع والتّواضع، فالاحترام والتواضع ذو مراتب ودرجات مختلفة، آخر هذه الدّرجات وأرفعها هي العبوديّة والعبادة الخاصّة بالله (سبحانه وتعالى)، والعبادة تعني الخشوع والتسليم أمام من نعتبره المالك المطلق.

لكن ـ وكما أشرنا سابقاً ـ لا تَصْدُق العبادة على كلّ أشكال الخشوع والتّواضع؛ فكثيراً ما يتواضع الإنسان ويخشع أمام والديه وأساتذته وأُمَرَائه، وقد يسألهم بعض حاجاته أيضاً. ومن المؤسف وجود جماعة تتمسّك بالفهم السّطحي للمسائل والموضوعات الإسلاميّة ـ تدعى الوهّابيّة ـ تفسّر التّوحيد في العبادة بشكل يتنافى مع الزّيارة والتوسّل والشّفاعة، وفي حقيقة الأمر إنّ التّوحيد في العبادة لا يتنافى مع التوسّل والشّفاعة اللّتين أكّد عليهما القرآن والرّوايات من الفريقين.

ولتسليط مزيد من الأضواء على ذلك نقول: معنى العبادة هو الخضوع والخشوع إزاء من

---

١. سورة الرعد: الآية ١٦.

٢. انظر: الصدوق، عيون أخبار الرضا عليه السلام، ج٢، ص١٢٥.

٣. سورة النحل: الآية ٣٦.

يستحقّ التذلّل والتّواضع بصورة مستقلّة وبالذّات، وليس هو إلّا الله (سبحانه وتعالى)، ولمّا يسأل شخص النبيّ أو الإمام قضاء حاجة معيّنة له، فإن اعتبره قاضياً لها بشكل مستقلٍّ فهو مشركٌ؛ لأنّه جعل غير الله مساوياً له وفي رُتبته، ومن ثَمَّ تواضع له وخشع أمامه. أما لو اتّخذ النبيّ أو الإمام وسيلة إلى الله لتحقيق مبتغاه وقضاء حاجته عن طريقهما؛ وبالتالي، فإنّ الله هو الّذي قضى حاجته بوسيلتهما، ففي هذه الحالة ليس فقط لا يعدّ هذا الشّخص مشركاً؛ بل إنّه عمل بمقتضى الأوامر الإلهيّة ولم يخالفها. من هنا، لا تأثير لأفعال من قبيل الزّيارة والتوسّل بالأئمة عليهم السلام والاستشفاع بهم -كما أمر الله (سبحانه وتعالى)- على مسألة التّوحيد في العبادة؛ لأنّ هذه الأمور لا تعدّ عبادةً لغير الله.

❁ الأسئلة

١. بيّن أهميّة أصل التّوحيد بالنسبة إلى ساير أصول العقائد.

٢. كيف فُسّر التّوحيد في روايات أهل البيت عليهم السلام ؟

٣. ما المقصود بمراتب التّوحيد؟ عدّدها.

٤. اشرح معنى التّوحيد في العبادة، و بيِّن مواضع الخطأ للعقيدة الوهابية في ذالك.

❁ موضوع للبحث

- لماذا يَعْتَبِر الوهّابيّون التَبرّك بمراقد الأئمّة الأطهار عليهم السلام شركاً؟ رُدَّ هذه الشّبهة في ضوء تعريف التّوحيد في العبادة.

٨

الأدلّة على وحدانيّة الله

بيّنّا سابقاً معنى التّوحيد، واتّضح أنّه يعني القول بعدم وجود شبيه ونظير لله (سبحانه وتعالى)، وأشرنا أيضاً إلى مراتب التّوحيد الّتي تبتدأ بالتّوحيد الذّاتي وتنتهي بالتّوحيد في العبادة. والآن سنبحث الشّواهد والأدلّة الكفيلة بإثبات وحدانيّة الله.

ذُكرت أدلّة وشواهد مختلفة لإثبات وحدانيّة الله (سبحانه وتعالى)، ومع أنّ التّوحيد - حسبما أفادت الآيات والرّوايات المأثورة عن الأئمّة المعصومين عليهم السلام - أمرٌ فطريّ وبديهيّ، ومن قبيل أصل المعرفة الإلهيّة، لكن يمكن الاستدلال عليه بأدلّة عقليّة أيضاً. سنشير هنا إلى نماذج من الأدلّة على التّوحيد بما يتناسب مع مستوى هذا الكتاب.

١. تعدّد الآلهة مخالف للألوهيّة

يمكن إثبات الوحدانيّة عن طريق عدم صواب الشّرك، ففي الحقيقة إنّ الاعتقاد بتعدّد الآلهة ينشأ من الجهل بالصّفات الحقيقيّة لخالق الكون، فمن يتصوّر إمكان وجود شبيه ونظير لله (سبحانه وتعالى) لديه في حقيقة الأمر تصوّر ناقص وغير صحيح عنه (جلّ وعلا)، فما أكثر من تصوّروا الله كأحد المخلوقات والموجودات الأخرى، ثم جعلوا له في أذهانهم شريكاً أو شركاء عدّة. وفي المقابل، من يضع الله (سبحانه وتعالى) في مكانه الحقيقي ويتصوّره تصوّراً صحيحاً يدرك أنّه لا يمكن أن يكون له شريك قطّ.

روي عن هشام بن الحكم أنّ زنديقاً جاء إلى الإمام أبي عبد الله الصّادق عليه السلام، وكان ممّا

قاله الإمام له:

«لَا يَخْلُو قَوْلُكَ إِنَّهُمَا اثْنَانِ مِنْ أَنْ يَكُونَا قَدِيمَيْنِ قَوِيَّيْنِ، أَوْ يَكُونَا ضَعِيفَيْنِ، أَوْ يَكُونَ أَحَدُهُمَا قَوِيّاً وَالآخَرُ ضَعِيفاً. فَإِنْ كَانَا قَوِيَّيْنِ فَلِمَ لَا يَدْفَعُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا صَاحِبَه وَيَتَفَرَّدُ بِالتَّدْبِيرِ؟ وَإِنْ زَعَمْتَ أَنَّ أَحَدَهُمَا قَوِيٌّ وَالآخَرَ ضَعِيفٌ ثَبَتَ أَنَّه وَاحِدٌ كَمَا نَقُولُ؛ لِلْعَجْزِ الظَّاهِرِ فِي الثَّانِي. فَإِنْ قُلْتَ إِنَّهُمَا اثْنَانِ لَمْ يَخْلُ مِنْ أَنْ يَكُونَا مُتَّفِقَيْنِ مِنْ كُلِّ جِهَةٍ أَوْ مُفْتَرِقَيْنِ مِنْ كُلِّ جِهَةٍ، فَلَمَّا رَأَيْنَا الْخَلْقَ مُنْتَظِماً وَالْفَلَكَ جَارِياً وَالتَّدبير وَاحِداً وَاللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَلَّ صِحَّةُ الأَمْرِ وَالتَّدبير وَائْتِلَافُ الأَمْرِ عَلَى أَنَّ الْمُدَبِّرَ وَاحِدٌ»[1].

٢. الانتظام في الكون

من الأدلّة العقليّة الأخرى على التّوحيد والّذي أشير له في الآيات والرّوايات أيضاً، الانتظام السائد في العالم. قال (سبحانه وتعالى) في هذا المضمار:

﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا اللهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾[2].

لا يخفى أنّ الموجودات في العالم غير مستقلّة عن بعضها؛ بل إنّ بعضها مرتبط ببعضها الآخر ويتأثّر به، وإدراك هذا الأمر ليس بالصّعب أو المستحيل؛ بل يستطيع كلّ شخص وبمستوى المعلومات الّتي يمتلكها أن يدرك الارتباط الوثيق بين الظواهر الكونيّة المختلفة.

هب أنّنا خُلقنا وكان خالقنا إلهاً غير الله خالق الأرض والسّماء والهواء و...، فالسّؤال الّذي يطرح نفسه هنا هو: هل نستطيع أن نعيش دون ماء أو هواء ودون وجود نظام حاكم على الأرض والسماء؟ لو ألقينا نظرة على ما حولنا من ظواهر مختلفة، نجد أنّ القاعدة عامّة وشاملة لجميع ما في الكون، فلا وجود لأيّ مخلوق فاقد للارتباط بالموجودات الأخرى، وإن وجد لا يمكنه أن يبقى ويدوم.

ومنه يتّضح أنّ مالك هذا الكون ومُدبّر ما في العالم ومُنشئ كلّ شيء وجاعل كلّ موجودٍ

١ . الكليني، الكافي، ج١، ص٨١.

٢ . سورة الأنبياء: الآية ٢٢.

مرتبطاً بغيره من الموجودات إنّما هو موجودٌ واحد خلق نظاماً واحداً.[١]

ومن مظاهر الإبداع في الخلق، وجود تناسق متبادل بين ظاهرتين غير متزامنتين، ويتجلّى هذا التناسق والانسجام في قيام إحدى الظّاهرتين بتوفير احتياجات الظّاهرة الأخرى قبل وجود الأخيرة. ولعلّ أبرز مثال على هذا الانسجام هو ما يمكن أن نلاحظه بين الأمّ وطفلها، فما إن تحمل الأمّ ويبدأ الجنين بالنموّ في رحمها - سواء كانت من الثدييّات عموماً أو من البشر خصوصاً - حتّى تشرع الغدد المنتجة للحليب - وهو غذاء كامل ولذيذ جدّاً - بالعمل على إفرازه بتأثير من هرمونات خاصّة، وكلّما نما الجنين أكثر ازدادت كمّية هذه المادّة الغذائيّة، حتّى إذا صار على أعتاب الولادة اكتمل إنتاج الحليب اللّازم لتغذيته وسدّ حاجته الجسديّة. ومن اللّافت أنّ هذا المحصول منسجم تماماً مع ضعف الجهاز الهضمي لدى الوليد الجديد، ثم يُخزن في مكان أمين ومناسب أُعدّ في جسد الأمّ قبل سنوات من نشوء الطّفل وتكوّنه.

أليس هذا الاتّساق والانسجام بين موجُودَيْن مُخْتَلِفَين إلّا من صُنْع قُوَّة واحدة؟ ألا يُعدّ هذا الاتّساق دليلاً واضحاً على تدخّل قوّة غير متناهية ومصمّمٍ عظيم لمواصلة مسيرة الحياة ونموّ المظاهر المختلفة وتكاملها؟

إن لم يكن الكون منسجماً إلى هذا الحدّ، وكان نتاجاً لخلق إلهين اثنين أو أكثر، لما اتّسمت حياة الإنسان والعالم المحيط به بكلّ هذا النّظام ولفقدت القدرة على الاستمرار على هذه الحال؛ فلا ريب في أنّه لو كان العالم يُدار من إلهين أو أكثر - مثلما شدّدت الآية الشريفة - لكان مصيره الفساد والدّمار.

رُوِيَ عَنْ هِشَامِ بْنِ الْحَكَمِ قَالَ: قُلْتُ لِأَبِي عَبْدِ اللهِ عليه السلام: مَا الدَّلِيلُ عَلَى أَنَّ اللهَ وَاحِدٌ؟ قَالَ: «اتِصَالُ التّدبير وَتَمَامُ الصُّنْعِ كَمَا قَالَ (عَزَّ وَجَلَّ): ﴿لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ﴾».[٢]

وقال أيضاً ردّاً على زنديق حول وحدانيّة الباري (سبحانه وتعالى):

---

١ . مقتبس من: مصباح اليزدي، معارف قرآن، ص٨٠-٨٤.

٢ . الصدوق، التوحيد، ص٢٥٠.

«... فَلَمّا رَأَيْنا الْخَلْقَ مُنْتَظِماً والْفَلَكَ جَارِياً والتّدبير وَاحِداً واللّيْلَ والنّهارَ والشّمْسَ والْقَمَرَ دَلَّ صِحَّةُ الأمْرِ والتّدبير وائْتِلَافُ الأمْرِ عَلَى أَنَّ الْمُدَبِّرَ وَاحِدٌ»[١].

٣. إخبار الأنبياء عن وحدانيّة الله

يعتبر إرسال الأنبياء من أهمّ الأدلّة على وحدانيّة الله (جلّ وعلا)؛ إذ لو كان يوجد آخر لكان عليه إرسال أنبياء وتبيين آثار اقتداره إلى الخلق. قال أمير المؤمنين عليه السلام في وصيّته لولده الإمام الحسن عليه السلام:

«اعْلَمْ يَا بُنَيَّ أَنّه لَوْ كَانَ لِرَبِّكَ شَرِيكٌ لأَتَتْكَ رُسُلُهُ، ولَرَأَيْتَ آثَارَ مُلْكِه وسُلْطَانِهِ، ولَعَرَفْتَ أَفْعَالَه وصِفَاتِه»[٢].

ثمّ إنّ جميع الأنبياء يعتبرون أنفسهم مبعوثين من الله الواحد؛ ولذا قال (سبحانه وتعالى):

﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ... * وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ... * وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾[٣].

في هذه الآيات وأمثالها، دعا جميع الأنبياء الإلهيّون النّاس إلى عبادة الله الواحد وحذّروهم من أنّه لا إله غيره.

وبحسب تعبير القرآن الكريم، فإنّ أساس دعوة جميع الأنبياء كانت قائمة على التّوحيد والإيمان بعدم إله سواه:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾[٤].

وعلى هذا الأساس، لو أُلقيت نظرة على تاريخ الأنبياء لشوهد أنّ كبار الأنبياء نحو نوح

---

١. الكليني، الكافي، ج١، ص٨١؛ الصدوق، التوحيد، ص٢٤٤.

٢. نهج البلاغة، الكتاب ٣١؛ ابن شعبة الحرّاني، تحف العقول عن آل الرسول صلى الله عليهم، ص٧٢.

٣. سورة الأعراف: الآيات ٦٥ و٧٣ و٨٥؛ سورة هود: الآيات ٥٠ و٦١ و٨٤.

٤. سورة الأنبياء: الآية ٢٥.

وإبراهيم وموسى وعيسى والنبيّ محمّد (صلوات الله عليهم أجمعين) يعتبرون أنفسهم مبعوثين من قبل الله الأحد الّذي لا شريك له ولا شبيه، ولم يشهد التّاريخ أنّ نبيّاً من الأنبياء ادّعى أنّه مبعوث من إله غير الإله الّذي دعا له هؤلاء الأنبياء.

بناءً على ذلك، بما أنّ جميع الأنبياء الّذين بعثهم الله لإرشاد البشريّة وتبليغ الرّسالة الإلهيّة كانوا يصفونه بالواحد، فهذا في حدّ ذاته شاهد ودليل واضح على وحدانيّة الله (سبحانه وتعالى).

٤. شهادة الفطرة على الوحدانيّة

أشرنا في مبحث «المعرفة الفطريّة» إلى أنّ الله (سبحانه وتعالى) يتجلّى إلى الإنسان في الضرّاء والشّدائد والمصائب أو عند تذكير الأنبياء أو أثناء العبادة والتهجّد، وأنّ الإنسان يعرف بارئه بقلبه دون الحاجة إلى واسطة. وجديرٌ بالذّكر أنّ الإنسان في هذه الحالات لا يدرك أصل وجود الله (سبحانه وتعالى) وحسب؛ بل يعرف ربّه ويؤمن أنّه واحد، وأنّه هو ربّ السّماوات والأرض وسائر المخلوقات أيضاً. من هنا، أشارت بعض الرّوايات المبيّنة للفطرة إلى هذه الحقيقة النّاصعة، فروي أنّ أبا عبد الله الصّادق عليه السلام قال في تفسير الآية الشريفة ﴿فِطْرَتَ اللهِ الَّتِى فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾:

«فَطَرَهُمْ عَلَى التّوحيد»[1].

وعلى هذا يمكن للفطرة أن تشكّل دليلاً آخر على وحدانيّة الله (سبحانه وتعالى)، ويمكن إثبات التّوحيد عن طريق الدليل الفطريّ أيضاً. نعم، إذا قلنا أنّ التّوحيد أمرٌ فطريٌّ، وأنّه مودعٌ في فطرة جميع النّاس، لا بدّ من القول - حينئذٍ - أنّ جميع الأدلّة والشّواهد المتقدّمة تمثّل علامات مرشدة إلى تلك الحقيقة الفطريّة.

---

١. الكليني، الكافي، ج٢، ص١٣؛ الصدوق، التوحيد، ص٣٢٩؛ الحلّي، مختصر البصائر، ص٣٩٨.

* الأسئلة

١. إلى أيّ دليل من أدلّة التّوحيد تشير الآية الشريفة ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾؟

٢. كيف تدلّ الفطرة على وحدانيّة الله (سبحانه وتعالى)؟ اشرح ذلك.

٣. كيف يمكن الاستدلال بإرسال الأنبياء على وحدانيّة الله (سبحانه وتعالى)؟

* موضوعات للبحث

- أعِد صياغة استدلال الإمام الصّادق عليه السلام على وحدانيّة الله (سبحانه وتعالى) للزّنديق في سياق دليل واضح.

- اذكر دليلاً آخراً على وحدانيّة الله (سبحانه وتعالى) من خلال الرّجوع إلى كتاب «الكافي» (كتاب التّوحيد) للمرحوم الكليني وكتاب «التّوحيد» للمرحوم الصّدوق.

٩

علم الله

تعرّفنا في الدّروس السّابقة على وحدانيّة الله والأدلّة المُساقة لإثباتها، أمّا الآن فسنبدأ البحث في أهمّ الصّفات الإلهيّة. ومن أبرزها «علم الله (سبحانه وتعالى)»، وفي هذا الدّرس سنبحث إثبات هذه الصفة، ونستعرض بعض خصائصها.

أُشيرَإلى صفة العلم في القرآن الكريم بمفردات من قبيل: عَالم، عَلِيْم، علّام، أعلم، خبير، شهيد، وما شاكل، وجرى التّعبير عنها في بعض المصاديق الجزئيّة بكلمات مثل: سميعٌ وبصير؛ ولكن لا بدّ من معرفة خصائص العلم الإلهيّ؟ وما المسائل المطروحة في هذا المجال؟

وعند بحث صفة العلم الإلهيّ، ينبّغي أوّلاً بيان موضوعين أساسيّين:

١. إثبات أصل علم الله (سبحانه وتعالى)؛

٢. الصّفات الخاصّة بالعلم الإلهيّ.

١. إثبات العلم الإلهيّ

من أبرز معالم العلم الإلهيّ، صنع العالم والنّظام الدّقيق السائد في جميع أجزائه، ففي الحقيقة كما إنّ الخلق والنّظام الدقيق في العالم يدلّان على وجود الله؛ فإنّهما في الوقت ذاته يُثبتان العلم والقدرة والحكمة لصانع ذلك العالم أيضاً. فعلى سبيل المثال، إذا أمعنّا النظر في الذرّات أو في المنظومة الشّمسيّة ككلّ ندرك أنّه لو حصل مقدارٌ قليلٌ من الزّيادة أو النّقصان في قوّة الجاذبيّة بين الإلكترون ونواة الذّرّة أو بين الكواكب السيّارة والشّمس، لأدّى ذلك إمّا

إلى تصادم بعضها ببعضها الآخر أو تناثرها وخروجها عن مساراتها المحدّدة؛ وبالتالي، فناء العالم وانعدام الكون. وعليه، فالعالِم المطلق هو الوحيد القادر على لمّ شتات هذه الأجزاء وجعلها مُنسجمة ومُنتظمة وفقاً لقوانين دقيقة ومحسوبة.

ومن هذا المنطلق، فخلق الكون والنَّظْم السَّائد فيه لا يدلّان - فقط - على إثبات وجود الله؛ بل يدلّان أيضاً على إثبات العلم والقدرة والحكمة لله (سبحانه وتعالى)، مضافاً إلى إثبات صّفات أُخرى مُرتبطة بالصفات المذكورة آنفاً، مثال صفات السميع والبصير والمُقدّر وغيرهم الكثير.

وثمّة آيات في القرآن الكريم كشفت النّقاب عن هذه الحقيقة، وهي أنّ الله الّذي خلق هذا الكون بكلّ ما فيه من دقّة وتعقيد لا يمكن أن يكون جاهلاً بما خلق، منها قوله (سبحانه وتعالى):

﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾[١].

قال الإمام أبوعبد الله الصّادق عليه السلام في سياق أمثلة وشواهد كثيرة ساقها ضمن برهان إثبات الصّانع في حديث توحيد المفضّل:

«وَغَيْرَ ذَلِكَ سَآتِيكَ بِهِ مِمَّا تَعْرِفُ اتِّصَالَ الْخَلْقِ بَعْضِهِ بِبَعْضٍ وَأَنَّ ذَلِكَ مِنْ مُدَبِّرٍ حَكِيمٍ عَالِمٍ قَدِيرٍ»[٢].

٢. صفات علم الله (سبحانه وتعالى)

لا يمكن قياس علم الله (سبحانه وتعالى) بعلم المخلوق، وإن حدث مثل هذا القياس أحياناً بصورة تلقائيّة وفي حالة اللّاشعور، بمعنى أن يتبادر إلى ذهن الإنسان ذلك المفهوم الّذي يعرفه عن العلم، والحال أنّ هذا النّحو من العلم مستمدٌّ من خصائص المخلوقات؛ ولذا فهو محدود من جهة، وذو صِبغةٍ إنسانيّةٍ وكيفيّةٍ بشريّةٍ من جهة ثانية. وممّا لا شكّ فيه أنّ العلم والمعرفة الموجودين لدى المخلوقات من صنع الله (سبحانه وتعالى) وممّا أفاض به عليها، ومثل هذا العلم لا يمكن أن يكون من صفات الخالق.

---

١. سورة الملك: الآية ١٤.

٢. المجلسي، بحار الأنوار، ج٣، ص١٨٩.

هذا وقد وردت أبحاثٌ عدّة حول العلم الإلهيّ في القرآن الكريم وروايات أهل البيت ﷺ، وذُكرت بشأنها مطالب بليغةٌ وأمورٌ دقيقة لا تسع الفرصة هنا لبسط الكلام فيها؛ لكنّنا سنشير هنا إلى خصيصتين من صفات العلم الإلهيّ:

١.٢. علم غير محدود

إنّ العلم الإلهيّ ـ خلافاً للعلم البَشَريّ ـ غير محدود وشامل لجميع المعلومات، الأعمّ من الموجودات والمعدومات، الكلّيات والجزئيّات، الماضي والحاضر والمستقبل. وعليه، فلا حدود لهذا العلم، وليس بوسع الموجودات إيجاد محدوديّة للعلم الإلهيّ. من هنا، أشار القرآن الكريم مراراً إلى العلم الإلهيّ الواسع وغير المحدود، نحو قوله (سبحانه وتعالى):

﴿قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللهَ بِدِينِكُمْ وَاللهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمٰوٰاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[١].

﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[٢].

كما إنّ عدم محدوديّة علم الله تبلغ مَدَيات واسعة بحيث إنّه يشمل العلم بالمكنونات القلبيّة والأسرار الباطنيّة للإنسان أيضاً، فلا يخفى عليه أيّ شيء من وجود الإنسان مطلقاً:

﴿قُلْ إِنْ تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللهُ﴾[٣].

بناءً على ذلك، فالله حاضر في كلّ مكان وعلمه يغطّي جميع زوايا عالم الكون. ومن الطبيعيّ أنّ الإيمان باتّساع رقعة العلم الإلهيّ والاعتقاد بوجوده في كلّ مكان يؤثّر بشكل كبير في حياة الإنسان؛ فمن يؤمن بأنّ ربّه حاضر معه في كلّ مكان وناظر على جميع أعماله، ويستشعر هذا الحضور إلى جانبه دائماً، فممّا لا ريب فيه أنّه سيحجم عن ارتكاب المعاصي واقتراف الذّنوب، ويسعى في جميع اللّحظات إلى أن يتصرّف بطريقة ترضي مولاه.

---

١ . سورة الحجرات: الآية ١٦.

٢ . سورة الحديد: الآية ٤.

٣ . سورة آل عمران: الآية ٢٩.

٢.٢. علم ثابت لا يتغير

لا يطرأ على علم الله (سبحانه وتعالى) تغيير في مرحلة قبل الخلقة وما بعدها؛ وبهذا فالعلم الإلهيّ ليس كعلم المخلوقات يتغيّر ويتبدّل باستمرار تبعاً لتغيّر المعلومات. وفي هذا السّياق، قال الإمام جعفر الصّادق عليه السلام نقلاً عن جدّه أمير المؤمنين عليه السلام:

«... وكُلُّ عَالِمٍ فَمِنْ بَعْدِ جَهْلٍ تَعَلَّمَ، والله لَمْ يَجْهَلْ ولَمْ يَتَعَلَّمْ، أَحَاطَ بِالأَشْيَاءِ عِلْماً قَبْلَ كَوْنِهَا، فَلَمْ يَزْدَدْ بِكَوْنِهَا عِلْماً، عِلْمُه بِهَا قَبْلَ أَنْ يُكَوِّنَهَا كَعِلْمِه بَعْدَ تَكْوِينِهَا»[١].

إنّ من يؤمن بأنّ علم الله لا يطاله التغيير سوف يعتقد بأنّه لا ينسى شيئاً مطلقاً وأنّ علمه لا ينقص بمقدار ذرّة واحدة. ولا شكّ في أنّ لهذا الاعتقاد أثراً كبيراً على حياة الإنسان، فيدفعه ذلك إلى ألّا يتساهل في عمل ولا يغفل عنه، ولا يقتصر الأمر على ذلك؛ بل سيؤمن بأنّ الله لا ينساه أبداً ولا تفوته ملاحظة أيّ عمل من أعماله الحسنة أيضاً.

❁ الأسئلة

١. ما الفارق بين علم المخلوق وعلم الخالق؟

٢. كيف يمكن إثبات العلم الإلهيّ؟

٣. إلى أيّ صفة من صفات العلم الإلهيّ تشير الآية الشريفة ﴿قُلْ إِنْ تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ﴾؟

٤. ما المقصود بأنّ العلم الإلهيّ لا يتغيّر؟ وما الأدلّة على ذلك؟

٥. ما الآثار المترتّبة على الإيمان بعدم طروّ التغيير على العلم الإلهيّ في حياة الإنسان؟

❁ موضوعات للبحث

- ائتِ بآيات من القرآن الكريم ذكرت العلم بصورة سلبيّة.
- اضرب أمثلة بآيات من القرآن الكريم حول أنّ الله عالم بمستقبل أفعال البشر.

---

١. الكليني، الكافي، ج١، ص١٣٥؛ الصدوق، التوحيد، ص٤٣؛ الثقفي، الغارات، ج١، ص١٠٠.

١٠

قدرة الله

تعرّفنا في الدّرس الماضي إلى علم الله، وبعد أن أثبتنا أصل هذا العلم أشرنا إلى صفاته والاختلاف بينه وبين العلم البَشَريّ. أما هذا الدّرس فقد خُصّص لشرح صفة القدرة الإلهيّة على أساس تعاليم القرآن الكريم، وأحاديث أهل البيت عليهم السلام من جوانب مختلفة.

أُشير إلى قدرة الباري (سبحانه وتعالى) في القرآن والرّوايات بتعابير من قبيل: قادر، قدير، مقتدر، ذو قوّة، عزيز، غالب، قويّ، قيّوم، مولى، مُحيط... إلخ. وقد أكّدنا في بحث التّوحيد على أنّه كما لا نظير لله في ذاته فلا شبيه له (سبحانه وتعالى)، ولا نظير في صفاته أيضاً. وعلى هذا الأساس، لا بدّ من إثبات أصل القدرة الإلهيّة أوّلاً، ثمّ إثبات أنّ من صفاتها أنّها لا تشبه قدرة أحد من المخلوقات.

١. إثبات قدرة الله

مثلما أشرنا في الدّرس السّابق، فإنّ العالم المليء بالتعقيد والتّشابك والنّظام المتناسق الجاري في الخلق على مدار التّاريخ يعدّ دليلاً واضحاً وآيةً محكمةً على قدرة الله (سبحانه وتعالى)، كما هو المستفاد من علمه وتدبيره وحكمته. وثمّة أكثر من ١٠٠ آية في القرآن الكريم تطرّقت إلى قدرة الله (جلّ وعلا)، وأشارت بعض هذه الآيات بصورة مباشرة إلى قدرة الله على خلق السّماوات والأرض، وسنسلّط الضوء هنا على عدد منها:

﴿اَللهُ الَّذِی خَلَقَ سَبْعَ سَمٰوٰاتٍ وَمِنَ الْاَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْاَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا اَنَّ اللهَ

عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً﴾[١].

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ﴾[٢].

﴿فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ * عَلَىٰ أَنْ نُبَدِّلَ خَيْراً مِنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ * فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾[٣].

يستفاد من عبارات ﴿لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ و ﴿ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ﴾ و﴿إِنَّا لَقَادِرُونَ * عَلَىٰ أَنْ نُبَدِّلَ خَيْراً مِنْهُمْ﴾ أنّ الله (سبحانه وتعالى) قادر على الخلق وعلى جمع الخلق وعلى تبديله كيفما يشاء.

٢. صفات قدرة الله

لقدرة الله (سبحانه وتعالى) خصائص عدّة، أهمّها:

٢.١. قدرة غير محدودة

أُشير إلى قدرة الله (سبحانه وتعالى) في القرآن الكريم مراراً، واعتُبرت أنّها قدرة لا متناهية وغير محدودة، فيمكن فهم هذه الصّفة بصراحة من الآية الشّريفة الآتية وغيرها من الآيات الأخرى المشابهة:

﴿إِنَّ اللهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[٤].

وقد ورد هذا اللّفظ بلفظ «قدير» ٣٧ مرّة وبلفظ «مقتدر» مرّة واحدة في القرآن الكريم. ولا بدّ من الالتفات إلى أنّ تعبير «كلّ شيء» لا يشمل المُحال والممتنع؛ لأنّه من المحال عقلاً تعلّق قدرة الله (سبحانه وتعالى) بالأمور المتناقضة، لكن من الواضح أنّ استحالة هذه الأمور لا تعني محدوديّة قدرة الله ولا تدلّ على نقص في قدرته اللّامتناهية. وعليه، فطرح تساؤلات من قبيل:

---

١. سورة الطلاق: الآية ١٢.

٢. سورة الشورى: الآية ٢٩.

٣. سورة المعارج: الآيات ٤٠-٤٢.

٤. سورة البقرة: الآية ٢٠.

هل الله قادر على خلق حجر لا يمكنه رفعه وزحزحته من مكانه؟ ليس صحيحاً أساساً؛ لأنّه لا يمكن للمُحال العقلي أن يكون متعلّقاً للخلقة والقدرة ليتسنّى إطلاق مثل هذا السّؤال، فلا يدخل النقص في مثل هذه الموارد على قدرة الله؛ بل هو من ناحية المقدور.

بعبارة أخرى: تتعلّق قدرة الله (سبحانه وتعالى) بكلّ ما هو ممكن التحقّق، فالمراد من «كلّ شيءٍ» كلّ ما هو ممكن عقلاً[1]؛ ولذا فإنّ الأمور المحالة خارجة عن موضوع القدرة والخلقة.

روي عن الإمام أبي عبد الله الصّادق عليه السلام أنّه قال:

«قِيلَ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام: هَلْ يَقْدِرُ رَبُّكَ أَنْ يُدْخِلَ الدُّنْيَا فِي بَيْضَةٍ مِنْ غَيْرِ أَنْ يُصَغِّرَ الدُّنْيَا أَوْ يُكَبِّرَ الْبَيْضَةَ؟ قَالَ: "إِنَّ اللهَ (تَبَارَكَ وَتَعَالَى) لَا يُنْسَبُ إِلَى الْعَجْزِ، وَالَّذِي سَأَلْتَنِي لَا يَكُونُ"»[2].

وفي حديث آخر، وُجّه هذا السؤال إلى الإمام عليّ بن موسى الرّضا عليه السلام، ولكن دون قيد تصغير الدنيا أو تكبير البيضة، أي لم يستعمل السائل قيداً يجعل الموضوع محالاً عقليّاً، فردّ عليه الإمام عليه السلام:

«نَعَمْ، وَفِي أَصْغَرَ مِنَ الْبَيْضَةِ، قَدْ جَعَلَهَا فِي عَيْنِكَ وَهِيَ أَقَلُّ مِنَ الْبَيْضَةِ؛ لِأَنَّكَ إِذَا فَتَحْتَهَا عَايَنْتَ السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا»[3].

٢.٢. قدرة بلا أداة

من أبرز خصائص قدرة المخلوق أنّها تحصل عن طريق الآلات والأدوات. فعلى سبيل المثال، النجّار الّذي يريد صنع عصا لا بدّ له أوّلاً من الإتيان بخشبة مناسبة من المخزن، وثانياً أن تكون لديه المهارة اللّازمة لأداء هذا العمل، فنرى أنّ هذه القدرة تُسلب منه أثناء النوم والمرض وتتوفّر لديه عند السّلامة واليقظة، كذلك ينبّغي له الاستفادة من الأدوات والوسائل المطلوبة ليتمكّن من إعمال قدرته وصنع العصا المطلوبة.

١. نعم، لا ينبّغي أن نعتبر كلّ ما لا يحلولنا محالاً عقليّاً؛ ذلك أنّ بعض الأمور خارجة عن نطاق اقتدارنا المعرفي فلا نستطيع فهمها وإدراكها، لكنّ العقل لا يراها محالاً.

٢. الصدوق، التوحيد، ص١٣٠.

٣. الصدوق، التوحيد، ص١٣٠.

ولا شيء من الخصائص المذكورة آنفاً موجود لدى الباري (سبحانه وتعالى)؛ لأنّها جميعاً دالّة على النقص والضعف، فتكشف عن قدرة المخلوق المحدودة. من هنا، قال أبوالحسن الرّضا عليه السلام بعد إيضاح دقّة صنع الله ولطفه:

«عَلِمْنَا أَنَّ خَالِقَ هَذَا الْخَلْقِ لَطِيفٌ، لَطُفَ بِخَلْقِ مَا سَمَّيْنَاهُ بِلَا عِلَاجٍ وَلَاأَدَاةٍ وَلَاآلَة»[1].

إنّ قدرة الله (سبحانه وتعالى) أسمى وأرفع من أن تحتاج إلى واسطة أو وسيلة لإعمالها؛ ولذا ليس من شأن الله (سبحانه وتعالى) مقارنة قدرته بقدرة المخلوقات؛ لأنّها من سنخ آخر.

وعلى هذا الأساس، أكّد الإمام أبوعبد الله الصّادق عليه السلام في حديث على أنّ خزائن الله لا تشبه خزائن الملوك والأمراء؛ بل هو منزّه عن مثل هذه الخزائن، فقال:

«لمّا صَعِدَ مُوسَى (عَلَى نَبِيِّنَا وَآلِهِ وَعَلَيْهِ السَّلامُ) إِلَى الطُّورِ فَنَاجَى رَبَّهُ (عَزَّ وَجَلَّ) قَالَ: يَا رَبِّ! أَرِنِي خَزَائِنَكَ. قَالَ: يَا مُوسَى! إِنَّمَا خَزَائِنِي إِذَا أَرَدْتُ شَيْئاً أَنْ أَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ»[2].

❁ الأسئلة

١. بمَ تتعلّق قدرة الله (سبحانه وتعالى)؟ وهل يمكن القول: إنّه غير قادر على المحال العقلي؟

٢. إلى أيّ صفة من صفات القدرة تشير الآية الشريفة: ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللهِ وَاللهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾؟

٣. ما المقصود من «قدرة بلا أداة»؟ اشرح ذلك.

❁ موضوعات للبحث

١. اذكر عدداً من الآيات القرآنيّة الّتي تبيّن القدرة بوصف سلبيّ.

٢. إلى أيّ موارد من القدرة أشار القرآن الكريم في ما يتعلّق بسعة القدرة الإلهيّة؟ بيّن ذلك.

---

١. الكليني، الكافي، ج١، ص١١٨؛ الصدوق، التوحيد، ص١٨٦.

٢. الصدوق، التوحيد، ص١٣٣؛ الصدوق، الأمالي، ص٥١١.

١١

الصّفات السلبيّة

دَرَسنا إلى الآن صفتي العلم والقدرة من صفات الباري (سبحانه وتعالى) الّتي تضفي عليه كمالاً، وهما من الصّفات الثّبوتيّة. وفي هذا الدّرس سنتطرّق إلى الصّفات السّلبيّة الّتي تنزّه الله عن النّقص.

تُقسّم الصّفات الإلهيّة إلى قسمين: ثبوتيّة وسلبيّة، تُشير الصّفات الثبوتيّة إلى كمالات لائقة بالله (سبحانه وتعالى)، على العكس من الصّفات السلبيّة الّتي هي أوصاف لا يمكن أن تُنسب إليه (جلّ وعلا). وفي الحقيقة، تعود جميع الصّفات السلبيّة إلى تنزيه الله (سبحانه وتعالى) عن النقص والفاقة مما يعدّ من لوازم المخلوقات. ومن أهمّ الصّفات السلبيّة يمكن الإشارة إلى:

١. الجسمانيّة

لا يتّصف الله بكلّ أشكال الجسمانيّة والمادّية؛ لأنّ الجسم والمادّة لا ينفكّان عن أنواع مختلفة من النقص والمحدوديّة، وبسبب شدّة وضوح هذا الموضوع وبداهته لم يشرْله القرآن الكريم بصورة مباشرة، فمن الآيات الدالّة على نفي الجسمانيّة عن الله بشكل غير مباشر قوله (سبحانه وتعالى):

﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾[1].

---

١. سورة الأنعام: الآية ١٠٣.

فالتعبير بالإدراك بالأبصار يعني الإحاطة بالشيء، وهذه الآية الشريفة تنفي إدراك الله (سبحانه وتعالى) والإحاطة بجميع وسائل الرّؤية، وهذا التعبير يفيد نفي الجسمانيّة؛ لأنّ من لوازم الجسمانيّة التّركيب من أجزاء مرئيّة والإحاطة بها.

هذا وجرى التأكيد على تنزيه الله (سبحانه وتعالى) عن الجسمانيّة في روايات كثيرة أيضاً، منها قول الإمام جعفر بن محمّد الصّادق عليه السلام في تنزيهه (عزّوجلّ):

«وَلَا يُحَسُّ وَلَا يُجَسُّ... وَلَا جِسْمٌ وَلَا صُورَةٌ وَلَا تَخْطِيطٌ وَلَا تَحْدِيدٌ»[1].

«الْحَمْدُ للهِ الَّذي لَا يُحَسُّ وَلَا يُجَسُّ وَلَا يُمَسُّ وَلَا يُدْرَكُ بِالْحَوَاسِّ الْخَمْسِ... فَكُلُّ شَيْءٍ حَسَّتْهُ الْحَوَاسُّ أَوْ جَسَّتْهُ الْجَوَاسُّ أَوْ لَمَسَتْهُ الْأَيْدِي فَهُوَ مَخْلُوقٌ»[2].

٢. التّركيب

التّركيب ممّا يترتّب على القول بالجسمانيّة، لكنّ ذات الله (سبحانه وتعالى) منزّهة عن التّركيب؛ لأنّ الأمور المركّبة ذات أبعادٍ كالطّول والعرض والارتفاع ومكوّنة من أجزاء بقياسات مختلفة. ومن الواضح أنّ التّركيب من أجزاء دليل على النقص والحاجة؛ ذلك أنّ الموجود المركّب من أجزاء محتاج لكلّ واحد من تلك الأجزاء، ودونها يعاني من النقص، والله منزّه من كلّ أشكال النقص والحاجة.

٣. الجهة والمكان

إنّ الله (سبحانه وتعالى) منزّه عن الجهة والمكان أيضاً، ولا يمكن نسبة هذه الأوصاف إليه؛ لأنّها مختصّة بالموجودات الحادثة، والمحدودة بأبعاد ثلاث هي الطول والعرض والارتفاع، والّتي يمكن الإشارة إلى جهتها أو مكانها ضمن نطاق خاصّ، وهذا كلّه من خصائص الأجسام. وفي هذا السّياق، وردت في القرآن الكريم بعض الآيات الدالّة على نفي الجهة والمكان عنه (سبحانه وتعالى)، منها:

---

١. الكليني، الكافي، ج١، ص١٠٤؛ الصدوق، التوحيد، ص٩٨.

٢. الصدوق، التوحيد، ص٧٥.

﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾[1].

كذلك عمدت الرّوايات إلى تنزيه الباري (سبحانه وتعالى) عن المكان والجهة بتعابير وأدلّة مختلفة، فقال أمير المؤمنين عليه السلام ردّاً على سؤال رجل يهوديّ حول مكان الله:

«إِنَّ اللهَ (عَزَّ وَجَلَّ) أَيَّنَ الْأَيْنَ فَلَا أَيْنَ لَهُ، وَجَلَّ عَنْ أَنْ يَحْوِيَهُ مَكَانٌ، وَهُوَ فِي كُلِّ مَكَانٍ بِغَيْرِ مُمَاسَّةٍ وَلَا مُجَاوَرَةٍ، يُحِيطُ عِلْماً بِهَا، وَلَا يَخْلُو شَيْءٌ مِنْ تَدْبِيرِهِ (سبحانه وتعالى)»[2].

وقال أبوعبد الله الصّادق عليه السلام في هذا الخصوص:

«وَلَا يُوصَفُ بِكَيْفٍ وَلَا أَيْنٍ وَحَيْثٍ، وَكَيْفَ أَصِفُهُ بِالْكَيْفِ وَهُوَ الَّذي كَيَّفَ الْكَيْفَ حَتَّى صَارَ كَيْفاً، فَعَرَفْتُ الْكَيْفَ بِمَا كَيَّفَ لَنَا مِنَ الْكَيْفِ، أَمْ كَيْفَ أَصِفُهُ بِأَيْنٍ وَهُوَ الَّذي أَيَّنَ الْأَيْنَ حَتَّى صَارَ أَيْناً، فَعُرِفَتِ الْأَيْنُ بِمَا أَيَّنَ لَنَا مِنَ الْأَيْنِ، أَمْ كَيْفَ أَصِفُهُ بِحَيْثٍ وَهُوَ الَّذي حَيَّثَ الْحَيْثَ حَتَّى صَارَ حَيْثاً، فَعُرِفَتِ الْحَيْثُ بِمَا حَيَّثَ لَنَا مِنَ الْحَيْثِ؛ فَاللهُ (تَبَارَكَ وَتَعَالَى) دَاخِلٌ فِي كُلِّ مَكَانٍ وَخَارِجٌ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ»[3].

٤. الرّؤية بالعين الباصرة

من النّتائج المترتّبة على نفي الجهة والمكان عن الله (سبحانه وتعالى)، نفي رؤيته بالعين الباصرة؛ لأنّ ما يمكن رؤيته بها هو الموجود الّذي يشغل جهة معيّنة وحيّزاً خاصّاً ويحتوي على أجزاء وأبعاد مختلفة، فهذا النّوع من الرّؤية ممكن بالنسبة إلى الموجودات الجسمانيّة فقط.

على أنّ تعذّر إمكان رؤية الله (سبحانه وتعالى) بالعين الباصرة أمر واضح ومسلّم إلى درجة أنّ الأئمّة الميامين عليهم السلام ذكروا أنّ المقصود من الإبصار في الآية الشريفة ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ هو الأوهام الذهنيّة والتصوّرات الفكريّة؛ بمعنى أنّ البشر لا يستطيعون معرفة الله عن طريق الأوهام

---

١. سورة البقرة: الآية ١١٥.

٢. المفيد، الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد، ج١، ص٢٠١.

٣. الكليني، الكافي، ج١، ص١٠٣-١٠٤؛ الصدوق، التوحيد، ص١١٥.

والأفكار الّتي تراود أذهانهم حول الله (جلّ وعلا)، وإلّا فمن الواضح لدى الجميع أنّ العين الباصرة قاصرة عن رؤيته (سبحانه وتعالى). قال الإمام أبوعبد الله الصّادق عليه السلام في معنى الآية المتقدّمة:

«إِنَّمَا عَنَى إِحَاطَةَ الْوَهْمِ... اللهُ أَعْظَمُ مِنْ أَنْ يُرَى بِالْعَيْنِ»[1].

وقال الإمام أبوالحسن الرّضا عليه السلام في هذا الصّدد أيضاً:

«لَا تُدْرِكُهُ أَوْهَامُ الْقُلُوبِ، فَكَيْفَ تُدْرِكُهُ أَبْصَارُ الْعُيُونِ؟»[2].

❁ الأسئلة

١. عرّف الصّفات الثبوتيّة والسلبيّة، واذكر ثلاثة أمثال من كلّ واحدة منهما.

٢. لماذا يجب أن يُنَزَّه الباري (سبحانه وتعالى) عن الوجود في جهة خاصّة؟ اذكر الدليل على ذلك.

٣. ما الإشكال الّذي يلزم من رؤية ذات الله (سبحانه وتعالى)؟

٤. نفي التّركيب عن الله (سبحانه وتعالى) من الصّفات السلبيّة، اشرح ذلك.

❁ موضوعات للبحث

- جرى الحديث في بعض الرّوايات والأدعية عن رؤية الله (سبحانه وتعالى)، اذكر أمثلة على ذلك ثم أَثْبِت أنّ المراد منها ليس الرّؤية بالعين الباصرة.
- هل تتمكّن من الإتيان بصفة سلبيّة أخرى على الأقلّ لله (سبحانه وتعالى)؟

---

١. الكليني، الكافي، ج١، ص٩٨؛ الصدوق، التوحيد، ص١١٢.

٢. الصدوق، الأمالي، ص٤١٠؛ الفتال النيشابوري، روضة الواعظين، ج١، ص٣٤.

الباب الثالث

العدل الإلهيّ

١٢

العدل: الأهمية والتعريف والحدود

توجد صفات كثيرة لله (سبحانه وتعالى)، مثل التّوحيد والعلم والقدرة والحياة والعدل والإرادة وأمثالها، لكنّ صفتي التّوحيد والعدل تحظيان بأهمية كبيرة من بين الصّفات الأخرى الكثيرة حتّى عُدّا من أصول الدِّين. من هنا، سنبحث في هذا الدّرس بدايةً أهميّة العدل، ثمّ نتطرّق إلى تعريفه وحدوده.

١. أهميّة العدل

يكفي لإثبات أهميّة العدل أن نقول: وردت مشتقّات مادّة العدل والظّلم في القرآن الكريم أكثر من ٣٠٠ مرّة، ونُفيت صفة الظّلم عن الباري (سبحانه وتعالى) ٤١ مرّة. فعلى سبيل المثال قال (سبحانه وتعالى):

﴿إِنَّ اللهَ لا يَظْلِمُ مِثْقالَ ذَرَّةٍ﴾[١].

﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسانِ﴾[٢].

ولا يخفى أنّ تكرار الموضوع الواحد والتأكيد عليه بأساليب مختلفة يكشف عن مدى أهميته.

كذلك جرى التأكيد على صفة العدل في الرّوايات والأحاديث، إلى درجة أنّ الإمام جعفر

١. سورة النساء: الآية ٤٠.

٢. سورة النحل: الآية ٩٠.

بن محمّد الصّادق عليه السلام اعتبر العدل والتّوحيد أساس الدِّين فقال:

«إِنَّ أَسَاسَ الدِّين التّوحيد وَالْعَدْلُ».[١]

وذهب بعض المتكلّمين عند شرح أهميّة العدل إلى أنّ كثيراً من العقائد الإسلاميّة تندرج تحت باب العدل الإلهيّ، وأنّ إثبات بعض أصول الدِّين أي النبوّة والإمامة والمعاد يتوقّف على إثبات العدل الإلهيّ؛ لأنّنا إنّما نقول بلزوم إرسال الرسل وإيجاد القيامة و إثابة المحسنين ومعاقبة المُسيئين على الله (سبحانه وتعالى) طبقاً لأصل العدل الإلهيّ، وإلّا فإن كان الله ظالماً ـ والعياذ بالله ـ لا يمكن إثبات أيّ واحد من هذه الأمور.[٢]

٢. معنى العدل لغةً

ذكر اللّغويّون في كتب اللّغة أنّ معنى العدل: الحكم بالحقّ وهو ضدّ الجور.[٣] والحكم بالحقّ حكم مناسب للشّخص المحكوم، وإلّا اعتبر حكماً جائراً؛ وعلى هذا فالعادل هو الّذي لا يميل به الهوى فيجور في الحكم.

من هنا، عندما تستعمل كلمة «العدل» بشأن الله (سبحانه وتعالى) فهي تعني أنّه لو حكم بعقوبة أحد فهو بهذا الحكم جدير، أي لم يصدر الحكم عليه استجابةً للهوى أو من غير استحقاق[٤].

٣. معنى العدل اصطلاحاً

المعنى الشائع للعدل الّذي يتبادر إلى الأذهان أسرع من غيره من المعاني هو «رعاية حقوق الآخرين وإعطاء كلّ ذي حقّ حقّه»[٥]. وفي مقابل هذا المعنى للعدل، يقف الظّلم والجور بمعنى تضييع حقوق الآخرين والاعتداء عليها.

---

١ . الصدوق، التوحيد، ص٩٦؛ الصدوق، معاني الأخبار، ص١١.

٢ . انظر: الشريف الرضي، رسائل الشريف المرتضى، ج١، ص١٦٦.

٣ . انظر: ابن منظور، لسان العرب، ج١١، ص٤٣٠؛ الفراهيدي، كتاب العين، ج٢، ص٣٨.

٤ . انظر: ابن منظور، لسان العرب، ج١١، ص٤٣٠.

٥ . انظر: المفيد، تصحيح اعتقادات الإماميّة، ص٨٣؛ السبحاني، اصول عقايد اسلامى، ص٨٢.

وفي ضوء هذا المعنى، قال الشيخ المفيد عند تعريف العدل:

«العدل هو الجزاء على العمل بالقدر المستحقّ عليه، والظّلم هو منع الحقوق، والله (سبحانه وتعالى) عدل كريم جواد متفضّل رحيم، قد ضَمن الجزاء على الأعمال، والعوض على المبتدئ من الآلام، ووعد التفضّل بعد ذلك بزيادة من عنده»[١].

على أساس هذا المعنى المطابق للمعنى اللّغويّ أيضاً، فإنّ كون الله (سبحانه وتعالى) عادلاً يعني أنّه يعطي كلّ ذي حقّ حقّه دون نقصان؛ فإن كان من أهل الطّاعة والعبوديّة أعطاه ما يستحقّه من الثّواب، وإن كان من أهل المعصية عاقبه بالعقوبة المناسبة.

وفي بحث العدل الإلهيّ في القرآن الكريم، جرى الحديث في مواضع عدّة حول أنّ الله (سبحانه وتعالى) لا يظلم أحداً، بمعنى أنّه يُعطي المحسنين جزاءهم الكامل وقد يضاعف لهم الثّواب من فضله، ولا يعاقب المُسيئين إلّا بما يستحقّون وبقدر عملهم القبيح[٢].

٤. حدود العدل الإلهيّ

يشمل العدل الإلهيّ دائرة واسعة من الأفعال الإلهيّة، وسنشير هنا إلى موردين من مصاديق الأفعال الإلهيّة الّتي يشملها عدل الله (سبحانه وتعالى):

٤.١. العدل في الجزاء

العدل في الجزاء يعني أنّ الله (جلّ وعلا) لا يظلم أحداً من المُحسنين والمُسيئين، فيُعْطِي المحسن الثّواب الّذي يستحقّ ويُعاقِب المُسيئ بالعقوبة المناسبة لمعصيته.

ولا بدّ من الالتفات إلى أنّ وجوب الثّواب للمحسنين يأتي على أساس الوعد الّذي قطعه الباري (سبحانه وتعالى) لعباده من أنّه يثيبهم على الأعمال الحسنة، ولولا هذا الوعد لما كان إعطاء الثّواب واجباً؛ لأنّه ليس للعبد إلّا شكر المعبود وطاعة الخالق. بناءً على ذلك، ليس للإنسان حقّ على الله حينما يؤدّي الأوامر الإلهيّة، ولكن في ضوء الوعد الإلهيّ بشأن إعطاء

---

١. المفيد، تصحيح اعتقادات الإماميّة، ص٨٣.

٢. انظر: سورة الأنعام: الآية ١٦٠.

الثّواب للمُحسنين، يكون معنى العدل في الجزاء هو العمل بذلك الوعد وإعطاء الثّواب الّذي وعد العباد به.

وأما بشأن جزاء العصيان، فإن شاء الله (سبحانه وتعالى) تعامل مع العاصي بفضله وكرمه ومن ثمّ العفو والصّفح عنه، وإن شاء أخذه بعدله وعاقبه بعقوبة مناسبة لعصيانه؛ ذلك أنّ معاقبة العاصي بعقوبة تفوق ما تستحقّه المعصية المُرتكَبة ظلم، والله (جلّ وعلا) منزّه عن كلّ أشكال الجور والظلم. قال (سبحانه وتعالى) في هذا الصدد:

﴿مَنْ جَآءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ اَمْثَالِهَا وَمَنْ جَآءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلاَ يُجْزَى اِلاَّ مِثْلَهَا وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ﴾[1].

٢.٤. العدل في التّشريع

وهو يعني أنّ الله (سبحانه وتعالى) لا يأمر الإنسان بأكثر من طاقته في الأحكام الشرعيّة أيضاً؛ لأنّ التّكليف بما لا يطاق ظُلم وخلاف العدل والحكمة الإلهيّة. قال (سبحانه) في هذا الخصوص:

﴿لاَ يُكَلِّفُ اللهُ نَفْساً اِلاَّ وُسْعَهَا﴾[2].

وقد ورد في رواية عن الإمام المعصوم عليه السلام أنّ المراد من التّكليف في هذه الآية الواجبات دون المستحبّات[3]. فعلى سبيل المثال، في ما يتعلّق بالصيام لم يُفرض على المكلّف الّذي تتوفر فيه الشّروط اللاّزمة إلّا صيام شهر رمضان الكريم فقط، والحال أنّه قادر على الصوم المستحبّ في الأشهر الأخرى أيضاً فضلاً عن شهر رمضان. ويستفاد من هذه الحقيقة أنّ الوُسع أقلّ من طاقة الإنسان، وأنّ الواجبات الشّرعيّة المفروضة عليه أقلّ من طاقته الطبيعيّة.

---

١. سورة الأنعام: الآية ١٦٠.

٢. سورة البقرة: الآية ٢٨٦.

٣. العياشي، تفسير العياشي، ج١، ص١٦٠.

❁ الأسئلة

١. لماذا اعتُبر العدل واحداً من أُصول الدِّين بعد التّوحيد؟ و كيف تندرج بعض العقايد الأخرى كالمعاد و النبوّة، تحت هذا الأصل؟
٢. اشرح المعني اللّغويّ والاصطلاحيّ للعدل و قارن بينهما.
٣. ما معنى العدل في الجزاء؟ أليس من العدل أن يُجازى المسيئين بأعمالهم السّيئة؟
٤. ما معنى العدل في التشريع؟ هل التكليف على الإنسان خارجاً عن وسعه، يُعدّ ظلماً و جوراً؟

❁ موضوعات للبحث

- بأيّ معانٍ استعمل العدل في الآيات والرّوايات؟ وما مدى ارتباط هذه المعاني بالبحث في هذا الدّرس؟
- ما تأثير الإيمان بأصل العدل الإلهيّ على الشّخصيّة الفرديّة والاجتماعيّة للمسلمين؟ استشهد بمثال تاريخيّ في هذا المجال.

١٣

أدلّة العدل الإلهيّ

أوضحنا في الدّرس السّابق أهميّة العدل في الفكر الإسلاميّ، واطّلعنا على معناه اللّغويّ والاصطلاحيّ، وفي الختام أشرنا إلى حدود العدل الإلهيّ في مقام الجزاء والتّشريع. وفي هذا الدّرس سنتطرّق إلى بحث شواهد لإثبات العدل الإلهيّ.

أكّدنا في الدّرس السّابق على نفي الظّلم عن الله (سبحانه وتعالى) في القرآن والأحاديث، فوُصفت أفعاله فيهما بالعدل؛ ومن هنا ورد في القرآن الكريم:

﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقاً وَعَدْلاً﴾[١].

وعلى هذا الأساس، من الواضح أنّ العدل يعتبر أحد أهمّ الصّفات الإلهيّة من وجهة نظر المصادر السّماويّة للتشريع، والّذي نبغيه في هذا الدّرس هو إقامة أدلّة عقليّة لإثبات العدل الإلهيّ. و هناك، توجه أدلّة كثيرة على العدالة في أفعال الله و ليكن نكتفى منها بدليلين:

١. دليل الكمال الأخلاقيّ

يبتني هذا الدليل على مقدّمتين: الأولى، أنّه وفقاً للحكم العقليّ يُعتبر الظُّلم أمراً قبيحاً والعدل أمراً حسناً؛ فإذا ما رجعنا إلى العقل والضمير وجدنا أنّ الظُّلم والجَور قبيح والعدل والقسط حسن، حتّى مع قطع النّظر عن الشّريعة؛ ولهذا السّبب لمّا نرى ظالماً نذمّه ونعتبره مستحقّاً للعقاب.

---

١ . سورة الأنعام: الآية ١١٥.

قال أمير المؤمنين عليه السلام حول قبح الظُّلم:

«الظُّلْمُ أُمُّ الرَّذَائِلِ»[١].

وقال أيضاً:

«إِنَّ القُبْحَ فِي الظُّلْمِ بِقَدَرِ الحُسْنِ فِي العَدْلِ»[٢].

أمّا المقدّمة الثّانية فتستند إلى الإيمان بأنّ أفعال الله (سبحانه وتعالى) لا تخالف الكمال الأخلاقيّ الّذي يؤيّده العقل؛ لأنّ الله (سبحانه) منزّه عن كلّ أشكال النقص والقبح كما أثبتناه في بحث الصفات السلبيّة سابقاً. والنتيجة المترتّبة على هاتين المقدّمتين هي أنّه (سبحانه وتعالى) منزّه عن الظُّلم والجور.

٢. دليل نفي منشإ الظُّلم

إنّ منشأ ارتكاب الأفعال القبيحة يدور بين الجهل بقبحها أو الحاجة لها أو عدم القدرة على تركها؛ لكنّنا في بحث التّوحيد أثبتنا بالبراهين العقليّة أنّ الله (سبحانه وتعالى) عليم وغنيّ وقدير، فلا معنى للجهل والفاقة والعجز في ساحة الباري (جلّ وعلا). وحيث لا وجود لمبدإ الظُّلم عند الله، يمكن القول: إنّه (سبحانه وتعالى) عادل ولا يرتكب الظُّلم[٣].

ورد عن الإمامين الصّادق والسجّاد عليهما السلام أنّهما قالا في الدعاء:

«قَدْ عَلِمْتُ يَا إِلَهِي أَنْ لَيْسَ فِي حُكْمِكَ ظُلْمٌ، وَلَا فِي نَقِمَتِكَ عَجَلَةٌ، وَإِنَّمَا يَعْجَلُ مَنْ يَخَافُ الْفَوْتَ، وَإِنَّمَا يَحْتَاجُ إِلَى الظُّلْمِ الضَّعِيفُ، وَقَدْ تَعَالَيْتَ يَا إِلَهِي عَنْ ذَلِكَ عُلُوّاً كَبِيراً»[٤].

فنرى أنّ الضعف في هذا الحديث اعتبر منشأً للظُّلم، والجهل والحاجة والعجز من المصاديق البارزة للضّعف؛ ومن هنا يمكن اعتبار الحديث المتقدّم عبارة أخرى لدليل نفي مبدإ الظُّلم.

---

١. الآمدي، غرر الحكم، الحكمة ٨٠٤.

٢. المصدر نفسه، الحكمة ٣٤٤٣.

٣. انظر: العلامة الحلّي، كشف المراد، ص٣٠٥؛ العلامة الحلّي، الباب الحادي عشر، ص٢٨.

٤. الطوسي، تهذيب الأحكام، ج٣، ص٨٨؛ الصدوق، من لايحضره الفقيه، ج١، ص٤٩١.

❀ الأسئلة

١. يُعدّ الكمال الأخلاقيّ من الأدلّة على العدل الإلهيّ، اشرح ذلك في سياق استدلالي.

٢. لماذا لا يرتكب الله الظُّلم والجور؟ إستدلّ عن طريق منشإ الظلم على العدل الإلهيّ.

❀ موضوع للبحث

- اذكر دليلاً آخر أُقِيْمَ على العدل الإلهيّ من خلال الرّجوع إلى كتب الكلام والعقائد.

١٤

العدل الإلهيّ واختيار الإنسان

تطرّقنا في الدّرسين السّابقين إلى تعريف العدل وبيان حدوده والأدلّة على إثباته، وسنبحث في هذا الدّرس ارتباط العدل الإلهيّ باختيار الإنسان و تبيين نظرية «الأمر بين الأمرين» كما ورد في المصادر الوحيانيّة.

من الأبحاث الّتي تُطرح في الكتب الكلاميّة على هامش بحث العدل الإلهيّ، مبحث اختيار الإنسان وحرّيته. ويرتبط العدل باختيار الإنسان من حيث أنّه لو كان الإنسان مجبوراً ومفتقراً إلى الحرّيّة والاختيار في أفعاله، سيكون من الظُّلم تكليفه بأداء بعض الأفعال أو تركها ومن ثمّ معاقبته بسبب عدم التزامه بتلك التّكاليف. فعلى سبيل المثال، لو أَوْثَقوا أيدي شخصٍ وأرجُله بالحبال وأداروا في فمه الخمر عُنوةً، ثمّ أقاموا عليه الحدّ وجلدوه بسبب شرب الخمر، فسيعترف الجميع بأنّ هذا الشّخص مظلوم.

ومن هذا المُنطلق، أنكر المتكلّمون مبدأ الجبر للإنسان وبادروا إلى الردّ على هذه الشّبهة في باب العدل الإلهي؛ إذ مع ثبوت نظريّة الجبر يُخدش العدل الإلهيّ. من هنا، قال الإمام أبوعبد الله الصّادق عليه السلام في مجال أعمال الإنسان:

«فَإِنْ كَانَتْ [أى الأعمال السّيئة] مِنَ اللهِ عَلَى انْفِرَادِهِ فَمَا بَالُهُ (سُبْحَانَهُ) يُعَذِّبُ عَبْدَهُ عَلَى مَا لَمْ يَفْعَلْهُ مَعَ عَدْلِهِ وَرَحْمَتِهِ وَحِكْمَتِهِ»[1].

---

١. الديلمي، أعلام الدين، ص٣١٨.

وسئل الإمام أبوالحسن الرّضا عليه السلام: هل فوّض الله الأمر إلى العباد أو جبرهم على المعاصي؟ فقال:

«اللهُ أَعْدَلُ وَأَحْكَمُ مِنْ ذَلِكَ»[1].

وعلى هذا الأساس، ورد في آيات عدّة من القرآن الكريم أنّه لا يُظلم أحد في الآخرة؛ بل يُجزى كلّ شخص على العمل الّذي قام به فقط، فقال (سبحانه وتعالى):

﴿اَلْيَوْمَ تُجْزٰى كُلُّ نَفْسٍ بِمٰا كَسَبَتْ لاٰ ظُلْمَ اليومَ﴾[2].

على أنّ نظريّة الجبر تتقاطع مع الضّمير الإنسانيّ، فضلاً عن منافاتها للعدل الإلهيّ أيضاً؛ ذلك أنّ اختيار الإنسان وحرّيته أمر وجدانيّ وبديهيّ كلّ إنسان لو راجع إلى نفسه و أفعاله يجد أن أعماله منبعثة من ذاته و صادرة من إرادته و لايستطيع أن يُحمّل مسئوليّته على الآخرين و أن يتخلّى عاتقه عن ثقل عمله و جُرمه. والقرآن الكريم تجلى عن هذه الحالة الانسانيّة الواعية بالنسبته إلى أعماله و يخاطبه بكلّ وضوح: ﴿بَلِ الْإِنْسٰانُ عَلٰى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ * وَلَوْ أَلْقٰى مَعٰاذِيرَهُ﴾[3].

الأمر بين الأمرين

لمّا كانت نظريّة الجبر متعارضة مع العدل الإلهيّ، ذهب جماعة إلى القول بنظريّة التّفويض مقابل الجبر، والتّفويض يعني أنّ الله (سبحانه وتعالى) أعطى قدرة أداء الأفعال إلى الإنسان وتركَه لحاله دون أن يتدخّل في أموره المختلفة؛ بل ذهبوا إلى أبعد من ذلك بالقول أنّه (سبحانه وتعالى) غير قادرٍ على التدخّل في شؤونه[4].

إنّ أهمّ إشكال يواجه نظريّة التّفويض هو تقييد قدرة الله وسلطته، مضافاً إلى عجزه وضعفه؛ لأنّه (سبحانه وتعالى) ليس لديه أيّ سلطة على أفعال عباده ولا يمتلك القدرة على منع صدور

---

١. الكليني، الكافي، ج١، ص١٥٧.

٢. سورة غافر: الآية ١٧.

٣. سورة القيامة: الآية ١٤ و ١٥.

٤. برنجكار، معرفت عدل الهى، ص٥٧.

أيّ فعل منهم بمقتضى هذه النظريّة، في حين ثبت في بحث التّوحيد أنّه ذو قُدرة مُطلقة.

قال الإمام أبوجعفر الباقر عليه السلام في ردّ نظريّتي الجبر والتفويض:

«لَمْ يُفَوِّضِ الْأَمْرَ إِلَى خَلْقِهِ وَهْناً مِنْهُ وَضَعْفاً، وَلَاأَجْبَرَهُمْ عَلَى مَعَاصِيهِ ظُلْماً»[1].

وفي مقابل هاتين النظريّتين، أطلق الأئمّة من أهل البيت عليهم السلام عقيدة الأمر بين الأمرين، فقال الإمام أبوعبد الله الصّادق عليه السلام في هذا الصدد:

«لَا جَبْرَ وَلَاتَفْوِيضَ، وَلَكِنْ أَمْرٌ بَيْنَ أَمْرَيْن»[2].

وخلاصة الكلام في الأمر بين الأمرين أنّ الإنسان من جهة غير مجبور لامتلاكه القدرة والاختيار، ومن جهة أخرى لم تفوَّض إليه الأمور بشكل تامّ، فيستطيع الله (سبحانه وتعالى) في أيّ لحظة منع الإنسان من استخدام قدرته أو الحيلولة دون تأثيرها أو سلبه أصل تلك القدرة. أو فقل: من ناحية يُعترف بأنّ الإنسان مختار؛ إذ اختياره أمر وجدانيّ وبديهيّ، ومن ناحية ثانية يجري التّسليم بالسّلطة المطلقة لله (سبحانه وتعالى) بحيث لا يمكن أن يتحقّق أيّ فعل من الأفعال في العالم دون إرادته و مشيّته (جلّ وعلا).

❁ الأسئلة

١. ما الصّلة بين الاختيار وقدرة الإنسان على أداء الأفعال وبين العدل الإلهيّ؟

٢. كيف تربط بين أصل المعاد و بين إختيار الإنسان و حرّيته؟

٣. ما هو الإشكال على نظريّة التفويض؟ و ما الفرق الإختيار والتفويض؟

٤. اشرح عقيدة الأمر بين الأمرين و بيّن ما هو الخط الفاصل بين هذا الإعتقاد من جهة و الجبر و التفويض من جهة أخرى.

---

١. الطبرسي، الإحتجاج، ج٢، ص٣٢٧؛ المجلسي، بحار الأنوار، ج٥، ص١٧.

٢. الكليني، الكافي، ج١، ص١٦٠؛ الصدوق، التوحيد، ص٣٦٢.

❀ موضوعات للبحث

- استخرج روايات الأمر بين الأمرين من كتاب «أصول الكافي» و اكتب تقريراً بسيطاً حول مضمون هذه الروايات.

- ما هو أفضل دليل على اختيار الإنسان وحرّيته برأيك؟

١٥

العدل الإلهيّ والشّدائد

بعد بحث أصل العدل الإلهيّ وثبوت اعتماده على اختيار الإنسان وحرّيته من جهة وسلطة الله وإرادته في الكون وفي حياة الإنسان من جهة أخرى، من المناسب أن نتطرّق في البحوث القادمة إلى بعض الشّبهات والإبهامات المثارة في هذا المجال.

من الأمور الّتي جرى الاهتمام بها منذ سالف الأزمنة وكانت موضعاً للتّساؤل بشكل مكرّر، من هو موجد الكوارث والشّدائد والمصائب في عالم الكون؟ وكيف تنسجم هذه الظّواهر مع العدل الإلهيّ؟

بعبارة أوضح: لمّا كان الله (سبحانه وتعالى) عادلاً ولا يظلم أيّ أحد من النّاس، يتبادر السؤال الآتي: لماذا يوجد في العالم جهل وضعف وفقر وحرمان وظلم وعوامل ضلال مختلفة؟؛ فمن هو موجد الفيضانات والزّلازل والأمراض والموت؟ أليس الوضع الأمثل للعالم هو خلوّه من المساوئ والشّدائد وحلول المحاسن والأفراح بدلاً عنها؟ ألا تعدّ هذه الأشرار ظُلماً للمنكوبين والواقعين تحت جورها؟

قبل الردّ على هذه الأسئلة بصورة مفصّلة، لا بدّ من الالتفات إلى أنّ صفتي العدل والحكمة قد أُثبتا في محلّهما للباري (سبحانه وتعالى). من هنا، يجب الاعتراف بوجود حكمة لجميع الكوارث والمصائب والشّدائد في الدنيا وإن لم نعرفها ولم نعيها، وسنشير أدناه إلى بعض هذه الحِكَم:

١. الشّدائد الّتي تعود إلى الإنسان نفسه

إنّ كثيراً من المصائب والشّدائد الّتي تحلّ بالعالم ما هي إلّا نتيجة لأعمال الإنسان نفسه، فهي في الحقيقة جزء من العقوبة على المعاصي الّتي يرتكبها الإنسان في دار الدّنيا، ويبقى الجزء الآخر منها إلى الآخرة. وقد قال القرآن الكريم بشأن هذه الشدائد والمفاسد:

﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[١].

وعلى هذا الأساس، يتبيّن أنّ أغلب الكوارث والشدائد الّتي يعاني منها البشر مثل الجدب والفيضانات والزّلازل تحدث نتيجة الذّنوب الّتي يرتكبها النّاس، ولا ظُلم في مثل هذه الموارد من الله (سبحانه وتعالى)؛ لأنّ العدل الإلهيّ يقتضي معاقبة المُجرمين بالعقوبة الّتي يستحقّونها، وكما وردت الإشارة في الآية الآنفة ثمّة حكمة أخرى لعقوبة الله (سبحانه وتعالى) غير كونها مطابقة للعدل، وهي توبة العصاة ورجوعهم عن غيّهم.

٢. الشّدائد الّتي لا تعود إلى الإنسان

في المقابل، لا يعود منشأ بعض المشاكل والشّدائد الّتي يواجهها البشر إلى أعمالهم وتصرّفاتهم؛ بل لها منشأ آخر؛ فعلى سبيل المثال لو ألقينا نظرة إلى سيرة الأنبياء والأولياء الإلهيّين لوجدنا أنّهم واجهوا مشاكل وشدائد أكثر من غيرهم، لكنّ الحكمة من تلك الشّدائد ليس اقترافهم الذّنوب وارتكابهم المعاصي؛ حيث ثبت بالدليل أنّهم معصومون. من هنا، يُطرح السؤال الآتي: ما الحكمة من هذه الأمور؟

ورد في بعض الأحاديث أنّ الحكمة من ذلك هو التّكامل وبلوغ الدّرجات العليا، فقال الإمام جعفر الصّادق عليه السلام في هذا المجال:

«إِنَّ اللهَ يَخُصُّ أَوْلِيَاءَهُ بِالْمَصَائِبِ لِيَأْجُرَهُمْ عَلَيْهَا مِنْ غَيْرِ ذَنْبٍ»[٢].

---

١. سورة الروم: الآية ٤١.

٢. الكليني، الكافي، ج٢، ص٤٥٠.

فاتّضح أنّ الأولياء الإلهيّين يواجهون هذا الضّرب من المصائب والشّدائد من باب الفضل والرّحمة الإلهيّة؛ لأنّ هذه المشاكل المحدودة تشكل وسيلة ومقدّمة لخيرات أبدية. وعلى هذا الأساس، كلّما كان الشّخص أقرب إلى الله وأكثر محبّةً لديه ابتلي بمشاكل أكثر من سواه و في هذا الصدد، ورد روايات كثيرة منها ما صدر عن الإمام الصادق عليه السلام:

«أشدُّ الناسِ بلاءً الأنبياءُ ثمّ الّذينَ يَلونَهم ثمّ الأمثلُ فالأمثلُ».[١]

والنّقطة المُهمّة في هذا البحث هي أنّ من يصبر على هذين النّحوين من الشّدائد ويتّخذ موقفاً صحيحاً مقابلها، سواء كان إنساناً معصوماً أم غير معصوم، سيحصل في نهاية المطاف على خير أبديّ وغيرُ محدود، وهذا يعني أنّ جميع أقسام المصائب والابتلاءات تكون لصالح الإنسان إن واجهها بالصّبر والاستقامة واتّخاذ الموقف الصّحيح.

❁ الأسئلة

١. ما الإشكال حول المصائب والشّدائد الّتي تصيب البشر؟
٢. اشرح الحكمة من المصائب والمشاكل. كيف تُجيب بهذه الحكمة و إشكاليّة الشرور؟
٣. ما الفارق بين المعصومين وغير المعصومين في مجال الابتلاء بالشدائد؟
٤. كيف يمكن تبديل التّهديد النّاجم عن المصائب والشّدائد إلى فرصة مباركة؟

❁ موضوعات للبحث

- أحصِ نماذج من تاريخ الأنبياء الّذين ابتلوا بمشاكل شديدة، ثم بيّن السرّ في هذا الابتلاء.
- لماذا يواجه المؤمنون المشاكل والشّدائد أكثر من الكافرين؟ ابحث هذا الموضوع في الآيات والرّوايات.

---

١. الكليني، الكافي، ج٢، ص٢٥٣.

١٦

العدل الإلهيّ والفوارق والاختلافات

جرى الحديث في ما مضى عن الأسرار الطّبيعيّة الّتي تقع في السّماء والأرض، غير أنّ كثيرين عمدوا إلى إطلاق شبهات حول الفوارق والاختلافات الموجودة في حياة الإنسان، لا سيّما الأمور الّتي لازمت الإنسان منذ بدء الخلقة، والآن سنبحث هذه الاختلافات ومدى ارتباطها بالعدل الإلهيّ.

تُطرح التّساؤلات الآتية حول الفوارق والاختلافات الموجودة في الكون: لماذا خُلقت الكائنات بصورة متباينة و متخالفة؟ ولماذا خُصّ بعضها بأنواع من الكمال دون بعضها الآخر؟ ألا تعدّ هذه الاختلافات بين البشر في حدّ ذاتها ظُلماً وانعداماً للحكمة؟

١. النسبة بين العدل والتّشابه

قبل البدء بالحديث في أيّ شيءٍ لا بدّ من القول: لا التّساوي والتّشابه بين النّاس دليل على العدل ولا الاختلاف والتباين بالضرورة مساوق للظّلم والجور. نعم، إن اعتبرنا التشابه بين الكائنات عدلاً سيجرّنا إلى القول بأنّ كلّ شكل من أشكال الاختلاف والتّباين ناشئ من الظُّلم وعدم العدل. ثمّ إنّ الاختلافات الموجودة بين المخلوقات في هذا العالم لا تعدّ منشأً للخير والشرّ بقدر ما تدلّ على جميل صنع الباري (سبحانه وتعالى) وحسن تدبيره و إتقان عمله؛ حيث إنّها تمثّل سرّ الانسجام الكبير والتّناسق الدّقيق والنّظام المتقن في هذا العالم. كما إنّ هذه الاختلافات جعلت ظروف كلّ واحد من المخلوقات مضافاً إلى احتياجاته الجسديّة والرّوحيّة مختلفة عن الآخرين، وأدّت إلى أن يضطلع كلّ موجود بدور مغاير لأدوار الآخرين.

فعلى سبيل المثال، يمكن الإشارة إلى الفوارق الجسديّة والنفسيّة الموجودة بين الرّجل والمرأة؛ حيث أسفرت تلك الاختلافات الجوهريّة بين الجنسين عن قيام كلٍّ منهما بدور المكمّل في تشكيل الأسرة، فيأخذ الرّجل على عاتقه دور الأب وأداء المسؤوليّات الّتي تحتاج إلى القوّة والصّلابة، في حين تؤدي المرأة دور الأم الّذي يحتاج إلى الرقّة وتنجز وظائف الأمومة ابتداءً بمرحلة الحمل والوضع والإرضاع. ومن النّاحية النفسيّة، تعدّ المرأة موجوداً مليئاً بالأحاسيس والعواطف الضّروريّة لتحمّل مصاعب فترة الحمل والوضع والاهتمام بالطفل ما بعد الولادة، بينما يتكفّل الأب بالأعمال الّتي تتطلّب التّدبير والحزم.

ومن الواضح أنّ هذه الاختلافات ليست من الظُّلم في شيء؛ بل هي عين العدل؛ لأنّ الظُّلم إنّما يتحقّق حينما لا يستطيع كلّ واحد من الرّجل والمرأة الحصول على مبتغياته واحتياجاته المتناسبة مع وضعه الجسدي والنّفسي؛ وبالتالي، تُسلب منه الأرضيّة المناسبة لبلوغ الكمال المنشود[1].

بناءً على ذلك، يمكن دراسة قلّة إعطاء النِّعم وزيادتها من جهتين:

الجهة الأولى: لماذا منح الله بعض النّاس ذكاءً خارقاً ومنح الآخرين ذكاءً محدوداً، أو لماذا وسّع الرّزق على بعض وابتلى آخرين بضيق ذات اليد وقلّة الرزق؟

الجواب عن ذلك أنّ مرجع جميع هذه الاختلافات إلى الحكمة الإلهيّة الّتي تصبّ في مصلحة العباد، وأنّ عقولنا قاصرة عن بلوغ الحكمة من التباين وكشف أسباب التغاير والوقوف على جميع أبعاده؛ لكن ومن منطلق التّجربة البشريّة والتعاليم السّماويّة يمكن الإشارة إلى النّقاط الآتية في هذا الخصوص:

١. إنّ الله (سبحانه وتعالى) يهدف من هذا التّباين بين العباد إلى دعوة كلّ واحد منهم إليه ومنحه الكمال والمعرفة والتقرّب إليه، فمن أُعطي سعة في الرزق يُدعى إلى الشّكر والطاعة وفي الوقت نفسه يحذَّر من الكبر والغرور المؤدّي إلى سقوط الإنسان في المهالك، ومن قُتّر عليه رزقه ولم يحصل إلّا على قليل من الأموال يُدعى إلى الابتهال والطلب وبذل مزيد من

---

١. مطهري، مجموعه آثار، ج١٩: نظام حقوق زن در اسلام، ص١٢٧ فصاعداً؛ سبحاني، شخصية المرأة: دراسة في الأنموذج الحضاري الاسلامي، ص١٧٧ فصاعداً.

الجهود الّتي توفّر أرضيّة للكمالات العليا والبُعد عن الوقوع في الرّذائل والانحطاط الروحي[1].

٢. إذا حاز كلّ واحد من البشر على جميع الإمكانيّات وبالقدر نفسه لا يقوم النّظام الاجتماعي؛ لأنّ المجتمع الإنسانيّ قائم على تقسيم الوظائف والمسؤوليّات والاستفادة من قابليّات جميع الأفراد. قال (سبحانه وتعالى) في هذا الخصوص:

﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً سُخْرِيّاً وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾[2].

إنّ هذه النّقطة الّتي سُمّيت «مبدأ الاستخدام المتبادل» لا تتحقّق إلّا حينما يفتقر الأشخاص إلى بعض الكمالات ويُحرزون بعضها الآخر؛ ليحتاجوا إلى الآخرين في ما هم مفتقرون إليه ويعزّزوا التّواصل بينهم.

الجهة الثّانية: ألا يعدّ نقص الكمالات لدى بعض النّاس ظلماً لهم؟

لا يعدّ هذا النقص ظلماً لهؤلاء الأفراد إلّا إذا تمّ تكليفهم بقدر أصحاب الطاقات وبما لا يطيقون، وإلّا فإن كُلّف الشّخص بقدر وُسعِه وبما يُطيق وبمقدار ما أُعطي من كمالات، لا يكون تكليفه حينئذٍ ظلماً.

قال (سبحانه وتعالى) في محكم كتابه الكريم في هذا الصدد:

﴿لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا﴾[3].

﴿لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْساً إِلَّا مَا آتَاهَا﴾[4].

٢. المعاقون والمتخلّفون عقليّاً

يولد بعض النّاس معاقون أو متخلّفون عقليّاً، وهنا يتبادر إلى الأذهان السؤال الآتي: لماذا

---

١. انظر: الكليني، الكافي، ج٢، ص٨.

٢. سورة الزخرف: الآية ٣٢.

٣. سورة البقرة: الآية ٢٨٦.

٤. سورة الطلاق: الآية ٧.

يجب أن يكون هؤلاء الأفراد معاقين أو متخلّفين عقليّاً ومن المسؤول عن ذلك؟

للردّ على هذا السؤال، بدايةً لا بدّ من الإشارة إلى مقدّمتين:

١. أطلق الباري (سبحانه وتعالى) على نفسه اسم «أحسن الخالقين» وقد خلق الإنسان في أحسن تقويم جسدي وروحي فقال:

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾[1].

ليس على صعيد الإنسان وحسب؛ بل لا خلل أو نقص في الخلق الإلهيّ عموماً:

﴿مَا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِنْ تَفَاوُتٍ﴾[2].

وبالنّظر إلى عظمة عالم الكون، نجد أنّ كلّ ما فيه معبّرٌ عن دقّة الله في صنعه وقمّة الانسجام والخضوع لقوانين مدروسة وعمليّات محسوبة.

٢. إنّ الله (سبحانه وتعالى) خلق الإنسان مختاراً وحرّاً في حياته، فوضع أمامه سبيل الخير والشرّ، وأمره بالخير ونهاه عن الشرّ؛ وعندئذٍ بوسعه اختيار سبيل الخير بمحض إرادته واختياره ليسير في طريق الحقّ والعدل ولا يسبّب الضّرر لأحد، كما إنّ هذا الإنسان المختار ـ نفسه ـ قادر على معصية الأمر الإلهيّ وارتكاب أعمال تسبّب له ولغيره أضراراً بليغة في بعض الأحيان.

وفي ضوء هاتين المقدّمتين، يمكن الخلوص إلى أنّ أيّ فساد وخلل ونقص موجود في هذا العالم يعود إلى الإنسان وأعماله بصورة مباشرة أو غير مباشرة؛ ولذا قال (سبحانه وتعالى):

﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾[3].

ويمكن مشاهدة هذه الحقيقة في الجوانب المختلفة من الحياة الفرديّة والاجتماعيّة للنّاس، ومنها أنّ عدم رعاية العوامل الصحيّة الجسديّة والرّوحيّة في الحياة الزّوجيّة، خصوصاً في مراحل التكاثر والإنجاب، يعدّ عاملاً مهمّاً جدّاً ومؤثّراً في نشوء العوق والتخلّف العقلي. وعليه، فإنّ إلقاء نظرة سريعة على آداب النّكاح في الرّوايات المأثورة عن أهل البيت عليهم السلام

---

١. سورة التين: الآية ٤.

٢. سورة الملك: الآية ٣.

٣. سورة الروم: الآية ٤١.

يكشف لنا عن وصايا صحيّة وأخلاقيّة للزّوجين بشأن موضوعات النّكاح، ولا ريب في أنّ رعاية تلك الوصايا كفيلة بولادة أطفال سالمين، وفي المقابل فإنّ عدم رعايتها يؤدّي إلى إصابتهم بأنواع مختلفة من النّقص والتخلّف.

وعلى هذا الأساس، فالمسؤول عن ولادة أطفالٍ ناقصين ومعاقين أحياناً هم الوالدان أنفسهم؛ حيث ينجم عن إهمالهم وتساهلهم في تطبيق بعض التّوصيات إصابة أبنائهم ببعض أشكال العوق والتخلّف الجسدي والذهني، وهو ما يضع على عاتقهم مسؤوليّة ذلك. ولا بدّ من الالتفات إلى وجود عوامل أخرى يمكن أن تكون مؤثّرة على سلامة الأطفال، أبرزها الأجيال السّابقة والأشخاص المحيطين والأطبّاء والمسؤولين الحكوميّين. وعلى أيّ حال، لا ظلم لأيّ طفل من الله (سبحانه وتعالى) في هذا المجال.

وتبقى نقطة أخرى في هذا المضمار، وهي ما ذنب الشّخص الّذي يولد ناقصاً أو متخلّفاً عقليّاً بسبب تساهل الأبوين أو غيرهم في المثال المتقدّم؟ وفي مقام الردّ يجب القول: لو أسفر تهوّر سائق إحدى الحافلات عن إصابة بعض المسافرين، هل يُسأل حينئذٍ ما ذنب هؤلاء المصابين؟ وإن طُرح مثل هذا السؤال، أوَ يُردّ عليه بأكثر من أنّ السائق هو المقصّر ويجب عليه تحمّل المسؤولية ودفع الخسائر؟

وعلى مستوى أوسع من ذلك وبصورة عامّة، المسؤولون عن النّواقص في خلق الله طيلة التّاريخ والّذين عزا لهم الباري (سبحانه وتعالى) ظهور الفساد في البرّ والبحر هم النّاس المرتكبون للأفعال القبيحة، فهؤلاء يحاسَبون في محكمة العدل الإلهيّ وينالون جزاءهم العادل، وعلى هذا الأساس يحصل المتضرّرون على حقوقهم المشروعة أيضاً.

٣. الحكمة من خلق الكافرين

لماذا خلق الله الكافرين؟ وما الفائدة من خلق من تكون عاقبته الكفر والعذاب في جهنم؟ وهل هذا العمل متناسب مع العدل والحكمة الإلهيّة؟

نقول ردّاً على هذا السؤال: إنّ الله (سبحانه وتعالى) لا يخلق شخصاً كافراً؛ بل الكفر نتيجة لسوء اختيار الإنسان نفسه وحصيلة لأعماله القبيحة. بعبارة مغايرة: من يُطلَق عليه كافر هو

من يختار إنكار الحقّ ومعصية الله مقابل الانصياع للحقّ وطاعة الله. ومن هذا المنطلق، ردّ الإمام أبوعبد الله الصّادق عليه السلام على من سأله: من خلقه الله كافراً أيستطيع الإيمان؟ وله عليه بتركه الإيمان حجّة؟ فقال:

«إِنَّ اللهَ خَلَقَ خَلْقَهُ جَمِيعاً مُسْلِمِينَ، أَمَرَهُمْ وَنَهَاهُمْ، وَالْكُفْرُ اسْمٌ يَلْحَقُ الْفِعْلَ حِينَ يَفْعَلُهُ الْعَبْدُ، وَلَمْ يَخْلُقِ اللهُ الْعَبْدَ حِينَ خَلَقَهُ كَافِراً، إِنَّهُ إِنَّمَا كَفَرَ مِنْ بَعْدِ أَنْ بَلَغَ وَقْتاً لَزِمَتْهُ الْحُجَّةُ مِنَ اللهِ فَعَرَضَ عَلَيْهِ الْحَقَّ فَجَحَدَهُ، فَبِإِنْكَارِهِ الْحَقَّ صَارَ كَافِراً»[١].

بناءً على ذلك، إن سار شخص في طريق إنكار الحقّ وانتهج سبيل المعصية فلا بدّ من أن يتحمّل نتائج عمله ويقبل بالعواقب المترتّبة على ذلك، ولئن عوقب على ما فعله فالعقاب متناسب مع العدل والحكمة الإلهيّة.

وإكمالاً لهذا البحث، يجب طرح هذا السؤال الأساسي: صحيح أنّ خلق الكافرين ليس بظلم؛ لأنّهم اختاروا الكفر بمحض إرادتهم، لكن ما الحكمة من خلق أناس يعلم الله (سبحانه وتعالى) أنّهم سيكفرون باختيارهم؟ أوَليس من الأفضل ألّا يُخلق هؤلاء من البداية لئلّا يواجهوا هذا المصير الأسود؟

يمكن القول ردّاً على هذا السؤال: لما ثبت في محلّه أنّ الله (سبحانه وتعالى) حكيم، ونعلم إجمالاً أنّه لا يصدر منه إلّا الفعل الحكيم؛ لا إشكال في جميع أفعاله حتّى لو لم نعلم الحكمة من بعضها، وعلى أيّ حال يمكن الإشارة إلى بعض الحِكَم الإلهيّة على النّحو الآتي:

١. إنّ الدنيا موضعٌ لابتلاء العباد واختبارهم، فسَعيُ الإنسان في هذه الدنيا هو الّذي يحدّد مصيره، والكُفّار إنّما يصبحون كفّاراً نتيجة هذه الاختبارات، ولولا ذلك كان من حقّهم أن يتساءلوا: لماذا حُكم علينا بالكفر دون توفير الأرضيّة اللّازمة للاختبار. وعلى هذا الأساس، لم يكتفِ الله (سبحانه وتعالى) بعلمه في هذا المجال؛ بل مهّد الأرضيّة أمام الجميع ليتسنّى لكلّ شخص رؤية نتائج أعماله بصورة عمليّة.

---

١. الطبرسي، الاحتجاج، ج٢، ص٣٤١؛ المجلسي، بحار الأنوار، ج٥، ص١٩.

٢. يتهلّل كلّ إنسانٍ فرحاً بامتلاكه كمالاتٍ مختلفة، ولا يخفى أنّه يبتهج بكمال الحياة أكثر من سائر الكمالات الأخرى، وليس الكُفّار مستثنون من هذه القاعدة؛ حيث يدخلهم السّرور بوجود هذا الكمال أيضاً، ففي الوقت الّذي ينكرون الحقّ (سبحانه وتعالى) ويعصون أوامره ونواهيه ويعلمون أنّ هذا العصيان يوجب عليهم العقاب الإلهيّ، لا يرغبون بالتّفريط بكمال الحياة لا في الدنيا ولا في الآخرة لما فيه من لذّة وبهجة. ولمّا كانت رحمة الله (سبحانه وتعالى) شاملة لكلّ شيءٍ، وحيث إنّ رحمته تسبق غضبه، لم يحرم الكافرين من كمال الحياة في الدنيا والآخرة على الرّغم من علمه أنّهم عصاةٌ وسائرون في طريق العناد واللّجاج.

٣. إنّ الدنيا دار الامتحان والابتلاء الإلهيّ؛ حيث يبتلي الله (سبحانه وتعالى) المؤمنين بطرق مختلفة؛ ليرفع درجة المخلصين من جهة ويميّز الكذّابين ودعاة الإخلاص المزيفين من جهة ثانية. وبهذا يتبيّن أنّ وجود الكافرين يمثّل أحد طرق اختبار المؤمنين وابتلائهم؛ إذ يكتسب المؤمنون القدرة على الامتحان الإلهيّ وتتوفّر أمامهم الفرصة المناسبة للتكامل من خلال المواجهة مع الكافرين.

❀ الأسئلة

١. بأيّ صفة من صفات الباري (سبحانه وتعالى) يمكن بيان الاختلافات لدى المخلوقات؟

٢. كيف تَردّ على التّمييز في إعطاء الكمالات وتفوّق بعض النّاس على بعضهم الآخر في الكمالات الذاتيّة؟

٣. كيف يمكن توجيه خلق بعض الأشخاص معاقين ومتخلّفين وكيف يتناسب ذلك مع العدل الإلهيّ؟

٤. ما الحكمة من خلق أناس يعلم الله (سبحانه و تعالى) أنهم سيكفرون باختيارهم؟ أوليس من الأفضل ألّا يخلق هؤلاء من البداية؟

٥. من جملة حِكَم الله (سبحانه وتعالى) هو اختبار العباد وابتلائهم، اشرح ذلك.

❀ موضوعات للبحث

- أيّ شبهة من شبهات الشّرور أقوى من غيرها بحسب وجهة نظرك؟ تباحث مع أصدقائك بشأن هذه الشّبهة واجمع أجوبتهم حول الموضوع ثمّ رتّب تلك الأجوبة ترتيباً منهجيّاً.
- راجع المكتبات وبنوك المعلومات واكتب قائمة بأسماء الكتب والمقالات المدوّنة حول موضوع الشرّ.

١٧

العدل الإلهيّ والعقاب الأخرويّ

أجبنا إلى الآن عن بعض الشّبهات والغموض بشأن العدل الإلهيّ، ومن تلكم الشّبهات العقاب الأخرويّ، وعلى وجه التّحديد خلود الإنسان في النّار؛ حيث يبدو أنّ العدل الإلهيّ لا يتناسب مع العذاب الأبديّ للإنسان، وهذا الدّرس بصدد الرّدّ على هذه الشّبهة.

بما أنّ مدّة ارتكاب الذّنب في الحياة الدّنيا محدودة، يتبادر إلى الأذهان السؤال الآتي: لـمَ ينبّغي للإنسان الّذي يرتكب ذنباً صغيراً ومحدوداً أن يعاقَب بعقوبة غير محدودة ومؤلمة جدّاً؟ ألا يعدّ هذا ظلماً للعباد؟

وللردّ على هذا السؤال، يجب أوّلاً بحث وشرح معنى الجزاء والخلود وتأثيرهما في التعاليم الدينيّة.

١. معنى الجزاء والخلود

معنى «الجزاء» لغةً هو المكافأة على الشّيء بالإحسان والإساءة[١]. و«الخلود» دوام البقاء في دار لا يخرج منها، وإنّما سُمّيت الجنّة «دار الخُلد» لبقاء أهلها فيها وعدم خروجهم منها إلى الأبد، وكذا أطلق على الآخرة «دار الخُلد» لبقاء أهلها من المؤمنين والكافرين فيها أيضاً[٢].

---

١ . انظر: الفراهيدي، كتاب العين، ج٦، ص١٦٤؛ ابن منظور، لسان العرب، ج١٤، ص١٤٣.

٢ . انظر: الفراهيدي، كتاب العين، ج٤، ص٢٣١؛ ابن منظور، لسان العرب، ج٣، ص١٦٤.

وتؤكد التعاليم الدينيّة على أنّ جزاء المؤمنين الصّالحين والمحسنين في الآخرة هو الخلود في الجنّة الّتي تحوي ما لا يعدّ ولا يُحصى من النِّعم الإلهيّة. وفي المقابل، فإنّ جزاء الكافرين والمُذنبين متوقّف على مقدار ما يرتكبونه من الذّنوب والمعاصي، فكلّما كان الذنب كبيراً كانت عقوبته أشدّ وأكثر خلوداً في النار، إلى درجة أنّ بعضهم مخلّدون في نار جهنّم، فخلود طائفة من الكافرين والعصاة في جهنّم من العقائد الإسلاميّة المسلّمة والمستندة إلى القرآن الكريم؛ حيث قال (جلّ وعلا) في محكم كتابه الكريم:

﴿مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[1].

وبشأن الكافرين قال (سبحانه):

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[2].

وعليه، فإنّ مصير من يصدفون عن الهداية الإلهيّة ويعصون الله ويرفضون الانصياع والتسليم إلى قدرته ويصرّون على الكفر والشّرك ويثيرون في الأرض الفساد ولا يتورّعون عن ظلم العباد، هو الخلود في نار جهنّم.

٢. تناسب الذّنب مع الخلود في ضوء العدل الإلهيّ

وبالعودة إلى السؤال الآنف: لمَ ينبّغي للإنسان الّذي يرتكب ذنباً صغيراً ومحدوداً أن يعاقَب بعقوبة غير محدودة ومؤلمة جدّاً؟ نقول: يمكن لنا في مقام الجواب الإشارة إلى النقاط الآتية:

١. عدم قدرة العقل على إدراك أبعاد تأثير المعصية: فكلّ معصية يقترفها الإنسان تثير موجة من التأثيرات المختلفة كما هو حال الحجر الّذي يلقى في بركة من الماء؛ حيث تعتمد أبعاد هذه الموجة على حجم المعصية ومدى صغرها أو كبرها. ولا يخفى أنّه يتعذّر إدراك جميع أبعاد تأثير المعصية على الشّخص العاصي وغيره ممن تعرّض إلى الأضرار النّاجمة عنها؛ لأنّ حدودها خارجة عن دائرة العقل البَشَريّ.

---

١ . سورة البقرة: الآية ٨١.

٢ . سورة البقرة: الآية ٢٥٧.

ولعلّ التخلّفات المروريّة خير مثال في هذا المجال، فالسّائق المرتكب للمخالفة والمخالف لقوانين المرور لا يسبّب الضّرر لنفسه فقط؛ وإنّما يعرّض الآخرين إلى المخاطر أيضاً، كما يتعذّر إحصاء حجم الخسائر النّاجمة عن التخلّف المروري، فقد يسفر عنها موت أسرة بريئة وتأثر عدد كبير من أقربائها وأصدقائها وجيرانها وبروز مشاكل عويصة ومستعصية بحيث تبقى الأجيال المستقبليّة تعاني من تداعياتها أيضاً.

وهذا الكلام يجري في ارتكاب المعصية وعدم الالتزام بالأوامر الإلهيّة أيضاً، فمن الممكن أن تكون للمعصية الصغيرة والمحدودة ظاهراً تبعات كبيرة وعواقب وخيمة لا يتمكن العقل من إدراك عمقها ومرارتها؛ ولكن لمّا كان الله (سبحانه وتعالى) عالماً بعواقب الأمور فقد حذّر العباد من مغبّة اقترافها.

قال الإمام عليّ بن الحسين السجّاد ﷺ في هذا الخصوص مخاطباً الله (جلّ وعلا):

«وَإِنِّي لَأَعْلَمُ أَنَّ وَاحِداً مِنْ ذُنُوبِي يُوجِبُ لِي أَلِيمَ عَذَابِكَ وَيَحِلُّ بِي شَدِيدُ عِقَابِكَ»[١].

وعلى هذا الأساس، ليس ببعيد أن يتسبّب عمل صغير بآثار مدمّرة وتداعيات خطيرة لطائفة واسعة من النّاس، وقد يؤدّي إلى تدمير إمكانات هائلة يصعب إحصاؤها.

٢. تناسب العقوبة مع عظمة من يُعصى: تارةً يكون جزاء الجريمة المرتكبة متناسباً مع عِظَم الجريمة نفسها، وتارةً يتناسب ـ فضلاً عن ذلك ـ مع عظمة الشّخص الّذي يُعصى. فعلى سبيل المثال، تختلف عقوبة الشّخص الّذي يلطم وجه إنسان اعتيادي دون سبب وجيه مع عقوبة من يوجه اللّطمة نفسها إلى شخص مسؤول في الدولة؛ حيث تشتدّ العقوبة كلّما كان منصب ذلك الشّخص أرفع. بعبارة أخرى: المعاقبة تتأثّر من وجود آثار قانونية للشخصيّة الاعتباريّة للفرد فضلاً عن شخصيّته الحقيقيّة.

وليس بخفيّ أنّ الله (سبحانه وتعالى) ذو عظمة لا حدّ لها وتفوق الوصف وأكبر من حدّ التصوّر؛ ولذا فإنّ من يعصي الله (جلّ وعلا) ينتهك أوامر صاحب العظمة غير القابلة للتصوّر،

---

١. الصحيفة السجّاديّة، الدعاء ٢١.

ولابدّ من أن تكون عقوبة هذا الشّخص مناسبة لعظمة الله ومقامه السّامي، فإن كانت أبديّة وغير مُتناهية في الشدّة والأمد فهي مناسبة لعدم تناهي عظمة الباري (سبحانه وتعالى) ومقامه الأعلى، وليست مخالفة للعدل الإلهيّ أبداً. ومنه يتّضح أنّه لو أراد الله تخليد عبد من عباده في العذاب الأليم لأنّه ارتكب معصية الجرأة على مقام بارئه وهاتكاً لعظمته، لا يكون ظالماً له ولا متعدّياً على هذا العبد. من هنا، قال الإمام زين العابدين عليه السلام مخاطباً الله (سبحانه وتعالى):

«فَأَمَّا الْعَاصِي أَمْرَكَ وَالْمُوَاقِعُ نَهْيَكَ... لَقَدْ كَانَ يَسْتَحِقُّ فِي أَوَّلِ مَا هَمَّ بِعِصْيَانِكَ كُلَّ مَا أَعْدَدْتَ لِجَمِيعِ خَلْقِكَ مِنْ عُقُوبَتِكَ»[١].

وقال عليه السلام في موضع آخر خلال مناجاته ربّه:

«إِلَهَنَا وَسَيِّدَنَا وَمَوْلَانَا! لَوْ بَكَيْنَا حَتَّى تَسْقُطَ أَشْفَارُنَا، وَانْتَحَبْنَا حَتَّى يَنْقَطِعَ أَصْوَاتُنَا، وَقُمْنَا حَتَّى تَيْبَسَ أَقْدَامُنَا، وَرَكَعْنَا حَتَّى تَتَخَلَّعَ أَوْصَالُنَا، وَسَجَدْنَا حَتَّى تَتَفَقَّأَ أَحْدَاقُنَا... مَا اسْتَوْجَبْنَا بِذَلِكَ مَحْوَ سَيِّئَةٍ مِنْ سَيِّئَاتِنَا»[٢].

نعم، من جملة الحِكَم الدّاعية إلى تشريع عقوبة خالدة للمذنبين والعصاة هو التأكيد على الآثار الخفيّة لأعمالهم والتّشديد على عظمة مقام الباري (سبحانه وتعالى) وحقّ طاعته. من هنا، ورد في الأحاديث التحذير من الاستخفاف بالمعصية واستحقار الذّنوب، فقال الإمام أبوعبد الله الصّادق عليه السلام:

«اتَّقُوا الْمُحَقَّرَاتِ مِنَ الذُّنُوبِ فَإِنَّهَا لَا تُغْفَرُ»[٣].

وقال أيضاً:

«مَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَا يَعْمَلْهَا فَإِنَّهُ رُبَّمَا عَمِلَ الْعَبْدُ السَّيِّئَةَ فَيَرَاهُ الرَّبُّ (تَبَارَكَ وَتَعَالَى) فَيَقُولُ: وَعِزَّتِي وَجَلَالِي لَا أَغْفِرُ لَكَ بَعْدَ ذَلِكَ أَبَداً»[٤].

---

١. الصحيفة السجّاديّة، الدعاء رقم ٢٩.

٢. الحلّي، العدد القويّة، ص٣٢٠؛ المجلسي، بحار الأنوار، ج٩١، ص١٣٨.

٣. الكليني، الكافي، ج٢، ص٢٨٧.

٤. المصدر نفسه، ص٢٧١.

٣. تناسب العقوبة مع نيّة المجرم: معنى النيّة لغةً هي الجهة الّتي يذهب فيها الإنسان بعدما يقصدها ويعتقدها[١]، ومعناها في ثقافة القرآن والأحاديث القصد والإرادة القلبيّة للقيام بأيّ عمل. وعليه، فالنيّة القلبية لكلّ إنسان هي الّتي تحدّد حقيقة عمله. بعبارة مغايرة: إنّ حقيقة أيّ عمل رهن بنيّة من يقوم به ويؤدّيه. قال (سبحانه وتعالى) في هذا الخصوص:

﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ﴾[٢].

وروي في حديث عن النبيّ الأكرم ﷺ قال:

«إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ ولِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى»[٣].

ولمّا كان عمل الإنسان مرتبط بنيّته، ونيّة الكافرين والعاصين لله ارتكاب المعاصي وعدم الإيمان بالله أبداً ما بقوا في الحياة الدنيا، فالعقل يحكم باستحقاقهم العقوبة الأبديّة في الآخرة أيضاً. قال الإمام أبوعبد الله الصّادق عليه السلام في هذا الصدد:

«إِنَّمَا خُلِّدَ أَهْلُ النَّارِ فِي النَّارِ؛ لِأَنَّ نِيَّاتِهِمْ كَانَتْ فِي الدُّنْيَا أَنْ لَوْ خُلِّدُوا فِيهَا أَنْ يَعْصُوا اللهَ أَبَداً، وَإِنَّمَا خُلِّدَ أَهْلُ الْجَنَّةِ فِي الْجَنَّةِ؛ لِأَنَّ نِيَّاتِهِمْ كَانَتْ فِي الدُّنْيَا أَنْ لَوْ بَقُوا فِيهَا أَنْ يُطِيعُوا اللهَ أَبَداً؛ فَبِالنِّيَّاتِ خُلِّدَ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ»، ثُمَّ تَلَا قَوْلَهُ (سبحانه وتعالى): ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ﴾ قَالَ: «عَلَى نِيَّتِهِ»[٤].

ويستفاد من هذا الحديث الشريف أنّ «نيّة المعصية الأبديّة لله (سبحانه وتعالى)» جريمة عقابها العذاب الأبدي؛ لأنّ هذه المعصية في حدّ ذاتها معصية دائميّة وغير مقيّدة بزمان محدّد ولا مكان معيّن.

٣. الصّفح عن العُصاة

صحيح أنّ معصيةً واحدةً قدّ تجرّ صاحبها إلى الخلود في النّار في بعض الأحيان، غير أنّ

---

١. انظر: ابن منظور، لسان العرب، ج١٥، ص٣٤٧.

٢. سورة الإسراء: الآية ٨٤.

٣. الطوسي، الأمالي، ص٦١٨؛ القاضي النعمان، دعائم الاسلام، ج١، ص٤؛ و أيضا انظر: الكليني، الكافي، ج٤، ص٨٤.

٤. الكليني، الكافي، ج ٢، ص٨٥؛ البرقي، المحاسن، ج٢، ص٣٣١.

التعاليم الدينيّة الواردة في المصادر الإسلاميّة تفيد أنّ الله (سبحانه وتعالى) يصفح عن كثير من المعاصي والذّنوب، ولا يخلَّد في النّار والعذاب الإلهيّ إلّا الكافرون والمشركون وأعداء الله، وأما المؤمنون فمنهم من يُعفى عن ذنوبهم ومنهم من يعاقَب في دار الدنيا ومنهم من يعاقَب في البرزخ. نعم، قد يُعاقب بعض المؤمنين في الآخرة أيضاً، لكنّهم سوف يدخلون الجنّة في نهاية المطاف.

قال الباري (عزّوجلّ) في هذا المجال:

﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾[1].

وقال الإمام أبوعبد الله الصّادق عليه السلام معقّباً على هذه الآية الشّريفة:

«مَا يَعْفُو اللهُ أَكْثَرُ مِمَّا يُؤَاخِذُ بِهِ»[2].

وقال أمير المؤمنين عليه السلام شرح الآية المذكورة:

«مَنْ عَجَّلَ اللهُ عُقُوبَةَ ذَنْبِهِ فِي الدُّنْيَا فَإِنَّ اللهَ (عَزَّ وَجَلَّ) أَجَلُّ وَأَكْرَمُ وَأَعْظَمُ مِنْ أَنْ يَعُودَ فِي عُقُوبَتِهِ فِي الْآخِرَةِ»[3].

٤. تخفيف العذاب عن المخلّدين في النّار

على الرّغم من أنّ الله (سبحانه وتعالى) وعد بعض أهل النّار بالخلود في العذاب الأخرويّ، بيد أنّ رحمته الواسعة تشمل هذه الفئة أيضاً، فقد ورد في بعض الرّوايات أنّه كان في بني إسرائيل مؤمنٌ وكان له جارٌ كافرٌ، فكان الكافر يرفق بالمؤمن ويولّيه المعروف في الدّنيا، فلمّا أن مات الكافر بنى الله له بيتاً في النّار من طين، وكان يقيه حرّها[4]. وفي رواية أخرى أنّ مؤمناً كان في مملكة جبّار، فأزعجه ولاحقه، فهرب منه إلى دار الشّرك ونزل عند رجل من المُشركين، فأظلّه وأرفقه وأضافه، فلمّا حضر الموت المشرك أوحى الله (عزّوجلّ) إليه:

---

١. سورة الشورى: الآية ٣٠.

٢. الكليني، الكافي، ج٢، ص٢٦٩.

٣. المصدر نفسه، ص٤٤٥.

٤. الصدوق، ثواب الأعمال و عقاب الأعمال، ص١٦٩؛ الحرّ العاملي، وسائل الشيعة، ج١٦، ص٢٨٩.

«وَعِزَّتِي وَجَلَالِي لَوْ كَانَ لَكَ فِي جَنَّتِي مَسْكَنٌ لَأَسْكَنْتُكَ فِيهَا، وَلَكِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَى مَنْ مَاتَ بِي مُشْرِكاً، وَلَكِنْ يَا نَارُ! هِيدِيهِ وَلَا تُؤْذِيهِ»[١].

من هنا، فإنّ الله (سبحانه وتعالى) يخفّف بلطفه وكرمه العذاب عن بعض مستحقّيه ويحميهم من حرارة النّار الحامية أو يقلّل من آلامهم ومعاناتهم، وإن كان قد خلقها لأجل عذاب النّاس العاصين. نعم، لا يرفع الله (سبحانه) العذاب عن جميع أهل النّار، لكنّ عذاب جنهّم ليس متساوياً بالنسبة إلى الجميع؛ لأنّهم على درجات مختلفة، وكذا عذابهم له درجات متباينة أيضاً.

❁ الأسئلة

١. ما المعنى اللّغويّ للجزاء والخلود؟ ولماذا يطلق على الجنّة والنّار «دار الخُلد»؟
٢. من أسباب تناسب الخطإ مع الخلود في النّار وعدم منافاته للعدل الإلهيّ، عدم قدرة العقل على إدراك جميع أبعاد المعصية. اشرح ذلك.
٣. كيف تتناسب نيّة المجرم مع جزاء الجريمة؟ اشرح ذلك مع ذكر مثال.
٤. إلامَ يشير الحديث القائل: «مَا يَعْفُو اللهُ أَكْثَرُ مِمَّا يُؤَاخِذُ بِهِ»؟
٥. كيف تتأثّر العقوبة من وجود آثار قانونية للشّخصيّة الاعتبارية؟ بيّن ذالک بالأمثله و الشواهد القانونيّة الحديثة.

❁ موضوعات للبحث

- اكتب بحثاً حول طوائف أهل النار الّتي يشملها عفو الله اعتماداً على الآيات والرّوايات.
- هل يشمل تخفيف العذاب المخلّدين في النّار أيضاً، اكتب بحثاً في هذا الموضوع؟

---

١. الكليني، الكافي، ج٢، ص١٨٨؛ الكوفي الأهوازي، المؤمن، ص٥٠.

١٨

الحكمة الإلهيّة

تحدّثنا في الدّروس السّابقة وخلال الردّ على بعض الشّبهات عن صفة الحكمة الإلهيّة مراراً، وتبيّن أنّ كثيراً من الشّدائد والمشاكل والاختلافات الّتي تلاحَظ في حياة البشر حسب الظاهر تنبع من تلك الحكمة. من هنا، سنتطرّق في هذا الدّرس إلى معنى الحكمة ومكانتها بين الأفعال الإلهيّة.

١. معنى الحكمة

الحكمة وصف آخر من أوصاف الله (سبحانه وتعالى)، وقد ذُكر لها معانٍ مختلفة في كتب اللّغة، بعضها منشأ للحكمة وبعضها الآخر نتيجة لها. أما المعنى الأساسيّ للحكمة فهو العمل المتين والمُتقَن بحيث تكون خالية من أيّ النّقص والخلل[١].

ويمكن نسبة هذا المعنى إلى الله (سبحانه وتعالى)، فنرى أنّه وصف خلقه بقوله:

﴿ٱلَّذِيٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥ﴾[٢].

إنّ عالم الوجود ـ بكلّ ما يحيطه من العظمة ـ قائم وفق نظام مُستحكم، وقوانين مُنسجمة، ومقادير محسوبة، ودقّة مُتناهية، ولو وقع أيّ خللٍ في جزء من هذا العالم الفسيح لأدّى إلى دماره وفنائه... إنّ الإنسان كلّما دقّق وتدبّر في عالم الخلق والوجود فإنّه لا يستطيع أن يرى أيّ

---

١ . انظر: ابن منظور، لسان العرب، ج١٢، ص١٤٠؛ الزبيدي، تاج العروس، ج١٦، ص١٦٠؛ ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، ج٢، ص٩٢.

٢ . سورة السجدة: الآية ٧.

خلل أو اضطرابٍ فيه[١].

وبقطع النّظر عن الآيات الكثيرة النّازلة في هذا الشّأن، قال أمير المؤمنين عليه السلام في هذا الخصوص:

«عَلِمَ مَا يَمْضِي ومَا مَضَى، مُبْتَدِعِ الْخَلَائِقِ بِعِلْمِهِ، وَمُنْشِئِهِمْ بِحُكْمِهِ، بِلَا اقْتِدَاءٍ وَلَاتَعْلِيمٍ وَلَااحْتِذَاءٍ لِمِثَالِ صَانِعٍ حَكِيمٍ»[٢].

ويُستفاد من هذا الكلام أنّ الحكيم لا يصدر منه الفعل الخارج عن دائرة المصلحة والمستلزم للفساد. وعلى هذا الأساس، فإنّ الحكيم يحول دون العبث والعمل المفتقر إلى الخير والصلاح ويدفع باتّجاه العمل الهادف والمشتمل على الخير والصّلاح؛ ولذا لا يصدر من الله (جلّ وعلا) اللّغو والعبث؛ بل إنّ جميع أفعاله ذات هدف وغاية ومقرونة بالخير والصّلاح.

صحيح أنّه يُشاهَد في أعمال الإنسان أنّها ذات غاية وهدف غالباً، لكن ثمة فارق أساسيّ بين الغائيّة في أفعال الإنسان وفي الأفعال الإلهيّة؛ لأنّ الإنسان يتطلّع في كثير من أهدافه إلى قضاء احتياجاته وسدّ نقصه وبلوغ الكمالات المنشودة، في حين أنّ الغائيّة في أفعال الله (سبحانه وتعالى) ترمي إلى إيصالِ الخلق إلى كمالهم المنشود.

وفي هذا السّياق، جرى التّأكيد على الغائيّة في أفعال الله (سبحانه وتعالى) ـ الّتي تُعدّ من أهمّ عناصر الحكمة ـ في القرآن الكريم، فقال (جلّ وعلا):

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَآءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً﴾[٣].

﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾[٤].

وقد حدّد القرآن الكريم بعض تلك الأهداف، فتارةً شدّد على أنّ الهدف من الخلق هو العبوديّة له:

---

١ . مكارم الشيرازي، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزّل، ج١٨، ص٤٨٠.

٢ . نهج البلاغة، الخطبة ١٩١، ص٢٨٣.

٣ . سورة ص: الآية ٢٧.

٤ . سورة المؤمنون: الآية ١١٥.

﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[١].

وتارةً ذكر أنّ الهدف من ذلك هو الوعي واليقظة وتعزيز الإيمان وتقوية العقائد:

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[٢].

وتارةً بيّن أنّ الهدف من الخلق هو الاختبار وتمييز المُحسن من المُسيئ وتربية الإنسان عموماً:

﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾[٣].

وكما هو واضح فإنّ الآيات القرآنيّة الآنفة الّتي تشير إلى الأبعاد العلميّة والعمليّة للإنسان، تبيّن الهدف التكامليّ للخلق الّذي يعود إلى الإنسان نفسه. وعلى هذا الأساس، قال الإمام أبوعبد الله الصّادق عليه السلام ردّاً على سؤالٍ حول الهدف من خلق البشر:

«إِنَّ اللهَ (تَبَارَكَ وَتَعَالَى) لَمْ يَخْلُقْ خَلْقَهُ عَبَثاً وَلَمْ يَتْرُكْهُمْ سُدًى... وَمَا خَلَقَهُمْ لِيَجْلِبَ مِنْهُمْ مَنْفَعَةً وَلَالِيَدْفَعَ بِهِمْ مَضَرَّةً؛ بَلْ خَلَقَهُمْ لِيَنْفَعَهُمْ وَيُوصِلَهُمْ إِلَى نَعِيمِ الْأَبَدِ»[٤].

٢. آثار الإيمان بالحكمة الإلهيّة

تتجلّى أهميّة الإيمان بالحكمة الإلهيّة في جوانب عدّة:

١.٢. الشّعور الهادف

إنّ الإنسان الّذي يؤمن بأنّ الله حكيم وأنّ له غايةً وهدفاً من خلق الكون عموماً والإنسان خصوصاً، لا ريب في أنّه يسعى إلى الكشف عن الهدف والغاية الّتي تقف وراء خلقه وخلق

---

١. سورة الذاريات: الآية ٥٦.

٢. سورة الطلاق: الآية ١٢.

٣. سورة الملك: الآية ٢.

٤. الصدوق، علل الشرائع، ج١، ص٩.

العالم المحيط به على وجه العموم، كما إنّ نظرته إلى الكون تختلف اختلافاً جذرياً عن نظرة الشّخص الّذي لا يتصوّر وجود هدف للخلق. ومن الطبيعيّ أنّ الشّخص الّذي يؤمن بالعدميّة في الحياة الفرديّة والاجتماعيّة يطبّقها في جميع مفاصل الحياة، خلافاً لمن يؤمن بوجود غاية للخلقة حيث يتمتّع بالحيويّة والإبداع والتألّق وامتلاك هدف له وللآخرين أيضاً.

٢.٢. التقدّم العلميّ والصناعيّ

إنّ الإيمان بوجود غاية في عالم الكون يساعد الإنسان على اكتشاف علاقات هادفة بين الكائنات المختلفة في العالم وفهم القوانين والأنظمة السّائدة بينها، ويسهّل عليه الاستفادة من تلك القوانين لإحداث تغيير في العالم والتوصّل إلى الابتكارات العلميّة والصناعيّة.

٣. أدلّة الحكمة الإلهيّة

في ضوء المعنى المتقدّم للحكمة، يمكن الاستدلال بالأدلّة الآتية لإثبات حكمة الباري (سبحانه وتعالى):

١. إنّ الله (سبحانه وتعالى) حكيم بمعنى أنّه يفعل كلّ شيءٍ بمنتهى الإتقان والاستحكام ودون أيّ نقص أو عيب؛ لأنّ فعل الشّيء والقيام به بشكل ناقص إمّا أن يعود إلى جهل الفاعل بالطّريقة الصّحيحة والمتقنة، وإلّا فإن كان عالماً بها فإمّا أنّه غير قادر على الفعل الصّحيح وإمّا أنّ ثمة مانعاً يحول دون فعله. ولا شيء من هذه الفروض يصدق على الله (جلّ وعلا). وبهذا يثبت أنّه (سبحانه وتعالى) يقوم بكلّ شيءٍ بمنتهى الإتقان والاستحكام.

قال (سبحانه وتعالى) في مُحكَم كتابه الكَريم في هذا الخصوص:

﴿صُنْعَ اللهِ الَّذِيٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾[١].

ففضلاً عن إتقان الصنع، أشار (سبحانه وتعالى) في هذه الآية الشريفة إلى العلم الإلهيّ أيضاً، وهذا يدلّ على أنّ الله الخبير بكلّ شيءٍ يعلم كيف يصنع المخلوقات بالشّكل الأكثر إتقاناً.

---

١ سورة النمل: الآية ٨٨.

٢. إنّ الله (سبحانه وتعالى) حكيم بمعنى أنّه لا يفعل العبث واللّغو، والعبث في اللّغة يعني اللّعب بشيءٍ ما أو هو ما لا يحصل منه على فائدة ولا نفع[١]. كما إنّ اللّغو بهذا المعنى أيضاً[٢]. ولا ريب في أنّ القيام بمثل هذا العمل منشؤه الجهل، والله (سبحانه وتعالى) منزّه عن الجهل. مضافاً إلى أنّ العبث واللّغو قبيحان حتّى لو لم يكن منشؤهما الجهل أيضاً؛ لأنّ الإنسان لا يحبّذ القيام بعمل لا طائل منه بحكم العقل؛ ولذا لا يتوقّع اللّغو والعبث إلّا من الأطفال الّذين لم يبلغوا مرحلة التّمييز والمجانين الفاقدين لنعمة العقل. وعليه، فمن الأولى عدم نسبة هذا العمل إلى الله الحكيم.

وثمّة آيات قرآنية دالّة على هذا المعنى أشرنا إلى عدد منها سابقاً، وسنشير هنا إلى جانب آخر من تلك الآيات:

﴿وَما خَلَقْنَا السَّمٰوٰاتِ وَالْاَرْضَ وَما بَيْنَهُمٰا لاٰعِبِينَ﴾[٣].

﴿اَيَحْسَبُ الْاِنْسٰانُ اَنْ يُتْرَكَ سُدًى﴾[٤].

٣. يُعدُّ النّظام المُتقن لعالم الكون في حدّ ذاته دليلاً واضحاً على حكمة الصّانع وعظمة الخالق؛ ولذا فإنّ الجهود العلميّة والفنيّة الّتي يبذلها العلماء في العلوم المختلفة نابعة من إيمانهم بوجود نظام مُتقن لهذا العالم.

ومن هنا، دعا القرآن الكريم البشر إلى التأمّل في نظام الكون ودراسته دراسة علميّة:

﴿ما تَرٰى فِي خَلْقِ الرَّحْمٰنِ مِنْ تَفاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرٰى مِنْ فُطُورٍ * ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ اِلَيْكَ الْبَصَرُ خاسِئاً وَهُوَ حَسِيرٌ﴾[٥].

---

١. انظر: ابن منظور، لسان العرب، ج٢، ص١٦٦.

٢. انظر: المصدر نفسه، ج١٥، ص٢٥٠.

٣. سورة الدخان: الآية ٣٨؛ سورة الأنبياء: الآية ١٦.

٤. سورة القيامة: الآية ٣٦.

٥. سورة الملك: الآية ٣-٤.

❁ الأسئلة

١. اشرح معنى الحكمة وبيّن أيّ معنى من معاني الحكمة يمكن أن ينطبق على الله (سبحانه وتعالى)؟

٢. ما الفارق بين الغائيّة في أفعال الله (سبحانه وتعالى) وأفعال الإنسان؟

٣. اشرح آثار الإيمان بالحكمة الإلهيّة.

٤. قدّم أدلّة الحكمة الإلهيّة باختصار و وضّح ربط صفة الحكمة بسائر الأوصاف الإلهيّة كالللعلم والقدرة والجود.

❁ موضوعات للبحث

- ما الأهداف الّتي ذكرها القرآن الكريم للخلقة؟ وما العلاقة الّتي تربط بين تلك الأهداف من وجهة نظرك؟

- إبحث عن المفارقة المفهوميّة و المصداقيّة بين الحكمة والعدالة.

الباب الرابع

النبوّة

١٩

تعريف النبوّة

تشكّل النبوّة الرّكن الثّاني من أركان الفكر الإسلاميّ بعد الركن الأوّل والأساسي أي التّوحيد. فعلى الرّغم من أنّ الله (سبحانه وتعالى)، يُخاطب عباده عن طريق الفطرة والعقل ويفسح المجال أمام إقامة ارتباط دائم ومتواصل مع النّاس، إلّا أنّ الفطرة والعقل وحدهما غير قادرين على تحقيق الهدف الإلهيّ من خلق البشر. ومن هنا، بعث الله جلّ جلاله الرُّسل لإطلاع النّاس على أسرار الخلقة وإرشادهم إلى سُبل السّعادة وإيصالهم إلى مدارج الكمال. ومن أهمّ الأبحاث الّتي سنتناولها في الدّروس القادمة بيان أصل النبوّة، ضرورة النبوّة، شروط النبوّة و مسؤوليّة الأنبياء. وفي هذا الدّرس ومن باب المقدّمة، سندرس تعريف النبيّ والرسول بمفهومها العامّ.

إنّ مراجعة تاريخ الحياة البشريّة يكشف عن وجود مجموعة من الأفراد أعلنوا أنّهم أنبياء ورسل مبعوثون من الله إلى النّاس بهدف تبليغهم التعاليم السّماويّة وتعليمهم الأوامر الدينيّة. وفي مقابل هذه الدعوات، ثمة من آمن بها وصدّق المُرسلين واستفاد من تعاليم الأنبياء وإرشاداتهم، وثمة من أنكرها وكذّبها. ومن هذا المنطلق، تأسّس بحث إلى جانب باقي الأصول والأركان العقديّة تحت عنوان «النبوّة»، يحظى باهتمام كبير ويحتاج إلى دراسة موسعة.

١. معنى النبيّ والرسول

كلمة «النبيّ» إمّا أن تكون من «النبأ» بمعنى الخبر[١]، وإمّا من «النباوة» أي الارتفاع والشرف.[٢] ففي الصّورة الأولى يكون معنى النبيّ المُخبِر أو المُخبَر أو حامل الخبر، وفي الصّورة الثّانية يكون معناه الرّفيع ومعنى النبوّة الرّفعة وعلوّ المرتبة[٣].

وعلى هذا الأساس، فالنبيّ هو من يُنبّئه الله أو من يأتي بالأنباء عن الله والمُخبر عنه[٤]، وهو أشرف من سائر الخلق وأرفعهم درجةً[٥].

أمّا الرّسول فهو لغةً بمعنى المُرسَل، والإرسال يعني التّوجيه[٦]، والمُرسَل يقال لمن أُرسل في أمرٍ ما[٧]، وقد يكون هذا الأمر إيصال رسالة أو أداء شيء آخر[٨].

وبحسب الاصطلاح الرّسول هو المبعوث من الله (سبحانه وتعالى) والمُرسَل إلى النّاس لإبلاغ الرّسالة الإلهيّة وتطبيق الأحكام السّماويّة؛ وبهذا فإنّ المعنى الاصطلاحيّ للرّسالة ينطوي على التّعليم والتّربية والإدارة أيضاً[٩].

٢. الفرق بين النبيّ والرّسول

يدلّ الكلام القرآنيّ على وجود فارق بين مُفردتي النبيّ والرّسول بحسب الظّاهر؛ حيث قال الباري (سبحانه وتعالى):

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ...﴾[١٠].

---

١. انظر: ابن منظور، لسان العرب، ج١، ص١٦٢؛ الفراهيدي، كتاب العين، ج٨، ص٣٨٢.

٢. انظر: ابن منظور، لسان العرب، ج١، ص١٦٣ و ج١٥، ص٣٠٢.

٣. انظر: العسكري، الفروق اللغويّة، ص٥٣؛ الصدوق، معاني الأخبار، ص١١٤.

٤. انظر: ابن منظور، لسان العرب، ج١، ص١٦٢-١٦٣. الفراهيدي، كتاب العين، ج٨، ص٣٨٢؛

٥. انظر: ابن منظور، لسان العرب، ج١٥، ص٣٠٢؛ الطريحي، مجمع البحرين، ج١، ص٤٠٥؛ الزبيدي، تاج العروس، ج٢٠، ص٢١٣.

٦. انظر: ابن منظور، لسان العرب، ج١١، ص٢٨٣؛ الزبيدي، تاج العروس، ج١٤، ص٢٨١.

٧. الطريحي، مجمع البحرين، ج٥، ص٣٨٤.

٨. الأزهري، تهذيب اللغة، ج١٢، ص٢٧٢.

٩. انظر: المقداد والجرجاني، شرح الباب الحادي عشر، ص١٣٩.

١٠. سورة الحجّ: الآية ٥٢.

فالعطف بين هاتين الكلمتين في الآية المُتقدّمة يكشف عن وجود اختلاف بين مقام النبوّة والرّسالة، وقد أُشير إلى هذا الاختلاف في الرّوايات المأثورة عن الأئمّة المعصومين عليهم السلام أيضاً، فروي:

«عَنْ أبِي ذَرٍّ، قَالَ: دَخَلْتُ عَلَى رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وآله وَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ! كَمِ النَّبِيُّونَ؟ قَالَ: مِائَةُ أَلْفٍ وَأَرْبَعَةٌ وَعِشْرُونَ أَلْفَ نَبِيٍّ. قُلْتُ: كَمِ الْمُرْسَلُونَ مِنْهُمْ؟ قَالَ: ثَلَاثُ مِائَةٍ وَثَلَاثَةَ عَشَرَ جَمّاً غَفِيراً»[١].

ومن هنا، لا بدّ من أن نرى ما النّسبة بين كلمتي النبيّ والرّسول وما الفارق بينهما؟ يمكن بحث هذا الموضوع من جوانب عدّة:

١. الرّسالة مقامٌ أرفعُ من النبوّة يهبه الله (سبحانه وتعالى) لعبد من عباده بعد مَقام النبوّة، وفي هذا السّياق قال الإمام أبوجعفر الباقر عليه السلام حول كسب النبيّ إبراهيم عليه السلام هذا المقام الرفيع:

«إِنَّ اللهَ اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ عَبْداً قَبْلَ أَنْ يَتَّخِذَهُ نَبِيّاً، وَاتَّخَذَهُ نَبِيّاً قَبْلَ أَنْ يَتَّخِذَهُ رَسُولاً»[٢].

وعليه، فلو تجسّد مقام الرّسالة في أحد الأولياء الإلهيّين فهذا يعني أنّه حصل على مقامٍ أرفع من مقام النبوّة.

٢. يقع على عاتق الرّسل الإلهيّين وظيفة أعظم من الوظيفة المُلقاة على عاتق الأنبياء الإلهيّين؛ ولذا يقوم الرّسول بجميع وظائف النبيّ ويختصّ ببعض الوظائف والمسؤوليّات لنفسه دون أن يشاركه فيها أحد من الأنبياء.

على أنّ ثمة اختلافاً بين الأنبياء أنفسهم من حيث الوظائف والمسؤوليّات المُناطة بهم أيضاً، فتقتصر مسؤوليّة بعض الأنبياء الإلهيّين على النبيّ نفسه، بمعنى أنّ الله (سبحانه وتعالى) يوحي له حقائق مُعيّنة وهو بدوره -وعلى المستوى الشّخصي- يتحمّل بعض التكاليف تجاه تلك الحقائق؛ في حين لا تقتصر مسؤوليّة بعض الأنبياء الإلهيّين الآخرين على التبليغ والتكاليف الشّخصيّة فحسب؛ بل يتعدّى الموضوع التبليغ ليشمل الأمر بأداء

---

١. الصدوق، معاني الأخبار، ص٣٣٣.

٢. الكليني، الكافي، ج١، ص١٧٥.

الأوامر الإلهيّة أيضاً. من هنا، سأل شخصٌ الإمام أبا جعفر الباقر عليه السلام: أَكَانَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ عليه السلام حِينَ تَكَلَّمَ فِي الْمَهْدِ حُجَّةَ اللهِ عَلَى أَهْلِ زَمَانِهِ؟ فَرَدَّ الإِمَامُ قَائِلاً:

«كَانَ يَوْمَئِذٍ نَبِيّاً حُجَّةَ اللهِ غَيْرَ مُرْسَلٍ، أَمَا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِ حِينَ قَالَ: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيّاً﴾... وَكَانَ نَبِيّاً حُجَّةً عَلَى مَنْ سَمِعَ كَلَامَهُ فِي تِلْكَ الْحَالِ، ثُمَّ صَمَتَ فَلَمْ يَتَكَلَّمْ... فَلَمَّا بَلَغَ عِيسَى عليه السلام سَبْعَ سِنِينَ تَكَلَّمَ بِالنُّبُوَّةِ وَالرِّسَالَةِ»[1].

٣. درجات الأنبياء والرُّسل

يختلف الأنبياء والرُّسل في درجاتهم ومراتبهم عند الله (جلّ وعلا)، وهذا ما صرّحت به الآيات القرآنيّة؛ حيث قال (سبحانه وتعالى):

﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَىٰ بَعْضٍ وَءَاتَيْنَا دَاوُدَ زَبُوراً﴾[2].

كما وردت روايات عدّة عن الأئمّة المعصومين عليهم السلام حول المقام السّامي لبعض الأنبياء الإلهيّين وعلوّ مرتبة خاتم الأنبياء والمُرسلين صلى الله عليه وآله مقارنةً مع جميع الأنبياء الآخرين، فروي عن الإمام أبي الحسن الرّضا عليه السلام أنّه قال بشأن الأنبياء الخمسة من أولي العزم، وهم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمّد (صلوات الله عليهم أجمعين):

«هُمْ أَفْضَلُ الْأَنْبِيَاءِ والرُّسُلِ عليهم السلام»[3].

على أنّ سائر الأنبياء الإلهيّين ليسوا على مرتبة واحدة؛ بل يختلف بعضهم عن بعضهم الآخر من جهات مختلفة كالمقام والمسؤوليّة وما شاكل.[4]

---

١. المصدر نفسه، ص٣٨٢.

٢. سورة الإسراء: الآية ٥٥.

٣. الصدوق، عيون أخبار الرضا عليه السلام، ج٢، ص٨٠؛ و أيضاً انظر: القمي، تفسير القمي، ص٢٤٧؛ الراوندي، قصص الأنبياء، ص٢٧٧.

٤. انظر: سورة البقرة: الآية ٢٥٣ و الأحاديث الّتي وردت ذيلها.

❁ الأسئلة

١. اشرح المعنى اللّغويّ لمفردتي النبيّ والرّسول.

٢. بيّن الفرق بين النبيّ والرّسول من وجهة نظر الكتاب والسنّة.

٣. اشرح اختلاف الأنبياء والمرسلين في الدّرجات والمراتب.

٤. هل يمكن أن تقتصر مسئوليّة النبيّ على شخصه ولايعدو إلى الآخرين؟ بيّن كيف ذالك.

❁ موضوعات للبحث

- استخرج الآيات المُتعلّقة بالرّسالة والنبوّة، ثمّ قارن بينها لمعرفة النّسبة بين الرّسول والنبيّ.
- استخرج أسماء الأنبياء الواردة في القرآن الكريم، ثمّ بيّن التفاضل الّذي جعله بينهم.

٢٠

فوائد البعثة والدليل على الحاجة إلى النبوّة

تطرّقنا في الدّرس السّابق إلى معنى النبيّ والرّسول والفرق بينهما، وأشرنا إلى أنّ الأنبياء غير متساوين في الدّرجة والمرتبة. في هذا الدّرس، سنبيّن فوائد بعثة الأنبياء والرُّسل الإلهيّين. وتجدر الإشارة إلى أنّ الموضوعات الواردة أدناه تمثّل فائدة البعثة من جهة وحاجة الإنسان إلى الدِّين الإلهيّ من جهة ثانية.

إنّ البشر بحاجة إلى الأنبياء الإلهيّين من جوانب عدّة، بيد أنّ هذه الحاجة تتجلّى في البعدين الآتيين أكثر من الأبعاد الأخرى:

١. حاجة الإنسان إلى المعارف العقديّة

ما إن يولد الإنسان ويضع قدميه على سطح الكُرة الأرضيّة ويرى نفسه والآخرين من حوله وينظر إلى السّماء والأرض وما فيهما، حتّى يواجه مجموعة من الأسئلة، تشكّل الإجابة عنها الرّؤية الكونيّة لديه أو طبيعة رؤيته إلى الكون؛ وبالتالي، تبلور اتّجاهه الفكريّ والعمليّ في الحياة. من هنا، لا بدّ من توخّي الدقّة والصّواب في الأجوبة الأوّليّة على تلك الأسئلة؛ لما لها من أهميّة فائقة في بلورة نواة أفكاره.

ومن المسلّم به أنّ عقل الإنسان وحده غير قادر على إدراك حقائق الكون، فهو بحاجة إلى علوم تساعده على فهمها وإدراكها، ولولا المعارف الدينيّة وتعاليم الأنبياء الإلهيّين لما تمكّن البشر بمفردهم من خوض غمار المعرفة اعتماداً على أفكارهم فقط. وقد بيّن أمير المؤمنين عليه السلام

في خطبته الأولى في «نهج البلاغة» بعض منجزات الأنبياء في مجال المعرفة والهداية، فقال:

«فَبَعَثَ فِيهِمْ رُسُلَهُ وَوَاتَرَ إِلَيْهِمْ أَنْبِيَاءَهُ؛ لِيَسْتَأْدُوهُمْ مِيثَاقَ فِطْرَتِهِ وَيُذَكِّرُوهُمْ مَنْسِيَّ نِعْمَتِهِ وَيَحْتَجُّوا عَلَيْهِمْ بِالتَّبْلِيغِ وَيُثِيرُوا لَهُمْ دَفَائِنَ الْعُقُولِ»[1].

ويمكن أن نخلص من هذا البيان العلويّ إلى أنّه لولا قيام الأنبياء الإلهيّين بكشف الحقائق الرّبوبيّة للبشر عبر صبرهم الكبير وجهادهم المرير، وتذكيرهم إيّاهم بجواهر النّفوس وكمالها اللّامُتناهي من خلال إيقاظ الفطرة وتحرير العقول من نير الأهواء والشّهوات، لأخفق النّاس في بلوغ المعرفة الحقيقيّة ولظلّوا يتخبّطون في ظُلَم الجهل وأوهام الباطل.

٢. حاجة الإنسان إلى القانون

يواجه الإنسان في حياته الفرديّة والاجتماعيّة وفي تعامله مع نفسه ومع المجتمع ومع ربّه ومع الطّبيعة الّتي يعيش فيها قضايا مختلفة، تفرض عليه سلوكيّات معيّنة لها تداعيات تعود عليه وعلى الآخرين أيضاً؛ ذلك أنّ أعمال الإنسان وليدة الرّبح والخسارة الّتي قد تكون كبيرة ومؤثّرة أحياناً، ثمّ إنّ الأفعال لا تترك تأثيراً واسعاً ليس على البُعد الجسدي للإنسان وحسب؛ بل لها تأثير كبير على بُعده الرّوحي أيضاً، فيبدأ هذا التأثير من الإنسان نفسه ثمّ ينتقل إلى المحيطين به، وبعد ذلك إلى المجتمع، وفي نهاية المطاف تتّسع رقعته ليشمل باقي المجتمعات أيضاً. وكلّما ازداد عدد الأفراد والمجتمعات المُتأثّرة بفعل الإنسان واختلفت أوضاعهم وارتفعت مكانتهم، ازدادت تلك التأثيرات تعقيداً واتّساعاً.

وفضلاً عن عنصر المكان، ثمّة أهميّة كبيرة لعنصر الزّمان أيضاً في دراسة آثار أفعال البشر، فلا يخفى تأثير فعل من الأفعال على الأجيال المستقبليّة، وإن خفي على الإنسان مدى آثار أفعاله على طبيعة التأثير الّذي يتركه وسعته وشدّته وحدوده الزمنيّة، فكثيراً ما يكتنف الجهل بعض الموارد من قبيل روح الإنسان.

ثم إنّ الإنسان وبكلّ ما أوتي من تجارب واختبارات على يد العلماء عاجز عن تشخيص مصلحة الأفعال ومفسدتها في جميع المجالات والأبعاد المذكورة، ولا يستطيع إلّا الله (جلّ

---

١. نهج البلاغة، الخطبة ١، ص٤٣.

وعلا) تشخيص المصالح والمفاسد ووضع الأوامر والنواهي الكفيلة بسعادة البشر وصياغتها بشكل قوانين فرديّة واجتماعيّة.

من هنا، لمّا سُئل الإمام أبوجعفر الباقرعليه السلام عن سبب تحريم الله للخمر والمَيتة والدّم ولحم الخنزير، قال:

«... لَكِنَّهُ (عَزَّ وَجَلَّ) خَلَقَ الْخَلْقَ فَعَلِمَ مَا تَقُومُ بِهِ أَبْدَانُهُمْ وَمَا يُصْلِحُهُمْ، فَأَحَلَّهُ لَهُمْ وَأَبَاحَهُ لَهُمْ، وَعَلِمَ مَا يَضُرُّهُمْ فَنَهَاهُمْ عَنْهُ»[1].

وقال الإمام علي بن موسى الرّضا عليه السلام في هذا الصّدد أيضاً:

«إِنَّا وَجَدْنَا كُلَّ مَا أَحَلَّ اللهُ (تَبَارَكَ وَتَعَالَى) فَفِيهِ صَلَاحُ الْعِبَادِ وَبَقَاؤُهُمْ، وَلَهُمْ إِلَيْهِ الْحَاجَةُ الَّتِي لَا يَسْتَغْنُونَ عَنْهَا، وَوَجَدْنَا الْمُحَرَّمَ مِنَ الْأَشْيَاءِ لَا حَاجَةَ بِالْعِبَادِ إِلَيْهِ، وَوَجَدْنَاهُ مُفْسِداً دَاعِياً الْفَنَاءَ وَالْهَلَاكَ»[2].

ويمكن الاستدلال على لزوم القوانين الإلهيّة من زاوية البُعد الاجتماعي أيضاً بالقول: إنّ الإنسان موجود اجتماعي، ولأجل تلبية احتياجاته وتمشية أموره المختلفة، لا بدّ له من العيش في المجتمع وتقسيم أعماله بين أعضاء ذلك المجتمع، هذا من جهة. ومن جهة أخرى، فإنّ بناء مجتمع سليم بحاجة إلى استتباب الأمن وإرساء النّظام في ربوعه، ولا يتسنّى ذلك إلّا من خلال وضع قوانين دقيقة كفيلة بتأمين المسؤوليّات والحقوق لجميع الأفراد. وحيث إنّ القوانين البشريّة مستقاة من الرّؤية المحدودة للإنسان ومستمدّة من المصالح الشخصيّة والفئويّة، فهي غير قادرة على تلبية متطلّبات جميع شرائح المجتمع وتوفير احتياجاته؛ وبالتالي، إشاعة الاستقرار والثّقة بين أفراد المجتمع؛ وإنّما القوانين الإلهيّة هي الوحيدة القادرة على ضمان تحقيق السّلام والأمن والانضباط بشكل حقيقيّ وجادّ.

إلى هنا نكون قد استدللنا على ضرورة وجود القوانين الإلهيّة؛ لكن يبقى السؤال: كيف يمكن التوصّل إلى هذه القوانين؟

---

١. الصدوق، من لا يحضره الفقيه، ج٣، ص٣٤٥؛ الكليني، الكافي، ج٦، ص٢٤٢.

٢. الصدوق، علل الشرائع، ج٢، ص٥٩٢.

لا بدّ من الالتفات إلى أنّه ليس لأيّ فرد من أفراد البشر وسيلة لمدّ جسور الارتباط مع الله (سبحانه وتعالى) وتلقّي أوامره ونواهيه؛ بل إنّ الباري (جلّ وعلا) بعث الأنبياء والمرسلين في سبيل مساعدة البشر على استكشاف المصالح والمفاسد ومن أجل تلبية هذه المتطلّبات والاحتياجات.

وفي هذا السّياق، أشار الإمام أبوالحسن الرّضا عليه السلام إلى حاجة البشر ولطف الباري (سبحانه وتعالى) قائلاً:

«لمَا لَمْ يَكُنْ فِي خَلْقِهِمْ وَقُوَاهُمْ يَكْمُلُونَ لِمَصَالِحِهِمْ، وَكَانَ الصَّانِعُ مُتَعَالِياً عَنْ أَنْ يُرَى، وَكَانَ ضَعْفُهُمْ وَعَجْزُهُمْ عَنْ إِدْرَاكِهِ ظَاهِراً، لَمْ يَكُنْ بُدٌّ مِنْ رَسُولٍ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ مَعْصُومٍ، يُؤَدِّي إِلَيْهِمْ أَمْرَهُ وَنَهْيَهُ وَأَدَبَهُ، وَيَقِفُهُمْ عَلَى مَا يَكُونُ بِهِ إِحْرَازُ مَنَافِعِهِمْ وَدَفْعُ مَضَارِّهِمْ؛ إِذْ لَمْ يَكُنْ فِي خَلْقِهِمْ مَا يَعْرِفُونَ بِهِ مَا يَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ مِنْ مَنَافِعِهِمْ ومَضَارِّهِمْ»[١].

بدوره شدّد الإمام أبوعبد الله الصّادق عليه السلام على أنّ سبب حاجة الإنسان إلى الأنبياء الإلهيّين هو ضرورة معرفة المصالح والمفاسد، وقال:

«ثَبَتَ أَنَّ لَهُ سُفَرَاءَ فِي خَلْقِهِ يُعَبِّرُونَ عَنْهُ إِلَى خَلْقِهِ وَعِبَادِهِ، وَيَدُلُّونَهُمْ عَلَى مَصَالِحِهِمْ وَمَنَافِعِهِمْ، وَمَا بِهِ بَقَاؤُهُمْ وَفِي تَرْكِهِ فَنَاؤُهُمْ»[٢].

---

١ الصدوق، عيون أخبار الرضا عليه السلام، ج٢، ص٩٩؛ المجلسي، بحارالأنوار، ج٦، ص٦٠.

٢ الكليني، الكافي، ج١، ص١٦٨؛ الصدوق، التوحيد، ص٢٤٩.

❀ الأسئلة

١. لماذا يحتاج الإنسان إلى القوانين الإلهيّة ولايمكن الإكتفاء بالقوانين البشريّة ؟ اذكر دليلين على ذلك.

٢. كيف لايمكن الاقتصار على العقول أو الطاقات البشريّة للوصول إلى القوانين الإلهيّة ؟ بيّن ذالك عبر الإشارة إلى كلمات الائمّة عليهم السلام.

٣. اشرح أسباب حاجة الإنسان إلى الأنبياء الإلهيّين بُغية إدراك الحقائق الكونيّة.

❀ موضوعات للبحث

- استعرض الآيات القرآنيّة الدّالّة على ضرورة وجود قانون إلهيٍّ للإنسان.

- اذكر أمثلة على إشكاليّات التقنين البَشَريّ في عدد من البلدان المختلفة ورتّبها على شكل قائمة من خلال التّباحث مع بعض الزّملاء.

٢١

سبل معرفة الأنبياء (١): المُعجزة

بحثنا سابقاً ضرورة بعثة الأنبياء ودورهم البنّاء في توفير الاحتياجات الدنيويّة والاجتماعيّة وكذلك الفرديّة والاجتماعيّة. واتضّح من خلال ذلك أنّه لا يمكن تحقيق أهداف الخلقة إلّا بوجود المبعوثين الإلهيّين في أوساط الخلق. وفي هذا الدّرس نروم الإجابة عن سؤالٍ هامّ هو: ما السبيل إلى معرفة الأنبياء الإلهيّين؟

حينما ينهض شخص من بين النّاس ويدّعي لنفسه النبوّة، يتبادر إلى الأذهان سؤال مفاده: ما الدليل على صدق هذه الدعوى، خصوصاً أنّ التاريخ يشهد على وجود أشخاص كذّابين زعموا أنّهم أنبياء مبعوثون من الله بهدف كسب الجاه والحصول على بعض المصالح الدنيويّة، فتمكّنوا من خداع عدد من النّاس وجمعهم حولهم؟

في مقام الجواب نقول: إنّ الله (سبحانه وتعالى) يبعث أنبياءه ورسله إلى النّاس بآيات بيّنة وبراهين ساطعة، ولا يلبس عليهم أمرهم؛ بل يجعلهم على بيّنة منه؛ ولذا قال (سبحانه وتعالى) بشأن النبيّ موسى عليه السلام:

﴿وَلَقَدْ آتَيْنا مُوسى تِسْعَ آياتٍ بَيِّناتٍ﴾[١].

سبل معرفة النبوّة

يمكن أن نطلق على تلك الآيات البيّنة الّتي يبعث الله بها أنبياءه اسم «سُبُل معرفة النبوّة»،

---

١. سورة الإسراء: الآية ١٠١.

ومن أهمّ هذه السُبل من وجهة نظر المتكلّمين ما نذكره أدناه:

أ) تأكيد النبيّ السّابق على نبوّة النبيّ اللّاحق، وذلك نظير تصريح المسيح بنبوّة خاتم الأنبياء والمُرسلين ﷺ وبشارته بمجيئه من بعده[١].

ب) وجود شواهد وقرائن عدّة على صدق مدّعاه، وهي ما يمكن التوصّل إليه عن طريق سيرة حياته، ومضمون دعوته، والشخصيّات الّتي آمنت به، وأسلوبه في الدعوة.

ج) أن يأتي بمعجزة إلى جانب دعوى النبوّة، أي يقوم بعمل خارق يتحدّى فيه الآخرين من الإتيان بمثله، ويجب أن يكون هذا العمل الخارق متناسباً مع مدّعاه.

وعلى الرّغم من أهميّة السّبيلين الأوّل والثّاني وإيمان كثير من النّاس بالأنبياء الإلهيّين اعتماداً عليهما، والكشف عن حقيقة دعوى الأنبياء بواسطتهما؛ لكنّهما غير متاحين للجميع، خلافاً للسّبيل الثّالث الّذي كان في متناول أيدي الجميع، وقد استفاد منه النّاس طيلة التاريخ لمعرفة الأنبياء الحقيقيّين مثلما استفاد منه الأنبياء أنفسهم لإثبات دعواهم. من هنا، سنشرع ببحث المُعجزة.

١. المُعجزة

١.١. تعريف المُعجزة

المُعجزة بتفسير بسيط تطلق على العمل الخارق للعادة الّذي يعجز الشّخص الاعتيادي عن القيام به ولا يتسنّى إلّا من خلال قوّة تفوق الطّبيعة. وهي عمل يأتي به مدّعي النبوّة ضمن شروط محدّدة وخصوصيّات معيّنة لتكشف بالدليل القاطع عن صدق مدّعاه، وهذه الشّروط والخصوصيّات هي:

أ) ألّا يقدر على الإتيان بالمُعجزة وفقاً للقدرة البشريّة أيّ إنسان آخر حتّى النّوابغ أيضاً.

ب) أن يأتي بها صاحبها من باب التحدّي، وألّا يُغلب من قبل الآخرين.

ج) أن تقترن المُعجزة بدعوى النبوّة[٢].

---

١. انظر: سورة الصفّ: الآية ٦.

٢. مكارم الشيرازي، پنجاه درس اصول عقايد براى جوانان، الدرس الرابع.

وعليه، فإن استطاع شخص الإتيان بأمور خارقة للعادة وقهر الآخرين إلى درجة الاستسلام له، يتحقّق اليقين بارتباطه بالله والإمداد الغيبي.

٢.١. إمكان المُعجزة عقليّاً وعلميّاً

ليست المُعجزة عملاً مخالفاً للعلم والعقل، ولإثبات هذه الحقيقة يمكن الرّجوع إلى بعض المعاجز الّتي جاء بها عدد من الأنبياء الإلهيّين، وكمثال على ذلك سمعنا جميعاً بأنّ من جملة المعاجز الّتي جاء بها المسيح عليه السلام إحياء الموتى وعلاج الأمراض المستعصية (إبراء الأكمه والأبرص). فهل ثمّة دليل علمي وعقلي على أنّ الإنسان الّذي توقّفت جميع الأجهزة في بدنه عن العمل لا يستطيع العودة إلى الحياة مجدّداً؟ وهل ثمّة دليل علمي وعقلي على عدم العلاج أصلاً لمرض السّرطان الّذي عجز الإنسان عن علاجه؟

لا ريب في أنّ الإنسان بما يمتلكه من قوّة لا يستطيع إحياء الموتى ولا علاج بعض الحالات المرضيّة المستعصية، وإن جمع لذلك جميع الأطبّاء في العالم واستخدم جميع تجاربه وخبراته ومعلوماته؛ ولكن في المقابل ما المانع من أن يعيد إنسان ذو قوّة إلهيّة ووعي خاصّ مستمدّ من بحر العلم الإلهيّ اللّامتناهي الرّوح إلى بدن الميّت أو شفاء مريض يعاني من مرض مستعصٍ؟ فصحيح أنّ العلم البَشَريّ يصرّح بعجزه عن القيام بهذا العمل، غير أنّه لا ينفي إمكان ذلك ولا يذهب إلى استحالته.

والآن فلنلتفت إلى هذا المثال: يقرّ الجميع أنّه يتعذّر على الإنسان السّفر إلى سطح القمر دون الاستفادة من مركبة فضائيّة؛ ولكن ما الّذي يمنع الإنسان من الصّعود إليه أو إلى الكواكب الأخرى دون الاستفادة من تلك المركبة وعبر قوّة تفوق قوّة البشر واستخدام مركبة غريبة لا تشبه ما توصّل إليه العلم البَشَريّ؟

نعم، لا ينبّغي الخلط بين المعجزات والخرافات، فلطالما كان الإفراط والتفريط منشأً لتشويه الحقائق، وهو ما يصدق على موضوع المُعجزة أيضاً؛ ففي الوقت الّذي يرفض أشباه المثقّفين وجود أيّ شكل من أشكال المعاجز، تسعى فئة أخرى إلى طمس معالم المعاجز العلميّة من خلال الأساطير والأوهام الّتي لا أساس لها من الصّحة.

١. ٣. الفرق بين المُعجزة وأعمال السحَرة والمرتاضين

لا تُعدّ المُعجزة آيةً بيّنةً لُمدّعي النبوّة إلّا إذا تميّزت عن سائر الأمور الأخرى الخارقة للعادة ظاهرةً بالخصوصيّات الآتية:

أ) عدم إمكان تعلّمها: تختلف المُعجزة عن الأمور الخارقة الأخرى في أنّ صاحب المُعجزة يأتي بها دون أيّ نوع من أنواع التعلّم السّابق، في حين يؤتى بالأمور الخارقة للعادة نتيجة سلسلة من التدريبات والتمارين. وعلى هذا الأساس، قال الله (سبحانه وتعالى) بشأن موسى بن عمران ﷺ أنّه سار بعد مرحلة الشّباب متوجّهاً إلى مصر، وفي الطّريق بُعث بالنبوّة والرسالة، فجاءه الخطاب أن ألقِ عصاك، وما إن ألقاها حتّى تحوّلت إلى ثعبان كبير خاف منه موسى ﷺ نفسه، ثمّ جاءه خطاب آخر أن اسلك يدك في جيبك، ولمّا أخرجها شعّ منها نور ساطع يُذهل الأعين[١]. فيستفاد من هذه القصّة أنّ النبيّ موسى ﷺ لم يسبق له أن تدرّب على شيءٍ ممّا وقع؛ بل إنّه تفاجأ من بعض الأحداث الّتي وقعت.

بينما قال الله (سبحانه وتعالى) حول السحَرة في عصر النبيّ سليمان ﷺ:

﴿يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ... فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ﴾[٢].

ب) عدم إمكان معارضتها: لمّا كان منشأ المُعجزة هي القدرة الإلهيّة اللّامُتناهية، فليس لأحد معارضتها والإتيان بمثلها؛ وفي المقابل لمّا كان مردّ السّحر وأعمال المرتاضين إلى القدرة البشريّة المحدودة فمن الممكن معارضتها والإتيان بمثلها.

ج) عدم اقتصارها على أسلوب مُعيّن: إنّ معجزات الأنبياء لا تقتصر على شكل محدّد وأسلوب مُعيّن؛ بل هي متنوّعة ومتباينة إلى درجة تعذّر وجود قدر مشترك بينها؛ فأين إلقاء العصا وتحوّلها إلى ثعبان كبير من إدخال اليد في الجيب وخروجها بيضاء مشعّة؟ وأين هاتان المعجزتان من انفجار اثنتي عشرة عيناً من الحجر بعد ضربه بالعصا؟[٣]، كما إنّ هذه المعاجز

---

١ . انظر: سورة القصص: الآيتان ٣١-٣٢.

٢ . سورة البقرة: الآية ١٠٢.

٣ . انظر: سورة البقرة: الآية ٦٠.

الثّلاث تختلف اختلافاً جذريّاً عن ضرب البحر بالعصا وانفلاقه إلى نصفين[١].

وورد في سيرة النبيّ عيسى عليه السلام أنّه كان يخلق من الطين طيراً ثمّ ينفخ فيه فتدبّ فيه الحياة بإذن الله (سبحانه وتعالى)، كما إنّه كان يمسح بيده على وجوه المكفوفين وعلى أجساد المصابين بالبرص فيبرؤون بإذن الله، مضافاً إلى أنّه كان يُحي الموتى وينبئ بني إسرائيل عمّا يدّخرون في بيوتهم[٢].

د) تباينها في الأغراض والأهداف: يختلف أصحاب المعاجز عن غيرهم كالسّحَرة الّذين يقومون بأعمال خارقة للعادة من حيث الأهداف والقضايا الرّوحيّة أيضاً، فتنشد الطّائفة الأولى تحقيق أهداف سامية بينما ترمي الطّائفة الثّانية إلى تحقيق أهداف دنيويّة، فضلاً عن اختلافهم في الأمور الرّوحيّة أيضاً.

٤.١. الفرق بين المُعجزة والكرامة

ذكرنا أنّ القيام بعمل خارق بالتزامن مع دعوى النبوّة يسمى «معجزة»، بينما لو صدر العمل الخارق للعادة من عبد صالح لم يدّعِ النبوّة يُسمّى حينئذٍ «كرامة»، والشّاهد على ذلك أنّه يمكن أن يَصدر العمل الخارق عن بعض عباد الله الصّالحين من غير الأنبياء، نحو نزول مائدة من السّماء على السيّدة مريم عليها السلام وانتقال عرش ملك سبأ من اليمن إلى فلسطين خلال لحظة واحدة على يد أحد أصحاب النبيّ سليمان عليه السلام، أي آصف بن برخيا. فورد في القرآن الكريم بشأن السيّدة مريم عليها السلام:

﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقاً قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾[٣].

وقال تعالى بشأن عرش المَلكة بلقيس:

﴿قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾[٤].

---

١ . انظر: سورة الشعراء: الآية ٦٣.

٢ . انظر: سورة آل عمران: الآية ٤٩.

٣ . سورة آل عمران: الآية ٣٧.

٤ . سورة النمل: الآية ٤٠.

١. ٥. تناسب المُعجزة مع الأوضاع السّائدة

لو راجعنا معاجز الأنبياء الإلهيّين لوجدنا أنّ معجزة كلّ واحدة منهم متناسبة مع الأوضاع العلميّة والفنيّة السائدة في عصره؛ فعلى سبيل المثال، كانت معجزة النبيّ موسى عليه السلام حول السّحر الّذي غلب في ذلك العصر، ومعجزة النبيّ عيسى عليه السلام حول الطبّ وعلاج الأمراض المستعصية الشّائعة آنذاك، ومعجزة النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله - وهو القرآن الكريم - في مجال الأدب والبلاغة الّتي كانت منتشرة في العصر الجاهليّ. وقد أجاب الإمام أبوالحسن الرّضا عليه السلام عن سؤال حول السرّ في اختلاف معاجز الأنبياء، قائلاً:

«إِنَّ اللهَ لَمّا بَعَثَ مُوسَى عليه السلام كَانَ الْغَالِبُ عَلَى أَهْلِ عَصْرِهِ السِّحْرَ، فَأَتَاهُمْ مِنْ عِنْدِ اللهِ بِمَا لَمْ يَكُنْ فِي وُسْعِهِمْ مِثْلُهُ، وَمَا أَبْطَلَ بِهِ سِحْرَهُمْ وَأَثْبَتَ بِهِ الْحُجَّةَ عَلَيْهِمْ. وَإِنَّ اللهَ بَعَثَ عِيسَى عليه السلام فِي وَقْتٍ قَدْ ظَهَرَتْ فِيهِ الزَّمَانَاتُ[1]، وَاحْتَاجَ النَّاس إِلَى الطِّبِّ، فَأَتَاهُمْ مِنْ عِنْدِ اللهِ بِمَا لَمْ يَكُنْ عِنْدَهُمْ مِثْلُهُ، وَبِمَا أَحْيَا لَهُمُ الْمَوْتَى وَأَبْرَأَ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِ اللهِ، وَأَثْبَتَ بِهِ الْحُجَّةَ عَلَيْهِمْ. وَإِنَّ اللهَ بَعَثَ مُحَمَّداً صلى الله عليه وآله فِي وَقْتٍ كَانَ الْغَالِبُ عَلَى أَهْلِ عَصْرِهِ الْخُطَبَ وَالْكَلَامَ، وَأَظُنُّهُ قَالَ الشِّعْرَ، فَأَتَاهُمْ مِنْ عِنْدِ اللهِ مِنْ مَوَاعِظِهِ وَحِكَمِهِ مَا أَبْطَلَ بِهِ قَوْلَهُمْ، وَأَثْبَتَ بِهِ الْحُجَّةَ عَلَيْهِمْ»[2].

يمكن أن نخلص من التأمّل في هذا الحديث إلى نقطتين: الأولى، أنّ ثمّة تناسب وارتباط بين الآيات البيّنات الّتي جاء بها الأنبياء وبين الفنون والعلوم الغالبة في عصر كلّ واحد منهم. والثّانية، أنّ الهدف من الإتيان بالبيّنة والمعجزة هو إتمام الحجّة على النّاس ليعلموا أنّ النبيّ مبعوث من الله، ومن ثمّ الإيمان بدينه والأخذ بأوامره الإلهيّة. وعلى هذا الأساس، لا يخفى مدى تأثير التناسب بين المُعجزة والأوضاع السائدة في حياة النّاس على سرعة إيمانهم بالأنبياء والاعتراف بهم ذهنيّاً وقلبيّاً.

---

١. «الزمانات» الآفات الواردة على بعض الأعضاء فيمنعها عن الحركة كالفالج واللقوة، ويطلق المزمن على مرض طال زمانه.

٢. الكليني، الكافي، ج١، ص٢٤؛ الصدوق، عيون أخبار الرضا عليه السلام، ج٢، ص٨٠.

❁ الأسئلة

١. اشرح باختصار سبل معرفة الأنبياء، وبيّن بمَ تختلف المُعجزة عن السّبل الأخرى ؟
٢. عرّف المُعجزة وبيّن هل يمكن إثباتها عقليّاً وعمليّاً؟
٣. ما الفرق بين المُعجزة وأعمال السحّرة والمرتاضين؟ لماذا لايجوز أن يطلق على أعمال السحرة و المرتاضين بأنّها الخارقة للعادة حقيقتاً؟
٤. أوضح الفارق بين المُعجزة والكرامة. لماذا لاتدلّ الكرامة على النبوّة في حين أنّها خارقة للعادة؟
٥. اشرح التناسب بين المُعجزة والأوضاع السائدة واذكر مثالاً على ذلك.

❁ موضوعات للبحث

- هل المُعجزة تعني نقض القوانين العلميّة والطبيعيّة؟ ما الأجوبة في هذا المجال؟
- أحصِ الآيات القرآنيّة في باب معاجز الأنبياء وبيّن إلى أيّ حدٍّ كانت مُتناسبة مع احتياجات المخاطبين؟

٢٢

سبل معرفة الأنبياء (٢): شهادة نبيّ آخر و وجود قرائن وشواهد

أشرنا في الدّرس السّابق إلى عموم سُبل معرفة الأنبياء، ثمّ بيّنّا أحد تلك السُّبل، أي المُعجزة، بشكل تفصيلي. ومن جملة الأبحاث الّتي جرى التطرّق لها هناك، تعريف المُعجزة، والفرق بينها وبين الكرامة والسِحر، وكيفيّة إثبات المُعجزة للأنبياء الإلهيّين. وفي هذا الدّرس، سنبحث السّبيلين الآخرين لمعرفة الأنبياء.

٢. البشارة أو شهادة الأنبياء

من الطّرق الأخرى لمعرفة صواب مدّعي النبوّة، هو أن يبشّر بمجيئه أحد الأنبياء الإلهيّين أو يشهد على صدق مدّعاه ويؤيّد كونه سفيراً إلهيّاً؛ لأنّ جميع الأنبياء الإلهيّين كما سيأتي معصومون ومن جملة مراتب العصمة، العصمة عن المعصية والخطإ؛ وعليه فلا يُحتمل في شهادة النبيّ الخطأ أو الكذب؛ بل إنّ شهادتهم عين الحقيقة.

على أنّ الاعتماد على هذا السّبيل متوقّف على شرطين:

الشرط الأوّل: أن تكون شهادة النبيّ المذكور واصلة بطريق مُعتبر، كما لو سمعنا شهادة النبيّ بصورة مباشرة ودون أيّ واسطة، أو نُقلت إلينا بصورة متواترة. وقد ذكر لنا التّاريخ أمثلة من سيرة حياة الأنبياء شهد فيها بعضهم إبّان حياته وبأمر من الله (سبحانه وتعالى) على نبوّة النبيّ اللّاحق له، كما هو الحال في النبيّ داوود عليه السلام لمّا أراد استخلاف ولده سليمان عليه السلام حيث أبلغ النّاس بذلك[١]. وفي موارد آخرى، كانت هذه البشارة تصل إلى النّاس بعد مدّة زمنيّة من

١. الكليني، الكافي، ج١، ص٣٨٣؛ الصدوق، كمال الدين وتمام النعمة، ج١، ص١٥٥.

وفاة النبيّ السّابق، مثل بشارة النبيّ يحيى عليه السلام بنبوّة عيسى المسيح[١] عليه السلام.

الشّرط الثّاني: انطباق الأوصاف الشّخصيّة للنبيّ المبشَّر به على الشّخص المدّعي للنبوّة انطباقاً تامّاً، نظير بشارة النبيّ عيسى عليه السلام بنبوّة الرّسول الأكرم صلى الله عليه وآله والّتي عبّر عنها القرآن الكريم بقوله:

﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾[٢].

يستفاد من الآيات القرآنية والقرائن التاريخيّة أنّ أوصاف النبيّ الكريم صلى الله عليه وآله كانت واضحة ومعروفة جدّاً لدى علماء اليهود بحيث لم يشكّوا في كونه خاتم الأنبياء:

﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقاً مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[٣].

على أنّ هذا السّبيل مُفتقرٌ إلى التّعميم الموجود في الإعجاز، خاصّةً أنّه لا يجري بشأن أوّل نبيّ في سلسلة الأنبياء.

٣. القرائن والشّواهد

من السّبل الأخرى المتّبعة لمعرفة الأنبياء، دراسة أحوالهم وآثارهم وجمع القرائن والشّواهد، ويمكن تقسيم هذه القرائن والشّواهد إلى طوائف مختلفة:

٣.١. سيرة مدّعي النبوّة

يصدر من الإنسان طيلة فترة تواجده بين النّاس مجموعة من الأعمال والسلوكيّات الّتي تمثل سيرة الشّخص وماضيه، ويمكن من خلالها الكشف بوضوح عن نفسيّته وأخلاقه وأفكاره. ولا يُستثنى مدّعي النبوّة من هذه القاعدة، فيتسنّى الاستدلال بها على صدق مدّعاه أو كذبه، فكما ذكرنا سابقاً جميع الأنبياء الإلهيّين نشأوا في أوساط النّاس وكانت سيرة حياتهم على

---

١ . الصدوق، كمال الدين و تمام النعمة، ج١، ص١٥٨.

٢ . سورة الصفّ: الآية ٦.

٣ . سورة البقرة: الآية ١٤٦.

مرأى ومسمع من الجميع.

والتّاريخ شاهد على أنّ جميع الأنبياء الإلهيّين كانوا قبل البعثة يتّصفون في أقوامهم بمكارم الأخلاق والصّلاح والسّداد والأمانة والصّدق وسائر الخصال الإنسانيّة الحميدة، ولم يُعرف عنهم سوء الخلق والأعمال القبيحة على الصعيد الفرديّ والاجتماعيّ؛ وإنّما اشتهروا بين الجميع بالحكمة والحنكة والعقلانيّة والوعي إلى درجة أنّه ليس لأحد أن يمسّهم بأدنى سوء؛ إذ لا يوجد في سيرتهم الأخلاقيّة أدنى نقطة ضعف بحيث يمكن مؤاخذتهم بها. وهذا في حدّ ذاته يشكّل أرضيّة مُناسبة لدى النّاس المنصفين للإيمان بهم وتصديق دعواهم بعد مشاهدة سائر القرائن والشّواهد الأخرى.

٣. ٢. الظّروف البيئيّة للدّعوة

تعدّ البيئة والمجتمع اللّتان ترعرع فيهما الشّخص واشتدّ عوده في كنفهما من أهمّ عوامل التّربية والتّعليم؛ ومن هنا لو نهض شخص من مجتمع تنعدم فيه آثار العلم والثّقافة والحضارة، ثمّ دعا النّاس بتعاليم حكيمة ورفيعة إلى أرقى أنواع الثّقافة والحضارة الإنسانيّة، وادّعى أنّه تلقّاها من الله (سبحانه وتعالى)، فهذا في حدّ ذاته دليل على صواب مدّعاه.

٣. ٣. مضمون الدّعوة

لا مناص لمدّعي النبوّة من دعوة النّاس إلى عقائد وأهداف وأخلاق وأحكام تلقّاها من الله بحسب مدّعاه، ويمكن اكتشاف مدى صدق مدّعي النبوّة هذا من خلال التدبّر في تلك التعاليم والأحكام من حيث مطابقتها للعقل والضّمير الإنسانيّ العامّ، وكذلك تأثيرها في البناء والإصلاح الفرديّ والاجتماعيّ.

٣. ٤. متّبعو النبيّ وأصحابه

يشكّل المؤمنون بمدّعي النبوّة والسائرون على خطّه معياراً جيّداً للتعرّف إليه، فمن الطبيعيّ أنّ من يرتبطون ارتباطاً وثيقاً بشخص معيّن يعرفونه أكثر من سواه ويطّلعون على حالته النفسيّة والعقديّة والأخلاقيّة. وفي هذا السّياق، إن كان هؤلاء الأفراد من أوائل المتّبعين له، فهذا يدلّ

على أنّه يحظى بقبولهم وأنّه يمتلك سيرة حسنة دفعتهم إلى الإيمان به، وكذلك لو آمن به المحسنون والعقلاء في المجتمع فهذا يدلّ على أنّ دعوته ذات استقامة فكريّة وعقليّة وأخلاقيّة متميّزة.

٣. ٥. الثّبات على الدّعوة

لا شكّ في وجود معارضة لكلّ من يدّعي منصباً ومقاماً مرموقاً في المجتمع، ولا يستثنى من هذه القاعدة مدّعي النبوّة أيضاً. فيستفاد من ثبات مدّعي النبوّة على الدّعوة وتضحيته في سبيلها حيال المعارضة الّتي تتحول أحياناً إلى صراع وحرب لا هوادة فيها قد تسفرعن خسائر ومخاطر كبيرة في الأرواح والأموال، أنّ ذلك وسيلة مناسبة لتشخيص صدقه في مدّعاه.

ولا بدّ من الالتفات إلى أنّ كلّ واحدة من هذه القرائن إذا وقعت مُنفردة قد لا تكون مُجدية في إثبات صواب مدّعي النبوّة؛ بينما يمكن أن يصل الإنسان بحكم عقله السّليم من خلال تحقّق جميع تلك القرائن أو أغلبها في شخص واحد إلى اليقين والاطمئنان بصدقه في مدّعاه.

وفي هذا السّياق، روي أنّه لمّا وصل كتاب النبيّ ﷺ إلى قيصر الرّوم، احتمل أن يكون هذا هو النبيّ الّذي كانوا ينتظرونه وبشّرهم به عيسى بن مريم، ثمّ دعا إلى التماس أحد من قومه ليسأله عنه، وكان أبوسفيان وجماعة من قُريش دخلوا الشّام آنذاك للتّجارة، فأحضرهم إليه وسألهم عن خصال النبيّ ﷺ، ولمّا أخبروه بها قال: هذه آية النبوّة[1].

---

١. الراوندي، الخرائج والجرائح، ج١، ص١٣٣؛ المجلسي، بحار الأنوار، ج٢٠، ص٣٧٩.

❁ الأسئلة

١. ما هي شروط شهادة النبيّ السّابق للنبيّ اللاحق؟

٢. عدّد القرائن والشّواهد الّتي يمكن أن تدلّ على معرفة النبيّ.

٣. متى تدلّ القرائن والشّواهد على صدق مدّعي النبوّة؟

❁ موضوعات للبحث

- استخرج أمثلة على بشارة الأنبياء السّابقين بنبيّ الإسلام ﷺ من العهدين القديم والجديد.

- بأيّ السّبل استدلّ أكابر أصحاب النبيّ ﷺ - كأمثال سلمان و أبوذرّ و غيرهما - على صدق دعوته؟ إبحث ذالک عن أحوالهم و سيرتهم تجاه النبيّ الكريم ﷺ.

٢٣

صفات الأنبياء (١): العلم

جرى البحث في الدّروس السّابقة عن سبل تشخيص الأنبياء الصّادقين من الكاذبين، والآن قد يُسأل: ما هي صفات الأنبياء؟ وقد تحدّثنا في الدّروس السّابقة عن المُعجزة وبعض الخصال الأخرى تحت عنوان «سبل معرفة الأنبياء»، وسنتابع الحديث في هذا الدّرس عن تلك الصّفات ببحث موضوع علم الأنبياء.

بمقتضى المسؤوليّة الخطيرة الّتي تقع على عاتق الأنبياء الإلهيّين، لا بدّ لهم من الاتّصاف بصفات مناسبة لتلك المسؤوليّة الكبيرة، من قبيل العلم، والعصمة، والإعجاز. يُعدّ العلم أهمُّ خصائص الأنبياء الإلهيّين ومن الصّفات الأساسيّة لهم؛ حيث تُشكّل العلوم السّماويّة المائز الأساس بين هؤلاء الأنبياء والنّاس الاعتياديّين. ولمّا كانت دائرة بحث علم الأنبياء واسعة جدّاً وينطوي هذا البحث على أبعاد مختلفة ومتنوّعة، سنكتفي هنا بعدد من المحاور الأساسيّة فقط.

١. منزلة العلم لدى العقل والدِّين

إنّ العقلاء يحترمون العلم، ولا يضعون العالم وغير العالم في خانة واحدة، ولا يتعاملون معه كتعاملهم مع الإنسان غير العالم، وقد بيّن القرآن الكريم هذا الحكم العقلي بقوله:

﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾[١].

---

١. سورة الزمر: الآية ٩.

٢. لُزوم اتّباع العالم

لا ريب في أنّ الاتّباع فرع العلم، والعقل يحكم بأنّه لا ينبّغي اتّباع الشّخص ولا الإصغاء إلى حديثه إلّا إن كان عالماً بما يقول ويفعل. وقد بيّن الباري (سبحانه وتعالى) هذه القاعدة العقليّة قائلاً:

﴿اَفَمَنْ يَهْدِىَ اِلَى الْحَقِ اَحَقُّ اَنْ يُتَّبَعَ اَمَّنْ لا يَهِدّىَ اِلآّ اَنْ يُهْدٰى فَما لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾[١].

ومن البديهي أنّ اتّباع الجاهلين ومسايرة الفاقدين للهداية الإلهيّة يأخذ بصاحبه إلى الضّلال والغواية ولا يجديه نفعاً. قال القرآن الكريم في هذا الخصوص:

﴿وَلا تَتَّبِعْ اَهْوٰٓاءَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ * اِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللهِ شَيْئاً﴾[٢].

٣. لزوم العلم الإلهيّ للأنبياء

لا يخفى أنّ تفويض المسؤوليّة إلى أيّ شخص لا بدّ من أن يكون متناسباً مع قابليّاته وإمكانيّاته؛ ولذا يجب أن يتوفر لدى الأنبياء جميع مستلزمات المهامّ الّتي أناطها بهم والمسؤوليّات الّتي أوكلها إليهم ومن ثمّ أحال النّاس للرّجوع إليهم والأخذ منهم. فبما أنّ الله (سبحانه وتعالى) جعل الأنبياء في مقام هداية الخلق، وألزم النّاس باتّباعهم من أجل الوصول إلى الصراط القويم، ينبّغي أن يكون هؤلاء الأخيار المنتجبين هداةً وعالمين بطريق الهداية. فلمّا يكون الأنبياء مأمورين ببيان كتاب الله (جلّ وعلا) ورفع الاختلافات الدينيّة والدّنيويّة، يجب أن يكون لديهم علم الكتاب وغير مختلفين في ما بينهم؛ وإلّا أصبح نصب الأنبياء الإلهيّين في هذه المقامات وإرجاع النّاس إليهم عبثاً ولغواً.

وكما أشرنا في الدّروس المتقدّمة، وفي موضوع الحاجة إلى الأنبياء الإلهيّين والحكمة من البعثة تحديداً، فإنّه لا يتيسّر لأفراد البشر الاعتياديّين بلوغ العلوم والمعارف الإلهيّة وكذلك الاطّلاع على الأوامر والنّواهي الصّادرة منه (سبحانه وتعالى)، فلا يتسنّى التوصل إلى هذه الأهداف إلّا بالاستعانة بالإمداد الإلهيّ المتمثّل بطريق الأنبياء العظام والحجج الإلهيّين؛

---

١. سورة يونس: الآية ٣٥.

٢. سورة الجاثية: الآيتان ١٨-١٩.

ومن هنا فإنّ الباري (سبحانه وتعالى) يزوّد هؤلاء الرّجال الأفذاذ بالعلوم الّتي يحتاجونها عن طريق الوحي ليتاح لهم هداية النّاس وإرشادهم إلى جادّة الصّواب. وقد بيّن الباري (سبحانه وتعالى) هذه الحقيقة بقوله:

﴿وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ * ... أُولَٰئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ... * أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾[١].

والآية الشّريفة الآنفة تُشير إلى نقاط، أهمّها:

أ) إنّ الأنبياء الإلهيّين قد اجتباهم الله (سبحانه وتعالى).

ب) إنّهم قد حصلوا على الهداية الإلهيّة إلى الصّراط المُستقيم، وأوتوا الكتاب والحكمة.

ج) إنّ النّاس مكلّفون بالاستفادة من هدي الأنبياء والاقتداء بهم.

وفي هذا السّياق، شدّد الإمام أبوالحسن الرّضا عليه السلام على لزوم إعطاء العلم للأنبياء، مضافاً إلى ضرورة كون ما يُعطى لهم فوق علم أهل زمانهم ومما لا يُعطى لسواهم؛ ليُميّزهم عن الجميع ولا يحتارون بعده بأيّ جواب، فقال:

«إِنَّ الْأَنْبِيَاءَ وَالْأَئِمَّةَ عليهم السلام يُوَفِّقُهُمُ اللهُ وَيُؤْتِيهِمْ مِنْ مَخْزُونِ عِلْمِهِ وَحِكْمَتِهِ مَا لَا يُؤْتِيهِ غَيْرَهُمْ؛ فَيَكُونُ عِلْمُهُمْ فَوْقَ عِلْمِ أَهْلِ زَمَانِهِمْ... إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا اخْتَارَهُ اللهُ (سبحانه وتعالى) لِأُمُورِ عِبَادِهِ يَشْرَحُ لِذَلِكَ صَدْرَهُ، وَأَوْدَعَ قَلْبَهُ يَنَابِيعَ الْحِكْمَةِ، وَأَلْهَمَهُ الْعِلْمَ إِلْهَاماً؛ فَلَمْ يَعْيَ بَعْدَهُ بِجَوَابٍ وَلَا يُحِيرُ فِيهِ عَنِ الصَّوَابِ»[٢].

٤. مصدر علوم الأنبياء

يمثّل الوحي مصدراً لعلوم الأنبياء الإلهيّين؛ ولذا لا دور للتعليم والتّربية والبناء الثّقافي للمجتمع في بلورة علومهم وتكوين منظومتهم العلميّة والثّقافيّة؛ من هذا المُنطلق، يُسمّى علم الأنبياء والرُّسل في الثّقافة الدينيّة بـ«العلم الوهبيّ». قال الإمام أبوعبد الله الصّادق عليه السلام:

---

١. سورة الأنعام: الآيات ٨٧-٩٠.

٢. الكيني، الكافي، ج١، ص٢٠٢؛ الصدوق، كمال الدين وتمام النعمة، ج٢، ص٦٨٠؛ النعماني، الغيبة، ص٢٢٢.

«إِنَّ اللهَ (عَزَّ وَجَلَّ) مَكَّنَ أَنْبِيَاءَهُ مِنْ خَزَائِنِ لُطْفِهِ وَكَرَمِهِ وَرَحْمَتِهِ وَعَلَّمَهُمْ مِنْ مَخْزُونِ عِلْمِهِ»[١].

نعم، بعض علوم الأنبياء مأخوذة من الحجج الإلهيّين السّابقين، ولكن مع ذلك فإنّ المصدر الأساس لهذه الإفاضة العلميّة هو الباري (تبارك وتعالى) أيضاً؛ لأنّ منشأ علوم الأنبياء السّابقين هو الوحي الإلهيّ. من هنا، أشار الإمام أبوجعفر الباقر عليه السلام خلال بيان استمرار الحجج الإلهيّة في قصّة النبيّ آدم عليه السلام إلى الأمر الإلهيّ القاضي بنقل علوم النبوّة الّتي بحوزته إلى الحجّة اللّاحق، قائلاً:

«فَلَمَّا انْقَضَتْ نُبُوَّةُ آدَمَ عليه السلام وَاسْتَكْمَلَ أَيَّامَهُ، أَوْحَى اللهُ (عَزَّ وَجَلَّ) إِلَيْهِ أَنْ يَا آدَمُ! قَدِ انْقَضَتْ نُبُوَّتُكَ، وَاسْتَكْمَلْتَ أَيَّامَكَ، فَاجْعَلِ الْعِلْمَ الَّذي عِنْدَكَ وَالْإِيمَانَ وَالِاسْمَ الْأَكْبَرَ وَمِيرَاثَ الْعِلْمِ وَآثَارَ عِلْمِ النبوّة فِي الْعَقِبِ مِنْ ذُرِّيَّتِكَ عِنْدَ هِبَةِ اللهِ، فَإِنِّي لَنْ أَقْطَعَ الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ وَالِاسْمَ الْأَكْبَرَ وَآثَارَ النبوّة مِنَ الْعَقِبِ مِنْ ذُرِّيَّتِكَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَلَنْ أَدَعَ الْأَرْضَ إِلّا وَفِيهَا عَالِمٌ يُعْرَفُ بِهِ دِينِي وَيُعْرَفُ بِهِ طَاعَتِي»[٢].

في السّياق ذاته، أكّد الإمام أبوجعفر الباقر عليه السلام على أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله هو وارث جميع علوم الأنبياء والرّسل الإلهيّين السّابقين، قائلاً:

«إِنَّ مُحَمَّداً وَرِثَ عِلْمَ مَنْ كَانَ قَبْلَهُ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ»[٣].

بناءً على ذلك، يمكن أن نستنتج ممّا سبق أنّ علوم الأنبياء الإلهيّين مأخوذة من الوحي بصورة مباشرة أو غير مباشرة.

٥. مراتب علوم الأنبياء

لا تتساوى العلوم الّتي وهبها الله (سبحانه وتعالى) لأنبيائه ورسله، فلكلّ واحد منهم درجة

١. المجلسي، بحار الأنوار، ج١١، ص٣٧.
٢. الكليني، الكافي، ج٨، ص١١٤؛ البرقي، المحاسن، ج١، ص٢٣٥؛ العياشي، التفسير العياشي، ج١، ص٣١٠.
٣. الصفار، بصائر الدرجات، ص١٢١؛ الكليني، الكافي، ج١، ص٢٢٤.

ومرتبة مختلفة عن درجات الآخرين ومراتبهم، ولا يمتلك أحد من الأنبياء والمرسلين سوى خاتم النبيين ﷺ جميع العلوم الوهبيّة؛ ولذا قال الإمام أبوجعفر الباقر عليه السلام نقلاً عن أمير المؤمنين عليه السلام في وصف علم رسول الله ﷺ:

«عَلِمَ النبيّ عِلْمَ جَمِيعِ النَّبِيِّينَ وَعِلْمَ مَا كَانَ وَعِلْمَ مَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ»[١].

بينما أشار الإمام أبوعبد الله الصّادق عليه السلام عند بيان حدود علم النبيّ موسى والخضر عليهما السلام إلى محدوديّة هذا العلم قائلاً:

«إِنَّ مُوسَى وَالْخَضِرَ عليهما السلام أُعْطِيَا عِلْمَ مَا كَانَ وَلَمْ يُعْطَيَا عِلْمَ مَا يَكُونُ وَمَا هُوَ كَائِنٌ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةِ»[٢].

❁ الأسئلة

١. اشرح لزوم اتّباع العالم وفقاً للثّقافة القرآنيّة.

٢. ما المُراد من لزوم العلم الإلهيّ للأنبياء؟

٣. ما هو مصدر علوم الأنبياء الإلهيّين؟ وهل يستفيدون من علوم الأنبياء السّابقين لهم؟

٤. بيّن حدود ومراتب علوم الأنبياء. ما هي النسبة بين علم خاتم النّبييّن و بين علم ساير الأنبياء والمرسلين؟

❁ موضوعات للبحث

- ما المقصود من كلمة «أُمّيّ» في القرآن الكريم؟ وهل يمكن الادّعاء أنّ الأنبياء كانوا أمّيّين بمعنى أنّهم لا يقرأون ولا يكتبون؟

- في ضوء البون الزّمني الشّاسع بين النبيّ الكريم ﷺ والأنبياء السّابقين، أنّى له بلوغ علومهم؟

---

١. الصفار، بصائر الدرجات، ص١٢٧؛ وأيضاً انظر: الصفار، بصائر الدرجات، ص١١٧ و ص٢٢٨؛ الكليني، الكافي، ج١، ص٢٢٢.

٢. الكليني، الكافي، ج١، ص٢٦١؛ الصفار، بصائر الدرجارت، ص١٢٩.

٢٤

صفات الأنبياء (٢): العصمة

تعرّفنا في الدّرس السّابق إلى أهمّ صفات الأنبياء الإلهيّين، واتّضح أنّه لا يمكن أداء مسؤولية الأنبياء والقيام بمهمّتهم الجسيمة دون الاعتماد على الثروة العلميّة والمعرفية العظيمة، تلك العلوم الّتي لا تتأتّى إلّا من النبع الإلهيّ الصافي والّتي ترفع مرتبة الأنبياء عن سائر النّاس الآخرين. ومن الصّفات الأخرى للأنبياء العصمة، وسنبحث في هذ الدّرس الأبعاد المختلفة لهذه الصفة.

كان موضوع العصمة مَثاراً للبحث والجدل بين العلماء والمفكّرين والمُتديّنين عموماً منذ قديم الأيام، ولا يسعنا هنا إلّا الإشارة إلى بعض البحوث التمهيديّة في هذا الإطار.

١. تعريف العصمة

معنى «العصمة» لغةً هو المنع والحفظ والإمساك[1]. والمقصود منها هو صيانة الأنبياء والمرسلين عن الوقوع في المعصية ومنعهم من ارتكاب الخطإ؛ من هنا عرّف الإمام أبوعبد الله الصّادق عليه السلام المعصوم بقوله:

«الْمَعْصُومُ هُوَ الْمُمْتَنِعُ بِاللهِ مِنْ جَمِيعِ مَحَارِمِ اللهِ، وَقَالَ اللهُ (تَبَارَكَ وتَعَالَى): ﴿وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللهِ فَقَدْ هُدِيَ إلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾[2]»[3].

---

١ . الزبيدي، تاج العروس، ج١٧، ص٤٨١-٤٨٢.

٢ . سورة آل عمران: الآية ١٠١.

٣ . الصدوق، معاني الأخبار، ص١٣٢.

٢. حدود عصمة الأنبياء

لو سُئل ما حدود عصمة الأنبياء وفي أيّ شيءٍ هم معصومون؟ فينبّغي القول: إنّهم بحكم العقل معصومون في كلّ ما يتّصل بتكليفهم الإلهيّ، الأعمّ من حياتهم الشّخصيّة وتلقّي الوحي وحفظه وإبلاغه وبيانه والعمل به، فلا يصدر منهم الخطأ والزّلل صغيراً كان أم كبيراً في أيّ من المجالات المذكورة؛ ومن هنا شدّد الإمام أبوجعفر الباقر عليه السلام على هذه العقيدة الضّروريّة بقوله:

«إِنَّ الْأَنبِيَاءَ لَا يُذْنِبُونَ؛ لِأَنَّهُمْ مَعْصُومُونَ مُطَهَّرُونَ، لَا يُذْنِبُونَ وَلَا يَزِيغُونَ وَلَا يَرْتَكِبُونَ ذَنْباً صَغِيراً وَلَا كَبِيراً»[١].

٣. لزوم الإيمان بعصمة الأنبياء

لا ريب في أنّه يجب على النبيّ كسب ثقة النّاس قبل أيّ شيءٍ آخر بحيث لا يحتملون في أقواله الكذب أو الخطأ، وإلّا تزعزعت صورته في أذهانهم وفقد مقام القيادة؛ إذ لو كان الأنبياء غير معصومين لأعرض عنهم ذوو الأعذار بحجّة أنّهم يُخطؤون، ولرفض الباحثون عن الحقيقة الإقرار بدعوتهم والإيمان بهم بسبب عدم إمكان الرّكون إليها، ولا أقلّ فإنّهم لا يتلقّون تلك الدّعوة برحابة صدر وبحرارة كبيرة. وهذا الدّليل الّذي يمكن تسميته بـ«دليل الوثوق» يعدّ من أهمّ الأدلّة العقليّة على عصمة الأنبياء.

التساؤل المطروح هنا هو: كيف يأمر الله (سبحانه وتعالى) النّاس بطاعة شخصٍ ما دون أيّ قيد أو شرط وهو ممن يمكن أن يصدر منه الخطأ أو يرتكب المعصية؟ فعند طاعته يتّبعون الخطأ ويرتكبون المعصية وعند مخالفته ينتفي الغرض من بعثته بسبب عدم الانقياد إلى امتثال أوامره، خصوصاً أنّ مقام النبيّ بين النّاس مختلف تماماً عن الآخرين؛ لأنّهم يأخذون جميع عقائدهم منه[٢]. وعلى هذا الأساس، أشير في رواية عن أمير المؤمنين عليه السلام إلى هذه النّقطة الأساسيّة باعتبارها دليلاً على عصمة الأنبياء:

«لَا طَاعَةَ لِمَخْلُوقٍ فِي مَعْصِيَةِ الْخَالِقِ... وَلَا طَاعَةَ لِمَنْ عَصَى اللهَ؛ إِنَّمَا الطّاعة

---

١. الصدوق، الخصال، ص٣٩٩؛ الراوندي، قصص الأنبياء، ص١٣٩.

٢ انظر: العلامة الحلّي، كشف المراد، ص٣٤٩؛ مكارم الشيرازي، پنجاه درس اصول عقايد براى جوانان، الدرس الثالث.

للهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِوُلَاةِ الْأَمْرِ، وَإِنَّمَا أَمَرَ اللهُ (عَزَّ وَجَلَّ) بِطَاعَةِ الرَّسُولِ؛ لِأَنَّهُ مَعْصُومٌ مُطَهَّرٌ لَا يَأْمُرُ بِمَعْصِيَتِهِ»[1].

كما أشار الباري (سبحانه وتعالى) في محكم كتابه الكريم إلى عصمة النبيّ الكريم ﷺ من حيث كونه قدوة وأسوة، فقال:

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾[2].

فكيف يمكن اتّخاذ الشّخص أسوة كاملةً إن كان متّهماً بالشرك واقتراف الذّنوب والمعاصي أو كان مخطئاً طيلة حياته؟ وكيف يأمر الله (سبحانه وتعالى) باتّخاذ مثل هذا الشّخص أسوة إلهيّة؟[3]

٤. منشأ عصمة الأنبياء

إن قيل: ما هو منشأ عصمة الأنبياء والمُرسَلين؟ فالجواب الإجمالي عن ذلك هو أنّ لدى المعصوم ملكة قويّة تمنعه من ارتكاب المعاصي حتّى في أحلك الظّروف، ومردّها إلى الاطلاع التامّ والدّائم على قبح المعصية والإرادة القويّة على التحكّم بالأهواء النّفسيّة. ومنه يتّضح أنّ العصمة تعود إلى النبيّ نفسه قبل كلّ شيءٍ، ولكن قد تُنسب فاعليّة تلك الملكة إلى الله (سبحانه وتعالى) أيضاً كونها تتحقّق بعناية خاصّة منه، وإلّا فإنّ الباري (عزّوجلّ) لا يمنع الإنسان المعصوم من ارتكاب المعصية جبراً وبسلبه الاختيار على الفعل. هذا وتُنسب العصمة إلى الله (سبحانه وتعالى) بمعنى آخر أيضاً، وهو أنّه الضامن لعصمة الأنبياء[4].

نعم، يبقى هذا السّؤال عالقاً في الأذهان: ما هو دور الله في نشوء العصمة؟ لا يمكن للبشر إدراك معنى العصمة إن كانت فعلاً من أفعال الله (سبحانه وتعالى)؛ ولكن يمكن الإشارة إلى بعض المقدّمات الّتي يهيئها الباري (سبحانه) لتحقيق العصمة، وهي:

---

١ الصدوق، الخصال، ج١، ص١٣٩؛ و أيضاً انظر: البرقي، المحاسن، ج١، ص٢٤٦.

٢ سورة الأحزاب: الآية ٢١.

٣ مصباح اليزدي، آموزش عقائد، ص١٩١.

٤ . المصدر نفسه.

١.٤. العلم والمعرفة والتّسديد والتّوفيق الإلهيّ

أنزل الله (سبحانه وتعالى) على أنبيائه العلم والحكمة وأمدّهم بغيبه وسدّدهم في الردّ على الأسئلة المختلفة؛ وذلك من أجل الحيلولة دون وقوع أخطاء في القضايا العلميّة وإعداد هؤلاء الأنبياء للردّ على أيّ سؤال من النّاس؛ لأنّ ذلك من لوازم النبوّة والرّسالة.

في الدّرس السّابق وفي بحث لزوم العلم الإلهيّ للأنبياء، أوردنا حديثاً عن الإمام عليّ بن موسى الرّضا عليه السلام حول لزوم إعطاء العلم للأنبياء، وسنعيد الإشارة إليه هنا بما يتناسب مع بحث العصمة:

«إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا اخْتَارَهُ اللهُ (عَزَّ وَجَلَّ) لِأُمُورِ عِبَادِهِ شَرَحَ صَدْرَهُ لِذَلِكَ، وَأَوْدَعَ قَلْبَهُ يَنَابِيعَ الْحِكْمَةِ، وَأَلْهَمَهُ الْعِلْمَ إِلْهَاماً، فَلَمْ يَعْيَ بَعْدَهُ بِجَوَابٍ، وَلَا يُحَيَّرُ فِيهِ عَنِ الصَّوابِ؛ فَهُوَ مَعْصُومٌ مُؤَيَّدٌ مُوَفَّقٌ مُسَدَّدٌ، قَدْ أَمِنَ مِنَ الْخَطَايَا وَالزَّلَلِ وَالْعِثَارِ، يَخُصُّهُ اللهُ بِذَلِكَ لِيَكُونَ حُجَّتَهُ عَلَى عِبَادِهِ وَشَاهِدَهُ عَلَى خَلْقِهِ»[١].

٢.٤. الإمداد الغيبيّ من الملائكة

العامل الآخر الكفيل بردع الأنبياء عن الخطإ عامل غيبيّ؛ حيث يزوّدهم الله (سبحانه وتعالى) بقوّة لا تسمح لهم بارتكاب الخطإ، وما ذلك اللّطف الإلهيّ بحقّ الأنبياء إلّا لغرض كسب ثقة النّاس وهدايتهم؛ وبالتالي، بلوغ الهدف الّذي بُعثوا من أجله[٢].

من جملة ذلك أنّ الله (سبحانه وتعالى) يوكل بعض الملائكة لتحقيق عصمة الأنبياء؛ ولذا ورد عن الإمام محمد بن علي الباقر عليه السلام أنّه قال حول هذه الملائكة:

«يُوَكِّلُ اللهُ (سبحانه وتعالى) بِأَنْبِيَائِهِ مَلَائِكَةً يُحْصُونَ أَعْمَالَهُمْ وَيُؤَدُّونَ إِلَيْهِمْ تَبْلِيغَهُمُ الرِّسَالَةَ، وَوَكَّلَ بِمُحَمَّدٍ مَلَكاً عَظِيماً مُنْذُ فُصِلَ عَنِ الرَّضَاعِ، يُرْشِدُهُ إِلَى الْخَيْرَاتِ وَمَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ وَيَصُدُّهُ عَنِ الشَّرِّ وَمَسَاوِي الْأَخْلَاقِ»[٣].

---

١. الكليني، الكافي، ج١، ص٢٠٢-٢٠٣؛ ابن شعبة الحرّاني، تحف العقول عن آل الرسول صلى الله عليهم، ص٤٤١؛ النعماني، الغيبة، ص٢٢٣.

٢. السبحاني، اصول عقايد اسلامى، ص٤٥.

٣. ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ج١٣، ص٢٠٧؛ المجلسي، بحار الأنوار، ج١٥، ص٣٦٢. وقال أمير المؤمنين عليه السلام في ☜

وروي في سيرة حياة النبيّ الأكرم ﷺ أنّه لمّا بُني البيت كان النّاس ينقلون الحجارة والنبيّ ﷺ معهم، فأخذ الثّوب فوضعه على عاتقه، فنودي: «لا تَكشِفْ عَورتَكَ»، فألقى الحجر ولبس ثوبه[١].

بناءً على ذلك، لمّا يُحتمل أن يصدر خطأ عن الأنبياء الإلهيّين مما هو خارج عن دائرة اختيارهم، يهبّ إليهم ملائكة مسخّرون من الله (سبحانه وتعالى) لتفادي وقوع ذلك الخطإ منهم.

٤. ٣. التصرّف التكوينيّ لله (سبحانه وتعالى)

قد يحول الله (سبحانه وتعالى) أحياناً دون وقوع نبيّه في المعصية أو الخطإ من خلال التصرّف في الكون؛ ومن هنا روي عن أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام قال:

«سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: مَا هَمَمْتُ بِشَيْءٍ مِمَّا كَانَ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ يَعْمَلُونَ بِهِ غَيْرَ مَرَّتَيْنِ، كُلَّ ذَلِكَ يَحُولُ اللهُ بَيْنِي وَبَيْنَ مَا أُرِيدُ مِنْ ذَلِكَ، ثُمَّ مَا هَمَمْتُ بِسُوءٍ حَتَّى أَكْرَمَنِيَ اللهُ بِرِسَالَتِهِ. قُلْتُ لَيْلَةً لِغُلَامٍ مِنْ قُرَيْشٍ كَانَ يَرْعَى مَعِي بِأَعْلَى مَكَّةَ: لَوْ أَبْصَرْتَ لِي غَنَمِي حَتَّى أَدْخُلَ مَكَّةَ فَأَسْمُرَ بِهَا كَمَا يَسْمُرُ الشَّبَابُ، فَخَرَجْتُ أُرِيدُ ذَلِكَ، حَتَّى إِذَا جِئْتُ أَوَّلَ دَارٍ مِنْ دُورِ مَكَّةَ، سَمِعْتُ عَزْفاً بِالدَّفِ وَالْمَزَامِيرِ. فَقُلْتُ: مَا هَذَا؟ قَالُوا: هَذَا فُلَانٌ تَزَوَّجَ ابْنَةَ فُلَانٍ. فَجَلَسْتُ أَنْظُرُ إِلَيْهِمْ، فَضَرَبَ اللهُ عَلَى أُذُنِي فَكُنْتُ، فَمَا أَيْقَظَنِي إِلّا مَسُّ الشَّمْسِ. فَجِئْتُ إِلَى صَاحِبِي فَقَالَ: مَا فَعَلْتَ؟ فَقُلْتُ: مَا صَنَعْتُ شَيْئاً، ثُمَّ أَخْبَرْتُهُ الْخَبَرَ، ثُمَّ قُلْتُ لَهُ لَيْلَةً أُخْرَى مِثْلَ ذَلِكَ، فَقَالَ: افْعَلْ. فَخَرَجْتُ فَسَمِعْتُ حِينَ دَخَلْتُ مَكَّةَ مِثْلَ مَا سَمِعْتُ حِينَ دَخَلْتُهَا تِلْكَ اللَّيْلَةَ، فَجَلَسْتُ أَنْظُرُ، فَضَرَبَ اللهُ عَلَى أُذُنِي، فَمَا أَيْقَظَنِي إِلّا مَسُّ الشَّمْسِ، فَرَجَعْتُ إِلَى صَاحِبِي، فَأَخْبَرْتُهُ الْخَبَرَ. ثُمَّ مَا هَمَمْتُ بَعْدَهَا بِسُوءٍ حَتَّى أَكْرَمَنِيَ اللهُ بِرِسَالَتِهِ»[٢].

☜ هذا المجال أيضاً: «وَلَقَدْ قَرَنَ اللهُ بِهِ ﷺ مِنْ لَدُنْ أَنْ كَانَ فَطِيماً أَعْظَمَ مَلَكٍ مِنْ مَلَائِكَتِهِ، يَسْلُكُ بِهِ طَرِيقَ الْمَكَارِمِ وَمَحَاسِنَ أَخْلَاقِ الْعَالَمِ لَيْلَهُ وَنَهَارَهُ» (نهج البلاغة، الخطبة ١٩٢، ص٣٠٠).

١. المجلسي، حياة القلوب، ج٢، ص٦٧؛ نقلاً عن: الذهبي، تاريخ الإسلام، ج١، ص٧٤.

٢. المجلسي، حياة القلوب؛ ج٢، ص٦٧؛ المجلسي، بحار الأنوار، ج١٥، ص٣٦٢.

٤. الآباء والأمّهات الصّالحون للأنبياء

لا شكّ في وجود دور أساس وحيوي لطهارة الآباء جسديّاً ونفسيّاً في إيمان الأبناء وسلوكهم[١]؛ لذا خلق الله (سبحانه وتعالى) جميع الأنبياء الإلهيّين من آباءٍ وأجدادٍ صالحين وربّاهم في حجور طاهرة، ولم يُبتلَ أيّ واحد منهم بالأفعال القبيحة في العصر الجاهلي. وقد أشار الإمام جعفربن محمد الصّادق عليه السلام إلى هذه الحقيقة والعناية الإلهيّة في الحديث الآتي:

«نَحْنُ نَزْعُمُ أَنَّ الْأَرْضَ لَا تَخْلُو مِنْ حُجَّةٍ، وَلَا تَكُونُ الْحُجَّةُ إلّا مِنْ عَقِبِ الْأَنْبِيَاءِ، مَا بَعَثَ اللهُ نَبِيّاً قَطُّ مِنْ غَيْرِ نَسْلِ الْأَنْبِيَاءِ؛ وَذَلِكَ أَنَّ اللهَ شَرَعَ لِبَنِي آدَمَ طَرِيقاً مُنِيراً وَأَخْرَجَ مِنْ آدَمَ نَسْلاً طَاهِراً طَيِّباً، أَخْرَجَ مِنْهُ الْأَنْبِيَاءَ وَالرُّسُلَ، هُمْ صَفْوَةُ اللهِ وَخُلَّصُ الْجَوْهَرِ، طُهِّرُوا فِي الْأَصْلَابِ وَحُفِظُوا فِي الْأَرْحَامِ... فَمَنْ كَانَ خَازِنَ عِلْمِ اللهِ وَأَمِينَ غَيْبِهِ وَمُسْتَوْدَعَ سِرِّهِ وَحُجَّتَهُ عَلَى خَلْقِهِ وَتَرْجُمَانَهُ وَلِسَانَهُ لَا يَكُونُ إلّا بِهَذِهِ الصِّفَةِ... إنَّ اللهَ (عَزَّ وَجَلَّ) اخْتَارَ مِنْ وُلْدِ آدَمَ أُنَاساً، طَهَّرَ مِيلَادَهُمْ، وَطَيَّبَ أَبْدَانَهُمْ، وَحَفِظَهُمْ فِي أَصْلَابِ الرِّجَالِ وَأَرْحَامِ النِّسَاءِ، أَخْرَجَ مِنْهُمُ الْأَنْبِيَاءَ وَالرُّسُلَ؛ فَهُمْ أَزْكَى فُرُوعِ آدَمَ»[٢].

---

١. انظر: الكليني، الكافي، ج٥، ص٥٦٢؛ ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ج١٢، ص١١٧.

٢. الطبرسي، الاحتجاج، ج٢، ص٣٣٧ و٣٤٠.

❁ الأسئلة

١. ما معنى العصمة في اللّغة وفي روايات أهل البيت عليهم السلام ؟ و ما هى النسبة بينهما؟
٢. اشرح حدود عصمة الأنبياء.
٣. لماذا يجب اتّصاف الأنبياء الإلهيّين بالعصمة؟
٤. ما هو دور الأنبياء فى صفته العصمة و هل هذه العصمة فضيلة لهم أم لا؟
٥. كيف يساعد الله (عزّوجلّ) أنبيائه في قضية العصمة و هل يمكن أن نستند العصمة إلى فعل الله؟

❁ موضوعات للبحث

- ابحث عن مادّة الفعل «عصم» في الآيات القرآنيّة، ثمّ بيّن المعنى الدّقيق للعصمة عن طريق ذلك.
- ابحث ما الفرق بين العصمة والصّيانة من الخطإ.

٢٥

الأنبياء الإلهيّون

ذُكرت إلى الآن بحوثٌ حول أصل النبوّة تشمل جميع الأنبياء؛ ولذا يُعبَّر عنها بـ «النبوّة العامّة». وفي ختام بحث النبوّة العامّة، لا بأس بذكر تعريف إجمالي عن الأنبياء وطبقاتهم ومراتبهم وكتبهم وأديانهم وأقوامهم.

١. المصدر الصّحيح لمعرفة الأنبياء السّابقين

إنّ الطّريق الوحيد للتعرّف إلى الأنبياء السّابقين هو القرآن الكريم والأخبار والرّوايات المأثورة عن الأئمّة المعصومين عليهم السلام؛ ذلك أنّ التّحريف طال كتب الأنبياء السّابقين الموجودة بين أيدينا في الوقت الرّاهن بحسب الشّواهد التاريخيّة المعتبرة وبدلالة تاريخ الأديان الإلهيّة أيضاً، خاصّة مع انعدام التّقارير التاريخيّة المُستقلّة عن الحوادث الواقعة في عصور الأنبياء، ومن الشّواهد الموثّقة على هذا التّحريف مضامين بعض هذه الكتب المخالفة للعقل والمناهضة للأصول العقديّة والأخلاقيّة المسلّمة في الشرائع الإلهيّة المختلفة. وعليه، فالسّبيل الوحيد لإثبات نبوّة الأنبياء الماضين هو الرّجوع إلى القرآن الكريم وأقوال الأئمّة المعصومين عليهم السلام.

٢. عدد الأنبياء والرُّسل الإلهيّين

ورد في الأحاديث أنّ عدد الأنبياء يبلغ مئة وأربعة وعشرين ألف نبيّ، وعدد الرّسل الإلهيّين ثلاث مئة وثلاثة عشر رسولاً[١]. ومن بين هذا العدد من الأنبياء، ذُكرت في القرآن الكريم أسماء

١. انظر: الصدوق، معاني الأخبار، ص٣٣٣؛ الجزائري، قصص الأنبياء، ص٣٢٢؛ الصدوق، الأمالي، ص٢٣٦.

ستة وعشرون نبيّاً فقط، هم: آدم، إدريس، نوح، هود، صالح، إبراهيم، لوط، إليسع، ذو الكفل، إلياس، يونس، إسماعيل، إسحاق، يعقوب، يوسف، شعيب، موسى، هارون، داوود، سليمان، أيّوب، زكريّا، يحيى، إسماعيل صادق الوعد، عيسى، محمّد (صلوات الله عليهم أجمعين).

وقد أشار الباري (سبحانه وتعالى) بصراحة في كتابه العزيزإلى أنبياء لم يسمّهم ولم يشرح قصّة حياتهم، فقال:

﴿وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلاً لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾[1].

كما إنّه ذكر قصصاً لبعض الأنبياء دون الإشارة إلى أسمائهم[2].

٣. كتب الأنبياء

قال (سبحانه وتعالى) بعدما ذكر أسماء عدد من الأنبياء والمرسلين:

﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ ءاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ﴾[3].

وتدلّ هذه الآية ـ مضافاً إلى عدد آخر من الآيات القرآنيّة[4] ـ على إعطاء كتاب إلى بعض الأنبياء الإلهيّين، ومن أهمّ هذه الآيات يمكن الإشارة إلى:

﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ * صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾[5].

﴿وَلَقَدْ ءاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾[6].

﴿وَءاتَيْنَا دَاوُدَ زَبُوراً﴾[7].

---

١. سورة النساء: الآية ١٦٤.

٢. انظر: سورة البقرة: الآيات ٢٤٦-٢٥١؛ سورة يس: الآيات ١٣-٣٠.

٣. سورة الأنعام: الآية ٨٩.

٤. انظر: سورة البقرة: الآية ٢١٣؛ سورة آل عمران: الآيتان ٧٩ و٨١؛ سورة مريم: الآية ١٢؛ سورة العنكبوت: الآية ٢٧؛ سورة فاطر: الآية ٢٥؛ سورة الجاثية: الآية ١٦؛ سورة الحديد: الآيتان ٢٥-٢٦.

٥. سورة الأعلى: الآيتان ١٨-١٩.

٦. سورة المؤمنون: الآية ٤٩.

٧. سورة الإسراء: الآية ٥٥؛ سورة النساء: الآية ١٦٣.

﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ... وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ﴾[1].

﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾[2].

وفي رواية سأل أبوذرّ رسول الله ﷺ: كم أنزل الله (سبحانه وتعالى) من كتابٍ؟ فقال:

«مِائَةُ كِتَابٍ وَأَرْبَعَةُ كُتُبٍ، أَنْزَلَ اللهُ (سبحانه وتعالى) عَلَى شَيْثٍ عليه السلام خَمْسِينَ صَحِيفَةً، وَعَلَى إِدْرِيسَ ثَلَاثِينَ صَحِيفَةً، وَعَلَى إِبْرَاهِيمَ عِشْرِينَ صَحِيفَةً، وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَالزَّبُورَ وَالْفُرْقَانَ»[3].

٤. الأنبياء المشرّعون والأنبياء المبلِّغون

إنّ أصحاب الشّرائع والأديان السّماويّة المستقلّة من بين الأنبياء الإلهيّين خمسة أنبياء فقط، وما الباقون إلّا مبلّغون لتلك الأديان، وهؤلاء الأنبياء الخمسة هم: نوح، و إبراهيم، و موسى، و عيسى، و محمّد (صلوات الله عليهم أجمعين). قال الإمام أبوالحسن الرّضا عليه السلام في هذا الصدد:

«إِنَّ كُلَّ نَبِيٍّ بَعْدَ نُوحٍ عليه السلام كَانَ عَلَى شَرِيعَتِهِ وَمِنْهَاجِهِ وَتَابِعاً لِكِتَابِهِ إِلَى زَمَنِ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ عليه السلام، وَكُلُّ نَبِيٍّ كَانَ فِي أَيَّامِ إِبْرَاهِيمَ وَبَعْدَهُ كَانَ عَلَى شَرِيعَتِهِ وَمِنْهَاجِهِ وَتَابِعاً لِكِتَابِهِ إِلَى زَمَنِ مُوسَى عليه السلام، وَكُلُّ نَبِيٍّ كَانَ فِي زَمَنِ مُوسَى وَبَعْدَهُ كَانَ عَلَى شَرِيعَةِ مُوسَى وَمِنْهَاجِهِ وَتَابِعاً لِكِتَابِهِ إِلَى أَيَّامِ عِيسَى عليه السلام، وَكُلُّ نَبِيٍّ كَانَ فِي أَيَّامِ عِيسَى عليه السلام وَبَعْدَهُ كَانَ عَلَى مِنْهَاجِ عِيسَى وَشَرِيعَتِهِ وَتَابِعاً لِكِتَابِهِ إِلَى زَمَنِ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ»[4].

ومن الأمثلة على الأنبياء المُشرِّعين والأنبياء المُبلِّغين، نقول: بُعث النبيّ هود عليه السلام إلى قوم عاد، والنبيّ صالح عليه السلام إلى قوم ثمود، وقد كانا من المبلّغين لشريعة النبيّ نوح عليه السلام. كما بُعث

---

١. سورة المائدة: الآية ٤٦.

٢. سورة إبراهيم: الآية ١.

٣. الصدوق، معاني الأخبار، ص٣٣٣؛ المجلسي، بحار الأنوار، ج١١، ص٣٢.

٤. الصدوق، عيون أخبار الرضا عليه السلام، ج٢، ص٨٠.

النبيّ لوط إلى قومه والنبيّ شعيب إلى أصحاب مدين، وكانا من المبلّغين لشريعة النبيّ إبراهيم الخليل عليه السلام. وكان النبيّ يُونس عليه السلام يُعدّ من المبلّغين لشريعة النبيّ موسى عليه السلام.

وقد أطلق على الأنبياء أصحاب الشّرائع المستقلّة اسم «الأنبياء أولو العزم»[١].

❋ الأسئلة

١. اذكر الطرق الصّحيحة لمعرفة الأنبياء السّابقين.

٢. ماذا ورد في القرآن الكريم والرّوايات حول كتب الأنبياء الماضين؟

٣. عدّد الأنبياء أولي العزم، واذكر لماذا أطلقت عليهم هذه التّسمية؟

٤. وضّح الفرق بين الأنبياء المُشرّعين والأنبياء المُبلِّغين و قَدِّم بعض الأمثلةِ لِكليهما.

❋ موضوع للبحث

- كم عدد الأنبياء الّذين وردت أسماؤهم في القرآن الكريم؟ وإلى أيّ المناطق في العالم بُعثوا؟

---

١. ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ (سورة الأحقاف: الآية ٣٥)؛ الكليني، الكافي، ج١، ص١٧٥ و ج٢، ص١٧.

٢٦

إثبات نبوّة نبيّ الإسلام (١)

بعد التعرّف إلى صفات الأنبياء الإلهيّين، يصل الدّور إلى بحث صفات نبيّ الإسلام ونبوّته ورسالته. ومن هنا، سنتعرّف في هذا الدّرس على نبذة من حياته والأدلّة على نبوّته. و نبدأ بالبحث عن معجزات النبيّ ﷺ و عن إعجاز القرآن خاصّة.

نبذة عن شخصيّة نبيّ الإسلام

قبل أكثر من ألف وأربع مئة عام وفي اليوم السّابع عشر من ربيع الأوّل (الموافق للخامس والعشرين من أبريل/ نيسان سنة ٥٧٠ ميلادي)، ولد الطّفل محمّد في مكّة، دون أن يراه والده عبد الله الّذي توفّي في يثرب (المدينة) في طريق عودته من الشّام، وأمّه هي آمنة بنت وهب بن عبد مناف. وبمقتضى الأعراف والتّقاليد المتّبعة لدى الأسر العريقة والكبيرة في مكّة، سلّمت آمنة طفلها العزيز محمّد إلى مرضعة باسم حليمة السّعديّة ليترعرع وينشأ في البادية الواسعة والطّبيعة السّليمة، وما إن بلغ محمّد الخامسة من عمره حتّى أعادته حليمة إلى مكّة نتيجة إصرار أمّه، وبعد مضيّ عامين توفّيت آمنة أيضاً وانتقل محمّد إلى حِجْر جدّه عبد المطّلب الّذي تكفّل بتربيته، لكنّه توفّي بعد عامين أيضاً، فاضطرّ محمّد ذو الثّمانية أعوام إلى الانتقال إلى بيت عمّه أبوطالب ليعيش تحت كنفه.

اتّسم محمّد في فترة الطّفولة والمُراهقة بالعفّة والاستقامة والوقار والشّرف والعزّة والأمانة الّتي ليس لها نظير إلى درجة أنّه أثار إعجاب الجميع واشتهر بين النّاس بـ «محمّد الأمين».

ولمّا بلغ سنّ العشرين شارك في حلف الفضول[١]، لكنّه كان قبل ذلك يحنو كثيراً على الفقراء والمحرومين والأرامل والأيتام، ولا يتوانى عن مساعدتهم وتقديم العون لهم؛ فكان انضمامه إلى هذا الحلف بهدف إعانة المساكين ورفع الظُّلم عن المَظلومين.

ولمّا عرف القاصي والدّاني أمانة محمّد واشتهر ذلك على الألسن، طلبت منه خديجة بنت خويلد، وهي إمرأة ثريّة من مكّة ذات عفّة وتَقوى، أن يتاجر بأموالها ويَذهب إلى الشّام، ويكون له نصيب من تلك التّجارة، فوافق محمّد على طلبها، ثمّ إنّها شُغفت بصدقه وأمانته وما لبثت أن عرضت عليه الزّواج منها و كان عمر محمّد آنذاك خمسة وعشرون عاماً. وعلى الرّغم من وجود ثروة خديجة الكبيرة تحت تصرّف محمّد، لكنّه لم يفعل إلّا الخير ومساعدة الفُقراء والمسَاكين، وكان يقضي جلّ أوقات فراغه خارج مكّة، فَيَجلس ساعات طويلة في غار حرّاء ليتدبّر في آثار صنع الله (سبحانه وتعالى) ويتأمّل في عجائب عالم الخلقة ويناجي ربّه.

قضى محمّد سنوات على هذا المنوال، إلى أن حلّ السّابع والعشرون من رجب سنة ٤٠ من عام الفيل (الموافق لسنة ٦١٠ ميلادي)، وبينما كان محمّد الأمين يتعبّد ويتضرّع إلى ربّه في غار حِراء، نزل عليه الوحي جبرائيل بآيات من القرآن الكريم، وأمره أن يقرأها، وكان عمر محمّد إذ ذاك أربعين عاماً.

دلائل نبوّة نبيّ الإسلام

تعرّفنا سابقاً، في بحث «سُبُل معرفة الأنبياء»، إلى الطّرق الكفيلة بمعرفة النبيّ وكيفيّة تمييزه عن دعاة النبوّة الكذّابين. وسنسعى هنا إلى تطبيق تلك السّبل على النبيّ الكريم ﷺ.

١. معجزة القرآن الكريم

مع وجود معجزات كثيرة لنبيّ الإسلام ﷺ بحسب الرّوايات والوثائق التاريخيّة، سنتحدّث عنها في محلّها، غير أنّ معجزته الخالدة هي القرآن الكريم، وسنبحث في هذا الدّرس دعوى الإعجاز القرآنيّ ووجوه الإعجاز في هذا الكتاب السّماويّ.

---

١. حلف الفضول هو أحد أحلاف الجاهلية التي عُقدت بين عشائر من قبيلة قريش، يقضي بالدفاع عن حقوق الضعفاء والمحرومين، وأن لا يُظلم أحد في مكّة إلّا ردّوا ظلامته. ومن أهمّ محاور هذا الحلف، الدفاع عن مكّة وسكّانها ضدّ الأعداء.

يعدّ القرآن الكريم وثيقةٌ خالدة دالّة على صواب مُدَّعَى النبوّة من النبيّ الأكرم ﷺ، ولا ريب في أنّ هذا الكتاب السّماويّ أفضل من سائر المعجزات من الأنبياء الإلهيّين؛ لأنّه مُرتبطٌ بروح النبيّ وأفكاره من جهة، وأبديّ وسرمديّ من جهة أخرى. مضافاً إلى أنّه مُنذ أن نزل إلى يومنا هذا وهو يتحدّى الجميع ويدعوهم إلى الإتيان بمثله وهم عاجزون عن ذلك، وقد ورد هذا التحدّي بصورة صريحة في مواضع متعدّدةٍ من القرآن، منها:

﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾[١][٢].

١.١. القرائن والشّواهد على الإعجاز القرآنيّ

واجه النبيّ ﷺ منذ اللّحظات الأولى لإطلاق دعوته أعداءً متعنّتين وحاقدين ولا يألون جُهداً في محاربة هذا الدِّين الإلهيّ، فبعدما يَئسوا من تأثير التّهديد والوعيد عقدوا العَزم على قتل النبيّ الكريم ﷺ؛ بَيْدَ أنّ هذه المؤامرة باءت بالفشل أيضاً بواسطة التّدبير الإلهيّ وعبر الهجرة النبويّة إلى المدينة في جنح الظّلام، وبعد الهجرة قضى النبيّ ﷺ ما تبقى من عمره الشّريف في حروب متعدّدة خاضها ضدّ المشركين وعملائهم من اليهود.

ومنذ ذلك الحين، سعى أعداء الإسلام باستمرارٍ إلى التربّص بالدّين الإسلاميّ وتحيّن الفرص للقضاء عليه بطرق مختلفة، من بينها محاولة الإتيان بكلام مشابه لما جاء به القرآن الكريم لإبطال التحدّي المذكور، ولعلّ أوّل هذه الجهود تمثّل بدعوى مُسيلمة الكذّاب النبوّة في عصر النبيّ ﷺ والّتي كان مصيرها استهزاء الآخرين والتندّر به، خصوصاً بعدما حاول الإتيان بسورة محاكية لسور القرآن الكريم، وهي: الفيلُ، ما الفيلُ، وما أدراكَ ما الفيلُ، لهُ خرطومٌ طويلُ[٣].

وفي عصرنا الحالي، وحيث إنّ القوى الاستكبارية في العالم تعتبر الدِّين الإسلاميّ أكبر

---

١. سورة الإسراء: الآية ٨٨؛ وانظر كذلك: سورة هود: الآيتان ١٣ و١٤؛ سورة البقرة: الآية ٢١.

٢. انظر: مكارم الشيرازي، پنجاه درس اصول عقايد براى جوانان، الدرس الخامس.

٣. انظر: ابن كثير، تفسير قرآن العظيم، ج٢، ص٤٢٦.

خطر يهدّد سلطتها الجائرة، وقد عقدت العزم على محاربته بكلّ ما أوتيت من قوّة، وسخّرت جميع الطاقات والإمكانات الماليّة والعلميّة والسّياسيّة والإعلاميّة لهذا الغرض، فمن الطبيعيّ أن تسعى إلى تأليف كتاب مشابه للقرآن الكريم والتّرويج له عن طريق وسائل الإعلام العملاقة الّتي بحوزتها.

وفي هذا السّياق، عَمَدت زمرةٌ من المسيحيّين المتواجدين في أمريكا مؤخّراً إلى تأليف كتاب معارض للقرآن تحت عنوان «الفرقان الحقّ». بدأت باكورة هذا المشروع عام ١٩٩٩م من خلال نشر سورة ملفّقة شبيهة بسور القرآن الكريم على شبكة الانترنت، حتّى بلغ الأمر بهم إلى تأليف كتاب كامل على هذا الغرار يحاكي القرآن الكريم في الأسلوب والكلمات والآيات والخطّ القرآنيّ أيضاً. والّذي يبدو أنّ القائمين على هذا المشروع الفتيّ لا زالوا في طور الاختبار له، فلا يرون الظّروف الرّاهنة مُؤاتية لنشره وتوزيعه على نطاق واسع في البلدان الإسلاميّة، وإنْ وَجَدَ طريقه بسرعة إلى بعض المكتبات الكبرى والمعروفة في العالم العربيّ والمنتديات الثقافيّة والمراكز التعليميّة والفنّية.

لا ريب في أنّ قليلاً من التأمّل في وجوه الإعجاز القرآنيّ، وتطبيق العبارات الواردة في مثل هذه المؤلّفات على تلك الوجوه، يكشف بوضوح عن أنّ هذه الأعمال البشريّة لا يمكن أن تجاري الآيات السّماويّة في كتاب الله المجيد، وأنّ هذه المساعي البائسة سيكون مصيرها الفشل الذّريع[١].

في ضوء هذه النّقاط، سيقطع كلّ إنسان عاقل وباحث عن الحقيقة بأنّ القرآن الكريم كتاب استثنائيّ غير قابل للتقليد والمحاكاة، فلن يستطيع أيّ فرد أو جماعة الإتيان بمثله مهما تدرّبوا وتمرّنوا. وعلى هذا الأساس، فالقرآن الكريم شامل لكلّ خصائص المُعجزة (خارق للعادة، إلهي وغير قابل للتّقليد، دالّ على صحّة النبوّة)؛ ولذا فهو خير دليل على صدق دعوى نبوّة النبيّ الأكرم ﷺ وصواب الدِّين الإسلاميّ المقدّس.

نعم، من أعظم النِّعم الإلهيّة على المجتمع الإنسانيّ أنّه (سبحانه وتعالى) أنزل هذا الكتاب السّماويّ الشّريف بحيث يكون معجزة خالدة مدى الدّهر ودليلاً على صدق دعوى النبوّة

---

١. انظر: نقد كتاب الفرقان الحقّ من منطلق وجوه الإعجاز القرآنيّ.

وصوابها، ذلك الدّليل الّذي لا يحتاج إدراكه وفهمه إلى الدّراسة والتخصّص؛ بل بوسع كلّ فرد فهمه واستيعابه والتّصديق به[١].

٢.١. وجوه الإعجاز القرآنيّ

ذكر علماء الإسلام وجوهاً كثيرة للإعجاز القرآنيّ، نشير هنا إلى أهمّها[٢]:

أ) الإعجاز القرآنيّ من حيث الفصاحة والبلاغة: الوجه الأوّل من وجوه الإعجاز القرآنيّ هو فصاحته وبلاغته الّتي لا تُدانى، بمعنى أنّ الله (سبحانه وتعالى) قد اختار لبيان مقاصده -في أيّ مقام- أفصح الألفاظ وأجمل التراكيب الّتي تُوصل المعاني إلى المخاطب بأحسن وجهٍ ممكن. وممّا لا ريب فيه أنّ اختيار مثل هذه الألفاظ والتراكيب المتناسبة مع معاني رفيعة ودقيقة ليس بمقدور شخصٍ إلّا إن كان له إشراف تامّ على جميع خصائص الألفاظ ودقائق المعاني والعلاقات المُتبادلة بينها؛ ليتسنّى له اختيار أفضلها بعد أخذه بنظر الاعتبار جميع أبعادها ورعاية ما يقتضيه المقام ومقتضى الحال. ولا غرو أنّ هذا الإشراف العلميّ والإحاطة التامّة لا يتيسّر لأحد دون الوحي والإلهام الغيبيّ[٣].

ولمّا كان العرب في عصر الرّسالة عباقرة في فنّ الخطابة وأرباباً في اللّغة والبيان، اكتشفوا بقريحتهم الفطريّة أنّ كلام النبيّ ﷺ ليس من جنس كلام البشر؛ وهذا ما دعا كثيراً منهم إلى الإيمان برسالة نبيّ الإسلام ﷺ بعد الاستماع إلى الكلام الإلهيّ. فعلى سبيل المثال، طلب الوليد بن المُغيرة من رسول الله ﷺ أن يتلو عليه من الآيات القرآنيّة، فتلا عليه آيات من سورة «فصّلت»، ولمّا بلغ إلى قوله (سبحانه وتعالى): ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ وسمعه، اقشعرّ جلده وقامت كلّ شعرة في رأسه ولحيته، ثمّ قام ومضى إلى بيته ولم يرجع إلى قريش، ولمّا سألوه عن سبب اعتزاله في بيته ردّ قائلاً: سمعت كلاماً صعباً تقشعرّ منه الجلود لا يقوله بشر[٤].

---

١ . مصباح اليزدي، آموزش عقائد، ص٢٦٢.

٢ . من يرغب بمزيد من المطالعة والمعلومات في هذا المجال، بوسعه الرّجوع إلى الكتب والمصادر المذكورة في هذا البحث.

٣ . مصباح اليزدي، آموزش عقائد، ص٢٦٣.

٤ . انظر: الطبرسي، إعلام الورى بأعلام الهدى، ص٤١؛ السبحاني، اصول عقايد اسلامى، ص٦٣.

ب) الإعجاز القرآنيّ من حيث الإنباء بالغيب: الوجه الثّاني من وجوه الإعجاز القرآنيّ هو إنباؤه بالغيب؛ حيث ورد في القرآن الكريم زهاء ثلاثون نبأً غيبيّاً تحقّق على أرض الواقع.

وعلى هذا الأساس، تحدّث القرآن عن سلسلة من الأحداث الّتي لم يدلّ قبل ذلك عليها أدنى شاهد؛ بل ربّما كانت توجد قرائن وشواهد على خلافها. فعلى سبيل المثال، من جملة ما أنبأ القرآن عن الغيب يمكن الإشارة إلى نبأ غلبة الرّوم للإيرانيّين في سورة الرّوم الّذي أنبأ به القرآن الكريم قبل وقوعه بسنين[١]. وكذلك نبأ انتصار المسلمين على المُشركين في غزوة بَدر؛ حيث تحقّقت الغلبة للمسلمين بعد مقتل ٧٠ مقاتلاً وأسر ٧٠ آخرين من جيش المشركين[٢].

ج) الإعجاز القرآنيّ من حيث التّقنين: الوجه الآخر من وجوه الإعجاز القرآنيّ هو القوانين الّتي جاء بها؛ حيث نرى أنّ شخصاً أُمّيّاً ـ على حدّ وصف القرآن نفسه ـ جاء بقوانين مختلفة في القضايا الاجتماعيّة والاقتصاديّة والسياسيّة متطابقة تطابقاً تامّاً مع الغاية من خلق الإنسان ومصالحه. فمثلاً، حرّم القرآن النّظام الرّبويّ الّذي يعدّ نظاماً ظالماً للبَشر، والشّاهد على ذلك ما يراه النّاس من مفاسد في العصر الحالي نتيجة ما يكتنزه بعضهم على حساب بعضهم الآخر ونهب الأثرياء لحقوق الفقراء. كما إنّ أحكام الإسلام في مجال النهوض بنظام الأسرة، بدءاً من أحكام النّكاح وانتهاءاً بتحريم الزّنا وسائر العلاقات غير الشّرعيّة، لهي من أرقى القوانين في العالم، ويمكن لمس أهميّة هذه القوانين و إدراك الجانب الإعجازي فيها من خلال ملاحظة انهيار نظام الأسرة في الغرب وأزمة الأخلاق الجنسيّة الّتي يعاني منها النّظام الغربيّ المُتداعي.

كما إنّ الإسلام حرّم تعاطي الخمر ولعب القمار ودعا إلى الابتعاد عن النّجاسات والقذارات، وهذا يصبّ في مصلحة الفرد والمجتمع، وكذا الحال في القوانين الأخرى. وهذا يكشف عن أنّ النبيّ ﷺ قد أخذ هذه القوانين المُنسجمة مع جميع الظّروف الزمانيّة والمكانيّة ومتناسبة مع الحضارات الإنسانيّة المختلفة من مصدر العلم والمعرفة، و إلّا لما اتّسمت بهذا القدر من الانسجام والتوافق.

د) الإعجاز القرآنيّ من حيث العلوم والقوانين الطبيعيّة: صحيح أنّ القرآن الكريم ليس كتاب

---

١ . انظر: سورة الروم: الآيات ٢-٥.

٢ . انظر: سورة الأنفال: الآية ٧.

علوم طبيعيّة أو طبّ أو علم نفس أو علوم رياضيّة؛ وإنّما هو كتاب هداية وتهذيب للإنسان، ولا يتوانى في بذل الغالي والنّفيس في سبيل ذلك، لكنّه أشار في معرض بلوغ هذا الهدف إلى بعض القضايا في العلوم الطبيعيّة وأسرار الخِلقة وعجائب الكون، خصوصاً في مباحث التّوحيد؛ حيث أماط اللّثام عن أسرارٍ في عالم الخلقة وكشف النّقاب عن أمور لم تكن معروفة لدى علماء ذلك العصر وفي تلك البيئة.

وهذا البيان القرآنيّ يُشَكّل مجموعة من القضايا يطلق عليها «المعجزات العلميّة في القرآن»، وسنشير ها هنا إلى عدد من هذه المعجزات:

- القرآن وقانون الجاذبيّة: كشف القرآن الكريم عن قانون الجاذبيّة قبل أكثر من ألف سنة وقبل اكتشاف نيوتن له، فقال:

﴿اَللّٰهُ الَّذِى رَفَعَ السَّمٰوٰاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهٰا﴾[١].

وورد في حديث عن الإمام علي بن موسى الرّضا عليه السلام تعليقاً على هذه الآية الشريفة:

«أَلَيْسَ الله يَقُولُ: بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهـا؟ فَقُلْتُ: بَلَى. فَقَالَ: ثَمَّ عَمَدٌ وَلَكِنْ لَا تَرَوْنَهَا»[٢].

فهل ثمّة تعبير دالّ على قوة الجاذبيّة لعموم النّاس في اللّغة العربيّة أوضح من العَمَد غير المرئيّة؟

- اكتشاف حركة الأرض حول نفسها وحول الشّمس: المتعارف أنّ أوّل شخص اكتشف حركة الأرض حول نفسها هو العالم الإيطالي غاليليو الّذي عاش قبل قرابة أربعة قرون، وكان العلماء قبل ذلك لا يجرؤون على مخالفة هيئة بطليموس وفرضيّتها القائلة: إنّ الأرض تُمثّل مركز العالم وجميع الكواكب الأخرى تدور حولها.

ولكن حينما نراجع القرآن الكريم نجد أنّه تحدّث عن حركة الأرض بصورة واضحة، فقال:

﴿وَتَرَى الْجِبٰالَ تَحْسَبُهٰا جٰامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحٰابِ صُنْعَ اللّٰهِ الَّذِىٓ اَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ اِنَّهُ خَبِيرٌ بِمٰا تَفْعَلُونَ﴾[٣].

---

١. سورة الرعد: الآية ٢.

٢. القمي، تفسير القمي، ج٢، ص٣٢٨؛ العياشي، تفسير العياشي، ج٢، ص٢٠٣.

٣. سورة النمل: الآية ٨٨.

تناولت الآية المتقدّمة الحديث عن حركة الجبال بصراحة وإن كنّا نظنّ أنّها ساكنة وغير متحرّكة، وتشبيه حركتها بحركة السّحاب يُشيرإلى سرعة الحركة ومرونتها وهدوئها، والتعبير بحركة الجبال بدلاً من حركة الأرض إنّما هو لبيان عظمة هذا الموضوع؛ لأنّه لا يخفى أنّ الجبال لا تتحرّك وحدها ودون حركة الأرض؛ بل إنّ حركتها عين حركة الأرض.

والآن تخيّلوا الموقف، في الوقت الّذي أكّدت جميع الأوساط العلميّة والنّاس الاعتياديّين ـ أيضاً ـ في ذلك العصرعلى نظريّة سكون الأرض وحركة الشّمس وجميع الكواكب السّماويّة حولها، ألا يعدّ القول بحركة الأرض بهذه الصّراحة إعجازاً علميّاً؟ خاصّة وأنّ من جاء بهذا الكلام شخص لم يدرس على يد أحد مطلقاً، وإنّما بُعث من بيئة فاقدة للنّظام التعليميّ أساساً وتعدّ من أكثر مناطق العالم تخلّفاً من حيث العلم والثقافة[1].

جدير بالذّكر أنّ انطباق بعض الآيات القرآنيّة على عدد من اكتشافات العلوم البشريّة لا يعني بالضّرورة تأييد جميع النظريّات العلميّة؛ لأنّ هذه النظريّات قد تكون عُرضة للتّغييرأو التّكامل في مسيرة التقدّم العلميّ. بناءً على ذلك، لا يمكن شرح الآيات القرآنيّة في ضوء تلكم النظريّات بسبب عدم كفاءة النظريّات المذكورة، ومن الحريّ بعلماء الإسلام تكثيف جهودهم وإجراء دراسات علميّة دقيقة في مضامين القرآن الكريم بصورة مستقلّة؛ بُغية الكشف عن العلوم الموجودة في هذا الكتاب السّماوي.

---

١ . مكارم الشيرازي، پنجاه درس اصول عقايد براى جوانان، الدّرس الثامن.

❀ الأسئلة

١. اذكر إحدى آيات التحدّي في القرآن الكريم.

٢. ما الدليل على قولنا: ليس لأحدٍ الإتيان بآيات مشابهة للآيات القرآنيّة؟

٣. اشرح الإعجاز القرآنيّ في مجال التّقنين.

٤. اذكر مثالاً على إنباء القرآن الكريم بالغيب من أجل إثبات الإعجاز القرآنيّ.

٥. اذكر أمثلة من الإعجاز العلميّ للقرآن الكريم و بيّن كيفية دلالة هذه الشواهد على صدق مدّعَى النبوّة.

❀ موضوعات للبحث

- أحصِ الآيات القرآنيّة الواردة في مجال التحدّي، ثمّ بيّن ما الفرق بين مضمون هذه الآيات؟

- اذكر أمثلة أخرى حول الإعجاز العلميّ في القرآن الكريم من خلال مراجعة كتب ومقالات أخرى.

٢٧

إثبات نبوّة نبيّ الإسلام (٢)

ذكرنا في الدّرس السّابق أنّ القرآن الكريم أحد الأدلّة على نبوّة النبيّ الكريم ﷺ، ثمّ تطرّقنا إلى وجوه الإعجاز القرآنيّ. وفي هذا الدّرس سنتعرّف على سائر أبعاد الكلام الإلهيّ، ونبيّن المعجزات الأخرى للنبيّ.

هـ) الإعجاز القرآنيّ من حيث المعارف الإلهيّة: المقصود بالمعارف الإلهيّة عدد من البحوث الّتي طرحها القرآن الكريم حول التّوحيد والكون والإنسان والنبيّ ومجالات أخرى، وهي بحوث عميقة ودقيقة تهتمّ بأبرز أسئلة البشر الّتي أثارت إعجاب المفكّرين في العالم.

كانت الحجاز في ذلك العصر من أشدّ مناطق العالم تخلّفاً باعتراف المؤرّخين، حتّى وُصف سكّان العصر الجاهلي بالمتوحّشين أو شبه المتوحّشين؛ حيث كانوا يعبدون الأصنام ويئدون البنات ويعتبرون الله كواحد من النّاس، ولم يكن فيهم متعلّمون إلّا أشخاص يعدّون على الأصابع في مكّة فقط.

نعم، في مثل هذه البيئة نهض شخص لم يتعلّم على يد أستاذ، ولم يدخل مدرسة ولا مكتب للتعليم، وجاء بكتاب يحتوي على علوم ساطعة ومعارف نورانيّة في جميع المجالات المعرفيّة وفي أرقى المستويات، إلى درجة أنّ العلماء والمفكرين وبعد أربعة عشر قرناً لا زالوا مشغولين بتفسيره، وفي كلّ يوم يكتشفون حقيقة جديدة من حقائقه.

ولو أنّ عالِماً مُنصفاً قارن بين مسألة التّوحيد في القرآن الكريم في أبعادها المختلفة فقط، وبين التثليث الّذي يقول به المسيحيون، لأدرك مدى البون الشّاسع بين المعارف التوحيديّة

المطروحة في القرآن وبين ما تذهب إليه المسيحيّة اليوم، فالتّثليث لا يفهمه المسيحيّون أنفسهم؛ لأنّهم يعتبرون أنفسهم موحّدين من جهة وقائلين بالتّثليث من جهة ثانية، زاعمين عدم التّنافي بين التّوحيد والتّثليث، في حين أنّ الإسلام نادى منذ انطلاقه بنداء: «قُولُوا لَا إِلَهَ إِلّا اللهُ تُفْلِحُوا»[١]، و ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾[٢].

يقول المسيحيون: إنّ حقيقة الله واحدة مكوّنة من الله الأب والله الابن وروح القدس؛ وعندئذٍ كيف يمكن تصوّر أنّ الله (سبحانه وتعالى) اقتطع جزءاً منه ووضعه في رحم السيّدة مريم؛ لأنّ حقيقة الابن أنّه مركّب من جزء من الأب وجزء من الأمّ. قارنوا هذه العقيدة مع الآيات القرآنيّة في هذا المجال، خصوصاً قوله (سبحانه وتعالى): ﴿مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَداً﴾[٣]، وقوله: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ﴾[٤].

و) **الإعجاز القرآنيّ من حيث المبادئ الأخلاقيّة:** ينبغي أن تكون القوانين الأخلاقيّة بحيث تأخذ بيد الإنسان إلى السّعادة في الدّارين، بعبارة مغايرة: لا بدّ من أن تحيي لديه الفضائل الأخلاقيّة والسجايا الإنسانيّة؛ وبالتالي، تجعله بصورة إنسان كامل، والإنسان الكامل هو من بلغ الرّشد والكمال في الجوانب المادّيّة والمعنويّة معاً.

ثمّ إنّ الأخلاق الإسلاميّة تدعو إلى الاستفادة من الطيّبات في الحياة المادّيّة، وفي الوقت ذاته لا تغفل عن الجوانب المعنويّة، فتنشّئ الإنسان في هذين المجالين معاً. فلا يخفى أنّ التعاليم الدينيّة لا تعتبر الإنسان مخلوقاً يهتمّ بالأمور المادّيّة فحسب بحيث لا يكون همّه إلّا اللذّات الدنيويّة، ولا مخلوقاً لأجل الأمور المعنويّة الصّرفة بحيث يترك الأمور الدنيويّة نهائيّاً؛ بل لا بدّ له من الجمع بين الجانبين المادّيّ والمعنويّ ورعايتهما معاً. ومن هذا المُنطلق، نهى القرآن الكريم الإنسان عن الاعتزال والإقلاع عن الدّنيا تماماً، ودعاه إلى الجدّ والعمل والمثابرة من جهة، والقيام بأعمال الخير والإحسان في سبيل الله لا في سبيل الحصول على المنافع

---

١ . المجلسي، بحار الأنوار، ج١٨، ص٢٠٢.

٢ . سورة الإخلاص: الآية ١.

٣ . سورة الجنّ: الآية ٣.

٤ . سورة الإخلاص: الآيتان ٣-٤.

المادّية، فصار شعار المسلمين هو: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْأٓخِرَةِ حَسَنَةً﴾[١].

ز) الأعجاز القرآنيّ من حيث الانسجام الداخليّ وعدم التناقض: إنّ الإنسان موجود تكاملّي، ينتقل من مرحلة النّقص إلى مرحلة الكمال بصورة تدريجيّة، فما إن تخالجه فكرة جديدة أو يدور في خُلده أمر مستحدث حتّى تتبادر إليه سلبيّاته ونقائصه، ومن ثمّ يحاول تتميمه وترميمه واختيار الأمر الأكثر كمالاً.

في هذا السّياق، قصّ نبي الإسلام ﷺ القرآن الكريم على النّاس على مدى ٢٣ عاماً، وفي ظروفٍ وأوضاع مُتباينة؛ لكنّه لم يَحِدْ عن المسار الثّابت له، فكان ما قاله لهم في الأيّام الأخيرة ما ذكره لهم نفسه في الأيّام الأولى. نعم، لو ألّف شخص كتاباً خلال أمد قصير وضمن ظروف متكافئة لأمكنه تلافي وجود تناقض فيه؛ بيد أنّ الرّسول الأعظم ﷺ استطاع الإتيان بكتاب متّسق وليس فيه أدنى التباس أو تناقض خلال فترة طويلة وظروفٍ متباينة قضاها بين مكّة والمدينة، تخلّلتها الحروب والنّزاعات، إلى جانب مسؤوليّاته الأخرى.

وتتجلّى أهميّة هذا الموضوع أكثر فأكثر عندما نعلم أنّ القرآن الكريم تناول البحث في موضوعات متنوّعة تربو على الخمس مئة موضوع، دون أيّ أثر للتناقض، وإن دلّ هذا على شيءٍ فإنّما يدلّ على الإسناد الربّانيّ لمن جاء بهذا الكتاب وصيانته من الزّلل والخطإ بواسطة قوّة خارقة. وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا الإعجاز بقوله:

﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافاً كَثِيراً﴾[٢].

ح) الإعجاز القرآنيّ من حيث بيان القصص وتاريخ الأنبياء[٣]: إنّ القرآن الكريم ليس كتاباً تاريخيّاً، غير أنّه حكى قصص الأقوام السّالفة لأخذ العبرة منها، ولمّا أراد شرح سيرة حياة بعض الأنبياء الإلهيّين نحو نوح وإبراهيم ولوط وداوود وسليمان ﻹ، تحدّث عنهم بما يليق بشأنهم ومقامهم من أنّهم أنبياء لله (سبحانه وتعالى) وبما يتطابق مع المبادئ العلميّة والحقائق التاريخيّة؛ بينما نُسبت إلى رجال الله والأنبياء الإلهيّين في الكتب الدينيّة القديمة، ومنها التّوراة والإنجيل

---

١. سورة البقرة: الآية ٢٠١.

٢. سورة النساء: الآية ٨٢.

٣. السبحاني، اصول عقايد اسلامى، ص٦٢.

المحرّفان، أعمال قبيحة تقشعرّ لها الأبدان ويترفّع عن سماعها الإنسان من قبيل الخداع والكذب والسرقة وغيرها[١].

ويستفاد من هذه المقارنة بين القرآن والكتب الدينيّة القديمة أنّ القرآن لم يدوَّن من تلك الكتب أو من أقوال الآخرين؛ بل لا مصدر لقصص الأنبياء في القرآن سوى الوحي الإلهيّ.

٢. المعاجز الأخرى لنبيّ الإسلام

فضلاً عن معجزة القرآن الكريم، توجد معاجز أخرى كثيرة للنبيّ الأكرم ﷺ وردت الإشارة لها في المصادر التاريخيّة والرّوايات المأثورة عن الأئمّة المعصومين عليهم السلام[٢].

وسنشير هنا إلى إحدى المعاجز فقط والّتي وردت الإشارة لها بصراحة في القرآن الكريم، وهي المُعجِزة المعروفة بـ«شقّ القمر»؛ حيث قال (سبحانه وتعالى) في سورة القمر:

﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ * وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ * وَكَذَّبُوا۟ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ﴾[٣].

ويستفاد من هذه الآيات النّقاط الآتية:

أ) أنّ القمر انفلق إلى فلقتين عظيمتين في حياة رسول الله ﷺ، فقوله (سبحانه وتعالى): ﴿وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾ صريح في هذا المجال.

ب) كان انشقاق القمر حدثاً عظيماً، فاعتبره (سبحانه وتعالى) آية ومعجزة إلهية قائلاً: ﴿إِن يَرَوْا۟ ءَايَةً﴾.

ج) أنّ بعض من شاهد انشقاق القمر اعتبره سحراً: ﴿وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾ وبعضهم ذهب إلى تكذيب هذه المُعجزة الإلهيّة: ﴿وَكَذَّبُوا۟﴾.

وطبقاً للرّواية المشهورة بين العامّة والخاصّة - وادّعى بعضهم التواتر عليها - حول شأن

---

١. انظر: التوراة، سفر التكوين، الفصل التاسع عشر، الجمل ٣٢-٣٧ والكتاب الأوّل للملوك؛ إنجيل متّى، الفصل ١٧؛ إنجيل يوحنا، الفصل الثاني.

٢. انظر على سبيل المثال: المجلسي، بحار الأنوار، ج ١٧ و١٨، أبواب معجزاته ﷺ.

٣. سورة القمر: الآيات ١-٣.

نزول هذه الآيات، أنّ أهل مكّة كسائر الأمم الّذين سبقوهم ما إن يروا المعجزات الطبيعيّة حتّى يحملوها على السّحر. وفي هذا الخصوص، روي أنّ عدداً من رجال قريش اجتمعوا وقرّروا أن يطلبوا من النبيّ ﷺ أن يُريهم معجزة في السّماء، فجاؤوا له وقالوا: إن يكن لك عند ربّك قدر فأمر القمر أن ينقطع قطعتين، فقال لهم: إن فعلت ذلك تؤمنون بالله؟ قالوا: بلى.

وفي ليلة أربعة عشر من ذي الحجّة، خرج معهم إلى الصحراء، ورفع رأسه إلى السّماء وأمر القمر أن ينقطع قطعتين، فانفلق إلى نصفين، ورسول الله ﷺ ينادي: يا فلان يا فلان! اشهدوا. فقالوا: يا محمد! حين تُقْدِمُ سُفَّارُنَا من الشّام واليمن فنسألهم ما رأوا في هذه الليلة، فإن يكونوا رأوا مثل ما رأينا علمنا أنّه من ربّك، وإن لم يروا مثل ما رأينا علمنا أنّه سحر سحرتنا به. وبعدما قدم المسافرون من البلدان الأخرى سألوهم فذكروا أنّهم رأوا مثل ما رأوا؛ لكنّهم لم يبرحوا العناد والشقاق[1].

وقد أشكل بعضهم على حادثة شقّ القمر بأنّه لو كانت هذه الحادثة حقيقيّة لدوّنت في التواريخ العالميّة وأشير لها فيها أيضاً ولمّا انحصر ذكرها في المصادر الإسلاميّة فقط؛ لما لها من أهميّة كبيرة وكونها خارقة للعادة، وقد أجيب عن هذا الإشكال بأجوبةٍ مختلفة في كتب التّفاسير، وسنشير باختصار إلى ما أورده صاحب تفسير الأمثل في هذا الخصوص:

أ) يجب الالتفات إلى أنّ القمر يُرى في نصف الكرة الأرضيّة فقط، وليس في جميعها؛ ولذا فلا بدّ من إسقاط نصف مجموع سكان الكرة الأرضيّة من إمكانيّة رؤية حادثة شقّ القمر وقت حصولها.

ب) في نصف الكرة الأرضيّة الّتي يُرى فيها القمر فإنّ أكثر النّاس في حالة سُبات؛ لأنّ وقت حدوث هذه الظاهرة كان بعد منتصف الليل.

ج) لا يوجد ما يمنع من أن تكون الغيوم قد حجبت قسماً كبيراً من السّماء، وبذلك يتعذّر رؤية القمر لسكّان تلك المناطق.

د) إنّ الحوادث السّماويّة الّتي تلفت انتباه النّاس تكون غالباً مصحوبة بصوت أو عتمة، كما

---

١. انظر: القمي، تفسير القمي، ج٢، ص٣٤٠-٣٤١؛ الفتال النيشابوري، روضة الواعظين، ج١، ص٦٣.

في الصاعقة الّتي تقترن بصوت شديد أو الخسوف والكسوف الكليّين الّذي يقترن كلّ منها بانعدام الضّوء تقريباً ولمدة طويلة.

هـ) مضافاً إلى ذلك، فإنّ الوسائل المستخدمة في تسجيل ونشر الحوادث التأريخيّة في ذلك الوقت، ومحدوديّة الطّبقة المتعلّمة، وكذلك طبيعة الكتب الخطيّة الّتي لم تكن بصورة كافية كما هو الحال في هذا العصر؛ حيث تنشر الحوادث المهمّة بسرعة فائقة بمختلف الوسائل الإعلاميّة في كلّ أنحاء العالم عن طريق الإذاعة والتلفزيون والصّحف وغيرها، كل هذه الأمور لا بدّ من أخذها بنظر الاعتبار في محدوديّة الاطلاع على حادثة «شقّ القمر».

ومع ملاحظة هذا الأمر والأمور الأخرى السّابقة، فلا عجب أبداً من عدم تثبيت هذه الحادثة في التواريخ غير الإسلاميّة، ولا يمكن اعتبار ذلك دليلاً على نفيها[1].

❁ الأسئلة

١. كيف تُثبّت المعارف الإلهيّة للقرآن الكريم أنّه معجزة؟

٢. اشرح المراد من الإعجاز القرآنيّ من حيث المبادئ الأخلاقيّة.

٣. كيف يدلّ عدم التّهافت أو التّخالف في المضامين القرآنيّة على الإعجاز؟

٤. كيف يستفاد من بيان القصص القرآنيّ وتاريخ الأنبياء على الإعجاز؟

٥. اذكر عدداً من معاجز نبيّ الإسلام ﷺ.

❁ موضوعات للبحث

- دلّت بعض الآيات القرآنيّة على أنّ النبيّ الأكرم ﷺ كان يتحاشى الإتيان بالمعجزات، استخرج هذه الآيات وابحث عن سبب امتناع النبيّ عن ذلك.

- إئتِ بشواهد تاريخيّة على أنّ بعض النّاس آمنوا برسالة النبيّ ﷺ عن طريق المعارف الإلهيّة للقرآن.

---

١. مكارم الشيرازي، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزّل، ج١٧، ص٢٩٨-٢٩٩.

٢٨

إثبات نبوّة نبيّ الإسلام (٣)

ذكرنا في البحوث السّابقة نماذج من معاجز النبيّ ﷺ، فتطرّقنا إلى بحث القرآن الكريم باعتباره المُعجزة الخالدة الوحيدة في تاريخ الأنبياء، وكذلك معجزة شقّ القمر الّتي وردت بكثرة في القرآن والرّوايات الإسلاميّة. وفي هذا الدّرس سنتناول دراسة القرائن والشواهد كدليل آخر من دلائل النبوّة.

٣. القرائن والشّواهد

ذكرنا أنّ ثمة طريقاً آخر غير المُطالبة بالمعجزة للوقوف على صوابِ قول مدّعي النبوّة، وهو التحقّق من ذلك عن طريق جمع القرائن والشّواهد الدالّة على صحّة مدّعاه. وفي هذا الدّرس، سنبيّن بعض تلك القرائن والشّواهد المتعلقة بإثبات نبوّة النبيّ الكريم ﷺ.

٣.١. السجايا الأخلاقيّة والسّيرة الاجتماعيّة لنبيّ الإسلام

كفى النبيّ محمّد ﷺ في هذا المجال أنّ أهل مكّة كانوا يلقّبونه بـ«محمّد الأمين»؛ حيث يمكن استكشاف منزلته الأخلاقيّة والاجتماعيّة من قصّة الحجر الأسود واتّفاقهم على أنّه الشّخص المناسب لوضعه في موضعه. مضافاً إلى قصّة مشاركته في «حلف الفضول» الّتي تعدّ من مفاخر النبيّ الأكرم ﷺ في تلك البلاد الفاقدة للحضارة والمليئة بالوحشيّة والقبليّة والتعصّب الطائفي.

٢.٣. المقتضيات الزمانيّة والمكانيّة للدّعوة

كان سكان شبه الجزيرة العربيّة قبل الإسلام وبشهادة التّاريخ والآيات القرآنية والأحاديث النبويّة وأحاديث أهل البيت عليهم السلام يعيشون أوضاعاً ثقافيّة واجتماعيّة وأخلاقيّة مأساويّة، حتّى أطلق على ذلك العصر «العصر الجاهلي». وأما بعد بزوغ فجر الإسلام وبعثة النبيّ الكريم صلى الله عليه وآله، فقد انتقلوا من تلك الأوضاع المأساويّة إلى حضارة عظيمة غطّت أجزاء واسعة من العالم آنذاك.

وقد أشار الباري (سبحانه وتعالى) إلى أوضاع المجتمع الجاهليّ قبل البعثة النبويّة، وما طرأ عليه بعدها بقوله:

﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا﴾[1].

والنّعمة الّتي وردت في هذه الآية والّتي كانت سبباً للألفة بين القلوب وإنقاذ النّاس من النّار هي رسول الله صلى الله عليه وآله؛ ولذا قال الإمام أبوعبد الله الصّادق عليه السلام:

«فَبِرَسُولِ الله صلى الله عليه وآله أُنْقِذُوا»[2].

وفي إحدى خطبه، وصف أمير المؤمنين عليه السلام المجتمع العربيّ قبل البعثة من النّاحية العقديّة والأخلاقيّة والاجتماعيّة بالشّكل الآتي ليبيّن عظمة رسول الله صلى الله عليه وآله:

«إِنَّ الله بَعَثَ مُحَمَّداً صلى الله عليه وآله... وأَنْتُمْ مَعْشَرَ الْعَرَبِ عَلَى شَرِّ دِينٍ وفِي شَرِّ دَارٍ، مُنِيخُونَ بَيْنَ حِجَارَةٍ خُشْنٍ وحَيَّاتٍ صُمٍّ، تَشْرَبُونَ الْكَدِرَ وتَأْكُلُونَ الْجَشِبَ، وتَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وتَقْطَعُونَ أَرْحَامَكُمْ، الأَصْنَامُ فِيكُمْ مَنْصُوبَةٌ والآثَامُ بِكُمْ مَعْصُوبَةٌ»[3].

على هذا الأساس، يتّضح قدَر تعاليم الدِّين الإسلاميّ في مواجهة الانحطاط والفساد المستشري قبل الإيمان بحامل رسالة التّوحيد والسلام والسعادة من خلال مراجعة صفحة

---

١. سورة آل عمران: الآية ١٠٣.

٢. الكليني، الكافي، ج٨، ص٢٦٦؛ العياشي، تفسير العياشي، ج١، ص١٩٤.

٣. نهج البلاغة، الخطبة ٢٦، ص٦٨.

أخرى من تاريخ الإسلام. فمن ترعرع وعاش أربعين عاماً في بيئة مليئة بالجهل وعبادة الأصنام، وفي محيط طغت عليه ثقافة الشّرك والخُرافات، أنّى له المُناداة بالتّوحيد الخالص ورفع راية الحرب ضدّ جميع مظاهر الشّرك؟ وكيف برزت من بيئة الجهل هذه أسمى المظاهر العلميّة؟ وما هو الارتباط بين هذا الدِّين الّذي رفع شعار المُساواة بين البشر والقضاء على التّمييز العرقيّ والطّبقي وإقامة القسط والعدل في جميع الأبعاد الفرديّة والاجتماعيّة وبين الأوضاع السّائدة في ذلك العصر؟ وهل يمكن التّصديق بظهور مثل هذا الشّخص الفريد دون تأييد إلهي من ما وراء الطّبيعة؟

٣.٣. أُمّية النبيّ

أكّد القرآن الكريم على أنّ رسول الله ﷺ أُمّي، وأنّه نبيّ بُعث إلى الأُمّيّين:

﴿قُلْ يَآ اَيُّهَا النّاسُ اِنِّي رَسُولُ اللهِ اِلَيْكُمْ جَمِيعاً ... فَـآمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ﴾[١].

«أُمّ» في اللّغةِ العَربيةِ تَعني الأصلُ، فأُمّ كلّ شيْءٍ: أَصْلُه وعِمادُه، وأُمّ القُرَى: مكّةُ زيدَت شَرفاً؛ لأنّها توسَّطَت الأَرْضَ؛ سُمّيت بذلك لأنّها أصلُ الأرضِ، ومِنها دُحِيتْ. وَأَمّتْ أُمُومَةً: صارَتْ أُمّاً. والأُمّيُّ والأُمّانُ بضمّهما: مَنْ لا يَكْتُبُ، أو مَن على خِلْقَةِ الأُمَّةِ لم يَتعلّم الكِتابَ وهو باقٍ على جِبِلَّتِهِ[٢]. وعَليهِ، فالمَعنى الشائعُ للأُمّيّ هو مَن لا يَعرفُ القِراءةَ والكِتابةَ، أو فقلْ: هُو غيرُ المتعلِّم.

وفُسّر هذا المعنى لكلمة الأُمّيّ بطريقة أخرى عند توصيف النبيّ ﷺ في الآية الشريفة:

﴿وَما كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتابٍ وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لَارْتابَ الْمُبْطِلُونَ﴾[٣].

ويُلاحَظ أنّ هذه الآية لا تنفي قدرة الرسول الكريم ﷺ على القراءة والكتابة؛ وإنّما نفت مبادرته إلى تعلم هذه الفنون ووقوع هذين الفعلين منه، فلم يؤثر عن النبيّ ﷺ ـ بشهادة التّاريخ ومن عاشره سنوات مديدة ـ أنّه قرأ وكتب قبل البعثة ونزول الآيات القرآنيّة أبداً؛ لِئَلّا

---

١. سورة الأعراف: الآية ١٥٨.

٢. الزبيدي، تاج العروس، ج١٦، ص٢٨-٣٠.

٣. سورة العنكبوت: الآية ٤٨.

يُتّهم بقراءة الكُتب السّماويّة الأخرى وكتابات الآخرين والاقتباس منها، وإلّا لبلغ المعاندون والأعداء المتربّصون به أهدافهم، وعمدوا إلى تكذيبه و إبطال نبوّته، والتّشكيك بكون القرآن الكريم كتاباً سماويّاً، والزّعم أنّ الآيات القرآنيّة ليست من كلام الله؛ ولذا ذهب بعض علماء الإسلام إلى أنّ هذه الصفة للنبيّ الكريم ﷺ تدخل في عداد وجوه الإعجاز القرآنيّ[1].

وفي هذا السّياق، فسّر الإمام علي بن موسى الرّضا عليه السلام خلال حواره مع رأس الجالوت - من علماء اليهود - الكلام الإلهيّ، وأخبار الغيب، وباقي الآيات الّتي جاء بها الرّسول ﷺ في ضوء السّيرة النبويّة قبل البعثة وفي كونه غير متعلّم، فقال:

«مِنْ آيَاتِهِ أَنَّهُ كَانَ يَتِيماً فَقِيراً رَاعِياً أَجِيراً، لَمْ يَتَعَلَّمْ كِتَاباً وَلَمْ يَخْتَلِفْ إِلَى مُعَلِّمٍ، ثُمَّ جَاءَ بِالْقُرْآنِ الّذي فِيهِ قِصَصُ الْأَنْبِيَاءِ عليهم السلام وَأَخْبَارُهُمْ حَرْفاً حَرْفاً، وَأَخْبَارُ مَنْ مَضَى وَمَنْ بَقِيَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، ثُمَّ كَانَ يُخْبِرُهُمْ بِأَسْرَارِهِمْ وَمَا يَعْمَلُونَ فِي بُيُوتِهِمْ، وَجَاءَ بِآيَاتٍ كَثِيرَةٍ لَا تُحْصَى»[2].

وفضلاً عن الأحاديث الّتي أكدت على المعنى المتقدّم للأُمّي، ثمّة روايات أخرى ذكرت له معاني مغايرة؛ لكنّ هذه المعاني - كما أشرنا سابقاً - لا تتنافى مع المعاني المذكورة سابقاً.[3]

---

١ . مصباح اليزدي، آموزش عقائد، ص٢٦٥

٢ . الصدوق، التوحيد، ص٤٢٩؛ الصدوق، عيون أخبار الرضا عليه السلام، ج١، ص١٦٧.

٣ . الصدوق، علل الشرايع، ج١، ص١٢٤-١٢٦؛ الصدوق، معاني الأخبار، ص٥٣، المفيد، الاختصاص، ص٢٦٣؛ القمي، تفسير القمي، ج٢، ص٣٦٦.

❀ الأسئلة

١. كيف يمكن إثبات صدق دعوى نبوّة نبيّ الإسلام ﷺ من خلال سجاياه الأخلاقيّة وسيرته الاجتماعيّة؟

٢. كيف تدلّ المُقتضيات الزّمانيّة والمكانيّة لدعوة النبيّ ﷺ على نبوّته؟

٣. اشرح معنى كون النبيّ ﷺ أُمّيّاً. كيف تستدل بأُميّة النبيّ على صدق مدَّعاه؟

❀ موضوعات للبحث

- استخرج من القرآن الكريم أنواع الاتّهامات الّتي كالها المخالفون لنبيّ الإسلام ﷺ، وعلى أيّ أساس كانوا يصفونه بالمجنون؟

- ما الكتب المؤلّفة حول الأوضاع في شبه الجزيرة العربيّة قبل الإسلام؟ اكتب خلاصة لأحد هذه الكتب.

٢٩

إثبات نبوّة نبيّ الإسلام (٤)

ذُكرت في الدّروس السّابقة دلائل مختلفة لإثبات نبوّة النبيّ الكريم ﷺ، واتّضح أنّ أحد تلك الدلائل الآية والبيّنة أو المُعجزة، وثبت أنّ معجزته الخالدة هي القرآن الكريم. مضافاً إلى ذلك، جرى الحديث عن سائر المعجزات الأخرى له ومنها شقّ القمر، فضلاً عن جمع القرائن والشواهد عن سجاياه الأخلاقيّة وسيرته الاجتماعيّة والمقتضيات الزمانيّة والمكانيّة للدعوة وعن كونه أُمّيّاً. وأمّا في هذا الدّرس فسنشير إلى دليل آخر من دلائل النبوّة و هو بشارة النبيّ السابق لنبوّة النبيّ الأكرم.

٤. بشارة الأنبياء السّابقين بنبوّة الرسول الكريم ﷺ

إنّ الدِّين عند الله (سبحانه وتعالى) واحد، وهو الإسلام الّذي يُشكّل النّقطة المُشتركة والمتّحدة بين الأنبياء الإلهيّين والّذي دعا له جميع الأنبياء والمرسلين. ثمّ إنّ الشهادة بوحدانيّة الله ورسالة خاتم الأنبياء ﷺ تعدّ من الضروريّات الأوّليّة والذاتيّة للدين الإسلاميّ، قال رسول الله ﷺ في هذا الخصوص:

«أَوْحَى اللهُ (سبحانه وتعالى) إِلَى عِيسَى... أَخْبِرْهُمْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِيَ النبيّ الْأُمِّيّ»[١].

ومن البديهيّ أنّ إيمان أمم الأنبياء السّابقين بنبوّة نبيّنا الكريم ﷺ يستلزم الإشارة إلى هذه

---

١ . الراوندي، قصص الأنبياء، ص٢٧١.

العقيدة في كتب الأنبياء السّالفين والوعد بظهوره من بعدهم، وقد بيّن القرآن الكريم ورود اسم النبيّ ﷺ وعلاماته في التوراة والإنجيل بقوله:

﴿اَلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرٰاةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾[1].

وروي عن الإمام أبي جعفر الباقر عليه السلام أنّه قال حول أسماء الرّسول ﷺ في الكتب السّماويّة السّابقة:

«إِنَّ اسْمَ النبيّ ﷺ فِي صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ الْمَاحِي، وَفِي تَوْرَاةِ مُوسَى الْحَادُّ، وَفِي إِنْجِيلِ عِيسَى أَحْمَدُ، وَفِي الْفُرْقَانِ مُحَمَّدٌ. قِيلَ: فَمَا تَأْوِيلُ الْمَاحِي؟ قَالَ: الْمَاحِي صُورَةَ الْأَصْنَامِ وَمَاحِي الْأَوْثَانِ وَالْأَزْلَامِ وَكُلِّ مَعْبُودٍ دُونَ الرَّحْمَنِ. وَقِيلَ: فَمَا تَأْوِيلُ الْحَادِّ؟ قَالَ: يُحَادُّ مَنْ حَادَّ اللهَ وَدِينَهُ قَرِيباً كَانَ أَوْ بَعِيداً. قِيلَ: فَمَا تَأْوِيلُ أَحْمَدَ؟ قَالَ: حَسُنَ ثَنَاءُ اللهِ (عَزَّ وَجَلَّ) عَلَيْهِ فِي الْكُتُبِ بِمَا حُمِدَ مِنْ أَفْعَالِهِ. قِيلَ: فَمَا تَأْوِيلُ مُحَمَّدٍ؟ قَالَ: إِنَّ اللهَ وَمَلَائِكَتَهُ وَجَمِيعَ أَنْبِيَائِهِ وَرُسُلِهِ وَجَمِيعَ أُمَمِهِمْ يَحْمَدُونَهُ وَيُصَلُّونَ عَلَيْهِ»[2].

وتوجد آية أخرى من كتاب الله المجيد تدلّ على أنّ علماء أهل الكتاب يعرفون الرّسول معرفة دقيقة وواضحة:

﴿اَلَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقاً مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[3].

هذا، وقد كان الأنبياء طيلة التّاريخ يدعون النّاس في زمانهم إلى الإيمان بمجيء الرُّسل من بعدهم ويعدونهم بتحقّق هذا الوعد الإلهيّ، لا سيما رسول الله ﷺ، وقد أشير إلى هذا الموضوع في الكتب الدينيّة بمفردة «البشارة»؛ ولذا قال القرآن الكريم على لسان عيسى بن مريم عليه السلام:

﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرٰاةِ وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ

---

١. سورة الأعراف: الآية ١٥٧.

٢. الصدوق، من لا يحضره الفقيه، ج٤، ص١٧٧-١٧٨.

٣. سورة البقرة: الآية ١٤٦.

يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِي ٱسۡمُهُۥٓ أَحۡمَدُۖ﴾[١].

وقال النبيّ الأكرم ﷺ بشأن البِشارة بنبوّته:

«أَيُّهَا النّاس! بِي وَاللهِ بُشِّرَ الأَوَّلونَ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالْمُرْسَلِينَ»[٢].

وفضلاً عن الآيات المذكورة آنفاً، فقد أُشير إلى موضوع نبوّة النبيّ الكريم ﷺ في الكتب السّماويّة السّابقة والبِشارة به في آيات قرآنيّة أخرى متعدّدة[٣]، وهذا الأمر يكشف عن أهميّة هذه العقيدة في مدرسة الأنبياء.

إنّ أقدم الكتب المنسوبة إلى الأنبياء السّابقين في العصر الرّاهن كتب العهدين (الشّاملة للتوراة والإنجيل)، وعلى الرّغم من أنّ هذه الكتب لم تكن في مأمن من التّحريف، فعمدت بعض الزّمر إلى حذف كثير من البشائر الواضحة الدالّة على نبوّة نبيّ الإسلام ﷺ وخلفائه من بعده، أو غيّرت دلالتها الصّريحة على ذلك؛ حفاظاً على مصالحها وحرصاً على مناصبها الظّاهريّة، لا زالت بعض البشائر موجودة في هذه الكتب، وسنشير إلى موردين منها:

كانت وصيّة النبيّ موسى عليه السلام لبني إسرائيل قبل موته حسبما ورد في سفر التثنية في التوراة كما يأتي:

«جَاءَ الرَّبُّ مِنْ سِينَاءَ، وَأَشْرَقَ لَهُمْ مِنْ سَعِيرَ، وَتَلألأَ مِنْ جَبَلِ فَارَانَ، وَأَتَى مِنْ رِبْوَاتِ الْقُدْسِ، وَعَنْ يَمِينِهِ نَارُ شَرِيعَةٍ لَهُمْ»[٤].

المقصود من مجيء الربّ إلى سيناء هو التوراة، وإشراقه من سعير الإنجيل، وتلؤلؤه من جبل فاران القرآن؛ ذلك أنّ سيناء محلّ بعثة النبيّ موسى عليه السلام، وسعير الواقعة في جنوب فلسطين محلّ بعثة النبيّ عيسى عليه السلام، وفاران الواقعة في مكّة محلّ بعثة رسول الله ﷺ.

---

١. سورة الصفّ: الآية ٦.

٢. انظر: الطبرسي، الاحتجاج، ج١، ص٦٠.

٣. انظر: سورة البقرة: الآيتان ٨٩ و١٠١؛ سورة آل عمران: الآيات ٨١-٨٢ و١٨٧؛ سورة الأنعام: الآية ٢٠؛ سورة الشعراء: الآيتان ١٩٦-١٩٧.

٤. الكتاب المقدّس، العهد القديم، التوراة، سفر التثنية، الأصحاح ٣٣؛ نقلاً عن: العسكري، عوامل التحريف، ج٤، ص١٧-٢٠ و١١٤-١١٥.

وأُشير إلى نبيّ الإسلام ﷺ باللّغة العبريّة في إنجيل يوحنّا باسم «فارقْليط»[١]، الّتي تعني باللّغة العربيّة «أحمد». وجرى الحديث في بعض الأناجيل المُترجمة إلى العربيّة عن ظهور فارقْليط ودوام دينه.

كما وردت كثير من التّصريحات بنبوّة نبيّ الإسلام ﷺ في إنجيل برنابا كذلك، منها ما ذُكر في قصّة طرد النبيّ آدم وحوّاء من الجنّة:

«فاحتجبَ اللهُ وطردَهُما الملاكُ ميخائيلُ منَ الفِردَوسِ، فَلمّا التفتَ آدمُ رَأى مَكتوباً فَوقَ البابِ: لا إلهَ إلّا اللهُ، مُحمّدٌ رَسولُ اللهِ»[٢].

ثم إنّ صفات الرّسول الأكرم ﷺ وحكومته كانت صريحة في كتب الدّيانات الأخرى إلى درجة أنّ الإمام الصّادق ﷷ ذكر أنّ اليهود كانوا يجدون في كتبهم هجرة النبيّ محمّد ﷺ في آخر الزمان إلى الجبال الواقعة في أطراف المدينة، فيخرجون إلى تلك المواضع ويسكنونها لنصرته[٣].

وبعد هجرة اليهود إلى المدينة، كان تُبّع ـ أوّل ملوك اليمن والّذي عاش قبل ألف سنة من بعثة الرسول ﷺ ـ قد تعرّف إلى اليهود خلال غزو المدينة، ومن ثمّ آمن بالرّسول الخاتم، وأسكن قبيلتي الأوس والخزرج، في ذلك المكان إلى جانب اليهود بانتظار خروج النبيّ ﷺ ونصرته، كما إنّه كتب كتاباً إلى النبيّ ﷺ يذكر فيه إيمانه وإسلامه، وأنّه من أمّته فليجعله تحت شفاعته، ودفع هذا الكتاب إلى وزيره ليعطيه إلى من يوصله إلى الرسول عند ظهوره[٤].

لقد كانت البشائر الدّقيقة المنقولة في الكتب السّماويّة واضحة إلى درجة أنّ بعض علماء الأديان الأخرى شخّصوا فيه علامات النبوّة في سنّ الطفولة والصّبا، وأعربوا عن إيمانهم به منذ ذلك الحين، ومن الأمثلة على ذلك، والّتي تثبت أنّ المسيح ﷷ قد هيّأ المسيحيّين لاستقبال

---

١ . انظر: العسكري، عوامل التحريف، ج٤، ص١١٤-١٢٤؛ و انظر أيضاً: فخرالاسلام، أنيس الأعلام؛ جديدالإسلام، سيف المؤمنين في قتال المشركين؛ القزويني، محضر الشهود؛ الصادقي، بشارات عهدين.

٢ . إنجيل برنابا، الفصل ٤١: الآيتان ٣٣-٣٤.

٣ . انظر: العياشي، تفسير العياشي، ج١، ص٤٩.

٤ . انظر: ابن شهرآشوب، مناقب آل أبي طالب، ج١، ص١٥-١٨؛ العياشي، تفسير العياشي، ج١، ص٤٩.

ظهور النبيّ محمّد ﷺ، يمكن الإشارة إلى قصّة الرّاهب بحيرى مع النبيّ ﷺ خلال أوّل أسفاره مع عمّه أبي طالب ضمن قافلة تجاريّة وهو ابن ثمانية أعوام[١]، وكذلك قصّة لقائه بالرّاهب المسيحيّ في إحدى أسفاره التجاريّة إلى الشّام في سنّ الخامسة والعشرين[٢].

ومن النقاط الواضحة في بحث البِشارة هي أنّه لو كانت البِشارة لغرض الهداية فلا يمكن أن تكون مُبهمة ومعقّدة؛ ولذا وردت البشارات في النّصوص الأساسيّة بصورة صريحة وواضحة جدّاً وغير قابلة للتّأويل.

لقد أطلق القرآن الكريم موضوع بشائر الأنبياء في بيئة مليئة بالأحقاد والعداوات، ولو كان هذا الادّعاء كاذباً وباطلاً ولم يُعثر على آثار بشائرهم في الكتب الدينيّة القديمة، لما هدأ بال أعداء الإسلام للحظة واحدة ولوأدوا الدِّين الإسلاميّ في مهده. من هنا، لم تكن مخالفة علماء اليهود والنصارى لرسول الله ﷺ من منطلق عدم انطباق البشائر عليه؛ وإنّما كانت نابعة من العلم بحقيقته والوثوق بصواب دعوته[٣].

❂ الأسئلة

١. اذكر اثنين من بشائر الأنبياء السّابقين بالرّسول الكريم ﷺ من التّوراة والإنجيل، ثم قارنهما بالآيات القرآنيّة في هذا الخصوص.

٢. ما هي أسماء النبيّ ﷺ في الكتب السّماويّة القديمة حسب رواية الإمام الباقر عليه السلام ؟

٣. اشرح قصّة لقاء النبيّ ﷺ بالرّاهب بحيرى. و ما هي دلالات هذا اللقاء على نبوّة محمّد ﷺ.

٤. ما الشّواهد القرآنيّة والتاريخيّة الدالّة على علم اليهود بظهور نبيّ الإسلام ﷺ في أرض الحجاز؟

---

١. انظر: الصدوق، كمال الدين وتمام النعمة، ج١، ص١٨٢-١٨٨.

٢. انظر: المصدر نفسه، ص١٩٠-١٩١.

٣. انظر: سورة البقرة: الآيات ٨٩ و١٠١ و١٤٧؛ سورة آل عمران: الآية ١٨٧؛ سورة النمل: الآية ١٥؛ سورة الصفّ: الآية ٦.

*** موضوعات للبحث**

- اذكر عدداً من الكتب المؤلّفة حول بشائر الأديان السّابقة، ثمّ استعرض شاهداً آخر في هذا المجال على الأقلّ.
- اكتب بحثاً حول قصّة إنجيل برنابا، واقرأ فقرات منه على أصدقائك.

٣٠

تعاليم نبيّ الإسلام

بعد إثبات صواب دعوة النبيّ ﷺ، من المناسب الإشارة إلى تعاليمها والتعرّف عليها، والمقصود من ذلك هو أهمّ التعاليم النظريّة والعمليّة الّتي بيّنها النبيّ من الآيات القرآنيّة وتفسيرها أو تلك الّتي طبّقها من ناحية عمليّة في ضوء الظروف الزمنيّة السائدة. ويمكن الاستفادة من بحث «مضمون الدعوة» كأحد القرائن والشواهد الدالّة على إثبات نبوّة نبيّنا الكريم أيضاً.

١. التّوحيد والمعاد

إنّ الصّورة الّتي يقدّمها القرآن لعالم الكون ونظام الخلقة دقيقة جدّاً، فطرح التّوحيد بأكمل وجه ممكن، وبيّن أسرار خلق السّماء والأرض وإيجاد الليل والنهار والشّمس والقمر والنباتات ووجود الإنسان، واعتبر كلّ واحد منها آية من آيات الله (تبارك وتعالى).

ثمّ إنّ القرآن الكريم غاص في أعماق روح الإنسان وتحدّث عن التّوحيد الفطريّ، فقال:

﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾[١].

وقد استدلّ على التّوحيد عن طريق العقل، فدعا الإنسان إلى التدبّر في الآفاق والأنفس، وتحدّث في هذا المجال عن أسرار خلق الأرض والسّماء والحيوانات والجبال والبحار وهطول الأمطار وهبوب الرّياح ودقائق بدن الإنسان وغير ذلك:

---

١. سورة العنكبوت: الآية ٦٥.

﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ * وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾[1].

ولمّا أراد بيان صفات الباري (سبحانه وتعالى) اختار أعمق الطّرق وأجملها، ففي موضع قال:

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾[2].

وفي موضع آخر قال:

﴿هُوَ اللهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ * هُوَ اللهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[3].

واستخدم أروع التعابير عند توصيف علم الله وبيان أنّه غير محدود قائلاً:

﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَداً﴾[4].

وللقرآن مضامين رفيعة وتعابير راقية تعدّ من مختصّاته أطلقها بشأن إحاطة علم الله بكلّ شيءٍ وتواجده في كلّ مكان:

﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ﴾[5].

﴿هُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[6].

وحينما أراد الحديث عن المعاد ويوم القيامة، قال مقابل تعجّب المُشركين وإنكارهم:

﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي

---

١ . سورة الذاريات: الآيتان ٢٠-٢١.

٢ . سورة الشورى: الآية ١١.

٣ . سورة الحشر: الآيتان ٢٣-٢٤.

٤ . سورة الكهف: الآية ١٠٩.

٥ . سورة البقرة: الآية ١١٥.

٦ . سورة الحديد: الآية ٤.

أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ * ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ * أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ * إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[1].

وعبّر بأسلوب رائع ودقيق عن تسجيل أعمال الإنسان وعرضها يوم القيامة قائلاً:

﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا * بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾[2].

وتحدّث أحياناً عن إنطاق جوارح الإنسان وشهادة يده ورجله وجلده يوم القيامة على ما اقترف في الحياة الدنيا، فقال:

﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾[3].

ولا تتّضح قيمة المعارف القرآنيّة وعظمة مضامينها، وكذلك خلوّ هذه المعارف من الخرافات والترّهات، إلّا حينما توضع إلى جانب التّوراة والإنجيل الفعليّين، وإجراء مقارنة بين بحثين من بحوثهما. من هنا، لا بدّ من مقارنة رؤية التوراة حول خلق النبيّ آدم عليه السلام مع الرّؤية القرآنيّة في هذا المجال، كما ينبّغي مقارنة قصص الأنبياء الإلهيّين الواردة في التوراة مع ما ورد في القرآن الكريم، وكذلك يجب أن نرى كيف وُصف الله (سبحانه) في هذين الكتابين وفي القرآن؟ حينئذٍ يتبيّن الفارق بين الاثنين بصورة واضحة[4].

٢. إقامة العدل ومحاربة الظُّلم

إنّ الفطرة السّليمة لجميع النّاس تتبرّأ من الظُّلم والجور، وتدعو إلى لزوم محاربة الظّالمين وضرورة التصدّي لهم؛ ومن هذا المنطلق وُضع بسط العدل ومحاربة الظُّلم في صدر قائمة منهج الأنبياء الإلهيّين.

وعلى هذا الأساس، شدّد الكتاب السّماويّ للنبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله على محاربة كلّ أشكال الظُّلم

---

١ . سورة يس: الآيات ٧٨-٨٢.

٢ . سورة الزلزلة: الآيتان ٤-٥.

٣ . سورة يس: الآية ٦٥.

٤ . مكارم الشيرازي، پنجاه درس اصول عقايد براى جوانان، الدرس السابع.

والجور، فورد فيه في هذا المجال:

﴿لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾[١].

ولا ينبّغي للمسلمين القيام بوجه الظّالمين فقط؛ بل يجب عليهم أيضاً الامتناع عن كلّ أشكال التعاون معهم؛ امتثالاً لقول رسول الله ﷺ:

«مَنْ مَشَى إِلَى ظَالِمٍ لِيُعِينَهُ وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ ظَالِمٌ فَقَدْ خَرَجَ مِنَ الْإِسْلَامِ»[٢].

وروي عن النبيّ الكريم ﷺ أيضاً أنّه قال:

«إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ نَادَى مُنَادٍ: أَيْنَ الظَّلَمَةُ وَأَعْوَانُ الظَّلَمَةِ وَأَشْبَاهُ الظَّلَمَةِ، حَتَّى مَنْ بَرَى لَهُمْ قَلَماً أَوْ لَاقَ لَهُمْ دَوَاتاً؟ قَالَ: فَيُجْمَعُونَ فِي تَابُوتٍ مِنْ حَدِيدٍ، ثُمَّ يُرْمَى بِهِمْ فِي جَهَنَّمَ»[٣].

ولا بدّ من الالتفات إلى أنّه لا يمكن تطبيق العدل في المجتمع طالما كان يحكمه الجبابرة والطّغاة؛ لأنّهم يمنعون بسط العدل في المجتمع ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً، تحقيقاً لمصالحهم غير المشروعة؛ وبالتالي، يدوم الظُّلم والجَور ويَظلّ النّاس يعانون منه؛ ولذا ما برح النبيّ المصطفى ﷺ يُحارب الظّالمين في عصره لتطبيق العدل في المجتمع المسلم، فاستطاع إزالة المعوّقات وتذليل العقبات الموجودة في طريقه وبسط العدل المنشود، ولا ريب في أنّه متى ما أراد المصلحون في أيّ مجتمع إرساء دعائم العدل لا مناص لهم من إزالة العقبات أوّلاً.

٣. مكارم الأخلاق

ينطوي الإنسان على بُعدين ماديّ ومعنوي، وإذا ما أراد إتمام قطع مسيرة التكامل فينبّغي له بلوغ التكامل اللّازم في هذين الجانبين الوجوديّين معاً.

---

١ . سورة البقرة: الآية ٢٧٩.

٢ . الكراجكي، كنزالفوائد، ج١، ص٣٥١؛ الحرّ العاملي، وسائل الشيعة، ج١٧، ص١٨٢.

٣ . الديلمي، إرشاد القلوب إلى الصواب، ج١، ص١٨٦؛ الحرّ العاملي، وسائل الشيعة، ج١٧، ص١٨٢.

ولا ريب في أنّ أيّ مدرسة أخلاقيّة تُبدي اهتماماً بجانب من وجود الإنسان فقط، وتتناسى الجانب الآخر، لن يكون مصيرها إلّا إهمال الجوانب الطبيعيّة في وجود ذلك الإنسان، وفي نهاية المطاف يؤدّي بها الأمر إلى قطع أحد جناحي الإنسان وإثقال كاهل الجناح الآخر.

هذا، ولم يركز الإسلام على وضع نظام أخلاقيّ مُنسجم وحسب؛ وإنّما عمد إلى إطلاق نماذج من الأسوة الحسنة والخالدة مدى الدهر بما لم يشهد لها التّاريخ مثيلاً أبداً و لذالك نرى أنّ الله سبحانه يصف النبيّ الكريم بمقامه الاخلاقي العظيم و يضعه في قمة القيم الإنسانيّة:

﴿وَاِنَّكَ لَعَلٰى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾.[1]

و هو نفسه يعرِّف رسالته بإقامة المكارم الأخلاقيّة لكلّ المجتمعات البشريّة و يذكرّ أنّ الكمالات الروحيّة هى غاية الغايات لبعثته و دينه:

«إنّما بُعثتُ لأُتمِّم مكارمَ الأخلاق»[2].

ثمّ إنّ القيم الأخلاقيّة في الإسلام ـ وفضلاً عن رقيّها وسموّها ـ اتّسمت بخصلتي الانسجام الدّاخلي والكفاءة الموضوعيّة، بحيث يمكن أن يوصى بها جميع النّاس ذوي الفطرة السّليمة.

٤. إشاعة العلم ونشر الثقافة

تقدّم أنّ النبيّ الكريم ﷺ بُعث إلى أرض تندُر فيها آثار العلم والثّقافة وتفتقر إلى وجود شخصيّات علميّة ومؤسّسات تعليميّة؛ بيد أنّ القرآن الكريم بدأ برفع شعار العلم والمعرفة، فجاءت أُولى آياته مُنادية بالدعوة إلى القراءة والتعلّم:

﴿اِقْرَاْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ * خَلَقَ الْاِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اِقْرَاْ وَرَبُّكَ الْاَكْرَمُ * اَلَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾[3].

---

١. سورة القلم: الآية ٤.

٢. البيهقي، السنن الكبرى، ج١٠، ص١٩٢؛ الطبرسي، مكارم الأخلاق، ص٨.

٣. سورة العلق: الآيات ١-٤.

نعم، اهتمّ الدِّين الإسلاميّ بالعلم اهتماماً كبيراً وأولاه منزلة رفيعة، فأقسم بالقلم وما يُكتب به، ووضع العلماء في خانة المجاهدين مرجّحاً مداد أقلامهم على دماء الشهداء، فقال (سبحانه وتعالى):

﴿نٓ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ﴾[1].

وروي عن الإمام أبي عبد الله الصّادق عليه السلام أنّه قال:

«إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ جَمَعَ اللهُ (عَزَّ وَجَلَّ) النّاس فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، وَوُضِعَتِ الْمَوَازِينُ، فَتُوزَنُ دِمَاءُ الشُّهَدَاءِ مَعَ مِدَادِ الْعُلَمَاءِ، فَيَرْجَحُ مِدَادُ الْعُلَمَاءِ عَلَى دِمَاءِ الشُّهَدَاءِ»[2].

على أساس هذه الرّؤية وهذا المنهج بلغ المجتمع الجاهليّ خلال زمن قصير منزلة علميّة رفيعة، لم تضعه في طليعة المجتمعات الإنسانيّة والثقافات البشريّة فحسب؛ بل إنّه لم يلبث كثيراً حتّى تحوّل إلى قدوة بات الآخرون بحاجة إلى الاحتذاء بها.

والطريف في هذا الخصوص أنّ العلم في الإسلام ليس متوقّفاً على التعلّم فقط؛ وإنّما شُيّد في كثير من الأحيان على أساس التعقّل والفكر الحرّ والنقد البنّاء، على أنّ هذا الموضوع في حدّ ذاته بحاجة إلى بحث مستقلّ وواسع.

٥. بناء المجتمع وتأسيس الحضارة

لم يكتفِ الدِّين الإسلاميّ بوضع برنامج نظريّ للتعليم والتطور العلميّ فحسب؛ بل إنّه بادر إلى تطبيق القيم الإسلاميّة على أرض الواقع ومن ناحية عمليّة أيضاً، فكان الجانب العمليّ والإصرار على إنجاح التّعاليم الدينيّة بكونها مُفيدة وبنّاءة أهمّ ما يميّز خصائص حركة النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله. من هنا، اعترفت كثير من الشّخصيّات غير الإسلاميّة بعد دراسة سيرة حياة الرّسول صلى الله عليه وآله، أنّ أهمّ ما ميّزه عن سائر القادة والزّعماء هو توأمة العقيدة والإقدام أو المزاوجة بين الفكر والعمل.

---

١. سورة القلم: الآية ١.

٢. الصدوق، من لا يحضره الفقيه، ج٤، ص٣٩٩؛ الفتال النيشابوري، روضة الواعظين، ج١، ص٩.

نعم، لا توجد شخصيّة بين كبار علماء البشر بلغت الذروة على المستوى المعرفيّ والعمل الموضوعيّ والاجتماعيّ في الوقت نفسه، فكلام النبيّ ﷺ على صعيد المعرفة وسلوكه الروحانيّ في المجال المعنويّ كان بحيث لا يمكن تصور أنّه ذلك الشّخص الّذي يضطلع بأعباء القيادة في أحلك الظّروف الاجتماعيّة والاقتصاديّة وفي أشدّ الحروب والغزوات.

ويمكن إدراك شموليّة تلك الشّخصيّة البارزة من خلال إلقاء نظرة إلى سيرته العطرة الّتي بيّنها القرآن الكريم بأبهى صورة، فاعتمد على هذا المنطق النّظريّ والعمليّ مستفيداً من ثلّة من الصّحابة بصورة تدريجيّة لتشكيل نواة المقاومة الإسلاميّة، ومن ثمّ كوّن المجتمع المدنيّ المنشود بعد الهجرة إلى المكان المناسب، وهيأ الأرضيّة اللّازمة لبناء الأمّة الإسلاميّة المطلوبة مقابل تيّارات بشريّة كبرى بخطوات وئيدة من خلال فتح بلدان جديدة وإدخالها في دائرة الإسلام. ولم تسفر هذه الحركة في وقتها عن توفير الأرضيّة المناسبة لتأسيس الحضارة الإسلاميّة فحسب، وإنّما جعلت الإسلام أسوة للأجيال المستقبليّة أيضاً.

و على هذا قد تأكّد القرآن الكريم على دور الأمّة الإسلاميّة فى بناء الحضارة الإنسانيّة:

﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ﴾.[1]

و هذه النموذجيّة ليست إلّا بحضور النبيّ العظيم و دينه العزيز و رسالته الوسطيّة قياساً لسائر الأمم والديانات الأخرى:

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً﴾.[2]

وعلى هذا الأساس، يمكن الكشف عن أبعاد أخرى للدّين الإسلاميّ وبيان سرّ بقائه وخلوده وتقدّمه على سائر الأديان الأخرى.

---

١ . سورة آل عمران: الآية ١١٠.

٢ . سورة البقرة: الآية ١٤٣.

* الأسئلة

١. اشرح معنى «إقامة العدل ومحاربة الظُّلم» في التّعاليم النبويّة.

٢. اذكرعدد من المحاور المهمّة من التعاليم الأخلاقيّة لنبيّ الإسلام.

٣. ما الشّواهد الّتي يمكن أن تساق على إشاعة العلم ونشر الثّقافة في الإسلام؟

٤. ما الآلية الّتي استعملها الإسلام في المساعدة على بناء المجتمع وتأسيس الحضارة؟

٥. ما هى مواصفات الرسول الأكرم و رسالته فى تشييد الأمّة الإسلاميّة و جعلها كنموذج خالد للحضارة الإنسانيّة؟

* موضوعات للبحث

- بيّن من خلال إجراء دراسة تاريخيّة ما هو دور النبيّ الأكرم ﷺ في النّهضة العلميّة والمعنويّة في تاريخ البشريّة؟

- راجع أحد الكتب المؤلّفة من قبل العلماء الغربيّين المختصّين بالإسلام لتستخرج منه صفة أخرى من الصّفات البارزة للدّين الإسلاميّ الحنيف.

٣١

الخاتميّة

تعرّفنا إلى الآن على أهمّ مباحث النبوّة؛ حيث عرضنا صورة إجماليّة عن مفهوم النبوّة والرّسالة، وبيّنّا شروطها ومسؤوليّاتها، مضافاً إلى الشّواهد والأدلّة المُستخدمة لإثبات صواب ادّعاء النبيّ ﷺ.

وفي القسم الأخير من مباحث النبوّة، تطرّقنا إلى النبوّة الخاصّة وإثبات نبوّة الرّسول الكريم ﷺ. ومن الأبحاث الهامّة في هذا المجال، إثبات خاتميّة النبيّ الأكرم ﷺ، وهو ما سنبحثه في هذا الدّرس.

١. ختم النبوّة من ضروريّات الدِّين الإسلاميّ

تفيد الآيات والرّوايات المتواترة الواردة في كتب جميع الفرق الإسلاميّة أنّ الاعتقاد بكون الرسول الكريم ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين يعدّ من ضروريّات الدِّين الإسلاميّ[1]. وهو بمعنى أنّ جميع المسلمين يؤمنون أنّه لا نبيّ بعده، واتّفقت كلمتهم على أنّه لا وحي إلى أحد بعده[2].

٢. ختم النبوّة في القرآن الكريم

ثمّة تسع آيات في القرآن الكريم دلّت على خاتميّة نبوّة الرّسول الأكرم ﷺ [3]، وسنشير هنا إلى

١ . ضروريات الدِّين هي الأمور الواضحة في الدِّين بحيث ما من أحد يؤمن بذلك الدِّين إلّا وعدّ تلك الأمور من أجزائه (المجلسي، حقّ اليقين، ص٥١٥-٥١٦؛ اللاهيجي، گوهر مراد، ص٣٩٩).

٢ . انظر: مغنية، التفسير الكاشف، ج٦، ص٢٢٥؛ السبحاني، حوار مع الشيخ صالح الدرويش، ج١، ص١٦٠.

٣ . الآيات الثماني الأخرى هي: سورة فصّلت: الآيتان ٤١-٤٢؛ سورة الأنعام: الآيتان ٢٠ و١١٥؛ سورة سبأ: الآية ٢٨؛ سورة الأعراف: الآية ١٥٨؛ سورة القلم: الآية ٥٢؛ سورة الأنبياء: الآية ١٠٧.

واحدة من تلكم الآيات، كما سنشير إلى بعضها في البحوث القادمة. قال (سبحانه وتعالى):

﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَٰكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾[١].

وأما معنى «الختم» في اللّغة العربيّة فيقال: ختمَ الشيء يَخْتِمُه خَتْماً أي بلغَ آخرَه. وخاتِمُ كلِّ شيءٍ وخاتِمَته: عاقبته وآخِرُه، والخاتَم والخاتِم مشتقٌّ من الفعلِ «خَتَمَ» وهو الّذي خَتَمَ النبوّة بمَجيئه[٢]؛ ولذا يعبّر عن النبيّ ﷺ بـ«خاتَم النبيّينَ».

هذا وقد ذكروا إشكالين على دلالة هذه الآية على خاتميّة النبيّ الكريم ﷺ:

الإشكال الأوّل: على فرض أنّ معنى الخاتم هو المعنى المعروف المتقدّم ذكره، لكنّ هذه الآية تفيد أنّ النبيّ محمّد ﷺ هو الخاتم لسلسلة الأنبياء لا خاتم الرُّسل أيضاً.

الإشكال الثّاني: كلمة «الخاتم» تعني ما يُلبس في الأصبع للزّينة، وربّما كان هذا المعنى هو المُراد في هذه الآية؛ وعندئذٍ يكون معنى «خاتم النبيّين» زينة الأنبياء لا آخرهم.

الردّ على الإشكال الأوّل: إنّ كلّ نبيّ حائز على مقام الرّسالة يمتلك مقام النبوّة أيضاً، فبانتهاء سلسلة الأنبياء تنتهي سلسلة الرُّسل أيضاً[٣]. وقد أشرنا في الدّروس الماضية إلى الفرق بين الرّسول والنّبيّ.

الردّ على الإشكال الثّاني: إنّ ما ذكره اللّغويّون حول معنى «خاتَم» على وزن «حاتَم» هو بلوغ آخر الشيء ونهايته، وكذلك بمعنى ما يُختم به على الأوراق والكتب، فمن المتعارف منذ القدم وضع مادّة لاصقة على فتحة الرّسالة أو الكتاب وختمه، إن أريد عدم اطلاع الآخرين عليه، وكذلك البيت أو المتجر المراد إقفاله وعدم فتحه من قبل الآخرين، ويطلق على هذا المُهر «الختم»؛ ولذا عبّر بعض اللّغويّين عن ذلك بقوله: «ما يُوضَع على الطيّنة... والخِتامُ: الطِّينُ الّذي يُخْتَم به على الكتابِ»[٤]. وما ذلك كلّه إلّا لأنّ هذا اللّفظ مأخوذ من مادّة «خَتَمَ» بمعنى بلوغ النهاية،

---

١. سورة الأحزاب: الآية ٤٠.

٢. انظر: ابن منظور، لسان العرب، ج١٢، ص١٦٤؛ الزبيدي، تاج العروس، ج١٦، ص١٩١؛ ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، ج٢، ص٢٤٦.

٣. مصباح اليزدي، آموزش عقائد، ص٢٨٨.

٤. ابن منظور، لسان العرب، ج١٢، ص١٦٣.

ولمّا كان هذا العمل (الختم بالمُهر) يحصل في النّهاية والخاتمة أطلق عليه لفظ «الختم».

ومن هنا، تُطلق هذه الكلمة على الخاتم الّذي يُلبس في اليد للزّينة؛ لأنّه يُنقش عليه المُهر ومن ثمّ تُختم به الكتب والرّسائل عادةً؛ ولذا عادةً ما يدور الكلام عند الحديث عن أحوال النبيّ ﷺ وأئمّة الهدى ﵈ والشّخصيّات الأخرى، حول النّقوش الّتي تُزيّن خواتمهم.

وبهذا يتبيّن أنّ أصل الخاتم الّذي يُلبس في اليد للزّينة في عصرنا الحالي هو الختم بمعنى الانتهاء من العمل؛ حيث كان يطلق سابقاً على الخواتم الّتي تُمهر بها الكتب.

هذا وقد استعملت مادّة «خَتَمَ» في القرآن الكريم في ثمانية موارد، جميعها بمعنى الإنهاء والطبع على القلب، نحو:

﴿ٱلۡيَوۡمَ نَخۡتِمُ عَلَىٰٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَتُكَلِّمُنَآ أَيۡدِيهِمۡ﴾[1].

﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞ﴾[2].

ومنه يتّضح أنّ أولئك الّذين شكّكوا في دلالة الآية على خاتميّة نبيّ الإسلام ﷺ وكونه آخر الأنبياء، لم يفهموا معنى هذه الكلمة أو تغافلوا عن معناها الصّحيح، وإلا فمعنى عبارة «خاتم النبيّين» واضحة الدلالة على الخاتميّة.

٣. ختم النبوّة في الرّوايات

وردت في الكتب الحديثيّة لأهل السّنة روايات كثيرة حول موضوع خاتميّة النبيّ الأكرم[3] ﷺ، فبلغت إلى حدّ التواتر حسبما ادّعى ابن كثير في تفسيره[4]، كما إنّ الرّوايات الّتي نقلها الشّيعة في كتبهم الحديثيّة بلغت التّواتر أيضاً. ومن هذه الرّوايات يمكن الإشارة إلى:

أ) لمّا خرج النبيّ ﷺ من المدينة إلى غزوة تبوك، جعل فيها أمير المؤمنين ﵇ ليخلفه في أمور المسلمين، وحينما شاهد الحزن في عينيه نتيجة الحرمان من المشاركة في الجهاد قال له:

---

١. سورة يس: الآية ٦٥.

٢. سورة البقرة: الآية ٧.

٣. انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج٦، ص٣٨١-٣٨٤؛ السيوطي، الدرّ المنثور، ج٥، ص٢٠.

٤. ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج٦، ص٣٨١.

«أَمَا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ مِنِّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى إِلَا أَنَّهُ لَا نَبِيَّ بَعْدِي»[١].

ب) قال الإمام أبوعبد الله الصّادق ﷺ:

«إِنَّ اللهَ عَزَّ ذِكْرُهُ خَتَمَ بِنَبِيِّكُمُ النَّبِيِّينَ فَلَا نَبِيَّ بَعْدَهُ أَبَداً، وَخَتَمَ بِكِتَابِكُمُ الْكُتُبَ فَلَا كِتَابَ بَعْدَهُ أَبَداً»[٢].

٤. السرّ في ختم النبوّة

يعود السرّ في ختم النبوّة إلى سببين رئيسيّين هما عالميّة الدّعوة النبويّة وخلود الدِّين الإسلاميّ، وسنقدّم أدناه شرحاً مختصراً لكلّ واحد من هذين الرّكنين الأساسيّين من أركان الخاتميّة:

٤.١. عالميّة الدّعوة النبويّة

إنّ عالميّة الدّعوة النبويّة وعدم اختصاصها بقوم أو منطقة خاصة تعدّ من المبادئ الواضحة لدين النبيّ الأكرم ﷺ، فحتّى أولئك الّذين لا يؤمنون بهذا الدِّين يعلمون جيّداً أنّ الدعوة الإسلاميّة عامّة وشاملة للبشريّة قاطبة وأنّها غير محدودة بمنطقة جغرافيّة محدّدة.

وخير دليل ـ بل وأقواها ـ لإثبات هذا المدّعى هو القرآن الكريم الّذي بان صوابه وثبتت صحّته في الدّروس المتقدّمة. فلو ألقينا نظرة إجماليّة على هذا الكتاب الإلهيّ المقدّس لأدركنا بكلّ وضوح أنّ دعوته كانت عامّة وشاملة ولا تختصّ بقوم أو عرق أو لغة معيّنة.

ولذا نرى أنّ القرآن خاطب عموم النّاس بخطابات من قبيل: ﴿يَا أَيُّها النّاس﴾[٣]، و ﴿يَا بَنِي آدَمَ﴾[٤]، وأكّد على أنّ هدايته شاملة لجميع ﴿النّاس﴾[٥]، و ﴿العَالَمِينَ﴾[٦]. وذكر في مواطن عدّة

---

١ . انظر: الصدوق، معاني الأخبار، ص٧٨؛ المفيد، الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد، ج١، ص١٥٦.

٢ . الكليني، الكافي، ج١، ص٢٦٩.

٣ . انظر: سورة البقرة: الآية ٢١؛ سورة النساء: الآيتان ١ و١٧٤؛ سورة فاطر: الآية ١٥.

٤ . انظر: سورة الأعراف: الآيات ٢٦، ٢٧، ٢٨، ٣١، ٣٥؛ سورة يس: الآية ٦٠.

٥ . انظر: سورة البقرة: الآيتان ١٨٥ و١٨٧؛ سورة آل عمران: الآية ١٣٨؛ سورة إبراهيم: الآيتان ١ و٥٢؛ سورة الجاثية: الآية ٢٠؛ سورة الزمر: الآية ٤١؛ سورة النحل: الآية ٤٤؛ سورة الكهف: الآية ٥٤؛ سورة الحشر: الآية ٢١.

٦ . انظر: سورة الأنعام: الآية ٩٠؛ سورة يوسف: الآية ١٠٤؛ سورة التكوير: الآية ٢٧؛ سورة القلم: الآية ٥٢.

وآيات كثيرة أنّ رسالة النبيّ الأكرم ﷺ جاءت لـ ﴿النّاس﴾[1] كافّة ولـ ﴿العَالَمينَ﴾[2]:

﴿تَبَارَكَ الَّذِى نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيراً﴾[3].

حيث إنّ دخول الألف واللّام على كلمة «عالمين» في هذه الآية يُفيد العموم بحسب قواعد اللّغة العربيّة، فـ«العالَمين» تعني جميع سكّان العالم؛ ولذا فالقرآن نذيرٌ للنّاس كافّة، في كلّ زمان ومكان حتّى يوم القيامة، ولا يختصّ بزمانٍ أو مكانٍ معيّن. من هنا، فالقرآن كتاب إلهي خالد، والدِّين الإسلاميّ دين أبديّ، والرسول الكريم ﷺ هو من أبلغ هذا الكتاب وهذا الدِّين من الله (سبحانه وتعالى) إلى العالم أجمع.

وفي آية قرآنيّة أخرى، جرى التّأكيد على شمول الدعوة النبويّة لكلّ من اطّلع عليها[4]، وفي بعض الآيات خُوطب أتباع سائر الدّيانات الأخرى وعوتبوا تحت عنوان «أهل الكتاب»[5]، وأُثبتت لهم الرّسالة النبويّة، واعتُبر الهدف من نزول القرآن الكريم على النبيّ ﷺ انتصار الإسلام وظهوره على الأديان الأخرى:

﴿هُوَ الَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾[6].

هذا مضافاً إلى وجود شواهد تاريخيّة متعدّدة دالّة على أنّ النبيّ ﷺ أرسل كتباً إلى ملوك الدّول كقيصر الرّوم وكسرى إيران وملوك مصر والحبشة والشّام ورؤساء القبائل العربيّة المختلفة، وبعث لهم الرُّسل، ودعاهم جميعاً إلى اعتناق هذا الدِّين المقدّس، وحذّرهم من تبعات الإصرار على الكفر ومغبّة عدم الدخول في الإسلام. ولولا هذا البُعد العالميّ للدين الإسلاميّ لمّا تمّت مثل هذه الدّعوة العامّة، ولكان أمام الأقوام والأمم الأخرى عذرٌ لِرفض الانضواء تحت راية الإسلام.

---

١ . انظر: سورة النساء: الآية ٧٩؛ سورة الحج: الآية ٤٩؛ سورة سبأ: الآية ٢٨.

٢ . انظر: سورة الأنبياء: الآية ١٠٧؛ سورة الفرقان: الآية ١.

٣ . سورة الفرقان: الآية ١.

٤ . انظر: سورة الأنعام: الآية ١٩.

٥ . انظر: سورة آل عمران: الآيات ٦٥، ٧٠، ٧١، ٩٨، ٩٩، ١١٠؛ سورة المائدة: الآيتان ١٥ و١٩.

٦ . انظر: سورة التوبة: الآية ٣٣؛ سورة الفتح: الآية ٣٨؛ سورة الصف: الآية ٩.

في ضوء هذه الأدلّة، لا يبقى أيّ مجال للشكّ في عموم الدّعوة النبويّة وعالميّة الدِّين الإسلاميّ المقدّس.

٢.٤. خلود الدِّين الإسلاميّ

إنّ الدِّين الإسلاميّ يحمل لواء هداية النّاس إلى يوم القيامة؛ لأنّه دين خالد، وهذا الخلود رهن ببعدين أساسيّين:

أ) خلود القرآن الكريم: يختلف الكتاب السّماوي للدّين الإسلاميّ عن الكتب والنّصوص الدينيّة الأخرى في كونه كتاباً خالداً، وقد قال القرآن الكريم في هذا الصّدد:

﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ * لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾[1].

ويُستفاد من هذه الآية الشّريفة أنّ القرآن الكريم لن يفقد صحّته واعتباره مدى الّدهر، وقد صرّحت بعض الرّوايات بهذه الحقيقة أيضاً، ومنها ما روي من أنّ زرارة سأل الإمام أبا عبد الله الصّادق عليه السلام عن الحلال والحرام، فقال:

«حَلَالُ مُحَمَّدٍ حَلَالٌ أَبداً إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وحَرَامُه حَرَامٌ أَبَداً إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، لَا يَكُونُ غَيْرُهُ ولَا يَجِيءُ غَيْرُهُ»[2].

ب) نظام الإمامة والولاية: على الرّغم من انقطاع حبل النبوّة بعد نبيّ الإسلام صلى الله عليه وآله، إلّا أنّ الشّريعة الإسلاميّة لا زالت حيّة ونضرة وفاعلة وستبقى كذلك إلى يوم القيامة. ولمزيد من الإيضاح نقول: إنّ بعثة الأنبياء الإلهيّين جاءت لأهداف معيّنة، لم تنتهِ بموت رسول الله صلى الله عليه وآله؛ ولذا لا تنتهي حاجة البشر إلى بلوغ النّتائج الّتي بُعث من أجلها الأنبياء.

فتلاوة الآيات الإلهيّة، وتعليم الكتاب والحكمة، ونشر المعرفة الإلهيّة، وإعلام النّاس بالأوامر والنّواهي الإلهيّة، وإتمام الحجّة الإلهيّة، والتبشير والإنذار، وبيان الحقّ ورفع الاختلافات الدينيّة، ورفع مقام الإنسان من مرتبة الحيوانيّة إلى أرفع الكمالات الإنسانيّة، وإقامة القسط والعدل، وغيرها من أهداف بعثة الأنبياء، لا تقتصر على حياة خاتم الأنبياء صلى الله عليه وآله.

---

١. سورة فصلت: الآيتان ٤١-٤٢.

٢. الكليني، الكافي، ج١، ص٥٨.

ولا ريب في أنّ عدم الاكتراث بهذه الأهداف بعد وفاة رسول الله ﷺ يحول دون حصول البشريّة على نتائج بعثة الأنبياء، وتتجلّى ضرورة بلوغ تلك الأهداف في وجوب الإمامة بعد عصر النبوّة؛ ولذا تُعدّ الإمامة الّتي يؤمن بها الشّيعة امتداداً لرسالة النبيّ الكريم ﷺ بغية تحقيق جميع أهداف الأنبياء. على أنّ الفارق الوحيد بين الإمام والنبيّ يتجسّد في انقطاع الوحي التشريعيّ الّذي يُعدّ من أهمّ معالم النبوّة عند وفاة النبيّ، فيما تبقى المقامات الأخرى لخاتم الأنبياء ﷺ متجلّية في الأئمّة من بعده.

وحديث المنزلة المأثور عن رسول الله ﷺ والّذي نقلناه قبل قليل، يكشف عن هذه الحقيقة بشأن أمير المؤمنين عليه السلام فضلاً عن بيان موضوع الخاتميّة؛ حيث إنّه يشير إلى التناظر بين منزلة النبيّ وأمير المؤمنين واقتصار الاختلاف على مقامهما في الوحي والنبوّة التّشريعيّة، وهذا الكلام يعني أنّ خاتمة الشّرائع برمّتها قد أوحيت من الله (سبحانه وتعالى) إلى النبيّ الأكرم ﷺ، ولم يوحَ إلى الأئمّة أيّ شريعة جديدة في نظام الإمامة. ولهذا السّبب، سيبقى حلال الله والنبيّ محمّد ﷺ حلالٌ وحرامهما حرامٌ إلى يوم القيامة[١]. وعندئذٍ يكون الواجب الأساسيّ للأئمّة المعصومين هو تبيين شريعة خاتم النبيّين ﷺ وتطبيقها على المجتمع المسلم.

نعم، ينقطع الوحي الإلهيّ التّشريعيّ بانتهاء النبوّة، بينما يبقى الوحي غير التّشريعيّ مستمرّاً؛ ولذا قال (سبحانه وتعالى) في مُحكم كتابه الكريم:

﴿تَنَزَّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذۡنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمۡرٖ﴾[٢].

ومن الواضح أنّ التنزيل ورد في هذا الآية بصيغة الفعل المضارع «تَنَزَّلُ» الدالّ على استمرار نزول الملائكة حتّى بعد وفاة رسول الله ﷺ؛ ففي عصر الرّسالة كانت الملائكة والرّوح تنزل على قلب النبيّ ﷺ، وأما بعد وفاته فهي تنزل على خلفائه وأوصيائه، وهذا النزول مستمرّ إلى يوم القيامة؛ ولذا قال أمير المؤمنين عليه السلام:

«إِنَّ لَيْلَةَ الْقَدْرِ فِي كُلِ سَنَةٍ، وَإِنَّهُ يَنْزِلُ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ أَمْرُ السَّنَةِ، وَإِنَّ لِذَلِكَ الْأَمْرِ وُلَاةً بَعْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ».

---

١ . انظر: الصدوق، عيون أخبار الرضا عليه السلام، ج٢، ص٢٠ -٢١.

٢ سورة القدر: الآية ٤.

ولمّا سُئل الإمام عليه السلام عن هؤلاء الولاة، ذكر أوصياء النبيّ صلى الله عليه وآله الّذين تنزل عليهم الملائكة في ليلة القدر قائلاً:

«أَنَا وَأَحَدَ عَشَرَ مِنْ صُلْبِي، أَئِمَّةٌ مُحَدَّثُونَ»[١].

وكما ترى، ورد في هذا الحديث وفي عشرات الرّوايات الأخرى التّعبير عن الأئمّة المعصومين عليهم السلام بـ«المحدَّث»، ما يدلّ على استمرار الارتباط بين الله (سبحانه وتعالى) وخلفاء الرّسول الكريم صلى الله عليه وآله. وهذا الاتصال العلميّ والارتباط المعنويّ لا يضرّ بالخاتميّة؛ بل إنّه ضامن لخلود الدِّين الإسلاميّ المبين.

* الأسئلة

١. ما معنى الضّرورة في الدِّين؟ ولماذا كان ختم النبوّة من الضروريّات الإسلاميّة؟
٢. أثبت ختم النبوّة من وجهة نظر القرآن الكريم والرّوايات.
٣. ماهي الإشكاليات الّتي تواجه عقيدة الخاتميّة و كيف تجيب عنها؟
٤. أثبت أنّ الدِّين الإسلاميّ دينٌ عالميٌّ مع ذكر شواهد من القرآن في التّاريخ.
٥. ما هي عوامل خلود الدِّين الإسلاميّ؟ اذكر جواباً وافياً ومبسوطاً.
٦. كيف أدير ملفُ قيادة المجتمع الإسلاميّ بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله في ضوء موضوع الخاتميّة؟

* موضوعات للبحث

- اكتب بحثاً حول الفِرق الّتي عارضت موضوع الخاتميّة في التّاريخ، وبيّن لماذا نشأ لديهم هذا الانحراف؟
- في ضوء الإيمان بالخاتميّة، كيف يُعالج الدِّين الإسلاميّ المسائل المُستحدثة الّتي يواجهها المجتمع البَشَريّ وبأيّ طريقة يتعامل معها؟

---

١. الكليني، الكافي، ج١، ص٢٤٧؛ الخزّاز الرازي، كفاية الأثر في النصّ علي الأئمّة الاثني عشر، ص٢٢١؛ النعماني، الغيبة، ص٦٠.

الباب الخامس

الإمامة

٣٢

ضرورة الإمامة

في مستهلّ بحث الإمامة، لا بدّ من التعرّف على مفهوم الإمامة، وبيان ضرورة بحث هذا الأصل العقدي؛ ذلك أنّ بعض المُغرضين يحاولون إثارة شبهة مفادها أنّ بحث الإمامة لا يعدو الموضوع التاريخي، ولم تعد له فائدة في عصرنا الرّاهن. هذا الدّرس سيبيّن لنا أهميّة موضوع الإمامة في الفكر الإسلاميّ.

يُعدّ الإيمان بالإمامة وقيادة الأئمّة المعصومين المنصوبين من الله (سبحانه وتعالى) بعد النبيّ الأكرم ﷺ من الأصول المهمّة في الإسلام، وقد شهد التّاريخ نشوب أوّل خلاف بين أصحاب النبيّ ﷺ بعد وفاته حول مسألة الإمامة، ثمّ حظيت هذه المسألة باهتمام شديد من علماء الإسلام[١]. من هنا، تناول علماء الإماميّة بحث موضوع الإمامة بصورة موسّعة في مؤلّفاتهم التفسيريّة والروائيّة والتاريخيّة ورسائلهم الكلاميّة والعرفانيّة[٢]؛ فثمة تاريخ طويل لبحث الإمامة؛ لكنّ الشّيعة المعروفين بالفضل والعلم والمعرفة المستمدّة من القرآن والسنّة استفاضت بحوثهم ومناقشاتهم في هذه المسألة واستطاعوا التصدّي للانحراف في خطّ الإمامة بكلّ بسالة[٣].

في بداية الحديث، ينبغي بحث مفهوم الإمامة وشرح معناها باعتبارها من أهمّ الأصول

---

١ . انظر: الناشئ الأكبر، مسائل الإمامة، ص١٧٧.

٢ . يزدي مطلق، امامت پژوهی: بررسی دیدگاه امامیه، معتزله واشاعره؛ نقلًا عن: معجم ما كُتب عن الرّسول وأهل البيت، ج٥، ص١٣٣؛ ج١٠، ص٦٩.

٣ . انظر: ابن النديم، الفهرست، ص٣٢٧.

العقديّة، ومن ثمّ دراسة ضرورتها وأهميّتها للمسلمين والمجتمع الإسلاميّ.

١. معنى الإمامة

تعني الإمامة لغةً التقدّم على الآخرين، والإمام هو «كلُّ مَن ائتَمَّ بهِ قومٌ كانُوا على الصّراطِ المستقيمِ أَو كانُوا ضالّينَ»[١].

وأمّا اصطلاحاً - في اصطلاح المتكلّمين المسلمين - فالإمامة هي القيادة الدّينيّة والسياسيّة للنّاس بعد النبيّ الأكرم ﷺ؛ ولذا قالوا في تعريفها:

«هيَ رِئاسةٌ عامّةٌ في أمرِ الدّينِ والدُّنيا خلافةً عنِ النبيِّ ﷺ»[٢].

وعرّفها العلماء من الشّيعة والسنّة بهذه العبارة أو بعبارة قريبة منها غالباً[٣].

وقد جرى التّعبير عن موضوع الإمامة في القرآن الكريم بتعابير مختلفة، فورد لفظ «إمام» أو «أئمّة» في اثنتي عشرة آية، وأريد منه المعنى اللّغوي المعروف، أي المقتدى والمأتمّ به[٤].

وعند الحديث عن الإمامة، تتبادر إلى الأذهان مفردتا الشّيعة والسنّة أيضاً. الشِّيعةُ لغةً تعني أَتباع الرّجل وأنصاره[٥]، بينما يُراد من السنّة مقابل الشّيعة ما نُسب إلى السنّة، بمعنى من يسير على منهج السنّة[٦].

وأمّا بحسب اصطلاح مباحث الإمامة فالشّيعي هو من يؤمن أنّ الإمامة حقّ مسلّم لأمير المؤمنين عليّ عليه السلام وأبنائه بعد وفاة رسول الله ﷺ بمقتضى النصّ الإلهيّ وتبليغ النبيّ الكريم ﷺ،

١ . ابن منظور، لسان العرب، ج١٢، ص٢٤، مادّة «أمم».

٢ . التفتازاني، شرح المقاصد، ج٥، ص٢٣٢.

٣ . انظر: القوشجي، شرح تجريد العقائد، ص٣٦٥؛ القاضي الجرجاني، شرح المواقف، ج٨، ص٣٧٦؛ الإسترآبادي، البراهين القاطعة في شرح تجريد العقائد الساطعة، ج٣، ص٢٠٥؛ العلامة الحلّي، نهج الحقّ وكشف الصدق، ص١٧١؛ المقدّس الأردبيلي، الحاشية على إلهيات الشرح الجديد للتجريد، ص١٧٨.

٤ . هذه الآيات هي: سورة البقرة: الآية ١٢٤؛ سورة التوبة: الآية ١٢؛ سورة الحجر: الآية ٧٩؛ سورة الإسراء: الآية ٧١؛ سورة الأنبياء: الآية ٧٣؛ سورة السجدة: الآية ٢٤؛ سورة الفرقان: الآية ٧٤؛ سورة هود: الآية ١٧؛ سورة القصص: الآيتان ٥ و٤١؛ سورة الأحقاف: الآية ١٢؛ سورة يس: الآية ١٢.

٥ . ابن منظور، لسان العرب، ج٨، ص١٨٨، مادّة «شيع».

٦ . المصدر نفسه، ج١٣، ص٢٢٠، مادّة «سنن».

ويعتبر نفسه تابعاً لأولئك الأئمّة الميامين؛ في حين أنّ السنّي هو القائل بخلافة الخلفاء الثّلاثة بعد الرّسول الأكرم ﷺ، وأنّ الإمام عليّ عليه السلام رابع خلفاء المسلمين[١].

٢. ضرورة بحث الإمامة

تُعتبر الإمامة من الأصول والمبادئ العقديّة الأساسيّة، فيجب على كلّ مسلم البحث في هذا الموضوع، ويمكن إثبات ضرورة الإمامة بالطّرق الآتية:

١.٢. الدليل العقليّ

لا ريب في تبادر هذا السّؤال إلى ذهن الباحث عن الحقيقة: ألم يحدّد الله (سبحانه وتعالى) شخصاً لقيادة المجتمع بعد وفاة رسول الله ﷺ؟ وإن كان الأمر كذلك، فمن هو هذا الشّخص؟ فعلى الأقلّ ثمّة احتمال بوجود شخص تجب طاعته على النّاس بحكم الأمر الإلهيّ، ولكونه مفسّراً للقرآن ومبيّناً للأحكام وقائداً لهم في الدنيا والآخرة. ومع وجود مثل هذا الاحتمال، يحكم العقل أنّ الإنسان مكلّف بالتحرّي عن الحقيقة والبحث عمّا يأمر الله به. وفي هذه الحالة، لا يكون الإنسان معذوراً لو قصّر في هذا التّكليف وثبت وجود مثل هذا الشّخص واقعاً[٢].

٢.٢. الأهميّة من الناحية العقديّة

لقد جرى الكلام في القرآن الكريم وأحاديث المعصومين عليهم السلام عن موضوع الإمامة بطريقة تكشف عن أهميّتها الكبيرة ومكانتها الرّفيعة في منظومة العقائد الدّينيّة، ومن ذلك قوله (سبحانه وتعالى) في محكم كتابه الكريم:

﴿يَآ أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوٓا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ﴾[٣].

فطبقاً لهذه الآية، أُمر بإطاعة أولي الأمر إلى جانب إطاعة الله ورسوله، وحُكم بوجوبها، ومن المسلّم به أنّه لا يمكن إطاعة وليّ الأمر دون معرفته. ومن الواضح أنّ المراد من «أولي الأمر» في

---

١. انظر: الشهرستاني، الملل والنحل، ج١، ص١٤٦؛ الطبري، تحفة الأبرار في مناقب الأئمّة الأطهار، ص١٣١.

٢. انظر: الصافي الكلبايكاني، نظام امامت ورهبرى، ص١.

٣. سورة النساء: الآية ٥٩.

هذه الآية الشّريفة هو من ينطبق عليه عنوان صاحب الولاية والّذي تجب على الأمّة طاعته في المرتبة الّتي تتلو إطاعة النبيّ ﷺ.

ومن هذا المُنطلق، تجب معرفة الإمام من باب المقدّمة لطاعته، ولا يُعذر أيّ شخص في ترك معرفة إمامه والبحث في هذا الموضوع مطلقاً[١].

وفي ما يرتبط بأهميّة الإمامة ومنزلتها بين سائر الأصول العقديّة الأخرى، قال الإمام أبوجعفر الباقر عليه السلام في تفسير الآية الشّريفة: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌۖ وَلِكُلِّ قَوۡمٍ هَادٍ﴾[٢]:

«رَسُولُ اللهِ ﷺ الْمُنْذِرُ، وَلِكُلِّ زَمَانٍ مِنَّا هَادٍ يَهْدِيهِمْ إِلَى مَا جَاءَ بِهِ نَبِيُّ اللهِ»[٣].

على هذا الأساس، لا ريب في استمرار الإمامة وتواصلها باعتبارها النّظام الهادي للمجتمع بعد النبوّة، وهذا بدوره يكشف عن أهميّتها الكبيرة في استمرار أصل الرّسالة.

ومن هنا، شدّد الإمام أبوالحسن الرّضا عليه السلام خلال وصفه للإمامة الإلهيّة على أنّ الدّين لا يكتمل أساساً دون الإمامة، فقال:

«أَمْرُ الْإِمَامَةِ مِنْ تَمَامِ الدِّينِ... فَمَنْ زَعَمَ أَنَّ اللهَ (عَزَّ وَجَلَّ) لَمْ يُكْمِلْ دِينَهُ فَقَدْ رَدَّ كِتَابَ اللهِ، وَمَنْ رَدَّ كِتَابَ اللهِ فَهُوَ كَافِرٌ بِهِ»[٤].

نعم، بلّغ النبيّ الكريم ﷺ ما تحتاجه الأمّة الإسلاميّة من أحكام في عصره؛ لكن توجد مسائل وأحكام لم يكن قد حان وقت العمل بها آنذاك؛ ولذا أودعها لدى وصيّه ليبيّنها للنّاس في الوقت المناسب[٥]. و لذا نرى إنّ كثيراً من المعارف والحقائق الدّينيّة الواردة في القرآن والسنّة ذُكرت بصورة عامّة ومجملة، ووظيفة الإمام شرحها وتوضيحها عن طريق العلم الّذي وصله من رسول الله ﷺ.

إلى هنا اتّضح أنّ الإمامة من الأصول الأساسيّة للدين ومن المتعذّر معرفة الدّين معرفة تامّة

---

١ . انظر: الصافي الكلبايكاني، نظام امامت ورهبرى، ص١.

٢ . سورة الرعد: الآية ٧.

٣ . الكليني، الكافي، ج١، ص١٩١.

٤ . المصدر نفسه، ص١٩٨.

٥ . انظر: العسكري، نقش ائمه در احياء دين، ج٢، ص٢٥.

دون معرفة الإمام؛ ولهذا أشارت بعض الرّوايات النبويّة إلى أهميّة معرفة الإمام بصورة مباشرة، فقال رسول الله ﷺ في هذا الخصوص:

«مَنْ مَاتَ وَهُوَ لَا يَعْرِفُ إِمَامَهُ مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً»[١].

٢. ٣. النّتائج العمليّة للاعتقاد بالإمامة

يمكن إدراك أهميّة الإمامة من خلال النتائج العمليّة للاعتقاد بها؛ حيث إنّ الإيمان بالإمام المعصوم يحول دون تسلّل المُنحرفين والمُغرضين وغير المؤهّلين إلى الحكومة، ويمنع انحراف القيادة عن السّيرة النبويّة والسنّة المحمّديّة، وبخلاف ذلك فإنّ المجتمع الإسلاميّ يواجه مشاكل عويصة من قبيل الابتداع في الدّين وتصدّي الأفراد غير الصالحين للسّلطة والانحراف عن مسار القرآن الكريم والسنّة النبويّة الشّريفة.

وما التّاريخ الإسلاميّ بعد وفاة النبيّ الكريم ﷺ إلّا خير دليل على هذا المُدّعى، فيبيّن بوضوح كيف انحرف المجتمع الإسلاميّ عن المسار الصّحيح، وكيف آل الحكم وقيادة الأمّة الإسلاميّة إلى بني أميّة وبني العبّاس، فتسلّط على رقاب المسلمين حكّام لا يتوانون عن ارتكاب كلّ أشكال الظّلم والجور مثل يزيد بن معاوية والمنصور الدّوانيقي؟[٢].

لم تنخر هذه الانحرافات جسد الأمّة الإسلاميّة ولم يبتلِ المسلمون بهذا الفساد الكبير إلّا بعد سلب الخلافة من أهلها الحقيقيّين الّذين أوصى بهم نبيّ الإسلام ﷺ، وتولّي الجهلة وغير المؤهّلين لدفّة الحكم، والعمل بأنواع البدع والانحرافات باسم الدّين والسنّة[٣].

ومن أبرز الأمثلة على مخاطر الانحرافات وتسلّط غير المؤهّلين على مقاليد الحكم وتصدّيهم لقيادة المجتمع الإسلاميّ، يمكن الإشارة إلى حروب الجمل والنهروان وصفّين والمواجهة الدّامية بين طوائف من المسلمين وبين جيش الإمام عليّ ؑ، والّتي أسفرت عن مقتل جموع غفيرة وأراقة دماء كثير من الأبرياء لأسباب واهية.

---

١. البرقي، المحاسن، ج١، ص١٥٣ و أيضاً انظر: الكليني، الكافي، ج١، ص٣٩٧؛ الصفار، بصائرالدرجات، ص٢٥٩.

٢. انظر: الطبري، تاريخ الطبري، ج١، ص٢٧٩؛ ج٤، ص٢٢٥؛ السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص١٣٧ و٢٢٣؛ اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ج٢، ص١٩٠؛ ابن قتيبة، الإمامة والسياسة، ص٢٢٣.

٣. انظر: شرف الدين، النصّ والاجتهاد؛ العسكري، نقش ائمه در احياء دين.

ومن هذا المُنطلق، لا بدّ للمُسلم من دراسة موضوع الإمامة بتجرّد وبمنتهى الجدّية وبعيداً عن كلّ أشكال التعصّب والتّقليد، والتعرّف بصورة مستدلّة إلى المذهب الحقّ والوقوف إلى جانبه[1].

* **الأسئلة**

١. بيّن ما معنى كلمة «الإمامة» في اللّغة العربيّة، وأثبت أنّ هذا المعنى هو المراد في القرآن الكريم أيضاً.
٢. اشرح ما معنى «الإمامة» حسب اصطلاح المتكلّمين.
٣. لو قال شخص بعدم ضرورة بحث الإمامة، كيف تستدلّ على لزوم بحثها بدليل عقليّ وآخر نقليّ؟
٤. أثبت بدليل عمليّ ضرورة بحث موضوع الإمامة.

* **موضوعات للبحث**

- اكتب بحثاً مختصراً حول معنى الميتة الجاهليّة الواردة في الحديث النّبوي الشّريف.
- استخرج أمثلة على ابتداع الخلفاء بعد وفاة النبيّ الكريم ﷺ واشرحها في الدّرس.

---

١. انظر: مصباح اليزدي، آموزش عقائد، ص٢٩٥.

٣٣

أدلّة حاجة الأمّة إلى الإمام

بعد اتّضاح ضرورة بحث أصل موضوع الإمامة، سنتناول أوّل موضوع من سلسلة مباحث الإمامة، وهو مسألة ضرورة وجود إمام لقيادة الأمّة وهدايتها؛ فبعد إثبات هذه المقدّمة تتوفر الأرضيّة اللّازمة لمتابعة البحث حول معرفة الإمام وخصائصه.

على الرّغم من ترتّب هذا البحث على معرفة الإمام وخصائصه، لكن بما أنّه غالباً ما يتبادر إلى الأذهان السّؤال عن الحاجة إلى وجود الإمام في بداية بحث الإمامة؛ فلا بدّ لنا في هذا الدّرس من التطرّق إلى أهمّ الأدلّة في هذا المجال بصورة مختصرة:

١. تبيين الدّين

يُعدّ الدّين الإسلاميّ آخر الأديان الإلهيّة وأكملها والكفيل بتلبية الاحتياجات الماديّة والمعنويّة للبشر إلى يوم القيامة؛ ولذا أكد القرآن الكريم على أنّه ﴿بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى﴾[١]، و ﴿بَلَاغٌ لِلنَّاسِ﴾[٢]، والحاوي لجميع الحقائق وسبل إسعاد البشريّة. وفي الوقت الّذي تمّ بيان بعض الحقائق في هذا الكتاب السّماوي بصورة واضحة ودون لبس، ورد جلّها بصورة مختصرة و إجماليّة؛ وهذا يفيد بأنّ النّاس وحدهم ودون معلّم إلهي غير قادرين على الاستفادة من القرآن استفادة تامّة.

ومن هنا، نادى القرآن الكريم بصوتٍ عالٍ، أنّ البشر بحاجة إلى «مُبيِّن» ليتمكنوا من

---

١. سورة آل عمران: الآية ١٣٨.

٢. سورة إبراهيم: الآية ٥٢.

الاستفادة من القرآن؛ ولهذا السّبب كان رسول الله ﷺ يبيّن للنّاس ما يختلفون فيه من الأمور الدّينيّة والمسائل المختلفة، لا سيما في فهم القرآن الكريم. قال (جلّ وعلا) في هذا الخصوص:

﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[1].

ثمّ أشار بصورة عامّة إلى دور النبيّ ﷺ والآخرين من العلماء الربّانيّين في التبيين المطلوب، فقال:

﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ﴾[2].

فأوضحت الآية الشّريفة الأخيرة بصراحة أنّ علم تفسير الآيات القرآنيّة موجود في صدور أشخاص معيّنين. ويُستفاد من ذلك أنّ الله (سبحانه وتعالى) يؤكّد على وجود عالم واعٍ في كلّ عصر لتبيين الحقائق الواردة في القرآن الكريم بصورة مُجملة، ومن البديهيّ لزوم أن يكون هذا العالم متسلّحاً بالعلم الإلهيّ ليكون بمقدوره بيان جميع الوجوه الخفيّة للقرآن.

ولا يخفى أنّ هذه الموارد المُجملة في القرآن الكريم، بما فيها المعارف العقديّة والأخلاقيّة والسياسيّة والاقتصاديّة وغيرها، كثيرة وواسعة جدّاً، ما يعني بقاء كثير من الوجوه الدّينيّة مجهولة وخفيّة عند عدم وجود المُبيّن الإلهيّ، وسنشير هنا إلى مثال واحد على هذه الحقيقة النّاصعة:

أجمع المسلمون على أنّ الصلاة أهمّ العبادات وأنّها عمود الدّين، وفي الوقت نفسه لم يرد في القرآن الكريم بشأن كيفية أدائها إلّا النزر اليسير، بحيث لا يمكن معرفة خصوصيّات هذه العبادة المهمّة اعتماداً على الرّجوع إلى هذا الكتاب السماوي فقط، هذا من جهة. ومن جهة أخرى، اتّفق جميع المسلمين على كثير من خصوصيّات الصلاة، نحو عدد الصّلوات اليوميّة وعدد ركعاتها؛ وعندئذٍ لنا أن نتساءل: ما هو منشأ هذا الاتّفاق؟ والجواب أنّ النبيّ الأكرم ﷺ نفسه بيّن أجزاء الصلاة وأركانها وقال:

«صَلُّوا كَمَا رَأَيْتُمُونِي أُصَلِّي»[3].

---

١ . سورة النحل: الآية ٤٤.

٢ . سورة العنكبوت: الآية ٤٩.

٣ . البخاري، صحيح البخاري، كتاب مواقيت الصلاة، باب تضييع الصلاة عن وقتها، ج١، ص٥٤-٥٤٢؛ ابن أبي جمهور، عوالي اللئالئ، ج٣، ص٨٥.

وعلى غرار ذلك، ينبغي وجود أشخاص بعد النبيّ الأكرم ﷺ أيضاً ليبيّنوا للنّاس أحكام الله في الموارد الّتي لم يبيّنها النبيّ ﷺ، فمن الطبيعيّ أنّ النبيّ ﷺ لم تسنح له الفرصة لبيان جميع المعارف الدّينيّة والقرآنيّة للأمّة الإسلاميّة، كما إنّ التّحريف طال كثيراً من الموضوعات حتّى جوانب من الصلاة الّتي حرص النبيّ ﷺ على شرح أغلب أبعادها إبّان حياته؛ وذلك بسبب الغفلة أو الجهل، وهذا ما صرّح به كثير من علماء أهل السنّة أيضاً[١].

وعلى هذا الأساس، فكما نحتاج إلى السنّة النبويّة لبيان القرآن الكريم، كذلك نحتاج إلى أوصياء لرسول الله ﷺ يمتلكون صفات كماله (كالعلم والقوّة والعصمة وما شاكل)؛ ليبيّنوا لنا القرآن والسنّة النبويّة ويتمكنوا من تبيين حقائق الدّين بشكلها الصّحيح أيضاً.

٢. رفع اختلاف الأمّة والحفاظ على الوحدة

من جملة وظائف النبيّ الكريم ﷺ، رفع الاختلاف بين مكوّنات الأمّة الإسلاميّة والحفاظ على وحدتها ورصّ صفوفها حول حبل الحقائق الإلهيّة. و على هذا، فإنّ القرآن الكريم قد صرّح على ضرورة مرافقة الرسول بالكتاب لإيضاح الحقائق و رفع الخلافات بين المسلمين:

﴿وَمَآ اَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ اِلّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِى اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[٢].

من هنا، ذهب القرآن الكريم إلى أنّ من أهمّ وظائف المؤمنين -والّذي يُمثّل شرط اكتمال الإيمان أيضاً- الرّجوع إلى النبيّ ﷺ في موارد الاختلاف والقبول بحكمه من أعماق القلب ودون أيّ حرج، فقال:

﴿فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيما شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِيٓ اَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾[٣].

وفي حالة عدم وجود خليفة إلهي في المجتمع الإسلاميّ بعد النبيّ ﷺ، لا يجد النّاس من يرجعون إليه في موارد الاختلاف؛ ولذا لا بدّ من وجود أفراد حاملين لعلم النبيّ ﷺ وقادرين

---

١ . انظر: البخاري، صحيح البخاري، ج١، ص٩١؛ ابن طاووس، الطرائف في معرفة مذاهب الطوائف، ج٢، ص٥٣٥-٥٤٥.

٢ . سورة النحل: الآية ٦٤.

٣ . سورة النساء: الآية ٦٥.

على رفع الاختلافات الّتي تدبّ بين المسلمين وتشخيص المسار الصّحيح من المزالق والانحرافات[١].

٣. مَنْع الانحراف في الدّين

لا ريب في أنّ تراث النبيّ الأكرم ﷺ يتعرّض بمرور الزّمن وفي الظّروف الطبيعيّة إلى التّغيير والتّحريف؛ ذلك أنّ وساوس الشّيطان ومساعي المنافقين الرّامية إلى قلب الحقائق الدّينيّة متواصلة دائماً ومُتوائمة مع الأهواء النفسيّة للإنسان.

على أنّ هذه الانحرافات تارةً تحصل في سياق تحريف النّصوص الدّينيّة، إمّا بالزّيادة أو الحذف أو تغيير النّصوص الدّينيّة، وتارةً تتحقّق عن طريق تأسيس مدارس ومذاهب مُزيّفة؛ بُغية منع الإنسان من بلوغ الدّين الحقّ والإيمان به.

وفي ضوء ذلك، لا تقام الحجّة الإلهيّة على الأجيال اللّاحقة ولا يتحقّق الهدف من الرّسالة الدّينيّة في حال فقْد الإمام.

٤. تحقّق الدّين وإقامة الحدود الإلهيّة

يُشكّل الدّين الإلهيّ منهج حياة الإنسان، والهدف الرئيس للأنبياء يرمي إلى تحقيق هذا المنهج على صعيد الحياة الفرديّة والاجتماعيّة. ثمّ إنّ المدارس البشريّة غالباً ما تكتفي ببيان المعارف النظريّة والعمليّة فقط، وتخوّل الآخرين تطبيق أفكارها وتنفيذ أوامرها؛ في حين أنّ القادة الإلهيين لا يأخذون على عاتقهم مسؤوليّة تطبيق البرامج الّتي يُعلنون عنها وحسب؛ بل يجعلون تنفيذ الأوامر السماويّة في صدر رسائلهم وأعمالهم.

ويُمكن مُلاحظة هذه النّقطة بوضوح في سيرة نبيّ الإسلام ﷺ؛ فمنذ الأيّام الأولى للبعثة وبالتزامن مع نشر المعارف الدّينيّة الغرّاء كان النبيّ الكريم ﷺ بصدد تنشئة أناس مؤمنين وتشكيل مجتمع مؤمن؛ وبالتالي، أثمرت تلك المساعي الطيّبة وتمخّضت عن تشكيل المُجتمع الإسلاميّ المنشود في المدينة على يديه المباركتين.

---

١. انظر: العلامة الحلّي، كشف المراد، ص٣٦٢-٣٦٣؛ المجلسي، حقّ اليقين، ج١، ص٣٧.

وتشير الوثائق والمستندات التاريخيّة إلى أنّ النبيّ ﷺ كان حتّى آخر ساعات عمره الشّريف حريصاً أشدّ الحرص على المجتمع الإسلاميّ من بعده، فأوصى بجملة من الوصايا للحيلولة دون ضعفه أو انهياره.

وبهذا يمكن القول: إنّ الإصرار على تطبيق الأحكام الإلهيّة ومواصلة النّهج العمليّ للنبيّ الأكرم ﷺ من جملة أهداف الرّسالة النبويّة الّتي يجب استمرارها بعد وفاته أيضاً، ولا شكّ في أنّ ذلك لا يتحقّق إلّا في ظلّ استمرار نهج الحكومة النبويّة في سياق نظام الإمامة والولاية.

❁ الأسئلة

١. أَثْبِت عن طريق الآيات القرآنيّة أنّ المسؤوليّة الأساسيّة للنبيّ الأكرم ﷺ في تبيين المعارف السماويّة لا تتحقّق بعده إلّا عن طريق إمامة أوصيائه.

٢. كيف تتحقّق وحدة الأمّة الإسلاميّة وعلى يد مَن؟ وما دور الإمام في هذا الخصوص؟

٣. كيف يمكن الاستدلال على لزوم الإمامة عن طريق ضرورة تحقّق الدّين؟

❁ موضوعات للبحث

- ما الأسباب والعوامل الّتي تدفع الأمم إلى الانحراف وتحريف الدّين بعد الأنبياء برأيك؟
- استخرج محاور أخرى حول أهميّة الإمامة ودور الإمام وناقشها مع زملائك في الدّرس.

٣٤

نصب الإمام

بحثنا في الدّروس السّابقة ضرورة الإمامة ولزوم وجود إمام بعد النبيّ، واتّضح لماذا يجب بحث الإمامة وما هي أسباب حاجة الأمّة إلى الإمام؟، والآن يُطرح سؤالٌ أساسيّ مفاده: هل يمكن تفويض النّاس لاختيار واحد منهم لهذا المنصب؟، في هذا الدّرس سَنُجيب عن هذا السّؤال ضمن بضعة نقاط.

بعدما ثبت أنّ الإمامة أمرٌ ضروريّ، ولا بدّ منه لهداية الأمّة، فأمام هذه الأمّة أحد خيارين: إمّا أن تختار هي واحداً من أفرادها للاضطلاع بمهمّة الإمام، وإمّا أن تخضع للإرادة الإلهيّة الّتي تختار لها الشّخص المُناسب للنّهوض بأعباء الإمامة. وفي ما يأتي جملة من الأدلّة الّتي تثبت أنّ الأمّة قاصرة عن اختيار القائد الصّالح والإمام الحقيقيّ، وأنّ ذلك خارج عن دائرة قدرتها، وأنّه لا يتيسّر إلّا بالاختيار الإلهيّ فقط:

١. الدليل العقليّ على تعذّر اختيار الأمّة للإمام

لو أمعن أيّ عاقل في ماهيّة الاختيار ومن يقوم بعمليّة الاختيار ومن يقع عليه الاختيار، لأدرك بما لا يدعُ مجالاً للشكّ بأنّ اختيار النّاس للإمام الإلهيّ أمر متعذِّر وغير ممكن، والأدلّة على ذلك هي:

١.١. كلّ اختيار يقوم به البشر يتطلّب مزيداً من العلم والوعي، ويختلف عمق هذا الوعي وسعته بما يتناسب وأهميّة موضوع الاختيار. وفي ضوء مفهوم الإمام ودوره في تبيين الكلام الإلهيّ في

القرآن وحلّ اختلافات الأمّة وهداية أفرادها، يجب أن يمتلك من يقوم بعمليّة الاختيار هذه علماً واسعاً جدّاً؛ ليتسنّى له اختيار الشّخص اللّائق والمؤهّل القادر على تحمّل مسؤوليّات الإمامة، والمعصوم من الخطإ والزّلل عند أداء هذه الرّسالة الخطيرة. ولا يخفى أنّ أيّ شخص لا يمتلك مثل هذه الإحاطة العلميّة الواسعة؛ بل حتّى لو اجتمع جميع أفراد البشر ووضعوا علومهم وعقولهم مع بعضها فليس بوسعهم تشخيص مثل هذا الشّخص واختياره من بين الجموع البشريّة الهائلة، ولا ينبغي أن ننسى أنّ كثيراً من الأشخاص يبقون بعيدين عن الأضواء وعن أعين الآخرين؛ بل إنّ أوصاف النّاس غالباً ما تبقى مجهولة ومستورة عن الآخرين.

١. ٢. ليس العامل الوحيد لاختيار الشّخص هو علمه و إحاطته بالموضوع دائماً؛ و إنّما قد يصار إلى عدم اختيار الشّخص حتّى مع العلم بمؤهلاته واختيار شخص آخر لأسباب وعوامل أخرى من قبيل الأغراض الشخصيّة أو السياسيّة أو ما شاكل.

١. ٣. لطالما نشبت خلافات عميقة واندلعت حروب مدمّرة بين الجماعات والأحزاب المختلفة بسبب اختلافها حول اختيار شخصٍ ما. وبما أنّ فلسفة الإمامة والقيادة في الأمّة هي إيجاد الوحدة والانسجام بين أفرادها، فمن الواضح أنّه لا يمكن عن طريق هذه الحروب والنّزاعات اختيار شخص يقع على عاتقه أن يكون منادياً بالوحدة والانسجام ليصنع أمّة واحدة.

٢. الدليل الديني على نفي اختيار الأمّة للإمام

تُستشفّ هذه الحقيقة في أمر اختيار الإمام من آيات القرآن الكريم وأحاديث الأئمّة المعصومين عليهم السلام أيضاً؛ حيث رفع الله (سبحانه وتعالى) مسؤوليّة اختيار الإمام عن كاهل النّاس، وهذا ما بيّنه الأئمّة الميامين من أهل البيت عليهم السلام في أحاديثهم عن المقام السّامي للإمامة الإلهيّة اعتماداً على الكلام الإلهيّ، وفي ما يأتي أمثلة على ذلك:

٢.١. آيات القرآن الكريم

شدّد الباري (سبحانه وتعالى) في القرآن الكريم على أنّ أمر الإمامة في غاية الأهميّة، وأنّ نَصْبَ الإمام من اختصاصه وحده؛ ولذا لم يختر النبيّ إبراهيم عليه السلام لمقام الإمامة إلّا بعد سلسلة من

الاختبارات والابتلاءات الشّاقّة، فقال في هذا الصّدد:

﴿وَاِذِ ابْتَلَى اِبْراهيمَ رَبُّهُ بِكَلِماتٍ فَاَتَمَّهُنَّ قالَ اِنّي جاعِلُكَ لِلنّاسِ اِماماً﴾[١].

إنّ الإمامة بمفهومها الواسع تعني القيادة والولاية في جميع الشؤون الظّاهريّة والباطنيّة للنّاس، ويلاحَظ أنّ القرآن الكريم يرى أنّ هذا المقام يحتاج إلى نَصْبٍ إلهيّ كما هو الحال في منصب النبوّة؛ ولذا أكّد (جلّ وعلا) في آيتين مُنفصلتين على أنّه نَصّب النبيّ آدم عليه السلام والنبيّ داوود عليه السلام خلفاء في الأرض، فقال:

﴿وَاِذْ قالَ رَبُّكَ لِلْمَلآئِكَةِ اِنّي جاعِلٌ فِي الْاَرْضِ خَليفَةً﴾[٢].

﴿يا داوُدُ اِنّا جَعَلْناكَ خَليفَةً فِي الْاَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النّاسِ بِالْحَقِّ﴾[٣].

وقد حذّر الله (سبحانه وتعالى) عباده المؤمنين من مخالفة ما يختاره لهم، فإذا قضى أمراً وحكم بشيءٍ هو أو رسوله صلى الله عليه وآله بإذن منه سبحانه، فليس لهم حينئذٍ إلّا الطّاعة والاستسلام لأمره؛ إذ ليس لهم الخيار مع اختياره:

﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ ما يَشآءُ وَيَخْتارُ ما كانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحانَ اللهِ وَتَعالى عَمّا يُشْرِكُونَ﴾[٤].

﴿وَما كانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ اِذا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ اَمْراً اَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ اَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُبيناً﴾[٥].

وفي هذا السّياق، أكد الإمام أبوالحسن الرّضا عليه السلام على أنّ اختيار الإمام يُمثّل أحد مصاديق الأمر الإلهيّ في الآيات الشّريفة المُتقدّمة، وقال بشأن الغاصبين للخلافة والإمامة:

«رَغِبُوا عَنِ اخْتِيَارِ اللهِ وَاخْتِيَارِ رَسُولِ اللهِ وَأَهلِ بَيْتِهِ إِلَى اخْتِيَارِهِمْ»[٦].

---

١ . سورة البقرة: الآية ١٢٤.

٢ . سورة البقرة: الآية ٣٠.

٣ . سورة ص: الآية ٢٦.

٤ . سورة القصص: الآية ٦٨.

٥ . سورة الأحزاب: الآية ٣٦.

٦ . الكليني، الكافي، ج١، ص٢٠١؛ الصدوق، عيون أخبار الرضا عليه السلام، ج١، ص٢٢٠.

٢.٢. روايات أهل البيت عليهم السلام

ورد تأكيد شديد في سنّة النبيّ الكريم صلى الله عليه وآله والرّوايات المأثورة عن الأئمّة من أهل البيت عليهم السلام -أيضاً- على ضرورة نَصْبِ الإمام من الله (سبحانه وتعالى)، وسنأتي لاحقاً على ذكر بعض الرّوايات النبويّة في هذا الخصوص، أمّا الآن فَنُسلّط الضّوء على فقرات جميلة ودقيقة من حديث للإمام علي بن موسى الرّضا عليه السلام في هذا المجال، وتتجلّى أهميّة هذه الفقرات في أنّها مشتملة على استدلال عقلي أيضاً لهذا الموضوع.

روي أنّه لما دخل الإمام أبوالحسن الرّضا عليه السلام إلى مَرْوْ، كَثُر الكلام والاختلاف بين النّاس حول أمر الإمامة، فكان كلّ شخص يروم إثبات رأيه في الموضوع وبيان حدود منزلة الإمام وشأنه من وجهة نظره. وعندئذٍ دخل أحد أصحاب الإمام عليه السلام عليه وأعلمه خوض النّاس في هذا المجال، فتبسّم الإمام عليه السلام وقال كلاماً جامعاً حول فضل الإمام وصفاته، منه:

«مَنْ ذَا الَّذِي يَبْلُغُ مَعْرِفَةَ الْإِمَامِ أَوْ يُمْكِنُهُ اخْتِيَارُهُ؟ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ ضَلَّتِ الْعُقُولُ، وَتَاهَتِ الْحُلُومُ، وَحَارَتِ الْأَلْبَابُ، وَخَسَأَتِ الْعُيُونُ، وَتَصَاغَرَتِ الْعُظَمَاءُ، وَتَحَيَّرَتِ الْحُكَمَاءُ، وَتَقَاصَرَتِ الْحُلَمَاءُ، وَحَصِرَتِ الْخُطَبَاءُ، وَجَهِلَتِ الْأَلِبَّاءُ، وَكَلَّتِ الشُّعَرَاءُ، وَعَجَزَتِ الْأُدَبَاءُ، وَعَيِيَتِ الْبُلَغَاءُ، عَنْ وَصْفِ شَأْنٍ مِنْ شَأْنِهِ أَوْ فَضِيلَةٍ مِنْ فَضَائِلِهِ، وَأَقَرَّتْ بِالْعَجْزِ وَالتَّقْصِيرِ.

وَكَيْفَ يُوصَفُ بِكُلِّهِ، أَوْ يُنْعَتُ بِكُنْهِهِ، أَوْ يُفْهَمُ شَيْءٌ مِنْ أَمْرِهِ، أَوْ يُوجَدُ مَنْ يَقُومُ مَقَامَهُ، وَيُغْنِي غِنَاهُ؟ لَا، كَيْفَ وَأَنَّى وَهُوَ بِحَيْثُ النَّجْمُ مِنْ يَدِ الْمُتَنَاوِلِينَ، وَوَصْفِ الْوَاصِفِينَ، فَأَيْنَ الِاخْتِيَارُ مِنْ هَذَا؟ وَأَيْنَ الْعُقُولُ عَنْ هَذَا؟ وَأَيْنَ يُوجَدُ مِثْلُ هَذَا؟»[1].

نرى أنّ الإمام عليه السلام أشار إلى المقام الرّفيع والمنزلة السّامية للإمام مقارنة بسائر النّاس، مشدّداً على عدم إمكان معرفة الإمام وإدراك هذا المقام دون الاطّلاع الكافي على خصوصيّاته وخصاله المُتميّزة؛ فعقول البشر عاجزة عن إدراكه ومعرفة كنهه.

---

١. الكليني، الكافي، ج١، ص٢٠١؛ الصدوق، عيون أخبار الرضا عليه السلام، ص٢١٩.

والخُلاصة أنّه يمكن إثبات عجز البشر عن معرفة الإمام واختياره بالطّريق العقليّ، مثلما دلّت الرّوايات الإسلاميّة على تعذّر ذلك أيضاً؛ ولذا لا سبيل إلى معرفة حجّة الله على الأرض إلّا عن طريق الوحي الإلهيّ، فالله (سبحانه وتعالى) يختار بعلمه اللّامتناهي الشّخصيّة الأنسب لتحمّل أعباء قيادة الأمّة، ومن ثمّ يَنْصُبُه إماماً لها في الوقت المناسب، ويعرّفهم عليه على لسان نبيّه.

❀ الأسئلة

١. اذكر دليلاً عقليّاً على لزوم نَصْبِ الإمام من الله (سبحانه وتعالى).

٢. كيف يمكن أن تستدلّ عن طريق القرآن الكريم على نَصْبِ الله (سبحانه وتعالى) للإمام؟

٣. اذكر موارد من القرآن الكريم على نَصْبِ الإمام والخليفة من قبل الله.

٤. على أيّ دليل برأيك استند الإمام الرّضا عليه السلام لإثبات النَصْبِ الإلهيّ للإمام؟

❀ موضوع للبحث

- ابحث موضوع الخلافة الإسلاميّة بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وبيّن ما آل إليه مصير الأمّة نتيجة نظرية اختيار النّاس للخلفاء.

٣٥

خصائص الإمام

بعدما ثبت أنّ الإنسان غير قادر على اختيار إمامه، وأنّ نَصْبَ الإمام من الله (سبحانه وتعالى) حصراً، ينبغي أن نرى ما هي خصائص الإمام؟ إذ يمكن التعرّف على المصاديق الدّقيقة للإمام عن طريق معرفة خصائصه. من هنا، سنتعرّف في هذا الدّرس على بعض خصائص الإمام.

توجد خصائص عدّة للإمام والخليفة الحقيقيّ لرسول الله ﷺ، وسنبحث في هذا الدّرس أهمّ ثلاث خصائص:

١. العصمة

العصمةُ لغةً تعني المنعَ والوقاية والحفظ[١]، والمعصوم يُطلق في الأبحاث الكلاميّة على من يُحفظ من نقصين هما المعصية والخطأ[٢]. ويَجب في الإمام أن يكون معصوماً من المعصية والخطإ للأسباب الآتية:

١.١. إنّ الإمام خليفة النبيّ ﷺ في معظم شؤونه كتبيين الدّين وإزالة الاختلافات بين النّاس؛ ولذا لا بدّ من أن يكون معصوماً كالنبيّ ليتمكّن من القيام بمسؤوليّاته على النّحو الأكمل. فكما إنّ النبيّ معصوم من اقتراف الذّنوب والوقوع في الخطإ، وهذه العصمة هي الّتي تكسبه

---

١ . ابن منظور، لسان العرب، ج١٢، ص٤٠٤، مادّة «عصم».

٢ . مطهري، مجموعه آثار شهيد مطهرى، ج٢، ص١٥٨.

ثقة النّاس وقبول كلامه باعتباره وحياً إلهيّاً، كذلك يجب أن يتحلّى الإمام بهذه الصّفة؛ كي يكون مقبولاً بين النّاس في تبيين الأحكام الإلهيّة وليتّبعوه ويسيروا على هديه[١].

١. ٢. إن لم يكن حجّة الله معصوماً عن الخطإ والزّلل كما هو حال النّاس الاعتياديّين؛ فقد تكون أقواله وأفعاله صحيحة تارة وغير صحيحة تارة أخرى، والعقل السّليم لا يقبل باتّباع مثل هذا الشّخص مطلقاً؛ لأنّه مفتقر إلى المعيار الثابت في تشخيص الصّحيح من غير الصّحيح[٢].

١. ٣. إنّ العصمة من خصائص الإمام الّتي صرّح بها الباري (سبحانه وتعالى) في القرآن الكريم، فقد أشرنا سابقاً إلى الآية ١٢٤ من سورة البقرة الواردة بخصوص ارتقاء النبيّ إبراهيم عليه السلام إلى مقام الإمامة، ثمّ سأل إبراهيم عليه السلام ربّه أن يعطي هذا المقام إلى ذرّيته، لكنّ الله (جلّ وعلا) ردّ عليه بالقول:

﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾[٣].

وقد استدلّ علماء الشّيعة بهذه الآية على أنّ الشّخص المعصوم من الخطإ فقط يستطيع أن يصبح إماماً؛ لأنّ الله (سبحانه وتعالى) نفى أن ينال الظّالم عهد الإمامة، وغير المعصوم - أي الظّالم لنفسه أو لغيره - لا يستحقّ مثل هذا المقام الرّفيع، هذا من جهة. ومن جهة أخرى، الآية الشّريفة المُتقدّمة مُطلقة، فلم يقيّد الظّالمون بوقتٍ محدّد؛ فلا بدّ من حمل عدم الظّلم على جميع الأوقات. وعليه، لا يصبح العاصي إماماً وإن تاب[٤].

٢. العلم الإلهيّ

من الخصائص الأُخرى للإمام، لزوم امتلاك العلم الإلهيّ، فحيث يقع على عاتق الإمام وظيفة كوظيفة النبيّ ترتكز على هداية النّاس في الأمور العَقديّة والأخلاقيّة والأعمال الفرديّة والاجتماعيّة، لا بدّ من أن يكون كالنبيّ في مجال الهداية أيضاً، أي متزوّداً بعلم لا يشوبه الشكّ

---

١. المصدر نفسه، ج٤، ص٧٤١.

٢. انظر: العلامة الحلي، الألفين، ص١٥٥.

٣. سورة البقرة: الآية ١٢٤.

٤. انظر: العلامة الحلي، الألفين، ص٦١؛ ابن شاذان، الإيضاح، ص٦٠؛ عبد الله شبّر، حقّ اليقين في معرفة أصول الدين، ج١، ص١٣٤.

ولا يعتريه الجهل. ومن ناحية أخرى، كما إنّ النبيّ مجهّز من الله (سبحانه وتعالى) بالقدرة على الإدارة اللّازمة لمحاربة الظّالمين والمستكبرين، كذلك ينبغي أن يجهّز الإمام بمثل هذه القدرة الكفيلة بمواجهة الأعداء أيضاً.

ويمكن مشاهدة مثل هذا الأمر في قصّة بلوغ النبيّ يوسف ﷺ الحكم في مصر؛ حيث نقل عنه (سبحانه وتعالى) قوله للعزيز في مجال التصدّي للمشاكل الاقتصاديّة في عصره:

﴿اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾[1].

فيُمكن أن يُستفاد من هذه الآية للاستدلال على لزوم العلم للإمام، ويُستفاد من كلمة «حفيظ» أنّ من شروط الإمام القدرة على التدبير والّتي تشتمل على كمالات متنوّعة نحو الأمانة أيضاً.

وقد أشرنا سابقاً إلى أنّ الله (سبحانه وتعالى) يُفيض على بعض عباده علماً خاصّاً يعبّر عنه بـ«العلم الوهبيّ»، وعلم الإمام من جنس هذه العلوم الّتي لا يمكن مقارنتها بالعلوم الظّاهريّة الأخرى بسبب سعتها وإحاطتها واشتمالها على الظّرائف والدّقائق المعرفيّة حسبما أفادت الرّوايات.

٣. الأفضليّة

لمّا كان يقع على عاتق الإمام وظيفة خطيرة متمثّلة بهداية البشر وقيادة الأمّة، ينبغي له أن يكون أفضل من سائر الأفراد في جميع الفضائل والكمالات؛ ولذا فالإمام خيرة عصره، ولا يمكن مقارنته مع أيّ إنسان آخر في زمانه؛ بل وفي كلّ عصر ومصر.

وعلى هذا الأساس، قال الإمام أبوالحسن الرّضا ﷺ في حديث جامع لفضائل الإمام ومرتبة الإمامة:

«الْإِمَامُ وَاحِدُ دَهْرِهِ، لَا يُدَانِيهِ أَحَدٌ، وَلَا يُعَادِلُهُ عَالِمٌ، وَلَا يُوجَدُ مِنْهُ بَدَلٌ، وَلَا لَهُ مِثْلٌ وَلَا نَظِيرٌ، مَخْصُوصٌ بِالْفَضْلِ كُلِّهِ مِنْ غَيْرِ طَلَبٍ مِنْهُ لَهُ وَلَا اكْتِسَابٍ؛ بَلِ

---

١. سورة يوسف: الآية ٥٥.

اخْتِصَاصٌ مِنَ الْمُفْضِلِ الْوَهَّابِ»[1].

وقال النبيّ الكريم ﷺ يوم الغدير في وصف الإمام عليّ ؈:

«مَعَاشِرَ النَّاسِ! فَضِّلُوا عَلِيّاً فَإِنَّهُ أَفْضَلُ النَّاسِ بَعْدِي مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى»[2].

وبقطع النّظر عن اختصاص الرّواية بعليّ ؈، الشّاهد فيها أنّه اعتبر الأفضل، ويستفاد من التّعبير ب«أفضل النّاس» أنّ هذه الأفضليّة مُطلقة، ومن المسلّم به أنّها شاملة للإمامة على الأمّة.

وحيث إنّ الأئمّة هم أوصياء الأنبياء الإلهيّين وخلفاؤهم من بعدهم، ينبغي أن تتوفّر فيهم الخصائص الأخلاقيّة الّتي ذكرها الله (سبحانه وتعالى) للأنبياء - أيضاً - وفي ما يأتي نبذة عن تلك الفضائل:

أ) الصبر واليقين: قال الباري (سبحانه وتعالى) في هذا المجال:

﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾[3].

يُعدُّ الصّبر في سبيل الله معياراً لبلوغ مقام الإمامة، فنرى أنّ الله (سبحانه وتعالى) بيّن في هذه الآية سبب موهبة الإمامة، وذكر أنّ الملاك في ذلك صبرهم في جنب الله، وبالجملة فالإمام يجب أن يكون إنساناً ذا يقين، مكشوفاً له عالم الملكوت، متحققّاً بكلمات من الله سبحانه[4].

ب) العبوديّة لله (سبحانه وتعالى): أكّد الباري (عزّ وجلّ) على أنّ العبودية لله من جملة صفات الأئمّة، فقال:

﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾[5].

---

١ . الكليني، الكافي، ج١، ص٢٠١؛ ابن شعبة الحرّاني، تحف العقول عن آل الرسول صلى الله عليهم، ص٤٣٩؛ الصدوق، عيون أخبار الرضا ؈، ج١، ص٢١٩.

٢ . الطبرسي، الاحتجاج، ج١، ص٦٠ ؛ الفتال النيشابوري، روضة الواعظين، ج١، ص٩٣.

٣ . سورة السجدة: الآية ٢٤.

٤ . انظر: الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ج١، ص٢٧٢-٢٧٣.

٥ . سورة الأنبياء: الآية ٧٣.

فالأئمّة الإلهيّيون كانوا أشخاصاً صالحين وموّحدين ومتعبّدين حتّى قبل بلوغهم مقام النبوّة والإمامة، وفي ضوء ذلك منحهم الله مواهب أخرى[١].

يُشار إلى أنّ القرآن الكريم أشار في هذه الآية الشّريفة إلى وجود ارتباط بين نَصْبِ الأئمّة للهداية الإلهيّة وبين وجود هذه الشّروط والخصوصيّات فيهم.

ج) التّواضع: ورد في بعض الرّوايات أنّ أمير المؤمنين عليه السلام كان يمشي في الأسواق وهو والٍ، يُرشد الضالّ ويُعين الضّعيف، ويمرّ بالبيّاع والبقّال فيفتح عليه القرآن ويقرأ:

﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[٢].

ثُمّ يقول:

«نَزلتْ هذهِ الآيةُ في أهلِ العدلِ والتّواضعِ منَ الولاةِ، وأهلِ القُدرةِ منْ سائرِ النّاسِ»[٣].

على أنّ فضائل الأئمّة الإلهيّين ومكارم أخلاقهم أوسع من أن يستوعبها هذا البحث المُختصر، و يجب الإشاره إلى فضائل أخرى كالشجاعة والإدارة و غيرها، فبوسع الرّاغبين بمعرفة المزيد الرّجوع إلى المصادر ذات الصلة في هذا المجال[٤].

---

١ . انظر: مكارم الشيرازي، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج ١٠، ص٢٠٦؛ طالقاني، پرتوى از قرآن، ج١، ص٢٩٤.

٢ . سورة القصص: الآية ٨٣.

٣ . ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج٤٢، ص٤٨٩؛ الآلوسي، روح المعاني في تفسير القرآن، ج٢٠، ص١٢٥؛ المتقي الهندي، كنز العمّال، ج١٣، ص١٨٠، ح٣٦٥٣٨؛ الطبرسي، مجمع البيان، ج٧، ص٤٢٠؛ ابن البطريق، عمدة عيون صحاح الأخبار في مناقب إمام الأبرار، ص٣٠٨، ح٥١١.

٤ . انظر: الريشهري، دانشنامه قرآن وحديث، ج١٠، مبحث أهل البيت عليهم السلام.

❀ الأسئلة

١. ما معنى العصمة؟ وما الدّليل على لزوم كون الإمام معصوماً؟

٢. بمَ يختلف علم الإمام عن علم باقي العباد؟

٣. ما المقصود بالأفضليّة في موضوع الإمامة؟ ولماذا يجب أن يكون الإمام أفضل من سائر النّاس الآخرين من هذه الناحية؟

❀ موضوع للبحث

- ابحث موضوع أفضليّة أمير المؤمنين عليه السلام على سائر الخلفاء، واذكر اعترافات ثلاثة من علماء أهل السنّة في هذا المجال.

٣٦

سبل معرفة الإمام

إلى الآن تعرّفنا على خصائص الإمام وبيّنّا الأدلّة على ضرورة توفّر العصمة والعلم والأفضليّة لدى أوصياء رسول الله ﷺ، كما اتّضح لزوم كون الإمام أفضل من الآخرين في الصّفات الأخلاقيّة، الفرديّة، والاجتماعيّة، ومتفوّقاً في جميع الفضائل الإنسانيّة عموماً. وفي هذا الدّرس، سنبحث كيف يمكن معرفة من تتوفّر فيه هذه الخصوصيّات؟

إنّ بيان المعارف والأحكام الإسلاميّة والدّفاع عن الأصول والفروع الإسلاميّة -كما تقدّمت الإشارة إلى ذلك- يُعدّ من الأهداف الأساسيّة للإمامة، ومن الواضح أنّ تحقّق هذا الهدف بالشّكل المطلوب لا يتيّسر دون اتّصاف الإمام بالعلم الكامل بالمعارف والأحكام الإسلاميّة والعصمة العلميّة والعمليّة.

ولكن ينبغي الالتفات إلى أنّ العصمة والعلم الكامل بالشّريعة من الصّفات الباطنيّة بحيث لا يتسنّى لأغلب النّاس تشخيصها والكشف عنها بالطرق المتعارفة[1]؛ ولهذا السّبب يتبادر إلى الأذهان السّؤال الآتي: ما السّبيل إلى معرفة الإمام؟ وأنّى للنّاس في كلّ عصر ومصر التعرّف إلى إمام زمانهم؟

توجد ثلاثة طرق أساسيّة يُستفاد منها لمعرفة الإمام، هي:

١. النصّ

بحثنا سابقاً موضوع النّصب الإلهيّ للإمام، وأشرنا إلى أنّ تعيين الإمام أمر إلهيّ وليس بأيدي

١. انظر: العلامة الحلي، كشف المراد، ص٣٦٦.

النّاس حسب الأدلّة المُستفادة من القرآن والرّوايات، والآن نريد إيضاح تلك الأدلّة والبراهين الكاشفة عن معرفة الإمام، ومنها النصّ.

بما أنّه لا طائل من النَّصب الإلهيّ للإمام إن لم يقترن بالإعلان والتّبليغ، ويُعدّ حينئذٍ لغواً، فلمّا يَنصب الله شخصاً إماماً للنّاس سوف يُعلِمُهم به، ولا سبيل إلى الإعلان عن ذلك سوى النصّ الشّرعي (الكتاب والسنّة). ومن ناحية أخرى، لا يُصار إلى قبول وجود نصّ شرعيّ على الإمام إلّا على فرض النَّصب الإلهيّ؛ إذ لا مصدر للشّريعة سوى الإرادة الإلهيّة، والرّسول الإلهيّ لا يتحدّث من تلقاء نفسه.

هذا وقد حظي موضوع النصّ على الإمامة باهتمام الأئمّة من أهل البيت عليهم السلام والشّيعة عموماً مُنذ اليوم الأوّل لحدوث نزاع بين المسلمين حول خليفة النبيّ صلى الله عليه وآله. فبعد واقعة السّقيفة الّتي أسفرت عن تسليم الخلافة إلى أبي بكر، قرّر عدد من كبار الصّحابة من المهاجرين والأنصار - ممّن يؤمنون أنّ الإمام عليّ عليه السلام أولى بها منه - الذّهاب إلى مسجد رسول الله صلى الله عليه وآله وإنزال أبي بكر من فوق المنبر؛ لكنّ الإمام عليه السلام نهاهم عند التّشاور معه حول القيام بمثل هذا العمل، ودعاهم إلى أن يأتوا الرّجل فيخبروه بما سمعوا من نبيّهم ولا يجعلوه في شُبهة من أمره؛ ليكون ذلك أعظم للحجّة عليه وأبلغ في عقوبته إذا أتى ربّه وقد عصى نبيّه وخالف أمره، فوافقوا على ذلك وانطلقوا إلى مسجد النبيّ صلى الله عليه وآله، واحتجّوا على أبي بكر بعدد من النّصوص الواردة في أمير المؤمنين عليه السلام بمرأى ومسمع من المسلمين[1].

وأمّا الإمام عليّ عليه السلام فعلى الرّغم من أنّه لم يكن حاضراً في واقعة السّقيفة ليحتجّ على دُعاة الخلافة والإمامة بالنّصوص النبويّة، إلّا أنّه لم يترك فرصة طيلة حياته إلّا وفضح فيها المُغتصبين للخلافة بالأحاديث النبويّة في باب الإمامة، ومن ذلك احتجاجه على الشّورى المكوّنة من ستّة أشخاص بحديث الغدير وحديث المنزلة وأدلّة أخرى لإثبات استحقاقه الإمامة وأنّهم أولى منهم بها[2].

ويتّضح ممّا تقدّم أنّ موضوع النصّ الإلهيّ حول الإمامة كان يمثّل أبرز معالم الفكر الشيعيّ

---

١. انظر: الصدوق، الخصال، ج٢، ص٤٦١-٤٦٥.

٢. انظر: ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ج٦، ص١٣٤؛ الأميني، الغدير، ج١، ص٣٢٧-٣٣١.

منذ مطلع تاريخ التشيّع، وقد احتذى متكلّمو الإماميّة بإرشادات الأئمّة من أهل البيت عليهم السلام وتوجيهاتهم في هذا المجال[١].

٢. المُعجزة

تُعتبر المُعجزة من جملة السّبل الكفيلة بإثبات الإمامة، والمُعجزة بمعناها العامّ - كما بيّنّا في بحث النبوّة - تعني أمراً خارقاً للعادة بالتّزامن مع ادّعاء مَنْصِبٍ إلهيّ؛ ولذا فهي تشتمل على خصوصيّات فيها دليل واضح على صدق مُدّعى من يأتي بها، وهذه الخصوصيّات باختصار هي:

أ) ألّا يَقدر على الإتيان بالمُعجزة وفقاً للقدرة البشريّة أيّ إنسان آخر حتّى النّوابغ أيضاً.

ب) أن يأتي بها صاحبها من باب التحدّي، وألّا يُغلب من قبل الآخرين.

ج) أن تقترن المُعجزة بدعوى النبوّة[٢].

وعليه، فلو استطاع شخصٌ القيام بمثل هذا الأمر الخارق للعادة مع ادّعاء منصبٍ إلهيّ، وتحدّى الآخرين أن يستطيعوا مواجهته فعجزوا جميعاً عن ذلك، يُقطع بأنّه مُرسَل من الله.

والشّيعة يؤمنون أنّ الله (سبحانه وتعالى) أجرى على أيدي الأئمّة الميامين عليهم السلام أموراً خارقة للعادة إكراماً لهم باعتبارهم أقرب الأولياء الإلهيّين[٣]. فلا غرو في أنّ الله المنّان وهب هؤلاء الأولياء قُدرة خارقة تُتيح لهم القيام بأعمال خارجة عن إطار السّنن الطبيعيّة والأمور الاعتياديّة والمتعارفة بين النّاس متى ما لزم ذلك، وغالباً ما تكون هذه المعاجز لإثبات إمامتهم وأنّهم الأحقّ بها من غيرهم. ويمكن الإشارة على سبيل المثال إلى واقعة شهادة الحجر الأسود على إمامة الإمام السجّاد عليه السلام بحضور عمّه محمّد بن الحنفيّة:

«عن أبي بجير عالم الأهواز، وكان يقول بإمامة ابن الحنفيّة، قال: حججتُ فلقيتُ إمامي، وكنتُ يوماً عنده فمرّ به غلامٌ شابٌّ، فسلّم عليه، فقام فتلقّاه وقبّل ما بين عينيه وخاطبه

---

١. رباني گلپايگاني، امامت در بينش اسلامى، الفصل الأخير.

٢. مكارم الشيرازي، پنجاه درس اصول عقايد براى جوانان، الدرس الرابع.

٣. انظر: الأميني، الغدير، ج٣، ص٤٠٢.

بالسّيادة، ومضى الغُلام، وعاد محمّد إلى مكانه. فقلتُ له: عند الله أحتسب عناي!؛ فقال: وكيف ذاك؟ قلتُ: لأنّا نعتقد أنّك الإمام المُفترض الطّاعة، تقوم تتلقّى هذا الغلام وتقول له: يا سيّدي؟ فقال: نعم، هو والله إمامي. فقلتُ: ومن هذا؟ قال: عليّ ابن أخي الحُسين عليه السلام، إعلم، إنّي نازعته الإمامة ونازعني، فقال لي: أترضى بالحجر الأسود حكماً بيني وبينك؟؛ فقلتُ: وكيف نحتكم إلى حجرٍ جماد؟؛ فقال: إنّ إماماً لا يكلّمه الجماد فليس بإمام، فاستحييتُ من ذلك، وقلتُ: بيني وبينك الحجر الأسود. فقصدنا الحجر وصلّى وصلّيتُ، وتقدّم إليه وقال: أسألك بالّذي أودعك مواثيق العباد لتشهد لهم بالموافاة إلّا أخبرتنا مَن الإمام منّا؟ فنطق ـ والله ـ الحجر وقال: يا محمّد! سلّم الأمر إلى ابن أخيك، فهو أحقّ به منك، وهو إمامك، وتحلحل حتّى ظننته يسقط، فأذعنتُ بإمامته، ودنتُ له بفرض طاعته؟ قال أبوبجير: فانصرفتُ من عنده وقد دنتُ بإمامته ـ عليّ بن الحسين عليهما السلام ـ وتركت القول بالكيسانيّة»[1].

٣. الفضائل والمناقب

من السّبل الأخرى لمعرفة الإمام، دراسة خصائصه الفرديّة والاجتماعيّة وبحث الزّوايا الشخصيّة في حياته. فقد ذكرنا سابقاً خصائص الإمام ولزوم تحلّيه بالعصمة والعلم والفضائل الأخلاقيّة، وتدلّ هذه الأوصاف على أنّ الإمامة ليست من حقّ المتميّزين بالخصوصيّات المذكورة فحسب؛ بل هي استحقاق لمن لا يدانيهم أحد من معاصريهم ولا يُشقّ لهم غبار.

ومن هذا المُنطلق، عمد علماء التشيّع منذ العصور الأولى إلى إبراز مناقب الأئمّة الأطهار عليهم السلام وذكر فضائلهم الّتي لا تعدّ ومقارنتها بسواهم من دعاة الإمامة؛ من أجل إثبات صحّة مدّعاهم وصواب رأيهم، وما أُلّفت الكتب في فضائل الأئمّة ومناقبهم الكثيرة طيلة التّاريخ إلّا بهدف إثبات إمامتهم غالباً[2].

ويمكن القول: إنّ هذه الطريقة في معرفة الإمام كانت متداولة منذ عصر الرّسول الكريم صلى الله عليه وآله؛

---

١. ابن نما الحلي، ذوب النضار، ص٥٢؛ المجلسي، بحار الأنوار، ج٤٦، ص٢٢؛ وأيضاً انظر: الراوندي، الخرائج و الجرائح، ج١، ص٢٥٧.

٢. انظر: ابن شهرآشوب، مناقب آل أبي طالب؛ ابن البطريق، عمدة عيون صحاح الأخبار في مناقب إمام الأبرار؛ الشامي العاملي، الدرّ النظيم في مناقب الأئمّة اللهاميم.

بل انتشرت على يديه؛ حيث كان يسعى في كلّ برهة، وبمناسبة كلّ حادثة إلى إبراز فضيلة من فضائل أمير المؤمنين عليه السلام وإثبات أفضليته.

❁ **الأسئلة**

١. وضّح الصّلة بين النَّصب والنصّ في موضوع الإمامة.

٢. أثبت أنّ النصّ الشّرعيّ ضروريّ لمعرفة الإمام.

٣. كيف يمكن استكشاف وجود الإمام عن طريق المعجزة؟ وما الفرق بين المُعجزة في الإمامة والنبوّة؟

٤. ماهو دور الفضائل والمناقب في إثبات الإمامة؟ أيّ صفة من الصفات الثلاثة تثبت عن طريقها؟

❁ **موضوع للبحث**

- اشرح في الدّرس ثلاثاً من فضائل ومناقب أمير المؤمنين عليّ عليه السلام وردت في المصادر الأساسيّة لأهل السنّة.

٣٧

الأوصياء الاثني عشر في نصوص الفريقين

تطرّقنا في الدّرس السّابق إلى سبل معرفة الإمام، وأثبتنا أنّه يمكن تشخيص الإمام الحقّ عن دعاة الباطل بطرق ثلاثة، أحدها النصّ على الإمامة، وسنواصل البحث في مجال الأوصياء الحقيقيّين للنبيّ ﷺ على هذا المنوال. وفي هذا الدّرس، سنستعرض النّصوص الدالّة بصراحة على عدد الأوصياء بصورة عامّة.

تناولنا بحث النبوّة في الدّروس المُتقدّمة تحت عنوانين: النبوّة العامّة والنبوّة الخاصّة، وسنقسّم بحث الإمامة إلى الإمامة العامّة والإمامة الخاصّة أيضاً، وما تعرّضنا له إلى الآن يدخل في سياق مبحث الإمامة العامّة، فدرسنا فيه بصورة إجماليّة ضرورة الإمامة، وأدلّة حاجة الأمّة إلى الإمام، وخصائص الإمام، وسبل معرفة الإمام. وأمّا بحث الإمامة الخاصّة فسوف يُخصّص للتّعريف بالأئمّة الاثني عشر من أهل البيت عليهم السلام وفضائلهم ومقاماتهم، وسيتطرّق البحث الأوّل من هذا القسم إلى التعريف العامّ بخلفاء النبيّ ﷺ من حيث العدد.

١. اثنا عشر خليفة في روايات أهل السنّة

ورد في روايات أهل السنّة أنّ خلفاء النبيّ ﷺ اثنا عشر خليفةً، لكنّ هذه الرّوايات على كثرتها لم تذكر أسماء الخلفاء وصفاتهم الدّقيقة؛ بل اكتفت بالإشارة إلى عددهم والأوضاع السّائدة إبّان حكمهم. وإليكم إحدى هذه الرّوايات:

أخرج كتب صحاح أهل السنّة و غيرها من مصادر الشيعة رواية عن جابر بن سمرة، عن

النبيّ الكريم ﷺ، قال:

«لَا يَزَالُ الْإِسْلَامُ عَزِيزاً إِلَى اثْنَيْ عَشَرَ خَلِيفَةً».

وأكمل الراوي، قائلاً: ثمّ قالَ رسولُ الله ﷺ كلمةً لم أفهمها، فقُلت لأبي: ما قالَ؟ فقالَ: قالَ: «كُلُّهُمْ مِنْ قُرَيْشٍ»[١].

وقد أخرج المتّقي الهنديّ هذه الرّواية بصيغ مختلفة تبعاً لما ورد في مصادر أهل السنّة؛ لكنّها جميعاً تشترك في عبارة «اثني عشر خليفة» و«كلّهم من قريش»، وإن ورد في بعضها بدل كلمة «عزيزاً» كلمات من قبيل: منيعاً، قائماً، مستقيماً، صالحاً، ظاهراً، وأمثالها[٢].

المُشكلة الّتي واجهها الشرّاح من أهل السنّة هي تطبيق هؤلاء الخلفاء الاثني عشر على من اعتلى منصب الخلافة بعد رسول الله ﷺ، فذُكرت احتمالات كثيرة على مدى قرون من الزّمن جميعها غير مُقنعة. وفي هذا السّياق، جمع أحد الباحثين المعاصرين من أهل السنّة أقوال علماء المذهب السنّي الرّامية إلى حلّ هذه الإشكاليّة، ثمّ ناقش جميع النظريّات المطروحة، وخلص إلى القول:

«إنّ الحديث لا شكّ في صحّته، وإنّ بعض العلماء يَعدُّ المهديّ المبشّر من هؤلاء الاثني عشر.. ولكن الرّاجح -كما سبق- أنّ الاثني عشر خليفة قد انتهوا بنهاية خلافة هشام بن عبد الملك الأمويّ، ولا شكّ في أنّ الدّين كان قائماً ظاهراً في أيامهم»[٣].

بيد أنّ هذا الحلّ لا يجدي في حلّ المُشكلة أيضاً؛ ذلك أنّ هشام بن عبد الملك هو الخليفة الأمويّ العاشر، وقد سبقه إلى الحكم تسعة خلفاء أمويّين، وإن أضافوا إلى هؤلاء الأفراد الخلفاء الرّاشدين أيضاً يصل العدد إلى ثلاثة عشر خليفة.

وكيفما أرادوا الحساب لا يستقيم العدد «اثنى عشر» الوارد في الحديث الآنف إلّا بأئمة

---

١ . البخاري، صحيح البخاري، ج٩، ص٨١، ح٧٢٢٢، باب الاستخلاف؛ مسلم، صحيح مسلم، ج٣، ص١٤٥٢، ح١٨٢١، باب الناس تبع لقريش؛ وانظر أيضاً: الصافي الكلبايكاني، منتخب الأثر في الإمام الثّاني عشر، ج١، ص١٧-٩٩.

٢ . المتّقي الهندي، كنز العمّال، ج١٢، ص٣٢-٣٤.

٣ . عبد العليم عبد العظيم البستوي، المهدي المنتظر في ضوء الأحاديث والآثار الصحيحة، ص٣٣٢-٣٣٧.

الشّيعة ﷺ، فكلّهم من قريش ومن بني هاشم ومن أهل بيت النبوّة. من هنا قال أمير المؤمنين ﷺ في هذا الصدد:

«بِنَا يُسْتَعْطَى الْهُدَى وَيُسْتَجْلَى الْعَمَى. إِنَّ الْأَئِمَّةَ مِنْ قُرَيْشٍ غُرِسُوا فِي هَذَا الْبَطْنِ مِنْ هَاشِمٍ، لَا تَصْلُحُ عَلَى سِوَاهُمْ، وَلَا تَصْلُحُ الْوُلَاةُ مِنْ غَيْرِهِمْ»[١].

٢. اثنا عشرإمام في روايات الشّيعة

الأئمّة من أهل البيت من وجهة نظر الشّيعة هم: الإمام عليّ، والإمام الحسن، والإمام الحسين، والتّسعة المعصومين من ذريّة الإمام الحسين، الّذين أوّلهم الإمام عليّ بن الحسين السجّاد ﷺ، وآخرهم إمام العصر والزّمان عجّل الله تعالى فرجه الشريف. وقد شَهد القرآن الكريم على عصمة هؤلاء الأئمّة الميامين، وأنّهم الحاملون للعلم الإلهيّ، والمبيّنون للقرآن الكريم، وأنّ الإمام أمير المؤمنين، والأئمة المعصومين الأحد عشر من ولده ﷺ نَصَبَهُم الله (سبحانه وتعالى)، ونصّ على أن يكونوا واحدًا تلو الآخر أوصياء وخلفاء الله في الأرض وحججه على عباده بعد نبيّ الرّحمة ﷺ، والإمام في الأرض حاليًّا هو نجل الإمام الحسن العسكريّ ﷺ، أي الحجّة بن الحسن، صاحب العصر والزّمان عجّل الله تعالى فرجه الشريف.

لقد أشير إلى عدد الأئمّة في روايات متواترة عن النبيّ الكريم ﷺ والعترة الطّاهرة ﷺ، وصرّح بعضها بأسمائهم أو بأسماء بعضهم. و سيأتي زيادة بيان إن شاء الله.

والخلاصة أنّ المصادر الشّيعيّة والسنّيّة دلّت على أنّ خلفاء نبيّ الإسلام ﷺ اثنا عشر خليفةً. وعلى هذا الأساس، سيتبيّن في مباحث الإمامة الخاصّة الّتي سنبحثها بالتفصيل من الآن فصاعداً أيّ الآراء بوسعه تقديم مصاديق منطقيّة تنطبق على الخلفاء الاثني عشر المذكورين، وإثبات ذلك بالأدلّة القطعيّة والشّواهد الواضحة.

---

١. نهج البلاغة، الخطبة ١٤٤، ص٢٠١.

*** الأسئلة**

١. اذكر الشّواهد الواردة في المصادر الشّيعيّة حول الأوصياء الاثني عشر للنبيّ ﷺ.

٢. كيف أُشير إلى الخلفاء الاثني عشر في روايات أهل السنّة؟ وكيف يمكن الاستدلال بهذه الرّوايات على إمامة الأئمّة من أهل البيت عليهم السلام؟

٣. اذكر توجيهين من توجيهات علماء أهل السنّة حول روايات الخلفاء الاثني عشر، ثمّ ناقشهما.

*** موضوع للبحث**

- ابحث في القرآن الكريم، وأثبت أنّ عدد أوصياء الأنبياء الكبار اثنا عشر شخصاً أيضاً.

٣٨

أهل البيت عليهم السلام في الكتاب والسنّة

تعرّفنا في الدّرس السّابق إلى مصاديق الأئمّة بصورة عامّة عن طريق عدد خلفاء النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله، وثبت طبقاً للأدلّة من الفريقين الشّيعة والسنّة أنّ عددهم محصور في دائرة اثني عشر شخصاً. أمّا في هذا الدّرس فسنحاول التعرّف على مصاديق الإمامة والخلافة عن طريق مصطلح «أهل البيت».

إنّ «أهل البيت» ـ وفقاً للرّوايات المُستفيضة المُتّفق عليها بين الشّيعة والسنّة ـ مصطلح ورد في الكتاب والسنّة، ولا يُراد منه المعنى اللّغوي فقط؛ بل المُراد منه النبيّ الكريم صلى الله عليه وآله وأمير المؤمنين وفاطمة الزّهراء والإمام الحسن والإمام الحسين والأئمّة التسعة المعصومون من ذرّيّة الحسين عليهم السلام، فيقتصر المصطلح المذكور على المعصومين الأربعة عشر.

١. مصداق أهل البيت في القرآن والسنّة

ذُكر مصطلح «أهل البيت» في القرآن الكريم في آية التّطهير وفي القصّة المعروفة بـ «واقعة الكساء»، وقد أشار كلّ واحد من الأحاديث المتعلّقة بهذه الواقعة إلى جانب منها فقط، ويمكن تلخيص القصّة المذكورة وفقاً لهذه الأحاديث بما يأتي:

جاء النبيّ الكريم صلى الله عليه وآله ذات يوم إلى بيت زوجته أمّ سلمة وهو ينتظر تلقّي خبراً مهمّاً من الباري (سبحانه وتعالى) بشأن أهل بيته؛ ولذا دخل في الحجرة وطلب من أمّ سلمة أن لا تُدخل عليه أحداً.

في ذلك اليوم، كانت فاطمة عليها السلام تريد أن تصنع لأبيها طعاماً خاصّاً، فطبخت ذلك الطعام وأحضرته له، فقال لها: ائتيني بولديك ليحضرا عندي، فما لبثت أن جاءت بهما إليه، وهما طفلان صغيران، وكذلك دعت له الإمام عليّ عليه السلام.

أشار النبيّ صلى الله عليه وآله إلى أمّ سلمة فوقفت جانباً لتصلّي وتتعبّد، وجلس هو وعليّ والحسن والحسين عليهم السلام ليأكلوا من طعام فاطمة عليها السلام، والحال أنّه لم يكن يتناول طعامه دون إحدى أزواجه؛ بيد أن الأوضاع في ذلك اليوم كانت مختلفة تماماً؛ حيث زُيّن المجلس لأهل البيت وحدهم، ولم يُسمح لغيرهم بالدّخول؛ ولذا لم يدعُ النبيّ صلى الله عليه وآله زوجته أمّ سلمة لتناول الطعام معهم هذه المرّة استثناءاً. وفي هذه الأثناء، نزل الأمين جبرائيل بقوله (سبحانه وتعالى):

﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾[١].

عندئذٍ، أدخل النبيّ صلى الله عليه وآله أمير المؤمنين وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام ورفع يده اليمنى إلى السّماء وقال:

«اللهُمَّ هَؤُلَاءِ أَهْلُ بَيْتِي وَخَاصَّتِي فَأَذْهِبْ عَنْهُمُ الرِّجْسَ وَطَهِّرْهُمْ تَطْهِيراً».

إلى هذه اللّحظة كانت أمّ سلمة واقفة بجانب الحجرة تنظر إلى هذا المشهد النّورانيّ والمعنويّ، ثمّ تقدّمت وأخذت بطرف الكساء وهمّت بالدّخول معهم، لكنّ النبيّ صلى الله عليه وآله منعها، فقالت له: ألستُ من أهل البيت؟ قال: أنتِ على خير، أنتِ من أزواج رسول الله[٢].

ولا يمكن القدحُ في سند حديث الكساء مطلقاً؛ إذ أخرجه كبار المُحدّثين بطُرقٍ مختلفة في كتبهم المُعتبرة، إلى درجة أنّه يمكن ادّعاء التّواتر بشأنه. ثمّ إنّ هذه الرّواية بلغت من الشّهرة حدّاً كبيراً في المُجتمع الإسلاميّ، بحيث أطلق على يوم وقوعها «يوم الكساء»، ولُقّب المعصومون الخمسة الّذين شملتهم الرّحمة الإلهيّة في ذلك اليوم بـ«أصحاب الكساء»[٣].

---

١ . سورة الأحزاب: الآية ٣٣.

٢ . انظر: الكليني، الكافي، ج٨، ص٩٣؛ الحميري، قرب الإسناد، ص١٢٩؛ الطبرسي، الاحتجاج، ج١، ص١١٩؛ الصدوق، الخصال، ج٢، ص٥٥٠.

٣ . انظر: أحمد بن حنبل، المسند، ج٣، ص٢٥٩؛ ج٤، ص١٠٧؛ ج٦، ص٢٩٢؛ مسلم، صحيح مسلم، ج٧، ص١٣٠؛ البيهقي، السنن الكبرى، ج٢، ص١٥٢؛ النسائي، السنن الكبرى، ج٥، ص١٠٨؛ المتقي الهندي، كنز العمّال، ج١٣، ص٦٠٣ و٦٤٩. ☜

ففضلاً عن أمير المؤمنين الإمام عليّ والإمام الحسن والإمام الحسين عليه السلام، يدخل سائر الأئمّة التّسعة الميامين عليهم السلام في عداد أهل البيت، فيكون عنوان «أهل البيت» الوارد في آية التّطهير شاملاً للجميع؛ ولذا قال الإمام أبوعبد الله الصادق عليه السلام في هذا الخصوص:

«وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾ يَعْنِي الْأَئِمَّةَ عليهم السلام وَوَلَايَتَهُمْ، مَنْ دَخَلَ فِيهَا دَخَلَ فِي بَيْتِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وآله»[١].

وروي عن أمير المؤمنين عليّ عليه السلام أنّه قال:

«دَخَلْتُ عَلَى رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وآله فِي بَيْتِ أُمِّ سَلَمَةَ وَقَدْ نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وآله: يَا عَلِيُّ! هَذِهِ الْآيَةُ نَزَلَتْ فِيكَ وَفِي سِبْطَيَّ وَالْأَئِمَّةِ مِنْ وُلْدِكَ. فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ! وَكَمِ الْأَئِمَّةُ بَعْدَكَ؟ قَالَ: أَنْتَ يَا عَلِيُّ، ثُمَّ ابْنَاكَ الْحَسَنُ وَالْحُسَيْنُ، وَبَعْدَ الْحُسَيْنِ عَلِيٌّ ابْنُهُ، وَبَعْدَ عَلِيٍّ مُحَمَّدٌ ابْنُهُ، وَبَعْدَ مُحَمَّدٍ جَعْفَرٌ ابْنُهُ، وَبَعْدَ جَعْفَرٍ مُوسَى ابْنُهُ، وَبَعْدَ مُوسَى عَلِيٌّ ابْنُهُ، وَبَعْدَ عَلِيٍّ مُحَمَّدٌ ابْنُهُ، وَبَعْدَ مُحَمَّدٍ عَلِيٌّ ابْنُهُ، وَبَعْدَ عَلِيٍّ الْحَسَنُ ابْنُهُ، وَالْحُجَّةُ مِنْ وُلْدِ الْحَسَنِ، هَكَذَا وَجَدْتُ أَسَامِيَهُمْ مَكْتُوبَةً عَلَى سَاقِ الْعَرْشِ، فَسَأَلْتُ اللهَ (سبحانه وتعالى) عَنْ ذَلِكَ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ! هُمُ الْأَئِمَّةُ بَعْدَكَ مُطَهَّرُونَ مَعْصُومُونَ وَأَعْدَاؤُهُمْ مَلْعُونُونَ»[٢].

وعلاوةً على هذه الرّواية، شدّد الأئمّة الآخرون من بعد الإمام الحسين عليه السلام في الرّوايات المأثورة عنهم على أنّهم هم أهل بيت النبيّ صلى الله عليه وآله وأنّهم مشمولون بآية التّطهير، منها ما روي عن الإمام جعفر الصّادق عليه السلام أنّه قال:

«نَحْنُ شَجَرَةُ الْعِلْمِ، وَنَحْنُ أَهْلُ بَيْتِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وآله، وَفِي دَارِنَا مَهْبِطُ جَبْرَئِيلَ، وَنَحْنُ خُزَّانُ عِلْمِ اللهِ، وَنَحْنُ مَعَادِنُ وَحْيِ اللهِ، مَنْ تَبِعَنَا نَجَا، وَمَنْ تَخَلَّفَ عَنَّا هَلَكَ»[٣].

☜ وللاطلاع على الأسناد المتواترة لحديث الكساء من طرق أهل السنّة والشيعة، انظر: الريشهري، أهل البيت في الكتاب والسنّة؛ سيد علي الحسيني الميلاني، با پيشوايان هدايتگر، ج٢، ص٢٠٢.

١ . الكليني، الكافي، ج١، ص٤٢٣.

٢ . الخزّاز الرازي، كفاية الأثر في النصّ على الأئمّة الاثني عشر، ص١٥٥؛ الحرّ العاملي، جواهر السنيّة، ص٥٥٨.

٣ . الصدوق، الأمالي، ص٣٠٧.

٢. فضائل أهل البيت في القرآن

يمكن مُلاحظة فضائل أهل البيت عليهم السلام بصورة واضحة في الآيات القرآنيّة، وهذه المضامين القرآنيّة من الوضوح بحيث تحدّث عنها مفسّرو أهل السنّة بصراحة أيضاً، وسنُشير أدناه إلى بعض هذه الشواهد القرآنيّة:

٢.١. آية التّطهير

تعلّقت إرادة الله (سبحانه وتعالى) في آية التّطهير بتطهير أهل البيت عليهم السلام من كلّ أشكال الرّجس، وتسطير فضيلة العصمة في صدر قائمة الفضائل الأُخرى الكثيرة. على أنّ هذه الفضيلة -كما أشرنا سابقاً- مُختصّة بالأنوار الإلهيّة المُطهّرة الأربعة عشر فقط، وغير شاملة لغيرهم من المنسوبين إلى النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله.

٢.٢. آيات سورة الإنسان

اتّفق المفسّرون من الشّيعة والسنّة على أنّ الآيات ٥-٢٢ من سورة الإنسان نزلت بشأن أهل البيت[١] عليهم السلام. من هنا، قيل: إنّ سورة «هل أتى» نزلت بشأن أمير المؤمنين، ومن آيات هذه السورة:

﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُوراً * عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيراً * يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْماً كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيراً * وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً * إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُوراً * إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْماً عَبُوساً قَمْطَرِيراً * فَوَقَاهُمُ اللهُ شَرَّ ذَٰلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُوراً﴾.

لا ريب في أنّ الإيثار يعدّ كمالاً أرفع من الجود والسّخاء من بين الفضائل ومكارم الأخلاق المُختلفة؛ ذلك أنّ الجود والسّخاء يعني أنْ يهب الإنسان الشيء الفائض عن حاجته إلى المُحتاج، خلافاً للإيثار الّذي يعني إنفاق ما يحتاجه الإنسان في سبيل الله. ويمكن مشاهدة

---

١. انظر: تفسير الآيات ٥-٢٢ من سورة الإنسان في: مكارم الشيرازي، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل؛ الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن؛ القندوزي الحنفي، ينابيع المودّة، ج١، ص٢٤٨

مثال واضح على إيثار أهل البيت عليهم السلام في شأن نزول سورة «هل أتى».

أمّا قصّة هذا الإيثار فهي أنّ أمير المؤمنين وزوجته فاطمة وولديهما الحسن والحسين عليهم السلام آثروا على أنفسهم وأعطوا إفطارهم المكوّن من قرص شعير فقط إلى مسكين ويتيم وأسير في ثلاثة ليالٍ مُتتالية، وأفطروا على الماء فقط. وقد كانت درجة الإخلاص في هذا الإيثار عالية جدّاً بحيث أنزل الله (سبحانه وتعالى) في حقّ هذه الأسرة الطّاهرة سورة قرآنيّة امتدح فيها تضحيتهم وإيثارهم بتعابير رائعة.

ويُستفاد من هذه الآيات أنّ أهل البيت عليهم السلام أشخاص محسنون وَفَوْا بعهودهم مع الله (سبحانه وتعالى)، وبلغوا مرتبة الخوف منه (جلّ وعلا)، وأحرزوا مقام الصّبر، وكانت نتيجة هذا الإيثار الخالص والخوف من الله والصّبر على المصائب حصولهم على أفضل النّعم والعطايا الإلهيّة يوم القيامة.

٢. ٣. آيات سورة النّور

الآيات القرآنيّة الأُخرى الّتي تحدّثت عن فضائل أهل البيت عليهم السلام ومناقبهم هي الآيات ٣٥-٣٨ من سورة النّور. فأكّد الباري (سبحانه وتعالى) في هذه الآيات على أنّه نورٌ لجميع الكائنات في السّماوات والأرض، ثمّ وصف نوره في مخلوقاته بما يأتي:

﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشۡكَوٰةٖ فِيهَا مِصۡبَاحٌۖ ٱلۡمِصۡبَاحُ فِي زُجَاجَةٍۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوۡكَبٞ دُرِّيّٞ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٖ مُّبَٰرَكَةٖ زَيۡتُونَةٖ لَّا شَرۡقِيَّةٖ وَلَا غَرۡبِيَّةٖ يَكَادُ زَيۡتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوۡ لَمۡ تَمۡسَسۡهُ نَارٞۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٖۚ يَهۡدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَيَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَٰلَ لِلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ * فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرۡفَعَ وَيُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ * رِجَالٞ لَّا تُلۡهِيهِمۡ تِجَٰرَةٞ وَلَا بَيۡعٌ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوۡمٗا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلۡقُلُوبُ وَٱلۡأَبۡصَٰرُ * لِيَجۡزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحۡسَنَ مَا عَمِلُواْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضۡلِهِۦۗ وَٱللَّهُ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾.

وقد كانت للمُفسّرين آراء مختلفة ومطالب متنوّعة حول تبيين مَثَلُ نور الله (سبحانه وتعالى)، والمقصود بالمشكاة والمصباح والزّجاجة والزّيت والزّيتونة وما شاكل، ولا يسعنا هنا

الخوض في تفاصيل ذلك؛ لكنّ ما يرتبط ببحثنا هو أنّ أهل البيت ﷺ - بحسب ما ورد في التّفاسير والرّوايات - يُعتبرون من المصاديق البارزة لنور الله (سبحانه وتعالى) الكفيل بهداية البشريّة[1].

وروي في التفاسير المُعتبرة من الفريقين:

لَمَّا قَرَأَ رَسُولُ اللهِ ﷺ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾، فَقَامَ رَجُلٌ إِلَيْهِ وَقَالَ: أَيُّ بُيُوتٍ هِيَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ فَقَالَ: «بُيُوتُ الْأَنْبِيَاءِ ﷺ». قَالَ: فَقَامَ إِلَيْهِ أَبُو بَكْرٍ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ! هَذَا الْبَيْتُ مِنْهَا؟ يَعْنِي بَيْتَ عَلِيٍّ وَفَاطِمَةَ ﷺ، قَالَ: «نَعَمْ مِنْ أَفَاضِلِهَا»[2].

وعلى هذا الأساس، لم يَعتبر الله (سبحانه وتعالى) أهل البيت ﷺ في هذه الآيات نموذجاً بارزاً لنوره ورمزاً للنّور الإلهيّ السّاطع فحسب؛ بل ذكر لهم الفضائل الآتية أيضاً:

١. هم مثَل نور الله وهم هُداة النّاس إلى أنوار المعرفة والإيمان.

٢. رفع الله بيوتهم بإرادته وأكسبها مقاماً سامياً.

٣. إنّ اسم الله يُرفع في هذه البيوت دائماً، وإنّ الدّنيا والأمور الماديّة لا تشغلهم عن ذكر الله والعبوديّة الحقيقيّة مُطلقاً.

٤. لا يفتُر أصحاب هذه البيوت عن تسبيح الله صباحاً ومساءاً.

٥. إنّهم يؤمنون بالآخرة إيماناً حقيقيّاً ويخشون يوم القيامة ويحزنون لمصير كثير من النّاس.

٣. فضائل أهل البيت في السنّة

يُمكن استكشاف فضائل أهل البيت ﷺ من الرّوايات المُستفيضة الواردة عن طريق الشّيعة والسنّة على حدٍّ سواء، وسنشير هنا باختصار إلى روايتين فقط في هذا المجال:

---

١. انظر: مكارم الشيرازي، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج١١، ص١٠٢؛ الكليني، الكافي، ج١، ص١٩٥؛ الصدوق، من لا يحضره الفقيه، ج٢، ص٦١٥.

٢. السيوطي، الدرّ المنثور، ج٥، ص٥٠؛ الطبرسي، مجمع البيان، ج٧، ص١٤٤؛ القمي، تفسير القمي، ج٢، ص١٠٤؛ الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ج١٥، ص١٤٢.

٣.١. حديث الثّقلين

إنّ حديث الثّقلين من الأحاديث المشهورة والمُتواترة الّتي تبيّن منزلة أهل البيت عليهم السلام في مقام الهداية والولاية، وقد ورد في مصادر عدّة من أهل السنّة، والنصّ الآتي هوما ذكره النّسائي في سننه:

عن زيد بن أرقم، قال: لمّا رجع رسول الله صلى الله عليه وآله من حجّة الوداع ونزل غدير خمّ، قال:

«إنِّي قَدْ تَرَكْتُ فِيكُمُ الثَّقَلَيْنِ، أَحَدُهُمَا أَكْبَرُ مِنَ الْآخَرِ: كِتَابَ اللهِ وَعِتْرَتِي أَهْلَ بَيْتِي، فَانْظُرُوا كَيْفَ تَخْلُفُونِي فِيهِمَا، فَإِنَّهُمَا لَنْ يَفْتَرِقَا حَتَّى يَرِدَا عَلَيَّ الْحَوْضَ»[١].

ويَدُلّ هذا الحديث الشّريف على أنّ القرآن الكريم وأهل البيت عليهم السلام لا يفترقان أبداً بحسب نصّ الحديث، مضافاً إلى أنّ النصّ الكامل الّذي ورد في كتب أخرى لأهل السنّة والشّيعة ورد فيه بصراحة:

«قَدْ تَرَكْتُ فِيكُم مَا إنْ أَخَذْتُم بِهِ لَنْ تَضِلُّوا، فَلا تَقْدُمُوهُما فَتَهْلَكوا، وَلاتُعلّمُوهُما فَإِنَّهُما أعْلَمُ مِنْكُم»[٢].

وعليه، يُستفاد من حديث الثّقلين فضائل عدّة لأهل البيت عليهم السلام، منها عصمتهم؛ ذلك أنّ عدم الضلال الناجم عن التمسّك بالقرآن ليس إلّا لأنّه كلام الله (سبحانه وتعالى)، ولا يعتريه الخطأ أو الزّلل أبداً، كما إنّ التمسّك بأهل البيت عليهم السلام لا يُفيد عدم الضّلال إلّا في حال كونهم معصومين ولا يصدر منهم الخطأ لا في الأقوال ولا في الأفعال.

ومن الفضائل الأخرى لأهل البيت عليهم السلام المُستفادة من حديث الثّقلين، كونهم عِدلاً للقرآن الكريم والوحي الإلهيّ في مرتبة الهداية وتحقيق السّعادة للنّاس في الدنيا والآخرة.

٣.٢. حديث السّفينة

حديث السّفينة هو الآخر من الأحاديث المُبيّنة لفضائل أهل البيت عليهم السلام، والّتي تواتر نقلها لدى

---

١. أحمد بن حنبل، المسند، ج٣، ص١٤ و١٧؛ النسائي، السنن الكبرى، ج٥، ص٤٥؛ السيوطي، الدرّ المنثور، ج٢، ص٤٠١؛ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج١٢، ص٢٧١؛ القندوزي الحنفي، ينابيع المودّة، ج١، ص٦٥.

٢. انظر: الطبراني، المعجم الكبير، ج٣، ص٦٦؛ النسائي، السنن الكبرى، ج٥، ص٤٥.

الشّيعة والسنّة؛ حيث قال رسول الله ﷺ:

«مَثَلُ أَهْلِ بَيْتِي فِيكُمْ كَمِثْلِ سَفِينَةِ نُوحٍ، مَنْ رَكِبَهَا نَجَا، وَمَنْ تَخَلَّفَ عَنْهَا غَرِقَ»[1].

ويَدُلّ هذا الحديث أيضاً على دور الهداية لأهل البيت عليهم السلام، وعصمتهم من كلّ أشكال الخطإ والزّلل؛ لأنّ الهداية قد حُصرت بقبول ولايتهم، وهي لا تتمّ إلّا بعصمتهم. وثمّة أحاديث أخرى مُشابهة لهذا الحديث شبّهت أهل البيت عليهم السلام بنجوم السماء[2] في أمر الهداية والإرشاد، وبباب حِطّة لدى بني إسرائيل[3] في مجال التّواضع والخضوع أمامهم والامتثال لأوامرهم.

٤. فضائل أهل البيت عليهم السلام في الأدعية والزّيارات

من المصادر الأخرى الغنيّة جدّاً ببيان فضائل أهل البيت عليهم السلام، الفقرات الكثيرة الواردة في الأدعية والزّيارات الموجودة في متناول أيدي عشّاق التقرّب إلى الله (سبحانه وتعالى) وإبراز المحبّة والمودّة للعترة الطّاهرة. وربّما تكون الزّيارة الجامعة الكبيرة المرويّة عن الإمام الهادي[4] عليه السلام من أكمل الأدعية والزّيارات الواردة في هذا المجال؛ حيث احتوت على قائمة بالفضائل والكمالات والمقامات المعنويّة للأئمّة الأطهار عليهم السلام شَرَعَتْ بعبارة «السَّلَامُ عَلَيْكُمْ يَا أَهْلَ بَيْتِ النُّبُوَّةِ»، وواصلت وصفهم بتعابير دقيقة ورائعة وبليغة. على أنّ بيان هذه الفضائل وشرحها خارجٌ عن دائرة اهتمام هذا الكتاب[5]، بيد أنّنا سنكتفي بنقل بعض فقراتها بعنوان

---

١. الطبري، بشارة المصطفى لشيعة المرتضى، ص٨٨؛ الطبراني، المعجم الأوسط، ج٤، ص١٠؛ الطبراني، المعجم الصغير، ج١، ص١٣٩؛ ابن عبد البرّ، الإنباه على قبائل الرواة، ص٤١؛ السيوطي، الجامع الصغير، ج١، ص٣٧٣؛ ج٢، ص٥٣٣؛ المتّقي الهندي، كنز العمّال، ج١٢، ص٩٤ و٩٥ و٩٨.

٢. قال رسول الله ﷺ: «إِنَّمَا مَثَلُ أَهْلِ بَيْتِي فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ كَمَثَلِ نُجُومِ السَّمَاءِ، كُلَّمَا غَابَ نَجْمٌ طَلَعَ نَجْمٌ» (الصدوق. كمال الدين وتمام النعمة، ج١، ص٢٨١).

٣. انظر: الطبري، بشارة المصطفى لشيعة المرتضى، ص٨٨؛ الصدوق، الأمالي، ص٧٤؛ «فَإِنَّ مَثَلَهُمْ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ مَثَلُ بَابِ حِطَّةٍ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ». والمقصود بباب حطّة باب في بيت المقدس هو الباب الّذي كان يجب على بني إسرائيل أن يدخلوا منه بتواضع بأمر الله (سبحانه وتعالى) (آقا جمال الخوانساري، شرح غرر الحكم ودرر الكلم، ج٦، ص١٨٦).

٤. ومن الزيارات الأخرى الّتي تكشف عن جانب من مناقب أهل البيت عليهم السلام وكمالاتهم، يمكن الإشارة إلى زيارة أمين الله، ومن الأدعية دعاء الندبة.

٥. لمزيد من المعلومات، انظر: محمدي الريشهري، تفسير قرآن ناطق يا شرح زيارت جامعه كبيره؛ الميلاني، مع الأئمّة الهداة في شرح الزيارة الجامعة الكبيرة.

حسن الختام:

«السَّلَامُ عَلَيْكُمْ يَا أَهْلَ بَيْتِ النُّبُوَّةِ، وَمَوْضِعَ الرِّسَالَةِ، وَمُخْتَلَفَ الْمَلَائِكَةِ، وَمَهْبِطَ الْوَحْيِ، وَمَعْدِنَ الرَّحْمَةِ، وَخُزَّانَ الْعِلْمِ، وَمُنْتَهَى الْحِلْمِ، وَأُصُولَ الْكَرَمِ، وَقَادَةَ الْأُمَمِ، وَأَوْلِيَاءَ النِّعَمِ، وَعَنَاصِرَ الْأَبْرَارِ، وَدَعَائِمَ الْأَخْيَارِ، وَسَاسَةَ الْعِبَادِ، وَأَرْكَانَ الْبِلَادِ، وَأَبْوَابَ الْإِيمَانِ، وَأُمَنَاءَ الرَّحْمَنِ، وَسُلَالَةَ النَّبِيِّينَ، وَصَفْوَةَ الْمُرْسَلِينَ، وَعِتْرَةَ خِيَرَةِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ. السَّلَامُ عَلَى أَئِمَّةِ الْهُدَى، وَمَصَابِيحِ الدُّجَى، وَأَعْلَامِ التُّقَى، وَذَوِي النُّهَى، وَأُولِي الْحِجَى، وَكَهْفِ الْوَرَى، وَوَرَثَةِ الْأَنْبِيَاءِ، وَالْمَثَلِ الْأَعْلَى، وَالدَّعْوَةِ الْحُسْنَى، وَحُجَجِ اللهِ عَلَى أَهْلِ الدُّنْيَا والْآخِرَةِ وَالْأُولَى، ورَحْمَةُ اللهِ وبَرَكَاتُهُ»[١].

والخُلاصة أنّه يُمكن الوقوف على تفاصيل أكثر حول فضائل الأئمّة الأطهار عليهم السلام من خلال البحث في الزّيارات المُعتبرة، وهي ممّا أشير له في روايات الفريقين، وقد وُضعت أصول هذه الفضائل والمناقب من قبل القرآن الكريم.

❁ الأسئلة

١. كيف يمكن الاستدلال بآية التّطهير وحديث الكساء على إمامة أمير المؤمنين وأولاده عليهم السلام؟
٢. اذكر خمسة موارد من فضائل أهل البيت عليهم السلام مع الشاهد عليها من سورة «هل أتى» وآية النور.
٣. أثبت إمامة أهل البيت عليهم السلام وبيّن صفتي العلم والعِصمة من حديث الثّقلين.
٤. كيف تستدلّ بحديث السّفينة على إمامة الأئمّة عليهم السلام وعصمتهم؟

❁ موضوع للبحث

- استخرج رواية أخرى دالّة على علم أهل البيت عليهم السلام وعصمتهم، ثمّ بيّن الأدلّة عليها من كتب الشّيعة وأهل السنّة.

١. الصدوق، من لا يحضره الفقيه، ج٢، ص٦١٠؛ الطوسي، تهذيب الأحكام، ج٦، ص٩٦.

٣٩

فضائل فاطمة الزّهراء عليها السلام

تعرّفنا في الدّروس السّابقة على عظمة مقام أهل البيت عليهم السلام، وعن طريق ذلك أثبتنا لهم مقام الإمامة والولاية. ومن بين هذه الكواكب المتلئلئة في سماء الولاية، تحظى السيّدة فاطمة الزّهراء عليها السلام بمكانة متميّزة؛ ولذا عقدنا هذا الدّرس للتعريف بهذه الشّخصيّة المعنويّة والولائيّة لهذه السيّدة الجليلة بصورة مختصرة.

إنّ للسيّدة فاطمة الزّهراء عليها السلام من الفضائل والمقامات الشّامخة ما لا يحصيه القلم ويعجز عن وصفه البيان؛ ولكن سنكتفي هنا بالإشارة إلى جانب بسيط من فضائلها باختصار:

١. العصمة

من جملة الفضائل الكثيرة لهذه السيّدة الجليلة، وكما تقدّم سابقاً، أنّ الله (سبحانه وتعالى) جعلها ضمن أصحاب الكساء وأمضى عصمتها في آية التّطهير بقوله (جلّ وعلا):

﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾[١].

وأخرج الثّعلبيّ في تفسيره عن أمّ سلمة أنّ فاطمة عليها السلام أتت ببرمة فيها حريرة، فدخلت بها على رسول الله صلى الله عليه وآله، فقال لها: ادعي زوجكِ وابنَيْكِ، قالت: فجاء عليّ وحسن وحسين، فدخلوا عليه فجلسوا يأكلون من تلك الحريرة، وهو على منامة له على دكان تحته كساء خيبريّ، قالت: وأنا في الحجرة أُصلّي، فأنزل الله (سبحانه وتعالى) هذه الآية: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ

---

١. سورة الأحزاب: الآية ٣٣.

الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾. قالت: فأخذ فضل الكساء فغشّاهم به، ثمّ أخرج يده فألوى بها إلى السماء، ثمّ قال: اللّهمَّ هؤلاءِ أهلُ بيتي وحامَّتي فأذهبْ عنهم الرِّجسَ وطهّرْهُم تَطهيراً. قالت: فأدخلت رأسي البيت فقلت: وأنا معكم يا رسولَ الله؟ قال: إنّكَ إلى خيرٍ[١].

وطبقاً لدلالة آية التّطهير على عصمة أهل البيت عليهم السلام؛ فإنّ السيّدة فاطمة الزّهراء عليها السلام مطهّرة من كلّ أشكال الرّجس والمعصية، وحاصلة على مقام العصمة.

٢. العلم

من الصّفات الأخرى للسيّدة فاطمة الزّهراء عليها السلام، المحدَّثة، والمحدَّث هو من يسمع صوت الملائكة الإلهيّين ويتلقّى العلوم الإلهيّة عن طريقهم[٢]. فكانت الملائكة تُنادي السيّدة الزّهراء عليها السلام وتخبرها بمنزلتها عند الله (سبحانه وتعالى)؛ ولذا قال الإمام أبوعبد الله الصّادق عليه السلام في هذا المجال:

«إِنَّما سُمِّيَتْ فَاطِمَةُ مُحَدَّثَةً؛ لِأَنَّ الْمَلَائِكَةَ كَانَتْ تَهْبِطُ مِنَ السَّمَاءِ فَتُنَادِيهَا، كَمَا كَانَتْ تُنَادِي مَرْيَمَ بِنْتَ عِمْرَانَ، فَتَقُولُ: يَا فَاطِمَةُ! إِنَّ اللهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ»[٣].

وقد جرى الحديث في المصادر الرّوائيّة عن كتاب باسم «مصحف فاطمة»، قال عنه الإمام جعفر الصادق عليه السلام:

«مُصْحَفٌ فِيهِ مِثْلُ قُرْآنِكُمْ هَذَا ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، وَاللهِ مَا فِيهِ مِنْ قُرْآنِكُمْ حَرْفٌ وَاحِدٌ»[٤].

وقال في موضع آخر حول كيفيّة كتابته ومحتواه:

«إِنَّ فَاطِمَةَ مَكَثَتْ بَعْدَ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وآله خَمْسَةً وَسَبْعِينَ يَوْماً، وَكَانَ دَخَلَهَا حُزْنٌ شَدِيدٌ عَلَى أَبِيهَا، وَكَانَ جَبْرَئِيلُ عليه السلام يَأْتِيهَا فَيُحْسِنُ عَزَاءَهَا عَلَى أَبِيهَا وَيُطَيِّبُ

---

١. الثعلبي، الكشف والبيان عن تفسير القرآن، ج٨، ص٤٣.

٢. انظر: الكليني، الكافي، ج١، ص١٧٧؛ الصفار، بصائرالدرجات، ص٣٢٣.

٣. الصدوق، علل الشرائع، ج١، ص١٨٢؛ الطبري، دلائل الإمامة، ص٨١.

٤. الكليني، الكافي، ج١، ص٢٣٩؛ الصفار، بصائرالدرجات، ص١٥٢.

نَفْسَهَا وَيُخْبِرُهَا عَنْ أَبِيهَا وَمَكَانِهِ وَيُخْبِرُهَا بِمَا يَكُونُ بَعْدَهَا فِي ذُرِّيَّتِهَا، وَكَانَ عَلِيٌّ عليه السلام يَكْتُبُ ذَلِكَ، فَهَذَا مُصْحَفُ فَاطِمَةَ عليها السلام»[1].

ومن الجليّ أنّ هذه العلوم غير التّعاليم الّتي تعلّمتها من الوحي وفي مدرسة أبيها رسول الله صلى الله عليه وآله، ولا ريب في أنّها من أفضل المتعلّمين في المدرسة النبويّة، وأنّها كفؤ لأمير المؤمنين عليه السلام، وتُعدّ الخطبة الفدكيّة دليلاً واضحاً على هذا المُدّعى[2]. وعلى الرّغم من أنّ هذه الخطبة لا تعكس إلّا جانباً بسيطاً من فضائل هذه السيّدة الجليلة ومقاماتها العلميّة السّامية، مع ذلك فإنّها تندرج ضمن أبلغ الخطابات من المفوّهين العرب[3].

وفضلاً عن جانب الفصاحة والبلاغة، احتوت الخطبة الفدكيّة على مضامين توحيديّة عالية، واشتملت على بحوث تثبت أنّ صاحبها متزوّد من المصادر الإلهيّة للمعارف، وخصّصت شطراً واسعاً منها للدّفاع عن إمامة أمير المؤمنين الإمام علي عليه السلام، وسجّلت اعتراضاً شديداً على الغاصبين لحقّها المسلّم.

٣. العبادة

حسب فاطمة الزّهراء عليها السلام في عمق إيمانها وطاعتها لأوامر الله (سبحانه وتعالى) قول رسول الله صلى الله عليه وآله لسلمان:

«يا سَلمانُ! إنَّ ابْنَتِي فَاطِمَةَ مَلَأَ اللهُ قَلْبَهَا وَجَوَارِحَهَا إِيمَاناً إلى مُشاشِها، تَفَرَّغَت لِطاعَةِ اللهِ»[4].

---

١. الكليني، الكافي، ج١، ص٢٤١؛ الصفار، بصائرالدرجات، ص١٥٤.

٢. فدك ضيعة تقع شمال المدينة المنورة، سلّمها اليهود إلى رسول الله صلى الله عليه وآله دون قتال، فأصبحت ملكاً له بأمر من الله (سبحانه وتعالى)، ثمّ وهبها النبيّ صلى الله عليه وآله إلى فاطمة الزّهراء عليها السلام. والخطبة الفدكيّة خطبة قويّة ألقتها السيّدة فاطمة عليها السلام في مسجد المدينة بعد غصب الخلافة من أمير المؤمنين عليه السلام، افتتحت كلامها بحمد الله (سبحانه وتعالى) والثّناء عليه والصّلاة على رسول الله صلى الله عليه وآله وأهل بيته الطّاهرين، ودافعت فيها عن مقام الإمامة والولاية لأمير المؤمنين عليه السلام وطالبت القوم بحقّها من فدك وذمّتهم على اغتصابها (انظر: محمدباقرالصدر، فدك فى التاريخ).

٣. للاطلاع على نصّ الخطبة، انظر: ابن طيفور، بلاغات النساء، ص١٢.

٤. الراوندي، الخرائج والجرائح، ج٢، ص٥٣١؛ ابن شهرآشوب، مناقب آل أبي طالب، ج٣، ص٣٣٧؛ المجلسي، بحار الأنوار، ج٤٣، ص٢٩.

وقيل حول عبادة فاطمة عليها السلام: «ما كانَ في الدُّنيا أعبدُ من فاطمةَ عليها السلام، كانتْ تقومُ حتّى تتورّمُ قدَماها». وفي هذا الخصوص، قال أبان بن تغلب: قلتُ لأبي عبد الله الصادق عليه السلام: يا ابن رسول الله! لمَ سُمّيت الزَّهراءُ زهراءَ؟؛ فقال:

«لِأَنَّهَا تَزْهَرُ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام فِي النَّهَارِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ بِالنُّورِ، كَانَ يَزْهَرُ نُورُ وَجْهِهَا صَلَاةَ الْغَدَاةِ وَالنَّاسُ فِي فُرُشِهِمْ، فَيَدْخُلُ بَيَاضُ ذَلِكَ النُّورِ إِلَى حُجُرَاتِهِمْ بِالْمَدِينَةِ»[1].

٤. الأسوة الحسنة

لقد تجلّت مسؤوليّات المرأة المسلمة وخصائصها بأبهى وجه وأكمل صورة في السيّدة فاطمة الزّهراء عليها السلام؛ ولذا عُدّت سيدة نساء العالمين والأسوة الحسنة للمؤمنين. فلا يخفى أنّ الحفاظ على الحجاب والعفّة والأمانة وإدارة شؤون المنزل وتربية الأولاد هي أهمّ مسؤوليّات المرأة، ولا غرو أنّ الزّهراء المَرضِيّة عليها السلام تقف في طليعة جميع النّساء في أداء هذه المسؤوليّات.

فعلى سبيل المثال، تُمثّل إحدى القصص من سيرة حياتها درساً بليغاً لباقي النّساء من ناحية العفّة والطّهارة، وتثبت كونها قدوة صالحة للنساء:

«قَالَ عَلِيٌّ عليه السلام: اسْتَأْذَنَ أَعْمَى عَلَى فَاطِمَةَ عليها السلام فَحَجَبَتْهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وآله لَهَا: لِمَ حَجَبْتِيهِ وَهُوَ لَا يَرَاكِ؟ فَقَالَتْ عليها السلام: إِنْ لَمْ يَكُنْ يَرَانِي فَإِنِّي أَرَاهُ، وَهُوَ يَشَمُّ الرِّيحَ. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وآله: أَشْهَدُ أَنَّكِ بَضْعَةٌ مِنِّي»[2].

وحسبها في مجال إدارة شؤون المنزل وتربية الأبناء أن تكون أمّاً للإمامين الحسن والحسين عليهما السلام وتربّت في حجرها بطلة كزينب الكبرى عليها السلام؛ إذ ضربت هذه الثلّة الطيّبة أروع الأمثلة في مجال الصّفات الإنسانيّة والسّجايا الأخلاقيّة الرّفيعة، وكانت أسوة حسنة في تطبيق العدل والقِسط ومدّ يد العون إلى المُحتاجين والمظلومين والتّواضع أمام العدوّ والصّديق،

---

١. الصدوق، علل الشرائع، ج١، ص١٨١؛ ابن شهرآشوب، مناقب آل أبي طالب، ج٣، ص٣٤١؛ المجلسي، بحارالأنوار، ج٤٣، ص٧٦.

٢. الراوندي، النوادر، ص١٤؛ المجلسي، بحار الأنوار، ج٤٣، ص٩١.

حتى أضحت مثالاً يُحتذى به في تاريخ البشريّة. نعم، هؤلاء هم من قاتلوا في سوح الجهاد بكلّ بسالة، وتصدّوا للمستكبرين والطغاة في زمانهم، وهزّوا عروشهم وزعزعوا أركان الظّلم والجور، بخطبهم الرنّانة ومواقفهم الشجاعة، وما هذا إلّا جانب بسيط من فضائلهم ومناقبهم الغزيرة.

إنّ فاطمة الزّهراء عليها السلام ليست أسوة للنّساء فحسب؛ بل هي أسوة للرّجال أيضاً؛ ولذا اعتبرها إمام العصر والزّمان عجّل الله فرجه أسوة له في توقيعه المبارك، فقال:

«فِي ابْنَةِ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وآله لِي أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ»[1].

٥. الشّفقة والعطف

أطلق أبوها عليها لقب «أمّ أبيها»[2] ما يعني إبراز منتهى العطف والمحبّة والحنوّ منها على أبيها، ولم تكن الزّهراء عليها السلام تحنو على أبيها فقط؛ وإنّما نشرت جناح عطفها على جميع المؤمنين؛ وهذا ما جعلها تدعو للمؤمنين قبل الدعاء لنفسها عندما تقف في محراب صلاتها؛ حيث روي في هذا المجال:

«عَنِ الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ، عَنْ أَخِيهِ الْحَسَنِ بْنِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ عليه السلام، قَالَ: رَأَيْتُ أُمِّي فَاطِمَةَ عليها السلام قَامَتْ فِي مِحْرَابِهَا لَيْلَةَ جُمُعَتِهَا، فَلَمْ تَزَلْ رَاكِعَةً سَاجِدَةً حَتَّى اتَّضَحَ عَمُودُ الصُّبْحِ، وَسَمِعْتُهَا تَدْعُو لِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَتُسَمِّيهِمْ وَتُكْثِرُ الدُّعَاءَ لَهُمْ وَلَا تَدْعُو لِنَفْسِهَا بِشَيْءٍ. فَقُلْتُ لَهَا: يَا أُمَّاهُ! لِمَ لَا تَدْعِينَ لِنَفْسِكِ كَمَا تَدْعِينَ لِغَيْرِكِ؟ فَقَالَتْ: يَا بُنَيَّ! الْجَارَ ثُمَّ الدَّارَ»[3].

نعم، فضائل السيّدة فاطمة الزّهراء عليها السلام بحر واسع لا تتّسع له هذه الصّفحات المحدودة، وما هدفنا من بيان جانب من فضائل هذه السيّدة الجليلة ومقاماتها الرّفيعة إلّا الكشف عن

---

١. الطوسي، الغيبة، ص٢٨٦؛ الطبرسي، الاحتجاج، ج٢، ص٤٦٦.

٢. أبوالفرج الإصفهاني، مقاتل الطالبيين، ص٥٧؛ ابن شهرآشوب، مناقب آل أبي طالب، ج١، ص١٦٢، المجلسي، بحار الأنوار، ج٤٣، ص١٩.

٣. الصدوق، علل الشرئع، ج١، ص١٨١.

منزلتها في مراتب الولاية وإلى جانب الأئمّة المعصومين ﷺ، وسنكتفي هنا بهذا القدر ونُحيل القارئ الكريم إلى الكتب المفصّلة الّتي دُوّنت لهذا الغرض[1].

*** الأسئلة**

١. ما معنى المُحدَّث؟ ولماذا سُمّيت السيّدة فاطمة الزّهراء عليها السلام مُحدَّثة؟

٢. ماذا تعرف عن مصحف فاطمة؟

٣. اذكر خمسة عناوين من أهمّ الفضائل والمناقب للصدّيقة الطّاهرة.

٤. بيّن علم الزهراء عليها السلام و عصمتها من الروايات الواردة من الفريقين.

*** موضوعات للبحث**

- اكتب بحثاً حول الخطبة الفدكيّة ورتّب محتوياتها ترتيباً موضوعيّاً.
- اكتب محاضرةً حول مصحف فاطمة وقصّة تأليفه وألقها أمام زملائك في الدّرس.

---

١. انظر في هذا المجال: ميرجهاني، جنّة العاصمة؛ الأميني، فاطمة الزّهراء؛ محمد كاظم القزويني، فاطمة الزّهراء من الولادة إلى الشهادة؛ عبد الرزاق الموسوي، الصدّيقة الشهيدة.

٤٠

إمامة أمير المؤمنين عليه السلام في القرآن

إلى الآن تعرّفنا إجمالًا في مباحث الإمامة الخاصّة على المقامات الرّفيعة للأئمّة الأطهار عليهم السلام، وتبيّن أنّ هؤلاء الأئمّة من أهل البيت عليهم السلام فقط هم المصاديق الجديرة بخلافة النبيّ صلى الله عليه وآله. ومن الآن فصاعداً سنشرع ببيان الأدلّة والشّواهد الكفيلة بإثبات إمامة كلّ واحد من الأئمّة بشكل خاصّ، وستكون البداية مع الإمام عليّ عليه السلام، ثمّ نبحث سائر الأئمّة.

ثمّة آيات وروايات كثيرة تدلّ على إمامة أمير المؤمنين عليه السلام، وسَنُبيّن أدناه جُملة من الآيات القرآنيّة بصورة مُختصرة:

١. آية الولاية

وهي من الآيات المعروفة الدالّة على إمامة أمير المؤمنين عليه السلام؛ حيث قال (سبحانه وتعالى):

﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ * وَمَنْ يَتَوَلَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾[١].

وبما أنّ الأداة «إنّما» من أدوات الحصر، فيكون معنى الآية الشّريفة أنّ الوليّ على النّاس لا يخرج عن دائرة الله ورسوله وأولئك المؤمنين الّذين نزلت فيهم هذه الآية.

وقد ذكروا معنيين رئيسين لكلمة «الولي» في كتب اللّغة، فذهب الجوهريّ في الصّحاح

---

١. سورة المائدة: الآيتان ٥٥-٥٦.

إلى أنّ الولاية تعني القرب والدنوّ[1]، وكذلك فسّر ابن فارس هذه الكلمة بالقرب والدنوّ؛ لكنّهما ذكرا له معنى آخر، وهو أنّ كلّ من ولي أمر آخر فهو وليّه[2]. وكذا فعل الفيروزآبادي، فذكر المعنيين المتقدّمين للوليّ، مضافاً إلى الإمارة والسلطان[3].

كذلك أشارت سائر الكتب اللّغويّة إلى هذين المعنيين، واعتبرت الولاية بمعنى الحكم وملك الأمر والقيام بشيءٍ والتسلّط عليه[4]. وعلى هذا الأساس، ذكر بعض الباحثين جميع هذه المعاني للوليّ، وقال: إنّ الوليّ يأتي بمعنى صاحب الأمر، من يلي الأمر، السّلطان، النّصير، والولاية بمعنى النّصرة، المحبّة، المودّة، القرابة، الخطّة وبلاد السلطان[5].

ومع ذلك كلّه، يمكن أن نثبت أنّ المعنى الوحيد المُناسب لكلمة «الوليّ» في آية الولاية من بين المعاني المتقدّمة هو الحكم والسّلطة بمعناها الدّقيق، أي الأولى بالتصرّف من غيره. ولتوضيح ذلك نقول:

أوّلاً: إنّ كلمة «إنّما» الواردة في بداية الآية تدلّ على الحصر، بمعنى أنّ الله (سبحانه وتعالى) يريد حصر الولاية على النّاس بهؤلاء الثّلاثة، الله ورسوله وأمير المؤمنين، ونفيها عن جميع من سواهم.

ثانياً: إنّ الحصر الموجود في الآية لا يتناسب مع أيٍّ من المعاني الثّلاثة الأخرى: المُحبّ والصّديق والنّاصر؛ لأنّ هذه الصّفات الثّلاثة غير مقتصرة على جماعة خاصّة من المؤمنين؛ بل أكد القرآن الكريم على أنّ جميع المؤمنين بعضهم محبّ لبعضهم الآخر وبعضهم صديق لبعضهم الآخر:

﴿...وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾[6].

---

١ . الجوهري، الصحاح، ج٦، ص٢٥٢٨، مادّة «ولي».

٢ . ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، ج٦، ص١٤١، مادّة «ولي».

٣ . الفيروزآبادي، القاموس المحيط، ج٤، ص٤٠١، مادّة «ولي».

٤ . مجمع اللغة العربيّة، المعجم الوسيط، مادّة «ولي».

٥ . يزدي مطلق، امامت پژوهی، ص١٨١.

٦ . سورة التوبة: الآية ٧١؛ انظر: السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، ج٢، ص٣٠٨؛ الفخر الرازي، التفسير الكبير، ج١٢، ص٢٦؛ ج١٢، ص٥٤؛ ج١٥، ص٢١١؛ ج١٦، ص١٣١؛ الطبري، جامع البيان في تفسير القرآن، ج٣، ص٣٧٤ وباقي التفاسير أيضاً. ☜

بناءً على ذلك، فالحصر الوارد في مستهلّ الآية يستلزم حصر الحكم في الآية بالثّلاثة المذكورين، ويلزم من ذلك كون «الوليّ» في هذه الآية جاء بمعنى خاصّ، وليس هو إلّا الأولويّة في التصرّف بمقتضى آيات أخرى نظير: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡ﴾. وفي هذه الحالة، يكون معنى الآية المتقدّمة أنّه ليس لأحد أولويّة التصرّف في أموركم إلّا هؤلاء الثّلاثة[1]. على أنّه من الضّروري الالتفات إلى شأن نزول هذه الآية ليُستفاد منها الدّلالة على الإمامة وولاية أمير المؤمنين عليه السلام.

والآن لا بدّ من أن نرى من هو المُراد من قوله (سبحانه وتعالى): ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ في الآية؟

صرّح جميع فُقهاء الشّيعة وأغلب المُفسّرين والمحدّثين من أهل السنّة أيضاً أنّ هذه الآية نزلت في أمير المؤمنين[2] عليه السلام. وعلى الرّغم من اختلاف قصّة شأن نزول هذه الآية في العبارات والألفاظ في التّفاسير المُختلفة، غير أنّ أصل الحكاية مُشتركة بينها جميعاً، وسنكتفي هنا بنقل رواية واحدة عن مفسّري أهل السنّة:

عن أبي ذرّ قال: إنّي صلّيتُ مع رسول الله يوماً من الأيام صلاة الظّهر، فدخل سائل في المسجد، فلم يُعطه أحد، فرفع السائل يده إلى السّماء وقال: اللهمّ اشهد إنّي سألتُ في مسجد رسول الله فلم يُعطني أحد شيئاً. وكان عليّ عليه السلام راكعاً، فأومى إليه بخنصره اليمنى، وكان يتختّم فيها، فأقبل السائل حتّى أخذ الخاتم من خنصره، وذلك بعين النبيّ صلى الله عليه وآله. فلما فرغ النبيّ صلى الله عليه وآله من الصلاة، رفع رأسه إلى السماء وقال:

«اللّهمّ إنَّ أخِي موسى سألكَ، فقالَ: ﴿رَبِّ ٱشۡرَحۡ لِي صَدۡرِي * وَيَسِّرۡ لِيٓ أَمۡرِي * وَٱجۡعَل لِّي وَزِيرٗا مِّنۡ أَهۡلِي * هَٰرُونَ أَخِي * ٱشۡدُدۡ بِهِۦٓ أَزۡرِي﴾ الآية، فأنزلتَ عليهِ قُرآناً ناطقاً: ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجۡعَلُ لَكُمَا سُلۡطَٰنٗا﴾. اللهمَّ وأنا محمّدٌ نبيُّكَ وصفيُّكَ،

☜ تجدر الإشارة إلى أنّ بعض هذه التفاسير ذكر معنى النّصرة للأولياء أيضاً.

١. انظر: موحّدي، امامت تطبيقى، ص١١٦-١٣٢.

٢. انظر تفاسير أهل السنّة: مقاتل بنى سليمان، تفسير مقاتل بن سليمان؛ الطبري، جامع البيان في تفسير القرآن (تفسير الطبري)؛ الحسكاني، شواهد التنزيل لقواعد التفضيل؛ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن؛ البيضاوي، أنوار التنزيل و أسرار التأويل (تفسير البيضاوي)؛ السيوطي، الدرّ المنثور فى التفسير بالمأثور؛ و... و جميع التفاسير الشيعيّة فى تفسير هذه الآية الشريفة.

اللّهمَّ فاشرحْ لي صدْري، ويسّرْ لي أمرِي، واجعلْ لي وَزيراً من أهلي، عليّاً أُشدُد به ظَهري».

قال أبوذر: فوالله ما استتمّ رسول الله الكلمة حتّى أُنزل عليه جبرئيل من عند الله، فقال: يا محمّد! إقرأ؛ فقال: وما أقرأ؟ قال: إقرأ ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ إلى ﴿رَاكِعُونَ﴾[1].

٢. آية الإنذار

لمّا نزل قوله (سبحانه وتعالى): ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾[2]، بعث النبيّ ﷺ الإمام عليّ ﵇ ليدعوله عشيرته وأقاربه من بني عبد المطّلب إلى طعام، فحضروا جميعاً في اليوم التّالي إلى منزل أبي طالب، وبعد انتهائهم من الأكل والشرب تكلّم رسول الله ﷺ فقال:

«يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ! إِنِّي وَاللهِ مَا أَعْلَمُ شَاباً فِي الْعَرَبِ جَاءَ قَوْمَهُ بِأَفْضَلَ مِمَّا جِئْتُكُمْ بِهِ، إِنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِخَيْرِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَقَدْ أَمَرَنِي اللهُ (عَزَّ وَجَلَّ) أَنْ أَدْعُوَكُمْ إِلَيْهِ، فَأَيُّكُمْ يُؤْمِنُ بِي وَيُؤَازِرُنِي عَلَى أَمْرِي، فَيَكُونَ أَخِي وَوَصِيِّي وَوَزِيرِي وَخَلِيفَتِي فِي أَهْلِي مِنْ بَعْدِي؟ قَالَ: فَأَمْسَكَ الْقَوْمُ، وَأَحْجَمُوا عَنْهَا جَمِيعاً. قَالَ عَلِيٌّ ﵇:... فَقُلْتُ: أَنَا يَا نَبِيَّ اللهِ أَكُونُ وَزِيرَكَ عَلَى مَا بَعَثَكَ اللهُ بِهِ. قَالَ: فَأَخَذَ بِيَدِي ثُمَّ قَالَ: إِنَّ هَذَا أَخِي وَوَصِيِّي وَوَزِيرِي وَخَلِيفَتِي فِيكُمْ، فَاسْمَعُوا لَهُ وَأَطِيعُوا»[3].

على أنّ النبيّ ﷺ كان يعلم أنّ عليّاً ﵇ فقط هو من سيقبل دعوته، ولم تكن دعوة القوم وتكرارها إلّا لأجل التّأكيد على استحقاق أمير المؤمنين ﵇ لهذا المنصب بجدارة وعلى منزلته الرّفيعة ولإتمام الحجّة على الآخرين.

هذا، وتعدّ هذه القصّة المعروفة بـ«حديث يوم الدّار» من أوضح الأدلّة وأجلى البراهين على

---

١. الثعلبي، الكشف والبيان عن تفسير القرآن، ج٤، ص٨٠؛ انظر: الحسكاني، شواهد التنزيل، ج١، ص٢٣٠؛ الجصّاص، أحكام القرآن، ج٤، ص١٠٢.

٢. سورة الشعراء: الآية ٢١٤.

٣. ابن طاووس، سعد السعود، ص١٠٥ و١٩١-١٩٢؛ نقلاً عن: الطوسي، الأمالي، ص٢٠-٢١. وقد نُقل هذا الحديث في كتاب «سعد السعود» بطريقين من العامّة والخاصّة.

إمامة عليّ عليه السلام، وقد رواها أهل السنّة أيضاً بطرق مختلفة[١].

٣. آية التّبليغ

خلال رجوع المُسلمين من حجّة الوداع وعند وصولهم إلى غدير خمّ، نزلت الآية الشّريفة:

﴿يَآ اَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ اُنْزِلَ اِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَاِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللّٰهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾[٢].

وقد أجمع مفسّرو الشّيعة على أنّ هذه الآية نزلت في واقعة غدير خمّ، كما اعترف بذلك كثير من علماء أهل السنّة أيضاً[٣].

ولمّا نزلت آية التّبليغ دعا النبيّ الكريم صلى الله عليه وآله المسلمين إلى التوقّف والاجتماع وخطب فيهم، ثمّ رفع يد عليّ بن أبي طالب عليه السلام حتّى بان بياض إبطه وقال بصوت مُرتفع:

«أَيُّهَا النَّاسُ! مَنْ أَوْلَى النَّاسِ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ؟».

فَقَالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ. قَالَ:

«إِنَّ اللهَ مَولايَ، وَأنا مَولَى المُؤمِنينَ وَأنَا أوْلَى بِهِمْ مِن أنْفُسِهِمْ».

وأردف قائلاً:

«مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَعَلِيٌّ مَوْلَاهُ».

قال ذلك ثلاثاً (وذكر بعض الرواة أنّه قاله أربعاً)، ثمّ دعا بهذا الدعاء:

---

١ . يمكن ملاحظة هذه الرّواية مع اختلاف طفيف في التعابير في المصادر الآتية: الطبري، تاريخ الطبري، ج٢، ص٦٣؛ الطبري، تفسير الطبري، ج١٩، ص٧٤-٧٥؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج٢، ص٦٢؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج٣، ص٣٩؛ ابن كثير، السيرة النبويّة، ج١، ص٢٢٤؛ الحلبي، السيرة الحلبيّة، ج١، ص٣٢٢؛ الدحلان، السيرة النبوّية (سيرة دحلان)، ج١، ص١٩٦؛ ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ج١٣، ص٢١١؛ ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج١، ص٨٧؛ المتّقي الهندي، كنز العمّال، ج١٥، ص١١٥.

٢ . سورة المائدة: الآية ٦٧.

٣ . للمزيد حول هذا الموضوع انظر الكتب المهمّة: الأميني، الغدير؛ نور الله الشوشتري، إحقاق الحقّ؛ شرف الدين، المراجعات؛ المظفّر، دلائل الصدق.

«اللّهُمَّ وَالِ مَنْ وَالاهُ، وَعَادِ مَنْ عَادَاهُ، وَانْصُرْ مَنْ نَصَرَهُ، وَاخْذُلْ مَنْ خَذَلَهُ، وَأَدِرِ الْحَقَّ مَعَهُ حَيْثُ دَارَ».

وختم كلامه بالقول:

«أَلَا فَلْيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ».

ثمّ دعا إلى نصب خيمة لأمير المؤمنين عليه السلام وأمر حشود النّاس بمبايعته وتهنئته على الخلافة الإلهيّة[1].

قال المُخالفون: لمّا كانت الآيات السّابقة واللّاحقة لآية التّبليغ تتحدّث عن أهل الكتاب وارتكابهم المُخالفات، كيف يمكن أن تكون هذه الآية مُتعلّقةٌ بواقعة الغدير؟[2].

والجواب إنّ القرآن الكريم كتاب هداية، فلم تُرتّب محتوياته مثل محتويات الكتب الرسميّة والعلميّة ضمن فصول وأبواب مُعيّنة؛ وإنّما نزلت آياته بهدف تربية الإنسان بحسب الاحتياجات والحوادث المختلفة؛ ولذا فمن الطبيعيّ أن نجد أنّه في الوقت الّذي يتحدّث عن إحدى الغزوات يَطرح حُكماً فرعيّاً لأحد المسائل الدّينيّة، وفي ما يدور الكلام فيه حول اليهود والنّصارى يعطف عنان الكلام إلى المسلمين ويشرح لهم أحد الأحكام الإسلاميّة[3].

السّؤال الآخر الّذي قد يتبَادر إلى الأذهان هو: لماذا لم يرد ذكر اسم الإمام عليّ عليه السلام بصراحة في القرآن الكريم؟! ولماذا لم يقل الله (سبحانه وتعالى) لنبيّه: يا أيّها الرّسول بلّغ إمامة الإمام عليّ؟!

الجواب: **أوّلاً**: لم يتناول القرآن الكريم الحديث عن جميع القضايا الإسلاميّة بصورة

١. انظر: أبوداود، السنن، ج١، ص٢؛ ابن ماجة، السنن، ج١، ص٢٦؛ الترمذي، السنن، ج٣، ص٢١٣؛ السيوطي، الدرّ المنثور، ج٣، ص٣٠٤ و٣٢٣؛ القندوزي الحنفي، ينابيع المودّة، ج١، ص٧٨؛ وقد ورد القسم الأعظم من الحديث في: النسائي، السنن، ج٥، ص٤٥.

٢. محمد رشيد رضا، تفسير المنار، ج٦، ص٤٦٦.

٣. لمزيد من المعلومات في هذا المجال، انظر: مكارم الشيرازي، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، البحث المذكور ذيل هذه الآية.

مباشرة[١]؛ فعلى سبيل المثال، أمر القرآن بأداء فريضة الحجّ بصورة عامّة، ومن ثمّ جاء النبيّ صلى الله عليه وآله وبيّن تفاصيل أعمال الحجّ.

ثانياً: إنّ مضامين القرآن تدلّ بوضوح على صواب منهج أمير المؤمنين عليه السلام، في حين لو ذُكرت تفاصيل إمامته فيه بصورة مباشرة لازدادت احتمالات سعي المُخالفين إلى تحريفه. وعليه، فبيان الإمامة بهذه الطريقة منعت الأعداء من التّحريف من جهة، وأتمّت الحجّة على الجميع من جهة ثانية.

ثالثاً: صحيح أنّ الله (سبحانه وتعالى) لم يذكر إمامة أمير المؤمنين عليه السلام في القرآن الكريم بصراحة، بيد أنّه ذكرها بالمقدار اللّازم في سياق آيات مُجملة؛ ليختبر مدى طاعة النّاس للنبيّ صلى الله عليه وآله من ناحية، ويكشف النّقاب عن الأهواء والوساوس الشيطانيّة والنّفاق والأحقاد الدّفينة من ناحية أخرى.

وعلى هذا الأساس، يمكن أن نستفيد من مجموع الآيات المذكورة أنّ الله (سبحانه وتعالى) أقام الحجّة على الأمّة بالتّأكيد على صواب منهج أمير المؤمنين عليّ عليه السلام.

❀ الأسئلة

١. ما النّقاط الّتي يجب التّركيز عليها في آية الولاية لإثبات إمامة أمير المؤمنين عليه السلام؟
٢. لماذا برأيك اختار النبيّ صلى الله عليه وآله واقعة يوم الدّار للإعلان مبكّراً عن خلافة عليّ بن أبي طالب عليهما السلام؟
٣. استدلّ بآية التبليغ وحديث الغدير على موضوع النّصب الإلهيّ للإمام عليّ عليه السلام وعصمته وعلمه، فضلاً عن إثبات أصل إمامته.

❀ موضوع للبحث

- ابحث لاستخراج آية أُخرى دالّة على إمامة أمير المؤمنين عليّ عليه السلام.

---

١. لقد شرحنا هذه النقطة بالتفصيل في الدّرس الأوّل.

٤١

إمامة أمير المؤمنين عليه السلام في السنّة النبويّة

تعرّفنا في الدّرس السابق إلى جانب من دلائل إمامة الإمام عليّ عليه السلام في القرآن الكريم، وذكرنا آية التبليغ وبيّنّا أنّها نزلت في حادثة غدير خمّ. والآن سنبحث في هذا الدّرس الرّوايات النبويّة الدالّة على ولاية أمير المؤمنين عليه السلام، وسنشرع البحث بحديث الغدير.

لم يَترك النبيّ الكريم صلى الله عليه وآله مناسبةً طيلة فترة رسالته إلّا تحدّث فيها عن خلافة عليّ بن أبي طالب عليهما السلام، فكان يُعلن للنّاس في كلّ مرّة عن اقتدار الإمام على إدارة شؤون الأمّة؛ بيد أنّ الأمر الأهمّ في هذا المجال هو تأكيد الرّسول صلى الله عليه وآله على أنّ إمامة أمير المؤمنين عليه السلام بأمر من الله (سبحانه وتعالى)، ما يَعني أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله في هذا الخصوص -كما هو الحال في سائر الأوامر الإلهيّة أيضاً- لا يعدو الواسطة في تبليغ الأمر الإلهيّ. وسنتطرّق هنا إلى حديثين فقط من بين الأحاديث الكثيرة الواردة في هذا الباب:

١. حديث الغدير

يُعدّ حديث الغدير من أهمّ الأدلّة وأوضحها على ولاية أمير المؤمنين عليّ عليه السلام، وسنتطرّق في البداية إلى بعض الشّواهد والقرائن الدالّة على صحّة سند هذا الحديث، ثمّ نبحث كيفيّة دلالته على المُدّعى.

١.١. سند حديث الغدير

إنّ كلام النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله المعروف بحديث الغدير لهو من أشهر الأحاديث في إثبات إمامة

أمير المؤمنين عليه السلام، وقد نقله ١١٠ صحابي و٨٤ تابعي[١]، وذكره ٣٦٠ محدّثاً ومفسّراً من أهل السنّة في كتبهم، فضلاً عن محدّثي الشّيعة ومفسّريهم. فعلى سبيل المثال، ورد هذا الحديث في «سنن التّرمذي» و«سنن ابن ماجة»[٢]، وهما من الصّحاح السنّة المعروفة، كذلك في «مُسند أحمد بن حنبل»[٣]، وهو من الكتب الروائيّة الشّهيرة بين أهل السنّة، وقد اعترف بصحّة كثير من أسانيد هذا الحديث كلّ من الذّهبي وابن حجر، على الرّغم من اشتهارهما بالتعصّب الشديد[٤].

مُضافاً إلى ذلك، ورد في مواضع كثيرة من كتب أهل السنّة أنّ الإمام عليّ عليه السلام أو أحد الأئمّة الأطهار من أهل البيت عليهم السلام أو أحد أتباع مذهبهم استدلّ فيها بحديث الغدير، منها أنّ أمير المؤمنين عليه السلام استدلّ بهذا الحديث العظيم يوم الشّورى، وفي أيام حكم عثمان، وأثناء حرب الجمل وصفين[٥].

وفضلاً عن مولى المتّقين عليه السلام، فقد استدلّ بحديث الغدير كلّ من السيّدة فاطمة الزّهراء عليها السلام وولديها الحسن والحسين عليهما السلام، وعبد الله بن جعفر، وعمّار بن ياسر، وقيس بن سعد بن عبادة، والخليفة الأمويّ عمر بن عبد العزيز، والخليفة العبّاسيّ المأمون؛ بل حتّى عمرو بن العاص أشار إلى واقعة الغدير بصراحة في كتاب بعثه إلى معاوية[٦]؛ ليثبت له أنّه على اطّلاعٍ كافٍ بالحقائق المُتعلّقة بعليّ بن أبي طالب عليه السلام ووضع ابن أبي سفيان.

---

١ . المقصود بالصحابي بحسب اصطلاح أهل السنّة هو كلّ من رأى النبيّ صلى الله عليه وآله، والمراد من التابعي عندهم هو من رأى صحابيّاً أو كان على ارتباط به.

٢ . الترمذي، السنن، ج٥، ص٢٩٧؛ ابن ماجة، السنن، ج١، ص٥٥-٥٨.

٣ . أحمد ابن حنبل، المسند، ج١، ص٨٤، ٨٨، ١١٨، ١١٩، ١٥٢، ٢٨١، ٣٣١، ٣٧٠.

٤ . ابن حجر، فتح الباري، ج٧، ص٦١؛ الذهبي، تذكرة الحفّاظ، ج٣، ص١٠٤٣.

٥ . الخوارزمي، مناقب الخوارزمي، ص٢١٧؛ وانظر كذلك: المتّقي الهندي، كنز العمّال، ج١٣، ص١٥٧-١٥٨؛ الجويني، فرائد السمطين، الباب ٥٨؛ ابن حاتم الشامي، الدرّ النظيم في مناقب الأئمّة اللهاميم، ج١، ص١١٦؛ ابن حجر، الصواعق المحرقة، ص١٢٦ عن الدارقطني؛ الطوسي، الأمالي، ص٣٣٢، ح٦٦٧؛ ص٥٥٦، ح١١٦٩ عن ابن عقدة؛ ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة. انظر: الأميني، الغدير، ج١، ص١٥٩-١٦٢؛ إذ توجد مصادر أخرى في هذا الكتاب.

٦ . لمزيد من المعلومات، انظر: الأميني، الغدير، ج١، ص١٥٩-٢١٣.

١.٢. دلالة حديث الغدير

لا بدّ من بحث الأمور الآتية بشأن دلالة حديث الغدير وآية التّبليغ على إمامة الإمام عليّ عليه السلام:

فسّر بعض المُتكلّمين كلمة «المولى» بمعنى الصّاحب والنّاصر من أجل إنكار دلالة الحديث على الإمامة[١]؛ ولكن ذكرنا سابقاً أنّ المعنى الأساس والصّحيح لهذه الكلمة هو «الأولى بالتصرّف». وقد أشار العلّامة الأميني في كتابه «الغدير» إلى ٢٧ معنى لكلمة «المولى» من الكتب اللّغويّة، أهمّها: الوليّ، الأولى بالشّيء، السيّد، المُحبّ، النّاصر، المُتصرّف في الأمر، المتولّي في الأمر[٢]. ثمّ خلص إلى القول:

«على أنّ الّذي نرتأيه في خصوص المقام بعد الخوض في غمار اللّغة، ومجاميع الأدب، وجوامع العربيّة، إنّ الحقيقة من معاني المولى ليس إلّا الأولى بالشّيء، وهو الجامع لهاتيك المعاني جمعاء، ومأخوذ في كلٍّ منها بنوع من العناية، ولم يطلق لفظ المولى على شيءٍ منها إلّا بمناسبة هذا المعنى»[٣].

ثمّ شرع العلّامة الأميني في إثبات مدّعاه من خلال الإتيان بالقرائن والشّواهد المختلفة من كتب اللّغة العربيّة والتفاسير لكبار المُفسّرين من أهل السنّة.

مضافاً إلى ذلك، توجد قرائن في حديث الغدير نفسه تثبت أنّ لفظ «المولى» جاء بمعنى الإمام والأولى بالتصرّف:

القرينة الأولى: إنّ النبيّ الكريم صلى الله عليه وآله خاطب جموع الحجاج المجتمعين قبل الإعلان عن ولاية عليّ عليه السلام بعبارة: «مَنْ أَوْلَى النَّاسِ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ؟»، وهي تدلّ بوضوح على أنّ المُراد من «المولى» الأولويّة في التصرّف والإمام القائد.

القرينة الثّانية: كما إنّ جميع الحاضرين يوم وقعة الغدير وكلّ من سمع الخبر لاحقاً أيضاً ـ وكثير منهم متبحّرون في دقائق اللّغة العربيّة ـ فهموا من كلمة «المولى» أنّها تعني الإمامة،

---

١. انظر: الآمدي، غاية المرام في علم الكلام، ص٣٢١؛ التفتازاني، شرح المقاصد، ج٥، ص٢٧٣؛ الإيجي، شرح المواقف، ج٨، ص٣٦٠.

٢. الأميني، الغدير، ج١، ص٣٦٢.

٣. المصدر نفسه، ص٣٦٨.

وكذلك فهمها الشّعراء والأدباء إلى عصرنا الرّاهن؛ وهذا من الأدلّة الواضحة على أنّ المقصود من المولى في هذا الحديث هو الإمام والقائد. وإليكم بعض الأمثلة في هذا المجال:

استأذن حسّان بن ثابت الّذي كان حاضراً يوم الغدير من النبيّ ﷺ لينشد أبياتاً بهذه المناسبة، وما إن انتهى رسول الله ﷺ من خطبته حتّى قام وارتجل قصيدة شعريّة، منها:

فقال له: قُم يا عليّ فإنّني رضيتك من بعدي إماماً وهادياً[1]

ولمّا سمع النبيّ ﷺ أبيات حسّان، أيّد ما فهمه من معنى «المولى» ثمّ دعا له.

وفي هذا السّياق، بادر الخليفة الأوّل والثّاني - عمروأبوبكر- أيضاً لتهنئة الإمام عليّ عليه السلام ومبايعته، فقال أبوبكر: «بخٍ بخٍ لك يا بنَ أبي طالب! أصبحتَ وأمسيتَ مولاي ومولى كلِّ مؤمنٍ ومؤمنةٍ!».

وقال الخليفة الثّاني: «هنيئاً لكَ يا بنَ أبي طالب! أصبحتَ مولاي ومولى كلّ مؤمنٍ ومؤمنةٍ!»[2].

ومن الواضح أنّ تهنئة الإمام عليه السلام لا تتناسب إلّا مع تعيينه إماماً للأُمّة.

القرينة الثّالثة: ليس من المنطقيّ أن يجمع النبيّ ﷺ تلك الحشود الغفيرة من النّاس ويوقفهم ساعات من الزّمن تحت حرارة الشّمس المُحرقة في أرض الحجاز لغرض أن يُبلّغهم أنّ عليّاً عليه السلام ناصره وصاحبه فقط؛ بل لا يتسنّى هذا الفعل منه ﷺ إلّا لأجل الإعلان عن أمرٍ مهمّ للغاية، أي تقليده الخلافة والإمامة من بعده.

٢. حديث المنزلة

يُعدّ حديث المنزلة من الأحاديث المهمّة الّتي قالها نبيّ الإسلام ﷺ في مدح أمير المؤمنين عليه السلام والدالّة على خلافته وإمامته، وقد قاله في مواضع مختلفة، منها:

---

١. انظر: المصدر نفسه، ص٣٨٧ وج٢، ص٣٤.

٢. انظر: أحمد بن حنبل، المسند، ج٤، ص٢٨١؛ الطبري، تاريخ الطبري، ج٣، ص٤٢٨؛ ابن حجر، الصواعق المحرقة، ص٢٦؛ ومصادر أخرى كثيرة. وقد أورد العلامة الأميني تفاصيل هذه الواقعة مع ذكر الأقوال المتعددة لأهل السنّة، انظر: الأميني، الغدير، ج١، ص٢٣٩-٢٤٦.

لمّا خرج النبيّ صلى الله عليه وآله لقتال أهل الرّوم (في منطقة يُقال لها: تبوك، وتقع شمال الجزيرة العربية)، خلّف وراءه على المدينة الإمام عليّ عليه السلام لدرء مؤامرات المُنافقين، وحينما سأل عن سبب عدم اصطحابه إلى تلك الغزوة وبقائه في المدينة قال النبيّ صلى الله عليه وآله:

«يَا عَلِيُّ! أَمَا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ مِنِّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى، إِلَّا أَنَّهُ لَا نَبِيَّ بَعْدِي؟ إِنَّهُ لَا يَنْبَغِي أَنْ أَذْهَبَ إِلَّا وَأَنْتَ خَلِيفَتِي»[١].

وتُعتبر هذه الرّواية من الفضائل الكبرى لأمير المؤمنين عليه السلام بحيث لم يتمكن الأعداء من التّعتيم عليها واضطرّوا إلى الاعتراف بها، فلمّا سبّ معاوية عليّاً عليه السلام في مجلسه اعترض عليه سعد بن أبي وقاص - وهو من خصوم الإمام - وقال: «أمّا ما ذكرتُ ثلاثاً قالهنّ له رسول الله صلى الله عليه وآله فلن أسبّه، لأن تكون لي واحدة منهنّ أحبّ إليّ من حُمر النِّعم». وهذه الثّلاثة هي: حديث المنزلة، وقصّة إعطاء الرّاية في غزوة خيبر، وواقعة المُباهلة[٢].

١.٢. دلالة حديث المنزلة

أثبت هذا الحديث جميع مقامات النبيّ هارون عليه السلام لأمير المؤمنين عليه السلام عدا النبوّة، وقد ورد في القرآن الكريم أنّ النبيّ موسى عليه السلام سأل الله (سبحانه وتعالى) قائلاً:

﴿وَاجْعَلْ لِي وَزِيراً مِنْ أَهْلِي * هَارُونَ أَخِي * اُشْدُدْ بِهِ أَزْرِي * وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي﴾[٣].

وقال (سبحانه وتعالى) في موضعٍ آخر على لسان موسى عليه السلام:

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي﴾[٤].

فكما كان النبيّ هارون عليه السلام أخا النبيّ موسى عليه السلام وخليفته في قومه، ووزيره وشريكه في إبلاغ

---

١. أحمد بن حنبل، المسند، ج١، ص٧٠٩؛ المجلسي، بحار الأنوار، ج٣٧، ص٢٥٤-٢٨٩، الباب ٥٣، أخبار المنزلة والاستدلال بها.

٢. مسلم، صحيح مسلم، ج٧، ص١٢٠؛ الكوفي، مناقب الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام، ج١، ص٥٣٧؛ المجلسي، بحارالأنوار، ج٣٧، ٢٦٤.

٣. سورة طه: الآيات ٢٩-٣٢.

٤. سورة الأعراف: الآية ١٤٢.

دين الله، فكذلك الإمام عليّ عليه السلام له تلك المنزلة بالنّسبة إلى النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله.

٢.٢. أسئلة وردود

طُرحت بعض الإشكالات والشّبهات حول دلالة هذا الحديث على خلافة الإمام عليّ عليه السلام، وسنُشير هنا إلى عدد منها:

أ) اختصاص الحديث بزمن النبيّ صلى الله عليه وآله: بما أنّ نَصْبَ الإمام عليه السلام خليفةً للمسلمين كان في عهد النبيّ صلى الله عليه وآله وخلال غزوة تبوك تحديداً، يمكن أن يُطرح السّؤال الآتي: أنّى لنا تعميم ذلك على عصر ما بعد النبيّ صلى الله عليه وآله؟

والجواب أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله لم يقل هذه الجُملة مرّة واحدة فقط؛ وإنّما قالها في مواضع مختلفة، منها: عند إغلاق أبواب بيوت المُسلمين على مسجد النبيّ إلّا باب بيت عليّ[١] عليه السلام، وعند عقد الأخوّة بين المسلمين[٢]. وممّا يؤيّد أنّ هذه الخلافة لا تقتصر على تلك المُدّة المحدودة، الألفاظ المختلفة الّتي استعملها النبيّ صلى الله عليه وآله، من قبيل: خليفتي، وزيري، وصيّي؛ حيث يُستشفّ من ذلك أنّه كان بصدد بيان مَنْصِب الإمام ومَقَامِه بصورة عامّة.

ب) موت هارون في حياة موسى: الإشكاليّة الأخرى الّتي طُرحت في هذا المجال هي أنّ هارون توفّي في حياة النبيّ موسى بن عمران عليه السلام، ولم يصبح وزيراً له؛ وعندئذٍ كيف يمكن استفادة إمامة أمير المؤمنين عليه السلام من هذا الحديث؟

الجواب: إنّ موت هارون قبل النبيّ موسى عليه السلام لا يسبّب مشكلة في هذا البحث؛ ذلك أنّ الخلافة والإمامة تارةً تحصل في زمن غَيْبَة القائد، كما حدثت لهارون عند غَيْبَة موسى عليه السلام، وتارةً تحصل بعد موته كما هو الحال بالنسبة إلى الإمام عليّ عليه السلام بعد وفاة النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله، ولكلا هذين النّوعين قدرٌ مُشترك بينهما وإن تباينت المصاديق، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله في موضع آخر حول نسبة أمير المؤمنين عليه السلام إليه:

«يَا عَلِيُّ! أَنْتَ مِنِّي بِمَنْزِلَةِ هِبَةِ اللهِ مِنْ آدَمَ، وَبِمَنْزِلَةِ سَامٍ مِنْ نُوحٍ، وَبِمَنْزِلَةِ

---

١. انظر: ابن المغازلي الشافعي، مناقب الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، ص٢٥٥.

٢. انظر: النسائي، فضائل الصحابة، ج٢، ص٦٦٣.

إِسْحَاقَ مِنْ إِبْرَاهِيمَ، وَبِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى، وَبِمَنْزِلَةِ شَمْعُونَ مِنْ عِيسَى، إِلَّا أَنَّهُ لَا نَبِيَّ بَعْدِي»[١].

ففي هذا الحديث الشّريف، شبّه النبيّ صلى الله عليه وآله خلافة عليّ عليه السلام له بخلافة عدد من الأنبياء، ولم يقتصر التّشبيه على خلافة هارون لموسى عليه السلام ليُتاح طرح مثل هذه الإشكالات.

❁ الأسئلة

١. ما الأدلّة والشّواهد على أنّ حديث الغدير قطعيّ الصدور؟

٢. اشرح معنى كلمة «المولى» الواردة في حديث الغدير في ضوء الشّبهات المطروحة في هذا المجال.

٣. لمّا كان هارون قد مات في حياة موسى عليه السلام، كيف يمكن تعميم حديث المنزلة ليشمل استخلاف الإمام عليّ عليه السلام للنبيّ صلى الله عليه وآله بعد وفاته؟

❁ موضوع للبحث

- راجع كتاب الاحتجاج للشّيخ الطّبرسي، باب «احتجاج أمير المؤمنين عليه السلام على أبي بكر»، وبيّن ما الآيات الّتي استدلّ بها الإمام عليه السلام على إمامته؟ وما كان جواب أبي بكر له؟

١. الصدوق، الأمالي، ص٤٦.

٤٢

امامة سائر الأئمة عليهم السلام

كانت الأدلّة والشواهد الّتي ذكرناها في الدّروس السّابقة ناظرة في أغلب الأحيان إلى إمامة الإمام عليّ عليه السلام، وإن أمكن الاستفادة من بعضها للاستدلال على إمامة سائر الأئمّة أيضاً. وفي هذا الدّرس، سنبحث النّصوص الدالّة على إمامة الأئمّة الاثني عشر عليهم السلام.

استعرضنا في مُستهلّ أبحاث الإمامة الخاصّة بعض الأدلّة على إمامة الخُلفاء الشّرعيّين للنبيّ صلى الله عليه وآله بصورة عامّة؛ فمن جهة بيّنّا أنّ جميع المُسلمين نقلوا عن نبيّ الإسلام صلى الله عليه وآله تأكيده على وجود اثني عشر خليفة له، ومن جهة ثانية أثبتنا أنّه لا يمكن العثور على أئمّة بهذه المواصفات وهذا العدد إلّا الأئمّة الأطهار عليهم السلام. ومن ثمّ بحثنا مصطلح «أهل البيت» في القرآن الكريم والسنّة، وأثبتنا أنّ هذا العنوان لم يطلق إلّا على الأئمّة الاثني عشر، مضافاً إلى السيّدة فاطمة الزّهراء عليها السلام والرّسول الكريم صلى الله عليه وآله.

ونحن هنا بصدد الإتيان بأدلّة أخرى تثبت إمامة هؤلاء الأئمّة الميامين على وجه التّحديد. ومع وجود آيات وروايات متعدّدة استخدمت كدليل أو شاهد على إمامة الأئمّة من أهل البيت عليهم السلام، سنكتفي هنا بآية واحدة وبضع روايات رعايةً للاختصار.

١. آية أولي الأمر

الآية الآتية هي من الآيات الّتي استفيد منها لإثبات إمامة أمير المؤمنين وأولاده الأئمّة

المعصومين ﷺ:

﴿يٰٓا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوٓا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ﴾[١].

فكما هو واضح، أوجب الباري (سبحانه وتعالى) على المؤمنين إطاعة ثلاثة أشخاص في هذه الآية الشّريفة، وهم الله (جلّ وعلا) والرّسول الكريم ﷺ وأولي الأمر.

لا خلاف بشأن الطّاعة للفردين الأوّلين، وما نروم بحثه هنا هو تبيين الطّاعة لأولي الأمر، وهذا ما سنشرحه في العنوانين الآتيين:

١.١. إطلاق الطّاعة

إنّ الطّاعة المذكورة في الآية لأولي الأمر ـ كالطّاعة لله ورسوله ـ مُطلقة وغير مشروطة، وهي بذلك تدلّ على عصمة أولي الأمر، وهذا ما صرّح به مُفسّرو الشّيعة قاطبةً وعدد من مُفسّري أهل السنّة أيضاً. ومن بين مُفسّري أهل السنّة يمكن الإشارة إلى الفخر الرّازي؛ حيث قال في تفسيره للآية المذكورة:

«إنّ الله (سبحانه وتعالى) أمر بطاعة أولي الأمر على سبيل الجزم في هذه الآية، ومن أمر الله بطاعته على سبيل الجزم والقطع لا بدّ وأن يكون معصوماً عن الخطإ... فثبت قطعاً أنّ أولي الأمر المذكور في هذه الآية لا بدّ وأن يكون معصوماً»[٢].

وقال العلاّمة الطباطبائي في هذا المجال:

«ولا ينبغي أن يُرتاب في أنّ هذه الإطاعة المأمور بها في قوله: ﴿أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ إطاعة مُطلقة غير مشروطة بشرط ولا مقيدة بقيد، وهو الدليل على أنّ الرّسول لا يأمر بشيء ولا ينهى عن شيءٍ يُخالف حكم الله في الواقعة... فلا مناص من أخذ الآية مُطلقة من غير أيّ تقييد، ولازمه اعتبار العصمة في جانب أولي الأمر كما اعتبر في جانب رسول الله ﷺ من غير فرق»[٣].

---

١. سورة النساء: الآية ٥٩.

٢. الفخر الرازي، التفسير الكبير، ج١٠، ص١١٦.

٣. الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ج٤، ص٣٨٩-٣٩١.

٢.١. مصداق أولي الأمر

زعم مُفسّرو أهل السنّة وجود مصاديق كثيرة لأولي الأمر، من قبيل: الأمراء[١]، علماء الدّين[٢]، أمراء السّرايا أو أصحاب رسول الله ﷺ[٣]، ولما كانت العصمة من أهمّ صفات أولي الأمر، لا يمكن لأيّ من الأمور المذكورة أن تكون مصداقاً لهم؛ لأنّ هؤلاء الأفراد مفتقرون إلى هذه الخصوصيّة.

وذهب بعض المفسّرين إلى أنّ إجماع الأمّة يشكل مصداقاً لأولي الأمر، واعتبره معصوماً من الخطإ[٤]، وذلك على الرّغم من عدم وجود دليل واضح على هذا القول. فلو اجتمع بضعة أشخاص غير معصومين، كما حصل في سقيفة بني ساعدة، ما الدليل على أنّهم مصيبون وأنّ رأيهم غير خاطئ؟

عندئذٍ، لا سبيل إلى معرفة الحقيقة إلّا بسؤال رسول الله ﷺ نفسه باعتباره الشّارح والمبيّن للقرآن الكريم: من هم أولو الأمر؟

روي عن جابر بن عبدالله الأنصاريّ قال: لمّا أنزل الله (عزّوجلّ) على نبيّه محمّد ﷺ: ﴿يَآ أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوٓا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾، قلت: يا رسول الله! عرفنا الله ورسوله، فمن أولوا الأمر الذين قرن الله طاعتهم بطاعتك؟ فقال ﷺ:

«هُمْ خُلَفَائِي يَا جَابِرُ وَأَئِمَّةُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ بَعْدِي، أَوَّلُهُمْ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ ثُمَّ الْحَسَنُ وَالْحُسَيْنُ...»[٥].

ثمّ عدّد الرّسول ﷺ الأئمّة الاثني عشر واحداً واحداً.

٢. حديث لوح الزّهراء ﷺ

حديث اللّوح من النّصوص الّتي ذكرت الأئمّة الاثني عشر ﷺ بأسمائهم مع ذكر مواصفات كلّ

---

١. انظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج٥، ص٢٥٩؛ الزمخشري، الكشاف، ج٢، ص٩٥.

٢. انظر: الآلوسي، روح المعاني في تفسير القرآن، ج٥، ص٦٥.

٣. انظر: أبوحيان الأندلسي، تفسير البحر المحيط، ج٣، ص٢٧٨.

٤. الفخر الرازي، التفسير الكبير، ج١٠، ص١٤٤.

٥. الصدوق، كمال الدين وتمام النعمة، ج١، ص٢٥٣؛ الخزّاز الرازي، كفاية الأثر في النصّ على الأئمّة الاثني عشر، ص٥٣؛ الأربلي، كشف الغمّة في معرفة الأئمّة، ج٢، ص٥٠٩؛ المجلسي، بحار الأنوار، ج٣٦، ص٢٥٠.

واحد منهم، وهو مرويّ عن الإمام الصّادق عليه السلام، ونصّه:

عَنْ أَبِي عَبْدِ اللهِ عليه السلام قَالَ: «قَالَ أَبِي لِجَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ الْأَنْصَارِيِّ: "إِنَّ لِي إِلَيْكَ حَاجَةً، فَمَتَى يَخِفُّ عَلَيْكَ أَنْ أَخْلُوَ بِكَ فَأَسْأَلَكَ عَنْهَا؟" قَالَ لَهُ جَابِرٌ: فِي أَيِّ الْأَوْقَاتِ شِئْتَ. فَخَلَا بِهِ أَبِي عليه السلام، فَقَالَ لَهُ: "يَا جَابِرُ! أَخْبِرْنِي عَنِ اللَّوْحِ الَّذِي رَأَيْتَهُ فِي يَدَيْ أُمِّي فَاطِمَةَ بِنْتِ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وآله، وَمَا أَخْبَرَتْكَ بِهِ أُمِّي أَنَّ فِي ذَلِكَ اللَّوْحِ مَكْتُوباً". قَالَ جَابِرٌ: أَشْهَدُ بِاللهِ أَنِّي دَخَلْتُ عَلَى أُمِّكَ فَاطِمَةَ فِي حَيَاةِ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وآله أُهَنِّئُهَا بِوِلَادَةِ الْحُسَيْنِ عليه السلام، فَرَأَيْتُ فِي يَدِهَا لَوْحاً أَخْضَرَ، ظَنَنْتُ أَنَّهُ زُمُرُّدٌ، وَرَأَيْتُ فِيهِ كِتَاباً أَبْيَضَ شِبْهَ نُورِ الشَّمْسِ. فَقُلْتُ لَهَا: بِأَبِي أَنْتِ وَأُمِّي يَا بِنْتَ رَسُولِ اللهِ! مَا هَذَا اللَّوْحُ؟ فَقَالَتْ: "هَذَا اللَّوْحُ أَهْدَاهُ اللهُ (عَزَّ وَجَلَّ) إِلَى رَسُولِهِ، فِيهِ اسْمُ أَبِي وَاسْمُ بَعْلِي وَاسْمُ ابْنَيَّ وَأَسْمَاءُ الْأَوْصِيَاءِ مِنْ وُلْدِي، فَأَعْطَانِيهِ أَبِي لِيَسُرَّنِي بِذَلِكَ". قَالَ جَابِرٌ: فَأَعْطَتْنِيهِ أُمُّكَ فَاطِمَةُ، فَقَرَأْتُهُ وَانْتَسَخْتُهُ. فَقَالَ أَبِي عليه السلام: "فَهَلْ لَكَ يَا جَابِرُ أَنْ تَعْرِضَهُ عَلَيَّ؟" قَالَ: نَعَمْ. فَمَشَى مَعَهُ أَبِي عليه السلام حَتَّى انْتَهَى إِلَى مَنْزِلِ جَابِرٍ، فَأَخْرَجَ إِلَى أَبِي صَحِيفَةً مِنْ رَقٍّ. وَقَالَ: "يَا جَابِرُ! انْظُرْ فِي كِتَابِكَ لِأَقْرَأَ عَلَيْكَ"، فَنَظَرَ جَابِرٌ فِي نُسْخَتِهِ وَقَرَأَ أَبِي، فَمَا خَالَفَ حَرْفٌ حَرْفاً. قَالَ جَابِرٌ: فَأَشْهَدُ بِاللهِ أَنِّي هَكَذَا رَأَيْتُ فِي اللَّوْحِ مَكْتُوباً».

وقد ورد نصّ حديث اللوح في المصادر الشيعيّة المختلفة[1].

٣. النّصوص العامّة على إمامة الأئمّة عليهم السلام

توجد روايات عدّة ومُتنوّعة عن الرّسول الكريم صلى الله عليه وآله تنصّ على أسماء الأئمّة من أهل البيت عليهم السلام، نستعرض بعضاً منها على سبيل المثال:

قال رسول الله صلى الله عليه وآله:

«الْأَئِمَّةُ بَعْدِي اثْنَا عَشَرَ، أَوَّلُهُمْ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ وَآخِرُهُمُ الْقَائِمُ، هُمْ خُلَفَائِي وَأَوْصِيَائِي وَأَوْلِيَائِي وَحُجَجُ اللهِ عَلَى أُمَّتِي بَعْدِي، الْمُقِرُّ بِهِمْ مُؤْمِنٌ وَالْمُنْكِرُ لَهُمْ

---

١ . الطوسي، الغيبة، ص١٤٣-١٤٦؛ الطبرسي، الاحتجاج، ج١، ص٦٧-٦٨؛ المجلسي، بحار الأنوار، ج٣٦، ص١٩٥-١٩٧.

كَافِرٌ[1]»[2].

وفي رواية، طلب سلمان الفارسي من النبيّ ﷺ أن يسمّي له الأوصياء والخلفاء من بعده عندما أمر بالتمسّك بهم، فقال النبيّ ﷺ:

«أَوَّلُهُمْ وَسَيِّدُهُمْ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ، وَسِبْطَايَ، وَبَعْدَهُمَا زَيْنُ الْعَابِدِينَ عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ، وَبَعْدَهُ مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ بَاقِرُ عِلْمِ النَّبِيِّينَ، وَجَعْفَرُ بْنُ مُحَمَّدٍ، وَابْنُهُ الْكَاظِمُ سَمِيُّ مُوسَى بْنِ عِمْرَانَ، وَالَّذِي يُقْتَلُ بِأَرْضِ الْغُرْبَةِ عَلِيٌّ ابْنُهُ، ثُمَّ ابْنُهُ مُحَمَّدٌ، وَالصَّادِقَانِ عَلِيٌّ وَالْحَسَنُ، وَالْحُجَّةُ الْقَائِمُ الْمُنْتَظَرُ فِي غَيْبَتِهِ. فَإِنَّهُمْ عِتْرَتِي مِنْ دَمِي وَلَحْمِي، عِلْمُهُمْ عِلْمِي وَحُكْمُهُمْ حُكْمِي، مَنْ آذَانِي فِيهِمْ فَلَا أَنَالَهُ اللهُ (سبحانه وتعالى) شَفَاعَتِي»[3].

وروي عن ابن عبّاس، قال:

قدم يهوديٌّ على رسول الله ﷺ يقال له: نعثل، فقال: يا محمّد! إنّي أسألك عن أشياء تلجلج في صدري منذ حين، فأخبرني عن وصيّك من هو؟ فما من نبيّ إلّا وله وصيٌّ، وإنّ نبيّنا موسى بن عمران أوصى إلى يوشع بن نون. فقال ﷺ:

«نَعَمْ، إِنَّ وَصِيِّي وَالْخَلِيفَةَ مِنْ بَعْدِي عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ ؑ، وَبَعْدَهُ سِبْطَايَ الْحَسَنُ وَالْحُسَيْنُ، تَتْلُوهُ تِسْعَةٌ مِنْ صُلْبِ الْحُسَيْنِ، أَئِمَّةٌ أَبْرَارٌ».

قال: يا محمّد! فسمّهم لي، قال:

«نَعَمْ، إِذَا مَضَى الْحُسَيْنُ فَابْنُهُ عَلِيٌّ، فَإِذَا مَضَى فَابْنُهُ مُحَمَّدٌ، فَإِذَا مَضَى فَابْنُهُ جَعْفَرٌ، فَإِذَا مَضَى جَعْفَرٌ فَابْنُهُ مُوسَى، فَإِذَا مَضَى مُوسَى فَابْنُهُ عَلِيٌّ، فَإِذَا مَضَى عَلِيٌّ فَابْنُهُ مُحَمَّدٌ، فَإِذَا مَضَى مُحَمَّدٌ فَابْنُهُ عَلِيٌّ، فَإِذَا مَضَى عَلِيٌّ فَابْنُهُ الْحَسَنُ،

---

١. نظراً إلى بعض الآيات والروايات المأثورة عن الأئمّة المعصومين ﷺ، يمكن القول: إنّ المقصود من الكفر هنا إنكار ولاية الأئمّة من أهل البيت ﷺ وعدم الاعتراف بإمامتهم، لا الكفر بمعنى الشرك والخروج من الدين الإسلاميّ، كما هو في الاختلاف بين المسلم والمؤمن.

٢. الصدوق، كمال الدين وتمام النعمة، ج١، ص٢٥٩؛ الأربلي، كشف الغمّة في معرفة الأئمّة، ج٢، ص٥٠٧.

٣. الخزّاز الرازي، كفاية الأثر في النصّ على الأئمّة الاثني عشر، ص١٠١-١٠٢؛ المجلسي، بحار الأنوار، ج٣٦، ص٢٩٠.

فَإِذَا مَضَى الْحَسَنُ فَبَعْدَهُ ابْنُهُ الْحُجَّةُ بْنُ الْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ. فَهَذِهِ اثْنَا عَشَرَ إِمَاماً عَلَى عَدَدِ نُقَبَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ»[١].

على أنّ ما وردت الإشارة إليه هنا لا يعدو الأمثلة البسيطة من الرّوايات الكثيرة جدّاً الّتي أخرجها علماؤنا في كتبهم ومصنّفاتهم المختلفة[٢].

٤. النّصوص الخاصّة على إمامة الأئمّة عليهم السلام

إلى جانب النّصوص العامّة الّتي أُشير فيها إلى أسماء الأئمّة جميعهم أو إلى عددهم، توجد روايات أشارت إلى واحد منهم أو أكثر، وهو ما نطلق عليه اسم «النّصوص الخاصّة»، وهي الرّوايات صرّحت باسم أحد الأئمّة فقط أو اثنين أو أكثر؛ ولكن ليس جميعهم.

وقد جاء هذا التنوّع نتيجة الحاجة إلى ذكر واحد من الأئمّة أو أكثر وعدم لزوم ذكر الأئمّة الباقين حسب ما تتطلّبه الظّروف السّائدة في ذلك الوقت. فعلى سبيل المثال، لمّا يسأل أصحاب الإمام عن الإمام الّذي يخلفه يكتفي بذكر الإمام التّالي له فقط، وكذلك لمّا يريد النبيّ صلى الله عليه وآله التّعريف بشخصيّة الإمام عليّ عليه السلام وابنيه فمن الطبيعيّ أن يكتفي بذكرهم.

وعلى أيّ حال، النّصوص في هذا المجال في غاية الكثرة وغزيرة جدّاً، ويمكن الوقوف عليها من خلال مُراجعة المصادر الشيعيّة المُعتبرة في هذا الخصوص[٣].

---

١ . الخزّاز الرازي، كفاية الأثر في النصّ على الأئمّة الاثني عشر، ص١٣-١٤.

٢ . إنّ الوثائق في مجال النصّ على إمامة أهل البيت عليهم السلام غزيرة جدّاً، يمكن ملاحظة بعضها في: الكليني، الكافي، كتاب الحجّة؛ والصدوق، كمال الدين وتمام النعمة، مضافاً إلى الكتب المستقلّة الّتي ألّفت لهذا الغرض مثل: الخزّاز الرازي، كفاية الأثر في النصّ على الأئمّة الاثني عشر، الّذي أشرنا إليه في السطور المتقدّمة.

٣ . انظر: الحرّ العاملي، إثبات الهداة بالنصوص والمعجزات، مختلف مجلّداته.

❁ الأسئلة

١. أثبت إمامة أهل البيت عليهم السلام وعصمتهم من آية أولي الأمر.

٢. ما الّذي يشتمل عليه «لوح فاطمة الزّهراء عليها السلام» في باب إمامة الأئمّة الأطهار عليهم السلام ؟

٣. ما الفرق بين النّصوص العامّة والنّصوص الخاصّة؟ ولماذا يُلاحظ هذا التنوّع في الرّوايات؟

❁ موضوع للبحث

- اكتب بحثاً حول الأساليب الّتي اتّبعها الأولياء الإلهيّون في التّعريف بخلفائهم غير النّصوص الصّريحة على الإمامة.

٤٣

إمامة الإمام المهديّ عجّل الله تعالى فرجه الشريف

جرى الحديث في الدّروس السّابقة عن النّصوص والأدلّة على إمامة الأئمّة الأطهار عليهم السلام عموماً، ونرى من الضّروري التطرّق بمزيد من التفصيل إلى إمامة آخر الأوصياء الإلهيّين؛ ولذا خصّصنا الدّروس القادمة لبحث الزوايا المختلفة لإمامة الإمام صاحب العصر والزّمان عجّل الله تعالى فرجه الشريف والأوضاع في عصر الظّهور. وفي هذا الدّرس، سنتناول تاريخ الإيمان بالمهدويّة في الأديان السّالفة، ثمّ نتعرّض إلى الأدلّة على إمامته.

من الضّروريّ وجود حجّة من الله (سبحانه وتعالى) في الأرض على العباد في كلّ عصر وزمان؛ وذلك من أجل قيادة المؤمنين وهداية المُتديّنين وإتمام الحجّة على الظّالمين، وقد لبّى الأئمّة المعصومون عليهم السلام هذه الحاجة الضّروريّة طيلة تاريخ الإسلام بأساليب متنوّعة وطرق مختلفة ومتناسبة مع الظّروف السياسيّة والاجتماعيّة للمجتمع؛ ولكن ما إن استشهد الإمام الحسن العسكريّ عليه السلام وبدأت إمامة ابنه الحجّة المهديّ عجّل الله تعالى فرجه الشريف حتّى شرع عصر جديد من الإمامة، انطوى على أوضاع سياسيّة واجتماعيّة خاصّة، واستلزم العمل بمنهج معين يضمن استمرار الإمامة. وقد اشتمل هذا العصر الّذي عُرف في أدبيّات المذهب الشّيعيّ بعنوان «عصر الغَيْبَة» على موضوعات وأبحاث مختلفة، سوف نتطرّق أدناه إلى أهمّها بصورة إجماليّة:

١. أصالة المهدويّة

إنّ أساس الإيمان بمُنقذ للبشريّة من الجور والظّلم وتأسيس مدينة فاضلة للبشر لهو من

المُعتقدات المتجذّرة في الثقافات السّائدة في المجتمعات الإنسانيّة المتنوّعة؛ ومن هنا نجد الأديان اليهوديّة والمسيحيّة والزرادشتيّة والبوذيّة جميعها تتحدّث عن فكرة واحدة - ولو بعبارات مختلفة - حول المستقبل المشرق لعالم البشريّة[١].

أمّا المسلمون - وعلى الرّغم من جميع الاختلافات بينهم - فهم يؤمنون بأصل ظهور الإمام المهديّ عجل الله تعالى فرجه الشريف في آخر الزّمان؛ وذلك استناداً لبشارة النبيّ الكريم صلى الله عليه وآله، ولا تختصّ هذه العقيدة بمذهب مُعيّن أو فرقة خاصّة. وعلى هذا الأساس، قال ابن خلدون في هذا المجال:

«إنّ في المشهور بين الكافّة من أهل الإسلام على ممرّ الأعصار أنّه لا بدّ في آخر الزّمان من ظهور رجلٍ من أهل البيت، يؤيّد الدّين ويُظهر العدل ويتّبعه المسلمون ويستولي على الممالك الإسلاميّة ويسمّى بالمهديّ»[٢].

وتعود جذور الإيمان بظهور الإمام المهديّ عليه السلام في الثّقافة الإسلاميّة إلى القرآن الكريم والرّوايات؛ حيث وردت آيات متعدّدة في القرآن حول هذا الموضوع، أوصلها بعض الباحثين إلى ٤٥ آية،[٣] منها:

﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾[٤].

وذهب أغلب المُفسّرين من الشّيعة والسنّة عند تفسيرهم الآية المذكورة إلى أنّ أحد معاني «توريث الأرض لعباد الله الصّالحين» هو أنّ أمّة محمّد صلى الله عليه وآله ستستولي في آخر الزّمان على جميع الأراضي، بما فيها أراضي الكفار أيضًا[٥].

وقال النبيّ صلى الله عليه وآله في هذا السّياق:

«لَوْ لَمْ يَبْقَ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا يَوْمٌ وَاحِدٌ لَطَوَّلَ اللهُ ذَلِكَ الْيَوْمَ حَتَّى يُخْرِجَ رَجُلاً مِنْ

---

١ . لمزيد من المعلومات في هذا المجال، انظر: برنجيان، فرهنگ وتمدن جهان در عصر موعود، الفصلان الأوّل والثاني.

٢ . ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ج١، ص٥٥٥.

٣ . المجلسي، بحارالأنوار، ج٥١، ص٤٤، الباب ٥ الآيات المؤولة بقيام القائم، البحراني، المحجّة فيما نزل في القائم الحجة عجل الله تعالى فرجه الشريف.

٤ . سورة الأنبياء: الآية ١٠٥.

٥ . انظر: الطبري، جامع البيان، ج١٧، ص١٣٩؛ الثعلبي، الكشف والبيان عن تفسير القرآن، ج٦، ص٣١٣؛ الفخر الرازي، التفسير الكبير، ج٢٢، ص٢٣؛ الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ج١٤، ص٣٢١.

أَهْـلِ بَيْتِـي، يَمْـلأُ الأَرْضَ عَـدْلاً كَـمَا مُلِئَـتْ ظُلْمـاً وجَـوْراً»[١].

٢. النّصوص على إمامة المهديّ عجّل الله تعالى فرجه الشريف

ولد الإمام الثّاني عشر من أئمّة التشيّع، محمّد المهديّ المنتظر ابن الإمام الحسن العسكري عليه السلام، فجر الخامس عشر من شعبان سنة ٢٥٥ هجري، في مدينة سامرّاء، وأمّه السيّدة نرجس خاتون من أسرة يشوعا ومن سلالة شمعون بن صفا.

بدأت إمامته بعد استشهاد أبيه عام ٢٦٠ من الهجرة، فتحمّل أعباء قيادة المجتمع الإنسانيّ في عصر الغَيْبَة، وسيبقى قائداً له حتّى ظهوره حينما يأذن الله (سبحانه وتعالى).

وفي ما يتعلّق بالنّصوص على إمامة المهديّ عجّل الله تعالى فرجه الشريف فهي متوفّرة في أحاديث النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله وفاطمة الزّهراء عليها السلام والأئمّة الأحد عشر، وهي من الكثرة بحيث إنّ جمع نماذج منها تطلّب تأليف كتاب مُستقلّ[٢]، وقد وردت هذه النّصوص بكلّ وضوح وفي غاية الكثرة في الكُتب الّتي أُلّفت خلال القرون المتعاقبة حول غَيْبَة إمام العصر والزّمان عجّل الله تعالى فرجه الشريف، من قبيل: «الغَيْبَة» للنعماني، و«الغَيْبَة» للشيخ الطوسي، و«كمال الدّين وتمام النّعمة» للشّيخ الصّدوق. وسنشير هنا إلى بعض هذه النّصوص فقط بما يتناسب مع الهدف من تأليف هذا الكتاب:

قال النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله في هذا الخصوص:

«إِنَّ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ عليه السلام إِمَامُ أُمَّتِي وَخَلِيفَتِي عَلَيْهَا مِنْ بَعْدِي، وَمِنْ وُلْدِهِ الْقَائِمُ الْمُنْتَظَرُ الَّذِي يَمْلأُ اللهُ بِهِ الأَرْضَ عَدْلاً وَقِسْطاً كَمَا مُلِئَتْ جَوْراً وَظُلْماً»[٣].

وقال أمير المؤمنين عليّ عليه السلام لولده الحسين عليه السلام:

«لِلْقَائِمِ مِنَّا غَيْبَةٌ أَمَدُهَا طَوِيلٌ».

---

١ . الطوسي، الغيبة، ص١٨٠؛ الصدوق، من لايحضره الفقيه، ج٤، ص١٧٧؛ ابن بابويه، الإمامة والتبصرة، ص١١. وورد ما يشبه هذا الحديث في المصادر الروائيّة لأهل السنّة أيضاً، نحو: أبوداود، السنن، ج٢، ص٣٠٩؛ الطبراني، المعجم الأوسط، ج٢، ص٥٥؛ الطبراني، المعجم الكبير، ج١٠، ص١٣٥؛ السيوطي، الجامع الصغير، ج٢، ص٤٣٨.

٢ . الصافي الكلبايكاني، منتخب الأثر في الإمام الثاني عشر.

٣ . الصدوق، كمال الدّين وتمام النعمة، ج١، ص٢٨٨.

ثمّ قال:

«إِنَّ الْقَائِمَ مِنَّا إِذَا قَامَ لَمْ يَكُنْ لِأَحَدٍ فِي عُنُقِهِ بَيْعَةٌ؛ فَلِذَلِكَ تَخْفَى وِلَادَتُهُ وَيَغِيبُ شَخْصُهُ»[1].

وقال الإمام الحسن المجتبى عليه السلام:

«مَا مِنَّا أَحَدٌ إِلَّا وَيَقَعُ فِي عُنُقِهِ بَيْعَةٌ لِطَاغِيَةِ زَمَانِهِ، إِلَّا الْقَائِمُ الَّذِي يُصَلِّي رُوحُ اللهِ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ عليه السلام خَلْفَهُ، فَإِنَّ اللهَ (عَزَّ وَجَلَّ) يُخْفِي وِلَادَتَهُ وَيُغَيِّبُ شَخْصَهُ؛ لِئَلَّا يَكُونَ لِأَحَدٍ فِي عُنُقِهِ بَيْعَةٌ إِذَا خَرَجَ، ذَلِكَ التَّاسِعُ مِنْ وُلْدِ أَخِي الْحُسَيْنِ»[2].

وقال الإمام أبوعبد الله الحسين عليه السلام في السّياق ذاته:

«فِي التَّاسِعِ مِنْ وُلْدِي سُنَّةٌ مِنْ يُوسُفَ وَسُنَّةٌ مِنْ مُوسَى بْنِ عِمْرَانَ عليه السلام[3]، وَهُوَ قَائِمُنَا أَهْلَ الْبَيْتِ، يُصْلِحُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَمْرَهُ فِي لَيْلَةٍ وَاحِدَةٍ»[4].

وقال الإمام عليّ بن الحسين السجّاد عليه السلام:

«إِنَّ لِلْقَائِمِ مِنَّا غَيْبَتَيْنِ، إِحْدَاهُمَا أَطْوَلُ مِنَ الْأُخْرَى. أَمَّا الْأُولَى فَسِتَّةُ أَيَّام أَوْ سِتَّةُ أَشْهُرٍ أَوْ سِتُّ سِنِينَ، وَأَمَّا الْأُخْرَى فَيَطُولُ أَمَدُهَا حَتَّى يَرْجِعَ عَنْ هَذَا الْأَمْرِ أَكْثَرُ مَنْ يَقُولُ بِهِ، فَلَا يَثْبُتُ عَلَيْهِ إِلَّا مَنْ قَوِيَ يَقِينُهُ وَصَحَّتْ مَعْرِفَتُهُ وَلَمْ يَجِدْ فِي نَفْسِهِ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْنَا وَسَلَّمَ لَنَا أَهْلَ الْبَيْتِ»[5].

روى السيّد ابن محمّد الحميريّ قال: قلت للإمام جعفر الصادق عليه السلام: يابن رسول الله! قد روي لنا أخبارٌ عن آبائك عليهم السلام في الغيبة وصحّة كونها، فأخبرني بمن تقع؟ فقال عليه السلام:

«إِنَّ الْغَيْبَةَ سَتَقَعُ بِالسَّادِسِ مِنْ وُلْدِي، وَهُوَ الثَّانِي عَشَرَ مِنَ الْأَئِمَّةِ الْهُدَاةِ بَعْدَ

---

١. المصدر نفسه، ص٣٠٣.

٢. المصدر نفسه، ص٣١٦.

٣. المستفاد من الروايات أنّ المراد من السنّة من يوسف هي غَيْبَة الإمام عليه السلام، والسنّة من موسى هي إخفاء ولادته.

٤. الصدوق، كمال الدين وتمام النعمة، ج١، ص٣١٧.

٥. المصدر نفسه، ص٣٢٣.

رَسُولِ اللهِ ﷺ، أَوَّلُهُمْ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ، وَآخِرُهُمُ الْقَائِمُ بِالْحَقِّ، بَقِيَّةُ اللهِ فِي الْأَرْضِ وَصَاحِبُ الزَّمَانِ»[١].

روي عن يونس بن عبدالرحمن، قال: دخلت على موسى بن جعفر عليه السلام، فقلت له: يا ابن رسول الله! أنت القائم بالحقّ؟ فقال:

«أَنَا الْقَائِمُ بِالْحَقِّ، وَلَكِنَّ الْقَائِمَ الَّذِي يُطَهِّرُ الْأَرْضَ مِنْ أَعْدَاءِ اللهِ (عَزَّ وَجَلَّ) وَيَمْلَؤُهَا عَدْلاً كَمَا مُلِئَتْ جَوْراً وَظُلْماً هُوَ الْخَامِسُ مِنْ وُلْدِي، لَهُ غَيْبَةٌ يَطُولُ أَمَدُهَا»[٢].

وقال الإمام أبوالحسن الرّضا عليه السلام لدعبل الخزاعي:

«يَا دِعْبِلُ! الْإِمَامُ بَعْدِي مُحَمَّدٌ ابْنِي، وَبَعْدَ مُحَمَّدٍ ابْنُهُ عَلِيٌّ، وَبَعْدَ عَلِيٍّ ابْنُهُ الْحَسَنُ، وَبَعْدَ الْحَسَنِ ابْنُهُ الْحُجَّةُ الْقَائِمُ، الْمُنْتَظَرُ فِي غَيْبَتِهِ، الْمُطَاعُ فِي ظُهُورِهِ»[٣].

وروي عن أبي هاشم الجعفريّ، قال: قلت لأبي محمد [الحسن العسكريّ] عليه السلام: جلالتك تمنعني من مسألتك، فتأذن لي أن أسألك؟ فقال: «سَل»، قلت: يا سيّدي! هل لك ولد؟ فقال: «نعم»، فقلت: فإن حدث بك حدثٌ فأين أسأل عنه؟ قال: «بالمدينة»[٤].

وفي رواية أخرى، عن عمرو الأهوازيّ، قال: أراني أبومحمّد [الحسن العسكريّ عليه السلام] ابنه وقال: «هَذَا صَاحِبُكُمْ مِنْ بَعدِي»[٥].

وبهذا ـ وكما تقدّم سابقاً ـ يتبيّن وجود نصوص كثيرة للغاية عن الأئمّة المعصومين عليهم السلام حول الإمام المهديّ المُنتظر عجّل الله فرجه وخصوصيّاته، من قبيل: ولادته وطول عمره وانتظار الفرج وعلائم ظهوره وكيفيّة إقامة دولته، وسَنُشير إلى جانب منها في الدّروس القادمة حسب المستطاع.

---

١. المصدر نفسه، ص٣٣؛ ج٢، ص٣٤٢.

٢. المصدر نفسه، ج٢، ص٣٦١.

٣. المصدر نفسه، ص٣٧٢.

٤. الكليني، الكافي، ج١، ص٣٢٨.

٥. المصدر نفسه.

۞ الأسئلة

١. اذكر بعض الشّواهد والأمثلة من الأديان الإلهيّة أو المدارس البشريّة لإثبات جذور المهدويّة الأصيلة.

٢. رتّب كلمات النبيّ الكريم ﷺ وأهل البيت الكرام عليهم السلام حول آخر الحُجج الإلهيّين ترتيباً موضوعيّاً واشرح أهمّها.

۞ موضوع للبحث

- هل تستطيع الإتيان برواية من مصادر أهل السنّة لإثبات إمامة الإمام المهديّ المنتظر عجّل الله تعالى فرجه الشريف؟

٤٤

غَيْبَة الإمام المهديّ عَجَّلَ اللهُ تَعَالَى فَرَجَهُ الشَّرِيف

اقتصر الدّرس السابق على بيان أصل المهدويّة إلى جانب استعراض بعض الأدلّة على إمامة الحجّة المُنتظر عَجَّلَ اللهُ تَعَالَى فَرَجَهُ الشَّرِيف، بينما خصّصنا هذا الدّرس بأكمله لموضوع الغَيْبَة، مُضافاً إلى أسبابها وآثارها والسرّ في طول عمر الإمام، وكذلك مسؤوليّة المنتظرين في عصر الغَيْبَة.

اقتضت الحكمة والمصلحة الإلهيّة في ظلّ الظروف السياسيّة السّائدة بعد الإمام الحسن العسكريّ عليه السلام أن يختفي الإمام الثّاني عشر عن الأنظار إلى حدٍّ ما منذ بدو ولادته، كما إنّه اختار الغَيْبَة بعد بلوغه مقام الإمامة بأمر من الله (جلّ وعلا). ومع أنّه لا يمكن الوقوف على حقيقة الحكمة من الغَيْبَة، ولن تتّضح إلّا بعد ظهور الإمام عَجَّلَ اللهُ تَعَالَى فَرَجَهُ الشَّرِيف، بيد أنّ المُستفاد من بعض الرّوايات هو أنّ أهمّ أسباب غَيْبَة الإمام تعود إلى استهدافه ومحاولة اغتياله من قبل السّلطة الحاكمة آنذاك[1].

ولإمام العصر والزّمان عَجَّلَ اللهُ تَعَالَى فَرَجَهُ الشَّرِيف غيبتان: الأولى هي المعروفة بالغَيْبَة الصُّغرى والّتي استمرّت ٦٩ عامًا، من ٢٦٠ حتّى ٣٢٩ من الهجرة، والأخرى هي الغَيْبَة الطويلة أو الكبرى[2] والّتي ابتدأت من سنة ٣٢٩ هجري إلى يومنا هذا. وكان للإمام خلال غَيْبَته الصغرى أربعة وكلاء أو نوّاب عُرفوا باسم «النوّاب الأربعة»، هم: عُثمان بن سعيد، ومحمّد بن عُثمان، والحُسين بن روح، وعليّ

---

١. انظر: الصدوق، كمال الدين وتمام النعمة، ج٢، ص٤٨١؛ الراوندي، الخرائج والجرائح، ج٢، ص٩٥٥.

٢. انظر: الكليني، الكافي، ج١، ص٣٤٠؛ وأيضاً انظر: الطوسي، الغيبة، ص٣٩٥.

بن محمّد السّمريّ. كانت وظيفتهم التّواصل مع الإمام ﷻ وإيصال أسئلة النّاس وكتبهم وأموالهم إليه ونقل الأجوبة إليهم؛ لكنّ هذا الارتباط أيضاً انقطع بعد موت النّائب الرّابع وبعد إبلاغه بذلك[١].

ومنذ ذلك الحين بدأت الغَيْبَة الكبرى حيث لا وجود لأيّ نائب خاصّ بين الإمام ﷻ والنّاس؛ لكنّ الأئمّة الميامين ﷺ الّذين كانوا يعلمون بحصول الغَيْبَة ـ فأخبروا عنها، وكذلك إمام العصر والزّمان ﷻ ـ دعوا أتباعهم إلى اتّباع الفقهاء الجامعين لشرائط الإفتاء والمتّصفين بالعلم والتقوى والعدالة والتّدبير، والمتفوّقين على أقرانهم في هذه الصّفات، في عصر الغَيْبَة الكبرى باعتبار الفقيه هو النّائب العامّ للإمام؛ ليرجع النّاس إلى هؤلاء الفقهاء في المسائل الشّرعيّة والمعرفيّة والاجتماعيّة عند الابتعاد عن مصدر الهداية والتّشريع، فهم حجّة الإمام على النّاس والإمام حجّة الله عليهم[٢].

وسنبيّن في هذا الدّرس بعض الأمور الضّروريّة في موضوع الغَيْبَة.

١. مفهوم الغَيْبَة

خلافاً لما يتصوّره النّاس عن الغَيْبَة؛ فإنّها لا تعني انقطاع إمام العصر والزّمان ﷻ وابتعاده تماماً عن النّاس؛ بل الغَيْبَة في حقيقة الأمر تكون من جانب النّاس تجاه إمامهم، بمعنى أنّهم لا يستطيعون اللّقاء به والتّواصل معه بشكل اعتياديّ وبصورة علنيّة، وإن أمكنهم رؤيته والتحدّث إليه دون أن يعرفوا أنّه الإمام. وقد عبّر الأئمّة ﷺ في الرّوايات عن هذه الحقيقة بأنّها «سنّة من يوسف ﷺ»[٣]؛ حيث عرف إخوته لما رآهم دون أن يعرفوه. كما أكّدت الرّوايات على أنّ الإمام ﷺ يحضر موسم الحجّ كلّ سنة، فيرى النّاس ويعرفهم ويرونه ولا يعرفونه[٤]. وقال الإمام الصّادق ﷺ في هذا الصّدد:

«يَسِيرُ فِي مَا بَيْنَهُمْ وَيَمْشِي فِي أَسْوَاقِهِمْ وَيَطَأُ بُسُطَهُمْ، وَهُمْ لَا يَعْرِفُونَهُ حَتَّى يَأْذَنَ

---

١. انظر: الطوسي، الغيبة، ص٣٩٥؛ الصدوق، كمال الدين و تمام النعمة، ج٢، ص٥١٦.

٢. انظر: الصدوق، كمال الدين وتمام النعمة، ج٢، ص٤٨٤؛ الحرّ العاملي، وسائل الشّيعة، ج٢٧، ص١٤٠.

٣. انظر: الصدوق، كمال الدين و تمام النعمة، ج١، ص٢٨؛ ج٢، ص٣٤٠.

٤. الطوسي، الغيبة، ص٣٦٤.

اللهُ (عَزَّ وَجَلَّ) لَهُ أَنْ يُعَرِّفَهُمْ نَفْسَهُ، كَمَا أَذِنَ لِيُوسُفَ ﷺ»[١].

٢. فائدة الإمام الغائب

أشار الأئمّة في أحاديثهم عند بحث الفائدة من وجود إمام غائب إلى تشبيه ينطوي على دلالات كثيرة، فقال إمام العصر والزّمان ﷺ نفسه في أحد التوقيعات المباركة ردّاً على سؤال في هذا الإطار:

«وَأَمَّا وَجْهُ الاِنْتِفَاعِ بِي فِي غَيْبَتِي فَكَالاِنْتِفَاعِ بِالشَّمْسِ إِذَا غَيَّبَتْهَا عَنِ الْأَبْصَارِ السَّحَابُ»[٢].

وقد ذُكرت وجوه عدّة لتشبيه الانتفاع بالإمام ﷺ كالانتفاع بالشّمس الّتي تحجبها السُّحُب، أبرزها:

١. إنّ الشّمس تشكّل محور المنظومة الشمسيّة فيدور حولها عدد كبير من الكواكب السيّارة، وكذا الإمام الحجّة المنتظر ﷺ يُمثّل مركز نظام الكون وقطب الرّحى، فتدور الكائنات الأخرى حول محور ولايته لأداء وظائفها المناطة بها.

٢. للشّمس في المجموعة الشمسيّة فوائد جمّة، أهمّها توفير الجاذبيّة الّتي تعدّ أساساً لثبات النّظام وبقائه، وتوفير الحرارة اللّازمة الّتي تجتاز السُّحُب الكثيفة لتصل إلى الأرض، كما إنّ هبوب الرياح وهطول الأمطار ونموّ الأعشاب والنّبات وأمثال ذلك كلّها من بركات أشعة الشّمس، ولا ريب في التأثير الكبير للسُّحب والغيوم في هذا المجال.

٣. إنّ الشّمس لا تتوانى لحظة عن إطلاق نورها إلى الكائنات، فكلّ موجود من الموجودات يحصل على نورها بمقدار ارتباطه بها، وبوسعه الاستفادة القصوى منها إن تمكّن من إزالة جميع المعوّقات والجلوس مقابل نورها. وفي المقابل؛ فإنّ الإمام الحجّة الغائب ﷺ مجرى الفيض الإلهيّ، ولا يفرّق بين عباد الله من هذه النّاحية، ولكن كلّ واحد منهم بمقدوره الاستفادة من وجوده المبارك بقدر ارتباطه به.

---

١. الصدوق، كمال الدين وتمام النعمة، ج١، ص١٤٤.

٢. المصدر نفسه، ج٢، ص٤٨٣.

٤. إنّ وجود الشّمس لازم للنّاس حتّى ولو من وراء السُّحب؛ إذ لولا وجودها لغرقت الأرض في ظلام دامس وبرد قارس ولأضحت غير قابلة للسّكن. وبالنسبة إلى الإمام صاحب العصر والزّمان عجّل الله فرجه؛ فإنّ وجوده ضروريّ للمجتمع البشري عموماً وللشيعة ومُحبّيه على وجه الخصوص، حتّى لو كان من وراء حجب الغَيْبَة؛ وإلاّ للحقهم الويل والدمار نتيجة الفتن ومصاعب الحياة ودسائس الأعداء الحاقدين؛ ولذا كتب الإمام عجّل الله فرجه في توقيعه المبارك إلى الشيخ المفيد:

«إِنَّا غَيْرُ مُهْمِلِينَ لِمُرَاعَاتِكُمْ وَلَا نَاسِينَ لِذِكْرِكُمْ، وَلَوْلَا ذَلِكَ لَنَزَلَ بِكُمُ اللَّأْوَاءُ وَاصْطَلَمَكُمُ الْأَعْدَاءُ»[1].

٣. أسباب الغَيْبَة

أفادت بعض الرّوايات -كما تقدّمت الإشارة إلى ذلك- أنّ فلسفة غَيْبَة الإمام المهديّ عجّل الله فرجه سرّ من الأسرار الإلهيّة الّتي خفيت على العباد ولا يعلمها بشكل كامل إلّا الله والنبيّ صلى الله عليه وآله والأئمّة المعصومين عليهم السلام، ولن تتّضح أسبابه إلّا بعد ظهوره في آخر الزّمان. وفي هذا السّياق، روي عن عبد الله بن الفضل الهاشمي قال: سمعت الصادق جعفر بن محمّد عليه السلام يقول:

«إِنَّ لِصَاحِبِ هَذَا الْأَمْرِ غَيْبَةً لَا بُدَّ مِنْهَا، يَرْتَابُ فِيهَا كُلُّ مُبْطِلٍ».

فقال الراوي: ولِمَ؟ جُعلت فداك؛ قال:

«لِأَمْرٍ لَمْ يُؤْذَنْ لَنَا فِي كَشْفِهِ لَكُمْ».

قال: قلت: فما وجه الحكمة في غيبته؟ قال:

«وَجْهُ الْحِكْمَةِ فِي غَيْبَتِهِ وَجْهُ الْحِكْمَةِ فِي غَيْبَاتِ مَنْ تَقَدَّمَهُ مِنْ حُجَجِ اللهِ (سبحانه وتعالى) ذِكْرُهُ. إِنَّ وَجْهَ الْحِكْمَةِ فِي ذَلِكَ لَا يَنْكَشِفُ إِلَّا بَعْدَ ظُهُورِهِ، كَمَا لَمْ يَنْكَشِفْ وَجْهُ الْحِكْمَةِ فِي مَا أَتَاهُ الْخَضِرُ عليه السلام مِنْ خَرْقِ السَّفِينَةِ وَقَتْلِ الْغُلَامِ وَإِقَامَةِ الْجِدَارِ لِمُوسَى عليه السلام إِلَى وَقْتِ افْتِرَاقِهِمَا»[2].

---

١ المجلسي، بحار الأنوار، ج٥٣، ص١٧٥؛ وانظر أيضاً: عبد الله جوادي آملي، عصاره خلقت: درباره امام زمان، ص٨٥.

٢ . الصدوق، كمال الدين وتمام النعمة، ج٢، ص٤٨٢.

بناءً على ذلك، لا يمكن الوقوف على الحكمة من الغَيْبَة ومعرفة أسرارها بشكل كامل؛ لكن يمكن الإشارة إلى بعض أسباب الغَيْبَة اعتماداً على الرّوايات المأثورة عن الأئمّة المعصومين عليهم السلام في هذا المضمار، وهي:

٣ . ١ . اختبار النّاس

أحد أسباب غَيْبَة الإمام المهديّ عجّل الله تعالى فرجه الشريف اختبار الشّيعة وابتلاؤهم. قال الإمام أبوعبد الله الحسين عليه السلام في هذا الصدد:

«لَهُ غَيْبَةٌ يَرْتَدُّ فِيهَا أَقْوَامٌ وَيَثْبُتُ فِيهَا عَلَى الدِّينِ آخَرُونَ، فَيُؤْذَوْنَ ويُقَالُ لَهُمْ: مَتى هذَا الْوَعْدُ إنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ؟ أَمَا إنَّ الصَّابِرَ فِي غَيْبَتِهِ عَلَى الْأَذَى وَالتَّكْذِيبِ بِمَنْزِلَةِ الْمُجَاهِدِ بِالسَّيْفِ بَيْنَ يَدَيْ رَسُولِ اللهِ صلّى الله عليه وآله»[١].

وقال الإمام أبوعبد الله الصادق عليه السلام:

«إِنَّ اللهَ (عَزَّ وَجَلَّ) يُحِبُّ أَنْ يَمْتَحِنَ الشِّيعَةَ»[٢].

٣ . ٢ . التحرّر من بيعة الطواغيت

ورد في بعض الرّوايات الإسلاميّة أنّ العلّة في غَيْبَة الإمام المهديّ المنتظر عجّل الله تعالى فرجه الشريف هي مساعدته على التحرّر من مبايعة الطواغيت في عصره، فلم يكن لأحد في عنقه بيعة؛ ليتمكّن من التحرّك بحرّية عند قيامه.[٣]

٣ . ٣ . حفاظ الإمام على روحه

حافظ الباري (سبحانه وتعالى) على حياة الإمام الثّاني عشر من الأئمّة الميامين عليهم السلام من شرور الأعداء بواسطة الغَيْبَة؛ ولذا قال الإمام أبوعبد الله الصادق عليه السلام: «لَا بُدَّ لِلْقَائِمِ مِنْ غَيْبَةٍ». قال

---

١ . المصدر نفسه، ج١، ص٣١٧.

٢ . الكليني، الكافي، ج١، ص٣٣٧.

٣ . انظر: الصدوق، كمال الدين وتمام النعمة، ج١، ص٣٠٣.

الراوي: ولِمَ؟ قال: «يَخَافُ عَلَى نَفْسِهِ» وأومأ بيده إلى بطنه[١].

٣.٤. عدم استعداد الأمّة

إنّ تشكيل حكومة عالميّة وتأسيس مجتمع مثاليّ يتطلّب استعداداً تامّاً من جميع أفراد الأمّة، ولا يتسنّى هذا الاستعداد إلّا بالتقدّم الفكري والإصلاحات الاجتماعيّة والسياسيّة، وهو ما يتحقّق بمرور الزّمن، هذا من ناحية. ومن ناحية أخرى، ترتكز الحكومة العالميّة لإمام العصر والزّمان عجل الله فرجه الشريف إلى أساس التوحيد والعدل والقانون، ولا ريب في أنّ القبول بهذه الأسس بحاجة إلى تمهيد؛ ذلك أنّ حكّام الجور والطواغيت لا ينصاعون إلى حكومة القسط والعدل بسهولة، كما إنّ النّاس غالباً ما يأبون الخضوع إلى الحقّ والقبول به. وفي هذا الإطار، قال أمير المؤمنين عليه السلام على منبر الكوفة:

«اعْلَمُوا أَنَّ الْأَرْضَ لَا تَخْلُو مِنْ حُجَّةٍ للهِ (عَزَّ وَجَلَّ)، وَلَكِنَّ اللهَ سَيُعْمِي خَلْقَهُ عَنْهَا بِظُلْمِهِمْ وَجَوْرِهِمْ وَإِسْرَافِهِمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ»[٢].

٤. انتظار الفرج

شدّدت الرّوايات الإسلاميّة على أهميّة انتظار الفرج، فورد التأكيد عليه في كثير منها؛ بل واعتبر في بعضها أفضل أعمال الإنسان، فروي عن الإمام أبي عبد الله الصادق عليه السلام أنّه قال:

«أَفْضَلُ الْأَعْمَالِ انْتِظَارُ الْفَرَجِ»[٣].

على أنّ انتظار الفرج في حقيقة الأمر عنوان لمجموعة من التكاليف والمسؤوليّات الّتي تقع على كاهل المؤمنين بالمنقذ والمنجي والمسلمين المعتقدين بالمهديّ الموعود عجل الله فرجه الشريف والشيعة المنتظرين لظهوره، وما هذه التكاليف إلّا لأجل إعداد الفرد والمجتمع للقبول بالإمام وبرنامج دولته، وكذلك لغرض الإسراع بظهوره وتقريب الفرج. ويمكن ملاحظة مجموعة التكاليف

---

١. المصدر نفسه، ج٢، ص٤٨١.

٢. النعماني، الغيبة، ص١٤١.

٣. الأربلي، كشف الغمّة في معرفة الأئمّة، ج٢، ص٢٠٧؛ المجلسي، بحار الأنوار، ج٧٥، ص٢٠٨.

هذه في الكتب والمصنّفات الّتي ألّفها العلماء الأعلام في هذا المجال واحتوت على جميع التفاصيل اللازمة[١]. وسنشير هنا إلى أهمّ هذه التكاليف:

- معرفة إمام العصر والزّمان عجّل الله تعالى فرجه الشريف.
- محبّة الإمام ومودّته.
- التوسّل إلى الله (سبحانه وتعالى) في أن يأذن للإمام بالقيام.
- الارتباط اليومي الحميم بساحته المقدّسة وتجديد البيعة له بقراءة دعاء العهد.
- العمل على نصرة الإمام.
- تشكيل مجتمع سليم وإقامة حكومة صالحة لحفظ الشّيعة من مخاطر الأعداء.
- إصلاح النّفس والأسرة وكسب المقوّمات اللّازمة للحركة في مسار الإمام.
- التوسّل بالإمام والتمسّك به لحلّ مشاكل الحياة والسّير في طريق عُبوديّة الله (سبحانه وتعالى).
- التصدّق بنيّة سلامة الإمام.
- أداء بعض الأعمال المستحبّة ومنها مساعدة المحرومين والمستضعفين نيابةً عن الإمام.
- دعوة النّاس وإرشادهم إلى الإمام.
- انتظار ظهور الإمام.
- القيام بما يرضي الإمام، أي أداء الواجبات والمستحبّات وترك المحرّمات والمكروهات.

٥. طول عمر الإمام

إنّ عمر الإمام المهديّ عجّل الله تعالى فرجه الشريف طويل نسبيّاً نتيجة غَيْبَته الطويلة، لكنّ طول عمره يعدّ من المعجزات الإلهيّة لهذا الإمام الهمام. ومع وجود ماضٍ عريق لهذه الظاهرة في تاريخ الحياة

---

١. انظر: صدر الإسلام الهمداني، تكاليف الأنام في غيبة الإمام؛ محمد تقي الإصفهاني، مكيال المكارم في فوائد الدعاء للقائم، ج٢، ص١٢٣-٤٨٤.

الإنسانيّة بحيث لا تعدّ واقعة فريدة من نوعها، إلّا أنّها تعتبر حدثاً غير مسبوق بالنسبة إلى أعمار البشر المتداولة في القرون الأخيرة. وحيث إنّه لا أحد يعلم بوقت الظهور؛ فإنّ عمر الإمام عجّل الله تعالى فرجه الشريف سيستمرّ في الازدياد إلى ما بعد الظهور أيضاً.

ومن هنا، جرى تشبيه طول عمر الإمام عجّل الله تعالى فرجه الشريف في الأحاديث بعمر النبيّ نوح عليه السلام، فذُكر أنّ فيه سنّة من هذا النبيّ الإلهيّ، فقال الإمام عليّ السجّاد عليه السلام في هذا الخصوص:

«فِي الْقَائِمِ سُنَّةٌ مِنْ نُوحٍ وَهُوَ طُولُ الْعُمُرِ»[1].

فكما نعلم، أكد القرآن الكريم على أنّ النبيّ نوح عليه السلام بقي يمارس رسالة الدعوة الإلهيّة في قومه لمدّة ٩٥٠ عاماً، فقال (سبحانه وتعالى):

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾[2].

وعليه، ففي ضوء القدرة اللّامتناهية للباري (عزّ وجلّ) في الحفاظ على آخر الحجج الإلهيين على النّاس، ونظراً إلى وجود معمّرين على مرّ التّاريخ البشريّ، ومساعي العلماء الرامية إلى إطالة عمر الإنسان والحدّ من الوفيات؛ فإنّ طول عمر الإمام المهديّ عجّل الله تعالى فرجه الشريف - وإن كان يبدو غير متعارفاً إلى حدٍّ ما - لا مانع منه عقليّاً وعلميّاً؛ بل إنّه مدعوم تاريخيّاً ومستند إلى الآيات والرّوايات دينيّاً[3].

---

١ . الصدوق، كمال الدين وتمام النعمة، ج١، ص٣٢٢.

٢ . سورة العنكبوت: الآية ١٤.

٣ . لمزيد من المعلومات في هذا الخصوص، انظر: مهدي كامران، دير زيستى حضرت مهدى؛ علي اكبر مهدي پور، راز طول عمر امام زمان از ديدگاه علم واديان؛ حسين فريدونى، امام مهدى آخرين پناه.

❀ الأسئلة

١. ما هي فلسفة غَيْبَة الإمام المهديّ عجّل الله تعالى فرجه الشريف؟ وكيف ينتفع النّاس من بركة وجوده في عصر الغَيْبَة؟

٢. ما هو سبب غياب الإمام المنتظر عجّل الله تعالى فرجه الشريف والأمّة في أشدّ الحاجة له؟

٣. ما المراد من «انتظار الفرج»؟ وكيف يمكن العمل بهذه المسؤوليّة الخطيرة في عصرنا الحالي؟

❀ موضوع للبحث

- ابحث شبهة طول عمر الإمام المهديّ عجّل الله تعالى فرجه الشريف، وناقش الردود عليها مع زملائك في الدّرس.

٤٥

ظهور الإمام المهديّ عجّل الله تعالى فرجه الشريف

تنتهي غَيْبَة آخر الأولياء الإلهيين بظهوره في آخر الزّمان، وتبتدأ المرحلة التالية بتشكيل الدولة العالميّة الّتي وعد بها الأنبياء الإلهيون. وسنبحث في هذا الدّرس الأوضاع قبل الظهور وعلامات عصر الظهور، ومن ثمّ نبيّن الصورة الإجماليّة لآخر حكومة إلهية موعودة.

يجري الحديث في بحوث المهدويّة عادةً عن «الأوضاع قبل الظهور» و«علامات الظهور» الّتي تحدث قبل قيام الإمام صاحب العصر والزّمان عجّل الله تعالى فرجه الشريف، فالأوضاع قبل الظهور هي تغييرات خاصّة تطرأ على الأحوال والخصوصيات الفرديّة والاجتماعيّة، وعلائم الظهور هي حوادث مُعيّنة تقع قرب الظهور أو بالتزامن معه؛ غير أنّ تلك العلائم ليست جميعها قطعيّة، بمعنى أنّ بعضها قد لا يحدث أصلاً. من هنا، سنتطرّق في هذا الدّرس إلى بحث الأوضاع أوّلاً، ثمّ نتناول علائم الظهور، وبعد ذلك نستعرض إجمالاً بعض الأمور المتعلّقة بدولة إمام العصر والزّمان عجّل الله تعالى فرجه الشريف.

١. الأوضاع قبل الظهور

أُشير في الرّوايات الإسلاميّة إلى الظواهر السائدة عند الظهور والّتي تشبه إلى حدٍّ كبير الأوضاع الّتي تسبق يوم القيامة وتسمّى أحياناً بـ«أشراط الساعة»[1]، وهذه الظواهر هي تغييرات تطرأ على

١. سنشير إلى مفهوم أشراط الساعة و بعض مصاديق منها في مبحث المعاد.

الوضع العقدي للناس ومدى التزامهم بالأحكام الإسلاميّة والقيود الشرعيّة. ومن هنا؛ فإنّ ضعف الإيمان ووهن العقيدة من جهة، وسلطة العتاة والجبابرة على المجتمعات البشريّة من جهة أخرى، تدفع بالأوضاع الاجتماعيّة باتّجاه مزيد من الفساد والانحطاط، وتجعلها على شفا جرفٍ هارٍ وعلى حافة الانهيار والسقوط في العذاب الإلهيّ الأليم.

وقد صُوّر جانب من تلك الأوضاع المأساوية في الرّوايات، منها ما روي عن الرّسول الكريم صلى الله عليه وآله:

«كَيْفَ بِكُمْ إِذَا فَسَدَتْ نِسَاؤُكُمْ وَفَسَقَ شَبَابُكُمْ وَلَمْ تَأْمُرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَلَمْ تَنْهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ؟؛ فَقِيلَ لَهُ: وَيَكُونُ ذَلِكَ يَا رَسُولَ اللهِ؟؛ فَقَالَ: نَعَمْ، وَشَرٌّ مِنْ ذَلِكَ، كَيْفَ بِكُمْ إِذَا أَمَرْتُمْ بِالْمُنْكَرِ وَنَهَيْتُمْ عَنِ الْمَعْرُوفِ؟؛ فَقِيلَ لَهُ: يَا رَسُولَ اللهِ، وَيَكُونُ ذَلِكَ!؟ قَالَ: نَعَمْ، وَشَرٌّ مِنْ ذَلِكَ، كَيْفَ بِكُمْ إِذَا رَأَيْتُمُ الْمَعْرُوفَ مُنْكَراً وَالْمُنْكَرَ مَعْرُوفاً؟»[١].

«سَيَأْتِي عَلَى أُمَّتِي زَمَانٌ لَا يَبْقَى مِنَ الْقُرْآنِ إِلَّا رَسْمُهُ، وَمِنَ الْإِسْلَامِ إِلَّا اسْمُهُ، يُسَمَّوْنَ بِهِ وَهُمْ أَبْعَدُ النَّاسِ مِنْهُ، مَسَاجِدُهُمْ عَامِرَةٌ وَهِيَ خَرَابٌ مِنَ الْهُدَى»[٢].

«... إِذَا تَشَبَّهَ الرِّجَالُ بِالنِّسَاءِ وَالنِّسَاءُ بِالرِّجَالِ، وَاكْتَفَى الرِّجَالُ بِالرِّجَالِ وَالنِّسَاءُ بِالنِّسَاءِ، وَرَكِبَ ذَوَاتُ الْفُرُوجِ السُّرُوجَ، وَقُبِلَتْ شَهَادَاتُ الزُّورِ وَرُدَّتْ شَهَادَاتُ الْعُدُولِ، وَاسْتَخَفَّ النَّاسُ بِالدِّمَاءِ وَارْتِكَابِ الزِّنَاءِ، وَأُكِلَ الرِّبَا، وَاتُّقِيَ الْأَشْرَارُ مَخَافَةَ أَلْسِنَتِهِمْ»[٣].

في مثل هذه الأوضاع، يكون المؤمن حزيناً وحقيراً وذليلاً، ولا يستطيع إنكار المنكرات المذكورة إلّا في قلبه فقط، فتظهر البدع ويصبح الدّين عرضة للأهواء والأطماع، ويعطّل القرآن وتُترك أحكامه، وتُصرف الأموال في ما يثير سخط الله (سبحانه وتعالى)، ويدني الحكّام إليهم

---

١. الكليني، الكافي، ج٥، ص٥٩.

٢. الصدوق، ثواب الأعمال وعقاب الأعمال، ص٢٥٣.

٣. الصدوق، كمال الدين وتمام النعمة، ج١، ص٣٣٠.

الكافرين ويبعدون عنهم المؤمنين[١].

٢- علائم الظهور

إنّ علائم الظهور كثيرة ومتعدّدة، وسنشير أدناه إلى شرح مختصر لأهمّ تلك العلائم:

١.٢. خروج السفياني وخسف البيداء

من أهمّ علامات الظهور، خروج السفياني وارتكابه مجازر مروعة في العالم. قال الإمام أبوعبد الله الصادق عليه السلام في هذا الخصوص:

«مِنَ الْمَحْتُومِ خُرُوجُ السُّفْيَانِيِّ فِي رَجَبٍ»[٢].

وقال في رواية أخرى:

«لَوْ رَأَيْتَ السُّفْيَانِيَّ لَرَأَيْتَ أَخْبَثَ النَّاسِ... وَقَدْ بَلَغَ مِنْ خُبْثِهِ أَنَّهُ يَدْفِنُ أُمَّ وَلَدٍ لَهُ وَهِيَ حَيَّةٌ مَخَافَةَ أَنْ تَدُلَّ عَلَيْهِ»[٣].

أمّا البيداء فهو اسم منطقة على بعد منزلين من المدينة، وقد أكدت الرّوايات على أنّ الخسف سيُصيب تلك المنطقة عند مرور جيش السفياني المتوجّه لمحاربة جيش الإمام المهديّ المنتظر عجّل الله تعالى فرجه الشريف بعد ارتكابه مجازر مروّعة في مناطق عدّة. من هنا، قال الإمام أبوجعفر الباقر عليه السلام في هذا المجال:

«يَنْزِلُ أَمِيرُ جَيْشِ السُّفْيَانِيِّ الْبَيْدَاءَ، فَيُنَادِي مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ: يَا بَيْدَاءُ، أَبِيدِي الْقَوْمَ؛ فَيُخْسَفُ بِهِمْ»[٤].

---

١ . لمزيد من المعلومات في هذا المجال، انظر: المجلسي، بحارا لأنوار، ج٥٢، الباب ٢٥ علائم الظهور؛ ج٦، الباب ١ أشراط الساعة.

٢ . النعماني، الغيبة، ص٣٠٠.

٣ . الصدوق، كمال الدين وتمام النعمة، ج٢، ص٦٥١.

٤ . النعماني، الغيبة، ص٢٧٩.

٢.٢. الصيحة السماوية

من العلامات الأخرى للظهور الصيحة السماوية و أمّا أصل وقوع الصيحة أمر محتوم و في بعض الروايات أن هناك الصيحتان الواقعتان في يوم واحد من شهر رمضان المبارك.

قال الإمام محمّد بن عليّ الباقر عليه السلام حول الصيحة:

«لَا بُدَّ مِنْ هَذَيْنِ الصَّوْتَيْنِ قَبْلَ خُرُوجِ الْقَائِمِ: صَوْتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَهُوَ صَوْتُ جَبْرَئِيلَ... وَالصَّوْتِ الثَّانِي مِنَ الْأَرْضِ وَهُوَ صَوْتُ إِبْلِيسَ اللَّعِينِ»[1].

وقال في رواية أخرى في هذا المجال:

«يُنَادِي مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ أَوَّلَ النَّهَارِ: أَلَا إِنَّ الْحَقَّ فِي عَلِيٍّ وَشِيعَتِهِ، ثُمَّ يُنَادِي إِبْلِيسُ لَعَنَهُ اللهُ فِي آخِرِ النَّهَارِ: أَلَا إِنَّ الْحَقَّ فِي السُّفْيَانِيِّ وَشِيعَتِهِ؛ فَيَرْتَابُ عِنْدَ ذَلِكَ الْمُبْطِلُونَ»[2].

وروي عن الإمام أبي عبد الله الصادق عليه السلام حول تفسير بعض الآيات:

«قَولُهُ: وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ﴾[3]، قالَ: ينادي المنادِ باسمِ القائمِ واسمِ أبيهِ. قولُهُ: ﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ﴾[4]، قالَ: صيحةُ القائمِ منَ السّماءِ، ﴿ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ﴾، قالَ: هيَ الرَّجعةُ [أي خروجُ القائمِ]»[5].

وروي عن النبيّ الكريم صلى الله عليه وآله حول مضمون هذه الصيحة:

«إِذَا كَانَ عِنْدَ خُرُوجِ الْقَائِمِ يُنَادِي مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ: أَيُّهَا النَّاسُ، قُطِعَ عَنْكُمْ مُدَّةُ الْجَبَّارِينَ، وَوُلِّيَ الْأَمْرَ خَيْرُ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ؛ فَالْحَقُوا بِمَكَّةَ»[6].

---

١. المصدر نفسه، ص٢٥٣.

٢. الصدوق، كمال الدين وتمام النعمة، ج٢، ص٦٥٢.

٣. سورة ق: الآية ٤١.

٤. سورة ق: الآية ٤٢.

٥. القمي، تفسير القمي، ج٢، ص٣٢٦.

٦. المفيد، الاختصاص، ص٢٠٨.

٢. ٣. قتل النّفس الزكية

من العلائم الأخرى على الظهور قتل شخص ملقّب بالنفس الزكية، وهو - بحسب بعض الرّوايات - فتى من بني هاشم من نسل الإمام الحسين[١] عليه السلام، يُقاتل ضمن جيش الإمام المهديّ عجّل الله تعالى فرجه الشريف، يرسله الإمام إلى مكة لإبلاغ رسالته إلى أهلها، ثمّ يقتلونه بعد إبلاغ الرّسالة ويُذبح مظلوماً بين الركن والمقام في الشّهر الحرام، وأكّدت بعض الرّوايات على أنّه ليس بين قيام القائم عجّل الله تعالى فرجه الشريف وقتل النّفس الزكية إلّا خمس عشرة ليلة[٢].

وذكرت بعض الرّوايات أنّ النّفس الزكية من أولاد الإمام الحسن عليه السلام [٣]، وأنّه يُقتل بظهر الكوفة مع سبعين شخص من الصالحين[٤].

٢. ٤. خروج اليماني

ومن العلائم الأخرى للظهور خروج اليماني؛ حيث قال الإمام أبوعبد الله الصادق عليه السلام في هذا المجال:

«خُرُوجُ رَجُلٍ مِنْ وُلْدِ عَمِّي زَيْدٍ بِالْيَمَنِ»[٥].

وفي رواية أخرى، شدّد الإمام جعفر الصادق عليه السلام:

«وَلَيْسَ فِيهَا رَايَةٌ أَهْدَى مِنْ رَايَةِ الْيَمَانِيِّ؛ لِأَنَّهُ يَدْعُو إِلَى الْحَقِّ»[٦].

وورد في رواية أخرى:

«إِذَا خَرَجَ الْيَمَانِيُّ فَانْهَضْ إِلَيْهِ؛ فَإِنَّ رَايَتَهُ رَايَةُ هُدًى، وَلَا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَلْتَوِيَ عَلَيْهِ، فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ فَهُوَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ»[٧].

---

١. انظر: العياشي، تفسير العياشي، ج١، ص٦٤.
٢. انظر: الصدوق، كمال الدين وتمام النعمة، ج٢، ص٦٤٩؛ المجلسي، بحار الأنوار، ج٥٢، ص٣٠٧.
٣. انظر: الطوسي، الغيبة، ص٤٦٢.
٤. انظر: المجلسي، بحار الأنوار، ج٥٢، ص٢٧٢.
٥. المجلسي، بحار الأنوار، ج٨٣، ص٦٣.
٦. المفيد، الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد، ج٢، ص٣٧٥.
٧. النعماني، الغيبة، ص٢٥٦.

وأكدت بعض الرّوايات على أنّ السيد الخراساني يلتحق هو وجيشه باليماني، ثمّ يحاربان السفياني حتّى يهزماه[١].

٢.٥. خروج الخراساني

ذُكرت علامة أخرى من علامات الظهور، وهي خروج السيّد الخراساني من جهة المشرق، فورد في أحاديث كثيرة أنّه يخرج بالتزامن مع خروج اليماني وحرب السفياني[٢]، والسيد الخراساني فتى أسمر مربوع، وقيل إنّه من بني تميم، وعبّرت عنه بعض الرّوايات باسم شعيب بن صالح[٣]، الّذي يخرج من الريّ في أربعة آلاف مقاتل، يلبسون الثياب البيض ويحملون الرايات السود، ويطأون أرض إيليا (القدس)، ويرفعون راية الإمام المهديّ عجّل الله فرجه.

٣. دولة العدل المهدوية

إنّ أساس الإيمان بالمهدوية هو إقامة الدولة العالمية للإمام المهديّ عجّل الله فرجه؛ فبعدما يحتدم الصراع بين جبهة الحقّ والباطل، تكون الغلبة والانتصار لجبهة الحقّ بإذن الله (سبحانه وتعالى)، فيُقتل من يُقتل من الطواغيت ويستسلم الآخرون، وترتفع راية الحقّ وتقوم دولة العدل.

وبإقامة الدولة الكريمة الّتي يُعزّ الله فيها الإسلام وأهله ويُذلّ النفاق وأهله[٤]، تتحقّق الإرادة الإلهيّة بأن يقود المستضعفون الأرض ويصبحوا الوارثين لها[٥]، ويتحقّق الوعد الإلهيّ للمؤمنين والصالحين بأن يستخلفهم في الأرض، ويبدلهم من بعد خوفهم أمناً، ويسيطر الدّين الّذي ارتضاه الله على جميع بقاع العالم[٦].

---

١. انظر: المجلسي، بحار الأنوار، ج٥٢، ص٢٧٢-٢٧٥.

٢. النعماني، الغيبة، ص٢٥٥؛ و أيضاً انظر: المجلسي، بحارالأنوار، ج٥٢، باب٢٥.

٣. النعماني، الغيبة، ص٢٥٣؛ و أيضاً انظر: المجلسي، بحارالأنوار، ج٥٢، باب٢٥ و ج٥٣، ص٣٥ و ج٥٢، ص٢١٣.

٤. «تُعِزُّ بِهَا الْإِسْلَامَ وَأَهْلَهُ وَتُذِلُّ بِهَا النِّفَاقَ وَأَهْلَهُ» (فقرات من دعاء الافتتاح من كتاب: ابن طاووس، إقبال الأعمال، ص٦٠).

٥. ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ (سورة القصص: الآية ٥).

٦. ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (سورة النور: الآية ٥٥).

ومع استقرار الدولة الكريمة سيتغيّر العالم ويتّخذ منحى جديداً؛ حيث تُخرج الأرض بركاتها وكنوزها وتفتح السماوات أبوابها أمام العباد[١].

وحسب رواية عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام؛ فإنّ العلم الّذي جاءت به جميع الرُّسل والأنبياء والأولياء وكذلك خاتم الأنبياء صلى الله عليه وآله والأئمّة الميامين عليهم السلام إلى عصر الإسلام لا يعدو الحرفين أو الجزئين من سبعة وعشرين حرفاً أو جزءاً، فيما سيخرج القائم عجّل الله تعالى فرجه الشريف عند ظهوره الأجزاء الخمسة والعشرين الأخرى ويبثّها في النّاس[٢].

وبظهور الإمام الحجّة بن الحسن عجّل الله تعالى فرجه الشريف يرتقي المستوى العلمي للبشر ويزداد إدراكهم؛ حيث ورد أنّه يضع يده على رؤوس العباد فيجمع بها عقولهم ويكمل بها أحلامهم[٣]. كما تزدهر الحضارة البشريّة ويتاح التواصل بين القارّات المختلفة عبر الارتباط المباشر بعدما يمدّ الله للنّاس في أسماعهم وأبصارهم[٤].

وفي عصر الإمام صاحب العصر والزّمان عجّل الله تعالى فرجه الشريف ينعم البشر بالصحة والسلامة، ويُذهب الله (سبحانه وتعالى) عن المؤمنين كلّ أشكال العاهات، ويعالج الإمام الأمراض المختلفة كالعمى والتخلّف الذهني والجنون والوسواس والأسقام الفكريّة الّتي يعاني منها البشر في العصر الرّاهن ويعجز عن علاجها الأطباء والوسائل الطبية الحديثة أيضاً[٥].

ويسود العالم إبّان حكم الدولة المهدويّة الأمن والاستقرار على الصعيدين الفردي والاجتماعي، فلا يظلم أحدٌ أحداً مطلقاً[٦]، ويشهد العالم استتباب السلام والاستقرار في جميع ربوعه، وتخضرّ الأرض وتخرج ما فيها من بركات وتضحك الدنيا وتبلغ ذرى المجد في ظلّ هذا الإمام الهمام، وبكلمة واحدة: تمتلأ الأرض قسطاً وعدلاً بعدما ملئت ظلماً وجوراً[٧].

---

١ . انظر: الأربلي، كشف الغمّة في معرفة الأئمّة، ج٢، ص٤٦٥.

٢ . انظر: الراوندي، الخرائج والجرائح، ج٢، ص٨٤١.

٣ . انظر: الصدوق، كمال الدين وتمام النعمة، ج٢، ص٦٧٥.

٤ . انظر: الكليني، الكافي، ج٨، ص٢٤٠؛ الصفار، بصائر الدرجات، ص٤٠٨.

٥ . انظر: النعماني، الغيبة، ص٣١٧.

٦ . انظر: الصدوق، كمال الدين وتمام النعمة، ج٢، ص٣٧٢.

٧ . انظر: الطوسي، الغيبة، ص١٧٨.

ومن الناحية الاقتصاديّة، لا وجود للفقر في دولة الإمام المهديّ عجّل الله فرجه، ولا وجود للفوارق الطبقيّة بين النّاس، فلا ينام أحد النّاس شبعاناً والآخر جائعاً. وقد شدّد النبيّ الكريم صلّى الله عليه وآله على أنّ الأمّة الإسلاميّة تتنعّم في عصر الإمام عليه السلام بنعمةٍ لم تتنعّم بمثلها قطّ، فيرسل الله عليهم السماء مدراراً، ولا تدع الأرض شيئاً من نباتها إلّا أخرجته[1]. وسيقسّم الإمام الأموال بين النّاس بالعدل والتساوي، ولا يفرّق بين المحسن والمسيئ[2].

وخلال حكومة الإمام المهديّ عجّل الله فرجه يملأ الله قلوب أمّة محمّد صلّى الله عليه وآله غنًى[3]، كما يبلغ العدل الاجتماعي مبلغاً من النّاس، فذكر الإمام أبوعبد الله الصادق عليه السلام أنّه يُدخل عليهم العدل إلى جوف بيوتهم كما يدخلها الحرّ والبرد[4]. ويشمل الإعمار جميع المناطق في العالم دون استثناء، فلا يبقى في الأرض خراب إلّا عُمّر[5].

ومن الناحية العقديّة، قال الإمام محمد بن عليّ الباقر عليه السلام:

«يُظْهِرُ اللهُ (عَزَّوَجَلَّ) بِهِ دَيْنَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُون... فَلَا يَبْقَى فِي الْأَرْضِ مَعْبُودٌ دُونَ اللهِ (عَزَّوَجَلَّ) مِنْ صَنَمٍ وَوَثَنٍ وَغَيْرِهِ إِلَّا وَقَعَتْ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَ»[6].

وقال أمير المؤمنين عليه السلام في هذا الخصوص:

«وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ! لَا يَبْقَى قَرْيَةٌ إِلَّا وَنُودِيَ فِيهَا بِشَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ اللهِ بُكْرَةً وَعَشِيّاً»[7].

ومجمل الكلام: إنّ الحكم يكون في قبضة الصالحين، فيحكمون المجتمع ويُطرد منه الفاسدون والكافرون، ويحصل كلّ ذي حقٍّ على حقّه.

---

١. انظر: الأربلي، كشف الغمّة في معرفة الأئمّة، ج٢، ص٤٧٣.

٢. انظر: النعماني، الغيبة، ص٢٣٠.

٣. انظر: الأربلي، كشف الغمّة في معرفة الأئمّة، ج٢، ص٤٨٣.

٤. انظر: النعماني، الغيبة، ص٢٩٧.

٥. انظر: الصافي الكلبايكاني، منتخب الأثر في الإمام الثّاني عشر، ص٤٨٢.

٦. الصدوق، كمال الدّين وتمام النعمة، ج١، ص٣٣٠.

٧. الإسترآبادي، تأويل الآيات الظاهرة في فضائل العترة الطاهرة، ص٦٦٣.

❀ الأسئلة

١. ما الفرق بين الأوضاع قبل الظهور وعلائم الظهور؟

٢. ما المراد من الصيحة السماوية وخسف البيداء؟

٣. اشرح خروج كلٍّ من السفياني واليماني والسيّد الخراساني، وبيّن الارتباط بين هذه الوقائع.

❀ موضوع للبحث

- ابحث خصائص الدولة المهدوية، وبيّن ما الخصوصية الأهمّ من وجهة نظرك.

٤٦

مسؤولية الأمّة تجاه الإمام عليه السلام

تحدّثنا سابقاً حول مكانة الإمام المهديّ عليه السلام والظروف المحيطة بالغَيبة والظّهور. واتّضح في الدّرس السّابق أنّ دولته ستشهد ظهور جميع أشكال الخير والفضل والإحسان، وتتحقّق فيها أحلام الأنبياء والأولياء والمؤمنين على مرّ التّاريخ. وفي هذا الدّرس سنتعرّف على مسؤولية الأمّة تجاه الإمام المنتظر.

غالباً ما ينتهي بحث الإمامة ببيان مسؤولية الأمّة تجاه الإمام المعصوم، ويمكن حصر المسؤوليات في الموارد الآتية:

١. معرفة الإمام

المقصود بمعرفة الإمام في هذا البحث هي المعرفة بصفاته ومقاماته وصلاحياته والحقوق الّتي له على الأمّة. وبما أنّ طريق المعرفة الإلهيّة يقتصر على الكتاب والأنوار الأربعة عشر الطّاهرة، فمعرفة هؤلاء الأئمّة بمثابة التعرّف إلى الطريق القويم وسبيل الهداية اللازم اتّباعه لمن ينشد بلوغ الكمال.

قال الإمام أبوعبد الله الصادق عليه السلام نقلاً عن جدّه الرّسول الكريم صلى الله عليه وآله في هذا المجال:

«مَنْ مَاتَ وَلَا يَعْرِفُ إِمَامَهُ مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً»[١].

والجاهلية هنا بمعنى الجهل بالقيم الإلهيّة وإهمالها وعدم اتّباعها، والميتة الجاهلية هي

---

١. الكليني، الكافي، ج١، ص٣٧٧؛ البرقي، المحاسن، ج١، ص٩٢.

في حقيقة الأمر استمرار الحياة الجاهلية؛ فمن لا يلتزم بالدين الإلهيّ ولا يراعي ضوابطه يعيش حياةً جاهليةً ويكون مصيره الكفر والنفاق، وإن مارس الأعمال الإسلاميّة في الظاهر؛ ومن هنا قال الإمام جعفر بن محمّد الصادق عليه السلام حينما سُئل عن معنى الجاهلية في الحديث المذكور: «جَاهِلِيَّةَ كُفْرٍ وَنِفَاقٍ وَضَلَالٍ»[1].

وتنطوي معرفة الإمام على آثار كثيرة، منها على سبيل المثال: التذكير بالمعرفة الإلهيّة، واستكشاف المذهب الصحيح في المعارف، وتعلّم سبيل العبوديّة، والعمل وفق نمط متكامل في الحياة الفرديّة والاجتماعيّة، وأخيراً السير في طريق السعادة الأبديّة.

على أنّ معرفة حقيقة أوصاف الإمام ومقاماته - بعد إثبات وجوده - لا يتسنّى إلّا من خلال الرجوع إلى الأئمّة أنفسهم؛ لأنّ هذا الأمر - في حدّ ذاته - من المعارف العقديّة التفصيلية، وهذا الصنف من المعارف موجود لدى أهل البيت عليهم السلام حصراً، فلا يمكن استشكافه عبر التعقّل والتأمّل والتدبّر فقط.

٢. مودّة الإمام

من المسؤوليات الأخرى الّتي تقع على عاتق أفراد الأمّة، محبّة الإمام ومودّته؛ وعليه فوظيفة النّاس - بعد إحراز معرفة الإمام - إبداء المودّة له والإخلاص إلى ساحته القدسية؛ وبالتالي، إكرامه واحترامه كإكرام الرحم القريب واحترامه، وتقديم إرادته على الإرادة الشخصية للفرد. وعلى هذا الأساس، جعل الله (سبحانه وتعالى) الأجر الوحيد للرسالة النبويّة هو المودّة للعترة الطّاهرة، فلم يسأل نبيّ الرحمة صلى الله عليه وآله النّاس أكثر من ذلك مقابل تحمّل أعباء تلك الرّسالة، فقال في محكم كتابه الكريم:

﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾[2].

ولمّا سئل الإمام أبوجعفر الباقر عليه السلام عن هذه الآية قال:

---

١. الكليني، الكافي، ج١، ص٣٧٧؛ ابن بابويه، الإمامة والتبصرة، ص٨٢.

٢. سورة الشورى: الآية ٢٣.

«هِيَ وَاللهِ فَرِيضَةٌ مِنَ اللهِ عَلَى الْعِبَادِ لِمُحَمَّدٍ صلى الله عليه وآله فِي أَهْلِ بَيْتِهِ»[١].

وقال أبوعبد الله الصادق عليه السلام أيضاً بشأن هذه الآية الشّريفة:

«إِنَّ الرَّجُلَ يُحِبُّ الرَّجُلَ وَيُبْغِضُ وَلَدَهُ، فَأَبَى اللهُ (عَزَّوَجَلَّ) إِلَّا أَنْ يَجْعَلَ حُبَّنَا مُفْتَرَضاً، أَخَذَهُ مَنْ أَخَذَهُ وَتَرَكَهُ مَنْ تَرَكَهُ وَاجِباً»[٢].

٣. التولّي والتبرّي والطّاعة

التولّي والتبرّي من الوظائف والمسؤوليّات الأخرى تجاه الإمام، والتولّي يعني القبول بولاية أهل البيت عليهم السلام والتسليم لأوامرهم ونصرتهم على أعدائهم، وكذلك إبداء المحبّة والمودّة لهم.

أمّا التبرّي فيعني البراءة من أعداء الله ورسوله وأهل بيته، ولا يمكن الالتزام بالتولّي دون التبرّي؛ إذ لا يتسنّى إبداء المودّة لشخص دون البراءة من أعدائه؛ ولذا فإنّ المودّة لأعداء أهل البيت عليهم السلام تساوق المعاداة لأهل البيت عليهم السلام[٣]، ولا تجتمع المودّة والعداء في آن واحد. من هنا، قال الإمام أبوعبد الله الصادق عليه السلام في تفسير قوله (سبحانه وتعالى) ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ﴾[٤]:

«لَا يَسْتَوِي مَنْ يُحِبُّنَا وَيُبْغِضُنَا، وَلَا يَجْتَمِعَانِ فِي قَلْبِ رَجُلٍ أَبَداً. إِنَّ اللهَ لَمْ يَجْعَلْ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ، يُحِبُّ بِهَذَا وَيُبْغِضُ بِهَذَا»[٥].

إنّ التولّي والتبرّي من أهمّ مظاهر الإيمان، وللإيمان ثلاثة أركان هي:[٦]. وكذا التولّي والتبرّي لهما أركان ثلاثة: ركن قلبي وركن لساني وركن جوارحي؛ وعلى هذا الأساس قال الإمام أبوالحسن الرّضا عليه السلام نقلاً عن جدّه رسول الله صلى الله عليه وآله:

---

١. البرقي، المحاسن، ج١، ص١٤٤؛ وأيضاً انظر: الحميري، قرب الإسناد، ص٧٨؛ الصدوق، الأمالي، ص٥٢٨.

٢. البرقي، المحاسن، ج١، ص١٤٤.

٣. قال أمير المؤمنين عليه السلام: «أَعْدَاؤُكَ عَدُوُّكَ وَعَدُوُّ صَدِيقِكَ وَصَدِيقُ عَدُوِّكَ» (نهج البلاغة، الحكمة ٢٩٥).

٤. سورة الأحزاب: الآية ٤.

٥. الإسترآبادي، تأويل الآيات الظاهرة في فضائل العترة الطاهرة، ص٤٣٩.

٦. الصدوق، عيون أخبار الرضا عليه السلام، ج١، ص٢٢٦؛ و أيضاً انظر: الكليني، الكافي، ج٢، ص٢٧.

«أَرْبَعَةٌ أَنَا شَفِيعُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَوْ أَتَوْنِي بِذُنُوبِ أَهْلِ الْأَرْضِ: مُعِينُ أَهْلِ بَيْتِي، وَالْقَاضِي لَهُمْ حَوَائِجَهُمْ عِنْدَ مَا اضْطُرُّوا إِلَيْهِ، وَالْمُحِبُّ لَهُمْ بِقَلْبِهِ وَلِسَانِهِ، وَالدَّافِعُ عَنْهُمْ بِيَدِهِ»[1].

وفي هذا السّياق، شدّد الإمام الحسن العسكري عليه السلام على أنّ موالاةَ المؤمنِ بقلبِه ولسانِه أولياءَ اللهِ ومعاداتَهُ كذلك أعداءَ اللهِ من مصاديق الصبر حين البأس[2].

علماً أنّ للتولّي آثاراً دنيوية وأخروية كثيرة، فمن أهمّ آثاره الدنيوية يمكن الإشارة إلى الابتعاد عن القبائح والصفح عن المعاصي والذنوب؛ ولذا قال الإمام جعفر الصادق عليه السلام:

«إِنَّ حُبَّنَا أَهْلَ الْبَيْتِ لَيَحُطُّ الذُّنُوبَ عَنِ الْعِبَادِ كَمَا يَحُطُّ الرِّيحُ الشَّدِيدَةُ الْوَرَقَ عَنِ الشَّجَرِ»[3].

ومن الواضح أنّ الطهارة المعنويّة تهيّئ الإنسان الموالي إلى قبول المعارف الإلهيّة الّتي تعدّ أفضل النِّعَم الدنيوية وألذّها، ومن ثمّ يستفيد من هذه الموهبة الإلهيّة في الحياة الدنيا. ولا ريب في أنّ من تستقرّ المعارف الإلهيّة في قلبه ويدرك حقائق العالم بصورة صحيحة سيطرأ تحوّل كبير على أفعاله وتصرّفاته، ثمّ يدنو من السعادة الأبدية رويداً رويداً.

ومن الآثار المهمّة للتولّي في الآخرة، الحصول على شفاعة أهل البيت عليهم السلام، كما صرّح بذلك الإمام عليّ بن موسى الرّضا عليه السلام في الحديث المتقدّم، كذلك ورد في حديث آخر عن الإمام أبي عبد الله الصادق عليه السلام أنّ من جملة الآثار الأخروية للتولّي غفران الذّنوب[4]. وحيث إنّ التبرّي جزء لا يتجزّأ من التولّي، فكلّ أثر ثبت للأخير يثبت للأول أيضاً بلا شكّ.

٤. أخذ العلم عن الإمام

من المسؤوليات الأخرى للأمّة تجاه الإمام، أخذ العلوم والمعارف الدّينيّة عنه. فمن المسلّم

---

١ . الصدوق، عيون أخبار الرضا عليه السلام، ج١، ص٢٥٩؛ الخزّاز الرازي، كفاية الأثر في النصّ على الأئمة الاثني عشر، ص٢٩٩.

٢ . انظر: النوري، مستدرك الوسائل ومستنبط المسائل، ج٥، ص٣٤٠؛ تفسير الإمام العسكري عليه السلام، ص٥٩٤.

٣ . الصدوق، ثواب الأعمال وعقاب الأعمال، ص١٨٧؛ و أيضاً انظر: الكليني، الكافي، ج٨، ص٣٤٠.

٤ . انظر: الصدوق، ثواب الأعمال وعقاب الأعمال، ص١٧٠؛ و أيضاً انظر: البرقي، المحاسن، ج١، ص٢٦٥.

به أنّ الله (جلّ وعلا) أودع النبيّ صلى الله عليه وآله وأهل البيت عليهم السلام العلوم الدّينيّة ومعاني الكتاب السماوي[١]، وهو ذلك الكتاب المبين الّذي يحوي كلّ شيءٍ من رطبٍ ويابسٍ[٢]. وعلى هذا الأساس، فأهل البيت عليهم السلام يعلمون بكلّ احتياجات النّاس، فيتوجب على النّاس الرجوع إليهم في جميع الأمور، وأخذ مسائلهم المختلفة منهم، لا سيما العلوم والعقائد الدّينيّة. قال أمير المؤمنين عليه السلام لكميل في هذا المجال:

«يَا كُمَيْلُ! لَا تَأْخُذْ إِلَّا عَنَّا تَكُنْ مِنَّا»[٣].

هذا الكلام من الإمام عليه السلام يدلّ بوضوح على حقيقة أنّ أخذ العلم من غير أهل البيت عليهم السلام يساوق إنكارهم والخروج عن ولايتهم. وفي هذا السّياق، قال الإمام أبوجعفر الباقر عليه السلام لشخصين كانا ينشدان العلوم الدّينيّة من غير أهل البيت عليهم السلام:

«شَرِّقَا وغَرِّبَا، فَلَا تَجِدَانِ عِلْماً صَحِيحاً إِلَّا شَيْئًا خَرَجَ مِنْ عِنْدِنَا أَهْلَ الْبَيْتِ»[٤].

❁ الأسئلة

١. أثبت اعتماداً على الرّوايات الإسلاميّة أنّ معرفة الإمام المعصوم عليه السلام من المبادئ العقديّة المسلّمة.

٢. أيّ أمور هي المقصودة بمعرفة الإمام؟ اذكر آثار معرفة الإمام وفوائدها.

٣. هل يمكن القول: إنّ مودّة أهل البيت عليهم السلام واجبة على كلّ مسلم ومسلمة؟ ائتِ بدليل قرآني على ذلك.

٤. اشرح الارتباط بين التولّي والتبرّي، وبيّن المراتب الثلاث لهما.

٥. كيف يقود التولّي والتبرّي الإنسان إلى السعادة الأبديّة رويداً رويداً؟ اذكر الدليل على ذلك.

---

١. ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ (سورة العنكبوت: الآية ٤٩).

٢. ﴿وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ (سورة الأنعام: الآية ٥٩).

٣. ابن شعبة الحرّاني، تحف العقول عن آل الرسول صلى الله عليهم، ص١٧١؛ الطبري، بشارة المصطفى لشيعة المرتضى، ص٢٥.

٤. الكليني، الكافي، ج١، ص٣٩٩؛ الصفار، بصائر الدرجات، ص١٠.

❋ موضوع للبحث

- ابحث في المصادر الروائيّة لتثبت أنّ تلقّي العلوم والمعارف الدّينيّة بعد النبيّ الكريم ﷺ لا يتيسّر إلّا عن طريق الأئمّة المعصومين عليهم السلام.

٤٧

النيابة العامّة للفقهاء في عصر الغَيْبَة

إنّ إمامة الأئمّـة المعصومين عليهم السلام متواصلة بالوجود المقدّس لإمام العصر والزّمان عجّل الله تعالى فرجه الشريف، فهو يمارس عمله في هداية الأمّة في الخفاء؛ غير أنّ جزءاً من هذه المسؤولية الّتي تتطلّب تواصلاً مباشراً مع النّاس يضطلع بها الفقهاء العدول، وهذا الدّرس بصدد إثبات النيابة العامّة للفقهاء الجامعين للشرائط في عصر الغَيْبَة.

كان موضوع استمرار القيادة الإلهيّة للمجتمع البشري من التحدّيات الكبيرة الّتي واجهت الشّيعة منذ مطلع عصر الغَيْبَة الكبرى، وقد كان الأئمّة الميامين عليهم السلام قد تنبّؤا بهذه المرحلة بمقتضى علمهم الإلهيّ، فاتّخذوا التدابير الكفيلة بقدرة التشيع على مواجهة التحدّيات في هذا العصر. فمن جهة، أخبروا شيعتهم بوقوع هذه المرحلة في المستقبل وحذّروهم من المخاطر والمزالق الّتي تكتنفها، ومن جهة ثانية مهّدوا الطريق لتولّي الفقهاء مهامّ القيادة الدّينيّة في زمن الغَيْبَة من خلال تعيين نوّابٍ لهم في الأمور المختلفة.

وكان عصر الغَيْبَة الصغرى بمثابة تمرين للشيعة ساعدهم على مواجهة هذه المرحلة العصيبة، فلم يكن لأحد في هذه المرحلة الّتي دامت زهاء ٧٠ عاماً اللقاء بإمام العصر والزّمان عجّل الله تعالى فرجه الشريف والتواصل معه سوى أربعة نوّاب خاصّين، فكان المجتمع الشيعي مضطرّاً إلى عرض مشاكله وأسئلته على الإمام عليه السلام عن طريق هؤلاء الأشخاص فقط.

لقد أعلن الإمام المهديّ المنتظر عجّل الله تعالى فرجه الشريف في كتاب خرج منه إلى آخر نوّابه الأربعة انتهاء مرحلة الغَيْبَة الصغرى وبدء الغَيْبَة الكبرى؛ وقبل ذلك ورد في توقيع آخر لثاني النوّاب الأربعة

ردّاً على كتاب من شخص اسمه إسحق بن يعقوب يسأل فيه عن أحداث عصر الغَيْبَة وعن الشّخص الّذي يجب الرجوع إليه فيها:

«وَأَمّا الْحَوادِثُ الْواقِعَةُ فَارْجِعُوا فِيهَا إِلَى رُواةِ حَدِيثِنَا؛ فَإِنَّهُمْ حُجَّتِي عَلَيْكُمْ وَأَنَا حُجَّةُ اللهِ عَلَيْهِمْ»[1].

وبهذا يتّضح موقف الشّيعة في عصر الغَيْبَة الكبرى؛ فهم مكلّفون بالرجوع في المسائل الفرديّة المهمّة، الثقافيّة والاجتماعيّة، وكذلك الأحداث السياسيّة المهمّة، إلى رواة الحديث، أي من ينشرون علوم أهل البيت عليهم السلام ومعارفهم في جميع المجالات.

ولا ريب في أنّه ليس المراد من رواة الحديث في الرّواية المتقدّمة الناقلين للروايات فقط؛ لأنّ من يُرجع إليه لتحديد تكاليف النّاس في المسائل المستحدثة الواقعة في زمانهم لا مناص له من استنباط الأحكام في المسائل الفرديّة والاجتماعيّة من المصادر الدّينيّة المعتبرة، وليس هؤلاء إلّا الفقهاء الجامعون لشرائط الإفتاء ومراجع الدّين.

على أنّ لزوم تربية الفقيه للمجتمع الإسلاميّ في المسائل الدّينيّة المختلفة نابعة من التعاليم الإلهيّة في القرآن الكريم؛ حيث قال (عزّ وجلّ) في هذا الخصوص:

﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾[2].

والمقصود بـ«التفقّه في الدّين» تعلّم جميع المعارف والأحكام الإسلاميّة، الأعمّ من الأصول والفروع؛ ذلك أنّ كلمة «الدّين» عامّة وشاملة لجميع الوجوه والأبعاد، وجميع هذه الأبعاد مأخوذة بنظر الاعتبار في مفهوم التفقّه. وعليه، فهذا الآية القرآنيّة تعدّ دليلاً واضحاً على لزوم أن تبادر طائفة من المسلمين إلى دراسة العلوم الدّينيّة والمعارف الإسلاميّة من باب الوجوب الكفائي، ومن ثمّ ترجع إلى المكان الّذي خرجت منه أو تهاجر إلى المناطق المختلفة من العالم الإسلاميّ لنشر الدعوة الدّينيّة وتبليغ الأحكام الإسلاميّة كجزء من وظيفتها الشرعيّة.

---

١ . الصدوق، كمال الدين وتمام النعمة، ج١، ص٤٨٤؛ الطوسي، الغيبة، ص٢٩١؛ الحرّ العاملي، وسائل الشيعة، ج٢٧، ص١٤٠.

٢ . سورة التوبة: الآية ١٢٢.

كما إنّ إعداد فقهاء قادرين على الردّ على أسئلة النّاس في حال عدم إمكان الوصول إلى الإمام الغائب عجّل الله تعالى فرجه الشريف كان ضمن جدول أعمال الأئمّة المعصومين عليهم السلام؛ حيث كانوا يُرجعون السائلين عن المسائل الدّينيّة المختلفة ممن يسكنون في المناطق النائية ولا يستطيعون اللقاء بالإمام إلى كبار الشخصيات والفقهاء في المناطق القريبة على مناطقهم[١].

وفي هذا الإطار، شدّد الأئمّة المعصومون عليهم السلام كثيراً على أهمية التفقّه في الدّين. من هنا، قال الإمام أبي عبد الله الصادق عليه السلام في بيان معنى الحكمة:

«إِنَّ الْحِكْمَةَ الْمَعْرِفَةُ وَالتَّفَقُّهُ فِي الدِّينِ، فَمَنْ فَقُهَ مِنْكُمْ فَهُوَ حَكِيمٌ، وَمَا أَحَدٌ يَمُوتُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَحَبَّ إِلَى إِبْلِيسَ مِنْ فَقِيهٍ»[٢].

وفي رواية أخرى، أكد الإمام الصادق عليه السلام أيضاً على أنّ العبد لا يستكمل حقيقة الإيمان حتّى يكون فيه ثلاث خصال، أوّلها التفقّه في الدّين[٣].

ومن ناحية أخرى، نهى الأئمّة الكرام عليهم السلام عن الرجوع إلى حكام الجور والترافع إليهم في النزاعات والخلافات، وطلبوا من النّاس الذهاب إلى الفقهاء العدول للقضاء بينهم في القضايا المتنازع عليها بينهم، والرضا بحكمهم، مشدّدين على أنّ حكم هؤلاء الفقهاء هو حكم الأئمّة عليهم السلام، ويمكن الاستشهاد بمقبولة عمر بن حنظلة عن الإمام أبي عبد الله الصادق عليه السلام في المقام لما سأله عن رجلين من المؤمنين يكون بينهما منازعة كيف يصنعان؟؛ فقال الإمام عليه السلام:

«انْظُرُوا إِلَى مَنْ كَانَ مِنْكُمْ قَدْ رَوَى حَدِيثَنَا وَنَظَرَ فِي حَلَالِنَا وَحَرَامِنَا وَعَرَفَ أَحْكَامَنَا، فَارْضَوْا بِهِ حَكَماً؛ فَإِنِّي قَدْ جَعَلْتُهُ عَلَيْكُمْ حَاكِماً. فَإِذَا حَكَمَ بِحُكْمِنَا فَلَمْ يَقْبَلْهُ مِنْهُ، فَإِنَّمَا بِحُكْمِ اللهِ قَدِ اسْتَخَفَّ، وَعَلَيْنَا رَدَّ، وَالرَّادُّ عَلَيْنَا الرَّادُّ عَلَى اللهِ، وَهُوَ عَلَى حَدِّ الشِّرْكِ بِاللهِ»[٤].

---

١ . انظر: مكارم الشيرازي، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج٦، ص٢٦٦-٢٧٠.

٢ . العياشي، تفسير العياشي، ج١، ص١٥١؛ وأيضاً انظر: الكليني، الكافي، ج١، ص٣٨.

٣ . انظر: البرقي، المحاسن، ج١، ص٥؛ وأيضاً انظر: الكليني، الكافي، ج١، ص٣٢.

٤ . الكليني، الكافي، ج١، ص٦٧ و ج٧، ص٤١٢؛ الطوسي، تهذيب الأحكام، ج٦، ص٢١٨.

مضافاً إلى ما ذُكر، شرح الإمام عليه السلام في هذه الرّواية طريقة اختيار الفقهاء وكيفيّة تقليدهم، وهو ما يشير إلى مساعي الأئمّة الطاهرين عليهم السلام الرامية إلى التمهيد لطريق الفقاهة والترويج لعملية الاجتهاد والتقليد.

بناءً على ذلك؛ فإنّ الإمام الحجّة بن الحسن عجل الله تعالى فرجه الشريف قد فوّض النيابة العامّة عنه في عصر الغَيْبَة الكبرى إلى الفقهاء والمراجع المختصّين. والمراد من النيابة العامّة هو أنّ هؤلاء الأفراد لم يُنتخبوا مباشرةً من قبل الإمام؛ وإنّما يصار إلى اختيارهم من بين الفقهاء من قبل أهل الخبرة، طبقاً لشروط ومعايير خاصّة حدّدها الأئمّة عليهم السلام أنفسهم.

فالفقيه الجامع للشرائط بنظر الأئمّة الأطهار عليهم السلام لا بدّ له من الاتّصاف بأوصاف معنويّة وأخلاقيّة واجتماعيّة مناسبة لهذه الوظيفة الهامّة، فضلاً عن تفوّقه في علوم أهل البيت عليهم السلام والقدرة على استنباط الأحكام الشرعيّة من المصادر الدّينيّة. قال الإمام الحسن العسكري عليه السلام في هذا المجال:

«فَأَمَّا مَنْ كَانَ مِنَ الْفُقَهَاءِ صَائِناً لِنَفْسِهِ، حَافِظاً لِدِينِهِ، مُخَالِفاً لِهَوَاهُ، مُطِيعاً لِأَمْرِ مَوْلَاهُ، فَلِلْعَوَامِ أَنْ يُقَلِّدُوهُ»[١].

فمثل هؤلاء الفقهاء والمراجع هم الحجّة على الأمّة من إمام العصر والزّمان عجل الله تعالى فرجه الشريف، وإذا ما قصّر النّاس في الرجوع إليهم في قضاياهم المختلفة فهذا يعني أنّهم لم يعملوا بتكليفهم الدينيّ والشرعيّ الملقى على عواتقهم وأنّهم مسؤولون أمام الله (سبحانه وتعالى). وفي المقابل؛ فإنّ هؤلاء الفقهاء مسؤولون مقابل إمام العصر والزّمان عجل الله تعالى فرجه الشريف، ويجب عليهم هداية الأمّة وقيادتها في الأوقات المختلفة بما يتناسب مع مصالح المجتمع الإسلاميّ.

ومن هذا المنطلق؛ فإنّ مسؤولية الفقهاء العدول والعالمين بزمانهم تجاه الحياة المعنويّة والمادّية للشيعة خطيرة للغاية؛ ففضلاً عن لزوم تلبية المتطلبات الثقافيّة والفكريّة لهم، ينبغي عليهم تحمّل مسؤوليات إمام العصر والزّمان عجل الله تعالى فرجه الشريف في إرساء الأمن والاستقرار وتوفير الراحة للنّاس قدر المستطاع، والحفاظ على كيان الأمّة الإسلاميّة حيال مخاطر الأعداء.

---

١. الطبرسي، الاحتجاج، ج٢، ص٤٥٨؛ تفسير الإمام العسكري عليه السلام، ص٣٠٠؛ الحرّ العاملي، وسائل الشيعة، ج٢٧، ص١٣١.

وعليه، فمن مسؤوليات الفقهاء في عصر الغَيْبَة تحصين المجتمع الإسلاميّ ورصّ صفوفه، والتصدّي للولاية والقيادة السياسيّة عند الإمكان. من هنا، تعدّ ولاية الفقيه بصورة عامّة من جملة شؤون الفقهاء في عصر الغَيْبَة[1].

❁ الأسئلة

١. اذكر دليلاً قرآنيّاً على ضرورة وجود الفقهاء في مسيرة هداية الأمّة.
٢. اذكر نماذجاً ممّا قام به أهل البيت عليهم السلام، لإعداد الأمّة للغَيْبَة واتّباع الفقهاء العدول.
٣. أوضح حدود الفقه والتفقّه في ثقافة أهل البيت عليهم السلام.
٤. ما تكليف الأمّة في الحكومات الجائرة؟ ائتِ بدليل من سنّة أهل البيت عليهم السلام.
٥. عدّد الشؤون والمسؤوليات المختلفة للفقهاء في عصر الغَيْبَة.

❁ موضوع للبحث

- ابحث الصّفات اللازم توفّرها لمقام النيابة العامّة لإمام العصر والزّمان عجّل الله تعالى فرجه الشريف، وبيّن حدود مسؤولية الفقهاء في عصر الغَيْبَة.

---

١ سنتحدّث أكثر في هذا الخصوص خلال الدرس الثاني والسبعون.

الباب السادس

المعـــــاد

٤٨

المعاد: التعريف والأهمّية

يُعدّ المعاد من الأصول العقدية المهمّة الأخرى في الرؤية الإسلاميّة، والّذي يرتبط ارتباطاً وثيقاً بسائر المبادئ المعرفية الأخرى. في هذا الدّرس سنتعرّف بدايةً إلى مفهوم المعاد وأهميّته في منظومة المعارف الدّينيّة، ثمّ نتحدّث عن تأثيره على الحياة الفرديّة والاجتماعيّة للإنسان.

إنّ أصل الإيمان بعالم ما بعد الموت هو أحد العقائد المشتركة في الأديان الإلهيّة وكثير من المدارس البشريّة، ولهذا الأصل ارتباط وثيق بالإيمان بالحكمة والعدل الإلهيّ.

فلا غرو أنّ هذه العقيدة الأساسيّة من جهة قائمة على الأسس العقليّة؛ ولذا كان مبدأ المعاد يحظى بتأييد العقلاء طيلة التّاريخ البشري، ومن جهة أخرى تخرج البحوث التفصيليّة في باب كيفية المعاد وأحواله عن دائرة عقل الإنسان الاعتيادي، فلا يمكن بيانها إلّا بواسطة الأنبياء الإلهيّين. ولما كنّا في هذا الكتاب بصدد التعريف بالأسس العقديّة من المصادر الإسلاميّة الأصيلة، سنركز على الأدلّة والشواهد السماويّة، ونشير إلى البراهين العقليّة الواردة في النّصوص الدّينيّة أيضاً.

١. معنى المعاد

المعاد لغةً يقال للعَوْد وللزّمان الّذي يعود فيه، وقد يكون للمكان الّذي يعود إليه[١]. وأمّا في

---

١ . انظر: الفيروزآبادي، القاموس المحيط، ج٥، ص٦٧؛ الراغب الإصفهاني، المفردات في غريب القرآن، ص٥٩٤.

اصطلاح المتكلمين فهو يطلق على عودة الرّوح إلى البدن المادّي والعنصري يوم القيامة ليعيش الإنسان حياته الأبدية في الجنّة أو النّار بعد انقضاء الحساب[1].

٢. أهميّة المعاد

إنّ حياة الإنسان ترتبط ارتباطاً مباشراً بطبيعة رؤيته إلى حقيقته وكماله وسعادته؛ فمن يرى أنّ حقيقته لا تعدو مجموعة من العناصر المادّيّة فقط، ويعتبر حياته مقتصرة على عدد الأيام الّتي يعيشها في الحياة الدنيا، ولا يلتمس كمالاً من وراء الانتفاعات المادّيّة والدنيويّة، فإنّه ينظم سلوكياته بطريقة تضمن له تلبية هذه الاحتياجات وتوفير الأمور الّتي يحتاجها في هذا العالم فقط. وعلى العكس من ذلك؛ فإنّ من يؤمن أنّ حقيقته أبعد من الظواهر المادّيّة، ولا يعتبر الموت نهاية للحياة؛ بل يعدّه نقطة انتقال من عالم مؤقّت إلى عالم أبدي، ويعتقد أنّ سلوكه الجيد هو الوسيلة لبلوغه السعادة والكمال الأبديين، يعمل على تنظيم حياته بحيث تكون أكثر فائدة لحياته الأبدية. كما إنّ مثل هذا الإنسان لا يصيبه اليأس والقنوط عند مواجهة المشاكل والأزمات، ولا يخفق في مساعيه بهدف أداء المسؤوليات وإحراز السعادة والكمال الأبديين.

ولا غرو أنّ تأثير هذين النحوين من الرؤية الإنسانيّة والكونيّة لا يقتصر على الحياة الفرديّة فحسب؛ بل له تأثير كبير على الحياة الاجتماعيّة والسلوكيات المتبادلة بين الأفراد أيضاً، فالإيمان بالحياة الأخرويّة ومبدإ الثواب والعقاب الأبدي له تأثير مهمّ في رعاية حقوق الآخرين والتفاني في سبيل المساكين، وقلّما تبدو الحاجة إلى القوّة وممارسة الضغط لتطبيق القوانين العادلة ومنع وقوع الظّلم على الآخرين في المجتمعات الّتي تسودها مثل هذه الاعتقادات، ولا ريب في أنّه لو جرى تعميم هذه الرؤية على جميع أنحاء العالم فسوف تنحسر المشاكل الّتي يعاني منها النّاس بشكل لافت.

ولا بدّ من الالتفات إلى أنّ تأثير الإيمان بالمعاد لا يقتصر على الحياة الدنيويّة القصيرة فقط؛ بل له تأثير على أبدية الإنسان الّتي لا تشكل الدنيا سوى ذرّة منها. ومن هذا المنطلق،

١. انظر: جعفر السبحاني، اصول عقايد اسلامى، ص٩٥؛ مكارم الشيرازي، معاد وجهان پس از مرگ، ص٢٤٩-٢٥١؛ مجتبى القزويني، بيان الفرقان في توحيد القرآن، ج٣، ص٢.

ربما يعدّ بحث المعاد والحياة ما بعد الموت أوسع الأبحاث في القرآن الكريم، حتّى إنّ آيات المعاد أكثر من آيات التوحيد أيضاً. من هنا، وردت الإشارة مراراً وتكراراً إلى الجنّة والنّار الّتي ستكون موئلاً للمحسنين والمسيئين[١]، كما أشير مراراً وفي آيات قرآنيّة كثيرة إلى أوصاف الجنّة ونعيمها وأوصاف النّار وعذابها[٢]. فتتّضح أهمية الحياة ما بعد الموت ولزوم دراستها والتأمّل فيها من كثرة الآيات الواردة في هذا المجال.

٣. آثار الإيمان بالمعاد

يستفاد ممّا تقدّم أنّ للإيمان بعالم ما بعد الموت دوراً محوريّاً في حياة الإنسان وأثراً مباشراً في تحديد الأعمال والمعتقدات، ويمكن تلخيص الآثار المترتّبة على الإيمان بالمعاد بما يأتي:

٣. ١. إنّ مثل هذا الإيمان يعمل بالدرجة الأولى على جعل الإنسان حسّاساً تجاه عقيدته وبصيرته، ويدفعه إلى توفير الأرضيّة اللازمة للإيمان بما يضمن له النجاة والفلاح وصيانته من الاعتقاد بما يوجب له العذاب والسقوط في جهنّم.

٣. ٢. إنّ من يؤمن بالمعاد يرى الدنيا مزرعة للآخرة، ويعتبر أعماله كالبذور الّتي سيقطف ثمارها في الآخرة؛ ولذا لا يخطو في الحياة الدنيا إلّا بخطوات مدروسة، ويسعى إلى القيام بأعمال حسنة ليحصد نتائج طيبة.

ثمّ إنّ الإيمان بالمعاد يساعد الإنسان على عدم التقصير في أداء التكاليف الإلهيّة وعدم الاستخفاف بالأوامر والنواهي الإلهيّة.

٣. ٣. إنّ الإيمان بالمعاد يمنح الإنسان المؤمن قوّة حيال الشدائد والمصائب، ويغيّر الوجه القبيح للموت الّذي يلقي بظلاله الثقيلة على أفكاره ويصيبه بالكوابيس المستمرّة ويسلبه الراحة والاطمئنان. فالإيمان بالمعاد يهب الموت معنى آخر، ويحولّه من مفهوم الفناء والعدم إلى نافذة صوب عالم أرفع وأجمل.

٣. ٤. إنّ الإيمان بالمعاد يوسع أفق الرؤية لدى الإنسان ويخرجه عن دائرة العالم المادّي؛ فلا

---

١. وردت كلمة «جنّات» ٦٩ مرّة، و«الجنّة» ٦٦ مرّة، وكلمة «جهنّم» ٧٧ مرّة، وكلمة «الجحيم» ٢٥ مرّة في القرآن الكريم.

٢. انظر: سورة الواقعة: الآيات ١١-٢٣ و٢٧-٣٤ و٥٢-٥٤.

يعد يختزل كلّ شيءٍ في الدنيا الماديّة، ولا يواجه الفراغ والخواء في الحياة. وعليه، فالمعاد يمنح حياة الإنسان معنى آخر في هذه الدنيا أيضاً ويملؤها بنور المعنويّة.

٣. ٥. من النتائج الأخرى للإيمان بالمعاد، السير نحو هدف محدّد والتخطيط الدقيق للحظات الحياة؛ فالإنسان المؤمن العارف بمصيره المحتوم وعاقبته الأكيدة لا يحيد عن الطريق ولا يفتتن بالألاعيب الواقعة في منتصف الطريق؛ وإنّما يخطّط جيّداً للوصول إلى المحطّة الأخيرة والهدف النهائي بعناية تامّة.

❀ الأسئلة

١. ما التعريف الجامع للمعاد من وجهة نظر الأديان الإلهيّة؟

٢. ابحث أهميّة الإيمان بالمعاد وبيّنه بصورة واضحة.

٣. اشرح أهمّ آثار الإيمان بالمعاد على ثلاث مستويات: المستوى الفكري والسلوك الفردي والسلوك الاجتماعي.

❀ موضوعات للبحث

١- ما هي أبعاد المعاد المؤثرة على الحياة الدنيويّة للإنسان برأيك؟

٢- استخرج بعض الآيات من القرآن الكريم حول آثار الإيمان بالمعاد، ثمّ رتّبها وبوّبها.

٤٩

دلائل إثبات المعاد

بحثنا في الدّرس السّابق معنى المعاد وأهمّيّته، وبعد بيان أهمّيّة المعاد في القرآن الكريم أشرنا إلى آثار الإيمان بالمعاد بصورة مختصرة. وفي هذا الدّرس، سنتناول بحث الأدلة الّتي جاء بها القرآن لإثبات المعاد، ثمّ نتطرّق إلى الأسباب الداعيّة إلى إنكار المعاد.

١. أدلّة إثبات المعاد

يمكن الاكتفاء بأحاديث الرُّسل الإلهيّين والاعتماد عليها لإثبات المعاد؛ حيث أثبتنا سابقاً صدقهم وصواب أقوالهم، لا سيما في ما يتعلّق بالرسالة الإلهيّة. وفي الوقت ذاته، ورد في القرآن الكريم دلائل وشواهد عقليّة على المعاد، سنشيرإلى عدد منها في السطور القادمة، وهذه الأدلة والبراهين القائمة على المبادئ العقليّة عموماً جرى الاستناد عليها في الكتاب والسنّة أيضاً:

١.١. برهان الحكمة الإلهيّة

شدّد القرآن الكريم على أنّه لولا المعاد والرجوع إلى الله ما بعد الموت لكان خلق الإنسان والعالم عبثاً ودون طائل، فقال (سبحانه وتعالى):

﴿اَفَحَسِبْتُمْ اَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَاَنَّكُمْ اِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ﴾[١].

---

١. سورة المؤمنون: الآية ١١٥.

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمٰوٰاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ﴾[1].

ويمكن أن نقرّر البرهان المتقدّم كالآتي: إنّ الله (سبحانه وتعالى) حكيم، والحكيم لا يصدر منه اللغو والعبث؛ ولذا فإنّ أفعاله ذات غاية وهدف محدّد، وخلق الإنسان فعل من الأفعال الإلهيّة، له غاية معينة وهدف خاصّ طبقاً للحكمة الإلهيّة. وبإلقاء نظرة إلى حياة الإنسان منذ بدو ولادته حتّى موته، نجد أنّ الهدف النهائي من الخلق لا يتحقّق في الحياة الدنيا، وأنّ الأمر يتطلّب حياةً غير هذه الحياة. وعلى هذا الأساس، فإن كانت حياة الإنسان محدودة بالحياة الدنيا فقط، سيكون خلقه عبثاً ولن يصل إلى الكمال المنشود، وهذا الأمر منافٍ للحكمة الإلهيّة. وفي المحصلة، الحكمة الإلهيّة وحدها كفيلة بإثبات المعاد والحياة الأخروية للإنسان.

ولمزيد من الإيضاح لهذا البرهان نقول: إنّ لدى الإنسان قابليات كثيرة، وبوسعه الحصول على كمالات أرفع ومراتب أسمى، لا يمكن مقارنتها بالكمالات المادّيّة والمراتب الاعتياديّة. من هنا، لو انحصرت حياة الإنسان بحياته الدنيويّة، فهذا لا يتطابق مع الحكمة الإلهيّة، خصوصاً وأنّ الحياة الدنيويّة لا تخلو من المصاعب والمشقّات والمآزق الكبيرة، بحيث لا يتيسر الحصول على لذّة معينة دون تحمّل عناء كبير ومشقّة كبرى غالباً.

نعم، لو لم تكن حياة الإنسان على هذه الشاكلة، بحيث يواجه فيها العناء تلو العناء ويتحمّل جميع أنواع المشاكل الطبيعيّة والاجتماعيّة؛ ليقضي لحظات ممتعة وسعيدة وأخرى سيئة وتعيسة، ثمّ يخلد إلى النوم من شدّة التعب والإرهاق لينهض مجدّداً للعمل الدؤوب من أجل الحصول على لقمة العيش، وينتابه شعور بالفرح والسرور عند أكلها؛ لو لم يكن الأمر كذلك أوَ كان عقل الإنسان يستسيغ هذه الرتابة المملّة، وهل يفتي بالقبول بها؟

والحاصل أنّه يمكن أن نستنتج من ضمّ هاتين المقدّمتين، أي الحكمة الإلهيّة وإمكان الحياة الأسمى للإنسان، لزوم وجود حياة أخرى له وراء هذه الحياة الدنيويّة المحدودة لئلا تخالف الحكمة الإلهيّة[2].

---

١ . سورة الحجر: الآية ٨٥.

٢ . انظر: مصباح اليزدي، آموزش عقائد، ص٣٦٤.

٢.١. برهان العدل الإلهيّ

أكد الباري (سبحانه وتعالى) لعباده أنّه خلق السماوات والأرض بالحقّ؛ وذلك ليُجزى كلّ إنسان بما عمل دون أن يُظلم أحد[١]. ثمّ أشار إلى أنّ هذه الدنيا ليست موضعاً مناسباً للثواب والعقاب بما يستحقّه الإنسان:

﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَآبَّةٍ﴾[٢].

وعلى هذا الأساس، لو أراد الله (سبحانه وتعالى) أن يؤاخذ النّاس في هذه الدنيا جزاءً لما فعلوه من أعمال قبيحة، لما أبقى على وجه الأرض منهم دابّة، ولحدث خلل في نظام هذا العالم. ومن هنا فإنّ الله (سبحانه وتعالى) يؤخر العقوبة إلى يوم الجزاء، وهذا التأخير ليس من باب الغفلة. قال (سبحانه وتعالى):

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾[٣].

ويستفاد من الآيات القرآنيّة أنّ الله (عزّ وجلّ) لم يجعل هذه الدنيا مكاناً للمجازاة على جميع أعمال العباد؛ وإنّما اعتبر الدنيا دار عمل وامتحان. وإن كان الأمر كذلك فإنّ العدل الإلهيّ يقتضي أن يوكل الثواب أو العقاب إلى عالم آخر.

ولتوضيح البرهان المذكور وتسليط مزيد من الأضواء عليه، نقول: إنّ الإنسان في هذا العالم حرّ في اختيار العمل الحسن أو القبيح. فمن جهة، نرى أشخاصاً قضوا جميع أعمارهم في عبادة الله (سبحانه وتعالى) وخدمة عباده، ومن جهة أخرى ثمّة مجرمون ارتكبوا أبشع أنواع الجرائم ومختلف أشكال الظّلم لبلوغ مآربهم وتحقيق أهوائهم الشيطانيّة.

لكن، نرى أنّ المحسنين والمسيئين لا يحصلون على الثواب الّذي يستحقّونه ولا يواجهون العقاب اللّازم في هذه الدنيا؛ بل ربما يحصل بعض المسيئين على مزيد من النِّعم. كما إنّ الحياة الدنيا أساساً غير جديرة بالثواب والعقاب لكثير من الأعمال؛ فعلى سبيل المثال، من يقتل

---

١. انظر: سورة الجاثية: الآية ٢٢.

٢. سورة النحل: الآية ٦١.

٣. سورة إبراهيم: الآية ٤٢.

آلاف الأشخاص لا يمكن الاقتصاص منه أكثر من مرّة، وتبقى سائر جرائمه الأخرى دون عقوبة، والحال أنّ العدل الإلهيّ يقتضي أن يرى الإنسان نتائج أعماله الحسنة والسيئة مهما صغرت.

وعليه، لا بدّ من وجود عالم آخر يكون داراً للثواب والعقاب وظهور نتائج أعمال الإنسان، فيحصل كلّ إنسان فيه على ما يستحقّه[١].

٢. أسباب إنكار المعاد

يمكن تقسيم الأسباب الداعية إلى إنكار المعاد إلى طوائف مختلفة إجمالاً، بعضها ذو طابع عقدي ومعرفي وبعضها الآخر ذو طابع نفسي وسلوكي. وسنتطرّق هنا إلى عدد من تلك العوامل الّتي وردت في القرآن الكريم بصراحة:

٢.١. الجهل

ينبري بعض النّاس إلى إنكار المعاد والحياة ما بعد الموت نتيجة الظنون الّتي لا أساس لها من الصحّة والنابعة من الجهل. قال (سبحانه وتعالى) بشأن هذه الطائفة من النّاس:

﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾[٢].

وجرى التأكيد في آيات أخرى أيضاً على أنّ إنكار المعاد ناجم عن الظنّ بغير الحقّ والمفتقر إلى الدليل[٣]. نعم، ربما يتّخذ أصحاب الأهواء الظنون المفتقرة إلى الدليل دليلاً لهم في حال كونها موافقة لأهوائهم[٤]. وتتجلّى كعقيدة حتمية لهم تدريجيّاً بفعل التصرّفات المناسبة لها وارتكاب المعاصي[٥]؛ بل قد يصرّ الشّخص على مثل هذه العقيدة[٦].

---

١. انظر: مصباح اليزدي، آموزش عقائد، ص٣٦٦.

٢. سورة الجاثية: الآية ٢٤.

٣. انظر: سورة القصص: الآية ٣٩؛ سورة الكهف: الآية ٣٦؛ سورة ص: الآية ٢٧؛ سورة الجاثية: الآية ٣٢؛ سورة الانشقاق: الآية ١٤.

٤. ﴿بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ﴾ (سورة القيامة: الآية ٥).

٥. ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ * الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ * وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ﴾ (سورة المطففين: الآيات ١٠-١٢).

٦. ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (سورة النحل: الآية ٣٨).

٢.٢. الغفلة عن القدرة الإلهيّة

قد يتبادر إلى أذهان بعض النّاس سؤال مفاده: كيف يمكن إحياء الإنسان الّذي يموت ويتحول إلى عظام بالية ويصبح تراباً؟

لقد لفت الباري (سبحانه وتعالى) أنظار النّاس إلى قدرته اللامتناهية بطرق مختلفة، وبهذا أزال الغفلة عن تلك الأذهان، وسنشير أدناه وبصورة مختصرة إلى بعض هذه الطرق والأجوبة على السّؤال الآنف:

أ) خلق السماوات والأرض

يذكّر الله (سبحانه وتعالى) منكري المعاد في بعض الأحيان بقدرته على خلق السماوات والأرض، ويؤكد لهم على أنّ من يمتلك مثل هذه القدرة قادر على إحياء الموتى أيضاً، فقال:

﴿اَوَلَمْ يَرَوْا اَنَّ اللهَ الَّذِى خَلَقَ السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقٰادِرٍ عَلٰٓى اَنْ يُحْيِىَ الْمَوْتٰى بَلٰٓى اِنَّهُ عَلٰى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾[١].

ب) الخلق الأوّل للإنسان

في موضع آخر، شدّد الباري (سبحانه وتعالى) على أنّ من يستبعد المعاد وإحياء الإنسان بعد موته هو من نسي خلق الإنسان من العدم؛ لأنّ من يلتفت إلى خلقه الأوّل يدرك بأنّ الله الّذي أنشأه من العدم قادر على إحياء عظامه النخرة مرّةً أخرى. وفي هذا السّياق، روي أنّ أُبي بن خلف جاء إلى رسول الله ﷺ بعظم رميم ففتّه في يده ثمّ نفخه، وقال: أتزعم أنّ ربّك يحيي هذا بعد ما ترى؟؛[٢] فأنزل الله (سبحانه وتعالى):

﴿وَضَرَبَ لَنٰا مَثَلاً وَنَسِىَ خَلْقَهُ قٰالَ مَنْ يُحْيِى الْعِظٰامَ وَهِىَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِىٓ اَنْشَاَهآ اَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾[٣].

---

١. سورة الأحقاف: الآية ٣٣.

٢. المفيد، الأمالي، ص٢٤٧؛ الطوسي، الأمالي، ص١٩.

٣. سورة يس: الآيتان ٧٨-٧٩.

ج) المعاد في الطبيعة

أشار الله (جلّ وعلا) في آيات قرآنيّة عدّة إلى المعاد في الطبيعة، ودعا الإنسان إلى التأمّل في ذلك مليّاً، فكما يمكن مشاهدة ولوج الحياة في جسد الطبيعة بوضوح بعد سقوط المطر على الأرض المقفرة، لو نظرنا إلى هذه الحادثة بتمعّن وتدبّر لوجدنا أنّها تمثل مصداقاً واضحاً لإحياء الأموات يوم القيامة. قال (سبحانه وتعالى) في هذا الصدد:

﴿وَاللهُ الَّذِىٓ اَرْسَلَ الرِّياٰحَ فَتُثِيرُ سَحاٰباً فَسُقْناٰهُ اِلٰى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَاَحْيَيْناٰ بِهِ الْاَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهاٰ كَذٰلِكَ النُّشُورُ﴾[1].

﴿وَمِنْ ءاٰياٰتِهِ اَنَّكَ تَرَى الْاَرْضَ خاٰشِعَةً فَاِذآ اَنْزَلْناٰ عَلَيْهَا الْمآءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ اِنَّ الَّذِىٓ اَحْياٰهاٰ لَمُحْيِ الْمَوْتىٰٓ اِنَّهُۥ عَلٰى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾[2].

٢.٣. الهروب من المسؤوليّة

إنّ الإيمان بالقيامة ويوم الحساب يعدّ ظهيراً قويّاً للشّعور بالمسؤوليّة والإقرار بوجود حدود وقيود على الصعيد السلوكي ومنع وقوع الظّلم والفساد والمعاصي، وإنكاره يساوق فسح المجال أمام الأهواء والشهوات والاستبداد[3]. قال (سبحانه وتعالى) مُشيراً إلى هذا العامل:

﴿اَيَحْسَبُ الْاِنْساٰنُ اَلَّنْ نَجْمَعَ عِظاٰمَهُۥ * بَلٰى قاٰدِرِينَ عَلٰٓى اَنْ نُسَوِّيَ بَناٰنَهُۥ * بَلْ يُرِيدُ الْاِنْساٰنُ لِيَفْجُرَ اَماٰمَهُۥ﴾[4].

فنرى أنّ القرآن الكريم في هذه الآية الشّريفة ردّ على المنكرين ردّاً عقليّاً، ثمّ بيّن أنّ مردّ كثير من موارد عدم التصديق بالآيات الإلهيّة إلى جوانب نفسيّة وأخلاقيّة.

---

١. سورة فاطر: الآية ٩.

٢. سورة فصّلت: الآية ٣٩.

٣. انظر: مصباح اليزدي، آموزش عقائد، ص٣٤٢.

٤. سورة القيامة: الآيات ٣-٥.

⊛ الأسئلة

١. اشرح برهان الحكمة الإلهيّة لإثبات أصل المَعَاد.

٢. كيف يُمكن الاستدلال على لزوم المَعاد عن طريق العدل الإلهيّ؟

٣. اذكر آية قرآنيّة لكلّ من عَامِلَيْ الجهل والغفلة المُسبّبين لإنكار المعاد.

٤. ما الطرق الّتي أشار إليها القرآن الكريم لإزالة الغفلة عن أذهان النّاس و إثبات قدرته على إعادة العالم؟

⊛ موضوعات للبحث

- كيف تدفع روح الهروب من المسؤولية الإنسان إلى إنكار المعاد؟ وكيف يمكن للإنسان التصدّي لهذه الرّوح برأيك؟

- هل تستطيع أن تستفيد برهاناً آخر على المعاد من الآيات القرآنيّة المذكورة في هذا الدّرس؟ قرّر هذا البرهان ببيانك.

٥٠

الاحتضار والموت

كانت البحوث المتقدّمة متعلّقة بأصل المعاد والإيمان به، وتبيّن أنّه يمكن إثبات المعاد بالطرق العقليّة والنقليّة بصورة قطعيّة، وأنّ أسباب إنكاره إما الجهل والغفلة عن أدلّته وعوامله وإما عوامل أخلاقيّة وسلوكيّة. والآن سوف نتطرّق إلى مراحل الآخرة، ونصوّر مصير الإنسان بشكل تدريجي من الممات إلى يوم القيامة حسبما ورد في الرّوايات الإسلاميّة.

ثمّة مراحل مختلفة بين منزل الدنيا والمنزل الأبديّ للإنسان، من قبيل الموت والقبر والبرزخ والقيامة والصراط والميزان، فلابدّ لنا من بحث هذه المراحل قبل الخوض في المنزل الأبديّ.

تنتهي الحياة الدنيويّة للإنسان وتبتدأ حياته الأخرويّة بظاهرة تدعى الموت، وما إن يموت ابن آدم حتّى ينقطع عن الدنيا ويحلّ في أوّل منازل الآخرة، أي القبر. وسنبحث هنا ظاهرة الموت وما يتعلّق بها، من قبيل حالات الاحتضار وسكرات الموت وما شابه.

١. حتميّة الموت

الموت سنّة حتميّة تشمل جميع الموجودات بما فيها الإنسان، عدا الباري (جلّ وعلا)، وقد عبّر القرآن الكريم عن حتميّة الموت بتعابير مختلفة، منها:

﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾[1].

---

١. سورة النساء: الآية ٧٨.

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ الْمَوْتِ﴾[1].

وفي آية أخرى، أشار الله (سبحانه وتعالى) إلى موت النبيّ الكريم ﷺ - أشرف المخلوقات - ليثبت لهم أنّ الموت محتوم على الجميع، فقال:

﴿وَما جَعَلْنا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ اَفَاِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخالِدُونَ﴾[2].

٢. استذكار الموت

على الرّغم من أنّ الأنبياء الإلهيّين لطالما أكدوا على أنّ غاية الإنسان هي الآخرة وأنّ الدنيا دار عبور ومرور، بيد أنّ غفلة الإنسان جعلته ينسى المقصود والغاية النهائيّة ويصرف جلّ همّه على الدنيا الفانية. ولعلّ استذكار الموت من أهمّ العوامل الّتي تجسد للإنسان فناء الدنيا وزوالها وتزيد من اهتمامه بدار البقاء والخلود؛ ولذا شدّد رسول الله ﷺ على أنّ أشدّ النّاس فطنةً أكثرهم ذكراً للموت، فقال:

«أَكْيَسُ النَّاسِ مَنْ كَانَ أَشَدَّ ذِكْراً لِلْمَوْتِ»[3].

ولمّا كان الموت هادماً للّذات الدنيويّة؛ فإنّ استذكاره يمنع الإنسان من الانهماك في الشّهوات؛ ومن هنا قال أمير المؤمنين عليه السلام نقلاً عن رسول الله ﷺ:

«أَكْثِرُوا ذِكْرَ الْمَوْتِ؛ فَإِنَّهُ هَادِمُ اللَّذَّاتِ، حَائِلٌ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الشَّهَوَاتِ»[4].

٣. أسباب الخوف من الموت

إذا ما نسي الإنسان الموت فإنّه سيهمل آثاره المعرفيّة والتربويّة بلا ريب، وسيخاف منه خوفاً شديداً، ويمكن حصر أسباب الخوف من الموت بما يأتي:

---

١. سورة آل عمران: الآية ١٨٥؛ سورة الأنبياء: الآية ٣٥؛ سورة العنكبوت: الآية ٥٧.

٢. سورة الأنبياء: الآية ٣٤.

٣. الصدوق، من لايحضره الفقيه، ج٤، ص٣٩٥.

٤. الطوسي، الأمالي، ص٢٧؛ و أيضاً انظر: ابن أشعث، الجعفريات، ص١٩٩؛ ابن شعبة الحرّاني، تحف العقول عن آل الرسول صلى الله عليهم، ص١٧٨؛ المفيد، الأمالي، ص٢٦٤.

أ) الشغف الشديد بالدنيا: فالحبّ الشديد للدنيا يجعل الحياة الماديّة هدفاً نهائيّاً وغايةً قصوى للإنسان، فنجده يسعى إلى الخلود في دار الدنيا ليتمتع بلذائذها وبهارجها المختلفة؛ وبالتالي فهو يخشى كلّ ما من شأنه أن يفرّق بينه وبينها ويقلّل من ارتباطه بها. في هذه الحالة، يُصبح الموت عاملاً يبعّد بين الإنسان وبين آماله وتطلّعاته ولذّاته، ولا ريب في أنّه حينئذٍ يكتسب صورة مخيفة من وجهة نظر هذا الإنسان.

ب) اعتبار الموت فناءاً: قد يجهل الإنسان حقيقة الموت الّتي هي العبور من دار الفناء إلى دار البقاء، فيظنّ أنّه نهاية الوجود؛ ولذا يخاف منه باعتبار أنّه أمر مؤلم ومريع يأخذه إلى الظّلمة والعدم.

ج) الخوف من الأعمال: هذا العامل يختصّ بمن يؤمن بالمعاد أو لا أقلّ يحتمل وقوعه؛ فمثل هذا الإنسان يخشى من الموت لخلوّ سجلّه من الأعمال الصالحة في دار الدنيا ولتصوّر أنّه شخص مذنب؛ لأنّه يعلم أنّ الموت يعني نهاية المهلة الّتي أعطيت له وحلول وقت محاسبته. وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا العامل حينما ذكر أنّ اليهود لا يتمنّون الموت أبداً بسبب أعمالهم السيّئة، فقال:

﴿وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾[1].

ولمّا سُئل الإمام الحسن المجتبى عليه السلام: ما بالنا نكره الموت ولا نحبّه؟ ذكر السّبب الرئيس للخوف من الموت في سياق مثال لطيف، فقال:

«إِنَّكُمْ أَخْرَبْتُمْ آخِرَتَكُمْ وَعَمَّرْتُمْ دُنْيَاكُمْ، وَأَنْتُمْ تَكْرَهُونَ النُّقْلَةَ مِنَ الْعُمْرَانِ إِلَى الْخَرَابِ»[2].

٤. حالة الاحتضار

حقيقة الموت هي خروج الرّوح من الجسد، فيحلّ بالإنسان عند بلوغ الأجل وانقضاء مهلته في الحياة الدنيا، ويطلق على الفترة الزمنية الّتي تنفصل فيها روح الإنسان عن جسده «الاحتضار»، والحالة الّتي يمرّ بها الشّخص «حالة الاحتضار»، والشخص الّذي تنفصل روحه

---

١. سورة الجمعة: الآية ٧.

٢. الصدوق، معاني الأخبار، ص٣٨٩.

عن جسده «المحتضِر». ويبدو أنّ هذه التسمية جاءت نتيجة لحضور الملائكة أو حضور الأصدقاء والأقارب بين يدي المحتضِر.

٥. سكرات الموت

إنّ الموت من جهة يفرض على الشّخص قطع ارتباطه بالأمور الدنيويّة كالأموال والأولاد، ومن جهة أخرى يضع الإنسان أمام وضع مجهول بالنسبة إليه، وهذا يوجد لديه حالة خاصة عند الاحتضار. وبسبب التغيير الكبير والعميق الّذي يطرأ على الإنسان بفعل هذه الحادثة، والشدّة والمشقّة الهائلة الّتي يعاني منها، يصاب بحالة شبيهة بالسكر والدوار، يعبّر عنها بـ«سكرات الموت»؛ ولذا قالوا بأنّ سكرة الموت هي الشدّة الّتي تغلب العقل وتذهل الإنسان[١]. وقال القرآن الكريم في هذا المضمار:

﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذٰلِكَ ما كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾[٢].

وفي هذا السّياق، أكد أمير المؤمنين عليّ عليه السلام على أنّ شدائد الموت تفوق تصوّر العقل البشري، وقال:

«إِنَّ لِلْمَوْتِ لَغَمَرَاتٍ هِيَ أَفْظَعُ مِنْ أَنْ تُسْتَغْرَقَ بِصِفَةٍ أَوْ تَعْتَدِلَ عَلَى عُقُولِ أَهْلِ الدُّنْيَا»[٣].

٦. مشاهدة ملك الموت و أولياء الله

إنّ لقبض الرّوح طريقة خاصّة، تختلف باختلاف الإنسان وكونه مؤمناً أو كافراً، مُتديّناً أو متهتّكاً، مذْنباً أو صالحاً.

تبدأ قصة الموت بتكليف ملك الموت أو عزرائيل بالتواجد عند المحتضِر بعد تلقّي الأوامر من الله (سبحانه وتعالى) لقبض روح الشّخص، ويكون له عدد من الأعوان للقيام بهذه المهمّة، وعندئذٍ يرى الإنسان حين الموت ملك الموت أو أحد أعوانه؛ لكنّ شكل هذا الملك وكيفيّة

---

١. انظر: القرشي، قاموس القرآن، ج٣، ص٢٨٢.

٢. سورة ق: الآية ١٩.

٣. نهج البلاغة، الخطبة ٢٢١، ص٣٤١.

أخذ روح الإنسان تختلف باختلاف عقيدته وصحيفة أعماله.

وثمّة أهميّة كبرى لحضور النبيّ ﷺ والأئمّة الأطهار ﵈ عند الاحتضار؛ حيث يسهم هذا الحضور بتسكين قلب المؤمن واستبدال خوفه بالطمأنينة والارتياح، فتبدو عليه علامات الفرح والسرور عند الانتقال إلى عالم آخر نتيجة بشائر أهل البيت ﵈ له. وعلى العكس من ذلك، يؤدّي هذا الحضور إلى صعوبة احتضار الكافرين والمنافقين، وتزداد عليهم المصائب وتتوالى الكوارث بإخبارهم بأنّهم مخلّدون في العذاب[1].

وذهب العلّامة المجلسي إلى تواتر الأحاديث حول حضور الأئمّة المعصومين ﵈ عند فراش المحتضر؛ ولذا صرّح الإمام عليّ ﵇ في أبيات معروفة لحارث الهمداني أنّه يحضر كلّ ميت، قائلاً:

يا حارُ همدانَ مَن يمتْ يرني ... مِن مؤمنٍ أو منافقٍ قبُلاً[2]

ثمّ إنّ ملك الموت مطيع لأهل البيت ﵈ تماماً، فلا يعدو أمرهم في طريقة قبض الأرواح؛ وعليه فقد أوصى الأئمّة المعصومون ﵈ بقبض أرواح المؤمنين بمنتهى الرفق[3].

٧. قبض الرّوح

بوسع ملك الموت قبض أرواح كثير من النّاس في لحظة واحدة، وهذا الأمر يعود إلى سلطة عزرائيل في قبض الأرواح. من هنا، ورد في أحد الأحاديث أنّ النبيّ الكريم ﷺ التقى ليلة المعراج بملك الموت، وسأله عن كيفيّة قبض أرواح أعداد كبيرة من النّاس في آن واحد، فردّ عليه قائلاً:

«مَا الدُّنْيَا كُلُّهَا عِنْدِي ـ فِي مَا سَخَّرَهَا اللهُ لِي وَمَكَّنَنِي مِنْهَا ـ إِلَّا كَالدِّرْهَمِ فِي كَفِّ الرَّجُلِ، يُقَلِّبُهُ كَيْفَ يَشَاءُ».

---

١ . انظر: المجلسي، حقّ اليقين، ص٤٠٢.

٢ . المجلسي، حقّ اليقين، ص٤٠٢؛ المجلسي، بحار الأنوار، ج٦، ص١٨٠، باب ما يعاين المؤمن والكافر عند الموت و حضور الأئمة ﵈ عند ذلك.

٣ . انظر: المجلسي، حقّ اليقين، ص٤٠٤.

ما يعني قدرته على أخذ أرواح أشخاص كثيرين في لحظات قصيرة. وتأكيداً على هذه القدرة وهذا التسلط في عمله، أردف ملك الموت قائلاً:

«مَا مِنْ دَارٍ إِلَّا وَأَنَا أَتَصَفَّحُهَا كُلَّ يَوْمٍ خَمْسَ مَرَّاتٍ»[١].

٨. الفرق بين موت المؤمن والكافر

بناءً على ما ذكرنا فإنّ روح المؤمن تُقبض بيسر ورفق، بينما تُقبض روح الكافر بشدّة وغلظة، ويمكن مشاهدة هذا التباين بوضوح في بعض الآيات والروايات؛ حيث أكدت على أنّ الملائكة تتوفى المؤمن بسلام مع التبشير بدخول الجنّة، في حين ينتظر الكافرَ موت مصحوب بالألم والعذاب. قال (سبحانه وتعالى):

﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[٢].

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾[٣].

وفي الرّوايات أيضاً، أشير إلى سهولة قبض روح المؤمن وصعوبة قبض روح الكافر: قيل للصادق عليه السلام: صف لنا الموت، قال:

«لِلْمُؤْمِنِ كَأَطْيَبِ رِيحٍ يَشَمُّهُ فَيَنْعُسُ لِطِيبِهِ، وَيَنْقَطِعُ التَّعَبُ وَالْأَلَمُ كُلُّهُ عَنْهُ، وَلِلْكَافِرِ كَلَسْعِ الْأَفَاعِيِ وَلَدْغِ الْعَقَارِبِ وَأَشَدَّ»[٤].

ويُستثنى من هذه القاعدة العامّة المؤمن المرتكب للمعاصي والكافر الّذي لديه أعمال صالحة؛ حيث يتحمّل هذا المؤمن صعوبة في انتزاع روحه من جسده بعنوان: آخر ألمٍ يُصيبه؛ ليكون كفّارة لأوزاره ومحوها وتصفية له من الذّنوب؛ بينما يواجه الكافر سهولة في نزع روحه

---

١ . القمي، تفسير القمي، ج٢، ص٥.

٢ . سورة النحل: الآية ٣٢.

٣ . سورة الأنفال: الآية ٥٠.

٤ . الصدوق، عيون أخبار الرّضا عليه السلام، ج١، ص٢٧٤؛ و أيضاً انظر: الكليني، الكافي، ج٣، ص١٣٤؛ الصدوق، من لايحضره الفقيه، ج١، ص١٣٥.

بعنوان: آخر لذّة وراحة تلحقه في دار الدنيا؛ لتصفيته من الحسنات[1].

على أنّ ما أشرنا له في هذا الدّرس ليس إلّا جانب من أمور كثيرة تناولتها الآيات والروايات حول الظروف المحيطة بالموت، وما تأكيد الأنبياء الإلهيين على الإحاطة بهذه الأمور إلّا لأجل تنبيههم إلى وعورة طريق الموت وما يلاقونه فيه من صعوبات جمّة، ولزوم الاستعداد لتلك المرحلة. وقد شدّد الأئمّة الميامين عليهم السلام على أنّ استعداد الإنسان للموت حقّ الاستعداد أنفع له من الدّواء المستخدم للعلاج؛ لأنّه يؤدّي إلى أفضل النعيم أشدّ ممّا يستدعي العاقل الحازم الدواء لدفع الآفات واجتلاب السلامات[2].

❁ الأسئلة

١. اشرح حقيقة الموت، وبيّن ما معنى الاحتضار؟ ولماذا سُمّي بهذا الاسم؟

٢. لماذا يخاف الإنسان من الموت؟

٣. ما المُراد من سكرات الموت؟ ولماذا سُمّيت بهذا الاسم؟

٤. اشرح أحوال المؤمن عند الاحتضار وما يمرّ به بعد الموت.

❁ موضوع للبحث

- شُبّه الموت في الآيات والروايات بحالة النوم، فما وجه الشَّبَه بين الاثنين؟ ابحث ذلك في الدّرس.

---

١. انظر: الصدوق، معاني الأخبار، ص٢٨٩؛ الصدوق، الاعتقادات، ص٥٤، الشعيري، جامع الأخبار، ص١٦٨.

٢ انظر: الصدوق، معاني الأخبار، ص٢٩٠؛ الصدوق، الاعتقادات، ص٥٥.

٥١

القبر وعالم البرزخ

تحدثنا في الدّرس السابق عن أحوال الإنسان عند الموت. وفي هذا الدّرس، سنتعرّف إلى أحواله وأوضاعه في المراحل الواقعة بين الموت والقيامة، وهو ما يسمّى بـ«عالم البرزخ»، وسنركز فيه على أبحاث أساسيّة تشمل الأبعاد الزمانيّة والمكانيّة للبرزخ وما يواجهه الإنسان في هذه المسيرة.

يطلق البرزخ في اللغة على الحدّ والحاجز بين الشيئين[١]. وأمّا في اصطلاح علم الكلام فالبرزخ يعني ما بين الموت والبعث[٢]، ويسمّون الحوادث الّتي تقع خلال هذه المدّة باسم «أحوال عالم البرزخ». وعليه، تستقرّ روح الإنسان بعد الموت في عالم خاصّ هو عالم البرزخ، وتواصل البقاء فيه حتّى شروع يوم القيامة. ومنه يستفاد أنّ البرزخ يطلق على ذلك الزّمان الخاصّ والمكان الخاصّ الّذي يقضي فيه الإنسان فترة ما بعد الموت إلى القيامة.

وبما أنّ ثمّة أدلّة وشواهد كثيرة تفيد بقاء روح الإنسان بعد الموت، ومن البديهي أنّ القيامة لم تقم بعد؛ بل إنّها تتحقّق في المستقبل طبقاً لظروف معينة، وفيها يتحدّد المصير النهائي للإنسان، لا بدّ حينئذٍ من وجود عالم خاصّ للأرواح تبقى فيه بعد الموت حتّى يوم القيامة.

---

١ . انظر: الراغب الإصفهاني، المفردات في غريب القرآن، ص١١٨؛ القرشي، قاموس القرآن، ج١، ص١٨١.

٢ . انظر: سميح دغيم، موسوعة مصطلحات علم الكلام الإسلامي، ج١، ص٢٨٠.

١. البرزخ في القرآن والأحاديث

أثبت القرآن الكريم وجود عالم باسم «عالم البرزخ»، وأشار إلى وجود برزخ للمؤمنين والكفّار أيضاً؛ فشدّد على أنّ الّذين يُقتلون في سبيل الله أحياء يتمتعون بالنِّعم الإلهيّة، وقال:

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾[١].

وردّ على الكفّار الّذين يطلبون الرجوع إلى الدنيا بعد الممات بعدم إمكان ذلك، مؤكداً على لزوم بقائهم في البرزخ حتّى يوم القيامة:

﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ * لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾[٢].

وأعرب الإمام أبوعبد الله الصادق عليه السلام عن خوفه على الشّيعة من البرزخ بعدما طمأنهم بدخول الجنّة:

«... لَكِنِّي وَاللهِ أَتَخَوَّفُ عَلَيْكُمْ فِي الْبَرْزَخِ. قُلْتُ: وَمَا الْبَرْزَخُ؟ قَالَ: الْقَبْرُ مُنْذُ حِينِ مَوْتِهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»[٣].

وعلى هذا الأساس، فمن المسلّم به وجود عالم بعد الموت حتّى يوم القيامة، وحيث إنّ الكفّار حينما يرون هذا العالم يسألون الله الرجوع إلى الدنيا، وإنّ الشهداء تغمرهم النِّعم الإلهيّة في هذا العالم، يتّضح أنّ منزلة الإنسان في البرزخ رهن بعقيدته وأعماله في الحياة الدنيا وتختلف باختلافها؛ وهذا ما دعا إلى الحديث عن جنّة برزخية وجهنّم برزخية، يختلفان عن الجنّة والنّار في عالم الآخرة.

من هنا، ذكر الإمام عليّ بن الحسين السجّاد عليه السلام في تفسيره لقوله (سبحانه وتعالى): ﴿وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾[٤] أنّ البرزخ هو القبر، مشدّداً على أنّه روضة من رياض الجنّة أو حفرة

---

١. سورة آل عمران: الآية ١٦٩.

٢. سورة المؤمنون: الآيتان ٩٩-١٠٠.

٣. الكليني، الكافي، ج٣، ص٢٤٢.

٤. سورة المؤمنون: الآية ١٠٠.

من حفر النيران:

«قَالَ: هُوَ الْقَبْرُ، وَإِنَّ لَهُمْ فِيهِ لَمَعِيشَةً ضَنْكاً، وَاللهِ! إِنَّ الْقَبْرَ لَرَوْضَةٌ مِنْ رِيَاضِ الْجَنَّةِ أَوْ حُفْرَةٌ مِنْ حُفَرِ النَّارِ»[١].

٢. محلّ البرزخ ومدّته

في ضوء قوله (سبحانه وتعالى): ﴿وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾، أكدت روايات كثيرة على أنّ البرزخ يبتدأ بالموت ويستمرّ حتّى شروع القيامة. وعليه، فنهاية البرزخ واحدة لجميع النّاس، لكنّ بدايته تختلف باختلاف زمن وفاتهم، فمنهم من مات قبل آلاف السنين ومنهم من لم يُخلق بعد وسوف يُخلق ويموت في المستقبل، وهكذا ابتدأ البرزخ منذ آلاف السنين ويستمرّإلى يوم القيامة.

وفي ما يتعلّق بمحلّ البرزخ، لا بدّ من الالتفات إلى وجود نوعين من الحوادث البرزخيّة: الأولى تقع في القبر ويشارك فيها الجسد، والأخرى حوادث ما بعد القبر الّتي ترتبط بالروح فقط[٢]. وعلى هذا الأساس، فمحلّ البرزخ هو القبر والأماكن الّتي تتواجد فيها الأرواح في تلك الفترة. وفي المرحلة الثّانية من حوادث البرزخ، تكون الرّوح أمام أحد أمرين حسبما يقتضيه الحساب الأولي في القبر، فإما أن تعيش في برزخ من نعيم الجنان أو عذاب النيران؛ ولذا ورد في بعض الرّوايات أنّ أرواح المؤمنين تجتمع في وادي السلام وأرواح الكافرين في وادي برهوت.

٣. القبر أوّل مراحل عالم البرزخ

يعدّ القبر الّذي يدخله الإنسان بعد خروجه من الدنيا أوّل مراحل البرزخ وأول منزل من منازل الآخرة أيضاً[٣]. وفي هذا السّياق، أكد النبيّ الكريم ﷺ على أنّ القبر أوّل منازل الآخرة وأشدّها على الإنسان؛ فقال:

---

١. الصدوق، الخصال، ج١، ص١١٩.

٢. انظر: المجلسي، حقّ اليقين، ص٤٠٥.

٣. هذا يعني أنّ الآخرة هي مراحل ما بعد الموت الّتي تبتدأ بالبرزخ حتّى تصل إلى القيامة ومراحلها، وتنتهي مسيرتها بالخلود في الجنّة أو النار.

«إِنَّ الْقَبْرَ أَوَّلُ مَنَازِلِ الْآخِرَةِ، فَإِنْ نَجَا مِنْهُ فَمَا بَعْدَهُ أَيْسَرُ مِنْهُ، وَإِنْ لَمْ يَنْجُ مِنْهُ فَمَا بَعْدَهُ لَيْسَ أَقَلَّ مِنْهُ»[1].

وفي ضوء هذه الطائفة من الأحاديث، يحظى القبر بأهمية كبيرة، بحيث تتوقف عليه طبيعة المراحل اللاحقة؛ فإن استطاع الإنسان النجاة من حساب القبر واجتياز هذه المرحلة بنجاح، تهون عليه المراحل التالية في عالم الآخرة، ومن الممكن أن يحدوه الأمل في عبورها بسلام؛ وإما إن فشل في تجاوز الحساب في القبر بنجاح ستكون أمامه مراحل أشدّ وطأةً. وعليه، لا بدّ من مشاهدة ما الّذي يجري في القبر وكيف تمرّ هذه المرحلة الخطيرة من مراحل عالم الآخرة على الإنسان؟

٣.١. السّؤال والجواب في القبر

من أهم الحوادث الّتي تقع في القبر هي سؤال القبر؛ حيث يترتب عليها حوادث أخرى من سلسلة حوادث القبر والبرزخ. من هنا، يحظى سؤال القبر بأهمية فائقة، ويجب أن نرى عمّ يُسأل الإنسان هناك؟ ومن السائل؟ ومن المخاطب بالأسئلة؟ وأين يقع هذا السّؤال والجواب؟ والنقطة المهمة الأخرى هي هل إنّ سؤال القبر عامّ وشامل لجميع النّاس أم يقتصر على فئة خاصّة منهم؟

تحدّثت الرّوايات الإسلاميّة عن موضوع سؤال القبر، وأفادت أنّ من يقوم بعملية السّؤال هناك هما ملكان باسم «منكر» و«نكير»، وفي بعض الرّوايات «ناكر» و«نكير»، يدخل أحدهما من الجانب الأيمن للقبر ويدخل الآخر من الجانب الأيسر ليقوما بالمهمة الموكلة إليهما. وقد صوّر النبيّ الأكرم ﷺ هذه الواقعة بالشكل الآتي:

«إِنَّ مَلَكَيْنِ لِلهِ (سبحانه وتعالى) يُقَالُ لَهُمَا: نَاكِرٌ وَنَكِيرٌ، يَنْزِلَانِ عَلَى الْمَيِّتِ فَيَسْأَلَانِهِ عَنْ رَبِّهِ وَنَبِيِّهِ وَدِينِهِ وَإِمَامِهِ، فَإِنْ أَجَابَ بِالْحَقِّ سَلَّمُوهُ إِلَى مَلَائِكَةِ النَّعِيمِ، وَإِنِ ارْتَجَّ عَلَيْهِ سَلَّمُوهُ إِلَى مَلَائِكَةِ الْعَذَابِ»[2].

---

١ . الشعيري، جامع الأخبار، ص١٦٩؛ الفتال النيشابوري، روضة الواعظين، ج٢، ص٤٩٤.

٢ . الراوندي، الدعوات، ص٢٨٠؛ أيضاً انظر: الطوسي، الأمالي، ص٣٤٨؛ الكوفي الأهوازي، الزهد، ص٨٨؛ الصفار، بصائر ☜

وذكر الإمام عليّ بن الحسين السجّاد عليه السلام تفاصيل أوفى عن أسئلة القبر، قائلاً:

«كَأَنْ قَدْ أَوْفَيْتَ أَجَلَكَ، وَقَبَضَ الْمَلَكُ رُوحَكَ، وَصِرْتَ إِلَى قَبْرِكَ وَحِيداً، فَرَدَّ إِلَيْكَ فِيهِ رُوحَكَ، وَاقْتَحَمَ عَلَيْكَ فِيهِ مَلَكَانِ - نَاكِرٌ وَنَكِيرٌ - لِمُسَاءَلَتِكَ وَشَدِيدِ امْتِحَانِكَ. أَلَا وَإِنَّ أَوَّلَ مَا يَسْأَلَانِكَ عَنْ رَبِّكَ الَّذِي كُنْتَ تَعْبُدُهُ، وَعَنْ نَبِيِّكَ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكَ، وعَنْ دِينِكَ الَّذِي كُنْتَ تَدِينُ بِهِ، وَعَنْ كِتَابِكَ الَّذِي كُنْتَ تَتْلُوهُ، وَعَنْ إِمَامِكَ الَّذِي كُنْتَ تَتَوَلَّاهُ، ثُمَّ عَنْ عُمُرِكَ فِي مَا كُنْتَ أَفْنَيْتَهُ؟ وَمَالِكَ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبْتَهُ؟ وَفِي مَا أَنْتَ أَنْفَقْتَهُ؟»[1].

والآن لا بدّ من أن نرى، هل المخاطب في هذه الأسئلة هي روح الإنسان أم الرّوح والبدن معاً؟ قال الإمام أبوجعفر الباقر عليه السلام في هذا الخصوص:

«فَإِذَا دَخَلَ حُفْرَتَهُ رُدَّتِ الرُّوحُ فِي جَسَدِهِ وَجَاءَهُ مَلَكَا الْقَبْرِ فَامْتَحَنَاهُ»[2].

وعلى هذا الأساس، فالمسؤول هو الرّوح بعدما تعاد إلى البدن في القبر[3]، وذهبت بعض الرّوايات إلى تفاصيل دقيقة حول عودة الرّوح إلى البدن، مؤكدة على أنّها لا تعاد إلى تمام البدن ليستعيد حياةً كحياته الدنيوية؛ بل إنّ تعلّق الرّوح بالبدن يكون بقدر فهم الأسئلة المُلقاة إلى الإنسان والردّ عليها فقط[4].

النقطة الأخرى الّتي أشير لها في الرّوايات هي أنّ الأعمال الصالحة والصفات الحسنة للمؤمن تقف إلى جانب الإنسان وتساعده عند سؤال القبر. قال الإمام أبوعبد الله الصادق عليه السلام في هذا المجال:

«إِذَا دَخَلَ الْمُؤْمِنُ قَبْرَهُ كَانَتِ الصَّلَاةُ عَنْ يَمِينِهِ وَالزَّكَاةُ عَنْ يَسَارِهِ وَالْبِرُّ يُطِلُّ

☜ الدرجات، ص٤٩٨.

١ . الكليني، الكافي، ج٨، ص٧٢؛ المجلسي، بحار الأنوار، ج٦، ص٢٢٣.

٢ . الكليني، الكافي، ج٣، ص٢٣٤؛ المجلسي، بحار الأنوار، ج٦، ص٢٥٩.

٣ . من الواضح أنّ رجوع الروح إلى البدن في القبر يختصّ بمن يدفن تحت التراب، وأمّا من تكون أجسادهم في موضع آخر أو تتلاشى فتتحقّق لهم هذه الحالة في ظروف مغايرة.

٤ . الكليني، الكافي، ج٣، ص٢٣٩؛ المجلسي، بحار الأنوار، ج٦، ص٢٦٤.

عَلَيْـهِ، وَيَتَنَحَّـى الصَّبْرُ نَاحِيَـةً، وَإِذَا دَخَـلَ عَلَيْـهِ الْمَلَكَانِ اللَّذَانِ يَلِيَـانِ مُسَـاءَلَتَهُ قَـالَ الصَّبْرُ لِلصَّـلَاةِ وَالزَّكَاةِ: دُونَكُمَـا صَاحِبَكُـمْ، فَـإِنْ عَجَزْتُـمْ عَنْـهُ فَأَنَـا دُونَـهُ»[١].

باختصار يمكن القول: إنّ أسئلة القبر نوع من الحساب في القبر لكشف حالة الإنسان في عالم البرزخ، وهذا الحساب ناشئ من أعمال الإنسان ومعتقداته في دار الدنيا؛ فإن كانت اعتقاداته غير صحيحة كان عليه تحمّل العذاب الدائم في القبر والبرزخ، وإن استطاع الخروج من دائرة السؤالات العقديّة مرفوع الرأس، وكانت أعماله مخالفة لمعتقداته، يعذَّب في القبر عذاباً مؤقّتاً لتطهيره من الرذائل.

ويستفاد من مجموع الأدلة الروائيّة أنّ الحساب في القبر لأجل عالم البرزخ، ولا يحاسب الإنسان فيه إلّا على أصول العقائد والأعمال، وأمّا في القيامة فيحاسب على جميع التفاصيل الفكريّة والسلوكيّة.

٢.٣. ضغطة القبر وعذابه

بعد سؤال القبر ومعرفة المؤمن من الكافر والمحسن من المسيء، تبدأ مرحلة عذاب القبر للكافرين وضغطة القبر للمؤمنين المذنبين.[٢]

وما ذُكر تحت عنوان «ضغطة القبر» يعدّ من أشدّ أنواع العذاب الإلهيّ في عالم البرزخ، وقلّما يفلت منها أحد؛ ولذا استعاذ منها الإمام أبوعبد الله الصادق عليه السلام وأخبر عن قلّة الناجين منها، فروي:

«عَنْ أَبِي بَصِيرٍ، قَالَ: قُلْتُ لِأَبِي عَبْدِ اللهِ عليه السلام: أَيُفْلِتُ مِنْ ضَغْطَةِ الْقَبْرِ أَحَدٌ؟ قَالَ: فَقَالَ: «نَعُوذُ بِاللهِ مِنْهَا، مَا أَقَلَّ مَنْ يُفْلِتُ مِنْ ضَغْطَةِ الْقَبْرِ»[٣].

ويستفاد من الرّوايات المأثورة عن أهل البيت عليهم السلام أنّ هذه الضغطة لا تختصّ بالقبر فحسب؛ بل إنّ الإنسان يتعرّض في هذه المرحلة إلى ضغط شديد؛ ولذا ذكروا أنّ الضغطة

---

١. الكليني، الكافي، ج٣، ص٢٤٠؛ المجلسي، بحار الأنوار، ج٦، ص٢٦٥.

٢. انظر: الحلي، مختصر البصائر، ص٤٠١؛ المجلسي، بحار الأنوار، ج٦، ص٢٣٣.

٣. الكليني، الكافي، ج٣، ص٢٣٦.

تشمل حتّى من لا يُدفن في الأرض أيضاً:

سئل أبوعبدالله ﷺ عن المصلوب، يصيبه عذاب القبر؟ فقال:

«إِنَّ رَبَّ الْأَرْضِ هُوَ رَبُّ الْهَوَاءِ، فَيُوحِي اللهُ (عَزَّ وَجَلَّ) إِلَى الْهَوَاءِ فَيَضْغَطُهُ ضَغْطَةً أَشَدَّ مِنْ ضَغْطَةِ الْقَبْرِ»[١].

وهكذا يتّضح أنّ ضغطة القبر تحدث عند تعلّق الرّوح بالبدن مرّة أخرى؛ ولذا فهي تدرك الضغط الوارد على البدن وتتحمّل العذاب الجسماني.

٣.٣. العوامل المانعة من ضغطة القبر وعذاب القبر

انطلاقاً من هذا الخطر الّذي يهدّد الإنسان بعد الموت، من اللازم معرفة العوامل الّتي تحول دون ضغطة القبر وعذاب القبر؛ ليتسنّى العمل على جعل القبر مليئاً بالنور والسرور بدلاً من الضيق والعذاب الأليم.

أشير في الرّوايات بشكل تفصيلي إلى العوامل المؤدّية إلى ضغطة القبر وعذاب القبر والأمور الّتي تحول دون ذلك؛ ما يجعل الإنسان قادراً على تخليص نفسه وإنقاذها من هذا العذاب الأليم.

وكما تقدّمت الإشارة، يُسأل الشّخص في القبر عن ربّه ونبيّه وإمامه ودينه وكتابه وعمره وماله، ومع أنّ أغلب تلك الأسئلة عقدية إلّا أنّ الإنسان يُسأل عن أعماله أيضاً، وعدم الإجابة الصحيحة عن تلكم الأسئلة العقديّة يكشف عن كفر الشّخص ويستلزم مكوثه في عذاب القبر، فيبقى على هذه الحال طيلة فترة البرزخ. وأمّا المؤمنون الّذين يجيبون عن الأسئلة العقديّة بصورة صحيحة؛ فلابدّ لهم من تحمّل نتائج أعمالهم وتصرّفاتهم وأخلاقياتهم أيضاً؛ ولذا يبدو أنّ ضغطة القبر ما هي إلّا عذاب مؤقّت للمؤمنين الّذين يخالفون بعض الأوامر الإلهيّة ويعانون من ضعف أخلاقي معين؛ ولهذا السّبب أكد رسول الله ﷺ على أنّ ضغطة القبر تختصّ بمن ضيّع النِّعم الإلهيّة من المؤمنين، فقال:

---

١. الكليني، الكافي، ج٣، ص٢٤١؛ الصدوق، من لايحضر الفقيه، ج١، ص١٩٢.

«ضَغْطَةُ الْقَبْرِ لِلْمُؤْمِنِ كَفَّارَةٌ لِمَا كَانَ مِنْهُ مِنْ تَضْيِيعِ النِّعَمِ»[١].

وقد شدّدت الرّوايات على أنّ عذاب القبر ناجم عن المعرفة غير الصحيحة بالعقائد الدّينيّة؛ ومن هنا اعتبر الإمام أبوجعفر الباقر عليه السلام الجواب الصحيح عن نعمة الإمامة سبباً للنجاة من عذاب القبر، فقال ردّاً على من سأله «عمّ يُسأل أهل القبور»:

«عَنِ الْحُجَّةِ الْقَائِمَةِ بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ، فَيُقَالُ لِلْمُؤْمِنِ: مَا تَقُولُ فِي فُلَانِ بْنِ فُلَانٍ؟ فَيَقُولُ: ذَاكَ إِمَامِي. فَيَقُولُ: نَمْ أَنَامَ اللهُ عَيْنَيْكَ، وَيُفْتَحُ لَهُ بَابٌ مِنَ الْجَنَّةِ، فَمَا يَزَالُ يُتْحِفُهُ مِنْ رَوْحِهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ. وَيُقَالُ لِلْكَافِرِ: مَا تَقُولُ فِي فُلَانِ بْنِ فُلَانٍ؟ قَالَ: فَيَقُولُ: قَدْ سَمِعْتُ بِهِ وَمَا أَدْرِي مَا هُوَ. فَيُقَالُ لَهُ: لَا دَرَيْتَ. قَالَ: وَيُفْتَحُ لَهُ بَابٌ مِنَ النَّارِ، فَلَا يَزَالُ يُتْحِفُهُ مِنْ حَرِّهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»[٢].

وكما إنّ العقيدة غير الصحيحة توجب لصاحبها عذاب النار، كذلك الإخلاق الذميمة والأعمال القبيحة كسوء الخلق وتضييع النِّعم، وورد أيضاً أنّ النميمة وعدم التحرّز من البول يوجبان عذاب القبر[٣].

وحيث إنّ الله (جلّ وعلا) يتعامل مع عباده المؤمنين بلطف ورحمة، لفت إلى أمور لو قام بها العبد لجنّبته ضغطة القبر وأبعدت عنه عذابه، منها: الدوام على تلاوة سورة النساء في كلّ جمعة، وتلاوة سورة الملك، وقراءة آية الكرسي، مضافاً إلى صيام أربعة أيام من شهر رجب، وملازمة الوضوء، والركوع الكامل في الصلاة، كما ورد أنّ موت المؤمن يوم الجمعة يرفع عنه ضغطة القبر[٤]. ومن العوامل الأخرى الّتي تدفع عن المؤمن ضغطة القبر، حجّ بيت الله الحرام.[٥]

---

١ . الصدوق، الأمالي، ص٥٤٠.

٢ . الكليني، الكافي، ج٣، ص٢٣٨؛ المجلسي، بحار الأنوار، ج٦، ص٢٦٢.

٣ . انظر: الصدوق، علل الشرايع، ج١، ص٣٠٩؛ الحرّ العاملي، وسائل الشيعة، ج١، ص٣٣٩.

٤ . لمزيد من المطالعة في خصوص العوامل الّتي ترفع ضغطة القبر، انظر: المجلسي، بحار الأنوار، ج٦، الباب ٨ أحوال البرزخ والقبر وعذابه.

٥ . «من حجّ أربع حجج لم تصبه ضغطة القبر أبداً» (الصدوق، من لايحضره الفقيه، ج٢، ص٢١٧؛ الصدوق، الخصال، ج١، ص٢١٥).

٤. ارتباط أهل البرزخ بالدنيا

تفيد بعض الآيات والروايات المأثورة عن أهل البيت عليهم السلام أنّ أهل البرزخ أحياء ويرون ما يجري على أهلهم، وتؤكد على ارتباطهم بالدنيا، على أنّ مقدار ارتباطهم رهن بعقيدة الشّخص وأعماله ومنزلته هناك؛ ومن هذه الروايات نورد الرواية الآتية:

عن أبي الحسن الأوّل عليه السلام، قال: سألته عن الميّت يزور أهله؟ قال: «نعم»، فقلت: في كم يزور؟ قال:

«فِي الْجُمْعَةِ وَفِي الشَّهْرِ وَفِي السَّنَةِ، عَلَى قَدْرِ مَنْزِلَتِهِ».

فقلت: في أيّ صورة يأتيهم؟ قال:

«فِي صُورَةِ طَائِرٍ لَطِيفٍ يَسْقُطُ عَلَى جُدُرِهِمْ وَيُشْرِفُ عَلَيْهِمْ، فَإِنْ رَآهُمْ بِخَيْرٍ فَرِحَ، وَإِنْ رَآهُمْ بِشَرٍّ وَحَاجَةٍ حَزِنَ وَاغْتَمَّ».[1]

كما أفادت الرّوايات أنّ المؤمن يزور أهله، فيرى ما يحبّ ويُستر عنه ما يكره، وأنّ الكافر يزور أهله كذلك، فيرى ما يكره ويُستر عنه ما يحبّ[2].

ويستفاد من روايات أخرى أنّ أهل النّار لا يتمتعون بمطلق الحرّية الّتي تمكّنهم من الاطلاع على كلّ ما يجري في الدنيا، فمعلوماتهم محدودة بما يأذن به الله (سبحانه وتعالى). من هنا، لمّا تلتحق روح جديدة بالأرواح الموجودة في البرزخ تجتمع تلك الأرواح حولها وتسألها عن الأصدقاء، ماتوا أو لا زالوا أحياء:

«فَإِذَا قَدِمَتِ الرُّوحُ عَلَى الْأَرْوَاحِ يَقُولُ: دَعُوهَا فَإِنَّهَا قَدْ أَفْلَتَتْ مِنْ هَوْلٍ عَظِيمٍ، ثُمَّ يَسْأَلُونَهَا: مَا فَعَلَ فُلَانٌ وَمَا فَعَلَ فُلَانٌ؟ فَإِنْ قَالَتْ لَهُمْ: تَرَكْتُهُ حَيّاً ارْتَجَوْهُ، وَإِنْ قَالَتْ لَهُمْ: قَدْ هَلَكَ، قَالُوا: قَدْ هَوَى هَوَى»[3].

---

١. الكليني، الكافي، ج٣، ص٢٣٠؛ الحرّ العاملي، الفصول المهمة، ج١، ص٣٢١، باب ٧٠ أنّ أرواح المومنين والكفار تزور أهليهم بعد الموت.

٢. انظر: الكليني، الكافي، ج٣، ص٢٣٠؛ المجلسي، بحار الأنوار، ج٦، ص٢٥٦.

٣. الكليني، الكافي، ج٣، ص٢٤٤.

٥. الرجوع من البرزخ إلى الدنيا

ذكرنا أنّه لما يحين موت الكفّار لا يقبل منهم الله (سبحانه وتعالى) المطالبة بالرجوع إلى الحياة الدنيا، ويُؤمرون بالبقاء في البرزخ إلى يوم القيامة:

﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ * لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾[1].

لكن توجد آيات أخرى أخبرت بإحياء الموتى، وهي تشتمل على الموارد الآتية:

أ) الآيات الّتي أشارت إلى إحياء الموتى لإثبات المعاد عبر مثال حسّي.

ب) الآيات الّتي أنبأت عن معجزة النبيّ عيسى عليه السلام في إحياء الموتى.

ولا اختلاف بين هاتين الطائفتين من الآيات؛ ذلك أنّ إحياء بعض الموتى في هذه الدنيا ليس لأجل إعطائهم فرصة ثانية لتلافي أخطائهم و إصلاح أعمالهم؛ بل هو أمر استثنائي لإثبات المعاد أو للإتيان بمعجزة.

٦. الجنّة والنّار البرزخيان

ذكرنا أنّ المصادر الدّينيّة تحدّثت عن نوعين من الجنّة والنّار: الجنّة والنّار البرزخيين والجنّة والنّار الأخرويين. ومن أبرز الخصائص الّتي تتميز بها الجنّة والنّار البرزخيان أنّهما يقعان في ناحية من نواحي الحياة الدنيا؛ ولذا ففيهما ليل ونهار وسيبقيان إلى يوم القيامة طالما بقيت السماوات والأرض. وعلى العكس من ذلك، ليس في الجنّة والنّار الأخرويين ليل ونهار؛ إذ ليس في الجنّة الأخروية ظلمة، بينما جهنّم الأخروية ظلام مطبق، ويبقى فيهما النّاس إلى الأبد. وقد أشارت الآية الآتية إلى هذين النوعين من النار:

﴿وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ * النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾[2].

---

١ . سورة المؤمنون: الآيتان ٩٩-١٠٠.

٢ . سورة غافر: الآيتان ٤٥-٤٦.

فتحدّثت الآية الشّريفة أعلاه عن كلا النوعين من النّار والعذاب لآل فرعون؛ فالنّار الّتي يُعرضون عليها قبل يوم القيامة وفيها ليل ونهار بنصّ الآية تشيرإلى النّار البرزخيّة، كما إنّ النّار الأخرويّة الّتي تستعر يوم القيامة تنتظر هؤلاء بأشدّ العذاب. والآية الآتية أيضاً تشيرإلى الجنّة البرزخيّة:

﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيّاً﴾[1].

فالآية المتقدّمة تتكلم عن جنّة فيها ليل ونهار، والحال أنّه ليس في الآخرة ليل ونهار؛ وعليه فالآية تتحدّث عن الجنّة البرزخيّة الّتي تكون قبل الآخرة.

وفي ضوء جميع ما تقدّم، يتمّ تحديد المؤمن من الكافربعد سؤال القبروحساب البرزخ، ويُفتح لقبرالمؤمن باب إلى الجنّة البرزخيّة ولقبرالكافرباب إلى النّار البرزخيّة، ثمّ تبقى روح المؤمن في هذه الجنّة في رَوح وريحان ونعيم، وتبقى روح الكافر في النّار البرزخيّة في عذاب وحميم[2].

❁ الأسئلة

١. بيّن زمان البرزخ ومكانه استناداً إلى آية ورواية.
٢. أين يتمّ الحساب في عالم البرزخ؟ وما هي خصوصياته؟
٣. ما الفرق بين الحساب في البرزخ والحساب يوم القيامة؟
٤. من يعذّب بضغطة القبر؟ وكيف يكون ذلك؟ وكيف يمكن التخلص منه؟
٥. ما هي طبيعة ارتباط الموتى بعالم الدنيا؟ اذكربعض الأمثلة الخاصّة على الرجوع إلى الدنيا بعد الموت من القرآن الكريم.
٦. أثبت عن طريق الآيات القرآنيّة وجود جنّة ونار في عالم البرزخ وأنّهما غيرالجنّة والنّار الأخرويين.

---

١. سورة مريم: الآية ٦٢.

٢. انظر: الصدوق، الأمالي، ص٢٩٠؛ و أيضاً انظر: المجلسي، حقّ اليقين، ص٤٢٤-٤٢٥.

* موضوع للبحث

- ورد في بعض الرّوايات أنّ مواصلة الحياة بعد سؤال القبر تختصّ بفئة معينة من النّاس فقط، اكتب بحثاً في هذا الموضوع.

٥٢

الأحوال العامّة للقيامة

بحثنا في الدّروس السّابقة بعض منازل الآخرة ومراحل الموت نحو لاحتضار والموت والقبر وعالم البرزخ، وذكرنا أنّ مرحلة البرزخ، وكذلك حيفة الحياة الدنيا تطوى بحلول يوم القيامة. وفي هذا الدّرس، سنحاول وصف هذه الواقعة الكبرى من زاوية أسمائها، ثمّ نبحث علامات يوم القيامة.

صحيح أنّ زمان وقوع يوم القيامة والساعة الّتي تقع فيها لا يعلمها إلّا الله (سبحانه وتعالى)[1]، وأنّ هذه الحادثة العظيمة تقع بغتةً[2]، لكن ذُكرت علامات لا بدّ من توافرها قبل وقوعها. وقبل كلّ شيءٍ ينبغي الاطلاع على جوانب من حقيقة القيامة عن طريق الأسماء المذكورة لها في القرآن الكريم.

١. أسماء القيامة

يشهد الكون قبل يوم القيامة سلسلة من الحوادث والتغييرات العظيمة في شتّى أرجاء المعمورة، وذلك ضمن أبعاد مختلفة ومتناسبة مع الحوادث الّتي تقع يوم القيامة وتسمّى بتسمية خاصّة.

---

١ . ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ سورة الأعراف: الآية ١٨٧. انظر: القمي، تفسير القمي، ج٢، ص٤٥.

٢ . ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً﴾ سورة محمّد: الآية ١٨. انظر: القمي، تفسير القمي، ج٢، ص٣٠٣.

لقد ذُكر للقيامة ما يقرب من ثمانين اسماً في القرآن الكريم، كلّ واحد منها يكشف عن جانب من هذه الواقعة العظيمة، لكنّ الاسم الأكثر شهرةً واستعمالاً للإشارة إلى هذا اليوم هو «يوم القيامة»[١]؛ حيث ورد في القرآن حدود سبعين مرّة، وهو بمعنى اليوم الّذي يقوم فيه النّاس لربّ العالمين[٢]. كما أطلق عليها في مواضع متعدّدة أيضاً «اليوم الآخِر»[٣] بمعنى المرحلة النهائية، و«يوم الدّين»[٤] بمعنى يوم الجزاء. وكذلك الأسماء الأخرى لهذا اليوم كلّ واحد منها يشير إلى حادثة من الحوادث الّتي تقع فيها؛ فمثلاً أطلق عليها «يوم الحساب»[٥] لوقوع حساب النّاس في هذا اليوم، و«يوم الفصل»[٦]؛ لأنّها تفصل بين المحسنين والمسيئين، و«يوم الجمع»[٧] لاجتماع النّاس كلّهم فيها. وكذلك سُمّيت «يوم الحسرة»[٨] و«يوم التغابن»[٩] لشعور النّاس بالحسرة والغبن في ذلك اليوم، و«يوم الخلود»[١٠] لكون الإنسان يحيا فيها حياةً أبديّةً ودون موت. وبعض التعابير حول يوم القيامة تكشف عن حدوث تغييرات في السماوات والأرض، مثل: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمٰوٰاتُ﴾[١١]، وبعض الآيات القرآنيّة تبيّن حالة الإنسان يوم القيامة، نحو: ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَآئِرُ﴾[١٢]، الّتي تنبئ عن انكشاف الأمور الخفيّة، وكذلك قوله (سبحانه وتعالى): ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ﴾[١٣]، الّذي يعبّر عن حالة الإنسان في التفكير بنفسه فقط في ذلك اليوم العصيب. ومن الأسماء الأخرى ليوم القيامة في القرآن الكريم، يمكن الإشارة إلى

---

١ . ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيٰامَةِ تُبْعَثُونَ﴾ (سورة المؤمنون: الآية ١٦).

٢ . انظر: سورة المطفّفين: الآية ٦.

٣ . انظر: سورة البقرة: الآية ٨.

٤ . انظر: سورة الفاتحة: الآية ٤.

٥ . انظر: سورة ص: الآية ١٦.

٦ . انظر: سورة الصافّات: الآية ٢١.

٧ . انظر: سورة الشورى: الآية ٧.

٨ . انظر: سورة مريم: الآية ٣٩.

٩ . انظر: سورة التغابن: الآية ٩.

١٠ . انظر: سورة ق: الآية ٣٤.

١١ . سورة إبراهيم: الآية ٤٨.

١٢ . سورة الطارق: الآية ٩.

١٣ . سورة عبس: الآية ٣٤.

«يوم عظيم»[١]، و«يوم كبير»[٢]، و«يوم أليم»[٣]، و«يوم محيط»[٤]، والّتي تحمل في طيّاتها عظمة ذلك اليوم وشدّته.

ومن الأسماء الأخرى الّتي ذُكرت في القرآن الكريم للقيامة «يوم الحقّ»[٥] بمعنى أنّ هذا اليوم متحقّق لا محالة، وبعض الأسماء الأخرى تعبّر عن وقوعه قطعاً، وذلك من قبيل ﴿لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾[٦]، و ﴿يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ﴾[٧].

ثمّ إنّ هذا اليوم ممّا وعد به الله (عزّوجلّ)، وهو الّذي لا يخلف الميعاد[٨]. وفي الآية الآتية بيّن الله (سبحانه وتعالى) أنّ يوم القيامة لا ريب فيه، وذكر أنّه أصدق الناطقين، فقال: ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾[٩].

وفي هذا السّياق، سمّيت إحدى السور القرآنيّة ـ سورة الحاقّة ـ للتأكيد على وقوع يوم القيامة، وأنّ وقوع مثل هذه الحادثة العظيمة خارج عن إدراك البشر، مذكّرةً بمصير الأقوام الّذين كذّبوا بهذا اليوم:

﴿الْحَاقَّةُ * مَا الْحَاقَّةُ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ * كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ * فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ * وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾[١٠].

٢. علامات يوم القيامة

ذُكرت علامات يوم القيامة في المصادر الدّينيّة تحت عنوان «أشراط الساعة»، وقد أشارت

---

١ . انظر: سورة الأنعام: الآية ١٥.

٢ . انظر: سورة هود: الآية ٣.

٣ . انظر: سورة هود: الآية ٢٦.

٤ . انظر: سورة هود: الآية ٨٤.

٥ . انظر: سورة النبأ: الآية ٣٩.

٦ . سورة آل عمران: الآية ٩.

٧ . سورة الروم: الآية ٤٣.

٨ . انظر: سورة آل عمران: الآية ٩.

٩ . سورة النساء: الآية ٨٧.

١٠ . سورة الحاقّة: الآيات ١-٦.

الآيات القرآنيّة إلى بعض تلك العلامات، مثل خروج دابّة من الأرض وانطلاق دخان من السماء وخروج يأجوج ومأجوج:

﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾[1].

﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ * يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[2].

﴿حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ * وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ﴾[3].

وذُكرت تفاصيل أكثر لهذه العلامات في الرّوايات، يمكن تقسيمها عموماً إلى طائفتين رئيسيتين: العلائم الّتي تقع في السماوات والأرض ويُعلن فيها عن خروج أشخاص معينين، وعلائم هي صفات تظهر في أعمال النّاس وسلوكياتهم.

ومن علائم الطائفة الأولى يمكن الإشارة إلى: طلوع الشّمس من المغرب، وخسف الأرض في المشرق وآخر في المغرب وثالث في جزيرة العرب، ونار تخرج من قعر عدن تسوق النّاس إلى المحشر، والدجّال ودابّة الأرض، وخروج يأجوج ومأجوج[4].

إنّ الدجّال رجل خدّاع، أو رجال خدّاعون ينشطون في آخر الزّمان من أجل إضلال النّاس عن أصل التوحيد والحقّ والعدالة، وسيقضي عليهم المهديّ عجّل الله فرجه الشريف بقدرته العظيمة[5].

أمّا دابّة الأرض فهي إنسان متحرّك وفعّال، ومن ضمن أفعاله الأصلية تمييز المؤمنين عن المنافقين ووسمهم، ويستفاد من بعض الرّوايات أنّ معه عصا موسى عليه السلام وخاتم سليمان عليه السلام،

---

١ . سورة النمل: الآية ٨٢.

٢ . سورة الدخان: الآيتان ١٠ -١١.

٣ . سورة الأنبياء: الآيتان ٩٦-٩٧.

٤ . انظر: الصدوق، الخصال، ج٢، ص٤٣١؛ ولمزيد من المصادر في هذا المجال، انظر: المجلسي، بحار الأنوار، ج٦، باب أشراط الساعة.

٥ . مكارم الشيرازي، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج١٦، ص٣٢٥.

ونحن نعرف أنّ عصا موسى رمز للقدرة والإعجاز، وخاتم سليمان رمز للحكومة والسلطة الإلهيّة!؛ فإذاً هذا الإنسان رجل قوي ذو سلطة وهيمنة. وقد طبق هذا المفهوم في روايات كثيرة على «أمير المؤمنين» عليه السلام؛ حيث روي أنّه إذا كان آخر الزّمان أخرجه الله في أحسن صورة ومعه ميسم يسم به أعداءه[1].

والمراد من «الدخان المبين» هو ذلك الدخان الغليظ الّذي سيغطّي السماء في نهاية العالم، وعلى أعتاب القيامة، فهو علامة لحلول اللحظات الأخيرة لهذه الدنيا، وبداية عذاب إلهي أليم للظالمين والمفسدين[2].

وحول يأجوج ومأجوج تؤيد الآيات القرآنيّة بوضوح أنّ هذين الاسمين هما لقبيلتين همجيّتين كانتا تؤذيان سكان المناطق المحيطة بهم، فهم مجموعة أو مجاميع كبيرة كانت تقطن أقصى نقطة في شمال آسيا، وهم أناس محاربون يغيرون على الأماكن القريبة منهم[3]. وتوقّفت اعتداءاتهم على النّاس بعدما أقام لهم ذو القرنين سدّاً؛ لكنّ تواجدهم في الأرض مرّة أخرى دليل على قرب يوم القيامة.

ومن علامات الطائفة الثّانية الّتي تبرز في أعمال النّاس على أعتاب يوم القيامة: إضاعة الصلوات، واتّباع الشهوات، والميل إلى الأهواء، وتعظيم أصحاب المال، وبيع الدّين بالدنيا، وتشبّه الرجال بالنساء والنساء بالرجال، وكثرة الطلاق، ويلي أمر النّاس أمراء جورة ووزراء فسقة وعرفاء ظلمة وأمناء خونة ...إلخ[4].

ويستفاد من ذلك أنّ بعض هذه العلامات مشتركة مع علائم ظهور الإمام صاحب العصر والزّمان عجّل الله فرجه، ويمكن القول: إنّ ظهور الإمام المهديّ عجّل الله فرجه والأحداث المتعلّقة بالرجعة وعصر حكومة أهل البيت عليهم السلام تُعدّ من مقدّمات يوم القيامة. وربّما يمكن القول: إنّ بعض هذه العلامات تقع قبل ظهور الإمام عجّل الله فرجه، ثمّ تزول بعد ظهوره، وتبقى دولة الحقّ حتّى يوم القيامة. وحيث إنّ الظهور نفسه يحدث قرب يوم القيامة، اعتبرت هذه الطائفة من العلائم - هي

---

١ . انظر: المصدر نفسه، ج١٢، ص١٣٨

٢ . انظر: المصدر نفسه، ج١٦، ص١٣٠-١٣١.

٣ . انظر: المصدر نفسه، ج٩، ص٣٧١-٣٧٢.

٤ . انظر: القمي، تفسير القمي، ج٢، ص٣٠٣؛ وللمزيد انظر: المجلسي، بحار الأنوار، ج٦، باب أشراط الساعة.

نفسها- من علائم القيامة أيضاً.

❁ الأسئلة

١. رتّب أسماء القيامة من حيث المضمون، وبيّن ما تنطوي عليه من أبعاد حول حقيقة القيامة.
٢. أثبت حتمية يوم القيامة اعتماداً على الآيات القرآنيّة الشّريفة.
٣. ما معنى أشراط الساعة؟ ائتِ بشواهد من القرآن والسنّة لأقسامها والأمثلة عليها.

❁ موضوع للبحث

- ابحث العلائم المذكورة لآخر الزّمان، وبيّن أيّها يختصّ بيوم القيامة وأيّها متعلّق بظهور الإمام عجّل الله تعالى فرجه الشريف؟

٥٣

مواقف القيامة

تناولنا بعض البحوث التمهيديّة بشأن القيامة في الدّروس السّابقة، وبعد إثبات حتمية القيامة أشير إلى أشراط الساعة والعلائم الّتي تقع قبلها بقليل، واتّضح أنّه يمكن التعرّف على كثير من أوصاف القيامة من خلال أسمائها الواردة في القرآن الكريم. وفي هذا الدّرس، سنبحث المراحل والمواقف الأولى ليوم القيامة.

المقصود بالمواقف أو المراحل مجموعة من الأحداث والوقائع الّتي تواجه الإنسان بترتيب في القيامة، وهي: النفخ في الصور، النشر، الحشر، فتح سجلّ الأعمال، الحساب، شهادة الشهود، الميزان، الصراط، الحوض، الشفاعة، الثواب والعقاب، الحبط والتكفير، الدخول إلى الجنّة أو النّار. وسنشير أدناه باختصار إلى كلّ موقف من هذه المواقف.

١. الحوادث قبل القيامة

ثمّة حوادث مرعبة وغريبة جدّاً تقع في العالم قبل حلول يوم القيامة، بحيث يفزع من هولها حتّى الملائكة الّذين لم يذنبوا أبداً، قال أمير المؤمنين عليّ عليه السلام في هذا المجال:

«يَوْمٌ يَشِيبُ فِيهِ الصَّغِيرُ، وَيَسْكَرُ مِنْهُ الْكَبِيرُ، وَيَسْقُطُ فِيهِ الْجَنِينُ، وَتَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ، يَوْمٌ عَبُوسٌ قَمْطَرِيرٌ، وَيَوْمٌ كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيراً. إِنَّ فَزَعَ ذَلِكَ الْيَوْمِ لَيُرْهِبُ الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ لَا ذَنْبَ لَهُمْ»[1].

---

١. الطوسي، الأمالي، ص٢٧.

ولا ريب في أنّ كلام الإمام عليّ عليه السلام مستمدّ من الكلام الإلهيّ؛ حيث ورد في القرآن الكريم عبارات مشابهة لما ذُكر، قال (سبحانه وتعالى):

﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾[١].

تحدث هذه الظواهر بشكل يسير في الزلازل الدنيويّة والأحداث المرعبة؛ حيث تنسى الأمّهات أطفالهنّ، وتُسقط الحوامل حملهنّ، وترى آخرين كالسكارى قد فقدوا صوابهم، إلّا أنّ هذا لا يتّخذ طابعاً عامّاً. أمّا زلزال البعث فإنه يصيب النّاس جميعاً دون استثناء[٢].

٢. النفخة الأولى والثانية في الصور

عادةً ما يكون النفخ في الصور لأجل الإعلان عن شيءٍ هامّ، والقيامة حادثة عظيمة لا يدانيها في الأهميّة والعظمة أيّ حادثة أخرى؛ ولذا يُعلن عن وقوعها بشكل مناسب لعظمتها وأهميتها. هذا مضافاً إلى أنّ هيبة الصُّوْر تستلزم حدوث تغيرات كبرى في الكون. وطبقاً لما ورد في الأدلّة الدّينيّة، يُنفخ في الصُّوْر مرّتين، لكلّ نفخة منهما آثار خاصّة؛ ففي النفخة الأولى تموت جميع الكائنات في السماوات والأرض إلّا من شاء الله، وفي النفخة الثّانية يحيا جميع الموتى، وقد أشارت الآية أدناه إلى هاتين النفختين:

﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾[٣].

على أنّ النفخ في الصور لا يؤثرعلى الموجودات الحيّة وحسب؛ بل يؤدّي إلى حدوث تغييرات عدّة في السماء والأرض، أشيرإلى بعضها في الآيات القرآنيّة؛ حيث قال (سبحانه وتعالى):

﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ * وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً * فَيَوْمَئِذٍ

---

١ . سورة الحجّ: الآية ٢.

٢ . انظر: مكارم الشيرازي، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج١٠، ص٢٧٦.

٣ . سورة الزمر: الآية ٦٨.

وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ * وَانْشَقَّتِ السَّمَآءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ﴾[١].

ولفت أمير المؤمنين عليّ عليه السلام إلى الحوادث الّتي تنجم عن النفخ في الصور، قائلاً:

«وَيُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَزْهَقُ كُلُّ مُهْجَةٍ، وَتَبْكَمُ كُلُّ لَهْجَةٍ، وَتَذِلُّ الشُّمُّ الشَّوَامِخُ وَالصُّمُّ الرَّوَاسِخُ؛ فَيَصِيرُ صَلْدُهَا سَرَاباً رَقْرَاقاً رَقْرَقاً وَمَعْهَدُهَا قَاعاً سَمْلَقاً»[٢].

أمّا من ينفخ في الصُّوْر فهو ملك اسمه إسرافيل، وما إن ينفخ فيه حتّى يُحدث صوتاً مهيباً يؤدّي إلى موت الجميع.

وقيل في وصف الصور أنّ له رأس واحد وطرفان، وبين طرف كلّ رأس منهما ما بين السماء والأرض، فينفخ إسرافيل فيه نفخة، فيخرج الصوت من الطرف الّذي يلي أهل الأرض، فلا يبقى في الأرض ذو روح إلّا صُعق ومات، ويخرج الصوت من الطرف الّذي يلي أهل السماوات، فلا يبقى في السماوات ذو روح إلّا صُعق ومات إلّا إسرافيل، ثمّ يقول الله لإسرافيل: يا إسرافيل! مُتْ، فيموت[٣]. وأمّا في مرحلة الإحياء فأوّل موجود تدبّ فيه الحياة بأمر الله هو إسرافيل، فينفخ في الصور نفخة تحيي جميع الموتى ويبدأ البعث والنشور.

٣. النشر أو البعث

استفاد القرآن الكريم بشأن هذا الموقف من مفردتي «النشر» و «البعث» بصورة متكافئة، ولهاتين الكلمتين معنى متقارب لغويّاً أيضاً. البعث بمعنى إعادة الموتى إلى الحياة مرّة أخرى؛ إذ يستعيد جميع الموتى حياتهم بعد النفخة الثّانية في الصور ويحدث البعث[٤]؛ وبالتالي، يستيقظ الجميع ويسارعون إلى ربّهم:

﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجاً﴾[٥].

---

١. سورة الحاقّة: الآيات ١٣-١٦.

٢. نهج البلاغة، الخطبة ١٩٥، ص٣٠٩؛ المجلسي، بحار الأنوار، ج٧، ص١١٥.

٣. انظر: القمي، تفسير القمي، ج٢، ص٢٥٢؛ الصحيفة السجّاديّة، الدعاء الثالث، ص٤٣.

٤. انظر: القمي، تفسير القمي، ج٢، ص٢٥٢ و٤٠٣.

٥. سورة النبأ: الآية ١٨.

وفي الحقيقة، ينتهي عالم البرزخ بالبعث وحينها تبدأ القيامة؛ حيث ذكر الباري (سبحانه وتعالى) في كتابه الكريم أنّ البعث نهاية للبرزخ حينما بيّن الحدود الزمنية له قائلاً:

﴿وَمِنْ وَرَآئِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾[1].

وأفادت آيات قرآنية أخرى بأنّ الله (سبحانه وتعالى) يبعث من في القبور:

﴿وَأَنَّ السَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾[2].

ولفت القرآن الكريم إلى قدرة الله (جلّ وعلا) على إحياء الأرض بعد الموت، مؤكداً على أنّ تلك القدرة الّتي تحيي الأرض بعد موتها كفيلة بإحياء الموتى يوم القيامة:

﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً فَسُقْنَاهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَٰلِكَ النُّشُورُ﴾[3].

وفي آيات أخرى، صوّر الله (سبحانه وتعالى) مراحل نموّ الإنسان بمنتهى البراعة، وشبّه تلك المراحل بإنبات النبات في الأرض وعودة البذور إلى التراب مرة أخرى ونموّها فيه ثانيةً، قائلاً:

﴿وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتاً * ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجاً﴾[4].

وفي الرّوايات المأثورة عن أهل البيت عليهم السلام، أشير إلى بعض تفاصيل البعث وكيفية إحياء الموتى بأنّه يتحقّق عن طريق المطر كما هو الحال في إحياء الأرض، فمثلما يؤدّي المطر إلى نموّ النباتات وبعث الحياة في الأرض، ثمّة مطر خاصّ ينزل في بداية القيامة ويتسبّب بإحياء النّاس الموتى:

«إِذَا أَرَادَ اللهُ (عَزَّ وَجَلَّ) أَنْ يَبْعَثَ الْخَلْقَ أَمْطَرَ السَّمَاءَ عَلَى الْأَرْضِ أَرْبَعِينَ صَبَاحاً؛ فَاجْتَمَعَتِ الْأَوْصَالُ وَنَبَتَتِ اللُّحُومُ»[5].

---

١ . سورة المؤمنون: الآية ١٠٠.

٢ . سورة الحج: الآية ٧.

٣ . سورة فاطر: الآية ٩.

٤ . سورة نوح: الآيتان ١٧-١٨.

٥ . القمي، تفسير القمي، ج٢، ص٢٥٣؛ الكوفي الأهوازي، الزهد، ص٨٨؛ الصدوق، الأمالي، ص١٧٧.

من الأمور المهمّة في موضوع البعث «الجسمانيّة»، أي الجسم العنصري المادّي للإنسان الّذي تآكل وتلاشى في التراب؛ فهذا الجسم يحيا وتلتحق به الرّوح بأمر من الله (سبحانه وتعالى)؛ ليكون مآله بعد تجاوز مواقف القيامة المختلفة النعيم في الجنّة أو العذاب في جهنّم، هذا ما شدّدت عليه الآية الشّريفة الآتية:

﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ * بَلَىٰ قَادِرِينَ عَلَىٰ أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ﴾[1].

٤. الحشر والجمع

الموقف الآخر من مواقف القيامة هو الحشر والجمع. والحشر يعني الجمع[2]. أو الإخراج الّذي يكون مع الجمع[3] و لهذا يتناسب مع كلمة الجمع. فبعد إحياء الموتى وبعثهم من القبور، يجمعهم الله (سبحانه وتعالى) في موضع معين ليهيّئهم للموقف اللاحق، وهو الحساب. وتعدّ مرحلة الحشر من أهمّ مراحل الحياة ما بعد الموت وأخطرها؛ وذلك بسبب عظمة هذا الأمر وأهميته الفائقة، فبأمر من الله (سبحانه وتعالى) تحيا جميع الأرواح وتخرج من القبور متّجهة إلى منصّة الحساب.

وقد أشارت آيات متعدّدة من القرآن الكريم إلى حشر النّاس يوم القيامة وجمعهم في مكان محدّد لغرض الحساب؛ بل وأُطلق على يوم القيامة بسبب هذا الاجتماع العظيم اسم «يوم الجمع»، فقال (سبحانه وتعالى):

﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَٰلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ﴾[4].

وأشير في الرّوايات الإسلاميّة إلى الجوانب المختلفة لصعوبات الحشر إلى درجة اعتبار هذا الموقف من أوحش المراحل الّتي يمرّ بها الإنسان في مسيرته عموماً، فروي عن الإمام أبي الحسن الرّضا عليه السلام أنّه قال:

---

١. سورة القيامة: الآيتان ٣ و٤.

٢. ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، ج٢، ص٦٦؛ الفيومي، المصباح المنير، ج٢، ص١٣٦.

٣. القرشي، قاموس القرآن، ج٢، ص١٤٥ نقلاً عن الطبرسي، مجمع البيان، ج٢، ص٥٣٠.

٤. سورة التغابن: الآية ٩.

«إِنَّ أَوْحَشَ مَا يَكُونُ هَذَا الْخَلْقُ فِي ثَلَاثَةِ مَوَاطِنَ: يَوْمَ يُولَدُ وَيَخْرُجُ مِنْ بَطْنِ أُمِّهِ فَيَرَى الدُّنْيَا، وَيَوْمَ يَمُوتُ فَيُعَايِنُ الْآخِرَةَ وَأَهْلَهَا، وَيَوْمَ يُبْعَثُ فَيَرَى أَحْكَاماً لَمْ يَرَهَا فِي دَارِ الدُّنْيَا»[١].

٥. فتح سجلّ الأعمال

من المواقف الأخرى للقيامة، الموقف الّذي تُعرض فيه صحيفة أعمال الإنسان ويُفتح سجلّه أمام الخلائق، وقد عبّرت الآيات القرآنيّة عن هذه الصحيفة وهذا السجلّ بـ«الكتاب»، وهو يحتوي على كلّ ما فعله الإنسان طيلة حياته دون أن يترك صغيرة أو كبيرة من الأفعال، وهو من الدقّة والشمول بحيث يشفق منه المجرمون ويخشاه العصاة لإحصاء جميع أفعالهم. قال (سبحانه وتعالى) في هذا الصدد:

﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً﴾[٢].

النقطة المهمّة بشأن صحيفة الأعمال هي كيف تُكتب تلك الأعمال؟ ومن الّذي يجمعها ويحصيها؟ يستفاد من المصادر الدّينيّة أنّ الله (سبحانه وتعالى) يوكل بكلّ إنسان في الدنيا عدداً من الملائكة، وظيفتهم تسجيل أعماله وتوثيق أفكاره حتى النوايا أيضاً. من هنا، أشير في بعض الآيات القرآنيّة الشّريفة إلى وجود ملائكة مكلفين بإحصاء كلّ ما يفعله الإنسان ويحفظون كلّ ما يصدر عنهم، قال (سبحانه وتعالى):

﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَاماً كَاتِبِينَ * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾[٣].

وفي موضع آخر، شدّد القرآن الكريم على وجود ملكين يراقبان الإنسان، أحدهما في الجهة اليمنى والآخر في الجهة اليسرى، لافتاً إلى أنّ هذه المراقبة دقيقة جدّاً إلى حدّ أنّه ما يتفوّه

---

١. الصدوق، عيون أخبار الرضا عليه السلام، ج١، ص٢٥٧؛ الفتّال النيشابوري، روضة الواعظين، ج٢، ص٤٩٧؛ كشف الغمة فى معرفة الأئمّة، ج٢، ص٢٩٣.

٢. سورة الكهف: الآية ٤٩.

٣. سورة الانفطار: الآيات ١٠-١٢.

بكلمة إلّا ويتمّ تسجيلها وضبطها:

﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ * مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾[1].

على أنّ وظيفة كلّ ملَك مغايرة لوظيفة الآخر، فعلى يمين الإنسان ملَك يسجّل حسناته، وعلى يساره ملَك آخر يسجّل سيئاته[2].

نعم، في يوم القيامة يوضع مثل هذا الكتاب الّذي يحوي جميع أعمال الإنسان وصحيفة أعماله الكاملة بين يديه، وهو كتاب لا يغادر صغيرةً ولا كبيرةً إلّا أحصاها، وما أن ينظر إليه الشّخص حتّى يذكر جميع أفعاله وكأنّه فعلها في تلك الساعة. قال الإمام أبو عبد الله الصادق عليه السلام في هذا المجال:

«إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ دُفِعَ إِلَى الْإِنْسَانِ كِتَابُهُ ثُمَّ قِيلَ لَهُ: اقْرَأْ. قُلْتُ: فَيَعْرِفُ مَا فِيهِ؟؛ فَقَالَ: إِنَّ اللهَ يُذَكِّرُهُ، فَمَا مِنْ لَحْظَةٍ وَلَا كَلِمَةٍ وَلَا نَقْلِ قَدَمٍ وَلَا شَيْءٍ فَعَلَهُ إِلَّا ذَكَرَهُ كَأَنَّهُ فَعَلَهُ تِلْكَ السَّاعَةَ؛ فَلِذَلِكَ قَالُوا: ﴿يا وَيْلَتَنا ما لِهذَا الْكِتابِ لا يُغادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصاها﴾»[3].

ولا يتلقّى المؤمنون والكافرون صحيفة أعمالهم وكتبهم يوم القيامة على نسق واحد؛ بل يتلقّى الكافر كتابه بيده اليسرى أو من وراء ظهره، ويسلَّم المؤمن كتابه بيمينه. وعليه، فتسليم الشّخص صحيفة أعماله بيمينه من علامات إيمانه، بينما يكشف حصوله على كتابه بشماله أو من وراء ظهره عن كفره؛ ولذا تختلف ردود أفعال الطائفتين بعد تلقّي تلك الكتب، فيرجع المؤمن إلى أهله مسروراً ويتحسّر الكافر على ما فاته ويدعو بالويل والثبور، وقد صوّر القرآن الكريم هذا المشهد ببيان جميل قائلاً:

﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ * فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَاباً يَسِيراً * وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُوراً * وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ * فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُوراً * وَيَصْلَى سَعِيراً﴾[4].

---

١ . سورة ق: الآيتان ١٧-١٨.

٢ . انظر: ابن طاووس، سعد السعود، ص٢٢٥؛ المجلسي، بحار الأنوار، ج٥، ص٣٢٤.

٣ . العياشي، تفسير العياشي، ج٢، ص٣٢٨.

٤ سورة الانشقاق: الآيات ٧-١٢.

﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ * وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ﴾[1].

*** الأسئلة**

١. ما معنى مواقف القيامة؟ اذكرها بحسب الترتيب.

٢. اشرح ما المراد من النفخة الأولى والثانية في الصور، وبيّن ما تأثيرها على العالم والإنسان؟

٣. بيّن مفهوم النشر والحشر مستعيناً بالآيات القرآنيّة الشّريفة.

٤. اشرح كيفية تسجيل أعمال الإنسان وطريقة عرضها بلسان القرآن الكريم.

*** موضوع للبحث**

- استخرج الآيات القرآنيّة في موضوع النشر والحشر الجسماني، ثمّ رتّبها.

---

١ سورة الحاقّة: الآيتان ٢٥-٢٦.

٥٤

الحساب والشهود

تحدّثنا في الدّرس السابق عن بعض المواقف في حياة الإنسان في عالم القيامة، وبحثنا عدداً من الحوادث الّتي تقع قبيل القيامة، مضافاً إلى بعث الأجساد وحشرها وفتح سجلّ الأعمال. أمّا في هذا الدّرس فسنتعرّف إلى كيفية النظر في أعمال الإنسان يوم القيامة.

بعدما يُبعث الموتى ويُحشرون من القبور وتُعرض عليهم الأعمال، يقفون في موقف الحساب؛ وعندئذٍ تُفتح صحيفة أعمال كلّ إنسان ليرى ما هي أعماله الصالحة والسيئة، وبسبب أهمية هذه المرحلة سُمّي يوم القيامة بـ«يوم الحساب» أيضاً، وأشير له في عدد من الآيات القرآنيّة. وكنتيجة لحساب النّاس في ذلك اليوم، يتبيّن الشّخص الصالح من الطالح والمحسن من المسيء، ويتحدّد مكانه في الجنّة أو النّار، ويتحول «يوم الجمع» إلى «يوم الفصل» بفعل محاسبة النّاس على أعمالهم وعقائدهم.

والنقطة المهمّة هنا هي ضرورة أن نعرف الهدف من هذا الحساب؛ ففي الحياة الدنيا تحصل المحاسبات الدنيويّة لأجل كشف الحقيقة واتّضاح الأمور المجهولة في المحكمة وأمام القاضي، وأمّا في المحكمة الإلهيّة الّتي يكون فيها الحاكم والقاضي هو الله (جلّ وعلا) فلا يخفى عليه شيء، فما الغرض من الحساب إذن؟

إنّ الهدف من الحساب الأخروي هو إراءة الإنسان لأفعاله والاحتجاج عليه بها؛ وبذلك وفي ضوء الدقّة في هذا الحساب وعرض جميع أعمال الإنسان الحسنة والسيّئة ووجود شهود

عليه، لا يبقى أيّ مجال لاعتراضه وعدم قبوله.

ولا ريب في أنّ حساب أعمال النّاس يوم القيامة عمل واسع جدّاً، فيشمل أبعاداً مختلفة كالأعمال القلبيّة والبدنيّة، الكبيرة والصغيرة، الخفية والظاهرة، وإن كانت قد مُحيت من ذاكرة الإنسان ونسيها نتيجة تقدّم الزّمان. من هنا، قيل: إنّ الإنسان سيقف أمام ما عمله في الدنيا في مرحلة من مراحل الحساب، قال (سبحانه وتعالى):

﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللهُ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللهُ وَنَسُوهُ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾[١].

١. موقف الحساب

يُستفاد من بعض الشواهد وجود مكان في القيامة يوقَف الإنسان فيه ليُسأل عن كيفية تعاطيه مع النِّعم الإلهيّة، خصوصاً نعمة ولاية أهل البيت عليهم السلام، وقد أشار القرآن الكريم في بعض آياته إلى هذا المكان بصورة إجماليّة؛ فعلى سبيل المثال، أشير في إحدى الآيات القرآنيّة إلى الأمر بإيقاف النّاس في أحد المواقف للسؤال، وذُكر في آية أخرى أنّ الإنسان سوف يُسأل يوم القيامة عن النّعم الإلهيّة:

﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ﴾[٢].

﴿ثُمَّ لَتُسْئَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾[٣].

وقد ورد في عدد كبير من الرّوايات تفاصيل هذا الموضوع، وكُشف النقاب عن الأسئلة الّتي تُطرح على الإنسان في هذا الموقف، وتبيّن المقصود من النّعيم في هذه الآية الشّريفة. من هنا، قال رسول الله صلى الله عليه وآله:

«لَا تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ أَرْبَعٍ: عَنْ عُمُرِهِ فِي مَا أَفْنَاهُ، وَشَبَابِهِ فِي مَا أَبْلَاه، وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ كَسَبَهُ وَفِي مَا أَنْفَقَهُ، وَعَنْ حُبِّنَا أَهْلَ الْبَيْتِ»[٤].

---

١. سورة المجادلة: الآية ٦.

٢. سورة الصافّات: الآية ٢٤.

٣. سورة التكاثر: الآية ٨.

٤. الصدوق، الأمالي، ص٣٩؛ و أيضاً انظر: المجلسي، بحارالأنوار، ج٧، باب١١ المحاسبة العباد.

ولما سُئل الإمام أبوعبد الله الصادق عليه السلام عن النّعيم الوارد في الآية القرآنيّة المتقدّمة، قال:

«نَحْنُ أَهْلَ الْبَيْتِ النَّعِيمُ الَّذِي أَنْعَمَ اللهُ بِنَا عَلَى الْعِبَادِ، وَبِنَا ائْتَلَفُوا بَعْدَ مَا كَانُوا مُخْتَلِفِينَ، وَبِنَا أَلَّفَ اللهُ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ فَجَعَلَهُمْ إِخْوَاناً بَعْدَ أَنْ كَانُوا أَعْدَاءَ، وَبِنَا هَدَاهُمُ اللهُ لِلْإِسْلَامِ، وَهُوَ النِّعْمَةُ الَّتِي لَا تَنْقَطِعُ، وَاللهُ سَائِلُهُمْ عَنْ حَقِّ النَّعِيمِ الَّذِي أَنْعَمَ بِهِ عَلَيْهِمْ، وَهُوَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وآله وَعِتْرَتُهُ عليهم السلام»[1].

من المسلّم به أنّ أهمّ أهداف الخلق هي هداية الإنسان، ولا تكتمل النِّعم الإلهيّة إلّا عند وصول الإنسان إلى هذا الهدف، والهداية المذكورة لا تتحقّق إلّا عن طريق الحجج الإلهيين الّذين أرسلهم الله (سبحانه وتعالى) لهذا الغرض. وعلى هذا الأساس، فأعظم النِّعم الإلهيّة هي النعمة الّتي تضمن هداية النّاس، وليست هي سوى الأنبياء والأوصياء.

٢. أنواع الحساب

لا بدّ من الالتفات إلى أنّه لا يصار إلى التعامل مع الجميع على وتيرة واحدة في موقف الحساب؛ فبعض النّاس يدخل الجنّة أو يلقى في النّار دون حساب كامل، وبعضهم يُحاسَب حساباً يسيراً؛ حيث قال (سبحانه وتعالى): ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَاباً يَسِيراً﴾[2]. في المقابل، يُحاسَب بعضهم بمنتهى الغلظة والشدّة[3]؛ ولذا قال (سبحانه وتعالى) في الطائفة الأخيرة: ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ﴾[4].

وورد في بعض الأحاديث أنّ التدقيق في الحساب يوم القيامة يكون على قدر ما آتى الله العباد من العقول في الدنيا[5].

---

١. الفيض الكاشاني، تفسير الصافي، ج٥، ص٣٧٠؛ المجلسي، بحار الأنوار، ج٧، ص٢٥٨؛ و أيضاً انظر: الكليني، الكافي، ج٦، ص٢٨٠؛ البرقي، المحاسن، ج٢، ص٤٠٠.

٢. سورة الانشقاق: الآية ٨.

٣. انظر: الصدوق، معاني الأخبار، ص٢٦٢؛ المجلسي، بحار الأنوار، ج٧، ص٢٦٣.

٤. سورة الرعد: الآية ١٨.

٥. انظر: الكليني، الكافي، ج١، ص١١؛ البرقي، المحاسن، ج١، ص١٩٥.

٣. سرعة الحساب

النقطة الأخرى الجديرة بالبحث في موضوع حساب الخلائق يوم القيامة هي سرعة الحساب؛ ولهذا السّبب اعتُبر الباري (سبحانه وتعالى) في بعض الآيات القرآنيّة أسرع الحاسبين[١].

في إحدى الرّوايات، سئل أمير المؤمنين عليّ عليه السلام عن كيفية محاسبة الله للخلائق مع كثرتهم، فمثّل برزقهم في الأرض على كثرتهم:

«سُئِلَ عليه السلام كَيْفَ يُحَاسِبُ اللهُ الْخَلْقَ عَلَى كَثْرَتِهِمْ؟؛ فَقَالَ: كَمَا يَرْزُقُهُمْ عَلَى كَثْرَتِهِمْ. فَقِيلَ: كَيْفَ يُحَاسِبُهُمْ وَلَا يَرَوْنَهُ؟ فَقَالَ: كَمَا يَرْزُقُهُمْ وَلَا يَرَوْنَهُ»[٢].

٤. الشهود

في جزء من مشهد يوم القيامة، يوضع الإنسان أمام المحاكمة، ففي البداية يُسلَّم صحيفة أعماله وكتابه الّذي لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلّا أحصاها، ثمّ يؤتى بالشهود الّذين يشهدون على ما رأوه من أعمال الإنسان. وتفيد الرّوايات أنّ بعض النّاس يُنكر ما عُرض عليه في صحيفة أعماله؛ وحينئذٍ يُسدعى الشهود ليشهدوا على أفعال ذلك الشّخص المُنكر، ولايمكن رفض هذه الشهادة وتكذيبها مطلقاً؛ إذ يشهد على الإنسان جوارحه وأعضاء بدنه المختلفة، فضلاً عن الله (سبحانه وتعالى) والرّسل والملائكة، فلا يبقى مجال لأيّ عذر. ويمكن تقسيم الشهود يوم القيامة حسبما أفاد الكتاب والسنّة إلى خمس طوائف:

أ) الله (سبحانه وتعالى) والنبيّ الأكرم والأئمّة: لا ريب في أنّ شهادة الله (سبحانه وتعالى) فوق جميع الشّهادات الأخرى، وتأتي أهمية هذه الشهادة من ناحية صفاته (جلّ وعلا) نحو: العليم والخبير والرقيب والشهيد وغيرها والّتي تعدّ أساساً لجميع الصّفات اللازمة للشهادة الأخروية، وليس الله (سبحانه وتعالى) شهيداً على أعمال العباد وحسب؛ بل هو شاهد على الشهود الآخرين أيضاً. ومن هذا المنطلق، أشار الباري (سبحانه وتعالى) في بعض الآيات إلى علمه بجميع أعمال النّاس، وذكر في آيات أخرى أنّه شاهد على أعمالهم:

---

١. ﴿وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾ (سورة الأنعام: الآية ٦٢).

٢. نهج البلاغة، الحكمة ٣٠٦، ص٥٢٨؛ المجلسي، بحار الأنوار، ج٧، ص٢٧١.

﴿وَاللهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾[١].

﴿وَاللهُ شَهِيدٌ عَلى ما تَعْمَلُونَ﴾[٢].

وقد صرّح القرآن الكريم في إحدى الآيات بأنّ الله (سبحانه وتعالى) والنبيّ ﷺ والمؤمنين - الّذين فُسّروا في الرّوايات بالأئمّة المعصومين عليهم السلام[٣] - يرون أعمال النّاس[٤]. وعليه يمكن القول: إنّ النبيّ ﷺ وأوصيائه الكرام عليهم السلام يعلمون بما أعطاهم الله (سبحانه وتعالى) من علمه بما يفعله النّاس في الدنيا، وبوسعهم أن يشهدوا على أعمالهم الدنيويّة يوم القيامة.

كما إنّ لكلّ أمّة من الأمم السالفة شهيداً عليها يوم القيامة، لكنّ الله (جلّ وعلا) اعتبر النبيّ الأكرم ﷺ شهيداً على جميع أولئك الشهداء؛ ما يكشف عن عظمة نبيّ الإسلام ﷺ ومنزلته المتميزة بين الشهداء يوم القيامة. وقد بيّنت الآيات القرآنيّة شهادته بهذه الصورة:

﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنا بِكَ شَهِيداً عَلى هؤُلاءِ﴾[٥].

﴿فَكَيْفَ إِذا جِئْنا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنا بِكَ عَلى هؤُلاءِ شَهِيداً﴾[٦].

ب) الملائكة: من الشهود على الإنسان يوم القيامة، الملائكة الموكلون بتسجيل أعماله في الحياة الدنيا؛ حيث ينكر بعض النّاس أعماله الّتي تُعرض عليه يوم القيامة، فتتدخل الملائكة المكلفة بتسجيل تلك الأعمال وتشهد عليهم:

«... يَعْرِضُ عَلَيْهِمْ أَعْمَالُهُمْ فَيُنْكِرُونَهَا، فَيَقُولُونَ: مَا عَمِلْنَا مِنْهَا شَيْئاً، فَيَشْهَدُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ الَّذِينَ كَتَبُوا عَلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ»[٧].

ج) الأعضاء والجوارح: تنطق جوارح المجرمين وأعضاء أبدانهم بأمر من الله (سبحانه وتعالى)

---

١ . سورة الحديد: الآية ١٠؛ سورة آل عمران: الآية ١٨٠؛ سورة البقرة: الآية ٢٣٤ و. . .

٢ . سورة آل عمران: الآية ٩٨.

٣ . انظر: الكليني، الكافي، ج١، ص٢١٩ وج١، ص٤٢٤؛ الصفار، بصائر الدرجات، ص٤٢٧.

٤ . ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ (سورة التوبة: الآية ١٠٥).

٥ . سورة النحل: الآية ٨٩.

٦ . سورة النساء: الآية ٤١.

٧ . القمي، تفسير القمي، ج٢، ص٢٦٤؛ المجلسي، بحار الأنوار، ج٧، ص٣١٢.

لتشهد على ما اقترفه كلّ عضو في الدنيا، وقد ورد في هذا الخصوص آيات وروايات كثيرة، فمن تلك الآيات:

﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾[1].

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ * وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[2].

بيد أنّ بعض المجرمين لا يقبلون بشهادة الملائكة، فيقسمون أنّهم لم يفعلوا شيئاً ممّا شهدوا به؛ وفي هذه الحالة يُنطق الله (سبحانه وتعالى) جوارحهم وأعضاء بدنهم ليشهدوا على أصحابهم ويقطعون عليهم طريق الإنكار والفتنة. قال الإمام أبوعبد الله الصادق عليه السلام:

«فَيَشْهَدُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ الَّذِينَ كَتَبُوا عَلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ، فَيَقُولُونَ للهِ: يَا رَبِّ! هَؤُلَاءِ مَلَائِكَتُكَ يَشْهَدُونَ لَكَ. ثُمَّ يَحْلِفُونَ بِاللهِ مَا فَعَلُوا مِنْ ذَلِكَ شَيْئاً، وَهُوَ قَوْلُ اللهِ: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللهُ جَمِيعاً فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ﴾... فَعِنْدَ ذَلِكَ يَخْتِمُ اللهُ عَلَى أَلْسِنَتِهِمْ وَيَنْطِقُ جَوَارِحُهُمْ»[3].

د) **الأرض:** تعدّ الأرض من جملة الشهود يوم القيامة؛ حيث تشهد على الأفعال الّتي وقعت عليها. قال (سبحانه وتعالى) في هذا الصدد:

﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾[4].

وقد أوضحت الرّوايات أنّ أخبار الأرض هي شهادتها على الأعمال الّتي تُرتكب على ظهرها، فروي عن النبيّ الكريم صلى الله عليه وآله أنّه قال:

«أَتَدْرُونَ مَا أَخْبَارُهَا؟» قَالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: «أَخْبَارُهَا أَنْ تَشْهَدَ عَلَى

---

١ . سورة يس: الآية ٦٥.

٢ . سورة فصلت: الآيتان ٢٠-٢١.

٣ . القمي، تفسير القمي، ج٢، ص٢١٦؛ المجلسي، بحار الأنوار، ج٧، ص٣١٢.

٤ . سورة الزلزال: الآية ٤.

كُلِّ عَبْدٍ وَأَمَةٍ بِمَا عَمِلَ عَلَى ظَهْرِهَا، تَقُولُ: عَمِلَ كَذَا وَكَذَا يَوْمَ كَذَا وَكَذَا؛ فَهَذَا أَخْبَارُهَا»[1].

هـ) الليل والنّهار: أفادت الرّوايات المأثورة عن أهل البيت عليهم السلام أنّ الليل والنهار من ضمن الشهود على الإنسان يوم القيامة، فيشهدان على الأعمال الّتي وقعت فيهما؛ ولذا ورد في الحديث عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام أنّه قال:

«إِنَّ النَّهَارَ إِذَا جَاءَ قَالَ: يَا ابْنَ آدَمَ! اعْمَلْ فِي يَوْمِكَ هَذَا خَيْراً أَشْهَدْ لَكَ بِهِ عِنْدَ رَبِّكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَإِنِّي لَمْ آتِكَ فِي مَا مَضَى وَلَا آتِيكَ فِي مَا بَقِيَ، وَإِذَا جَاءَ اللَّيْلُ قَالَ مِثْلَ ذَلِكَ»[2].

❁ الأسئلة

١. في ضوء العلم الإلهيّ الواسع، ما معنى حساب النّاس ومحاكمتهم يوم القيامة؟ ائتِ بشاهد من الآيات القرآنيّة.

٢. ما طبيعة الشهود على الإنسان يوم القيامة؟ استدلّ على كلّ واحد منهم بآية أو رواية.

٣. اذكر أنواع الحساب مستدلاً بالآيات القرآنيّة. وكيف ينسجم التساهل مع بعض النّاس وعدم التدقيق في حسابهم مع العدل الإلهيّ؟

❁ موضوع للبحث

- ورد في بعض الرّوايات أنّ التشديد في الحساب متوقّف على مستوى عقل الإنسان، ابحث هذا الموضوع وبيّن الأسباب الّتي تقف وراء ذلك.

---

١ . الطبرسي، مجمع البيان، ج١٠، ص٧٩٨؛ المجلسي، بحار الأنوار، ج٧، ص٩٧.

٢ . الكليني، الكافي، ج٢، ص٤٥٥.

٥٥

الميزان والصراط

أشير في الدّروس السّابقة إلى أنّ الميزان والصراط والحوض أهمّ مواقف القيامة، وفي هذا الدرس سنتعرف على المنزلين الاخيرين من منازل ومواقف الحساب: الميزان والصراط، وعلى الحوض، وهو أوّل مراحل الثواب الّذي يُعطى لأهل الجنّة، ومرحلة ظهور عظمة الرسول ﷺ والأئمّة عليهم السلام.

بقي موقفان من مواقف الحساب يحتاجان إلى الدراسة والبحث، هما الميزان والصراط، ومع أنّ جميع النّاس يمرّون بهذين الموقفين إلّا أنّ أوضاعهم متباينة من حيث التخفيف والتشديد عليهم.

١. الميزان

الميزان وسيلة للوزن والقياس، وتختلف الموازين باختلاف ما يراد وزنه، فلها أنواع مختلفة، والحديث هنا عن الميزان الّذي يوضع يوم القيامة لتقاس به أعمال الإنسان في الدنيا. ويعدّ الإيمان بالميزان -كما هو الحال في صحيفة الأعمال والشهود- من ضروريات الدّين ومن العقائد الإسلاميّة الأساسيّة. وعليه، فثمّة موقف آخر يوم القيامة توزن فيه أعمال الإنسان بميزان مناسب؛ ليتبيّن العمل الخفيف من العمل الثقيل، وتتّضح مكانة الشّخص طبقاً لذلك العمل. وقد تحدّثت آيات قرآنيّة كثيرة عن الموازين يوم القيامة، منها:

﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ

فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ﴾[١].

﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ * فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ * وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ * فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ﴾[٢].

من هنا، ورد في إحدى الرّوايات حول تفسير هذه الآية أنّ الحسنات ثقل الميزان والسيئات خفّة الميزان:

«وَأَمَّا قَوْلُهُ: ﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوازِينُهُ﴾ و ﴿خَفَّتْ مَوازِينُهُ﴾ فَإِنَّمَا يَعْنِي الْحِسَابَ، تُوزَنُ الْحَسَنَاتُ وَالسَّيِّئَاتُ، وَالْحَسَنَاتُ ثِقْلُ الْمِيزَانِ وَالسَّيِّئَاتُ خِفَّةُ الْمِيزَانِ»[٣].

وعلى الرّغم من أنّه لا خلاف بشأن أصل الميزان يوم القيامة، نرى تبايناً في وجهات النظر حول حقيقته ومصاديقه المختلفة؛ ففي رواية عن الإمام أبي عبد الله الصادق عليه السلام أكد على أنّ الموازين هم الأنبياء والأوصياء عليهم السلام، وفي حديث آخر اعتُبر الميزان كناية عن العدل:

سألت أبا عبدالله عليه السلام عن قول الله (عزّ وجلّ): ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً﴾ قَالَ:

«هُمُ الْأَنْبِيَاءُ وَالْأَوْصِيَاءُ عليهم السلام»[٤].

وعلى هذا الأساس، إنّما تبلغ أعمال الإنسان مرتبة الكمال بعدما تُعرض على أعمال الأنبياء والأوصياء عليهم السلام وتقاس إليها، فتتحدّد قيمة كلّ عمل في ضوء قربه من أعمال الأنبياء والأوصياء أو بعده عنها.

وفي هذا الموقف أيضاً ـ كما في المواقف السّابقة ـ ينفع حبّ أهل البيت عليهم السلام في نجاة الإنسان من العذاب وخلاصه من النار؛ ولذا روي عن الإمام عليّ بن الحسين السجّاد عن أبيه عليهما السلام، قال:

---

١. سورة الأعراف: الآيتان ٨-٩.

٢. سورة القارعة: الآيات ٦-٩.

٣. الصدوق، التوحيد، ص٢٦٧.

٤. الصدوق، معاني الأخبار، ص٣١؛ و أيضاً انظر: الكيني، الكافي، ج١، ص٤١٩.

«قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: حُبُّ أَهْلِ بَيْتِي نَافِعٌ فِي سَبْعَةِ مَوَاطِنَ أَهْوَالُهُنَّ عَظِيمَةٌ: عِنْدَ الْوَفَاةِ وَفِي الْقَبْرِ وَعِنْدَ النُّشُورِ وَعِنْدَ الْكِتَابِ وَعِنْدَ الْحِسَابِ وَعِنْدَ الْمِيزَانِ وَعِنْدَ الصِّرَاطِ»[1].

٢. الصراط

الصراط جسر يوضع على جهنّم، ولا يتيسر الوصول إلى الجنّة إلّا بعد عبوره، والصراط من ضروريات الدّين الإسلاميّ أيضاً، فلا بدّ من الإيمان به. وصراط الآخرة مثال على الصراط المستقيم في الدنيا، وهو الدّين الحقّ وطريق الولاية والسير على نهج أمير المؤمنين والأئمّة المعصومين من ذرّيته عليهم السلام؛ فمن يعدل عن الصراط الدنيوي قولاً أو فعلاً وينزع إلى الباطل تزلّ قدمه من الصراط الأخروي. وتجدر الإشارة إلى أنّ «الصراط المستقيم» المذكور في سورة الفاتحة ناظر إلى الصراطين معاً[2]. وقد ورد في الأحاديث المأثورة عن أهل البيت عليهم السلام أنّ الصراط أدقّ من الشعرة وأحدّ من السيف[3].

وبشأن كيفية عبور النّاس من الصراط، أشير في الرّوايات إلى أنّهم يمرّون عليه على شكل طبقات، فمنهم من يمرّ مثل البرق، ومنهم من يمرّ مثل عدْو الفرس، ومنهم من يمرّ حبواً، ومنهم من يمرّ متعلّقاً قد تأخذ النار منه شيئاً وتترك شيئاً[4].

ولا بدّ من الالتفات إلى وجود ثلاث قناطر وعقبات يصعب عبورها على الصراط حسبما ورد في الرّوايات:

«... ثُمَّ يُوضَعُ عَلَيْهَا [جهنّم] الصِّرَاطُ، أَدَقَّ مِنَ الشَّعْرَةِ وَأَحَدَّ مِنَ السَّيْفِ، عَلَيْهَا ثَلَاثُ قَنَاطِرَ، فَأَمَّا وَاحِدَةٌ فَعَلَيْهَا الْأَمَانَةُ وَالرَّحِمُ، وَأَمَّا ثَانِيهَا فَعَلَيْهَا الصَّلَاةُ، وَأَمَّا الثَّالِثَةُ فَعَلَيْهَا عَدْلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ، لَا إِلَهَ غَيْرُهُ. فَيُكَلَّفُونَ الْمَمَرَّ عَلَيْهَا، فَتَحْبِسُهُمْ

---

١. الخزّاز الرازي، كفاية الأثر في النصّ علي الأئمّة الإثنى عشر، ص١٠٩؛ الصدوق، فضائل الشيعة، ص٦.

٢. انظر: تفسير الإمام العسكري عليه السلام، ص٤٤؛ الصدوق، معاني الأخبار، ص٣٢.

٣. انظر: الكليني، الكافي، ج٨، ص٣١٢؛ القمي، تفسير القمي، ج٢، ص٤٢١.

٤. انظر: الصدوق، الأمالي، ص١٧٧؛ الكوفي الأهوازي، الزهد، ص٩٣؛ و أيضاً انظر: المجلسي، بحارالأنوار، ج٨، باب ٢٢ الصراط.

الرَّحِمُ وَالْأَمَانَةُ؛ فَإِنْ نَجَوْا مِنْهَا حَبَسَتْهُمُ الصَّلَاةُ؛ فَإِنْ نَجَوْا مِنْهَا كَانَ الْمُنْتَهَى إِلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ جَلَّ وَعَزَّ، وَهُوَ قَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾، وَالنَّاسُ عَلَى الصِّرَاطِ، فَمُتَعَلِّقٌ بِيَدٍ، وَتَزُولُ قَدَمٌ وَيَسْتَمْسِكُ بِقَدَمٍ، وَالْمَلَائِكَةُ حَوْلَهَا يُنَادُونَ: يَا حَلِيمُ! اغْفِرْ وَاصْفَحْ وَعُدْ بِفَضْلِكَ وَسَلِّمْ سَلِّمْ. وَالنَّاسُ يَتَهَافَتُونَ فِي النَّارِ كَالْفَرَاشِ، فَإِذَا نَجَا نَاجٍ بِرَحْمَةِ اللهِ (عَزَّ وَجَلَّ) مَرَّ بِهَا فَقَالَ: الْحَمْدُ للهِ وَبِنِعْمَتِهِ تَتِمُّ الصَّالِحَاتُ وَتَزْكُو الْحَسَنَاتُ، وَالْحَمْدُ للهِ الَّذِي نَجَّانِي مِنْكِ بَعْدَ إِيَاسٍ بِمَنِّهِ وَفَضْلِهِ ﴿إِنَّ رَبَّنا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾»[1].

ويُستفاد من بعض الرّوايات أنّ العقبات والقناطر الموجودة على الصراط أكثر من ثلاثة؛ بل هي بعدد الواجبات من الأوامر والنواهي الإلهيّة، وتسمّى بأسمائها، إحداها باسم «الولاية»، فيوقف جميع الخلائق أمام تلك القنطرة ويُسألون عن ولاية الإمام عليّ والأئمّة المعصومين عليهم السلام؛ فلا يستطيع عبورها إلّا من كان مؤمناً بالولاية في الحياة الدنيا، ويسقط الآخرون في نار جهنّم، وقوله (سبحانه وتعالى): ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ﴾[2]، يشير إلى هذا الموقف وهذا السّؤال[3].

٣. الحوض

المراد من الحوض هو «حوض الكوثر» الّذي أعطاه الله (سبحانه وتعالى) للنبيّ صلى الله عليه وآله، وساقي الكوثر هو الإمام عليّ عليه السلام، وحوض الكوثر نهر عظيم من أنهار الجنّة، ماؤه أشدّ بياضاً من اللبن وأحلى من العسل، ومن يشرب منه لا يظمأ أبداً، والشرب منه في القيامة علامة على النجاة، وساقي الكوثر يسقي منه أولياءه ومحبّيه ويذود عنه أعداءه ومبغضيه[4].

قال رسول الله صلى الله عليه وآله:

«مَنْ أَرَادَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَخَلَّصَ مِنْ هَوْلِ ذَلِكَ الْيَوْمِ، فَلْيَتَوَلَّ وَلِيِّي وَلْيَتَّبِعْ وَصِيِّي

---

١. القمي، تفسير القمي، ج٢، ص٤٢١؛ المجلسي، بحار الأنوار، ج٨، ص٦٥.

٢. سورة الصافّات: الآية ٢٤.

٣. انظر: تفسير الإمام العسكري عليه السلام، ص٤٠٥ و أيضاً انظر: الكيني، الكافي، ج٢، ص٢٩٨؛ القمي، تفسير القمي، ج٢، ص٢٢٢.

٤. انظر: الصدوق، الأمالي، ص٢٢٧.

وَخَلِيفَتِي مِنْ بَعْدِي، عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ عليه السلام؛ فَإِنَّهُ صَاحِبُ حَوْضِي، يَذُودُ عَنْهُ أَعْدَاءَهُ وَيَسْقِي أَوْلِيَاءَهُ، فَمَنْ لَمْ يُسْقَ مِنْهُ لَمْ يَزَلْ عَطْشَانُ وَلَمْ يُرْوَ أَبداً، وَمَنْ سُقِيَ مِنْهُ شَرْبَةً لَمْ يَشْقَ وَلَمْ يَظْمَأْ أَبداً»[1].

٤. ظهور عظمة رسول الله وأئمّة الهدى يوم القيامة

تتجلّى يوم القيامة عظمة رسول الله صلى الله عليه وآله وأئمّة الهدى عليهم السلام؛ حيث يحتلّون أرفع مراتب القرب الإلهيّ، فيفوض لهم الباري (سبحانه وتعالى) أمور القيامة، ويصبحون محوراً لحوادث القيامة. وكما ذكرنا سابقاً، يُسأل الخلائق في موقف الحساب عن حبّ أهل البيت عليهم السلام، فورد في هذا المجال:

«وَإِيَابُ الْخَلْقِ إِلَيْكُمْ وَحِسَابُهُمْ عَلَيْكُمْ»[2].

إنّ الأئمّة من أهل البيت عليهم السلام هم الشهداء على أعمال الخلق والموازين الإلهيّة لقياس الخطإ من الصواب، ولا يجوز أحد الصراط إلّا باتّباعهم في دار الدنيا، فهم الصراط الإلهيّ المستقيم؛ ولذا أعطاهم الله (سبحانه وتعالى) مقام الشفاعة ليشفعوا لأوليائهم ومحبّيهم، وهم أصحاب الحوض والساقون للخلق يوم القيامة؛ حيث يسقون أهل النجاة من الكوثر. ويتولّى أمير المؤمنين عليه السلام رفع راية الحمد ولواء القيامة بيديه المباركتين، فيُدخل الجنّة من يشاء ويُدخل النّار من يشاء؛ ذلك أنّ الله وهبه لقب «قسيم الجنّة والنّار»[3].

---

١. الصدوق، الأمالي، ص٢٧٩.

٢. من الزيارة الجامعة الكبيرة.

٣. انظر: الصفار، بصائر الدرجات، ص٤١٥؛ المفيد، تفضيل أمير المؤمنين عليه السلام، ص٢٩.

*** الأسئلة**

١. اشرح حتمية الميزان وحقيقته مستعيناً بالآيات والروايات.

٢. ما معنى الصراط ؟ وما هو ارتباطه بالصراط المستقيم في الدنيا؟ كيف تثبت هذا الارتباط ؟

٣. ما المراد من حوض الكوثر؟ بيّن دور النبيّ الأكرم ﷺ وأهل البيت عليهم السلام في هذا الموقف من خلال البحث في الرّوايات.

*** موضوع للبحث**

- برأيك ما السّبب في بروز عظمة رسول الله ﷺ وأهل البيت عليهم السلام في القيامة ؟ وما الّذي يمكن أن يُستفاد من أحاديث المعصومين عليهم السلام في هذا الخصوص؟

٥٦

الشّفاعة يوم القيامة

يُعتبر موضوع الشّفاعة من الموضوعات المهمة والمثيرة في موقف الحساب، والشفاعة من الأمور المسلّمة والمؤكدة في الفكر الإسلاميّ والمنسجمة مع الموازين العقليّة أيضاً. وبعد إيضاح المفهوم الدقيق للشّفاعة وأبعادها وأهميتها، يمكن الردّ على الشبهات المطروحة في هذا المجال.

الشفاعة لغةً تعني ضمّ شيءٍ إلى مثله، واصطلاحاً السُّؤال في التّجاوز عن الذّنوب والجرائم[١]. والشفاعة في الآخرة تصدر ممن له مقام الشفاعة للصفح عن ذنوب أهل الإيمان؛ حيث يتوسط الشفيع إلى الله (سبحانه وتعالى) في أن يعفو عن المذنبين وينقذهم من العذاب.

١. أهمية الإيمان بالشفاعة

تبلغ أهمية الإيمان بالشفاعة إلى درجة أنّ المؤمن بها يعدّ مؤمناً حقيقيّاً، والمنكر لها خارج عن دائرة الشّيعة. قال الإمام أبوالحسن الرّضا عليه السلام:

«مَنْ أَقَرَّ بِتَوْحِيدِ اللهِ... وَآمَنَ بِالْمِعْرَاجِ وَالْمُسَاءَلَةِ فِي الْقَبْرِ وَالْحَوْضِ وَالشَّفَاعَةِ وَخَلْقِ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ وَالصِّرَاطِ وَالْمِيزَانِ وَالْبَعْثِ وَالنُّشُورِ وَالْجَزَاءِ وَالْحِسَابِ، فَهُوَ مُؤْمِنٌ حَقّاً، وَهُوَ مِنْ شِيعَتِنَا أَهْلَ الْبَيْتِ»[٢].

---

١ . انظر: ابن منظور، لسان العرب، ج٨، ص١٨٣.

٢ . الصدوق، صفات الشيعة، ص٥٠.

٢. المفهوم الصحيح للشفاعة

يختلف معنى الشفاعة في الأدبيات القرآنيّة عنها في أذهان عوامّ النّاس؛ فربّما تعني الشفاعة لدى السواد الأعظم أنّ الشفيع يستفيد من مكانته وشخصيته ونفوذه لتغيير رأي صاحب سلطة معينة بشأن معاقبة من هم تحت سيطرته. والشفاعة بهذا المعنى هي - بعبارة موجزة - لا تعني حدوث أيّ تغيير في المحتوى النفسي والفكري للمجرم أو المتّهم؛ بل تؤدي إلى إضعاف روح الاجتهاد والعمل الدؤوب، وتحضّ الشّخص على ارتكاب المعصية والتخلّي عن المسؤولية؛ وبالتالي، تدخل في دائرة الشرك.

ثمّ إنّ هذا اللون من الشفاعة ليس له مكانة في المفهوم الديني على الإطلاق؛ لأنّ الله (سبحانه وتعالى) لا يخطئ حتّى يتوسط الشفيع في تغيير رأيه، ولا يحمل تلك العواطف الموجودة في نفس الإنسان كي يمكن إثارة عواطفه، ولا يهاب نفوذ شخص كي ينصاع لأوامره، ولا يدور ثوابه وعقابه حول محور غير محور العدالة.

المفهوم الآخر للشفاعة يقوم على أساس تغيير موقف «المشفوع له»، أي إنّ الشّخص المشفوع له يوفر في نفسه الظروف والشروط الّتي تؤهّله للخروج من وضعه السيّء الموجب للعقاب، وينتقل - عن طريق الشفيع - إلى وضع مطلوب حسن يستحقّ معه العفووالسماح. والإيمان بهذا النوع من الشفاعة - كما سنرى - يربي الإنسان، ويصلح الأفراد المذنبين، ويبعث فيهم الصحوة واليقظة، والشفاعة في الإسلام لها هذا المفهوم السامي. وسنرى أنّ كلّ الاعتراضات والانتقادات والحملات الّتي توجّه إلى مسألة الشفاعة، إنّما تنطلق من فهم الشفاعة بالمعنى الأولي المنحرف، ولا تلتفت إلى المعنى الثّاني المنطقي المعقول البنّاء[١].

وبحسب المعنى الأخير للشفاعة، يأخذ الشفيع بيد الشّخص المخطئ والنادم على ما بدر منه ليساعده على تجاوز أزمته ومنع وقوعه في ضرر أكبر. وفي المقابل؛ فإنّ الشّخص المذنب الّذي يشعر بوجود سند قوي ومؤثر سيحدوه الأمل ويسعى جاهداً إلى العودة إلى الطريق الصحيح. والشفاعة هنا تعني مرافقة الآخر لغرض النجاة وبلوغ الفلاح.

---

١. انظر: مكارم الشيرازي، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج١، ص٢٠٠-٢٠١.

٣. الشفاعة في القرآن الكريم

تنقسم الآيات الواردة في موضوع الشفاعة إلى طائفتين، الطائفة الأولى تنفي قبول الشفاعة وتأثيرها في الآخرة، ومنها:

﴿اَنْفِقُوا مِمّا رَزَقْناكُمْ مِنْ قَبْلِ اَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا بَيْعٌ فيهِ وَلا خُلَّةٌ وَلا شَفاعَةٌ﴾[١].

﴿... وَلا يُقْبَلُ مِنْها شَفاعَةٌ وَلا يُؤْخَذُ مِنْها عَدْلٌ﴾[٢].

والطائفة الثّانية تقرّ بالشفاعة بإذن الله (سبحانه وتعالى)، وترى أنّها مفيدة للإنسان، ومنها:

﴿مَنْ ذَا الَّذى يَشْفَعُ عِنْدَهُ اِلّا بِاِذْنِهِ﴾[٣].

﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمٰواتِ لا تُغْنى شَفاعَتُهُمْ شَيْئاً اِلّا مِنْ بَعْدِ اَنْ يَأْذَنَ اللهُ لِمَنْ يَشاءُ وَيَرْضى﴾[٤].

وفي ضوء هاتين الطائفتين من الآيات القرآنيّة، يتبيّن أنّ المقصود من نفي الشفاعة في الطائفة الأولى هو الاستقلال في الشفاعة. بعبارة أخرى: آيات الطائفة الأولى تؤكد أنّه لا يمكن لأحد الشفاعة بصورة مستقلّة، ولا تُقبل الشفاعة من أحد دون إذن الله (سبحانه وتعالى)، ولا طائل منها في هذه الحالة؛ في حين أنّ الطائفة الثّانية من الآيات تثبت صحّة الشفاعة بعد إذن الباري (سبحانه وتعالى)، وتكشف أنّ الشفاعة بإذن الله تُقبل من الإنسان في عالم الآخرة وتنفعه.

٤. الشفعاء

ذكرنا أنّ الشفاعة لا تُقبل إلّا ممن أذن لهم الله، والسؤال المهمّ المتبادر هنا هو: من هم الأشخاص الحاصلون على هذه الإذن الّذين تُقبل شفاعتهم يوم القيامة؟

---

١ . سورة البقرة: الآية ٢٥٤.

٢ . سورة البقرة: الآية ٤٨.

٣ . سورة البقرة: الآية ٢٥٥.

٤ . سورة النجم: الآية ٢٦.

ورد في الرّوايات الإسلاميّة أنّ من يؤذن له بالشفاعة هم الأنبياء والأوصياء والعلماء والشهداء، ويحظى نبيّ الإسلام ﷺ والأئمّة المعصومون عليهم السلام بمكانة خاصّة في هذا المجال وفي موضوع الشفاعة؛ ولذا قال النبيّ الكريم ﷺ:

«إِنّي لَأَشْفَعُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأُشَفَّعُ، وَيَشْفَعُ عَلِيٌّ فَيُشَفَّعُ، وَيَشْفَعُ أَهْلُ بَيْتِي فَيُشَفَّعُونَ»[١].

وقال في موضع آخر:

«ثَلَاثَةٌ يَشْفَعُونَ إِلَى اللهِ (عَزَّ وَجَلَّ) فَيُشَفَّعُونَ: الْأَنْبِيَاءُ ثُمَّ الْعُلَمَاءُ ثُمَّ الشُّهَدَاءُ»[٢].

٥. شروط التشفّع

النقطة الأخرى ترتبط بشروط من يُشفع لهم يوم القيامة، وهو ما نوّهت به الرّوايات على نطاق واسع، ومن أهمّ هذه الشروط عدم الكفر والشرك والبغض لأهل البيت عليهم السلام؛ وعليه فالشفاعة لا تشمل سوى المؤمنين المرتكبين لبعض الذّنوب والمعاصي. قال النبيّ الأكرم ﷺ في هذا الصدد:

«وَالشَّفَاعَةُ لَا تَكُونُ لِأَهْلِ الشَّكِ وَالشِّرْكِ وَلَا لِأَهْلِ الْكُفْرِ وَالْجُحُودِ؛ بَلْ يَكُونُ لِلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَهْلِ التَّوْحِيدِ».[٣]

كما روي عن الإمام أبي جعفر الباقر عليه السلام أنّه قال:

«إِنَّ أَعْدَاءَ عَلِيٍّ هُمُ الْخَالِدُونَ فِي النَّارِ، لَا تُدْرِكُهُمُ الشَّفَاعَةُ».[٤]

٦. موضوع الشفاعة

موضوع الشفاعة هو الركن الآخر من أركان الشفاعة؛ حيث يتبادر إلى الأذهان سؤال مفاده: هل الشفاعة شاملة لجميع الذّنوب والمعاصي أمّ إنّها مختصّة ببعضها فقط؟

---

١. ابن شهرآشوب، مناقب آل أبى طالب، ج٢، ص١٦٥؛ المجلسي، بحار الأنوار، ج٨، ص٤٣.

٢. الصدوق، الخصال، ج١، ص١٥٦؛ الحميري، قرب الإسناد، ص٦٤.

٣. الصدوق، الاعتقادات، ص٦٦؛ المجلسي، بحار الأنوار، ج٨، ص٥٨.

٤. الكوفي الأهوازي، الزهد، ص٩٦؛ المجلسي، بحار الأنوار، ج٨، ص٣٦١.

يستفاد من الرّوايات أنّ الشفاعة تقتصر على الحقوق الإلهيّة ولا تشمل حقوق النّاس؛ إذ لا بدّ لصاحب الحقّ من أن يهب حقّه أو يصفح عمّن سلبه إيّاه. نعم، ورد بشأن بعض عباد الله التائبين توبة حقيقية ولا يستطيعون أداء حقّ النّاس إليهم، أنّ الله (سبحانه وتعالى) يعطي أصحاب الحقّ يوم القيامة عطايا كثيرة ليرضيهم بالتنازل عن هؤلاء العباد التائبين وإبراء ذمّتهم؛ لكنّ الشفاعة عموماً لا ترتبط بحقوق النّاس.

كذلك ذُكر أنّ الشفاعة لا تنال مرتكب بعض الذّنوب والمعاصي المتعلّقة بحقّ الله (سبحانه وتعالى)؛ فعلى سبيل المثال، قال الإمام أبوعبد الله الصادق عليه السلام عند احتضاره لولده الإمام موسى بن جعفر الكاظم عليه السلام:

«لَا يَنَالُ شَفَاعَتَنَا مَنِ اسْتَخَفَّ بِالصَّلَاةِ»[1].

ومن هذا المنطلق، وفي ضوء أهمية الشفاعة في سعادة الإنسان الأبدية وآثارها التربوية المهمّة، لا ينبغي للإنسان تعليق آماله على الشفاعة وتصوّر الحصول عليها بسهولة ودون العمل الدؤوب والسعي الحثيث.

❁ الأسئلة

١. اذكر المعنى الصحيح وغير الصحيح للشفاعة وقارن بينهما.
٢. اشرح آثار الإيمان بالشفاعة على حياة الإنسان.
٣. إئتِ بأمثلة على الآيات الدالّة على نفي الشفاعة وبيّن معناها.
٤. من هم الشفعاء؟ ادعم جوابك بأحاديث تؤيد كلامك.
٥. ما هي شروط الشفاعة؟ ولماذا لا تشمل الشفاعة طائفة من النّاس؟

❁ موضوع للبحث

- ما الفرق بين الذّنوب والمعاصي الّتي تشملها الشفاعة وبين سائر الذّنوب الأخرى؟

---

١. الكليني، الكافي، ج٣، ص٢٧٠.

٥٧

صفات الجنّة

تحدّثنا إلى الآن عن المواقف المختلفة للآخرة، واتّضح أنّ آخر موقف من مواقف القيامة هي الجنّة الّتي تكون جزاءً للمحسنين. ولمعرفة المزيد حول هذه النعمة الإلهيّة الكبرى، سنطرح في الدرسين القادمين بحوثاً في هذا الخصوص، وسنبحث في هذا الدّرس صفات الجنّة.

بعد تجاوز المواقف المختلفة للقيامة والمتمثلة بإعطاء صحيفة الأعمال والحساب والميزان والعبور من الصراط، يفترق النّاس إلى فئتين: فئة أهل الإيمان والعمل الصالح وفئة أهل الكفر والشرك والنفاق والمعصية؛ فتحصل كلّ فئة على ما تستحقّه وما وعدها الله به. وعليه، تكسب الفئة الأولى الثواب الإلهيّ المنشود وتنتظر الفئة الثّانية العقاب والعذاب الإلهيّ الشديد؛ لتنال جزاء أعمالها في حال فقد الشفاعة والعفو الإلهيّ.

الثواب يعني الجزاء الحسن والأجر، والمقصود به إعطاء الأجر للمؤمنين المحسنين، والعقاب يعني مجازاة المسيئين بالعقوبة الّتي يستحقّونها. ولما كان الله (سبحانه وتعالى) كريماً بعباده منّ عليهم بفضله وجوده بمضاعفة الحسنة إلى عشرة أمثالها، بينما لا يجازى العمل السيّء إلّا بمثله ودون زيادة؛ ولذا قال الباري (عزّوجلّ) في محكم كتابه الكريم:

﴿مَنْ جَآءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَآءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾[1].

---

١. سورة الأنعام: الآية ١٦٠.

إنّ الجنّة هي المأوى الأبدي للمحسنين، وهي تحتوي على جميع الكمالات والفضائل دون استثناء، وحسبها في الأهميّة أنّ القرآن الكريم كلّما ذكر هذا المقام أردفه بتعبير: «فوز عظيم»[١]، ولا ينال هذه العطية الإلهيّة إلّا من استفاد من دنياه على النحو الأكمل بالتخطيط الدقيق والمنهجيّة الواضحة، ولم يضيّع الفرص الّتي أمامه ولم يفرّط بما آتاه الله.

١. أسماء الجنّة

ذُكرت أسماء متعدّدة للجنّة في القرآن الكريم، لكنّ الاسم الأشهر لها هو «الجنّة»، وقد وردت الإشارة إليه مع مشتقّاته أكثر من مئة مرّة في القرآن. والجنّة مشتقّة من المادّة «جنّ» بمعنى الستر، وهي تعني أيضاً البستان الحاوي للشجر؛ ذلك أنّ الشجر بورقه يستر.[٢]

وقد اكتسبت الجنّة أهميّتها من الحدائق والبساتين الكثيرة والمتنوّعة وغير المسبوقة الّتي ذُكرت لها، وجرى التّعبير عنها بتعابير أخرى مركبة من الجنّة وكلمة أخرى، نظير: جنّة الخلد، جنّة عدن، جنّة النّعيم، جنّة المأوى، جنّة الفردوس.

٢. درجات الجنّة

إنّ كلّ واحد من الأسماء المتقدّمة للجنّة يشير إلى درجة معينة فيها. من هنا، ورد في رواية عن النبيّ الأكرم ﷺ أنّه قال:

«الْجَنَّةُ مِائَةُ دَرَجَةٍ، مَا بَيْنَ كُلِّ دَرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ. الْفِرْدَوْسُ أَعْلَاهَا دَرَجَةً، مِنْهَا تُفَجَّرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ الْأَرْبَعَةُ، فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللهَ فَاسْأَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ»[٣].

ومن الواضح أنّ لكلّ شخص من أهل الإيمان درجة ومرتبة خاصّة، يتمّ تحديدها بدقّة في موقف الميزان، وهذا الاختلاف في الدرجات يتطلب تعدّد درجات الجنّة أيضاً؛ ليتنعّم كلّ مؤمن بالنِّعم الّتي يستحقّها في الدرجة المناسبة له.

---

١. انظر على سبيل المثال: سورة المائدة: الآيتان ١٣ و١٩؛ سورة التوبة: الآيات ٨٩ و١٠٠ و١١١.

٢. ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، ج١، ص٤٢١؛ ابن منظور، لسان العرب، ج١٣، ص٩٢.

٣. الطبرسي، مجمع البيان، ج٣، ص٤٩٨؛ الفيض الكاشاني، التفسير الصافي، ج٣، ص٢٦٨.

٣. أبواب الجنّة

من الخصائص الأخرى للجنّة، عدد أبوابها الكثيرة، فقد ورد في روايات عدّة أنّ لها ثمانية أبواب، وهذا ما أكد عليه أمير المؤمنين عليه السلام في أحد أحاديثه؛ حيث ذكر أنّ كلّ باب من تلك الأبواب مخصّص لدخول فئة معينة من المؤمنين: باب يدخل منه النبيّون والصدّيقون، وباب يدخل منه الشهداء والصالحون، وخمسة أبواب يدخل منها الشّيعة والمحبّون لأهل البيت عليهم السلام[١].

الموضوع الآخر المتعلّق بالجنّة والّذي أشارت له المصادر الإسلاميّة هو الملائكة الموجودون فيها والمعبّر عنهم بـ«الخزَنة»؛ حيث ذكر القرآن الكريم هذا النوع من الملائكة، مضيفاً أنّهم يستقبلون من يدخل الجنّة من المؤمنين بالسلام والترحاب، فقال (سبحانه وتعالى):

﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَراً حَتَّىٰ إِذا جاءُوها وَفُتِحَتْ أَبْوابُها وَقالَ لَهُمْ خَزَنَتُها سَلامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوها خالِدِينَ﴾[٢].

جرى التّعبير في الرّوايات عن حرّاس الجنّة من الملائكة بـ«سدَنة الجنّة»[٣]، وكبيرهم يدعى «رضوان خازن الجنّة»[٤].

٤. تنوّع النِّعم في الجنان

يتنوّع النعيم الإلهيّ الّذي يعطى للمؤمنين في الجنان إلى درجة عدم إمكان التصوّر بحسب الآيات والروايات؛ ذلك أنّ النِّعم واللذات الدنيويّة زائلة وفانية، فلا يمكن مقارنتها بالنعيم الأخروي الدائم والّذي لا يزول أبداً من حيث كونه لذة متمحّضة، وكفى دليلاً على ذلك أنّ النِّعم الأخرويّة لا تخطر على قلب إنسان، فضلاً عن أن يكون قد رآها أو سمع بها أحد من البشر؛

---

١ . انظر: الصدوق، الخصال، ج٢، ص٤٠٨؛ المجلسي، بحار الأنوار، ج٨، ص١٢١.

٢ . سورة الزمر: الآية ٧٣.

٣ . انظر: الصحيفة السجّاديّة، الدعاء الثالث.

٤ . القمي، تفسير القمي، ج٢، ص٣٢٥؛ المجلسي، بحار الأنوار، ج٧، ص٣٢٧.

ولذا قال الباري (سبحانه وتعالى):

«أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلَا خَطَرَ بِقَلْبِ بَشَرٍ»[١].

وجاء في حديث عن الإمام أبي جعفر الباقر عليه السلام في وصف نعيم الجنّة:

«إنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ يُحْيَوْنَ فَلَا يَمُوتُونَ أَبَداً، وَيَسْتَيْقِظُونَ فَلَا يَنَامُونَ أَبَداً، وَيَسْتَغْنُونَ فَلَا يَفْتَقِرُونَ أَبَداً، وَيَفْرَحُونَ فَلَا يَحْزَنُونَ أَبَداً، وَيَضْحَكُونَ فَلَا يَبْكُونَ أَبَداً، وَيُكْرَمُونَ فَلَا يُهَانُونَ أَبَداً، وَيَفْكَهُونَ وَلَا يَقْطِبُونَ أَبَداً، وَيُحْبَرُونَ وَيُسَرُّونَ أَبَداً، وَيَأْكُلُونَ فَلَا يَجُوعُونَ أَبَداً، وَيَرْوُونَ فَلَا يَظْمَئُونَ أَبَداً، وَيَكْسُونَ فَلَا يَعْرُونَ أَبَداً، وَيَرْكَبُونَ وَيَتَزَاوَرُونَ أَبَداً»[٢].

الأسئلة

١. لماذا خُلقت درجات ومراتب مختلفة في الجنّة؟ وبماذا تختلف بعض هذه الدرجات عن بعضها الآخر؟

٢. اكتب ما تعرفه عن خزَنة الجنّة وسدنتها والمسؤوليات المناطة بهم.

٣. ما العلاقة برأيك بين درجات الجنّة وأبوابها وتنوّع النِّعم في الجنان؟

موضوع للبحث

- اكتب بحثاً حول الرّوايات الواردة في مجال منزلة الشّيعة الخلّص من رسول الله صلى الله عليه وآله وأهل البيت عليهم السلام في الجنّة.

---

١. ابن فهد الحلي، عدّة الداعي ونجاح الساعي، ص١٠٩؛ المجلسي، بحار الأنوار، ج٨، ص١٩١.

٢. المفيد، الاختصاص، ص٣٥٨؛ المجلسي، بحار الأنوار، ج٨، ص٢٢٠.

٥٨

النّعيم الأخروي

يُكافَئُ المحسنون في الجنّة بنِعَم متنوّعة وغير متناهية، وبذلك يُختتم آخر موقف للمؤمنين بحسن العاقبة[1] ويكون مصيرهم الحبور في النّعيم الأبدي. وفي هذا الدّرس، سنبحث أنواع النِّعم الأخرويّة في الجنّة، ونثبت أنّ أهل الجنّة سيحصلون على النّعيم المادّي والمعنوي معاً.

إنّ الجنّة مكان الحصول على اللذات، ولما كان الإنسان في الحياة الدنيا يتمتع باللذات المادّيّة والمعنويّة فإنّه سينال كلتا هاتين اللذتين في الجنّة أيضاً؛ لكنّ المقصود من اللذات المادّيّة تلك اللذات الفاقدة لجميع أنواع العيوب والنقائص الدنيويّة، أو فقل: اللذات الخالصة. كما إنّ أهل الجنّة مفتقرون إلى الصّفات الدنيويّة المؤدّية إلى القصور أو النقص في العيش واللذة[1]. من هنا، ليس في الجنّة ما يهدم اللذات الدنيويّة، أي الموت والفناء؛ لأنّ الجنّة دار للخلود والبقاء. مضافاً إلى أنّ سكان الجنّة لا يواجهون الهرم والمرض والعمى والصمم والهمّ والغمّ والألم، ولا يهدّدهم الفقر والفاقة والتخلّف والعجز، ولا وجود بينهم للرذائل الأخلاقيّة كالبغض والحسد والعداوة والجدال والنزاع؛ لأنّ الجنّة منزل الطاهرين والمحسنين. وبهذا فهم يحصلون على كلّ ما يشاؤون[2].

ومن البديهي أنّ إدراك حقيقة النعيم الأخروي ولذات الجنّة خارج عن دائرة الفكر البشري؛

---

١. انظر: المجلسي، حقّ اليقين، ص٤٩١-٥١٠.

٢. انظر: المصدر نفسه، ص٤٩١.

ذلك أنّ الإنسان في الدنيا لا يعي سوى اللذائذ المحدودة الّتي يشوبها النقص الدنيوي، ولا يسعه إدراك اللذة الأخرويّة الخالصة مطلقاً، كما هو الحال في الطفل الّذي يرى أنّ لذات الحياة محصورة بتناول الحلويات واللهو واللعب الطفولي، ولا يمكنه إدراك لذات مرحلة الشباب وما بعدها، وإنّما يدرك لذات كلّ مرحلة من مراحل العمر وتتجسّد له عند بلوغه تلك المرحلة فقط. وعلى هذا الأساس، ليس في هذه الدنيا إلّا مراتب محدودة من اللذة، وتبلغ هذه المراتب ذروتها في الآخرة. ولما كان من المتعذر علينا إدراك اللذات الدنيويّة في المراحل الأعلى من أعمارنا، فمن المسلّم به عدم إمكان إدراك قمّة اللذة الّتي تحصل في الجنّة، ولا بدّ لنا من التماس الوصف السماوي لها.

لقد شدّد القرآن الكريم على أنّ أهل الجنّة يحصلون على كلّ ما يريدون، وأنّ الله (سبحانه وتعالى) يزيدهم من فضله، وفي هذا إشارة إلى النِّعم الخارجة عن التصور البشري والّتي تقرّ بها أعينهم في الآخرة:

﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾[1].

وسنعمد في ما يأتي إلى بيان نِعَم الجنّة ضمن نقاط متعدّدة اعتماداً على الكتاب والسنّة:

١. رحابة منزل أهل الجنّة

إنّ منازل أهل الجنّة واسعة جدّاً، فالمؤمن الموجود في أسفل درجات الجنّة له مثل الدنيا عشر مرّات[2]. وللمؤمنين فيها غرف كبيرة وقصور فخمة، اعتُبرت في الآيات القرآنيّة من النِّعم الإلهيّة للإنسان جزاءً لأفعاله:

﴿لَٰكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِنْ فَوْقِهَا غُرَفٌ مَبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ﴾[3].

وجاء في حديث لرسول الله صلى الله عليه وآله ردّاً على سؤال لأمير المؤمنين عليه السلام مفاده: لماذا بُنيت هذه

---

١. سورة ق: الآية ٣٥.

٢. انظر: الصدوق، الاعتقادات، ص٨٠؛ أيضاً انظر: المجلسي، بحار الأنوار، ج٨، ص٢٠١، باب ٢٣ الجنّة و نعيمها.

٣. سورة الزمر: الآية ٢٠.

الغرف؟؛ فقال:

«تِلْكَ الْغُرَفَ بَنَى اللهُ لِأَوْلِيَائِهِ بِالدُّرِّ وَالْيَاقُوتِ وَالزَّبَرْجَدِ، سُقُوفُهَا الذَّهَبُ، مَحْكُوكَةً بِالْفِضَّةِ، لِكُلِّ غُرْفَةٍ مِنْهَا أَلْفُ بَابٍ مِنْ ذَهَبٍ، عَلَى كُلِّ بَابٍ مِنْهَا مَلَكٌ مُوَكَّلٌ بِهِ»[1].

وورد في صفات الجنّة أنها دار بقاء وسلام، وليس فيها ليل ولا ظلمة، ونورها ليس من الشّمس ولا القمر؛ بل هو نور المؤمنين يضيء في أرجائها[2].

٢. الرفقاء في الجنّة

من أهمّ ما يميّزالنِّعم الإلهيّة في الجنّة، مجالسة الأشخاص الكبار ومرافقة الأولياء الإلهيين الّذين تطغى عليهم روح المحبّة والألفة والحنوولا يخامرهم الحقد والحسد والعداء، كما إنّ التجمّعات فيها بعيدة عن اللغووالعبث، ويسودها الأنس والمودّة والصداقة الحميمة، حتى إنّ الباري (سبحانه وتعالى) امتدح تلك الصداقة قائلاً:

﴿وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقاً﴾[3].

وينزع الباري (سبحانه وتعالى) من صدور أهل الجنّة جميع أشكال الحقد والحسد، فيتلذّذون بالتواجد معاً ويضمرون لبعضهم مشاعر الأخوّة:

﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَاناً عَلَىٰ سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾[4].

ومنهم من لا ينطق إلّا بالتحية والسلام، فلا يُسمع منهم أيّ كلام قبيح:

﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيماً * إِلَّا قِيلاً سَلَاماً سَلَاماً﴾[5].

وورد في وصف مجالس أهل الجنّة أنّهم على سرر منسوجة بقضبان الذهب، مشبّكة بالدرّ والجواهر، متّكئين عليها متقابلين، أي متحاذين كلّ واحد منهم بإزاء الآخر، يطوف

---

١ . الكليني، الكافي، ج٨، ص٩٧؛ المجلسي، بحار الأنوار، ج٨، ص١٢٨.

٢ . انظر: المجلسي، حقّ اليقين، ص٤٩١-٤٩٢؛ و أيضاً انظر: المجلسي، بحار الأنوار، ج٨، ص٩٠ و ج٦٣، ص٣٤٠.

٣ . سورة النساء: الآية ٦٩.

٤ . سورة الحجر: الآية ٤٧.

٥ . سورة الواقعة: الآيتان ٢٥-٢٦.

عليهم ولدان، أي وُصَفاء وغِلمان للخدمة، مخلّدون أي باقون لا يموتون ولا يهرمون ولا يتغيّرون، بأكواب - وهي الأقداح الواسعة الرؤوس - لا خراطيم لها، وأباريق - وهي الّتي لها خراطيم وعرى - وكأسٍ من معينٍ، أي ويطوفون أيضاً عليهم بكأس من خمر معين، أي ظاهر للعيون جارٍ، لا يصدّعون عنها، أي لا يأخذهم من شرابها صداع، ولا ينزفون أي لا تنزف عقولهم بالسكر، وفاكهة ممّا يتخيرون، أي ممّا يختارونه ويشتهونه، ولحم طير ممّا يشتهون، وحور عين كأمثال اللؤلؤ المكنون، أي الدرّ المخزون المصون في الصدف الّذي لم تمسّه الأيدي، لا يسمعون فيها لغواً، أي ما لا فائدة فيه من الكلام، ولا تأثيماً أي لا يتكلمون بما فيه إثم، إلّا قيلا سلاماً سلاماً، أي لا يسمعون إلّا قول بعضهم لبعض على وجه التحية: سلاماً سلاماً[١].

٣. أهل الجنّة في سرور ونشاط

من النِّعم الأخرى الّتي يتنعّم بها أهل الجنّة، الفرح والسرور الّذي يتراءى في وجوههم، وهذا ما يستفاد من بعض الآيات القرآنيّة، نحو قوله (سبحانه وتعالى):

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ﴾[٢].

﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ﴾[٣].

٤. طعام أهل الجنّة وشرابهم

يتمثل بعض النعيم الأخروي ولذات أهل الجنّة بالأطعمة والأشربة؛ حيث تتنوع الأطعمة هناك إلى درجة أنّهم يحصلون على كلّ ما يشتهونه من لحوم وفواكه، وقد وصف القرآن الكريم أنواع الأطعمة والأشربة الّتي تعدّ لأهل الجنّة بقوله:

﴿وَفَاكِهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ * وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ﴾[٤].

---

١ . انظر: المجلسي، حقّ اليقين، ص٤٩٢؛ المجلسي، بحار الأنوار، ج٨، ص١٠٨-١٠٩.

٢ . سورة الغاشية: الآية ٨.

٣ . سورة المطفّفين: الآية ٢٤.

٤ . سورة الواقعة: الآيتان ٢٠-٢١.

كذلك أشربة الجنّة طازجة وخالصة ونقيّة، وقد أشير إلى بعضها في قوله (سبحانه وتعالى):

﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾[1].

ومن جملة نعيم أهل الجنّة، شجرة طوبى، تلك الشجرة العظيمة الّتي تشكل جزءاً من طعام أهل الجنّة، وطوبى شجرة في الجنّة، أصلها في دار رسول الله ﷺ، وليس من مؤمن إلّا وفي داره غصن من أغصانها[2].

٥. لباس أهل الجنّة وزينتهم

من النِّعم الأخرى الّتي أفاضها الباري (سبحانه وتعالى) على عباده المؤمنين في الجنّة، اللباس الفاخر والتزيّن بالحليّ ومختلف أنواع الزينة، ما يغمرهم بالسعادة ويجعلهم يشعرون باللذّة والسرور الدائم، وقد وصف القرآن الكريم زينة أهل الجنّة ولباسهم قائلاً:

﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَاباً خُضْراً مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ﴾[3].

وأوضحت الرّوايات تفاصيل زينة المؤمن ولباسه في الجنّة، فروي:

«إِذَا دَخَلَ الْمُؤْمِنُ إِلَى مَنَازِلِهِ فِي الْجَنَّةِ وُضِعَ عَلَى رَأْسِهِ تَاجُ الْمُلْكِ وَالْكَرَامَةِ، وَأُلْبِسَ حُلَلَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْيَاقُوتِ وَالدُّرِّ، مَنْظُوماً فِي الْإِكْلِيلِ تَحْتَ التَّاجِ، وَأُلْبِسَ سَبْعُونَ حُلَّةً بِأَلْوَانٍ مُخْتَلِفَةٍ، مَنْسُوجَةً بِالذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَاللُّؤْلُؤِ وَالْيَاقُوتِ الْأَحْمَرِ، وَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤاً وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾»[4].

---

١. سورة محمّد: الآية ١٥.

٢. انظر: الكليني، الكافي، ج٢، ص٢٣٩؛ الصدوق، الخصال، ج٢، ص٤٨٣؛ المجلسي، بحار الأنوار، ج٨، ص١٣١.

٣. سورة الكهف: الآية ٣١.

٤. الكليني، الكافي، ج٨، ص٩٨؛ القمي، تفسير القمي، ج٨، ص٩٨؛ المجلسي، بحار الأنوار، ج٨، ص١٢٨.

٦. أزواج أهل الجنّة

إلى جانب القصور الفارهة واللباس الفاخر والثمار المتنوعة، يتنعّم أهل الجنّة بأزواج جميلات وحوريات مطهرات ومنزّهات من جميع أشكال العيوب الظّاهريّة والباطنيّة؛ ما يوفر أجواءً لا توصف من الراحة والاستقرار، وقد ورد الحديث عن تلكم الأزواج وخصائصهنّ في القرآن الكريم والأحاديث مراراً وتكراراً، فعبّرت عنها بعض الآيات القرآنيّة بـ«الأزواج» أو «الحور العين»، وهي شاملة لكلا الجنسين من الرجال والنساء؛ فكما وُعد الرجال بزوجات صالحات من نساء الجنّة، كذلك تحصل النساء الصالحات في الدنيا على أزواج مطهرون في الجنّة. قال (سبحانه وتعالى):

﴿وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾[١].

﴿وَحُورٌ عِينٌ * كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُوِ ٱلْمَكْنُونِ﴾[٢].

وأشير في بعض الآيات إلى وصف الحور العين اللواتي يحصل عليهنّ الرّجل المؤمن، وذُكر بأنّهنّ لا ينظرن إلى أحد سوى أزواجهنّ، ويشبهن في جمالهنّ الياقوت والمرجان:

﴿فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ *... كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾[٣].

والتعبير الآخر الّذي استعمله القرآن الكريم بشأن الحور ونساء الجنّة هو «الخيرات الحِسان»:

﴿فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ﴾[٤].

سئل الإمام أبوعبد الله الصادق عليه السلام في رواية عن معنى الخيرات الحسان، فقال:

«هُنَّ صَوَالِحُ الْمُؤْمِنَاتِ الْعَارِفَاتِ»[٥].

---

١. سورة البقرة: الآية ٢٥.

٢. سورة الواقعة: الآيتان ٢٢-٢٣.

٣. سورة الرحمن: الآيات ٥٦-٥٨.

٤. سورة الرحمن: الآية ٧٠.

٥. الكليني، الكافي، ج٨، ص١٥٦.

وعلى هذا الأساس، فالمراد من نساء أهل الجنّة النساء المؤمنات الصالحات في دار الدنيا والنساء المخلوقات في الجنّة أيضاً.

٧. الخدم من الغلمان

من النِّعم الأخرى الّتي يكتمل بها فرح أهل الجنّة وسرورهم، وجود خدم على شكل غلمان وصبيان ذوي وجوه منيرة، يطوفون حول أهل الجنّة لتقديم الخدمة اللازمة، وقد وصف القرآن الكريم هؤلاء الغلمان في مواضع عدّة، منها:

﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤاً مَنْثُوراً﴾[١].

﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ * بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ﴾[٢].

٨. النّعيم غير المتصوّر

فضلاً عن النِّعم واللذات الأخرويّة الّتي يوجد لها شبيه في الدنيا - ولو من بعيد - ولذا فهي قابلة للوصف والبيان، ثمّة أنواع من النِّعم الإلهيّة الّتي ليس لها مثيل في الدنيا؛ فعبّر عنها الباري (جلّ وعلا) بـ«قرّة الأعين»، وقد وصف (سبحانه وتعالى) هذه النِّعم الخفيّة في الجنّة والخارجة عن دائرة تصوّر البشر والّتي تقرّ بها أعين أهل الجنّة فقط، بقوله:

﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[٣].

وقال أمير المؤمنين عليّ عليه السلام في وصف عالم الآخرة وتفسير ﴿قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾:

«كُلُّ شَيْءٍ مِنَ الدُّنْيَا سَمَاعُهُ أَعْظَمُ مِنْ عِيَانِهِ، وَكُلُّ شَيْءٍ مِنَ الْآخِرَةِ عِيَانُهُ أَعْظَمُ مِنْ سَمَاعِهِ»[٤].

---

١. سورة الإنسان: الآية ١٩.

٢. سورة الواقعة: الآيتان ١٧-١٨.

٣. سورة السجدة: الآية ١٧.

٤. نهج البلاغة، الخطبة ١١٤، ص١٧٠؛ المجلسي، بحار الأنوار، ج٨، ص١٠٩.

٩. الرضوان الإلهيّ

إلى جانب النِّعم المادّيّة والمعنويّة المذكورة لأهل الجنّة، تحدّث القرآن الكريم عن نعمة أخرى وثواب آخر تحت عنوان «رضوان من الله»،[١] اعتبر أفضل من جميع النِّعم الأخرى، فقال (سبحانه وتعالى):

﴿وَعَدَ اللهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾[٢].

فلا شك في أنّ الرضوان الإلهيّ المذكور إنّما هو إشارة إلى مقام معنوي سامٍ عند الله (سبحانه وتعالى) يبلغه عباد الله الصالحون، ولا يمكن العثور على أيّ توصيف معقول له. فلما يتعذّر إدراك النِّعم الأخرويّة الظّاهريّة الّتي تعطى للمؤمن في الجنّة كما ينبغي، من الطبيعي أن يكون أيّ بيان لهذه الحقيقة المعنويّة خارج عن دائرة فهم الإنسان، ويجب تذوّق هذه الحقائق في جوار أولياء الله من أعماق القلب، إن شاء الله (سبحانه وتعالى).

✽ الأسئلة

١. استشهد بالآيات القرآنيّة لإثبات أنّ النِّعم الأخرويّة غير منتهية وغير محدودة.
٢. اشرح ثلاثاً من النِّعم المادّيّة الّتي يتنعّم بها أهل الجنّة مع ذكر الآيات القرآنيّة.
٣. أوضح اثنين من النِّعم المعنويّة لأهل الجنّة مع ذكر الآيات القرآنيّة ذات الصلة.

✽ موضوع للبحث

- ألا يوجد تنافي بين عدم إمكان إدراك النِّعم الإلهيّة في الجنّة وبين ما ورد في الآيات والروايات في باب أنواع النِّعم المادّيّة والمعنويّة؟ اشرح ذلك.

---

١. انظر: سورة آل عمران: الآية ١٥.

٢. سورة التوبة: الآية ٧٢.

٥٩

صفات جهنّم

تعرّفنا في الدّرس السابق إلى آخر مواقف المؤمنين والمحسنين والأبعاد المختلفة للجنّة، وكنّا قد ذكرنا سابقاً أنّ آخر موقف من مواقف القيامة للمسيئين هو جهنّم. وسنسلّط الضّوء في هذا الدّرس والدرس اللاحق على أبحاث في هذا المجال لمعرفة المزيد حول العذاب الإلهيّ في هذا الموقف، وسنفرد هذا الدّرس لبحث صفات جهنّم تحديداً.

إنّ جهنّم هي آخر موقف للكافرين والمسيئين، وهي النهاية الّتي تحتوي على جميع أنواع العذاب والهوان، وليس لها نهاية أبداً. ولطالما أشار القرآن الكريم إلى هذه النهاية المشؤومة وغير المنتهية مراراً وتكراراً، وعبّر عنها بتعابير من قبيل «الخسران المبين»[١]، و«ساءت مصيراً»[٢]، و«بئس المهاد»[٣].

١. أسماء جهنّم

جرى التّعبير عن النّار بأسماء متعدّدة، أبرزها «جهنّم» الّذي ذُكر في القرآن الكريم سبعين مرّة. وقد اختُلف في معناه اللّغوي، فمنهم من فسّره بالنّار، ومنهم من قال إنّه بمعنى القعر البعيد[٤]، وكلا المعنيين معبّران عن حقيقة جهنّم تماماً؛ ذلك أنّ النار والإحراق والعمق من

---

١ . انظر: سورة الزمر: الآية ١٥.

٢ . انظر: سورة النساء: الآيتان ٩٧ و١١٥.

٣ . انظر: سورة آل عمران: الآية ١٩٧.

٤ . انظر: ابن منظور، لسان العرب، ج١٢، ص١١٢.

أهمّ مواصفات جهنّم.

وأشير إلى جهنّم بتعابير أخرى في القرآن الكريم، منها: النّار، الجحيم، السعير، سقر، الحُطَمة، لظى، الهاوية. فالنار معروفة، والجحيم هي النار المستعرة والشديدة، والسعير يعني النار الملتهبة والمحرقة، وسقر بمعنى النار الّتي تغيّر ألوان الأشياء من حولها من شدّة الحرارة، والحُطَمة أي المهشّمة، واللظى اللهب الخالص، والهاوية تعني النار المحرقة.

وكما هو واضح؛ فإنّ الروضة الّتي تطلق على الجنّة تذكّر باللذة والفرح، بينما تشير النار الّتي هي من أسماء جهنّم إلى العذاب والألم.

٢. درَكات جهنّم

تحتوي جهنّم على طبقات مختلفة، ولما كانت هذه الطبقات ـ خلافاً للجنّة ـ تتّجه إلى الأسفل فقد أطلق على كلّ طبقة منها اسم «درَك»، ويسمّى مجموع طبقاتها باسم «درَكات جهنّم». والسبب في وجود طبقات مختلفة في جهنّم هو اختلاف مراتب أهل النّار، فيوضع كلّ واحد منهم في المكان الّذي يستحقّه من العذاب بحسب أعماله السيئة. وقد ذُكر في الرّوايات أنّ عدد درَكات جهنّم سبع طبقات، يكون العذاب في كلّ طبقة أشدّ من سابقتها كلّما اتّجهنا إلى الأسفل. وأفاد القرآن الكريم بأنّ المنافقين في الطبقة السفلى من جهنّم، فقال:

﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيراً﴾[١].

وفي حديث للإمام الباقر عليه السلام، ذكر الدركات السبع للنّار، وأشار إلى خصوصيات كلّ دركة منها والعذاب الّذي يشهده أهلها، مبيناً أنّ أعلاها الجحيم، ثمّ لظى، ثمّ سقر، ثمّ الحُطَمة، ثمّ الهاوية، ثمّ السعير، والسابعة جهنّم وهي الأشدّ عذاباً وإيلاماً.

٣. أبواب جهنّم

لجهنّم سبعة أبواب، وقد صرّح بذلك القرآن الكريم، فقال:

---

١. سورة النساء: الآية ١٤٥.

﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ * لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ﴾[1].

ويستفاد من بعض الرّوايات أنّ أبواب جهنّم لها علاقة بدركاتها وطبقاتها، فلكلّ طبقة منها باب خاصّ بها، فيدخل أهل النار من أبوابهم المخصّصة بحسب مرتبتهم من الكفر والعصيان، وورد أنّ أعداء أهل البيت عليهم السلام يدخلون من الباب السابع، ويستقرّون في الدرك الأسفل من الجحيم؛ حيث قال أبوعبد الله الصادق عليه السلام:

«وَبَابٌ يَدْخُلُ فِيهِ مُبْغِضُونَا وَمُحَارِبُونَا وَخَاذِلُونَا، وَإِنَّهُ لَأَعْظَمُ الْأَبْوَابِ وَأَشَدُّهَا حَرّاً»[2].

٤. خزّان جهنّم

ذُكر في الكتاب والسنّة أسماء ثلاثة أصناف من الملائكة الموكلين بالنار، وهم: الزبانية، والغلاظ الشداد، والملائكة التسعة عشر.

أ) الزبانية

هذا هو الصنف الأوّل من خزّان النار، وقد ذكرهم القرآن الكريم قائلاً:

﴿سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ﴾[3].

وروي عن الإمام عليّ بن الحسين السجّاد عليه السلام أنّ الزبانية هم الملائكة الموكلين بجهنّم، يربطون أهل النار بالأغلال ويلقونهم في جهنّم:

«وَالزَّبَانِيَةِ الَّذِينَ إِذَا قِيلَ لَهُمْ: خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ، ابْتَدَرُوهُ سِرَاعاً، وَلَمْ يُنْظِرُوهُ»[4].

---

١. سورة الحجر: الآيتان ٤٣-٤٤.

٢. الصدوق، الخصال، ج٢، ص٣٦١؛ المجلسي، بحار الأنوار، ج٨، ص٢٨٥.

٣. سورة العلق: الآية ١٨.

٤. الصحيفة السجّاديّة، الدعاء الثالث؛ المجلسي، بحار الأنوار، ج٥٦، ص٢١٨.

ب) الغلاظ الشداد

صوّر القرآن الكريم الصنف الثّاني من ملائكة النار، أي الغلاظ الشداد، قائلاً:

﴿عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾.[1]

ج) الملائكة التسعة عشر

الصنف الآخر من الملائكة الموكلين بالنار هم الّذين ذكرهم القرآن الكريم باسم «تسعة عشر»، وأكد على أنّ وظيفتهم حراسة وادٍ خاصّ في جهنّم يُعرف بـ«سقر»، فقال (سبحانه وتعالى) في هذا الصدد:

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ * لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ * لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَرِ * عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾[2].

وخازن النار - أي كبير الملائكة الموكلين بها - يدعى «مالك»، وقد ورد اسمه صريحاً في القرآن الكريم على لسان أهل النار الّذين ينادونه باسمه ويدعونه لتخليصهم منها:

﴿وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ﴾[3].

وكما ذكرنا سابقاً، من أنّ «رضوان» اسم خازن الجنّة كذلك «مالك» اسم خازن النار[4].

٥) تنوّع العذاب في النّار

إنّ عذاب جهنّم يقع في الجهة المقابلة للنّعيم في الجنّة؛ فكما لا يمكننا إدراك النّعم الأخرويّة الّتي تعطى لأهل الجنّة، كذلك لا يمكننا تصوّر الآلام والعذاب الّذي يتعرّض له أهل النّار. ولما كانت جهنّم محلّ بروز الغضب والانتقام الإلهيّ فإنّ أهل النار يُعذّبون بأنواع العذاب الجسدي والروحي، منها على سبيل المثال الإحراق بالنار، واللدغ بالعقارب والحيّات، وتناول القيح والفضلات، والحسرة والحزن، ومشاهدة الوجوه القبيحة والكريهة. ويبلغ عذاب النّار من الشدّة والألم ما يهوّن الآلام الأخرى مقابل هذا العذاب. من هنا، قال أمير المؤمنين عليه السلام في هذا المجال:

---

١ . سورة التحريم: الآية ٦.

٢ . سورة المدّثر: الآيات ٢٧-٣٠.

٣ . سورة الزخرف: الآية ٧٧.

٤ . القمي، تفسير القمي، ج٢، ص٣٢٦؛ المجلسي، بحار الأنوار، ج٧، ص٣٢٧.

«كُلُّ بَلَاءٍ دُونَ النَّارِ عَافِيَةٌ»[١].

«وَكُلُّ بَلَاءٍ دُونَ النَّارِ يَسِيرٌ»[٢].

ولهذا السّبب شدّد القرآن الكريم على أنّ حجم العذاب الإلهيّ وشدّة بلاء جهنّم يدفع بصاحبه إلى أن يكون مستعدّاً للتضحية بأحبائه وأعزائه وأقرب النّاس إليه بغية تخليص نفسه منه؛ وأنّى له ذلك بعد فوات الأوان:

﴿يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ * وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ * وَفَصِيلَتِهِ الَّتِى تُؤْوِيهِ * وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ يُنْجِيهِ﴾[٣].

حيث يأتيه الجواب:

﴿كَلَّآ إِنَّهَا لَظَىٰ﴾[٤].

على أنّ العذاب الأخروي يختلف عن العذاب الدنيوي بنقطتين أساسيتين: الأولى، دوام العذاب الأخروي وعدم انقطاعه. والثانية، شدّة عذاب جهنّم وتمحّضه. فإنّ ثمّة نهاية لعذاب الدنيا وآلامها؛ حيث ينتهي بالموت؛ في حين أنّ عذاب جهنّم في الآخرة دائم وبلا نهاية، فلا موت يخلّص الإنسان من الآلام ولا نهاية لعذابه المتواصل. وقد أشارت الآية الشّريفة الآتية إلى هاتين النقطتين:

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ﴾[٥].

وتتبيّن شدّة عذاب جهنّم وتمحّضه من خلال معرفة أنّ جزءاً بسيطاً منه كفيل بتدمير الدنيا وإماتة أهلها؛ ولذا قال جبرائيل للنبيّ الكريم ﷺ حول شدّة العذاب الأخروي:

---

١. الكليني، الكافي، ج٨، ص٢٤؛ نهج البلاغة، الحكمة ٣٨٧، ص٥٤٤؛ المجلسي، بحار الأنوار، ج٨، ص٢٠٠.

٢. الشعيري، جامع الأخبار، ص١١٧؛ المجلسي، بحار الأنوار، ج٦٨، ص٩٣.

٣. سورة المعارج: الآيات ١١-١٤.

٤. سورة المعارج: الآية ١٥.

٥. سورة فاطر: الآية ٣٦.

«لَوْ أَنَّ قَطْرَةً مِنَ الضَّرِيعِ قَطَرَتْ فِي شَرَابِ أَهْلِ الدُّنْيَا لَمَاتَ أَهْلُهَا مِنْ نَتْنِهَا، وَلَوْ أَنَّ حَلْقَةً وَاحِدَةً مِنَ السِّلْسِلَةِ الَّتِي طُولُهَا سَبْعُونَ ذِراعاً وُضِعَتْ عَلَى الدُّنْيَا لَذَابَتِ الدُّنْيَا مِنْ حَرِّهَا، وَلَوْ أَنَّ سِرْبَالاً مِنْ سَرَابِيلِ أَهْلِ النَّارِ عُلِّقَ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَمَاتَ أَهْلُ الدُّنْيَا مِنْ رِيحِهِ»[1].

ثمّ إنّ شدّة هذا العذاب تضع أهل النار على أعتاب الفناء، لكنّ امتناع الموت بحقّهم يدفع عنهم الفناء والزوال؛ ولذا يكونون في حالة بين الحياة والموت. قال (سبحانه وتعالى) في وصف هذه الحالة:

﴿ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ * ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾[2].

❁ الأسئلة

١. استخرج الأسماء القرآنيّة لجهنّم، وبيّن المعنى اللّغوي لكلّ واحد منها، ثمّ اشرح كيف يمكن معرفة رؤية القرآن الكريم إلى جهنّم من خلال تلك الأسماء؟

٢. ما النسبة بين دركات جهنّم وأبوابها وأنواع العذاب فيها؟

٣. من هم خُزّان جهنّم؟ اذكر أسماءهم ووظائفهم.

٤. ما هي الفوارق بين عذاب جهنّم و أنواع العذاب الدنيوي؟

❁ موضوع للبحث

- ما المراد من تمحّض العذاب في جهنّم والنعيم في الجنّة برأيك؟

---

١. القمي، تفسير القمي، ج٢، ص٨١؛ المجلسي، بحار الأنوار، ج٨، ص٢٨٠.

٢. سورة الأعلى، الآيتان، ١٢-١٣.

٦٠

أنواع العذاب في جهنّم

آخر مرحلة من مراحل حياة المسيئين هي جهنّم، فيرون فيها نتائج سوء أعمالهم وأفكارهم، وقد تعرّفنا في الدّرس السابق على صفات جهنّم، وسنبحث في هذا الدّرس ماهية العذاب وأنواعه، كما سنشير إلى كيفية تعامل أهل النّار مع تلك الظروف العصيبة.

في ضوء المعاني الّتي ذُكرت لجهنّم، يمكن الإشارة إلى صفتين بارزتين لها: أحدهما العمق الكبير وثانيهما النار الشديدة والمحرقة. وهذا المكان هو موضع أشدّ العقوبات الخارجة عن دائرة التصوّر والإدراك؛ فكما إنّ لذات الجنّة خالصة ومتمحّضة ولا يمكن مقارنتها باللذات الدنيويّة أبداً، كذلك هو عذاب جهنّم عذاب متمحّض ولا يقبل القياس إلى العذاب الدنيوي مطلقاً؛ حيث إنّ شدّة العذاب تبلغ حدّاً جعلت الباري (سبحانه وتعالى) يطلق عليه اسم «العذاب الأكبر»، ويؤكد على أنّه لم يعذّب أحد بمثل هذا العذاب سابقاً، فقال:

﴿فَيُعَذِّبُهُ اللهُ الْعَذابَ الْأَكْبَرَ﴾[1].

﴿فَيَوْمَئِذٍ لا يُعَذِّبُ عَذابَهُ أَحَدٌ * وَلا يُوثِقُ وَثاقَهُ أَحَدٌ﴾[2].

وقد أوردت الآيات والروايات جوانب من عذاب جهنّم وآلامها، وانطلاقاً من ذلك يمكن بحث موضوعات من قبيل: مكان أهل النّار، طعامهم وشرابهم، ملبسهم، الأغلال والأصفاد الّتي

١. سورة الغاشية: الآية ٢٤.

٢. سورة الفجر: الآيتان ٢٥-٢٦.

يقيّدون فيها، العقارب والحيّات في جهنّم، صراخهم وعويلهم، نزاعهم وجدالهم، حسرتهم وندمهم، تحقيرهم والاستهزاء بهم.

١. ضيق مكان أهل النّار

أهمّ ما يتميزبه المكان الّذي يقع فيه العذاب الإلهيّ والمسمّى بـ«جهنّم» هي الحرارة الشديدة والقعر البعيد والضيق والظلمة.

من هنا، أكد القرآن الكريم على عظمة هذه النّار ووصفها بـ«النّار الكبرى»، قائلاً:

﴿وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى * الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى﴾[١].

وكما ذكرنا؛ فإنّ جهنّم تتّصف بالعمق والنّار المحرقة ما يزيد من هولها وعذابها، فالمكان العميق أو القعر البعيد من المعاني اللغوية لكلمة «جهنّم»، وقد أشار أمير المؤمنين عليه السلام إلى هذا الجانب من مواصفات نار جهنّم محذّراً النّاس منها، قائلاً:

«وَاتَّقُوا نَاراً حَرُّهَا شَدِيدٌ وَقَعْرُهَا بَعِيدٌ»[٢].

ومن العوامل الأخرى لشدّة العذاب في نار جهنّم، المكان الضيّق لأهلها وساكنيها؛ ما يدفعهم إلى الدعوة على أنفسهم بالويل والثبور نتيجة شدّة الآلام والضغط الكبير:

﴿وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَاناً ضَيِّقاً مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُوراً﴾[٣].

٢. طعام أهل النّار وشرابهم

إنّ الطعام والشراب الّذي يُقدّم إلى أهل النّار يضاعف من عذاب هذا المكان ويضيّق الخناق على ساكنيه، فقد أفادت الآيات والروايات المأثورة عن الأئمّة المعصومين من أهل البيت عليهم السلام بأنّ طعامهم وشرابهم:

---

١ . سورة الأعلى: الآيتان ١١-١٢.

٢ . نهج البلاغة، الخطبة ١٢٠، ص١٧٦؛ المجلسي، بحار الأنوار، ج٨، ص٣٠٦.

٣ . سورة الفرقان: الآية ١٣.

زَقّوم، حَميم، غِسْلين[١]، ضَريع، غَسّاق[٢]، صَديد[٣]، مُهْل[٤]؛ ولكلّ واحد من هذه المأكولات والمشروبات آثار خاصّة تؤدّي إلى زيادة عذاب أهل النّار ومضاعفة آلامهم. وسنشرح أدناه اثنين من هذه الأطعمة:

أ) الزقّوم

الزقّوم شجرة تنبت في قعر جهنّم، ثمارها الّتي هي طعام أهل النّار تشبه المعدن المذاب حينما يغلي، وقد وصف القرآن الكريم هذه الشجرة بالقول:

﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ * طَعَامُ الْأَثِيمِ * كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ * كَغَلْيِ الْحَمِيمِ﴾[٥].

﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ * طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ * فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ﴾[٦].

ب) الحميم

وهو ماء مغلي يسقى منه أصحاب النّار؛ حيث يتناول منه أهل جهنّم مثلما تتناول الإبل العطاشى بعدما يأكلون من الزقّوم. قال (سبحانه وتعالى):

﴿لَآكِلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زَقُّومٍ * فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ * فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ * فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ﴾[٧].

وفي آية أخرى، أشيرإلى أنّ الشرب من هذا الماء يتسبّب بتقطيع الأمعاء:

---

١ . انظر: سورة الحاقّة: الآية ٣٦.

٢ . سورة النبأ: الآية ٢٥.

٣ . انظر: سورة إبراهيم: الآية ١٦.

٤ . انظر: سورة الكهف: الآية ٢٩.

٥ . سورة الدخان: الآيات ٤٣-٤٦.

٦ . سورة الصافّات: الآيات ٦٤-٦٦.

٧ . سورة الواقعة: الآيات ٥٢-٥٥.

﴿وَسُقُوا مَآءً حَمِيماً فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾[١].

٣. لباس أهل النّار

لباس أهل النّار يسبّب لهم العذاب والنقمة أيضاً؛ حيث ذكر الباري (سبحانه وتعالى) في القرآن الكريم أنّ ثيابهم من مادّة قابلة للاشتعال تلتصق على جلودهم وذات رائحة كريهة:

﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ﴾[٢].

﴿سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطِرَانٍ وَتَغْشَى وُجُوهَهُمُ النَّارُ﴾[٣].

٤. أغلال جهنّم

توضع الأغلال والأصفاد في أعناق أهل النّار ويُسحبون بها في جهنّم، وهذا ما يسبّب لهم الشعور بالذلّ والهوان فضلاً عن العذاب الجسدي، وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا الموضوع في بعض الآيات فقال:

﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ * ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ * ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعاً فَاسْلُكُوهُ﴾[٤].

وقال أيضاً:

﴿إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ﴾[٥].

وفي رواية قال الإمام أبوعبد الله الصادق عليه السلام في وصف الأغلال الّتي يوثّق بها أهل النّار:

«لَوْ أَنَّ حَلْقَةً وَاحِدَةً مِنَ السِّلْسِلَةِ الَّتِي طُولُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعاً وُضِعَتْ عَلَى الدُّنْيَا لَذَابَتِ الدُّنْيَا مِنْ حَرِّهَا»[٦].

---

١ . سورة محمّد: الآية ١٥.

٢ . سورة الحجّ: الآية ١٩.

٣ . سورة إبراهيم: الآية ٥٠.

٤ . سورة الحاقّة: الآيات ٣٠ -٣٢.

٥ . سورة غافر: الآية ٧١.

٦ . القمي، تفسير القمي، ج٢، ص٨١؛ المجلسي، بحار الأنوار، ج٨، ص٢٨٠؛ و أيضاً انظر: ابن طاووس، الدروع الواقية، ص٢٧٣.

٥. الحيّات والعقارب في جهنّم

من أنواع العذاب المختلفة في جهنّم، الحيّات والعقارب الّتي تنتظرأهل النّار في بعض أودية جهنّم، وهي كائنات ضخمة جدّاً، تؤذي بلدغاتها أهل النّار وتبقى آثارها تؤلمهم فترة طويلة؛ ولذا استعاذ منها الإمام الصادق عليه السلام بالله قائلاً:

«أَعُوذُ بِكَ مِنْ عَقَارِبِهَا الْفَاغِرَةِ أَفْوَاهُهَا، وَحَيَّاتِهَا الصَّالِقَةِ بِأَنْيَابِهَا»[1].

٦. تنازع أهل النّار

إنّ أهل النّار يتنازعون في ما بينهم، كما يتبرّأ بعضهم مع بعضهم الآخر؛ ولذا قال القرآن الكريم بشأن النزاع بين أئمّة أهل النّار:

﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ * وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾[2].

ومن النزاعات الأخرى الّتي تنشب بعد انتهاء حكم الله واتّضاح معالم أهل النّار، النزاع بين سكان جهنّم والشياطين الّذين كانوا قرناء للكافرين المعرضين عن ذكر الله في الحياة الدنيا والمسبّبين لانحرافهم عن الصراط القويم وابتعادهم عن السّبيل الإلهيّ؛ حيث تنكشف لهم خيانتهم ويتمنّون أن يكون بينهم بُعد المشرق والمغرب:

﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ * وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ * حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ﴾[3].

ولما يحمّل أهل النّار الشّيطان مسؤولية ضلالهم وغوايتهم ودخلوهم النّار، ينبري الشّيطان

---

١ . الصحيفة السجّاديّة، الدعاء ٣٢؛ الطوسي، مصباح المتهجّد و سلاح المتعبّد، ج١، ص١٩١؛ المجلسي، بحار الأنوار، ج٨، ص٣٢٤.

٢ . سورة البقرة: الآيتان ١٦٦-١٦٧.

٣ . سورة الزخرف: الآيات ٣٦-٣٨.

للدفاع عن نفسه ويؤكد لهم أنّه لم يقم بأكثر من دعوتهم إلى سبيل الضلال كما دعاهم الله إلى طريق الحقّ، وأنّه لا سلطان له عليهم ولم يجبرهم على اتّباعه؛ بل هم الّذين استجابوا له، فعليهم أن يؤاخذوا أنفسهم قبل أن يؤاخذوه بسبب سوء اختيارهم:

﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[١].

٧. حسرة أهل النّار وندمهم

قد تحدّثنا حتّى الآن عن أنواع العذاب الظاهري في جهنّم، وليكن القرآن الكريم أكدّ على أنّ أهل الجحيم قد يتألّمون يوم القيامة من العذاب الروحي أكثر ممّا يتحملون من العذاب الجسدي، والحسرة والندامة من جملة أنواع العذاب الروحي. ورد في رواية عن الإمام أبي عبد الله الصادق عليه السلام أنّه قال:

«مَا خَلَقَ اللهُ خَلْقاً إِلَّا جَعَلَ لَهُ فِي الْجَنَّةِ مَنْزِلاً وَفِي النَّارِ مَنْزِلاً، فَإِذَا أُسْكِنَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ وَأَهْلُ النَّارِ النَّارَ نَادَى مُنَادٍ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ! أَشْرِفُوا، فَيُشْرِفُونَ عَلَى النَّارِ وَيُرْفَعُ لَهُمْ مَنَازِلُهُمْ فِي النَّارِ، ثُمَّ يُقَالُ لَهُمْ: هَذِهِ مَنَازِلُكُمُ الَّتِي لَوْ عَصَيْتُمْ رَبَّكُمْ دَخَلْتُمُوهَا؛ فَلَوْ أَنَّ أَحَداً مَاتَ فَرَحاً لَمَاتَ أَهْلُ الْجَنَّةِ ذَلِكَ الْيَوْمَ فَرَحاً بِمَا صُرِفَ عَنْهُمْ مِنَ الْعَذَابِ. ثُمَّ يُنَادَوْنَ: يَا مَعَاشِرَ أَهْلِ النَّارِ! ارْفَعُوا رُءُوسَكُمْ؛ فَانْظُرُوا إِلَى مَنَازِلِكُمْ فِي الْجَنَّةِ؛ فَيَرْفَعُونَ رُءُوسَهُمْ؛ فَيَنْظُرُونَ إِلَى مَنَازِلِهِمْ وَمَا فِيهَا مِنَ النَّعِيمِ؛ فَيُقَالُ لَهُمْ: هَذِهِ مَنَازِلُكُمُ الَّتِي لَوْ أَطَعْتُمْ رَبَّكُمْ دَخَلْتُمُوهَا. قَالَ: فَلَوْ أَنَّ أَحَداً مَاتَ حُزْناً لَمَاتَ أَهْلُ النَّارِ ذَلِكَ الْيَوْمَ حُزْناً»[٢].

وعلى هذا الأساس، يدخل على أهل النّار الحسرة والندم من جهتين: الأولى بسبب فقدان

---

١. سورة إبراهيم: الآية ٢٢.

٢. الصدوق، ثواب الأعمال وعقاب الأعمال، ص٢٥٩؛ المجلسي، بحار الأنوار، ج٨، ص١٢٦.

النِّعم الأخرويّة الّتي تُعرض عليهم في الجنّة، والثانية بسبب العذاب الأليم الّذي ينتظرهم في النّار وعدم الموت فيها، ما يضاعف من عذابهم وآلامهم. من هنا، أطلق القرآن الكريم على هذا اليوم «يوم الحسرة»، وأمر رسوله الكريم ﷺ بتحذير النّاس من هذا اليوم، فقال:

﴿وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾[1].

في ذلك اليوم يعضّ الظالم يديه ندماً على ما فاته، ويتمنّى لو كان اتّبع سبيل الهداية الّذي جاء به الرّسول ﷺ، وأنّه لم يتّخذ من أضلّه وأغواه خليلاً ورفيقاً، قال (سبحانه وتعالى):

﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظّالِمُ عَلى يَدَيْهِ يَقُولُ يا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً * يا وَيْلَتى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلاناً خَلِيلاً * لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جاءَنِي وَكانَ الشَّيْطانُ لِلْإِنْسانِ خَذُولاً﴾[2].

ويُستفاد من جميع ما تقدّم أنّ جهنّم مليئة بالعذاب والآلام، ومما يدلّ على التمحّض بالعذاب مكانها العميق والحارق، واحتوائها على أودية سحيقة، وحيّات وعقارب مرعبة، وأغلال ملتهبة، وطعام وشراب يضاعف من عذابهم وآلامهم؛ فلا أمل في نجاتهم من العذاب، وسيبقون إلى الأبد يعانون من الحسرة والندامة.

وفي الجهة المقابلة أي الجنّة، يوجد أناس يعيشون في غاية اللذة والنعيم ومنتهى الراحة والرخاء؛ حيث ينتظر المؤمنين والصالحين فيها قصور فارهة وحدائق غنّاء ولباس فاخر وأطعمة وأشربة متنوّعة وأزواج مطهّرون وأصدقاء منتجبون؛ كلّ ذلك يعبّر عن ذروة النّعيم وغاية اللذة السرمدية.

ولا ريب في أنّ الإنسان يختار أحد هذين المنزلين بمحض إرادته واختياره وبمقتضى عمله في الحياة الدنيا؛ فالكفر والعصيان يلقيان بصاحبهما في جهنّم، والعمل الصالح يضمن لصاحبه الجنّة. وعليه؛ فإنّ الإنسان هو من يختار لنفسه المكان والدرجة المناسبة من السعادة والشقاء حسبما تقتضيه أفعاله وأفكاره.

---

١. سورة مريم: الآية ٣٩.

٢. سورة الفرقان: الآيات ٢٧-٢٩.

❋ الأسئلة

١. ما الّذي يمكن استخراجه من القرآن الكريم حول مكان أهل النّار؟

٢. اذكر ثلاثة أمثلة حول أنواع العذاب المادّي في جهنّم مصحوبة بالأدلّة.

٣. ما طبيعة العذاب المعنوي الّذي يمكن أن نستفيده من تنازع أهل النّار؟ وهل ذُكرت لهم في القرآن والروايات أنواع أخرى من العذاب الروحي؟

❋ موضوع للبحث

- كيف يحاسَب في الآخرة أمثال الأطفال والمجانين ممّن لم تكتمل بحقّهم الحجّة الإلهيّة في الحياة الدنيا؟

الباب السابع

عالم الكون، الإنسان والمجتمع

٦١

السّماء

سنتعرّف في الدّروس القادمة على جوانب من عالم الغيب والشهود، ونبحث عدداً من أهمّ المخلوقات الإلهيّة. وفي هذا السّياق، سوف نتطرّق إلى بحث السماء والأرض والنباتات والحيوانات من عالم الشهود، ونكتفي من عالم الغيب ببحث ثلاثة موضوعات هي الملائكة والجِنّة والشياطين. وسنشرع البحث في هذا الدّرس بالسماء الّتي تمثّل أعظم المخلوقات الإلهيّة وأغربها.

إنّ بحث عالم الكون من جملة الموضوعات المهمّة الّتي تُبحث في الرؤية الإسلاميّة، ويحظى هذا المبحث بأهمية كبيرة بالنسبة إلى المعرفة الدّينيّة من زاويتين: فمن جهة هو يصوّر نظام الخلق بجميع تفاصيله وعجائبه وقوانينه الدقيقة والمعقّدة ويوسّع دائرة الرؤية لدى الإنسان، ومن جهة ثانية يساعد على معرفة الحقّ (سبحانه وتعالى) وصفاته وأفعاله ويعمّق نظرة الإنسان إلى الحقائق الربوبية.

قد ننظر إلى الكون من زاوية تجريبيّة فقط وقد ننظر إليه من زاوية عقليّة صرفة، فنكون بصدد معرفة العناصر المكوّنة له حصراً؛ بيد أنّ الإسلام - ومن منطلق رسالته الرامية إلى الهداية - ينظر إلى ظواهر عالم الطبيعة من زاوية خاصّة، ويتعقّب أهدافاً معينة من تناول قضايا عالم الكون. ففضلاً عن أصل معرفة الكون والظواهر المرتبطة به، تؤكد المصادر الدّينيّة على وجود غايات أخرى، ومن جملة تلك الأهداف والغايات يمكن الإشارة إلى ما يأتي:

١. توفير الفرصة للتعقّل والتفكير في نظام الخلق.

٢. تعريف الإنسان بصفات الله من قبيل العلم والحكمة والقدرة.

٣. إعطاء شواهد على أصل التوحيد، لا سيما التوحيد الأفعالي والفروع المترتّبة عليه، نحو التوحيد في الربوبية وتدبير العالم.

٤. توفير الأرضيّة اللازمة لعبور الإنسان من ظواهر العالم والوصول إلى الحقائق الغيبية ورؤية اليد الغيبية لله (سبحانه وتعالى).

٥. إيجاد حالة من الاشتياق والعشق للباري (سبحانه وتعالى).

٦. إبراز حسّ الشكر لدى الإنسان من خلال بيان النِّعم الإلهيّة.

من الأسس المهمّة في عالم الكون من وجهة نظر الإسلام، الفصل بين عالم الغيب وعالم الشهادة، والمراد من الغيب ما كان خارجاً عن دائرة الإدراك الاعتيادي للإنسان، وذلك من قبيل الملائكة والجنّ والشيطان. وعلى العكس من ذلك، الشهادة تعني ما يمكن إدراكه بالحواس كالطبيعة وكلّ ما فيها، مثل السماء والأرض. ولمزيد من الاطلاع على هذه العوالم، بدايةً سنبحث السماء باعتبارها من أهمّ ظواهر عالم الشهادة.

ذكرنا في دروس التوحيد والأدلّة على وجود الله أنّ كلمة «السّماء» مشتقّة من المادّة «سمو» بمعنى العلوّ والارتفاع، وهي أعلى كلّ شيء؛ ولذا يطلق على سقف المنزل «سماء» أيضاً[١]، وقد ورد استعمال هذه الكلمة بصيغة المفرد والجمع في القرآن الكريم ٣١٣ مرّة وفي معانٍ مختلفة، منها الهواء الّذي يغطّي أطراف الأرض والكواكب السماويّة وما يحيط بها. وعلى الرّغم من أنّنا أشرنا في تلك الدّروس إلى بعض الأبحاث المتعلّقة بالسماء بما يتناسب مع ذلك الموضوع، لا زالت توجد بحوث ومحاور أخرى في هذا المجال ومن وجهة نظر علم الكون سنتطرّق إليها هنا، من أهمّها:

١. الخلق في ستّة أيّام

بدايةً لا بدّ من التأكيد على أنّه يستفاد من القرآن الكريم أنّ عالم الكون خُلق في غضون بعض أيّام، فقال (سبحانه وتعالى):

١. انظر: ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، ج٣، ص٩٨.

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِى خَلَقَ السَّمٰوٰاتِ وَالْاَرْضَ فِى سِتَّةِ اَيّامٍ ثُمَّ اسْتَوٰى عَلَى الْعَرْشِ﴾[1].

وبهذا يتبيّن أنّ عملية خلق عالم الطبيعة استغرقت ستّة أيّام فقط؛ لكنّ المقصود من كلمة «يوم» في هذه الآية المباركة مدّة زمنية معينة لا نستطيع تحديدها بدقّة، وقد أشارت بعض الآيات القرآنيّة إلى أنّ اليوم الواحد عند الله (سبحانه وتعالى) يعادل ألف سنة عندنا:

﴿وَاِنَّ يَوْماً عِنْدَ رَبِّكَ كَاَلْفِ سَنَةٍ مِمّا تَعُدُّونَ﴾[2].

وعلى هذا الأساس، يمكن القول بضرس قاطع: إنّ خلق عالم الطبيعة اكتمل خلال ستّ مراحل متوالية. كما يمكن أن نستفيد من البحوث القادمة أنّ المقصود بالسماء في القرآن الكريم دائرة واسعة من حقائق العالم لا زالت مجهولة في العلم البشري المتوفر حاليّاً.

٢. سبع سماوات

تحدّث القرآن الكريم عن وجود سماوات سبع، فقال:

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ﴾[3].

ويُستفاد من بعض الآيات أنّ السماء كانت قبل خلقها دخان، ثمّ خلقها الله (جلّ وعلا) سبع سماوات:

﴿ثُمَّ اسْتَوٰى اِلَى السَّمآءِ وَهِىَ دُخانٌ فَقالَ لَها وَلِلْاَرْضِ ائْتِيا طَوْعاً اَوْ كَرْهاً قالَتآ اَتَيْنا طآئِعِينَ * فَقَضٰهُنَّ سَبْعَ سَمٰوٰاتٍ فِى يَوْمَيْنِ﴾[4].

والحقيقة أنّنا لا نمتلك اطلاعاً كافياً عن خصائص السماوات السبع؛ غير أنّ ما يستفاد من القرآن الكريم أنّ بعض هذه السماوات يقع فوق بعضها الآخر:

﴿اَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللهُ سَبْعَ سَمٰوٰاتٍ طِباقاً﴾[5].

---

١ . سورة الأعراف: الآية ٥٤؛ سورة يونس: الآية ٣.

٢ . سورة الحجّ: الآية ٤٧؛ وانظر أيضاً: سورة السجدة: الآية ٥.

٣ . سورة الطلاق: الآية ١٢.

٤ . سورة فصّلت: الآيتان ١١-١٢.

٥ . سورة نوح: الآية ١٥؛ و أيضاً انظر: سورة الملك: الآية ٣.

ونعلم أيضاً أنّ الكواكب المتلألئة في الظلام تقع في السماء الدنيا أو السفلى، وهي الأقرب إلى كوكب الأرض:

﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَآءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ﴾[1].

٣. سعة السماء

طبقاً للحسابات العلميّة ا لمتوفرة، لو سافرنا في طائرة مفترضة تسير بسرعة الضّوء ـ أي إنّها تقطع في كلّ ثانية ثلاث مئة ألف كيلو متر ـ فإنّنا سنصل إلى الشّمس بعد ثماني دقائق وعشرين ثانية، ونصل إلى الجدي بعد خمسين سنة، وإلى العيّوق بعد تسعين سنة. وإذا أردنا أن نسافر إلى أوّل مجرّة وبالسرعة المتقدّمة نفسها؛ فإنّ رحلتنا تستغرق سبع مئة ألف سنة ضوئية، ولقطع المسافة من طرف المجرّة إلى طرفها الآخر نحتاج إلى مائتي سنة ضوئية. وعلى أساس ما يقوله علماء النجوم: يوجد في الكون ما لا يقلّ عن مئة ألف مجرّة مثل مجرّتنا. ومما يزيد من الحيرة والعجب هو أنّ كلّ ما ذكرناه عن سفرنا الكوني الذهني يعتبر في وجهة النظر القرآنيّة منحصراً في سماء واحدة، هي السماء الأولى أو الدنيا[2].

٤. السقف المحفوظ

أحد معاني السماء في القرآن الكريم هو الغلاف المحيط بأطراف الأرض:

﴿وَجَعَلْنَا السَّمَآءَ سَقْفاً مَحْفُوظاً وَهُمْ عَنْ ءَايَاتِهَا مُعْرِضُونَ﴾[3].

قال فرانك آلن الأستاذ في الفيزياء الحيوية:

«إنّ الغلاف الغازي المتكوّن من غازات عدّة يحافظ على الحياة على أسطح الأرض؛ حيث يبلغ سمكه نحو ٨٠٠ كيلومتر، بحيث يستطيع أن يقف كالدرع الواقي للأرض، ويحفظها من شرّ النيازك والشهب ومختلف الأحجار السماويّة المميتة الّتي تصطدم به، وهي تنزل بمقدار

---

١. سورة الصافّات: الآية ٦؛ و أيضاً انظر: سورة فصّلت: الآية ١٢.

٢. انظر: الريشهري، دانشنامه عقايد اسلامى، ج٤، ص٣٩٧.

٣. سورة الأنبياء: الآية ٣٢.

عشرين مليون حجر في اليوم، وتبلغ سرعتها في الفضاء نحو خمسين كيلومتر في الثّانية.

كما يحافظ الغلاف الغازي على درجة الحرارة عند سطح الأرض في الحدود المناسبة للحياة، ويدّخر مقداراً كبيراً من الماء والبخار اللازمين للحياة وينقلهما من المحيطات إلى اليابسة. كما إنّ سمك الغلاف الغازي المحيط بالأرض يجعل الأشعة الكونية النافذة عبره إلى أطراف الأرض بمعدل كافٍ لنموّ النباتات، وخلال ذلك يتلف الغلاف الغازي كلّ الجراثيم المضرّة ويوجِد الفيتامينات المفيدة»[1].

٥. النّظام الدقيق السائد في الكواكب السماويّة

كشف القرآن الكريم عن حقيقة مفادها أنّ الأجرام السماويّة تتحرّك في الفضاء ضمن مدارات خاصّة، فلا يصطدم بعضها ببعضها الآخر في الظروف الاعتياديّة. من هنا، لما تحدّث الباري (سبحانه وتعالى) في سورة «يس» عن الشّمس والقمر شدّد على أنّهما لا يتصادمان؛ لأنّ كلّ واحد منهما يسبح في مدار خاصّ:

﴿وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾[2].

ثمّ إنّ الحركة المنظّمة والدقيقة للأجرام السماويّة في مداراتها المعينة لا تكفل عدم اصطدامها ببعضها وحسب؛ بل تجعل من الممكن التنبّؤ بالأحداث الّتي تقع في الفضاء قبل حدوثها بقرون عدّة.

٦. الاهتداء بالنجوم والكواكب

فضلاً عن تزيين الكواكب للسماء الدنيا والتسبّب بآثار تكوينيّة كثيرة، يستفيد منها الإنسان في الاهتداء وتحديد الاتجاهات المختلفة والطرق البرّيّة والبحريّة:

﴿وَهُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِى ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾[3].

---

١. ابراهام موريسن، راز آفرينش انسان، ص٣٤-٣٥.

٢. سورة يس: الآية ٤٠.

٣. سورة الأنعام: الآية ٩٧.

وبهذا يتّضح أنّ إمكان تحديد الاتجاهات المختلفة بواسطة الكواكب يعدّ من بركات النّظام السائد في السماوات؛ فلو كانت حركة النجوم غير منظّمة ومداراتها غير معينة، كيف يستطيع الإنسان أن يهتدي إلى طريقه وهو في عرض البحار أو مفازات الصحاري الجرداء أو الطرق المجهولة في السماء؟[١].

٧. التسخير التكويني

اعتبر القرآن الكريم الأجرام السماوية مطيعة لأمر الله (سبحانه وتعالى)، مشدّداً على أنّ حركة هذه الأجرام وآثارها تسير وفق برنامج وضعه لها خالق الكون:

﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ﴾[٢].

وأشير إلى هذه الحقيقة بسجود الشّمس والقمر لله (سبحانه وتعالى)، والمقصود من السجود هنا نهاية الخضوع والطاعة والتسليم التكويني له، بحيث إنّهما لم يقصّرا في أداء ما أمرهما به في نظام الخلق منذ ملايين السنين، ولم يتجاوزا مدارهما المعين لهما ولو بمقدار ذرّة واحدة. قال سبحانه:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾[٣].

٨. خلق الليل والنّهار

من الموضوعات الأخرى المرتبطة إلى حدٍّ ما بخلق السماء، ظاهرة الليل والنهار؛ فنرى أنّ الباري (سبحانه وتعالى) دعا النّاس أكثر من ثلاثين مرّة في القرآن الكريم إلى التدبّر في الليل والنهار باعتبارهما آيتين من الآيات الإلهيّة وظاهرتين عظيمتين من ظواهر نظام الكون، تكشفان عن حكمة الخالق (سبحانه وتعالى)، فتارةً ذكر أنّهما علامة من علامات الوجود:

﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ﴾[٤].

---

١. انظر: جون كلوفر، اثبات وجود خدا، ص٢٦١.

٢. سورة الأعراف: الآية ٥٤.

٣. سورة الحجّ: الآية ١٨.

٤. سورة الإسراء: الآية ١٢؛ سورة فصّلت: الآية ٣٧.

وتارةً قال إنّ الله هو من خلق الليل والنهار:

﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾[1].

وتارةً أكد على أنّه (سبحانه وتعالى) سخّرهما للإنسان:

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾[2].

كما أشار (سبحانه وتعالى) إلى أنّه يُدخل الليل في النهار والنهار في الليل:

﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾[3].

وبيّن الباري (سبحانه وتعالى) في آيات أخرى، دعت المفكرين إلى مزيد من التأمل والتمعن في ظاهرة الليل والنهار، أبسط حكمة من الليل والنهار بلغة بسيطة يفهمها الجميع، فقال في سورة القصص:

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَداً إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلٰهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ * قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَداً إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلٰهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ * وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[4].

وتشير الآيات المتقدّمة إلى حقيقة أنّه لا يمكن العيش على الكرة الأرضية لولا دوران الأرض حول نفسها وكون نصفها مضيئاً والنصف الآخر مظلماً. وعليه، فالحركة المنتظمة للأرض والنظام الدقيق لليل والنهار يكشفان عن التدبير والنظام ووجود عجائب وآثار كثيرة في هذه الظاهرة وإن بدت في ظاهرها بسيطة[5].

---

١. سورة الأنبياء: الآية ٣٣.

٢. سورة إبراهيم: الآية ٣٣.

٣. سورة الحجّ: الآية ٦١؛ سورة لقمان: الآية ٢٩؛ سورة فاطر: الآية ١٣؛ سورة الحديد: الآية ٦.

٤. سورة القصص: الآيات ٧١-٧٣.

٥. انظر: الريشهري، دانشنامه عقايد اسلامى، ج٤، ص٣٧٢-٣٧٦.

❁ الأسئلة

١. ما هي أهمّ أهداف عالم الكون في مجال المعرفة الدّينيّة ؟ وبماذا يختلف التوجّه الديني عن التوجّه العقلي المحض والتوجّه التجريبي؟

٢. ما المراد من السماوات السبع والسقف المحفوظ ؟

٣. اذكر الآيات الكاشفة عن طاعة الموجودات في العالم لله (سبحانه وتعالى)، واشرح ما المعاني المتصوَّرة في هذا السّياق.

❁ موضوع للبحث

- استخرج أمثلة أخرى عن عجائب السماء من المصادر العلميّة المختلفة واشرحها في الدّرس.

٦٢

الأرض

تعرّفنا في الدّرس السابق إلى بعض خصائص السماء في القرآن الكريم، والآن سوف نبحث الأبعاد المختلفة للأرض لنطّلع على خصائصها ومواصفاتها العجيبة؛ ولذا سنتناول في هذا الدّرس بحث خلق الأرض بصورة عامّة، ونتطرّق إلى عدد من أجزائها كالجبال والمياه.

الظاهرة الأخرى من ظواهر عالم الشهادة هي الكرة الأرضية، وثمّة خصوصيات بديعة لخلق الأرض من وجهة نظر القرآن والأحاديث الإسلاميّة، وسنشير أدناه إلى أهمّها:

١. الأرضون السبع

أشار القرآن الكريم إلى الكرة الأرضية بصورة مفردة خلافاً للسماء؛ غير أنّه أكد في آية قرآنية على وجود أرضين سبع، فقال:

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمٰوٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾[١].

وهذا يعني كما إنّ السماوات سبع فالأرضون سبع كذلك، وهذه الآية القرآنيّة الوحيدة الدالّة على وجود أرضين سبع، وأمّا في الرّوايات فقد وردت بكثرة الإشارة إلى الأرضين السبع إلى جانب السماوات السبع.

---

١. سورة الطلاق: الآية ١٢.

٢. حجم الأرض

من أهمّ الأبحاث في هذا المجال هو حجم الكرة الأرضية ومساحتها، فلو كانت الأرض بمقدار القمر وكان قطرها يعادل ربع قطرها الحالي؛ فإنّ قوّة الجاذبية لا تكفي لحفظ الماء والهواء على الأرض، فترتفع درجات الحرارة بشكل مهلك. وبخلاف ذلك لو كان قطر الأرض ضعف قطرها الحالي؛ فإنّ سطح الأرض سيكون أربعة أضعاف سطحها الحالي، وترتفع قوّة جذبها إلى ضعفين عما هي عليه الآن، كما تنخفض درجات الحرارة بشكل خطير، ويرتفع ضغط الهواء من كيلو غرام على السنتيمتر المربع الواحد إلى كيلو غرامين. وكلّ هذه العوامل لها ردود فعل شديدة على الحياة في الأرض. إنّ هذا لهو فعل الخالق الحكيم الّذي جعل كلّ شيءٍ في نظام الخلق بالمقدار الّذي تقتضيه فلسفة خلقه[١]. من هنا قال (سبحانه وتعالى):

﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾[٢].

٣. تدلّي الأرض في الفضاء

من الخصائص الأخرى للأرض هو كونها عائمة في الفضاء ومرتكزة إلى عمد غير مرئية تتمثل بقوة الجاذبية. قال (سبحانه وتعالى) في هذا الصدد:

﴿وَمِنْ ءَايَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَآءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ﴾[٣].

فهذه الآية تدلّ بوضوح على أنّ الكواكب السماوية والكرة الأرضية عائمة في الفضاء دون عمد وبلا روابط مادّية محسوسة، وليس ثمّة شيء يقيمها غير أمر الله (سبحانه وتعالى)[٤]. وهذا ما أكدت عليه الأحاديث الدّينيّة ـ انطلاقاً من هذه الآيات ـ فورد فيها:

«بَسَطَ الْأَرْضَ عَلَى الْهَوَاءِ بِغَيْرِ أَرْكَانٍ»[٥].

---

١ . انظر: جون كلوفر، اثبات وجود خدا، ص٢١.

٢ . سورة القمر: الآية ٤٩؛ وانظر كذلك: سورة الطارق: الآية ١٢.

٣ . سورة الروم: الآية ٢٥.

٤ . انظر في هذه الخصوص: الطوسي، التبيان في تفسير القرآن، ج٨، ص٢٤٣؛ مكارم الشيرازي، الأمثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج١٠، ص٢٠٦.

٥ . ابن طاووس، إقبال الأعمال، ج١، ص٤٣٦؛ انظر كذلك: الريشهري، دانشنامه قرآن وحديث، ج٥، ص٣١٤، ح٤٢٠٤.

«أَقَامَهَا بِغَيْرِ قَوَائِمَ ورَفَعَهَا بِغَيْرِ دَعَائِمَ»[١].

«أَقَامَ الْأَرْضَ بِغَيْرِ سَنَدٍ»[٢].

والنقطة المهمّة الأخرى والجدير بالذكر هي كيفية إجراء الأمر الإلهيّ في إقامة الأجرام السماوية والأرض واستقرارها في الفضاء وحفظها ضمن مداراتها الخاصّة، وقد ذُكرت هذه المسألة في آيتين أخريين، هما:

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾[٣].

﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾[٤].

إنّ هاتين الآيتين تبيّنان «الأمر» و«الإمساك» الإلهيين الواردين في الآيتين المتقدّمتين آنفاً، أي إنّ عدم سقوط السماوات والأرض بأمر الله سبحانه وبواسطة دعائم غير مرئية، تسمّى علميّاً اليوم «قوّة الجاذبية». ومن هنا؛ فإنّ أحد أصحاب الإمام الرّضا عليه السلام واسمه حسين بن خالد لما سأله عن قوله (سبحانه وتعالى): ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ﴾[٥]. أجاب الإمام عليه السلام: محبوكة إلى الأرض، وشبّك بين أصابعه. فقال الراوي: كيف تكون محبوكة إلى الأرض والله يقول: ﴿رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾؟؛ فقال الإمام عليه السلام: أليس الله يقول: ﴿بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾»؟ قَالَ الراوي: بَلَى. فَقَالَ الإمام عليه السلام: ثمّ عمد ولكن لاترونها، الخبر[٦].

٤. استقرار الأرض مع تحرّكها

الدّرس الآخر في خلق الأرض هو كونها مستقرّة بشكل تامّ بواسطة أربعة عشر نوعاً من أنواع

---

١ . نهج البلاغة، الخطبة ١٨٦؛ المجلسي، بحار الأنوار، ج٧٤، ص٣١٢، ح١٤.

٢ . الطوسي، مصباح المتهجّد وسلاح المتعبّد، ص٣٠٧، ح٤١٧؛ ابن طاووس، جمال الأسبوع بكمال العمل المشروع، ص١٨٤؛ المجلسي، بحار الأنوار، ج٨٨، ص١٩٦، ح٣.

٣ . سورة الرعد: الآية ٢.

٤ . سورة لقمان: الآية ١٠.

٥ . سورة الذاريات: الآية ٧.

٦ . انظر: القمي، تفسير القمي، ج٢، ص٣٢٨؛ العياشي، تفسير العياشي، ج٢، ص٢٠٣.

الحركة؛ بيد أنّها تبدو لساكنيها كأنّها ثابتة وليس ثمّة أيّ حركة، وعندما نحاول إدراك الأهمّيّة الفائقة لهذا الموضوع لا بدّ أن نتصوّر بأنّ هذه السفينة الفضائية العظيمة الّتي اسمها الأرض تحمل اليوم نحو ستّة مليارات مسافر، وتطير في الفضاء في حركتها الوضعية بسرعة تعادل ١٤٤٠ كيلومتر في الساعة، وفي سرعتها التبعية بسرعة ٧٠,٠٠٠ كيلومتر في الساعة، وفي حركتها الانتقالية بسرعة ١٠٧,٢٨٠ كيلومتر في الساعة، وهي مع هذا الوصف مستقرّة استقراراً تامّاً. وقد أكد القرآن الكريم والحديث الشريف مكرّراً هذا الدّرس البليغ باعتباره أحد الأدلة على معرفة الله سبحانه، ودعا النّاس إلى التأمّل فيه، فقال (سبحانه وتعالى):

﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَاداً﴾[١].

كلمتا «المهد» و«المهاد» كلاهما بمعنى المكان المجهّز للجلوس والمنام والاستراحة، والمهد أساساً يطلق على الموضع الّذي ينوّم فيه الطفل، فكأنّ الإنسان طفل يودع في مهد الأرض، وقد تمّ توفير جميع مستلزمات الحياة له فيها.

كما وصف الباري (سبحانه وتعالى) الأرض بأنّها مركب مطيع ومسخّر للإنسان، فقال:

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾[٢].

إنّ الأرض «ذلول» ومطيعة ومسخّرة لخدمة الإنسان في جميع المجالات، والطريف هنا بعد وصفه (سبحانه وتعالى) للأرض بأنّها «ذلول» أمره لعباده بأن يسيروا في «مناكبها». و«مناكب» جمع «منكب» على وزن «مغرب» بمعنى الكتف، وبذلك تسخّر الأرض للإنسان ويضع قدميه عليها سائراً على كتفها وهي هادئة ومتوازية ومحتفظة بتعادلها[٣].

مضافاً إلى ذلك؛ فإنّ الله الرحيم بعباده وفّر في الكرة الأرضية جميع مقوّمات الحياة الهادئة والمطمئنّة، فجعلها مكاناً ثابتاً وخالياً من كلّ أشكال التزلزل، ومنسجماً مع بنية روح الإنسان وجسمه، وذات ثروات متنوعة ومشتملة على جميع الوسائل الّتي يحتاجها الإنسان، ومسطّحة ومباحة ومجّانية:

---

١ . سورة النبأ: الآية ٦.

٢ . سورة الملك: الآية ١٥.

٣ . انظر: مكارم الشيرازي، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج١٨، ص٤٩٦.

﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَاراً﴾[1].

٥. خلق الجبال

ثبت مؤخراً في علم الجيولوجيا (علم طبقات الأرض) ضرورة وجود الجبال على سطح الكرة الأرضيّة لغرض ضمان الاستقرار فيها وصلاحيتها للحياة؛ لكنّ القرآن الكريم استطاع كشف هذا السرّ العلمي منذ أكثر من أربعة عشر قرناً من الزّمان؛ حيث بيّن بصراحة بعض الأدوار الّتي تؤدّيها الجبال في حياة الإنسان.

وقد استخدم هذا الكتاب السماوي اصطلاح «الجبال» ٣٩ مرّة، وعبّر عنها بكلمة «رواسي» تسع مرّات، كما دعا النّاس إلى التأمل والمطالعة لهذه الظاهرة العجيبة للسير في معرفة الله (سبحانه وتعالى). ومن أهمّ النقاط الجديرة بالبحث في هذا الصدد:

أ) دور الجبال في استقرار الأرض

إنّ الأرض تقع في معرض الاهتزاز والاضطراب الشديد والتلاشي من جهتين:

١. الحركات السريعة المتعددة الوضعيّة والتبعيّة والانتقاليّة.

٢. استعداد الغازات المتراكمة في أعماق الأرض للانفجار بشدّة متناهية.

من هنا؛ فإنّ الأرض تحتاج إلى روابط محكمة دائمة وأوتاد عظيمة تتناسب مع حجمها ووزنها؛ لكي تربط طبقاتها المختلفة بعضها ببعض، وتمنعها من الاهتزاز والتلاشي. وقد أشارت التحقيقات العلميّة إلى أنّ الروابط الدائمة والأوتاد المحكمة الّتي توجب استحكام الأرض واستقرارها هي الجبال بجذورها العميقة ووزنها الثقيل[2]. كما إنّ السلاسل الجبلية المذكورة تساعد على استقرار قشرة الأرض الّتي تسبح على السائل الموجود في داخلها؛ ولذا أكد القرآن الكريم في ثلاثة مواضع على أنّ فائد الجبال هي منع حدوث اضطراب في الأرض والحدّ من تزلزلها، فقال (سبحانه وتعالى):

---

١. سورة غافر: الآية ٦٤.

٢. انظر: الريشهري، دانشنامه عقايد اسلامي، ج٤، ص٣٣٧.

﴿وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ﴾[١].

وعبّر في إحدى الآيات عن الجبال بالأوتاد قائلاً:

﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَاداً * وَالْجِبَالَ أَوْتَاداً﴾[٢].

وأشير في بعض الآيات إلى حركة الجبال و إن كانت تبدو ثابتة:

﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ﴾[٣].

ب) دور الجبال في الحفاظ على الإنسان

إنّ الجبال تحافظ على الإنسان من جهات مختلفة، فهي تقف كالسدّ العظيم والجدران الشاهقة بوجه الرياح الباردة الّتي تهبّ من المحيط المنجمد الشمالي، ولولا تلك الأسوار الشوامخ والجدران الشواهق لاختلّت ظروف العيش في بيئة الحياة نتيجة تلك الرياح العاتية الباردة. ثمّ إنّ الجبال تقف حائلاً أمام الرياح البحرية الرطبة الّتي تحمل الغيوم، وبالنتيجة يتساقط المطر أو الثلج حول أطرافها. وفضلاً عن ذلك؛ فإنّ الجبال الشاهقة تغيّر درجات حرارة المناطق المجاورة لها، فتخفّف من وطأة الحرارة الشديدة[٤].

قال (سبحانه وتعالى) في إشارة إلى واحدة من حكَم خلق الجبال:

﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالاً وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَاناً﴾[٥].

والأكنان جمع كِنّ، وهو ما يستتر به الشيء ويستعمل للتغطية والحفظ، حتّى إنّ القميص كنّ للابسه، وأكنان الجبال هي الكهوف والمغارات الموجودة فيها[٦].

ولا ريب في أنّنا نرى إطلاق كلمة «الظلال» في الآية لتشمل كلّ الظلال، سواء كانت ظلال

---

١ . سورة الأنبياء: الآية ٣١؛ و انظر أيضاً: سورة لقمان: الآية ١٠؛ سورة النحل: الآية ١٥.

٢ . سورة النبأ: الآيتان ٦-٧.

٣ . سورة النمل: الآية ٨٨.

٤ . انظر: الريشهري، دانشنامه عقايد اسلامي، ج٤، ص٣٣٨.

٥ . سورة النحل: الآية ٨١.

٦ . انظر: الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ج١٢، ص٣١٤.

الأشجار أو المغارات الجبلية أو ظلّ أيّ شيءٍ آخر، باعتبارها إحدى النعم الإلهيّة. وقد لا يدرك سكنة المدن ما لوجود المغارات الجبلية من أهمية، ولكن عابري الصحاري والمسافرين العزّل والرعاة وكلّ من حُرم من نعمة البيوت الثابتة أو السيارة (مؤقتاً أو دائماً) عندما يكونون تحت سطوة حرارة الصيف اللاهبة أو تحت وطأة زمهرير الشتاء القارص، سيعرفون عندها أهمية تلك المغارات، وخصوصاً كونها باردة في الصيف ودافئة في الشتاء، وهي ملاذ ينجي من موت قريب ـ في بعض الأحيان ـ للإنسان أو الحيوانات[1].

ج) دور الجبال في تصفية المياه

إنّ إحدى طرق تصفية المياه كما يأتي: حينما تمرّ المياه خلال الطبقات المختلفة المتراكمة بعضها فوق بعض؛ فإنّ الشوائب والجراثيم تترسّب في ثنايا المنافذ، ومن ثمّ يتخلّل الماء من تحتها رقراقاً عذباً.

كذلك تؤدي الجبال دوراً مهمّاً في تصفية المياه الثلجية وعذوبتها؛ ذلك أنّ الثلوج الّتي تختزن في أعالي الجبال عند فصل الشتاء تذوب بالتدريج، ويمرّ ماؤها متخلّلاً طبقات الجبال الصخرية، فيصفّى بشكل طبيعي ويجري من تحت الجبال على شكل عيون وينابيع رقراقة عذبة، وكلّما ازداد ارتفاع الجبال ازدادت مياهها عذوبةً ونقاءً[2]. وقد قال القرآن الكريم مشيراً إلى هذه النقطة:

﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُم مَّاءً فُرَاتًا﴾[3].

٢. خلق الماء

يعتبر خلق الماء ودوره في مسيرة الحياة من الأمور المهمّة في الرؤية القرآنيّة إلى عالم الكون، وقد أكد القرآن الكريم في هذا الخصوص على نقاط عدّة، هي:

---

١ . انظر: مكارم الشيرازي، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج٨، ص٢٨٢.

٢ . انظر: الريشهري، دانشنامه عقايد اسلامى، ج٤، ص٣٣٩.

٣ . سورة المرسلات: الآية ٢٧.

أ) الماء سرّ الحياة

اعتبر الماء سرّ الحياة في إيجاد الكائنات الحيّة، فقال (سبحانه وتعالى):

﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَآءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾[١].

فعلى الرّغم من وجود عوامل مختلفة تسهم في تغيير الظروف البيئية، إلّا أنّ الماء اعتبر عاملاً أساسيّاً في إيجاد الحياة وتأهيل الطبيعة:

﴿وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾[٢].

وأشير في بعض الآيات إلى أنّ الله تبارك وتعالى يعيد الحياة إلى الأرض بواسطة إنزال الماء عليها، واعتبر ذلك مثالاً على إحياء الموتى يوم القيامة:

﴿وَمِنْ ءَايَاتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَآ أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَآءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْيِ الْمَوْتَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[٣].

ب) الماء زينة الحياة وقوامها

إنّ لجمال الأرض وطراوتها ونضارتها علاقةً مباشرةً بتدبير الله (سبحانه وتعالى) وخلقه للماء والهواء والسحاب والمطر:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾[٤].

وتحظى هذه الحيوية والنضارة المتأتّية من الماء بأهمية فائقة في حياة الإنسان على وجه الكرة الأرضية إلى درجة أنّ القرآن الكريم يحتجّ بهذه الخصوصية لخلق الرحمن على الكافرين والمعاندين؛ فنرى أنّه دعا الكفار والمشركين إلى التوحيد عن طريق التأمّل في هذا التدبير الإلهيّ:

---

١ . سورة الأنبياء: الآية ٣٠.

٢ . سورة النحل: الآية ٦٥.

٣ . سورة فصّلت: الآية ٣٩.

٤ . سورة الحجّ: الآية ٦٣.

﴿ءَآللهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ * أَمَّنْ خَلَقَ السَّمٰوٰاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَآءِ مَآءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَآ أَءِلٰهٌ مَعَ اللهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾[1].

على هذا الأساس، لا يتوقف أصل الحياة واستمرارها فحسب على وجود الماء؛ وإنّما من وجهة نظر علم النّفس وعلم الجمال يتوقف تحمّل الحياة فوق الأرض على الماء والعمران فيها.

ج) الماء أساس ما تنبته الأرض

من الوظائف الأخرى للماء في مسيرة الخلق، دوره في توفير المواد الغذائية المختلفة للإنسان، من قبيل الخضار والثمار وكلّ ما تنبت الأرض:

﴿أَللهُ الَّذِى خَلَقَ السَّمٰوٰاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرٰاتِ رِزْقاً لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهٰارَ﴾[2].

د) عذوبة الماء

يتّصف الماء في عالمنا الحالي بالعذوبة والحلاوة مقابل المياه المالحة والمرّة؛ ليلبّي حاجة الإنسان من المياه الصالحة للشرب، وقد عدّ القرآن الكريم هذه الظاهرة الّتي تبدو وكأنّها بسيطة من عجائب الخلقة؛ حيث تتحرّك الغيوم في السماء من مكان إلى آخر وتُنزل للنّاس ماءً عذباً دون التأثر بالمواد الملوثة الكثيرة الموجودة في الكون، قال (سبحانه وتعالى):

﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَآءَ الَّذِى تَشْرَبُونَ * ءَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ * لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجاً فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾[3].

وقال أيضاً:

---

١ . سورة النمل: الآية ٥٩-٦٠.

٢ . سورة إبراهيم: الآية ٣٢؛ انظر كذلك: سورة عبس: الآيتان ٢٦-٢٧.

٣ . سورة الواقعة: الآيات ٦٨-٧٠.

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْراً فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ﴾[1].

هـ) الماء وسيلة للنظافة والطهارة

تعدّ النظافة والطهارة من الحِكم الأخرى لخلق الماء؛ إذ لا يمكن لأيّ شيءٍ آخر أن يحلّ محلّه، فلولا الماء لانتشرت القذارة في كلّ نقطة من المعمورة، وهذه الحكمة وحدها كافية في جعل هذه الوسيلة الحيوية في عداد العجائب العظيمة في عالم الخلق، وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الحكمة في موضعين:

﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُوراً﴾[2].

﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ﴾[3].

و) دور البحار في حياة الإنسان

أشارت بعض الآيات القرآنيّة إلى دور الأمطار في ادّخار المياه الساكنة (البحار) وجريان الينابيع في الأرض:

﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ﴾[4].

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ﴾[5].

في هذا السّياق، توصل العلماء في مجال علم طبقات الأرض (الجيولوجيا) إلى نتائج مهمّة في مجال النسبة بين مقدار الأمطار السنوية ومعدل التغييرات الجوية في سطح الأرض، ووجدوا أنّ أدنى إشكال في هذه المعادلة يهدّد وجود البحار والأنهار بصورة خطيرة.

إنّ الخالق الحكيم للعالم جعل البحار من أهمّ مصادر الثروة في الحياة الدنيا وسخّرها

---

١ . سورة الملك: الآية ٣٠.

٢ . سورة الفرقان: الآية ٤٨.

٣ . سورة الأنفال: الآية ١١.

٤ . سورة المؤمنون: الآية ١٨.

٥ . سورة الزمر: الآية ٢١.

للمجتمع البشري؛ ومن هنا لطالما دعا القرآن الكريم والأحاديث الإسلاميّة الشّريفة النّاس إلى دراسة عجائب البحار ودورها في حياة الإنسان.

على هذا الأساس، سخّر الله البحار للنّاس لتوفرلهم جزءاً كبيراً من مصادر الغذاء:

﴿وَهُوَ الَّذِى سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْماً طَرِيّاً﴾[1].

وفضلاً عن تأمين شطر من المواد الغذائية للإنسان؛ فإنّ البحار توفر له بعض مستلزمات التجميل والحليّ أيضاً، وقد قال (سبحانه وتعالى) في هذا المجال:

﴿وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾[2].

ومن النقاط الأخرى الّتي سلّط القرآن الكريم عليها الضّوء باعتبارها من آيات التدبير الإلهيّ في عالم الكون، موضوع النقل البحري؛ حيث قال (سبحانه وتعالى):

﴿وَءَايَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ * وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ * وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنْقَذُونَ﴾[3].

وعلى الرّغم من توفروسائل النقل البرية والجوية في عصرنا الرّاهن، لا زالت السفن تؤدي دوراً كبيراً في مجال النقل البحري.

مضافاً إلى ذلك، توجد أمور عجيبة أخرى بشأن البحار والمحيطات، يمكن لأيّ واحد منها أن يشكل موضوعاً مستقلاًّ لدراسة هامّة، منها على سبيل المثال وجود نوعين من المياه في البحار إلى جانب بعضهما (عذبة ومالحة أو باردة وحارّة) دون أن يمتزج بعضها ببعضها الآخر بسبب وجود برزخ أو عازل غير مرئي، وهو ما اعتبره القرآن الكريم آية على التدبير الإلهيّ في عالم الخلقة، فقال (سبحانه وتعالى):

﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ * بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ﴾[4].

---

١ . سورة النحل: الآية ١٤.

٢ . سورة النحل: الآية ١٤.

٣ . سورة يس: الآيات ٤١-٤٣.

٤ . سورة الرحمن: الآيتان ١٩-٢٠.

والبرزخ الموجود بين المياه العذبة والمالحة المذكور في الآية الشّريفة هو الكثافة المختلفة لهذين النوعين من المياه أو وزنها المختلف الّذي يمنع امتزاج بعضها ببعضها الآخر.

ولمزيد من الإيضاح نقول: إنّ جميع الأنهار الكبيرة تحتوي على مياه عذبة تصبّ في البحار وتزيح المياه المالحة من سواحل تلك البحار، فتشكل بحراً من المياه العذبة، والطريف أنّه يستفاد من هذه المياه العذبة في الريّ وسقي المزروعات بمساعدة الجزر والمدّ الّذي يحدث في البحار.

وفضلاً عن المعنى المذكور، تشير الآية المتقدّمة إلى بعض العجائب الموجودة في محيطات العالم، وهي وجود أنهار عظيمة وتيارات بحرية كبيرة، وأقوى هذه الأنهار يسمى «غُلف ستيرين»، وهو نهر عظيم يتحرّك من سواحل أمريكا المركزية ويسير في جميع المحيط الأطلسي حتّى يصل إلى سواحل أوروبا الشمالية. والمعروف أنّ مياهه الّتي تسير من مناطق قريبة من خطّ الاستواء تكون حارّة؛ بل حتّى إنّ لونها يختلف عن لون المياه المجاورة، والعجيب أنّ عرض هذا النهر البحري العظيم بحدود ١٥٠ كم، كما إنّ أعمق نقطة فيه تبلغ مئات الأمتار، وسرعته في بعض المناطق شديدة بحيث تبلغ في اليوم الواحد ١٦٠ كم في الساعة. والعجيب أنّ هذه الأنهار العظيمة لا تمتزج مع المياه حولها إلّا قليلاً، وتسير آلاف الكيلومترات على هذه الصورة[1].

على أنّ ثمة التفاتات مهمّة ونقاطاً أخرى بشأن خلق الماء، لكن لا يتّسع المجال هنا لشرحها وتسليط الضّوء عليها[2].

---

١ . انظر: مكارم الشيرازي، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج١٧، ص٣٩٣-٣٩٤.

٢ . لمزيد من المعلومات في هذا المجال، انظر: جون كلوفر، اثبات وجود خدا، ص٨١-٨٦؛ الريشهري، دانشنامه عقايد اسلامى، ج٤، ص٣٤٥-٣٤٨.

❁ الأسئلة

١. اشرح كيف يمكن التحكّم بالأرض في الفضاء استناداً إلى الآيات والروايات.

٢. بيّن أنواع حركات الأرض، واذكر الآيات الّتي تؤكد على أنّ الأرض خُلقت مستقرّة.

٣. ما هي أدوار الجبال بالنسبة إلى الأرض؟ اذكر ثلاثة موارد على الأقلّ.

٤. كيف أشار القرآن الكريم إلى حركة الجبال ودورها في استقرار الأرض؟ اشرح ذلك اعتمادًا على الآيات القرآنيّة في هذا الخصوص.

٥. ما هو تأثير الماء في وجود حياة الإنسان واستمرارها؟ اذكر أربعة أمثلة مرتّبة بحسب الأولوية.

❁ موضوعات للبحث

- ابحث الاحتمالات المذكورة حول الأرضين السبع.
- أثبت عبر البحوث العلميّة الحديثة بأنّه لا وجود للحياة دون وجود الماء.

٦٣

الملائكة

ما جرى الحديث عنه إلى الآن هو إشارة موجزة لبعض المخلوقات الإلهيّة في عالم الشهادة. وكما ذكرنا في بداية بحث عالم الكون، ثمّة مخلوقات إلهية مرتبطة بعالم الغيب، بمعنى عدم إمكان إدراكها بالحواس الظّاهريّة. وسنتحدّث في الأبحاث القادمة باختصار عن هذا اللون من الموجودات، وسنخصّص هذا الدّرس لبحث موضوع الملائكة.

من المسلّمات في عالم الكون ومن وجهة النظر الإسلاميّة تحديداً، وجود كائنات يطلق عليها اسم «الملائكة»، فقد أشير في الآيات القرآنيّة والروايات الدّينيّة مراراً إلى الملائكة وخصائصها وأوصافها وأفعالها. وسنتطرّق هنا باختصار إلى جانب من رؤية الإسلام حول هذه الطائفة من المخلوقات الإلهيّة:

١. حقيقة الملائكة

لا ريب في أنّ الملائكة كائنات ذات عقل وشعور؛ غير أنّها لا تتجسّد أمام الحواس الظّاهريّة ولا تقبل الإدراك الحسّي. قال أمير المؤمنين عليه السلام في مجال الفارق بين خلق الملائكة والبشر:

«لَمْ يَسْكُنُوا الْأَصْلَابَ، وَلَمْ يُضَمَّنُوا الْأَرْحَامَ، وَلَمْ يُخْلَقُوا مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ»[١].

---

١. نهج البلاغة، ص١٥٩، الخطبة ١٠٩؛ القمي، تفسير القمي، ج٢، ص٢٠٧؛ وللمزيد انظر: بحارالأنوار، ج٥٦، باب ٢٣ حقيقة الملائكة و صفاتهم و شئونهم و أطوارهم.

مضافاً إلى أنّهم لا يأكلون الطعام ولا يشربون الشراب ولا يتزوجون، كما ورد في حديث للإمام أبي عبد الله الصادق عليه السلام في هذا المجال:

«إِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَا يَأْكُلُونَ وَلَا يَشْرَبُونَ وَلَا يَنْكِحُونَ، وَإِنَّمَا يَعِيشُونَ بِنَسِيمِ الْعَرْشِ»[١].

كذلك لا يغشى الملائكة نوم ولا سهو ولا غفلة ولا يرتكبون المعصية، هذا ما ذكره الإمام عليّ عليه السلام في وصفهم:

«فَلَيْسَ فِيهِمْ فَتْرَةٌ، وَلَا عِنْدَهُمْ غَفْلَةٌ، وَلَا فِيهِمْ مَعْصِيَةٌ... لَا يَغْشَاهُمْ نَوْمُ الْعُيُونِ، وَلَا سَهْوُ الْعُقُولِ، وَلَا فَتْرَةُ الْأَبْدَانِ، لَمْ يَسْكُنُوا الْأَصْلَابَ، وَلَمْ تَتَضَمَّنْهُمُ الْأَرْحَامُ»[٢].

٢. عصمة الملائكة وعبادتهم

خُلق الملائكة بحيث ليس في وجودهم ميول نفسية ولا أهواء ولا شهوات؛ ولذا لا يسيرون في طريق المخالفة والعصيان مطلقاً ويطيعون الله طاعة تامّة. وعلى هذا الأساس وصفهم الباري سبحانه بقوله:

﴿بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ * لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾[٣].

وقال (سبحانه وتعالى) بشأن الملائكة الموكلين بجهنّم:

﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾[٤].

وفضلاً عن ذلك، لا يتوانى الملائكة عن عبادة الله (سبحانه وتعالى) وتقديسه وتهليله وتسبيحه، ولا يفترون عن ذلك أبداً:

﴿وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ * يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾[٥].

---

١. القمي، تفسير القمي، ج٢، ص٢٠٦؛ المجلسي، بحار الأنوار، ج٥٦، ص١٧٤.

٢. القمي، تفسير القمي، ج٢، ص٢٠٧؛ المجلسي، بحار الأنوار، ج٦، ص١٧٥.

٣. سورة الأنبياء: الآيتان ٢٦-٢٧.

٤. سورة التحريم: الآية ٦.

٥. سورة الأنبياء: الآيتان ١٩-٢٠.

٣. وظائف الملائكة

وضع الباري (سبحانه وتعالى) على عاتق الملائكة وظائف مهّمة ومتنوعة، منها رسالة يتكفلون بها في عالمي التكوين والتشريع، قال عنها (سبحانه وتعالى) في محكم كتابه الكريم:

﴿ٱللَّهُ يَصۡطَفِى مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا﴾[١].

وفي ضوء الدور الّذي يضطلع به الملائكة في تدبير شؤون العالم بإذن الله (سبحانه وتعالى)، يمكن القول: إنّ رسالتهم تشتمل على شقّين: رسالة تكوينية تتعلق بقيامهم بتدبير شؤون العالم وتنفيذ الأوامر الإلهيّة، وفيها قال (سبحانه وتعالى):

﴿فَٱلۡمُدَبِّرَٰتِ أَمۡرًا﴾[٢].

ورسالة تشريعية تعود إلى توسطهم في نزول الوحي على الأنبياء المعبّر عنها بقوله (سبحانه وتعالى):

﴿يُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ﴾[٣].

ومضافاً إلى مهمّة الرّسالة المذكورة، يقع على عاتق الملائكة أعمال ووظائف أخرى، يمكن تلخيصها بما يأتي:

١. الاستغفار والشفاعة للمؤمنين ومساعدتهم في الحروب[٤].

٢. تسجيل أعمال الخلائق ومراقبة أعمالهم[٥].

٣. قبض الأرواح[٦].

---

١ . سورة الحج: الآية ٧٥.

٢ . سورة النازعات: الآية ٥.

٣ . سورة النحل: الآية ٢.

٤ . انظر: سورة المؤمن: الآية ٧؛ سورة الأنبياء: الآية ٢٨؛ سورة آل عمران: الآية ١٢٤-١٢٥؛ سورة الأحزاب: الآية ٩.

٥ . انظر: سورة يونس: الآية ٢١؛ سورة الزخرف: الآية ٨٠؛ سورة الانفطار: الآيات ١٠-١٢.

٦ . انظر: سورة الأنعام: الآية ٦٢؛ سورة النساء: الآية ٩٧، سورة الأعراف: الآية ٣٧.

٤. الحفاظ على الإنسان من المخاطر والحوادث[١].

٥. معاقبة القوم الكافرين[٢].

وفضلاً عن ذلك؛ فإنّ الملائكة يحضرون في عالم البرزخ وفي الآخرة[٣]، ويستقرّ عدد منهم في الجنّة[٤]، ويكلّف بعضهم بحراسة أهل النّار[٥].

٤. الأصناف والمراتب المختلفة للملائكة

يستفاد من الرّوايات أنّ أعداد الملائكة كثيرة بحيث إنّه لا يمكن مقايسة أعدادهم بالبشر بأيّ شكل من الأشكال، فحينما سئل الإمام أبوعبد الله الصادق عليه السلام: هل الملائكة أكثر أم بنو آدم؟ قال:

«وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ! لَمَلَائِكَةُ اللهِ فِي السَّمَاوَاتِ أَكْثَرُ مِنْ عَدَدِ التُّرَابِ فِي الْأَرْضِ، وَمَا فِي السَّمَاءِ مَوْضِعُ قَدَمٍ إِلَّا وَفِيهَا مَلَكٌ يُسَبِّحُهُ وَيُقَدِّسُهُ»[٦].

كما يستفاد من مجموع الآيات والروايات أنّ للملائكة مقامات ومراتب متباينة. قال (سبحانه وتعالى) على لسانهم:

﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ * وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّآفُّونَ * وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ﴾[٧].

وتشير بعض الرّوايات إلى أنّ بعضهم راكعون وبعضهم ساجدون إلى يوم القيامة، فروي عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام أنّه قال:

«وَإِنَّ لِلهِ مَلَائِكَةً رُكَّعاً إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَإِنَّ لِلهِ مَلَائِكَةً سُجَّداً إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»[٨].

---

١. انظر: سورة الأنعام: الآية ٦١.

٢. انظر: سورة هود: الآية ٧٧.

٣. انظر: سورة النحل: الآيتان ٢٨ و٣٢.

٤. انظر: سورة الزمر: الآية ٧٢؛ سورة الأنبياء: الآية ١٠٣.

٥. انظر: سورة المدّثر: الآية ٣٠.

٦. القمي، تفسير القمي، ج٢، ص٢٥٥؛ المجلسي، بحار الأنوار، ج٥٦، ص١٧٦.

٧. سورة الصافّات: الآيات ١٦٤-١٦٦.

٨. القمي، تفسير القمي، ج٢، ص٢٠٦؛ المجلسي، بحار الأنوار، ج٥٦، ص١٧٤.

كذلك يتّضح من عدد من الآيات القرآنيّة أنّ بعض الملائكة يعملون لدى بعضهم الآخر، فثمة طائفة منهم تعمل تحت إمرة جبرائيل ولا تعصي له أمراً[١]، وبعضهم يعمل بأمر ملك الموت عزرائيل[٢]. وتفيد بعض الرّوايات أنّ جبرائيل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل يحظون بمنزلة متميزة ومكانة رفيعة بين باقي الملائكة.

٥. تمثُّل الملائكة

مع أنّ الملائكة ذوو وجود غير محسوس، لكنّهم قادرون على أن يظهروا بصورة الإنسان ويتمثّلوا به، وقد أيّد القرآن الكريم هذا الأمر حينما كان يسرد بعض الوقائع التاريخيّة. فعلى سبيل المثال، ذكر القرآن تجلّيهم بصورة إنسان لإبراهيم عليه السلام ولوط عليه السلام، ويستفاد من بعض الآيات أنّ قوم لوط أيضاً رأوهم بتلك الصورة الإنسانيّة السويّة[٣]. ومن الأمثلة لتمثّل الملائكة بصورة البشر، ما ورد في قصّة إعطاء النبيّ عيسى عليه السلام إلى مريم؛ حيث تمثّل لها جبرائيل بصورة بشرٍ سويٍّ بصريح الآية القرآنيّة[٤].

وفي ضوء هذه الأوصاف الّتي ذكرناها للملائكة، هل هي موجودات مجرّدة أم مادّية؟ لا شكّ في أنّ من غير الممكن أن تكون الملائكة بهذه الأوصاف من المادّة الكثيفة، ولكن لا مانع من أن تكون أجساماً لطيفة الخلق، أجساماً فوق هذه المادّة المألوفة لنا.

على أنّ إثبات «التجرّد المطلق» للملائكة من الزّمان والمكان والجزئية ليس بالأمر الهيّن، والوصول إلى تلك النتيجة ليس وراءه كثير فائدة، المهمّ هو أن نعرف الملائكة بالصفات الّتي وردت في القرآن والروايات الثابتة، وأنّها من الموجودات العُلوية الراقية عند الله في مقامها ومكانتها، ولا نعتقد لها بغير مقام العبودية لله سبحانه، وأن نعلم أنّ الاعتقاد بأنّها شريكة مع الله في أمر الخلق أو في العبادة كفر محض وشرك بيّن[٥].

---

١. انظر: سورة التكوير: الآية ٢١.

٢. انظر: سورة السجدة: الآية ١٢؛ سورة الأنعام: الآية ٦٢.

٣. انظر: سورة هود: الآيات ٦٩-٨٣.

٤. انظر: سورة مريم: الآية ١٧.

٥. انظر: مكارم الشيرازي، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج١٤، ص١٨-٢٠.

* **الأسئلة**

١. ما هي وجوه الفرق بين الملائكة والبشر؟

٢. اشرح عصمة الملائكة، وعلى أيّ أساس تكون العصمة لازمة لها؟

٣. اذكر أهمّ الأعمال والوظائف الّتي تقع على عاتق الملائكة، وبيّن المراتب والمقامات المختلفة لها مستدلّاً بآية قرآنيّة.

* **موضوع للبحث**

- استخرج عدداً من الآيات المتعلقة بالتمثّل من القرآن الكريم، وتباحث مع زملائك في الدّرس حول كيفيتها.

٦٤

الجنّ

تعرّفنا في الدّرس السابق إلى أولى الموجودات من عالم الغيب. وفي هذا الدّرس، سوف نتعرّف إلى الجنّ الّذي هو الموجودات الأخرى لهذا العالم غير الحسّي. ومع أنّ الجنّ إذا ما قورن بالملائكة، هو أقرب منه إلى الإنسان، لكنّنا اعتبرناه ضمن موجودات عالم الغيب بسبب خفائه وعدم إدراكه بالحواس الاعتياديّة للإنسان، وسنتطرّق هنا إلى خصائص هذا الكائن.

الجنّ موجود آخر من موجودات ما وراء عالم الطبيعة الخارجة عن دائرة الإدراك الحسّي في الظروف الاعتياديّة، ولا ريب في وجود الجنّ بحسب مبادئ الدّين الإسلاميّ؛ لدلالة الآيات والروايات على ذلك بوضوح، وتوجد سورة قرآنية حملت عنوان «سورة الجنّ» نقلت حواراً بين جماعة من الجنّ الّذين آمنوا بالإسلام.

«الجنّ» -كما هو واضح من المفهوم اللّغوي لهذه الكلمة - موجود غير مرئي، وردت له خصائص كثيرة في القرآن الكريم، وسنشير هنا إلى عدد منها:

١. خلق الجنّ

خلافاً للإنسان الّذي خُلق من التراب، يُعدّ الجنّ من المخلوقات الّتي خُلقت من النّار؛ حيث قال (سبحانه وتعالى):

﴿وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مارِجٍ مِنْ نارٍ﴾[١].

لكن ليس من الواضح هل المقصود من النار الّتي خُلق منها الجنّ هي النار الناجمة عن احتراق الأجسام نفسها أم نوع آخر من النار؟ غير أنّ المسلّم به هو أنّ الطبيعة النارية للجنّ منحت هذا الموجود اقتداراً كبيراً، وجعلته قادراً على القيام بالأعمال الّتي يعجز الإنسان الاعتيادي عن أدائها دون استخدام أدوات خاصّة، وقطع مسافات شاسعة جدّاً بسرعة مذهلة.

٢. تقدّم الجنّ على الإنسان في الخلق

النقطة الأخرى المستفادة من القرآن الكريم هي أنّ الجنّ خُلق قبل الإنسان، وأنّه متقدّم عليه في الخلق. قال (سبحانه وتعالى):

﴿وَالْجَانَّ خَلَقْناهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نارِ السَّمُومِ﴾[٢].

٣. تكليف الجنّ

من نقاط الاشتراك بين الجنّ والإنس هي أنّ الهدف من خلق كلا الطائفتين عبادة الله (سبحانه وتعالى):

﴿وَما خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[٣].

ويُستفاد من بعض الآيات القرآنيّة أنّ الله (سبحانه وتعالى) بعث من الجنّ رسلاً لبيان الآيات الإلهيّة إلى أبناء جلدتهم[٤].

وعلى هذا الأساس، فالجنّ كالإنسان يمتلك العلم والإدراك والقدرة على تشخيص الحقّ من الباطل والمنطق والاستدلال، كما ورد في الآيات المختلفة من سورة الجنّ، كما إنّ الجِنّة يتمتّعون بالشعور والإرادة والاختيار؛ ولذا يقع على عاتقهم مسؤولية وتكليف كما هو حال

---

١. سورة الرحمن: الآية ١٥.

٢. سورة الحجر: الآية ٢٧.

٣. سورة الذاريات: الآية ٥٦.

٤. ﴿يا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آياتِي وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقاءَ يَوْمِكُمْ هذا﴾ (سورة الأنعام: الآية ١٣٠).

النّاس أيضاً، فصار منهم الصالحون وأهل الإيمان ومنهم الطالحون والمنحرفون عن مسار الحقّ والعدل وأهل النار:

﴿وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذٰلِكَ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَداً * ... وَأَمَّا الْقاسِطُونَ فَكانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَباً﴾[1].

٤. الحياة الاجتماعيّة للجنّ

يُستفاد من بعض الآيات والروايات أيضاً أنّ الجِنّة يعيشون حياة اجتماعيّة كحياة الإنسان، فقد أشار القرآن الكريم إلى حقيقة وجود أمم من الجنّ عبر التّاريخ[2]؛ حيث تدلّ كلمة «أمّم» بوضوح على الحياة الاجتماعيّة للجنّ. وفضلاً عن ذلك، يسود عالم الجنّ نظام النكاح والإنجاب أيضاً.

٥. العلاقة بين الجنّ والإنسان

إنّ الجِنّة قادرون على أداء بعض الأعمال الّتي يحتاجها الإنسان؛ ولذا صرّح القرآن الكريم بأنّ بعض الجنّ كانوا يعملون كجنود وعمّال لدى النبيّ سليمان عليه السلام ويخدمونه:

﴿وَمِنَ الْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ ... * يَعْمَلُونَ لَهُ ما يَشاءُ مِنْ مَحارِيبَ وَتَماثِيلَ وَجِفانٍ كَالْجَوابِ﴾[3].

ومن ناحية أخرى؛ فإنّ الجِنّة لا يُرون في الأوضاع الاعتياديّة، وكانت لديهم القدرة على النفوذ إلى السماء واستراق السمع قبل ظهور الإسلام؛ ومن هنا كانوا يستغلّون المعلومات المحدودة والأسرار الّتي يحصلون عليها عن طريق هذا الاستراق لإقامة علاقة مع بعض أفراد النّاس، ومن ثمّ يغوونهم:

﴿وَأَنَّهُ كانَ رِجالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزادُوهُمْ رَهَقاً﴾[4].

---

١. سورة الجنّ: الآيات ١١-١٥.

٢. انظر: سورة الأعراف: الآية ٣٨.

٣. سورة سبأ: الآيتان ١٢-١٣.

٤. سورة الجنّ: الآية ٦.

ومن هذا المنطلق، كان عدد من النّاس يعبدون الجنّ، وكان بعضهم مطيعاً له ومسخّراً لخدمته.

وأمّا بعد ظهور الإسلام وبعثة النبيّ الكريم ﷺ، مُنع الجِنّة من استراق السمع وفقدوا القدرة على التنصّت على السماء:

﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَاباً رَصَداً﴾[١].

ومع ذلك، لا زلنا نرى ارتباطاً خاصّاً بين بعض النّاس وبين طائفة من الجنّ في عصرنا الحالي أيضاً.

٦. قدرة الجنّ

ثمّة أفراد يمتلكون قوة خارقة في أوساط عالم الجنّ كما هو الحال في عالم الإنس أيضاً:

﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ﴾[٢].

٧. أفضليّة الإنسان على الجنّ

يستفاد من الآيات القرآنيّة بوضوح أنّ الإنسان أفضل من الجنّ، خلافاً لما هو مشهور بين النّاس من كون الجنّ هو الأفضل؛ وذلك لأنّ جميع الأنبياء الإلهيين بُعثوا من البشر، وأنّ الجِنّة آمنوا بنبيّ الإسلام ﷺ واتّبعوه، وهو إنسان. كما إنّ وجوب السجدة على إبليس ـ الّذي كان آنذاك من الجنّ ـ للنبيّ آدم عليه السلام[٣]، لدليل على أفضلية النوع الإنساني على الجنّ.

٨. أصناف الجنّ

قد يطلق لفظ «الجنّ» على مفهوم واسع، يشمل أنواع الموجودات غير المرئية، سواء كان لها إدراك وعقل أم كانت فاقدة لهما؛ بل تدخل في هذا المفهوم أيضاً جملة من الحيوانات المرئية

---

١. سورة الجنّ: الآية ٩.

٢. سورة النمل: الآية ٣٩.

٣. انظر: سورة الكهف: الآية ٥٠.

بالعين والمختفية في جحورها عادةً، والشاهد على هذا المدّعى رواية عن النبيّ الأكرم ﷺ ورد فيها:

«خَلَقَ اللهُ الْجِنَّ خَمْسَةَ أَصْنَافٍ: صِنْفٌ كَالرِّيحِ فِي الْهَوَاءِ، وَصِنْفٌ حَيَّاتٌ، وَصِنْفٌ عَقَارِبُ، وَصِنْفٌ حَشَرَاتُ الْأَرْضِ، وَصِنْفٌ كَبَنِي آدَمَ عَلَيْهِمُ الْحِسَابُ وَالْعِقَابُ»[1].

فلا يستبعد أن يكون الجنّ والشيطان بمفهومه العامّ شاملاً لمثل هذه الكائنات، وإن كان المعنى الخاصّ له هو كائن ذو فهم وشعور وإنّه مكلّف ومسؤول[2].

❁ الأسئلة

١. بيّن من أيّ شيءٍ خُلق الجنّ؟ وبم تختلف ماهية الجنّ عن الإنسان والملائكة؟

٢. ما هي أوجه الشبه بين الجنّ والإنسان؟ اذكر موردين منها مستشهداً بالآيات القرآنيّة.

٣. أثبت عن طريق الآيات القرآنيّة أنّ الجِنّة يقومون ببعض وظائف الإنسان.

٤. اذكر أمثلة على القدرة الخاصّة للجنّ في ضوء قصّة النبيّ سليمان ﷺ، وبيّن ما الّذي تغيّر في هذه القدرة بعد ظهور الإسلام.

❁ موضوعات للبحث

- قارن بين الإنسان والجنّ في الخلقة والفضيلة، وائتِ بأدلة وشواهد على مدّعاك.
- ابحث كم هي أصناف الجنّ؟ وما هو عملهم؟ وما هو دورهم في الحياة؟

---

١. المجلسي، بحار الأنوار، ج٦٠، ص٢٦٧؛ القمي، سفينة البحار، ج١، ص١٨٦ و للمزيد انظر: المجلسي، بحارالأنوار، ج٦٠، باب ٢ حقيقة الجنّ و أحوالهم، و من أحاديث هذا الباب ما روي عن النبي ﷺ: الجنّ ثلاثة أصناف صنف لهم أجنحة يطيرون فى الهواء و صنف حيات و كلاب و صنف يحلّون و يظعنون.

٢. انظر: مكارم الشيرازي، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج١٩، ص١١٨-١١٩.

٦٥

الشّيطان

الشّياطين هي آخر الموجودات في عالم الغيب، وهي موجودات قذرة وخبيثة خلافاً للملائكة الّتي تُعدّ موجودات طيّبة وطاهرة. وسنبحث في هذا الدّرس موضوع الشّياطين، وحيث إنّ القرآن الكريم ركّز على أحد مصاديق الشّيطان، أي إبليس، ستدور جلّ مباحثنا حول هذا الموضوع، وقلّما نتطرّق إلى بحث الشّيطان بشكله العامّ.

الموجود الآخر الّذي وردت الإشارة إليه في نصوصنا الدّينيّة هو الشّيطان أو إبليس، وقبل الخوض في صلب بحث الشّيطان سنبحث بدايةً معنى هذا اللّفظ، ثمّ نبيّن أفعاله ونُسلّط الضّوء على بعض الغموض الشّائع في هذا المجال.

١. معاني الشّيطان

كلمة «الشّيطان» مأخوذة من المادّة «شطن»، و«شاطن» بمعنى خبيث وقبيح. من هنا، استعملت كلمة «الشّيطان» في معاني مختلفة:

أ) يُراد منها أحياناً المعنى الوصفي، بمعنى الشرّير والسيّء. وهنا لا يُطلق «الشّيطان» على موجود خاصّ؛ بل له معنى عام ينطبق على الجِنّة والأشرار من النّاس أيضاً. قال (سبحانه وتعالى):

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ﴾[1].

---

١. سورة الأنعام: الآية ١١٢.

ب) قد تُستعمل كلمة «الشّيطان» بمعنى أكثر عموماً، بحيث يقال «شيطان» لكلّ موجود مُضرّ ومُسيء. وفي هذا السّياق، قال أمير المؤمنين عليه السلام:

«لَا تَشْرَبُوا الْمَاءَ مِنْ ثُلْمَةِ الْإِنَاءِ وَلَا مِنْ عُرْوَتِهِ؛ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ يَقْعُدُ عَلَى الْعُرْوَةِ وَالثُّلْمَةِ»[1].

ج) قد يُستعمل لفظ «الشّيطان» في خُصوص الموجود الّذي عُقد البحث لأجله، أي إبليس، فإبليس اسم لشيطان من جماعة الجنّ، خدع النبيّ آدم عليه السلام، واليوم لا زال هو وجنوده يتربّصون ببني آدم للإيقاع بهم. ومرادنا من «الشّيطان» في هذا البحث هو المعنى الثّالث.

٢. قصّة الشّيطان

للشّيطان قصّة عجيبة ومعبّرة جدّاً، وقد أشير لها في مواضع مختلفة من القرآن الكريم. كان الشّيطان لفترة طويلة منشغلاً بعبادة الله (سبحانه وتعالى) حتى عُدّ لكثرة عبادته من الملائكة المقرّبين، ولما أمر الله سبحانه الملائكة ـ ومنهم الشّيطان ـ بالسّجود لآدم أَبَىٰ وامتنع عن السجود:

﴿فَسَجَدُوٓا إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ﴾[2].

ثمّ برّر امتناعه عن السّجود لآدم وعمد إلى توجيه عصيانه بالتشبّث بقياس باطل، وهو أنّه أفضل من آدم؛ لأنّه مخلوق من نار وآدم من تراب:

﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾[3].

كان ذلك اختباراً عصيباً، أخفق الشّيطان في اجتيازه وخرج منه مُطئطئاً رأسه، ونتيجة هذا التمرّد العلنيّ سقط الشّيطان من مقامه الرّفيع وأُخرج من مقام القرب الإلهيّ، وظلّ طريد الرّحمة الإلهيّة إلى يوم القيامة:

---

١. الكليني، الكافي، ج٦، ص٣٨٥، باب الأواني؛ البرقي، المحاسن، ج٢، ص٥٧٨.

٢. سورة الكهف: الآية ٥٠.

٣. سورة الأعراف: الآية ١٢.

﴿قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ * وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ﴾[١].

عندئذٍ أعلن الشّيطان عداوته لآدم وأولاده، وطلب من الله (سبحانه وتعالى) أن يُمهله إلى يوم البعث والنّشور؛ ليغوي بني آدم، فأمهله الله (سبحانه وتعالى) بمُقتضى حكمته إلى أجلٍ محدّدٍ لا نعلمه:

﴿قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ * قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ * إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾[٢].

ومن البديهيّ أنّ إمهال الشّيطان ومنحه القُدرة على إغواء البشر يشكّل جُزءاً من السنّة الإلهيّة القائمة على اختبار الإنسان؛ وعليه فقد أُشير في سورة «سَبأ» إلى فلسفة وجود الشّيطان، فقال (سبحانه وتعالى):

﴿وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ﴾[٣].

٣. أفعال الشّيطان

يلجأ الشّيطان إلى إغواء النّاس بوسائل مختلفة، منها أن يوسوس لهم لاقتراف المعصية، فقد أشار القرآن الكريم إلى أنّه حثّ آدم وحوّاء على الأكل من الشّجرة الممنوعة عليهما من خلال الوسوسة لهما؛ وبالتالي، خداعهما بواسطة القَسَم الكاذبة. لقد وسوس لهما الشّيطان ليُبدي لهما عورَتهما بعدما كانتا مستورَتين، وقال لهما: لم ينهكما الله عن الأكل من هذه الشّجرة إلّا خشية أن تكونا ملكين مقرّبين أو تكونا من الخالدين، وأقسم أنّه لهما لمن النّاصحين. وبهذه الخديعة جعلهما يَسقطان، فلما أكلا من الشّجرة المذكورة بدت لهما عورتهما، فأرادا سترها بورق الجنّة، عندئذٍ ناداهما ربّهما: ألم أنهكما عن الأكل من هذه الشّجرة، وأقل لكما إنّ الشّيطان لكما عدوّ مبين[٤]؟

ومن أفعاله الأخرى، تزيين الأعمال القبيحة لبني آدم:

---

١ . سورة الحجر: الآيتان ٣٤-٣٥.

٢ . سورة الحجر: الآيات ٣٦-٣٨.

٣ . سورة سبأ: الآية ٢١.

٤ . انظر: سورة الأعراف: الآيات ٢٠-٢٢.

﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾[١].

من هنا، يعمل الشّيطان على إبداء لذّة الذّنوب إلى مرتكبها أكثر ممّا هي عليه؛ ليوقعه عن طريق ذلك في فخّ المعصية، كما إنّه يُعدّ أتباعه ويمنّيهم بالوعود والأمانيّ الزّائفة:

﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُوراً﴾[٢].

ويخوّف الشّيطان النّاس من الفقر لمنعهم عن الإنفاق[٣]، ويَسعى إلى إبعاد النّاس عن ذكر الله[٤]، ويعمد إلى بثّ الفرقة ونشر الفساد بين النّاس:

﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَآءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ﴾[٥].

ولمّا كان الفعل «يُريد» فعلاً مضارعاً دالّاً على الاستمراريّة، يُستفاد من ذلك أنّ هذه الإرادة هي إرادة الشّيطان الدّائمة، وباختصار: الشّيطان أكبر محرّض للإنسان من خارج نفسه على الأعمال القبيحة[٦].

والنّقطة المهمّة الّتي لا ينبغي إغفالها هي أنّ جميع السّبل الشّيطانيّة الرّامية إلى إغواء الإنسان والإيقاع به في حبائله لا تكون بحيث تسلب الإنسان الاختيار؛ بل الإنسان هو نفسه من يُذعن لولاية الشّيطان ويستجيب لدعوته ويجعل نفسه أسيراً لمكائده ووساوسه. من هنا، صوّر لنا القرآن الكريم مشهداً من مشاهد يوم القيامة وذكر أنّ الشّيطان يُخاطب أهل النّار فيقول:

﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّآ أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓا أَنْفُسَكُمْ﴾[٧].

وعلى هذا الأساس، لا يتنافى وجود الشّيطان وغِوايته مع اختيار الإنسان وتحمّله لمسؤوليّة أعماله.

---

١ . سورة الحجر: الآية ٣٩.

٢ . سورة النساء: الآية ١٢٠.

٣ . انظر: سورة البقرة: الآية ٢٦٨.

٤ . انظر: سورة الأنعام: الآية ٦٨.

٥ . سورة المائدة: الآية ٩١.

٦ . انظر: سورة البقرة: الآية ٢٦٨؛ سورة النور: الآية ٢٠.

٧ . سورة إبراهيم: الآية ٢٢.

٤. فلسفة خلق الشّيطان

غالباً ما يتساءل كثيرون عن سبب خلق هذا الموجود المُضلّ المُغوي وعن فلسفة وجوده. والجواب يكمن في نقطتين:

أوّلاً: لم يخلق الله الشّيطان شيطاناً. والدّليل على ذلك وجوده بين ملائكة الله وعلى الفطرة الطّاهرة؛ لكنّه بعد تحرّره أساء التصرّف، وعزم على الطّغيان والتمرّد. إنّه إذن خُلق طاهراً، وَسَلك طريق الانحراف مختاراً.

ثانياً: وجود الشّيطان لا يُسبّب ضَرراً للأفراد المؤمنين ولمن يُنشد طريق الحقّ في منظار نظام الخليقة؛ بل إنّه وسيلة لتقدّمهم وتكاملهم؛ إذ إنّ التطوّر والتقدّم يتمّ من خلال صراع الأضداد.

بعبارة أوضح: قوى الإنسان وطاقاته الكامنة لا تتأهّب ولا تتفجّر إلّا حينما يواجه الإنسان عدوّاً قويّاً. هذا العدوّ يؤدّي إلى تحريك طاقات الإنسان؛ وبالتالي، إلى تقدّمه وتكامله.

قال الفيلسوف المُعاصر «توينبي»: «لم تظهر في العالم حضارة راقية إلّا بعد تعرّض شعب من الشّعُوب إلى هجوم خارجيّ قويّ. وهذا الهجوم يؤدّي إلى تفجير النبوغ والكفاءات؛ لصنع مثل هذه الحضارة»[١].

٥. سبب مخالفة إبليس

إنّ إبليس -كما صرّح القرآن- ما كان من جِنس الملائكة وإن كان في صفوفهم؛ بل كان من طائفة الجنّ، وهي مخلوقات مادّية. وكان باعثه على الامتناع عن السجود كِبر وغرور وتعصّب خاصّ استولى عليه؛ حيث اعتقد أنّه أفضل من آدم، ولا ينبغي أن يصدر له أمر بالسجود له؛ بل ينبغي أن يؤمَر آدم بالسّجود له.

أمّا كفر إبليس فقد كان يعود إلى السّبب نفسه أيضاً؛ فقد اعتقد بعدم صواب الأمر الإلهيّ، وبذلك لم يعصِ فحسب؛ بل انحرف عقديّا. وهكذا ذهبت أدراج الرّياح كلّ عباداته وطاعاته

---

١. انظر: مكارم الشيرازي، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج١، ص١٧٣.

نتيجة كبره وغروره، وهكذا تكون دوماً نتيجة الكبر والغرور[١].

❁ الأسئلة

١. اشرح ما المعاني المختلفة لكلمة «الشّيطان».
٢. صف قصّة الشّيطان من البداية مستنداً إلى الآيات القرآنيّة.
٣. ما هو دور الشّيطان في إغواء النّاس؟ وما هو دور الإنسان نفسه في هذا المجال؟
٤. ما هي فلسفة خلق الشّيطان؟

❁ موضوعات للبحث

- بيّن ما النّسبة بين إبليس وسائر الشّياطين من خلال البحث في الآيات القرآنيّة؟
- كيف أُشير إلى شياطين الإنس في القرآن الكريم؟ أوضح ذلك عبر استعراض عدد من الآيات القرآنيّة.

---

١. انظر: المصدر نفسه، ص١٦٣-١٦٤.

٦٦

«علم الإنسان»: المبادئ والخصائص

الإنسان زينة الكون ودُرّة الخلق، ويقع في قِمّة المخلوقات الإلهيّة، و«علم الإنسان» من أهمّ العناصر في الرؤية الكونيّة. ولمّا كان الإسلام هو النّسخة الأكمل من الهداية الإلهيّة، فقد أبدى اهتماماً فائقاً بهذا الموضوع. ومن هنا، أفردنا هذا الدّرس لبحث الأمور العامّة والمبادئ الأساسيّة لعلم الإنسان وبيان خصائص علم الإنسان الدينيّ.

١. تعريف «علم الإنسان»

«علم الإنسان» أو «الأنثروبولوجيا» بمعناه العامّ هو دراسة الإنسان ومعرفته، وبنظرة أدقّ كلّ علم يتناول دراسة الإنسان دراسة عامّة أو بحث بُعد من أبعاده الوجوديّة يسمّى «علم الإنسان».

فلمّا كان الإنسان موجوداً معقّداً جدّاً وذا أبعاد مختلفة وشؤون متنوّعة، يتعذّر دراسة جميع ذلك في فرع علميّ واحد؛ ولذا فكلّ فرع من فروع المعرفة الّتي تدرس جانباً من جوانب الوجود الإنسانيّ جديرة بإطلاق عنوان «علم الإنسان» عليها.

على أنّ الأنثروبولوجيا أو علم الإنسان في مفهومه الجديد يختلف عمّا يجري تناوله في الثّقافة الدّينيّة تحت عنوان المعرفة الإنسانيّة، فيعبّر عن علم الإنسان في النّصوص الدّينيّة بمعرفة النّفس، ويُدرس فيه الإنسان من زاوية أنّه موجود متكامل وله هدف سامٍ، وهذا الإنسان قادر على أن يخطو باتّجاه بلوغ الأهداف الإنسانيّة السّامية والكمال المنشود والسّعادة الحقيقيّة من خلال التدبّر في وجوده وإدراك العوامل المودعة في فطرته من أجل بلوغ ذلك الهدف

الأصيل[١]. هذا وتُبحث في علم الإنسان الدينيّ مراحل خلق الإنسان، وأجزائه وأبعاده الوجوديّة، وقابليّاته وقواه أيضاً.

٢. علم الإنسان، الأهميّة والضّرورة

يعدّ علم الإنسان (الأنثروبولوجيا) واحداً من أهمّ العلوم الأساسيّة في العلوم الإنسانيّة، فالتّساؤلات عن الله وعن الإنسان وعن الكون تُمثّل أهمّ ثلاثة أسئلة تدور في مُخيّلة الإنسان دائماً. وفي هذا السّياق، يحظى الاهتمام بالإنسان ولزوم معرفته بأهميّة كبيرة جدّاً إلى درجة أنّ معرفة الإنسان من حيث كونه مخلوقاً معقّداً ومتشعّباً كانت من التعاليم الأساسيّة لكثير من المدارس الفلسفيّة والعرفانيّة وكذلك الأديان الإلهيّة أيضاً. وليس بخفيّ مدى أهميّة علم الإنسان في الإيمان بمعتقدات من قبيل النبوّة والمعاد؛ بل والتوحيد أيضاً؛ لما له من دور في بيان هذه الأصول. وقد أبدى الدّين الإسلاميّ اهتماماً منقطع النّظير بمعرفة الإنسان، واعتبر هذا النّحو من المعرفة أنفع المعارف:

«مَعْرِفَةُ النَّفْسِ أَنْفَعُ المَعَارِفِ»[٢].

ومن جهة أخرى، اعتبر الجهل بالنّفس سبباً للجهل بكلّ شيء:

«لَا تَجْهَلْ نَفْسَكَ فَإِنَّ الْجَاهِلَ بِمَعْرِفَةِ نَفْسِهِ جَاهِلٌ بِكُلِّ شَيْءٍ»[٣].

٣. مزايا علم الإنسان الديني

لكلّ أنواع علم الإنسان خصائص ومزايا مُعيّنة، وكلّ واحد منها يرتبط بجانب من جوانب حياة الإنسان؛ لكن عموماً يمكن القول: يُعاني عالم الإنسان اللّادينيّ من بعض القيود والأزمات، وعلم الإنسان الدينيّ هو العلم الوحيد القادر على التّعريف بحقيقة الإنسان وماهيّته؛ ذلك أنّ خالق الإنسان يعرف حقيقة الإنسان أكثر من أيّ شخص آخر. ومن الواضح أنّ هذا النّحو من

---

١. انظر: مصباح اليزدي، خودشناسى براى خودسازى، ص٤-٥.

٢. الآمدي، غرر الحكم ودرر الكلم، ص١٧٢.

٣. المصدر نفسه، ص٥٩٨.

علم الإنسان ضروريّ جدّاً لتطوير العلوم الإنسانيّة والتكامل الإنسانيّ والتمدّن البشريّ. وإذا ما قورن علم الإنسان الدينيّ بسواه فإنّه يتميّز بالخصائص الآتية:

أ) الشموليّة

بما أنّ علم الإنسان الدينيّ يعتمد على الإمداد السماويّ، وحيث إنّه متحرّر من القيود الّتي تُعاني منها الأنواع الأخرى من هذا العلم، يمكن أن يتميّز بشموليّة خاصّة؛ بمعنى أنّه حتّى لو كان يتحدّث عن بُعد خاصّ فإنّ كلامه ناظر إلى الأبعاد الوجوديّة الأخرى للإنسان ومتناسب معها؛ لأنّ النّاطق بهذا الكلام يتمتّع بالمعرفة التامّة والشّاملة وينظر إلى الإنسان بكامل هويّته الحقيقيّة:

﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾[1].

مضافاً إلى ذلك؛ فإنّ دراسة مُكتسبات علم الإنسان الدّينيّ يكشف بوضوح عن أنّ هذا التوجّه يأخذ بنظر الاعتبار الأبعاد المختلفة لوجود الإنسان، ويتحدّث عن الأبعاد الجسمانيّة والحياتيّة، التاريخيّة والثقافيّة، الدنيويّة والأخرويّة، الفعليّة والتصوريّة، الماديّة والمعنويّة، ويتوصّل في بعض هذه المجالات إلى حقائق لا يمكن التوصّل إليها عن طريق باقي أنواع علم الإنسان ومناهجها المختلفة.

ب) الإتقان وعدم الخطإ

إنّ اعتماد علم الإنسان الدينيّ على المعارف السماويّة، وفي ضوء أنّ هذه المعارف لا تقبل الخطأ، يكسبه إتقاناً وثباتاً تفتقر إليه باقي أنواع العلوم الإنسانيّة الفلسفيّة والعرفانيّة والتجريبيّة؛ فإن كانت الآراء في هذا العلم مستندة إلى الدّين بصورة قطعيّة وبشكل منهجيّ، لا يبقى شكّ في قوّتها وبُعدها عن الخطإ والاشتباه، في حين تُعاني الأنواع الأخرى من العلوم الإنسانيّة من آفات المعرفة البشريّة؛ ولذا لا يمكن القول بخلوّها من الخطإ تماماً. من هنا، أشار الباري (سبحانه وتعالى) إلى أنّ أهمّ ما يتميّز به القرآن الكريم هو أنّه لم يأتِ من غير الله، وإلا لوُجد

---

١. سورة الملك: الآية ١٤.

فيه اختلاف كثير:

﴿اَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْءانَ وَلَوْ كانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً﴾[1].

وأشار (سبحانه وتعالى) في آية أخرى إلى سلامة السّبيل الّتي يدعو لها هذا الكتاب السّماوي، قائلاً:

﴿اِنَّ هٰذَا الْقُرْءانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ اَقْوَمُ﴾[2].

ج) الاهتمام بمبدإ الخلق ومنتهاه

عادةً ما يصار في علم الإنسان غير الدينيّ إلى أحد أمرين: إمّا أن يُدرس الإنسان بعيداً عن المبدإ والمعاد ـ كما هو ملاحَظ في علم الإنسان التجريبيّ وبعض نِحل علم الإنسان الفلسفيّ والعرفانيّ ـ وإمّا أن يجري الحديث في باب المبدإ والمعاد بشكل إجماليّ وغير دقيق بحيث لا يبيّن كيف يعيش الإنسان وكيف يقطع طريق الكمال؟ بينما يكون المبدأ والمعاد في علم الإنسان الديني بمثابة الرّكنين الأساسيّين في وجود الإنسان، ويحظيان بمزيد من الاهتمام والتّأكيد؛ حيث تُشرح بالتفصيل العلاقة بين حياة الإنسان الفعليّة وبين مبدإه ومنتهاه، وهذا ما أشارت له جملة من الآيات القرآنيّة، منها الإشارة بعبارة مختصرة إلى المسار الطّويل للحياة البشريّة بقوله (سبحانه وتعالى):

﴿اِنّا لِلّهِ وَاِنّآ اِلَيْهِ راجِعُونَ﴾[3].

---

١ سورة النساء: الآية ٨٢.

٢ سورة الإسراء: الآية ٩.

٣ سورة البقرة: الآية ١٥٦.

❀ الأسئلة

١. عرّف ما هو «علم الإنسان» (الأنثروبولوجيا) واذكر أنواعه.

٢. لماذا يُطرح «علم الإنسان» في الفكر الدينيّ على شكل مبدإ عَقَدِيّ أساسيّ؟

٣. بمَ يتميّز «علم الإنسان» الدينيّ عن سائر الأنواع الأخرى من العلوم الإنسانيّة؟

❀ موضوع للبحث

- اكتب بحثاً حول خصائص «علم الإنسان» في المدارس الماديّة المعاصرة واطرحه للنّقاش في الدّرس.

٦٧

خَلْقِ الإنسان

لقد صنّفوا أبحاث علم الإنسان ضمن أبواب مختلفة، ولكن من أهم تلك الأبحاث معرفة مراحل خَلْقِ الإنسان وتشكيل أجزاء بدنه. وسوف نتناول في هذا الدّرس بحث المراحل المختلفة لنشوء الإنسان وتكوين الجسد الإنساني و سنتطرّق إلى حقيقة الروح و علاقتها بالبدن إجمالاً.

يُعدّ موضوع خلق الإنسان أهمّ الموضوعات في علم الإنسان (الأنثروبولوجيا). ولّما كانت الفرضيّات البشريّة في هذا المجال لا تبعث على الاطمئنان بصورة كاملة، لا بدّ من اللّجوء إلى العلم المستمدّ من الكتاب والسنّة، وما توصل إليه الإنسان في ضوء الوحي و التجربة و العقل؛ بغية تقديم بحث قويّ في باب خلق الإنسان والمسائل المتعلّقة به.

١. مبدأ خلق الإنسان

يتكوّن الإنسان من بُعدين: جسمانيّ وروحانيّ، وسنبحث هنا البعد الجسمانيّ، وفي هذا الإطار كان أوّل مخلوق هو النبيّ آدم عليه السلام، وخُلق نسله عن طريق انتقال النّطفة من صلب الأب إلى رحم الأمّ، ثمّ انتشر البشر على وجه الكرة الأرضيّة.

وتختلف بعض الآيات القرآنيّة المُتعلّقة بخلق الإنسان عن بعضها الآخر في جوانب عدّة حسب الظّاهر، فذكرت مناشئ متعدّدة لخلق الإنسان عموماً، وذهبت إلى أنّه خُلق من الأرض والتّراب والماء والطّين والنّطفة. فعلى سبيل المثال، بعض الآيات الواردة حول خلق

الإنسان الأوّل والمتحدّثة عن كيفيّة خلق النبيّ آدم ﷺ كشفت عن أنّه خُلق من التّراب، في حين أشارت آيات أخرى بشأن خلق النّاس إلى أنّهم جميعاً خُلقوا من الطّين؛ لكن لما تتّضح المادّة الأولى لخلق الإنسان يتبيّن مبدأ وجود جميع النّاس من النّاحية التاريخيّة، وهذا يعني لو قلنا: إنّ آدم خُلق من التّراب، فمن الصّحيح أن نقول أيضاً: النّاس جميعاً خُلقوا من التّراب، هذا من جهة. ومن جهة أخرى، كلّ إنسان - عدا آدم ﷺ وعيسى ﷺ - مخلوق من النّطفة، وهي ناتجة ومتشكّلة من المواد الغذائيّة، وهذه المواد المُشتملة على لحوم الحيوانات وثمار الأشجار ومواد معدنيّة وأمثالها منشؤها الماء والتراب؛ وبالتالي، فهي من الأرض. وعليه، يمكن القول: إنّ مبدأ خلق كلّ إنسان هي الأرض والتراب والماء والطّين، وسنشير أدناه إلى عدد من الآيات في هذا المجال:

﴿هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ﴾[1].

﴿فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ﴾[2].

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ﴾[3].

﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَراً فَجَعَلَهُ نَسَباً وَصِهْراً﴾[4].

﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ﴾[5].

وعلى هذا الأساس، يمكن القول: كلّ واحدة من الآيات المتقدّمة تشير إلى جانب من المادّة الّتي خُلق منها الإنسان.

٢. خَلْقُ النبيّ آدم

إنّ أوّل شخص أطلق عليه اسم «الإنسان» أو «البشر» هو النبيّ آدم ﷺ، والآية الآتية تبيّن أنّ

---

١ . سورة هود: الآية ٦١.

٢ . سورة الحج: الآية ٥.

٣ . سورة الأنعام: الآية ٢.

٤ . سورة الفرقان: الآية ٥٤.

٥ . سورة النحل: الآية ٤.

آدم عليه السلام خُلق من التراب مباشرةً ودون أبوين:

﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[1].

روي عن أبي عبدالله عليه السلام أنّ نصارى نجران لمّا وفدوا على رسول الله صلى الله عليه وآله، وكان سيّدهم الأهتم والعاقب والسيّد، وحضرت صلواتهم فأقبلوا يضربون بالنّاقوس وصلّوا ... فلمّا فرغوا دنوا من رسول الله صلى الله عليه وآله، فقالوا: إلى ما تدعو؟ فقال:

«إِلَى شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللهِ وَأَنَّ عِيسَى عَبْدٌ مَخْلُوقٌ يَأْكُلُ وَيَشْرَبُ وَيُحْدِثُ».

قالوا: فمن أبوه؟ فنزل الوحي على رسول الله صلى الله عليه وآله، فقال: قل لهم: ما يقولون في آدم أكان عبداً مخلوقاً يأكل ويشرب ويحدث وينكح؟ فسألهم النبيّ صلى الله عليه وآله، فقالوا: نعم. فقال: «فَمَن أبوه؟» فبقوا ساكتين، فأنزل الله: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ﴾[2].

وبهذا يتبيّن أنّ اليهود كانوا بصدد القول: إنّ عيسى - والعياذ بالله - ولد بطريقة غيرَ شرعيّة، لكنّ النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله دفع بهذه الآية المباركة تُهمة اليهود عن السيّدة مريم، وأكد على طهارتها وعلى أنّه ليس لعيسى أب من البشر.

٣. خَلْقُ بني آدم

تكشف الآية الآتية عن مدى الاختلاف بين خلق النبيّ آدم عليه السلام وخلق بنيه:

﴿وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ * ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ﴾[3].

فالتباين الّذي تتحدّث عنه هذه الآية بين خلق أوّل إنسان وبين خلق نسله من بعده يكشُف بوضوح عن وجود اختلاف في طريقة خلق الجانبين[4].

---

١. سورة آل عمران: الآية ٥٩.

٢. انظر: القمي، تفسير القمي، ج١، ص١٠٤؛ المجلسي، بحار الأنوار، ج٢١، ص٣٤٠ و ص٣٤٤؛ الكوفي، تفسير الفرات، ص٨٨.

٣. سورة السجدة: الآيتان ٧-٨.

٤. انظر: الطوسي، التبيان في تفسير القرآن، ج٨، ص٢٩٥.

٤. مراحل خَلْقِ الإنسان من النّطفة

لم تكتفِ المصادر الإسلاميّة ببيان طريقة خلق الإنسان بصورة عامّة؛ وإنّما صوّرت لنا التفاصيل والمراحل المختلفة لنموّ الإنسان. فعلى سبيل المثال، أشارت الآيات الآتية إلى مراحل خلق الإنسان بصورة دقيقة:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَاماً فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْماً ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾[1].

تشير الآية الأولى إلى بداية وجود جميع البشر من آدم وأبنائه، وأنّهم خُلقوا جميعاً من التراب، إلّا أنّ الآية الآتية تشير إلى تداوم واستمراريّة نسل الإنسان بواسطة تركيب نُطفة الذّكر ببويضة الأنثى في الرّحم[2].

ثمّ إنّ مراحل تركيب النّطفة وتكوّن الجنين هي:

المرحلة الأولى: من التّراب إلى نطفة. المرحلة الثّانية: من النّطفة إلى العلقة. المرحلة الثّالثة: من العلقة إلى المُضغة. المرحلة الرّابعة: نشوء العظام. المرحلة الخامسة: نموّ اللّحم حول العظام. وبهذه المرحلة يكتمل الخلق الجسمانيّ للإنسان بصورة جنين. والمرحلة الأخيرة في هذه المسيرة تعلّق الرّوح بهذا الجسم، وهو ما يحصل في الشّهر الرّابع من عمر الجنين، وسنتحدّث عن ذلك في الدّرس القادم.

قال القرآن الكريم بشأن جنس الجنين:

﴿وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾[3].

وقال أيضاً:

﴿يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثاً وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ﴾[4].

---

١. سورة المؤمنون: الآيات ١٢-١٤.

٢. انظر: مكارم الشيرازي، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج١٠، ص٤٢٩.

٣. سورة الحجّ: الآية ٥.

٤. سورة الشورى: الآية ٤٩.

على أنّ هذه المراحل المذكورة هي مراحل الخلق الجسمانيّ الّتي تبتدأ بالتّراب وتنتهي بتكوّن الجنين[١]، وقد بيّنت الرّوايات تفاصيل أدقّ في هذا الخصوص، وكشفت عن زوايا أخرى من التكامل الجسمانيّ للبشر منذ بدء انعقاد النّطفة حتى نفخ الرّوح في البدن.

٥. نَفْخ الرّوح

بعدما بيّن القرآن الكريم المراحل المختلفة لخلق الإنسان، ابتداءً بالنّطفة ومروراً بالعلقة والمُضغة والعظام وانتهاءً باللّحم، أشار إلى نفخ الرّوح في البدن باعتباره نقطة مفصلية في حياة الإنسان. فبعد اكتمال البنية الجسديّة للجنين، يُضاف لها عنصرٌ آخر وتبلغ مرتبة وجوديّة جديدة، وهي المرحلة الّتي عبّر عنها القرآن الكريم بنفخ الرّوح في البدن، مشدّداً على أنّ الإنسان يشهد في تلك الحالة خلقاً آخر:

﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقاً ءَاخَرَ﴾[٢].

يُشار إلى أنّ عبارة «نفخ الرّوح» وردت في خمسة مواضع من القرآن الكريم: اثنان منها بشأن النبيّ آدم عليه السلام، وموضع واحد حول مُطلق الإنسان، واثنان بشأن السيّدة مريم عليها السلام.

١.٥. نَفْخ الرّوح في آدم

وردت آية في القرآن الكريم حول نَفخ الرّوح في النبيّ آدم عليه السلام، تحكي خطاب الباري (سبحانه وتعالى) إلى الملائكة قبيل خلق آدم:

﴿إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾[٣].

ومن الواضح أنّ سجود الملائكة مختصّ بالنبيّ آدم عليه السلام، ويمكن القول: إنّ الآية مختصّة بآدم، ويستفاد منها أنّ نفخ الرّوح حَدَثَ بعد اكتمال الشّكل المادّي للنبيّ آدم[٤] عليه السلام.

---

١. انظر: مصباح اليزدي، معارف قرآن، ج٣.

٢. سورة المؤمنون: الآية ١٤.

٣. سورة الحجر: الآيتان ٢٨-٢٩.

٤. انظر: مرتضى مطهري، معاد، ص١٠٩؛ مصباح اليزدي، آموزش عقايد، ج٣، ص١٧؛ جعفر السبحاني، اصالت روح از نظر

٢.٥. نَفْخ الرّوح في نوع الإنسان

الآيات ذات المضمون العامّ والشّاملة لجميع النّاس هي قوله (سبحانه وتعالى):

﴿الَّذِيَ اَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ، وَبَدَاَ خَلْقَ الْاِنْسٰانِ مِنْ طِينٍ * ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ، مِنْ سُلاٰلَةٍ مِنْ مٰاءٍ مَهِينٍ * ثُمَّ سَوّٰيهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْاَبْصٰارَ وَالْاَفْئِدَةَ قَلِيلاً مٰا تَشْكُرُونَ﴾[١].

أشارت هذه الآيات في بداية الأمر إلى خلق الإنسان الأوّل من الطّين، ومن ثمّ خلق نسله من مَاء مَهين، ثمّ أطلقت حكماً عامّاً شاملاً للإنسان الأوّل ونسله معاً، ويُستفاد من تعبيره بكلمة «سوّاه» أنّه في هذه المرحلة خلق الإنسان بصورة متّزنة، وأنّه أتمّ خلقه على الوجه الأكمل. وبعدما اكتمل خلق الجنين أو تمّ خلق الإنسان الأوّل؛ فإنّ الله (سبحانه وتعالى) نفخ فيه الرّوح.

وكما تقدّمت الإشارة، هذا هو الموضع الوحيد الّذي استعمل فيه «نفخ الرّوح» بشأن عموم الإنسان.

٣.٥. نَفْخ الرّوح والسيّدة مريم

استعملت عبارة «نفخ الرّوح» بشأن السيّدة مريم عليها السلام أيضاً، وذلك في آيتين من القرآن الكريم:

﴿وَالَّتِيَ اَحْصَنَتْ فَرْجَهٰا فَنَفَخْنٰا فِيهٰا مِنْ رُوحِنٰا وَجَعَلْنٰاهٰا وَابْنَهٰاۤ ءٰايَةً لِلْعٰالَمِينَ﴾[٢].

﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرٰانَ الَّتِيَ اَحْصَنَتْ فَرْجَهٰا فَنَفَخْنٰا فِيهِ مِنْ رُوحِنٰا﴾[٣].

صحيحٌ أنّ نفخ الرّوح في هاتين الآيتين قد نُسب إلى السيّدة مريم عليها السلام نفسها، لكنّ هذا النفخ هو الّذي أوجب نشوء النبيّ عيسى عليه السلام؛ ذلك أنّ مريم كانت موجودة قبل واقعة النّفخ المذكورة، فلا صلة لنفخ الرّوح بوجودها.

قرآن، ص٩-٤٦؛ محمود رجبي، انسان شناسی، ص٨٥-١٠٥.

١. سورة السجدة: الآيات ٧-٩.

٢. سورة الأنبياء: الآية ٩١.

٣. سورة التحريم: الآية ١٢.

٦. معنى انتساب الرّوح إلى الله

لاحظنا في الآيات المتقدّمة أنّ الباري (سبحانه وتعالى) نسب الرّوح إلى نفسه، فقال: ﴿مِن رُّوحِي﴾[١]، ﴿مِن رُّوحِنَا﴾[٢]، ﴿مِن رُّوحِهِ﴾[٣].

ويستشفّ من الرّوايات الإسلاميّة أنّه كان بعض النّاس في صدر الإسلام وعصر الأئمّة الميامين عليهم السلام يتوهّمون حلول جزء من الله أو شيء منه في الإنسان، علماً أنّ هذه الرؤية كانت موجودة بنحو أو بآخر في بعض المدارس البشريّة أيضاً، فيقال: إنّ الإنسان مركّب من عنصرين: إلهيّ وشيطانيّ، وقد دفع وجود هذه الفكرة في أذهان بعضٍ إلى تصوّر أنّ الإنسان سيصبح إلهاً في نهاية المطاف وبعد قطع مسيرته التكامليّة!

وربّما كان هذا هو السّبب في سؤال الإمام المعصوم عليه السلام عن النبيّ آدم عليه السلام:

«هَلْ كَانَ فِيهِ مِنْ جَوْهَرِيَّةِ الرَّبِ شَيْءٌ»[٤].

وعلى هذا الأساس، يظنّ بعض النّاس أنّ الأئمّة الكرام عليهم السلام لديهم روح إلهيّة، وينسب بعضهم النبيّ عيسى عليه السلام إلى الذّات الإلهيّة؛ لكنّ أهل البيت عليهم السلام حاربوا هذه الأفكار في الرّوايات المأثورة عنهم بشدّة، واعتبروا ذلك كفراً وإلحاداً؛ فإنّ روح الإنسان مخلوقة لله، وهي من أمر الله، وليس لله جزء؛ ولذا لا ينبغي للمؤمن بالله والعارف بالأبحاث العقديّة الضروريّة في الإسلام أن يقع في مثل هذا التوهّم.

وعليه فليس المُراد من قوله (سبحانه وتعالى): ﴿مِن رُّوحِنَا﴾ هو نفخ شيء من الله في جسد الإنسان ووجود عنصر إلهيّ فيه؛ بل هذه النّسبة بتعبير الأدباء «إضافة تشريفيّة»، بمعنى أنّ الله (سبحانه وتعالى) نسب هذا المخلوق إليه لتكريم الرّوح الإنسانيّة العظيمة، مثلما نسب الكعبة إليه وعبّر عنها بقوله: «بيتي».

والنتيجة أنّه يستفاد من القرآن الكريم أنّ ثمة شيئاً شريفاً وعظيماً في الإنسان، فضلاً عن

---

١. سورة الحجر: الآية ٢٩.

٢. سورة الأنبياء: الآية ٩١.

٣. سورة السجدة: الآية ٩.

٤. الكشي، رجال الكشي، ص٤٩٥؛ المجلسي، بحار الأنوار، ج٣، ص٢٩٢.

بدنه، وهو من خلق الله (جلّ وعلا)، ولا يصل الإنسان إلى مرتبة الإنسانيّة ما لم تنضوي فيه تلك الحقيقة[١].

❋ الأسئلة

١. توجد آيات قرآنيّة دلّت على خلق الإنسان من التّراب أو من النّطفة، اذكر نماذج منها وبيّن كيف يمكن الجمع بينها؟

٢. كيف أوضح القرآن الكريم مراحل تكوّن بدن الإنسان؟

٣. ما هي أوجه الشّبه بين خلق النبيّ عيسى عليه السلام وآدم عليه السلام؟

٤. بمَ عبّر القرآن الكريم عن مستهلّ وجود الرّوح في بدن الإنسان؟ وفي أيّ مرحلة من مراحل تكوين بدن الإنسان تلجه الرّوح؟

٥. ما المراد من نفخ الرّوح في بدن السيّدة مريم؟ أوَ لا ينفخ الله الرّوح في سائر الأجنّة؟

٦. لمَ نسب الله (سبحانه وتعالى) روح الإنسان إليه؟ وما الإشكالات العقليّة المترتّبة على القول أنّ روح الإنسان مأخوذة من الذّات الإلهيّة؟

❋ موضوعات للبحث

- استخرج كلمات «الإنسان» و«آدم» و«البشر» من القرآن الكريم، وقارن بين آيات كلّ طائفة منها، ثمّ ناقش النتائج الّتي تتوصّل إليها.

- لماذا دعا الله الملائكة إلى السّجود إلى آدم برأيك؟ ابحث الاحتمالات الموجودة وناقشها مع زملائك في الدّرس.

---

١. انظر: مصباح اليزدي، معارف قرآن، ج٣.

٦٨

الأبعاد الوجوديّة للإنسان

كانت الأبحاث الّتي طُرحت إلى الآن تدور حول خلق الإنسان والجوانب الجسمانيّة والروحانيّة ومراحل تكوين الجسد والرّوح؛ لكن يمكن دراسة الإنسان من زاوية أخرى أيضاً؛ ولذا سنتطرق في هذا الدّرس إلى بحث الأبعاد الوجوديّة للإنسان والخصائص المشتركة بين النّاس.

يطول الكلام حول الأبعاد الوجوديّة للإنسان؛ حيث يُشكّل هذا الموضوع أوسع بحوث علم الإنسان وأقدمها. وفضلاً عن الآثار المعرفيّة والنظريّة لهذا البحث، له فوائد كثيرة من الناحية العمليّة أيضاً، وسنكتفي هنا ببحث محورين أساسيّين من محاور هذا الموضوع:

١. الأبعاد الوجوديّة للإنسان

باختصار يمتلك الإنسان ثلاثة أبعاد، هي البُعد الإدراكيّ وبُعد الميول النفسيّة وبُعد الاقتدار:

١. **البُعد الإدراكيّ**: ترتبط كلّ أشكال التلقّي والمعارف العقليّة والفطريّة للإنسان ببعده الإدراكيّ، وينقسم هذا البعد إلى قسمين:

أ) **الإدراك النّظري**: المُراد من الإدراك النّظري معرفة الحقائق المُرتبطة بالموجودات والمعدومات، من قبيل معرفة الله ومعرفة التّوحيد ومعرفة النّفس والعالم المحيط بالإنسان.

ب) **الإدراك العمليّ**: تُسمّى المعرفة المتعلّقة بساحة العمل - أي ما ينبغي وما لا ينبغي، والحَسَن والقَبيح - والمُرتبطة بالفعل الاختياريّ للإنسان، ساحة المعرفة العمليّة، نَحو:

«العدالة حسنة» أو «لا بدّ للإنسان من أن يقول الصدق».

٢. بُعد الميول النفسيّة: المُراد من بُعد الميول النفسيّة هي الرّغبات والميول الّتي جُبلت عليها روح الإنسان، فهي موجودة لدى كلّ إنسان ويشعر بها بصورة واضحة، وإن تجلّت أحياناً بشكل ضعيف ومستتر. ولا بدّ من الالتفات إلى أنّ هذه الميول والرّغبات لم تنشأ نتيجة العوامل الخارجيّة وبفعل تأثيرات البيئة والمجتمع والتّربية؛ وإنّما هي مودعة في فطرة الإنسان من البداية، لكن لا شكّ في تأثير العوامل الخارجيّة على تنامي تلك الميول والرّغبات أو انحسارها وانحرافها[١]، كما هو الحال في الميل إلى العلم أو الرّغبة في عبادة الله.

هذا ويمكن تقسيم ميول الإنسان إلى صنفين:

أ) الميول الحيوانيّة: هذه الميول مُشتركة بين الحيوان والإنسان، ومن أبرز الأمثلة عليها يمكن الإشارة إلى: الرّغبة في حفظ الذّات وصيانة النّفس، والميل إلى الجنس المخالف، ومحبّة الأبناء. ويطلق على هذا الميل اسم «الغريزة».

ب) الميول الإنسانيّة: ثمّة بعض الميول والرّغبات المختصّة بالإنسان، أو على أقلّ لا تشاهَد في الحيوانات إلّا نادراً. ومن الرّغبات الإنسانيّة الأصيلة الّتي لا تنفكّ عنه، الميل إلى الله (سبحانه وتعالى) ومحبّته، بحيث يمكن أن يُطلق على الإنسان «موجود متألّه» أو «متديّن». فإنّ الله (سبحانه وتعالى) خلق الإنسان على الفطرة الدّينيّة والإلهيّة؛ وعليه فالإنسان لا يعرف الله بفطرته فقط، وإنّما يعشقه من أعماق وجوده.

نعم، ربّما يغفل الإنسان عن هذا الميل الفطريّ حتّى حين، أو يُخطئ في تشخيص المصداق الحقيقيّ، جرّاء الظّروف البيئيّة والتربويّة؛ بيد أنّ هذا الميل الفطريّ يتجلّى مرّة أخرى ويجد مصداقه الحقيقيّ عند اليقظة وتنظيف غبار الغفلة وزوال آثار التربية الخاطئة. من هنا، كانت مهمّة الأنبياء الإلهيّين إيقاظ الفطرة الإنسانيّة السّليمة وإظهار دفائنها وتوجيه الرّغبات الدّينيّة لدى الإنسان بالاتجاه الصّحيح[٢].

٣. بُعد الاقتدار: من الأبعاد الوجوديّة الأخرى للإنسان، القابليّات والقدرات الذاتيّة له؛

---

١. انظر: سورة الأحزاب: الآية ٦٧؛ سورة لقمان: الآية ١٥.

٢. انظر: هذا الكتاب، درس «الأدلّة على وحدانيّة الله»، موضوع «شهادة الفطرة على الوحدانيّة».

فأهمّ القدرات الخاصّة الّتي يتمتّع بها الإنسان هي الاختيار أو الحريّة في اختيار ما يريد، والإبداعات الذهنيّة والحسّية، والقدرة على التغيير في محيط الحياة؛ بل ثمّة قدرات مهمّة وشائكة أخرى لدى الإنسان، تتمثّل بالقدرة على الاستفادة من الرّموز وتعلّم اللّغة، فحتّى المتخلّفين عقليّاً والمجانين لديهم القدرة على الاستفادة من العلامات والرّموز. فالإنسان بصورة طبيعيّة وفطريّة قادر على الاستفادة من اللّغة، وهذا ما أثبتته الدّراسات والبحوث الموجودة في هذا المجال.

قال (سبحانه وتعالى) في محكم كتابه الكريم في هذا المجال:

﴿ٱلرَّحْمَٰنُ * عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ * خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ * عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾[1].

النقطة المهمّة الّتي ينبغي الإشارة لها هنا هي أنّ هذه الأبعاد الوجوديّة لا تقع على درجة واحدة من الأهميّة، وليس بعضها في عرض بعضها الآخر؛ بل إنّ بُعد المعارف ومعتقدات الإنسان أهمّ من بُعد الميول والرّغبات، وهما أكثر أهميّة من بُعد الاقتدار؛ فما لم تتحقّق المعرفة بالشّيء لا يحصل أيّ ميل باتجاهه؛ لأنّ ميول الإنسان ورغباته رهن بإدراكاته ومعارفه. كما إنّ بُعد الاقتدار يستمدّ وجوده وقوّته من البعدين الآخرين؛ إذ لا يبادر الإنسان إلى فعل الشّيء إلّا بعد بروز الرّغبة تجاهه.

٢. الخصائص الوجوديّة للإنسان

ذكرنا أنّ الأبعاد الوجوديّة للإنسان مكوّنة من قسمين، يشترك في بعضها مع الحيوانات ويمتاز عنها في بعضها الآخر. وقد أُطلق على هذه الأبعاد الخاصّة المُشتملة على الإدراكات والميول والقُدرات «الطبيعة الإنسانيّة المشتركة»؛ ويعود سبب التّسمية إلى الخصائص الّتي ذُكرت لهذه الأبعاد والّتي أهمّها:

١. **عدم الحيوانيّة**: بمعنى أنّ الأبعاد المذكورة لا توجد في الحيوانات أساساً، وإذا ما وجدت أحياناً لدى بعض أنواع الحيوانات فإنّها ليست بالسّعة والعمق الموجود في الإنسان.

٢. **العموم**: الشّاهد على هذا المُدّعى هو وجود ميول ورغبات عامّة لدى جميع النّاس،

---

١. سورة الرحمن: الآيات ١-٤.

ومن أهمّ أنواع الميول الفطريّة الأصيلة يمكن الإشارة إلى: حبّ العلم، البحث عن الحقيقة، إرادة الفضيلة، حبّ الكمال، النّزوع إلى الجمال، الأمل في الخلود، الرّغبة في العبادة. ومعنى كونها أصيلة وفطريّة هو أنّ روح كلّ إنسان ممتزجة بهذه الميول والرّغبات.

٣. **عدم الاكتساب**: وذلك بمعنى أنّه لا دور للتّعليم والتعلّم وباقي العوامل الاجتماعيّة والبيئيّة في نشوئها وانبثاقها.

٤. **عدم الزّوال**: أي إنّ هذه الأبعاد لا تنفكّ عن الإنسان ولا تزول عنه؛ لأنّها تشكّل الهويّة الأساسيّة والرّكن الركين لإنسانيّته.

ومن هنا؛ فإنّ إرسال الأنبياء الإلهيّين والكتب السماويّة ولزوم تطبيق الأوامر الإلهيّة وإقامة الحكومة الدّينيّة، كلّ ذلك يصبّ في إطار تفعيل حركة الإنسان والاستفادة القصوى والدّقيقة والمُنسجمة من مجموعة العناصر الإنسانيّة والطبيعة الإنسانيّة المشتركة. كما يمكن القول: إنّ الشّرور الإنسانيّة ناشئة من التعاطي غير الواعي وغير الصّحيح مع الأبعاد الوجوديّة، والخيرات الإنسانيّة منبثقة من التعاطي الواعي والفعّال مع هذه الأبعاد، في ظلّ التعاليم الأخلاقيّة والدينيّة.

❁ الأسئلة

١. اشرح الأبعاد الأساسيّة الثّلاثة في وجود الإنسان، وبيّن الاختلافات الرئيسيّة بينها.
٢. ثمّة صنفان من الميول لدى الإنسان، ما فائدة كلّ منهما في الحياة اليوميّة له وفي مسيرته التكامليّة؟
٣. بأيّ المعايير يمكن تشخيص «الطبيعة الإنسانيّة المشتركة» وتمييزها عن سائر حالاته وخصوصيّاته؟ اذكر مثالاً على ذلك.

❁ موضوع للبحث

- إئتِ بأمثلة أخرى حول الميول الإنسانيّة الأصيلة، وأثبت أنّها غير موجودة في الحيوانات.

٦٩

الهدف من خلق الإنسان

بعد التعرّف إلى الأبعاد الوجوديّة للإنسان ومساحتها الواسعة في حياته، لا بدّ لنا معرفة الهدف من خلق هذا المخلوق العجيب؟ وكيف تتحقّق غاية الكمال الإنسانيّ؟ هذا ما سيُسلّط الضّوء عليه في هذا الدّرس.

يرى الإسلام أنّ الكون لم يُخلق عبثاً؛ حيث أشار القرآن الكريم في مواضع متعدّدة إلى رفض مبدإ أن يكون الوجود عبثاً وسدًى، لافتاً إلى أنّ أمر الإنسان لم يوكل إلى نفسه[1]؛ ذلك أنّ الله (سبحانه وتعالى) يقول:

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذَٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾[2].

هذا وقد ورد في الآيات القرآنيّة توجيهات مختلفة بشأن الهدف من الخلق، يمكن إيجازها بما يأتي:

١. الرّحمة

ذهبت بعض الآيات إلى أنّ الله (سبحانه وتعالى) يهدف من خلق الإنسان إلى الرّحمة به، فصرّحت:

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ

---

١ انظر: سورة القيامة: الآية ٣٦؛ سورة المؤمنون: الآية ١١٥.

٢ سورة ص: الآية ٢٧.

خَلَقَهُمْ﴾[١].

ومنه يتبيّن أنّ الله كان قادراً على أن يخلق جميع النّاس بحكم إلزامه وإجباره على شاكلة واحدة، ويجعلهم مؤمنين بالحقّ ومجبورين على قبول الإيمان به؛ لكن مثل هذا الإيمان لا تكون فيه فائدة ولا مثل هذا الاتحاد متناسب مع أهداف الخلق، فالإيمان القسريّ الّذي ينبع من هدف غيرإراديّ لا يكون علامة على شخصيّة الفرد ولا وسيلة للتكامل، ولا يوجب الثّواب، كما هو الحال في خلق النّحل خلقاً يدفعها بحكم الغريزة إلى أن تجمع الرّحيق من الأزهار، وخلق بعوضة الملاريا خلقاً يجعلها تستقرّ في المستنقعات، ولا يمكن لأيّ منهما أن تتخلى عن طريقتها.

إلّا أنّ قيمة الإنسان وامتيازه وأهمّ ما يتميّز فيه عن سائر الموجودات هي هذه الموهبة، وهي حريّة الإرادة والاختيار، وكذلك امتلاك الأذواق والأطباع والأفكار المتفاوتة الّتي يصنع كلّ واحد منها قسماً من المجتمع ويؤمّن بُعداً من أبعاده.

ثمّ إنّ الاختلاف في انتخاب العقيدة والمذهب أمر طبيعيّ مترتّب على حريّة الإرادة، ويكون سبباً لأن تقبلَ جماعةٌ طريق الحقّ، وتتّبعُ جماعة أخرى الباطل، إلّا أن يتربّى النّاس تربية سليمة في أحضان الرّحمة الإلهيّة ويتعلّموا المعارف الحقّة بالاستفادة من مواهب الله (سبحانه وتعالى) لهم. ففي هذه الحال، ومع جميع ما لديهم من اختلافات، ومع الاحتفاظ بالحريّة والاختيار؛ فإنّهم سيخطون خطوات في طريق الحقّ، وإن كانوا يتفاوتون في هذا المسير[٢].

٢. العبادة

ذكرت بعض الآيات القرآنيّة أنّ هدف الخلقة هو عبادة الله وعبوديّته:

﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[٣].

---

١ . سورة هود: الآيتان ١١٨-١١٩.

٢ . انظر: مكارم الشيرازي، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج٧، ص١٠٠-١٠١.

٣ . سورة الذاريات: الآية ٥٦.

إنّ العبوديّة هي إظهار منتهى الخضوع للمعبود؛ ولذلك فالمعبود الوحيد الّذي له حقّ العبادة على الآخرين هو الّذي بذل منتهى الإنعام والإكرام، وليس ذلك سوى الله سبحانه!

و «العبد» لغةً هو الإنسان المُتعلّق بمولاه وصاحبه من قرنه إلى قدمه! وإرادته تابعة لإرادته، وما يطلب ويبتغيه تبعٌ لطلب سيّده وابتغائه، فلا يملك في قباله شيئاً، وليس له أن يقصّر في طاعته.

فبناءً على ذلك، العبوديّة هي قمّة التّكامل وأوج بلوغ الإنسان واقترابه من الله! والعبوديّة منتهى التّسليم لذاته المقدّسة! والعبوديّة هي الطاعة بلا قيد ولا شرط والامتثال للأوامر الإلهيّة في جميع المجالات!

أخيراً، فإنّ العبوديّة الكاملة هي أن لا يُفكّر الإنسان بغير معبوده الواقعيّ، أي الكمال المُطلق، ولا يسير إلّا في منهجه الأحب، وأن ينسى سواه حتّى نفسه وشخصه[١].

ومن البديهيّ أنّ العبادة مدرسة لتربية الإنسان في الأبعاد المختلفة، فالعبادة بالمعنى الواسع للكلمة، بمعنى التسليم المطلق لله (سبحانه وتعالى)، تمنح روح الإنسان التكامل في المجالات المختلفة.

٣. الامتحان

ذُكر في بعض الآيات أنّ الهدف من الخلق تارةً هو اختبار حسن عمل الإنسان وامتحانه:

﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾[٢].

لا شكّ في أنّ الموت والحياة يُشَكّلان معاً هوية الإنسان، وقد أكد الباري (سبحانه وتعالى) على أنّ الهدف منهما هو اختبار الإنسان وابتلاءه.

وأشار في آيات أخرى إلى أنّ كلّ ما في الكون، لا سيما ما على الأرض، خُلق لهدف محدّد مُنسجم مع الهدف من خلق الإنسان:

---

١. انظر: مكارم الشيرازي، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج١٧، ص١٣٤.

٢. سورة الملك: الآية ٢.

﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾[١].

وورد ما يشبه هذا الكلام بشأن الاختلافات الموجودة بين النّاس أيضاً:

﴿وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ﴾[٢].

فلا يخفى أنّ النّاس غير متساويين؛ بل هم مختلفون في الكمالات التكوينيّة وفي الاستفادة من النِّعم الماديّة، وقد اعتبر القرآن الكريم هذا الاختلاف وسيلة للاختبار والابتلاء.

٤. الوعي والإيمان

في بعض الآيات القرآنيّة، اعتُبر الهدف من الخلق توعية النّاس وتعزيز إيمانهم وتقوية معتقداتهم:

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً﴾[٣].

كم هو تعبير لطيف؛ إذ يعتبر الهدف من هذا الخلق العظيم هو تعريف الإنسان بصفات الله في علمه وقدرته، وهما صفتان كافيتان لتربية الإنسان؛ ذلك أنّ هذا الخالق العظيم الّذي له هذه القُدرة والعلم والّذي يدير هذا العالم بأجمعه، لا بدّ من أنّ أحكامه على صعيد تنظيم علاقات البشر ستكون بمنتهى الدقّة والإتقان، هذا من جهة. ومن جهة أخرى، لمّا يعلم الإنسان أنّ الله محيط بكلّ أسرار وجوده، عالم بكلّ أعماله ما ظهر منها وما بطن، وأنّ وعد الله في البعث والمعاد والثّواب والعقاب وحتميّة انتصار المؤمنين، كلّ ذلك غير قابل للتخلّف والتأخّر، سيراقب أعماله وأفعاله أكثر من ذي قبل.

خلاصة أهداف الخلق

ذكر الله (سبحانه وتعالى) لأفعاله أهدافاً في القرآن الكريم، فثمّة آياتٍ مُتعدّدة في ما يتعلّق

---

١ سورة الكهف: الآية ٧.

٢ سورة الأنعام: الآية ١٦٥.

٣ سورة الطلاق: الآية ١٢.

بخلق الإنسان كشفت عن الهدف من خلقه بصيغ مُختلفة، ويُستفاد من مجموع الآيات القرآنيّة أنّ الهدف من خلق الإنسان هو بلوغه الرّحمة الإلهيّة؛ غير أنّ الإنسان لا يبلغ تلك الرّحمة إلّا إذا أطاع ربّه وأرضاه، وهو ما يطلق عليه اسم «العبادة». فالعابد هو من يرضى بما يختاره له المعبود، ويقدّم إرادته على إرادة نفسه. وبهذا يمكن القول: إنّ الهدف من الخلق هو العبادة، فمع أنّ الله (سبحانه وتعالى) خلق الإنسان ليَبلُغ رحمته، إلّا أنّ السّبيل إلى تلك الرّحمة هو العبادة.

ولأجل أن يتّضح من هو العابد لا بدّ من توفر خصوصيّات مُعيّنة، والخصوصيّات الموجودة في حياة الإنسان ما هي إلّا مقدّمة لتمكينه من اختيار جديد، ويُطلق على هذه الخصوصيّات في الثّقافة الإسلاميّة «الامتحان أو الابتلاء». إنّ الله (سبحانه وتعالى) يوفّر أرضيّة معيّنة ليجعل الإنسان يختار طريقه من بين طرق عدّة، ولا ريب في أنّه يريد للإنسان أن يختار الطّريق الأفضل والأنفع له، والهدف من هذه الخصوصيّات المُختلفة معرفة الإنسان الأكثر إحساناً. وفي ضوء هذا المعنى، يمكن القول: إنّ الله (عزّ وجلّ) خلق الإنسان في هذا العالم ليمتحنه ويبتليه.

ثمّ إنّ امتحان الشّخص واختباره دون معرفة ليس بممكن، فلا يستطيع الإنسان الخروج من الامتحان الإلهيّ ناجحاً ومُفلحاً إلّا إن كان متسلّحاً بالمعرفة اللّازمة لذلك الامتحان، وكان لديه وعي وإيمان بالله سبحانه وعلم بمسؤوليّاته وواجباته. ومن هنا؛ فإنّ أحد أهداف الخلق إيصال الإنسان إلى الوعي اللّازم وترسيخ إيمانه بربّه.

وباختصار نقول: إنّ الأهداف المذكورة يقع بعضها في طول بعضها الآخر، وليس بينها اختلاف أو تضادّ؛ بل بعضها مقدّمة لبعضها الآخر؛ فالعلم والمعرفة مقدّمة للامتحان، والامتحان مقدّمة للعبادة واختيار الطّريق الإلهيّ، والطّريق الإلهيّ مقدّمة لبلوغ رحمة الله[1].

---

١. انظر: مكارم الشيرازي، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج١٨، ص٤٣٧.

*** الأسئلة**

١. ما النّسبة بين الرّحمة الإلهيّة والهدف من خلق الإنسان والعالم؟

٢. ما المُراد من العبوديّة أو العبادة المأخوذة من جملة أهداف الخلق؟

٣. ما معنى الابتلاء؟ ابحث دور الابتلاء في حياة الإنسان بحسب الآيات القرآنيّة.

٤. استعرض الأهداف الأربعة المذكورة للخلق ضمن عرض تحليليّ مُوحّد ومُنسجم، وبيّن ما النّسبة بين هذه الأهداف؟

*** موضوع للبحث**

- استخرج جميع الآيات القرآنيّة الواردة بشأن عدم كون الخلق عبثاً وباطلاً، ثمّ اشرحها.

٧٠

من الإنسان إلى المجتمع

سنتناول في الدّروس القادمة بعض الأبحاث المتعلّقة بالمجتمع مع شيءٍ من الإيجاز، وسنتطرّق في هذا الدّرس إلى مقدّمات هذا البحث، فنسلّط الضّوء على تعريف المجتمع، والأبعاد الاجتماعيّة للإنسان، والتأثير المتبادل بين الإنسان والمجتمع.

إنّ الأديان الإلهيّة تهتمّ بجميع أبعاد حياة الإنسان، وتعمل على تكاملها في جميع المجالات. وفي هذا السّياق، تعدّ الحياة الاجتماعيّة أهمّ مسارح حضور الإنسان وفرصة مناسبة لتعامله مع باقي أبناء جلدته. وبقدر تأثير القدرات الداخليّة للإنسان على الرّفعة والتّسامي، يمكن للعلاقات الاجتماعيّة أيضاً أن تؤدي دوراً مؤثّراً باتجاه تكامل الإنسان أو سقوطه؛ ولهذا السّبب يعدّ التعرّف على المجتمع والعلاقات الفرديّة والاجتماعيّة من أهمّ عناصر الرؤية الدّينيّة.

١. تعريف المُجتمع

يسوغ إطلاق لفظ «المُجتمع» لغةً على أيّ جماعة أو فئة من النّاس بينها جهة اشتراكٍ مُعَيّنة، سواء ضاقت دائرتها بحيث ضمّت مجموعة من الرّجال المتزوّجين والسّاكنين في قرية صغيرة ونائية، أم اتّسعت فكانت هي البشر الّذين نشأوا منذ بداية الخلق إلى اليوم ثمّ رحلوا عن هذه الدّنيا. وأمّا بحسب اصطلاح علماء الاجتماع فالمجتمع يتشكّل من مجموعة من الأفراد الّذين يشتركون في جملة من النُّظم والسّنن والآداب والقوانين الخاصّة ويعيشون مع بعضهم[١].

١. مصباح اليزدي، جامعه وتاريخ از نگاه قرآن، ص٢٤.

٢. الإنسان موجود اجتماعيّ

إنّ الإنسان موجودٌ مُحتاج إلى العلاقات الاجتماعيّة، فلا يتمكّن من تلبية احتياجاته المتنوّعة في الحياة دون تواجده في المجتمع. ولا يخفى أنّ القبول بأيّ بيئة أو مجتمع يعني ضرورة الالتزام بالشّروط والقوانين السّائدة فيه. وحيث إنّ الإسلام دين قادر على تلبية جميع الاحتياجات الرّوحيّة والجسديّة الضروريّة للإنسان، وفي جميع الأزمنة والأمكنة، لم يقرّ العلاقات الاجتماعيّة البنّاءة وحسب؛ وإنّما أسّس بعض الأصول والمبادئ في العلاقات الاجتماعيّة، وشدّد على أهميّتها في المجتمع الإيماني أيضاً.

والمقصود بكون الإنسان موجوداً اجتماعيّاً هو أنّ كثيراً من زوايا حياته ذات صبغة اجتماعيّة؛ فمن جهة تعتبر احتياجاته وفوائده وأعماله ونشاطاته ذات ماهيّة اجتماعيّة، ولا تتحقّق إلّا من خلال تقسيم العمل ضمن سلسلة من السّنن والأنظمة، ومن جهة أخرى يحكم النّاسَ نحوٌ من الأفكار والأخلاق والطّباع المشتركة والّتي تسبغ عليهم الوحدة والانسجام. بعبارة أخرى: المُجتمع مجموعة من النّاس المقيّدين بسلسلة من الاحتياجات والخاضعين لجملة من العقائد والأهداف والمنهمكين بحياة مشتركة.

ثمّ إنّ الاحتياجات الاجتماعيّة المشتركة والعلاقات الخاصة في حياة النّاس جعلت بعضهم مُرتبط ببعضهم الآخر وعزّزت من تواصلهم في الحياة، بحيث يُعدّون بحكم الأشخاص المسافرين مع بعضهم في طائرة أو سفينة واحدة، والقاصدين لوجهة مشتركة، فإما أن يصلوا معاً إلى تلك الوجهة المقصودة وإما أن يُحرموا من الوصول ويتعرّضوا إلى الخطر، فيكون مصيرهم مشتركاً[1].

ويستفاد من الآيات القرآنيّة الكريمة أنّ الإنسان جُبل في أصل الخِلقة على الحياة الاجتماعيّة، فقال (جلّ وعلا):

﴿يَآ أَيُّهَا النَّاسُ إِنّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾[2].

---

١. انظر: مطهري، مقدمه‌اى بر جهان بينى اسلامى: جامعه وتاريخ، ص١٧-١٩.

٢. سورة الحجرات: الآية ١٣.

وقال في سورة الفرقان:

﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا﴾[١].

فهذه الآية الكريمة تؤكّد على أنّ العلاقات النَسَبيّة والسّبَبيّة الّتي تعدّ وسيلة لارتباط الأفراد وأساساً للتعارف بينهم جُعلت في أصل الخلقة لتحقيق الغاية النهائيّة.

وقال (سبحانه وتعالى) في سورة الزّخرف:

﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾[٢].

ومجمل الكلام: لم يُخلق النّاس متساوين من حيث الإمكانات والقابليّات، ولو خُلقوا كذلك لكان كلّ واحد منهم يمتلك ما يمتلكه الآخر ويفتقر إلى ما يفتقر إليه غيره، ولانتفت الاحتياجات والخدمات المُتبَادلة. وعليه، فقد خلق الباري (سبحانه وتعالى) النّاس متباينين من ناحية القابليّات والإمكانات الجسديّة والرّوحيّة والعقليّة والعاطفيّة، وجعل بعضهم متفوّقين على بعضهم الآخر في المواهب والطّاقات بدرجات كبيرة، وجعل ذلك القسم الآخر أحياناً أفضل من سواهم في مواهب أُخرى؛ وبهذا صار بعضهم محتاجاً إلى بعضهم الآخر وراغباً بالتّواصل مع الآخرين؛ بل وهيّأ الأرضيّة اللّازمة لحياة اجتماعيّة مُتداخلة عن طريق ذلك. وهذه الآية الكريمة تدلّ على أنّ الحياة الاجتماعيّة للإنسان أمر طبيعيّ، وليس مجرّد أمر وضعيّ واختياريّ ولا اضطراريّ وقسريّ[٣].

٣. الدّين والعلاقات الاجتماعيّة

أولى الدّين الإسلاميّ اهتماماً خاصّاً للمجتمع والعلاقات الاجتماعيّة، ومن الشّواهد الواضحة على ذلك الأحكام الإسلاميّة الكثيرة بشأن التصرّفات والتعاملات الاجتماعيّة؛ فنجد أنّ الإسلام يتحدّث عن أهميّة الدّين والأخلاق في المجتمع وكأنّ انتهاكهما يؤدّي إلى انهيار

---

١. سورة الفرقان: الآية ٥٤.

٢. سورة الزخرف: الآية ٣٢.

٣. انظر: مطهري، مقدمه‌اى بر جهان بينى اسلامى: جامعه وتاريخ، ص٢١-٢٤.

منظومة العلاقات الاجتماعيّة. من هنا، أشار القرآن الكريم إلى مجموعة من الأحكام والمبادئ الأخلاقيّة، لافتاً إلى وجوب مراعاتها من قبل أولئك الّذين يعيشون مع بعضهم في إطار حياة اجتماعيّة مُشتركة.

وعلى هذا الأساس، لا يتمكّن المجتمع الإيمانيّ من القيام بحركة تكامليّة ولا يستطيع التمتّع بحلاوة الإيمان، إلّا في حال التّمهيد لتنامي الفضائل الأخلاقيّة والتحلّي بالسجايا الإيمانيّة، والتصدّي بمنتهى الجدّ وقدر المُستطاع للآفات والمعوّقات الموجودة.

قال (سبحانه وتعالى) في مُحكم كتابه الكريم حول لزوم تجنّب تعكير صفو المجتمع والإضرار بالعلاقات الاجتماعيّة السّليمة:

﴿يَآ اَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسٰى اَنْ يَكُونُوا خَيْراً مِنْهُمْ وَلا نِسآءٌ مِنْ نِسآءٍ عَسٰى اَنْ يَكُنَّ خَيْراً مِنْهُنَّ وَلا تَلْمِزُوٓا اَنْفُسَكُمْ وَلا تَنابَزُوا بِالْاَلْقابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإيمانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَاُولٰٓئِكَ هُمُ الظّالِمُونَ﴾[١].

وهذا يعني أنّه يجب على الإنسان المؤمن والمجتمع الإيماني أن يبتعد عن كلّ ما من شأنه أن يلوّث أجواء العلاقة الحميمة ويقضي على الثّقة المتبادلة أو يزعزعها، وإذا ما ابتلي الإنسان بهذه الموبقة فلا بدّ له من الإسراع إلى التّوبة؛ كي تشمَله الرّحمة الإلهيّة والعناية الربّانيّة مجدّداً.

وقال (سبحانه وتعالى) محذّراً من العلاقات المؤثّرة على الإيمان والمدمّرة له أساساً:

﴿يَآ اَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لا تَتَّخِذُوٓا ءابآءَكُمْ وَإخْوانَكُمْ اَوْلِيآءَ اِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإيمانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَاُولٰٓئِكَ هُمُ الظّالِمُونَ﴾[٢].

إنّ الإيمان بالله يعني التخلّص من الارتباطات المحدودة والعلاقات التّافهة وارتباط القلب والرّوح بالله الّذي لا يعرف الحُدود. ومن الطبيعيّ أنّه لو أراد الإنسان حبس نفسه في إطار العلاقات المحدودة والعابرة والسطحيّة وغير الأصيلة فسوف لن يحصل على نتائج مناسبة

---

١ . سورة الحجرات: الآية ١١.

٢ . سورة التوبة: الآية ٢٣.

ولن يحقّق طموحاته وتطلّعاته.

إنّ مراعاة خصوصيّات الإنسان وعدم انتهاك الحدود الّتي تعدّ مُحترمة ومقدّسة في العلاقات الاجتماعيّة هو المثال الآخر على تأكيد الدّين الإسلاميّ على أهميّة العلاقات الاجتماعيّة واحترامها؛ ولذا لا يُسمح بالدّخول إلى الأماكن الخاصّة العائدة للآخرين إلّا بعد استحصال رضاهم وكسب موافقتهم؛ حتّى تسود الحياةَ علاقاتٌ اجتماعيّة سليمة ومنضبطة. من هنا، قال (سبحانه وتعالى) بشأن ضرورة الالتزام بهذه الآداب في العلاقات الاجتماعيّة:

﴿يَآ اَيُّهَا الَّذِينَ ءامَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ اَهْلِها ذٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[1].

ومن المظاهر الأخرى للأحكام الاجتماعيّة في الإسلام، يمكن الإشارة إلى وضع حدود بين الفئات الاجتماعيّة المختلفة تحكم العلاقات النِّسَبيّة والسَّببيّة القائمة بين الأشخاص المختلفين، وهذه النقطة تدلّل على مدى تأثير العلاقات الاجتماعيّة -حتّى في أبسط صورها- على التكامل المعنويّ للإنسان. فعلى سبيل المثال، قال (سبحانه وتعالى) في سورة النّور حول لزوم التحكّم بالنظر في العلاقات الاجتماعيّة ومنع وقوع المعاصي والذنوب:

﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ اَبْصارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذٰلِكَ اَزْكىٰ لَهُمْ اِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِما يَصْنَعُونَ * وَقُلْ لِلْمُؤْمِناتِ يَغْضُضْنَ مِنْ اَبْصارِهِنَّ ...﴾[2].

الخُلاصة أنّ هذه الأمثلة في حدّ ذاتها كافية لإثبات اهتمام الدّين الإسلاميّ بالعلاقات الاجتماعيّة وحثّه على التواصل الاجتماعيّ؛ ذلك أنّ الإسلام ـ شأنه شأن الأديان الإلهيّة الأخرى ـ لم يغفل عن تنظيم البيئة الاجتماعيّة وضرورة تحصينها من المخاطر، إلى جانب اهتمامه التامّ بالتكامل الفرديّ للبَشر، فاعتبر الهويّة الاجتماعيّة جزءاً من الحياة الإنسانيّة.

---

١ . سورة النور: الآية ٢٧.

٢ . سورة النور: الآيتان ٣٠-٣١.

❁ الأسئلة

١. عرّف المجتمع باصطلاح علماء الاجتماع.

٢. ما معنى كون الإنسان موجوداً اجتماعيّاً؟

٣. مثّل بعدد من الآيات القرآنيّة الّتي تُثَبِّت دور المجتمع والعلاقات الاجتماعيّة في حياة الإنسان.

٤. كيف يمكن الاستدلال بالأحكام الشّرعيّة والأخلاقيّة لإثبات الرؤية الاجتماعيّة للإسلام؟

❁ موضوع للبحث

- استخرج أمثلة من سيرة أهل البيت عليهم السلام تكشف عن اهتمامهم بالعلاقات الاجتماعيّة وتبيّن أهميّتها بنظرهم.

٧١

المجتمع والحكومة

بعدما اتّضح مدى تأثير المجتمع على كمال الإنسان، يجدر بنا الحديث عن رؤية الإسلام في باب الإدارة الاجتماعيّة وأبعادها؛ ومن هنا سنبيّن دور المؤسسات الاجتماعيّة والحكومة في الإسلام، ونسلّط الضّوء على دور الدّين والشعب في الحكم.

إلى الآن تحدّثنا عن العلاقة بين الفرد والمجتمع والشّروط المطلوبة لتأثير المجتمع على الأفراد، وكذلك بحثنا كيفيّة تأثير الأفراد على المجتمع. وقد تجلّت هذه القاعدة العامّة في جميع أبعاد الدّين الإسلاميّ ومناهجه، ومن هذا المنطلق يمكن إعطاء صورة مكتملة عن الرؤية الإسلاميّة في هذا المجال.

ومن أجلى مصاديق هذه القاعدة العامّة، ماهيّة الحكومة والوظائف المتبادلة بين الحكومة والشّعب؛ فالإسلام أطلق نظريّة دقيقة ومُنسجمة حول النّسبة بين الفرد والمجتمع والحكومة، وحدّد حقوق كلّ واحد منهم والمسؤوليّات الواقعة على عاتقه. وسنتطرّق هنا بصورة موجزة إلى هذا الموضوع؛ ليتّضح من خلال ذلك مدى التّداخل والتّشابك بين جميع الأبعاد النظريّة والعلميّة ـ من التّوحيد إلى الإمامة، ومن الأنثروبولوجيا إلى الأبحاث الاجتماعيّة والحقوقيّة ـ في الفكر الإسلاميّ[١].

---

١ . لمزيد من المعلومات في هذا المجال، انظر: محمد تقي سبحاني، شخصية المرأة: دراسة في الأنموذج الحضاري السلامي.

١. التّنظيمات الاجتماعيّة

لا ريب في أنّ الهدف من الحياة الاجتماعيّة هو سدّ احتياجات أفراد المجتمع على النحو الأكمل وتوفير مستلزمات التقدّم والتكامل، ولا يتسنّى تحقيق ذلك إلّا عبر التّنظيمات الاجتماعيّة، وهي «الأمور المهمّة واللّازمة في الحياة الاجتماعيّة للإنسان». فعلى سبيل المثال، «الاقتصاد» أحد التّنظيمات الاجتماعيّة الّتي تشتمل على شطر واسع من الأعمال اليوميّة والضروريّة لحياة الإنسان، من قبيل الإنتاج والتوزيع والتبادل التجاري واستهلاك البضائع. والمقصود من قيد «اللّازمة» في تعريف التّنظيمات الاجتماعيّة بعض شؤون الحياة الاجتماعيّة الّتي يتوفر فيها شرطان: الأوّل، لم يخلُ منها أيّ مجتمع طيلة التّاريخ البشريّ، والثّاني، يحتاجها جميع الأفراد في كلّ مجتمع تقريباً، هذا من جهة.

ومن جهة ثانية؛ فإنّ أغلب علماء الاجتماع اعتبروا الدّين تنظيماً اجتماعيّاً إلى جانب سائر التّنظيمات الأخرى؛ ولكن ينبغي القول: إنّ الدّين هو المنهج الصّحيح والمطلوب لحياة الإنسان، المُشتمل على جميع أبعاد حياة الفرد والمجتمع، والمختصّ بجانب مُعيّن من احتياجات البشر. ففضلاً عن العقائد والأخلاق والعبادات بالمعنى الأخصّ، يشتمل الدّين على مختلف أنواع القوانين، كالقوانين السياسيّة، والقوانين القضائيّة، والقوانين الجزائيّة، والقوانين الدوليّة، والقوانين الاقتصاديّة، والقوانين المدنيّة؛ وبهذا فهو يستوعب جميع التّنظيمات الاجتماعيّة الأخرى ويهيمن عليها[1].

وبهذا يجب القول: إنّ الدّين الإسلاميّ، ومن خلال اعترافه بالتّنظيمات الاجتماعيّة، أعطى الأوامر اللّازمة بشأن أهمّ القوانين والضّوابط الحاكمة على التّنظيمات الاجتماعيّة.

٢. الحكومة من وجهة نظر الإسلام

المالك الحقيقيّ بمقتضى الرّؤية الإسلاميّة هو الله (سبحانه وتعالى)، والشّعب الّذي يمثّل المجتمع الإسلاميّ مخلوق لله أيضاً. قال (سبحانه وتعالى):

---

١. انظر: مصباح اليزدي، جامعه وتاريخ از نگاه قرآن، ص٣٤٨-٣٤٩.

﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ﴾[1].

الملكيّة الحقيقية لله وحده، وكلّ ما لدى الآخرين إنّما هو بتمليكه، فهو الوحيد القادر على أن يُعطي الآخرين شيئاً أو يأخذه منهم؛ ولذا قال (جلّ وعلا):

﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[2].

﴿إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾[3].

وبمقتضى الآيات المتقدّمة؛ فإنّ الله (سبحانه وتعالى) وحده مالك السّماوات والأرض وكلّ ما فيهما، وبيده مقدّرات النّاس جميعاً ومن جميع النّواحي؛ وبالتّالي لا أحد سواه وليّ حقيقيّ ونصير واقعيّ للنّاس.

ثمّ إنّ هذه الولاية الربّانيّة والاختيار الإلهيّ لا يقتصران على الأمور التكوينيّة فقط؛ بل لهما تأثير كبير في إدارة الحياة الفرديّة والاجتماعيّة للنّاس أيضاً. وفي هذا السّياق، لا تصدر المبادئ والقوانين الكفيلة بإدراة شؤون الإنسان والولاية عليه إلّا من المالك الحقيقي، وليس للآخرين حقّ التدخّل في حياة النّاس[4].

وثمّة مصداق آخر للنّقطة المتقدّمة بشأن قيادة المجتمع أيضاً، فالآيات الآتية تشير إلى أنّ لله (سبحانه وتعالى) وحده حقّ اختيار الإمام للمجتمع الإسلاميّ، وعلى النّاس اتّباع من يختاره لهم الله:

﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[5].

---

١. سورة طه: الآية ١١٤.

٢. سورة آل عمران: الآية ٢٦.

٣. سورة التوبة: الآية ١١٦.

٤. انظر: العسكري، نقش ائمه در احياء دين، ج١.

٥. سورة القصص: الآية ٦٨.

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالاً مُبِيناً﴾[1].

ومن هذا المنطلق، إن أراد شخصٌ ما التصدّي للحكم دون إذن الله في مجتمع عائد إلى الله وقد آمن النّاس في ذلك المجتمع بربوبيّة الله، فهو كمن يريد احتلال منصب في وزارة مُعيّنة وأداء الأمور المُتعلّقة بها دون الرّجوع إلى المسؤول ذي العلاقة والاستئذان منه، فيؤاخَذ هذا الشّخص حتّى لو أدّى عمله بصورة صحيحة وجيّدة. وعلى هذا الأساس، لا بدّ من تعيين المسؤول عن إجراء القانون الإسلاميّ من قبل مالك الشّعب والمجتمع الإسلاميّ وهو الله (سبحانه وتعالى).

ومن هنا، يجب أن يكون المسؤول عن تطبيق القانون مأذوناً من الله (سبحانه وتعالى) وإن تعهّد بإجراء جميع القوانين طبقاً للموازين الإسلاميّة، هذا الإذن تارةً يكون إذناً خاصّاً كما هو الحال في رسول الله ﷺ والأئمّة المعصومين عليهم السلام، وكذلك الأشخاص الّذين نصّبهم النبيّ الأكرم ﷺ أو الأئمّة من أهل البيت عليهم السلام بصورة مباشرة. وتارةً يكون الإذن أو النّصب عامّاً، كما في عصر الغَيْبَة أو عصر الأئمّة الّذين لم يتصدّوا للحكم؛ حيث نُصّب أشخاص وذوو أهليّة بإذن عامٍّ لإجراء الأحكام الإلهيّة[2].

وعلى هذا الأساس، يمكن أن نخلص من ذلك إلى أنّ الحكومة في الفكر الإسلاميّ مُنبثقة من الحاكميّة الإلهيّة المُطلقة، ولا بدّ من رعاية هذا الأصل في كلّ مرتبة من مراتب الحكم.

وقد بحثنا سابقاً أنّ الحاكميّة الإلهيّة تجسّدت في أصل الإمامة؛ حيث يتصدّى للولاية وهداية الأمّة قائدٌ إلهيّ يحمل صفتي العلم والعصمة؛ لأنّه هو وحده المنصوب من الله (سبحانه وتعالى) لهذه الوظيفة الخطيرة. وفي عصر الغَيْبَة، وعلى الرّغم من ولاية المعصوم وتأثير إمام العصر والزّمان عجّل الله فرجه في الكون وفي حياة الأمّة، تقع إدارة الأمور الظّاهريّة للأمّة على عاتق نوّاب الإمام الخاصّين والعامّين. وبهذا يثبت أنّ ولاية الفقيه هي إحدى وجوه الحكم الإسلاميّ باعتبارها نيابةً عامّةً من الإمام المعصوم.

---

١ سورة الأحزاب: الآية ٣٦.

٢ انظر: هذا الكتاب، بحث الإمامة، الدرس السابع و الأربعون.

٣. دور الشّعب في الحكومة

لا ينبغي أن يُفهم ممّا ذكرنا أنّ النّظام السّياسي للإسلام يؤكّد على دور الحُكّام فقط، ولا يُبدي اهتماماً بالشّعب وأعضاء المجتمع الإسلاميّ، ويُلغي دورهم في هذا المجال؛ بل الأمر على العكس من ذلك، فيتحمّل الشّعب مسؤوليّة جسيمة في إقامة حكومة العدل والقسط، ومن خلال التحلّي بالوعي والاطّلاع على المنهاج الإلهيّ الأصيل يرفض الشّعب إطاعة الطّواغيت والغاصبين، ويتمسّك بخطّ الأنبياء والأولياء ومن نصّبهم هؤلاء لهداية الأمّة وإتمام مسيرتها، وبذلك يعملون على تطبيق الأحكام الدّينيّة الكفيلة بضمان السعادة والفلاح:

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾[١].

أمّا في الموارد الّتي لم يشرّع الإسلام قوانين ثابتة ودائمة، ودعت الضرورة لتشريع قوانين جديدة لبعض الموضوعات والاحتياجات المتجسّدة نتيجة حدوث تغيير في طبيعة حياة البشر بمرور الزّمن، فقد أذن الإسلام للحكومة المشروعة بوضع القوانين اللّازمة لهذه الموارد في إطار المبادئ والقيم الإسلاميّة.

وكان للأئمّة المعصومين عليهم السلام تعاليم دقيقة وتوصيات مهمّة في هذا المجال، منها ما روي عن الإمام أبي الحسن الرّضا عليه السلام:

«عَلَيْنَا إِلْقَاءُ الأُصُولِ وَعَلَيْكُمُ التَّفْرِيعُ»[٢].

بناءً على ذلك، وردت في القرآن الكريم وأقوال الأئمّة الميامين عليهم السلام أصول المسائل في جميع ما يحتاجه النّاس، ويتوجّب على المجتهدين وعلماء الدّين استنباط الجزئيّات للمسائل الّتي يحتاجها المجتمع في كلّ عصر ومصر من الأصول المذكورة.

وأمّا في مرحلة تنفيذ القوانين فقد خوّل الله (سبحانه وتعالى) الشّعب في اختيار المُدراء المناسبين لذلك عند غياب الأئمّة المعصومين عليهم السلام، ودعا النّاس عموماً إلى المُشاركة الفاعلة في إقامة نظام العدل الإلهيّ. وبهذا يتبيّن أنّ الإسلام يمنح الشّعب دوراً متميّزاً في تعيين

---

١. سورة الحديد: الآية ٢٥.

٢. ابن إدريس الحلي، السرائر (المستطرفات)، ج٣، ص٥٧٥؛ الحرّ العاملي، وسائل الشيعة، ج٢٧، ص٦٢.

المسؤولين عن تنفيذ القانون، وكذلك اختيار الأشخاص المخوّلين بتشريع القوانين في إطار الأسس والمبادئ الإسلاميّة.

وفي ضوء ما ذكرنا، يتّضح دور الشّعب ومشاركته الفاعلة في انتخاب الأشخاص المسؤولين ضمن ضوابط معينة مع رعاية الحدود والقيود الّتي وضعها الإسلام في هذا المجال، ومن أبرز تلك الضوابط لزوم أن يكون الشّخص المُنتخَبُ مسلماً وملتزماً بالأحكام الإسلاميّة، وأن يراعي جميع الموازين الإسلاميّة في وضع القوانين وفي مقام تطبيقها أيضاً.

*** الأسئلة**

١. عرّف التنظيم الاجتماعيّ، ثمّ ناقش النّظريّة القائلة أنّ الدّين أحد التّنظيمات الاجتماعيّة.

٢. اشرح النّسبة بين الحكومة السياسيّة وحاكميّة الله (سبحانه وتعالى) في ضوء الآيات القرآنيّة.

٣. بيّن بدقّة ما الحدّ الفاصل بين دور الدّين ودور الشّعب في الحكومة السياسيّة.

*** موضوعات للبحث**

- ما الدور الّذي يلعبه الاجتهاد في الإدارة الاجتماعيّة؟ ابحث ذلك.
- ناقش مع زملائك في الدّرس كيف آلت نظريّة أصالة الفرد والمجتمع في الإسلام إلى رؤية خاصّة في باب الحكومة ودور الشّعب والدولة؟

المصادر والمراجع

١. أبراهام كرسي موريسن، راز آفرينش انسان، ترجمه إلى الفارسية: محمد سعيدي، منظمة الثورة الإسلامية للنشر والتعليم، طهران.

٢. أبو إسحاق إبراهيم بن محمّد بن سعيد بن هلال الثقفيّ، الغارات، تصحيح: السيّد جلال الدين المحدّث، انجمن آثار ملّي، تهران، ١٣٩٥ق.

٣. أبوالحسن بن محمد طاهر الفتوني، مرآة الأنوار ومشكاة الأسرار (المعروف بمقدّمة البرهان)، مؤسسة إسماعيليان للمنشورات، قم.

٤. أحمد بن محمّد ابن فهد الحلّيّ، عدّة الداعي ونجاح الساعي، تصحيح: أحمد الموحّديّ القميّ، دار الكتب الإسلاميّ، قم، ١٤٠٧ق.

٥. أحمد أمين، راه تكامل، ترجمه إلى الفارسية: أحمد بهشتي وأديب لاري ومحمد إمامي، دار الكتب الإسلامية، طهران، ١٩٦٨م.

٦. أحمد الديلمي، طبيعت وحكمت: پژوهشى در برهان نظم، ممثلية قائد الثورة الإسلامية في الجامعات، قم.

٧. أحمد بن أبي طاهر (ابن طيفور)، بلاغات النساء، مكتبة بصيرتي، قم، ١٩٨٢م.

٨. أحمد بن الحسين البيهقي، السنن الكبرى، دار الفكر، بيروت.

٩. أحمد بن جنبل، مسند أحمد بن حنبل، دار صادر، بيروت.

١٠. أحمد بن حنبل، فضائل أهل البيت من كتاب فضائل الصحابة، المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية، طهران، ١٤٢٥هـ.ق.

١١. أحمد بن عليّ (ابن حجر العسقلاني)، فتح الباري شرح صحيح البخاري، دار المعرفة للطباعة

والنشر، بيروت.

١٢. أحمد بن عليّ الجصّاص، أحكام القرآن، تحقيق: محمد الصادق قمحاوي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٤٠٥هـ ق.

١٣. أحمد بن عليّ الطبرسي، الاحتجاج على أهل اللجاج، تعليقات وملاحظات: محمد باقر الخرسان، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ط٣، بيروت، ١٤٢١هـ ق.

١٤. أحمد بن عليّ النسائي، السنن الكبرى، تحقيق: عبد الغفار سليمان البنداري وحسن كسروي، دار الكتب العلمية، ط١، بيروت، ١٤١١هـ ق.

١٥. أحمد بن فارس، معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، ط٢، مصر، ١٣٩٠هـ ق.

١٦. أحمد بن محمد (ابن حجر الهيثمي)، الصواعق المحرقة في الردّ على أهل اللبدع والزندقة، مكتبة القاهرة، القاهرة، ١٣٧٥هـ ق.

١٧. أحمد بن محمد (المقدّس الأردبيلي)، الحاشية على إلهيات الشرح الجديد للتجريد، تحقيق: أحمد عابدي، مكتب الإعلام الإسلامي في حوزة قم العلمية، قم، ١٤١٩هـ ق.

١٨. أحمد بن محمد إبراهيم الثعلبي، الكشف والبيان عن تفسير القرآن (المعروف بتفسير الثعلبي)، دار إحياء التراث العربي، ط١، بيروت، ١٤٢٢هـ ق.

١٩. أحمد بن محمد البرقي، المحاسن، تصحيح: جلال الدين الحسيني، دار الكتب الإسلامية، قم، ١٣٧١هـ ق.

٢٠. أحمد بن محمّد الفيّومي، المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، مؤسّسة دار الهجرة، قم، ١٤٠٥ ق.

٢١. أحمد زيني دحلان، السيرة النبوية، دار القلم العربي، نشر: صلب، ١٤١٧هـ ق.

٢٢. ألبرت إينشتاين، دنيائى كه من ميبينم، ترجمه إلى الفارسية: فريدون سالكي، دار نشر پيروز، طهران.

٢٣. ألكسيس كارل، نيايش، ترجمه إلى الفارسية: محمد تقي شريعتي مزيناني، دار نشر تشيع، قم، ١٩٧٦م.

٢٤. إبراهيم أنيس، المعجم الوسيط، مكتب النشر الإسلامي الثقافي، ط٦، طهران، ١٩٩٦م.

٢٥. إبراهيم بن عليّ الكفعمي، البلد الأمين والدرع الحصين، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ط٣، بيروت، ١٤٠٣هـ ق.

٢٦. إبراهيم بن محمد الجويني، فرائد السمطين في فضائل المرتضى والبتول والأئمّة من ذريتهم، دار

نشر حبيب، قم، ١٤٢٨هـ.ق.

٢٧. إسماعيل بن حماد الجوهري، صحاح اللغة، تحقيق: أحمد عبد الغفور العطار، دار العلم للملايين (مكتبة أميري)، ط١، بيروت، ١٤٠٧هـ.ق.

٢٨. إسماعيل بن عمر (ابن كثير)، البداية والنهاية، دار إحياء التراث العربي، ط١، بيروت، ١٤٠٨هـ.ق.

٢٩. إسماعيل بن عمر (ابن كثير)، السيرة النبوية، تحقيق: مصطفى عبد الواحد، دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ١٣٩٦هـ.ق.

٣٠. إسماعيل بن عمر (ابن كثير)، تفسير القرآن العظيم، تحقيق: محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، ط٢، بيروت، ١٤٢٢هـ.ق.

٣١. إنجيل برنابا، ترجمه إلى الفارسية: حيدر قليخان قزلباش، دار نشر نيايش، طهران، ٢٠٠١م.

٣٢. الحسن بن عبد الله العسكري، الفروق اللغوية، جماعة المدرسين في حوزة قم العلمية، مكتب النشر الإسلامي، قم.

٣٣. الحسن بن عليّ (ابن شعبة الحرّاني)، تحف العقول عن آل الرسول صلى الله عليهم، تصحيح: عليّ أكبر الغفاري، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين، ط٨، قم، ١٤٢٩هـ.ق.

٣٤. الحسن بن محمد الديلمي، أعلام الدين في صفات المؤمنين، مؤسسة آل البيت لإحياء التراث، قم، ١٤٠٨هـ.ق.

٣٥. الحسن بن محمد الديلمي، إرشاد القلوب، مكتبة الرضيّ، قم، ١٤١٢هـ.ق.

٣٦. الحسن بن يوسف (العلامة الحلي)، الألفين، المؤسسة الإسلامية، ط١، قم، ١٤٢٣هـ.ق.

٣٧. الحسن بن يوسف (العلامة الحلي)، الباب الحادي عشر، ط١، ١٩٨٦م.

٣٨. الحسن بن يوسف (العلامة الحلي)، نهج الحقّ وكشف الصدق، علّق عليه: عين الله الحسني الأرموي، دار الهجرة، ط٤، قم، ١٤١٤هـ.ق.

٣٩. الحسن بن يوسف (العلامة الحلّي)، كشف المراد في شرح تجريد الاعتقاد، مؤسسة النشر الإسلامي، ط٤، قم، ١٤١٣هـ.ق.

٤٠. الحسين بن محمد (الراغب الأصفهاني)، المفردات في غريب ألفاظ القرآن، تحقيق: صفوان عدنان الداوودي، منشورات دار القلم / الدار الشامية، ط١، بيروت / دمشق، ١٤١٢هـ.ق.

٤١. الخليل بن أحمد الفراهيدي، كتاب العين، دار إحياء التراث العربي، ط١، بيروت، ١٤٢١هـ.ق.

٤٢. السيد هاشم بن السليمان البحراني، المحجّة فيما نزل في القائم الحجّة، تحقيق: محمد منير

الميلاني، مؤسّسة الوفاء، قم.

٤٣. الفضل بن الحسن الطبرسي، إعلام الورى بأعلام الهدى، المكتبة الحيدرية، ط٣، النجف، ١٣٩٠هـ.ق.

٤٤. الفضل بن الحسن الطبرسي، مجمع البيان في تفسير القرآن، تحقيق وتقديم: محمد جواد البلاغي، منشورات ناصر خسرو، طهران، ط٣، ١٩٩٣م.

٤٥. الفضل بن شاذان، الإيضاح، منشورات جامعة طهران، طهران، ١٩٨٤م.

٤٦. الفقه المنسوب للإمام الرضا (المشتهر بفقه الرضا)، تحقيق: مؤسسة آل البيت لإحياء التراث، ط٢، بيروت، ١٤٣١هـ.ق.

٤٧. المفضّل بن عمر الجعفي، توحيد المفضّل (إملاء الإمام أبي عبد الله الصادق عليه السلام)، تحقيق: كاظم المظفر، منشورات داوري، ط٣، قم.

٤٨. المقداد بن عبد الله السيوري وأبوالفتح بن مخزوم الجرجاني، شرح الباب الحادي عشر، مؤسسة الدراسات الإسلامية، ط١، طهران، ١٩٨٦م.

٤٩. الموفق بن أحمد الخوارزمي، المناقب، تحقيق: مالك المحمودي، مؤسسة سيد الشهداء ومؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين، ط٢، قم، ١٤١٤هـ.ق.

٥٠. بابا بن محمد إسماعيل القزويني، محضر الشهود في ردّ اليهود، مؤسسة حضور للثقافة والنشر، قم، ١٩٩٩م.

٥١. تفسير الإمام الحسن العسكريّ عليه السلام، المنسوب إلى الإمام الحسن بن عليّ عليهما السلام، مدرسة الإمام المهديّ عجل الله تعالى فرجه الشريف، قم، ١٤٠٩ ق.

٥٢. جعفر السبحاني، اصالت روح از نظر قرآن، مؤسسة الإمام الصادق عليه السلام، قم، ١٩٩٨م.

٥٣. جعفر السبحاني، اصول عقايد اسلامى، مؤسسة الإمام الصادق عليه السلام، قم.

٥٤. جعفر السبحاني، حوار مع الشيخ صالح درويش حول الصحبة والصحابة، مؤسسة الإمام الصادق، قم، ٢٠٠٣م.

٥٥. جعفر السبحاني، راه خداشناسى، مكتبة صدرا، طهران، ١٩٧٤م.

٥٦. جعفر السبحاني، منشور عقايد اماميه، مؤسسة الإمام الصادق، قم.

٥٧. جعفر بن محمد (ابن نما الحلّي)، ذوب النضار، تحقيق: فارس حسون كريم، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين، ط١، قم، ١٤١٦هـ.ق.

٥٨. جعفر بن محمد الصادق عليه السلام (منسوب)، مصباح الشريعة ومفتاح الحقيقة، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ط١، بيروت، ١٤٠٠هـ.ق.

٥٩. جلال برنجيان، فرهنگ وتمدن جهان در عصر موعود، دار نشر طور، طهران، ٢٠٠٣م.

٦٠. جون بويرناس، تاريخ جامع اديان، ترجمه إلى الفارسية: علي أصغر حكمت، دار المنشورات العلمية والثقافية، طهران، ٢٠٠٢م.

٦١. حسن المصطفوي، التحقيق في كلمات القرآن الكريم، وزارة الثقافة والإرشاد الإسلامي، طهران، ١٩٨٩م.

٦٢. حسن بن سليمان بن محمّد الحلّيّ، مختصر البصائر، تحقيق: مشتاق المظفّر، مؤسّسة النشر الإسلاميّ التابعة لجماعة المدرّسين، قم، ١٤٣١ ق.

٦٣. حسن بن علي الطبري، تحفة الأبرار في مناقب الأئمّة الأطهار، دار ميراث مكتوب، ط١، طهران، ١٩٩٧م.

٦٤. حسن بن فضل الطبرسيّ، مكارم الأخلاق، مؤسّسة الأعلميّ للمطبوعات، بيروت، ١٣٩٢ ق.

٦٥. حسن عميد، فرهنگ عميد، دار نشر أمير كبير، طهران، ١٩٨٢م.

٦٦. حسين بن سعيد الكوفي الأهوازي، الزهد، تصحيح: غلام رضا عرفانيان يزدي، المطبعة العلمية، قم، ١٣٩٩هـ.ق.

٦٧. حسين بن محمد تقي النوري، مستدرك الوسائل ومستنبط المسائل، مؤسسة آل البيت لإحياء التراث، ط١، قم، ١٤٠٧هـ.ق.

٦٨. حسين فريدوني، امام مهدى آخرين پناه، دار نشر ياسر، طهران، ١٤٠٠هـ.ق.

٦٩. حسين نوري همداني، دانش عصر فضا، مكتب الإعلام الإسلامي، قم، ١٩٩٦م.

٧٠. حسين بن سعيد الكوفيّ الأهوازيّ، المؤمن، مؤسّسة الإمام المهديّ عجّل الله تعالى فرجه الشريف، قم، ١٤٠٤ ق.

٧١. دوكه نه تانَجي، دين جهانى (در مجموعه سه مقاله)، ترجمه إلى الفارسية: أحمد آرام، دار انتشار، طهران.

٧٢. رضا باك نجاد، اولين دانشگاه وآخرين پيامبر، المكتبة الإسلامية، طهران، ١٩٧٠م.

٧٣. رضا برنجكار وعليّ نقيّ خداياري، انسان شناسى اسلامى، ممثلية قائد الثورة الإسلامية في الجامعات، مكتب نشر معارف، قم، ٢٠١١م.

٧٤. رضا برنجكار، روش شناسى علم كلام: اصول استنباط ودفاع در عقايد، دار الحديث، قم، ٢٠١٢م.

٧٥. رضا برنجكار، كلام وعقايد (توحيد وعدل)، مؤسسة تدوين كتب العلوم الإنسانية في الجامعات، طهران، ٢٠١٠م.
٧٦. رضا برنجكار، معرفت عدل الهى، مؤسسة نبأ، طهران، ٢٠٠٦م.
٧٧. رضا برنجكار، معرفت فطرى خدا، مؤسسة نبأ، طهران، ٢٠٠٠م.
٧٨. رضيّ الدين عليّ بن يوسف بن المطهّر الحلّيّ، العدد القويّة لدفع المخاوف اليوميّة، تصحيح: السيّد مهديّ الرجائيّ، مكتبة آية الله المرعشيّ النجفيّ ﷺ، قم، ١٤٠٨ ق.
٧٩. سعيد بن هبة الله (قطب الدين الراوندي)، الخرائج والجرائح، مؤسسة الإمام المهدي، ط١، قم، ١٤٠٩هـ.ق.
٨٠. سعيد بن هبة الله (قطب الدين الراوندي)، الدعوات (سلوة الحزين)، مدرسة الإمام المهدي، ط١، قم، ١٤٠٧هـ.ق.
٨١. سعيد بن هبة الله (قطب الدين الراوندي)، قصص الأنبياء، تصحيح: غلام رضا عرفانيان اليزدي، مجمع البحوث الإسلامية، ط١، مشهد، ١٤٠٩هـ.ق.
٨٢. سليمان بن أحمد الطبراني، المعجم الأوسط، القاهرة: دار الحرمين.
٨٣. سليمان بن أحمد الطبراني، المعجم الصغير، دار الكتب العلمية، بيروت.
٨٤. سليمان بن أحمد الطبراني، المعجم الكبير، تحقيق: حمدي عبد المجيد السلفي، دار إحياء التراث العربي، ط٢، القاهرة، ١٣٩٧هـ.ق.
٨٥. سليمان بن إبراهيم القندوزي، ينابيع المودّة لذوي القربى، تحقيق: علي جمال أشرف الحسيني، دار الأسوة للطباعة والنشر، ط١، قم، ١٤١٦هـ.ق.
٨٦. سليمان بن الأشعث السجستاني، سنن أبي داوود، تحقيق: سعيد محمد اللحام، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت.
٨٧. سميح دغيم، موسوعة مصطلحات علم الكلام الإسلامي، مكتبة ناشرون، بيروت، ١٩٩٨م.
٨٨. عباس القمي، سفينة البحار ومدينة الحكم والآثار، الروضة الرضوية المقدسة، ط١، مشهد، ١٤١٦هـ.ق.
٨٩. عباس القمي، مفاتيح الجنان، دار نشر أسوة، قم، ٢٠١٠م.
٩٠. عباس القمي، منتهى الآمال في تواريخ النبيّ والآل، دار نشر دليل ما، ط١، ٢٠٠٠م.
٩١. عبد الحسين الأميني، الغدير في الكتاب والسنّة والأدب، مركز الغدير، ط١، قم، ١٤١٦هـ.ق.

٩٢. عبد الحسين الأميني، فاطمة الزهراء أمّ أبيها، دار نشر استقلال، طهران، ١٩٩٧م.
٩٣. عبد الحسين خسروپناه، كلام جديد، مركز الدراسات والبحوث الثقافية في حوزة قم العلمية، قم، ٢٠٠٠م.
٩٤. عبد الحسين شرف الدين الموسوي، النصّ و الاجتهاد، تحقيق: أبو مجتبى، قم، ١٤٠٤ ق.
٩٥. عبد الحسين شرف الدين، المراجعات، تحقيق: حسين الراضي، طُبع على نفقة الجمعية الإسلامية، ط٢، بيروت، ١٤٠٢هـ.ق.
٩٦. عبد الحميد بن هبة الله (ابن أبي الحديد)، شرح نهج البلاغة، تصحيح: محمد أبوالفضل إبراهيم، مكتبة دار إحياء الكتب العربية، ط١، القاهرة، ١٣٧٨هـ.ق.
٩٧. عبد الرحمن بن أحمد (عضد الدين الإيجي)، شرح المواقف، ط١، قم، ١٣٢٥هـ.ق.
٩٨. عبد الرحمن بن الكمال (جلال الدين السيوطي)، الإتقان في علوم القرآن، تحقيق: سعيد المندوب، دار الفكر، ط١، بيروت، ١٤١٦هـ.ق.
٩٩. عبد الرحمن بن الكمال (جلال الدين السيوطي)، الجامع الصغير في أحاديث البشير النذير، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ط١، بيروت، ١٤٠١هـ.ق.
١٠٠. عبد الرحمن بن الكمال (جلال الدين السيوطي)، الدرّ المنثور في التفسير بالمأثور، مكتبة دار الفكر، بيروت، ١٤١٤هـ.ق.
١٠١. عبد الرحمن بن الكمال (جلال الدين السيوطي)، تاريخ الخلفاء، دار صادر، ط٢، بيروت، ١٤٢٤هـ.ق.
١٠٢. عبد الرحمن بن محمد (ابن الأنباري)، الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين البصريين والكوفيين، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة.
١٠٣. عبد الرحمن بن محمد (ابن خلدون)، تاريخ ابن خلدون، ترجمه إلى الفارسية: عبد المحمد آيتي، معهد بحوث العلوم الإنسانية والدراسات الثقافية، ط٢، طهران، ١٩٩٦م.
١٠٤. عبد الرزاق المقرّم، الصديقة فاطمة الزهراء، مكتب النشر الإسلامي، قم، ١٩٩٣م.
١٠٥. عبد الرزاق بن عليّ اللاهيجي، گوهر مراد، دار نشر سايه، ط١، طهران، ٢٠٠٤م.
١٠٦. عبد العلي بن جمعة الحويزي، تفسير نور الثقلين، تحقيق: هاشم الرسولي المحلاتي، مكتبة إسماعيليان، ط٤، قم، ١٤١٥هـ.ق.
١٠٧. عبد العلي موحدي، امامت تطبيقى: پژوهشى در مفهوم امامت از ديدگاه شيعه واهل تسنن، دار نشر رادنگار، قم، ٢٠٠٦م.

١٠٨. عبد العليم عبد العظيم البستوي، المهديّ المنتظر في ضوء الأحاديث والآثار الصحيحة، دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع، ط١، بيروت، ١٤٢٠هـ.ق.

١٠٩. عبد الكريم بي آزار شيرازي، راز كوه ها، دار نشر بعثت، طهران، ١٩٧٠م.

١١٠. عبد الله بن جعفر الحميري، قرب الإسناد، مكتبة نينوى الحديثة، طهران.

١١١. عبد الله بن محمد الناشئ (ابن شرشير)، مسائل الإمامة، مركز دراسات الأديان والمذاهب، ط١، قم، ٢٠٠٧م.

١١٢. عبد الله بن مسلم (ابن قتيبة)، الإمامة والسياسة المعروف بتاريخ الخلفاء، تحقيق: علي شيري، دار الأضواء، بيروت، ١٤١٠هـ.ق.

١١٣. عبد الله جوادي آملي، عصاره خلقت: درباره امام زمان، مركز نشر إسراء، قم، ١٩٩٩م.

١١٤. عبد الله شبّر، حقّ اليقين في معرفة أصول الدين، أنوار الهدى، ط٢، قم، ١٤٢٤هـ.ق.

١١٥. عبدالله بن عمر بن محمّد الشيرازيّ البيضاويّ، أنوار التنزيل و أسرار التأويل، دار الكتب العلميّة، بيروت، ١٤٢٠ ق.

١١٦. عبد الواحد بن محمد الآمدي، غرر الحكم ودرر الكلم، تصحيح: مهدي رجائي، دار الكتب الإسلامية، قم، ١٤١٠هـ.ق.

١١٧. عبيد الله بن عبد الله الحسكاني، شواهد التنزيل لقواعد التفضيل، تصحيح وتعليق: محمد باقر المحمودي، مجمع إحياء الثقافة الإسلامية، ط١، طهران، ١٤١١هـ.ق.

١١٨. علي أكبر القرشي البنابي، قاموس قرآن، دار الكتب الإسلامية، طهران، ١٩٧٣م.

١١٩. علي أكبر الهمداني، پيوند معنوى با ساحت قدس مهدوى، دار نشر بدر، طهران، ١٩٨٢م.

١٢٠. علي أكبر مهدي پور، راز طول عمر امام زمان از ديدگاه علم واديان، دار نشر طاووس بهشت، ط٣، قم، ١٩٩٩م.

١٢١. علي بن أبي علي (سيف الدين الآمدي)، غاية المرام في علم الكلام، دار الكتب العلمية، ط١، بيروت، ١٤١٣هـ.ق.

١٢٢. علي بن إسماعيل (أبوالحسن الأشعري)، مقالات الإسلاميين واختلاف المصلّين، تصحيح: نواف الجرّاح، دار صادر، ط٢، بيروت، ١٤٢٩هـ.ق.

١٢٣. علي بن الحسين (زين العابدين عليه السلام)، الصحيفة السجادية، مكتب نشر الهادي، ط١، ١٩٩٦م.

١٢٤. علي بن محمد (ابن الأثير)، الكامل في التاريخ، دار صادر، بيروت، ٢٠٠٦م.

١٢٥. علي بن موسى (ابن طاووس)، إقبال الأعمال، دار الكتب الإسلامية، ط٢، طهران، ١٣٩٠هـ.ق.

١٢٦. علي قُلي جديد الإسلام، سيف المؤمنين في قتال المشركين، برعاية: رسول جعفريان، دار نشر أنصاريان، طهران.

١٢٧. عليّ الحسيني الإسترآبادي، تأويل الآيات الظاهرة، تحقيق: أستاد ولي، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين، ط١، قم، ١٤٠٩هـ.ق.

١٢٨. عليّ الحسيني الميلاني، با پيشوايان هدايتگر، دار نشر حقائق، قم، ٢٠٠٩م.

١٢٩. عليّ الحسيني الميلاني، مع الأئمّة الهداة في شرح الزيارة الجامعة الكبيرة، دار الحقائق، قم، ١٤٣٢هـ.ق.

١٣٠. عليّ بن إبراهيم الحلبي، السيرة الحلبية (المسمّاة إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون)، دار المعرفة، بيروت.

١٣١. عليّ بن إبراهيم القمي، تفسير القمي، تصحيح: طيّب الموسوي الجزائري، مؤسسة دار الكتاب، ط٣، قم، ١٤٠٤هـ.ق.

١٣٢. عليّ بن الحسن (ابن عساكر)، تاريخ مدينة دمشق، تحقيق: علي شيري، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ١٤١٥هـ.ق.

١٣٣. عليّ بن الحسين (أبوالفرج الأصفهاني)، مقاتل الطالبيين، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ط٣، بيروت، ١٤١٩هـ.ق.

١٣٤. عليّ بن الحسين المسعودي، إثبات الوصية للإمام عليّ بن أبي طالب عليه السلام، منشورات أنصاريان، ط٣، قم، ١٤٢٦هـ.ق.

١٣٥. عليّ بن الحسين ابن بابويه، الإمامة و التبصرة من الحيرة، مدرسة الإمام المهديّ عجّل الله تعالى فرجه الشريف، قم، ١٤٠٤ق.

١٣٦. عليّ بن الحسين السيّد الشريف المرتضى (المعروف بعلم الهدى)، رسائل، إعداد: السيّد مهديّ رجائيّ، دار القرآن الكريم، قم، ١٤٠٥ق.

١٣٧. عليّ بن حسام الدين (المتّقي الهندي)، كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، تحقيق: بكري حياني، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٠٩هـ.ق.

١٣٨. عليّ بن عيسى الأربلي، كشف الغمّة في معرفة الأئمّة، تصحيح: هاشم رسولي المحلاتي، مكتبة بني هاشمي، تبريز،١٣٨١هـ.ق.

١٣٩. عليّ بن محمد (ابن المغازلي)، مناقب الإمام عليّ بن أبي طالب، دار الأضواء، ط٢، بيروت،

١٤١٢هـ ق.

١٤٠. عليّ بن محمد الخزّاز الرازي القمي، كفاية الأثر في النصّ على الأئمّة الاثني عشر، تصحيح: عبد اللطيف الحسني الكوهكمري الخوئي، منشورات بيدار، قم، ١٤٠١هـ ق.

١٤١. عليّ بن محمد القوشجي، شرح تجريد العقائد، دار نشر رضيّ، قم، بيدار وعزيزي.

١٤٢. عليّ بن محمّد الّيثيّ الواسطيّ، عيون الحكم و المواعظ، تصحيح: حسين الحسنيّ البيرجنديّ، دار الحديث، قم، ١٣٧٦ ش.

١٤٣. عليّ بن موسى (ابن طاووس)، جمال الأسبوع بكمال العمل المشروع، دار الذخائر، قم، ١٣٣٠هـ ق.

١٤٤. عليّ بن موسى (ابن طاووس)، سعد السعود للنفوس منضود، تحقيق: مركز الأبحاث والدراسات الإسلامية، بوستان كتاب، ط١، قم، ١٤٢٢هـ.

١٤٥. عليّ بن موسىٰ ابن طاووس، الدروع الواقية، مؤسّسة آل البيت عليهم السلام، قم، ١٤١٤ ق.

١٤٦. عليّ بن موسىٰ ابن طاووس، الطرائف في معرفة مذاهب الطوائف، مطبعة الخيّام، قم، ١٤٠٠ ق.

١٤٧. عليّ بن موسىٰ ابن طاووس، فلاح السائل و نجاح المسائل، بوستان كتاب قم (مركز الطباعة و النشر التابع لمكتب الإعلام الإسلاميّ)، قم.

١٤٨. عليّ ربّاني الگلپايگاني، امامت در بينش اسلامى، بوستان كتاب (مركز الطباعة والنشر لمكتب الإعلام الإسلامي في حوزة قم العلمية)، قم.

١٤٩. علىاكبربن محمد دبيرالدين صدر الإسلام الهمداني، تكاليف الأنام في غيبة الامام، رشد، ١٣٥٤ ش.

١٥٠. فخرالدين بن محمد الطريحي، مجمع البحرين، تحقيق: أحمد الحسيني الأشكوري، دار نشر مرتضوي، ط٢، طهران، ١٩٨٦م.

١٥١. فرات بن إبراهيم الكوفيّ، تفسير فرات الكوفيّ، تصحيح: محمّد الكاظم، مؤسّسة التاريخ العربيّ، بيروت، ١٤٣٢ ق.

١٥٢. فردريك تشارلز كابلستن، تاريخ فلسفه، دار المنشورات العلمية والثقافية، طهران، ١٩٨٣م.

١٥٣. فضل الله بن عليّ الراونديّ الكاشانيّ، النوادر تحقيق: سعيد رضا عليّ عسكريّ، دارالحديث، قم، ١٣٧٧ش.

١٥٤. لطف الله الصافي الكلبايكاني، معارف دين ، مؤسسة منشورات السيدة المعصومة، قم.

١٥٥. لطف الله الصافي الكلبايكاني، منتخب الأثر في الإمام الثاني عشر، مؤسسة السيدة المعصومة،

قم، ٢٠٠٦م.
١٥٦. لطف الله الصافي الكلبايكاني، نظام امامت ورهبرى، مؤسسة الإمام المهدي، طهران، ١٩٨١م.
١٥٧. مجتبى القزويني، بيان الفرقان في توحيد القرآن، دار الكتب، طهران، ١٩٩٢م.
١٥٨. مجموعة العلماء المعاصرين، مونسما، جون كلوفر، اثبات وجود خدا، ترجمه إلى الفارسية: آرام والآخرين، مكتبة الحاج محمد باقر كتابچي، تبريز، ١٩٦٦م.
١٥٩. مجموعة من الباحثين، دانستنى هاى جهان علم، ترجمه إلى الفارسية: أحمد راد، شركة النشر المساهمة، طهران، ١٩٦٨م.
١٦٠. مجموعة من كتب الرواية الأوّليّة في عصر الأئمّة المعصومين عليهم السلام، الأُصول الستّة عشر من الأُصول الأوّليّة، تحقيق: ضياء الدين المحموديّ، مؤسّسة دار الحديث الثقافيّة، قم، ١٤٢٣ ق.
١٦١. محمد الصادقي، بشارات عهدين در آنچه پيغمبران الهى راجع به پيغمبر اسلام پيشگوئى كردند، دار الكتب الإسلامية، طهران.
١٦٢. محمد المحمدي الريشهري، أهل البيت في الكتاب والسنّة، تحقيق: دار الحديث، ط٢، قم، ١٩٩٦م.
١٦٣. محمد المحمدي الريشهري، تفسير قرآن ناطق يا شرح زيارت جامعه كبيره، دار نشر مشعر، طهران، ٢٠٠٩م.
١٦٤. محمد المحمدي الريشهري، دانشنامه عقايد اسلامى از نگاه قرآن وحديث، دار الحديث، قم، ٢٠٠٦م.
١٦٥. محمد المحمدي الريشهري، دانشنامه قرآن وحديث، مؤسسة دار الحديث العلمية الثقافية، قم.
١٦٦. محمد المحمدي الريشهري، موسوعة العقائد الإسلامية في الكتاب والسنّة، دار الحديث، ط١، قم، ١٤٢٥هـ.ق.
١٦٧. محمد باقر الهمداني، ترجمة تفسير الميزان، مكتب النشر الإسلامي التابع لجماعة المدرسين، ط٥، قم، ١٩٩٥م.
١٦٨. محمد باقر بن محمد تقي المجلسي، بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمّة الأطهار، دار الكتب الإسلامية، ط٤، طهران، ١٩٨٣م.
١٦٩. محمد باقر بن محمد تقي المجلسي، حقّ اليقين، المنشورات العلمية الإسلامية، مشهد.
١٧٠. محمد باقر بن محمد تقي المجلسي، حياة القلوب، دار نشر سرور، ط٦، قم، ٢٠٠٥م.

١٧١. محمد بن أبي القاسم الطبري، بشارة المصطفى لشيعة المرتضى، تحقيق: جواد القيومي الإصفهاني، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين، ط١، قم، ١٤٢٠هـ.ق.
١٧٢. محمد بن أحمد (ابن إدريس الحلّي)، مستطرفات السرائر، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين، قم، ١٤٢٠هـ.ق.
١٧٣. محمد بن أحمد الأزهري، تهذيب اللغة، دار إحياء التراث العربي، ط١، بيروت، ٢٠٠١م.
١٧٤. محمد بن أحمد الذهبي، تذكرة الحفاظ، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
١٧٥. محمد بن أحمد القرطبي، تفسير القرطبي (الجامع لأحكام القرآن)، منشورات ناصر خسرو، ط١، طهران، ١٩٨٥م.
١٧٦. محمد بن إبراهيم النعماني، كتاب الغيبة، تحقيق: علي أكبر الغفاري، مكتبة الصدوق، طهران، ١٣٩٧هـ.ق.
١٧٧. محمد بن إسحاق (ابن النديم)، الفهرست، المركز الدولي لحوار الحضارات، طهران، ٢٠٠٢م.
١٧٨. محمد بن إسماعيل البخاري، صحيح البخاري، دار الأرقم، ط١، بيروت، ١٤٠٧هـ.ق.
١٧٩. محمد بن الحسن (الحرّ العاملي)، إثبات الهداة بالنصوص والمعجزات، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ط١، بيروت، ١٤٢٥هـ.ق.
١٨٠. محمد بن الحسن (الحرّ العاملي)، تفصيل وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة، مؤسسة آل البيت لإحياء التراث، ط١، قم، ١٤٠٩هـ.ق.
١٨١. محمد بن الحسن الصفّار، بصائر الدرجات، تصحيح: محسن كوچه باغي، مؤسسة الأعلمي، طهران، ١٤٠٤هـ.ق.
١٨٢. محمد بن الحسن الطوسي، الأمالي، تحقيق: مؤسسة البعثة، مكتبة دار الثقافة، ط١، قم، ١٤١٤هـ.ق.
١٨٣. محمد بن الحسن الطوسي، الاقتصاد في ما يتعلّق بالاعتقاد، دار الأضواء، ط٢، بيروت، ١٤٠٦هـ.ق.
١٨٤. محمد بن الحسن الطوسي، التبيان في تفسير القرآن، تحقيق: أحمد قصير العاملي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
١٨٥. محمد بن الحسن الطوسي، الرسائل العشر، مؤسسة النشر الإسلامي، قم، ١٩٨٤م.
١٨٦. محمد بن الحسن الطوسي، تهذيب الأحكام، تحقيق: حسن الموسوي الخرسان، دار الكتب الإسلامية، ط٤، طهران، ١٤٠٧هـ.ق.
١٨٧. محمد بن الحسن الطوسي، كتاب الغيبة، تحقيق: عباد الله الطهراني وعلي أحمد النهاوندي،

مؤسسة المعارف الإسلامية، ط٣، قم، ١٤٢٥هـ.ق.

١٨٨. محمد بن الحسن الطوسي، مصباح المتهجّد وسلاح المتعبّد، مؤسسة فقه الشيعة، ط١، بيروت، ١٤١١هـ.ق.

١٨٩. محمد بن الحسين (الشريف الرضي)، نهج البلاغة، تحقيق: صبحي الصالح، دار الهجرة، بيروت، ١٣٨٧هـ.ق.

١٩٠. محمد بن جرير الطبري، تاريخ الطبري (تاريخ الأمم والملوك)، تحقيق: محمد أبوالفضل إبراهيم، دار التراث، ط٢، بيروت، ١٩٩٩م.

١٩١. محمد بن جرير الطبري، جامع البيان في تفسير القرآن (تفسير الطبري)، دار المعرفة، ط١، بيروت، ١٤١٢هـ.ق.

١٩٢. محمد بن جعفر الإسترآبادي، البراهين القاطعة في شرح تجريد العقائد الساطعة، مكتب الإعلام الإسلامي، قم، ٢٠٠٣م.

١٩٣. محمد بن حسين (جمال الدين الخوانساري)، شرح غرر الحكم ودرر الكلم، تصحيح: جلال الدين حسيني أرموي، منشورات جامعة طهران، ط٣، طهران، ١٩٨١م.

١٩٤. محمد بن علي الصدوق، الأمالي، منشورات كتابچي، ط٩، طهران، ٢٠٠٥م.

١٩٥. محمد بن علي الصدوق، الاعتقادات، دار المفيد، ط١، قم، ١٤٣١هـ.ق.

١٩٦. محمد بن عليّ (ابن أبي جمهور)، عوالي اللئالئ العزيزية في الأحاديث الدينية، تصحيح: مجتبى العراقي، دار إحياء التراث العربي، ط١، بيروت، ١٤٣٠هـ.ق.

١٩٧. محمد بن عليّ (ابن شهرآشوب)، مناقب آل أبي طالب، تصحيح: هاشم الرسولي المحلاتي، مؤسسة منشورات العلامة، قم، طبع في المطبعة العلمية.

١٩٨. محمد بن عليّ الصدوق، التوحيد، تصحيح: هاشم الحسيني، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ط٤، بيروت، ٢٠٠٨م.

١٩٩. محمد بن عليّ الصدوق، الخصال، تصحيح: علي أكبر الغفاري، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ط١، بيروت، ١٤١٠هـ.ق.

٢٠٠. محمد بن عليّ الصدوق، صفات الشيعة، منشورات الأعلمي، طهران، ١٩٨٣م.

٢٠١. محمد بن عليّ الصدوق، علل الشرائع، تصحيح: محمد صادق بحر العلوم، منشورات المكتبة الحيدرية، النجف، ١٣٨٥هـ.ق.

٢٠٢. محمد بن عليّ الصدوق، عيون أخبار الرضا، تصحيح: مهدي الحسيني اللاجوردي، الناشر: رضا مشهدي، ط٢، ١٩٨٤م.

٢٠٣. محمد بن عليّ الصدوق، كمال الدين وتمام النعمة، تصحيح: علي أكبر الغفاري، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين، ط٢، قم، ١٤٠٥هـ ق.

٢٠٤. محمد بن عليّ الصدوق، معاني الأخبار، تصحيح: علي أكبر الغفاري، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ١٤١٠هـ ق.

٢٠٥. محمد بن عليّ الصدوق، من لا يحضره الفقيه، تصحيح: علي أكبر الغفاري، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين، ط٢،١٤٠٤هـ ق.

٢٠٦. محمد بن عليّ العلوي، المناقب، دار دليل ما، ط١، قم، ١٤٢٨هـ ق.

٢٠٧. محمد بن عمر (الفخر الرازي)، التفسير الكبير (مفاتيح الغيب)، دار إحياء التراث العربي، ط١، بيروت، ١٤٢٠هـ ق.

٢٠٨. محمد بن عمر الكشّي، اختيار معرفة الرجال (المعروف برجال الكشّي)، تصحيح: حسن المصطفوي، جامعة مشهد، ١٩٦٩م.

٢٠٩. محمد بن عيسى الترمذي، سنن الترمذي، تحقيق: عبد الوهاب عبد اللطيف، بيروت، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ط٢، ١٤٠٣هـ ق.

٢١٠. محمد بن محمد (ابن الأشعث)، الجعفريات أو الأشعثيات، مكتبة نينوى الحديثة، طهران، (المطبوع مع قرب الإسناد).

٢١١. محمد بن محمد الشعيري، جامع الأخبار، مكتبة الرضي، ط٢، النجف، ١٩٨٤م.

٢١٢. محمد بن محمد المفيد، الأمالي، تصحيح: حسين الأستاد ولي وعلي أكبر الغفاري، دار المفيد، ط١، قم، ١٤٣١هـ ق.

٢١٣. محمد بن محمد المفيد، الاختصاص، تصحيح: علي أكبر الغفاري و محمود الزرندي، دار الهدى، ط١، قم، ١٤٣١هـ ق.

٢١٤. محمد بن محمد المفيد، تصحيح اعتقادات الإمامية، تحقيق: حسن درگاهي، دار المفيد، ط١، قم، ١٤٣١هـ ق.

٢١٥. محمد بن محمد المفيد، تفضيل أمير المؤمنين عليه السلام، تصحيح: على موسى كعبى، كنگره شيخ مفيد، قم، ١٤١٣ق.

٢١٦. محمد بن مسعود العياشي، تفسير العياشي، تصحيح: هاشم الرسولي المحلاتي، المطبعة العلمية الإسلامية، طهران، ١٣٨٠هـ.ق.
٢١٧. محمد بن مكرم (ابن منظور)، لسان العرب، تصحيح: جمال الدين الميردامادي، دار صادر، ط٢، بيروت، ١٤١٤هـ.ق.
٢١٨. محمد بن يزيد (ابن ماجة)، سنن ابن ماجة، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت.
٢١٩. محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، القاموس المحيط، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢٠هـ.ق.
٢٢٠. محمد بن يعقوب الكليني، الكافي، تصحيح: علي أكبر الغفاري، دار الكتب الإسلامية، ط٥، طهران، ١٩٨٤م.
٢٢١. محمد بن يوسف الأندلسي، البحر المحيط في التفسير، تحقيق: محمد جميل صدقي، دار الفكر، بيروت، ١٤٢٠هـ.ق.
٢٢٢. محمد تقي الإصفهاني، مكيال المكارم في فوائد الدعاء للقائم، مدرسة الإمام المهدي، قم، ١٤٠٤هـ.ق.
٢٢٣. محمد تقي السبحاني، الگوى جامع شخصيت زن مسلمان، مركز مديرية الحوزات النسوية، قم، ٢٠٠٣م.
٢٢٤. محمد تقي مصباح اليزدي، آموزش عقايد، شركة الطباعة والنشر في مؤسسة الإعلام الدولي، طهران.
٢٢٥. محمد تقي مصباح اليزدي، جامعه وتاريخ از نگاه قرآن، مؤسسة الإعلام الإسلامي، ط٢، طهران، ١٩٩٣م.
٢٢٦. محمد تقي مصباح اليزدي، خودشناسى براى خودسازى، مؤسسة الإمام الخميني للتعليم والبحث العلمي، قم، ٢٠٠٦م.
٢٢٧. محمد تقي مصباح اليزدي، شرح المجلد الثامن من الأسفار، مؤسسة الإمام الخميني للتعليم والبحث العلمي، قم، ١٩٩٦م.
٢٢٨. محمد تقي مصباح اليزدي، معارف قرآن، مؤسسة الإمام الخميني للتعليم والبحث العلمي، قم، ١٩٩٩م.
٢٢٩. محمد تقي السبحاني، شخصيّة المرأة: دراسة في النّموذج الحضاريّ الاسلاميّ، مركز الحضاره لتنميه الفكر الاسلامي، ٢٠٠٨م.

٢٣٠. محمد جواد مغنية، تفسير الكاشف، دار الكتب الإسلامية، ط١، طهران، ١٤٢٣هـ.ق.
٢٣١. محمد حسن الخميني (إعداد)، توضيح المسائل لمراجع الدين، مكتب المنشورات الإسلامية، قم.
٢٣٢. محمد حسن المظفر، دلائل الصدق لنهج الحقّ، مؤسسة آل البيت لإحياء التراث، دمشق، ١٤٢٢هـ.ق.
٢٣٣. محمد حسن ميرجهاني الطباطبائي، جنّة العاصمة في تاريخ ولادة السيدة فاطمة، تصحيح: حامد فدوي اردستاني، نسيم كوثر، طهران، ٢٠١١م.
٢٣٤. محمد حسين الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، مكتب النشر التابع لجماعة المدرسين، ط٥، قم، ١٤١٧هـ.ق.
٢٣٥. محمد رشيد رضا، تفسير المنار (دروس الشيخ محمد عبده)، دار المنار، ط٤، مصر، ١٣٧٣هـ.ق.
٢٣٦. محمد صادق فخر الإسلام، أنيس الأعلام في نصرة الإسلام، تحقيق: عبد الرحيم خلخالي، منشورات مرتضوي، طهران، ١٩٧٤م.
٢٣٧. محمد كاظم القزويني، فاطمة الزهراء از ولادت تا شهادت، ترجمه إلى الفارسية: عليّ كرمي، دار نشر مرتضى، قم، ١٩٩٦م.
٢٣٨. محمد محسن بن علي (آقا بزرگ الطهراني)، الذريعة إلى تصانيف الشيعة، دار الأضواء، ط٣، بيروت، ١٤٠٣هـ.ق.
٢٣٩. محمد مرتضى الزبيدي، تاج العروس، دار الفكر، بيروت، ١٤١٤هـ.ق.
٢٤٠. محمود الطالقاني، پرتوى از قرآن، شركة النشر المساهمة، ط٤، طهران، ١٩٨٣م.
٢٤١. محمود بن عبد الله الآلوسي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، تحقيق: علي عبد الباري العطية، دار الكتب العلمية، ط١، بيروت، ١٤١٥هـ.ق.
٢٤٢. محمود بن عمر الزمخشري، الكشّاف عن حقائق غوامض التنزيل، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤٠٧هـ.ق.
٢٤٣. محمود بن محمد يزدي مطلق، امامت پژوهی: بررسی دیدگاه امامیه، معتزله واشاعره، جامعة العلوم الإسلامية الرضوية، مشهد، ٢٠٠٢م.
٢٤٤. محمود رجبي، انسان شناسی، مؤسسة الإمام الخميني للتعليم والبحث العلمي، ط٧، قم، ٢٠٠٥م.
٢٤٥. محمّد بن أحمد الفتّال النيشابوريّ، روضة الواعظين و بصيرة المتّعظين، منشورات الرضيّ، قم،

١٣٧٥ ش.

٢٤٦. محمّد بن الحسن (الحرّ العاملي)، الجواهر السنيّة في الأحاديث القدسيّة، مكتبة الطوس، مشهد، ١٣٨٤ ق.

٢٤٧. محمّد بن الحسن الحرّ العاملي، الفصول المهمّة في أُصول الأئمّة، تحقيق: محمّد بن محمّد الحسين القايينيّ، مؤسسة الإمام الرضا عليه السلام للمعارف الإسلاميّة، قم، ١٤١٨ ق.

٢٤٨. محمّد بن عبد الكريم الشهرستاني، الملل و النحلل، دارالمعرفة، بيروت.

٢٤٩. محمّد بن عليّ الصدوق، ثواب الأعمال و عقاب الأعمال، دارالشريف للنشر، قم، ١٤٠٦ ق.

٢٥٠. محمّد بن عليّ الصدوق، فضائل الشيعة، منشورات أعلميّ، طهران.

٢٥١. محمّد بن عليّ الكراجكيّ، كنز الفوائد، تصحيح: الشيخ عبد الله نعمة، منشورات دار الذخائر، قم، ١٤١٠ ق.

٢٥٢. محمّد بن محمّد المفيد، الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد، تحقيق: مؤسّسة آل البيت عليهم السلام، دار الهدى، قم، ١٤٣١ ق .

٢٥٣. محمّد محسن بن شاه مرتضى الفيض الكاشانيّ، تفسير الصافي، تصحيح: حسين الأعلميّ، مؤسّسة الأعلميّ للمطبوعات، بيروت، ١٤٠٢ ق.

٢٥٤. مرتضى العسكري، عوامل تحريف، المجمع العلمي الإسلامي، طهران.

٢٥٥. مرتضى العسكري، نقش أئمه در احياى دين، المجمع العلمي الإسلامي، طهران.

٢٥٦. مرتضى مطهري، آشنائى با علوم اسلامى: كلام، عرفان، حكمت عملى، دار نشر صدرا، طهران، ١٩٩٩م.

٢٥٧. مرتضى مطهري، انسان وسرنوشت، دار نشر صدرا، طهران، ١٩٩٤م.

٢٥٨. مرتضى مطهري، عدل الهى، دار نشر صدرا، ط٢، طهران، ١٩٨٢م.

٢٥٩. مرتضى مطهري، مجموعه آثار استاد شهيد مطهري، منشورات صدرا، ط١٠، طهران، ٢٠٠٤م.

٢٦٠. مرتضى مطهري، معاد، دار نشر صدرا، قم، ٢٠٠٨م.

٢٦١. مرتضى مطهري، مقدمه‌اى بر جهان بينى اسلام (جامعه وتاريخ)، دار نشر صدرا، طهران، ٢٠٠٩م.

٢٦٢. مسعود بن عمر التفتازاني، شرح المقاصد، تحقيق: عبد الرحمن عميرة، الشريف الرضيّ، ط١، قم، ١٤٠٩هـ.ق.

٢٦٣. مسلم بن الحجاج النيسابوري، صحيح مسلم، دار الفكر، بيروت.

٢٦٤. مقاتل بن سليمان، تفسير مقاتل بن سليمان، تحقيق: أحمد فريد، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢٤هـ.ق.

٢٦٥. مهدي كامران، ديرزيستى حضرت مهدى، دار نشر بدر، طهران، ١٩٨٠م.

٢٦٦. موريس مترلينك، زنبور عسل، ترجمه إلى الفارسية: ذبيح الله منصوري، دار نشر كانون معرفت، طهران.

٢٦٧. موريس مترلينك، زندگى موريانه، ترجمه إلى الفارسية: موسى فرهنگ، دار نشر فرّخي، طهران.

٢٦٨. ناصر مكارم الشيرازي، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزّل، مكتبة أهل البيت الإلكترونية.

٢٦٩. ناصر مكارم الشيرازي، تفسير نمونه، دار الكتب الإسلامية، ط٤٠، طهران، ٢٠٠٤م.

٢٧٠. ناصر مكارم الشيرازي، معاد وجهان معاد وجهان پس از مرگ، دار نشر سرور، قم، ٢٠٠٤م.

٢٧١. ناصر مكارم الشيرازي، پيام قرآن: روش تازه‌اى در تفسير موضوعى قرآن، دار الكتب الإسلامية، قم، ٢٠٠٣م.

٢٧٢. ناصر مكارم الشيرازي، پنجاه درس اصول عقايد براى جوانان، دار نسل جوان، قم.

٢٧٣. نعمان بن محمّد المغربيّ (ابن حيّون)، دعائم الإسلام و ذكر الحلال و الحرام و القضايا و الأحكام، دار المعارف، قاهرة، ١٣٨٣ ق.

٢٧٤. نعمة الله بن عبد الله الجزائري، النور المبين في قصص الأنبياء والمرسلين، مكتبة آية الله المرعشي النجفي، ط١، قم، ١٤٠٤هـ.ق.

٢٧٥. نور الله بن شريف الدين الشوشتري، إحقاق الحقّ وإزهاق الباطل، مكتبة آية الله المرعشي، قم.

٢٧٦. هبة الدين الشهرستاني، اسلام وهيئت، ترجمه إلى الفارسية: هادي خسروشاهي، بوستان كتاب، قم، ١٩٩٨م.

٢٧٧. ويليام ديورانت، تاريخ تمدن، ترجمه إلى الفارسية: أحمد آرام، دار نشر إقبال، طهران.

٢٧٨. ويليام جيمز، دين و روان، ترجمه إلى الفارسية: مهدى قائنى، دارالفكر، ١٣٨٧ ش.

٢٧٩. يحيى بن حسن (ابن بطريق)، عمدة عيون صحاح الأخبار في مناقب إمام الأبرار، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين، قم، ١٤٠٧هـ.ق.

٢٨٠. يوسف بن حاتم الشامي، الدرّ النظيم في مناقب الأئمّة اللهاميم، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين، ط١، قم، ١٤٢٠هـ.ق.

٢٨١. يوسف بن عبد الله (ابن عبد البرّ)، الإنباه على قبائل الرواة، تحقيق: إبراهيم الأبياري، دار الكتب العربية، ط١، بيروت، ١٤٠٥هـ.ق.